كتاب



الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجـــزء الثانى

طبـــع
بالمطبعة الأمـــيرية بالقاهرة
سنة ١٣٣١ هـ
١٩١٣ م



فهــــــرست الجزء الثـانى
من كتاب صبح الأعشىٰ

(تم فهرست الجزء الثانى من كتاب صبح الأعشىٰ)
ويليه الجزء الثالث وأوله

(الفصل الثانى من الباب الثانى من المقالة الأولىٰ
في الكلام علىٰ نفس الخط)

بســم الله الرحمن الرحيم

النوع الثـامن عشر

(المعــرفة بالأحكام الســلطانية)

ليعرف[1] كيف يخلص قلمه علىٰ حكم الشريعة المطهرة ، وما يشترط فى كل ولاية من الشروط ، فينبه عليها ويقف عندها ، وما يلزم ربَّ كل وظيفة من أرباب الوظائف وما يندب له ، فيورده فى وصاياه . وقد أورد أقضى القُضـاة أبو الحسن علىّ بن[2] حبيب المـاوردىّ رحمه الله فى الأحكام السلطانية مافيه مَقْنَع من ذلك ؛ ونحن نورد فى هذا الكتاب ، نَبْذةً من كل باب ، ممـا به يستغنِى الناظرُ فيه عن مراجعة غيره . والذى تكلم عليه الماوردىّ من الوظائف الأصولِ الإمامةُ ، والوزارة ، وتقليد الإمارة علىٰ البلاد ، وتقليد الإمارة علىٰ الجهاد ، والولاية علىٰ ضُروب المصالح ، وولاية القضاء ، وولاية المظالم ، وولاية النِّقابة علىٰ ذوى الأنســاب ، والولاية علىٰ إقامة الصلوات ، والولاية علىٰ الحج ، والولاية علىٰ الصدقات ، وقَسْم الفىء والغنيمة ، ووَضْع الجِزْية والخَراج ، ومعرفة ماتختلف أحكامه من البـلاد ، وإحياء الموات ، وآستخراج المياه ، والحِمىٰ ، والأوقاف ، وأحكام الإقطاع ، وأحكام الديوان ، وأحكام الجرائم ، وأحكام الحِسْبة . وأناأقتصر من ذلك هنا علىٰ ماتفضى إليه حاجة الكاتب من الأحكام ، دُونَ ماعداه من الفروع الزائدة علىٰ ذلك ؛ فإذا عرف حكم كل ولاية من

(١) أى الكاتب . (٢) هو على بن محمد بن حبيب انظر كشف الظنون .

هذه الولايات،وما يوجب توليتها، وما يعتبر فى متوليهـا من الشروط، وما يلزمه من الأمور إذا تولاها،وما ينافى أمورَها، ويجانب أحوالَها،عرف مايأتى من ذلك، وما يَذَر،فيكون ماينشئه من البيْعات، والعُهود، والتقاليد، والتفاويض، والتواقيع، وما يجرى مجرىٰ ذلك جاريا منه علىٰ السداد،ماشيا علىٰ القواعد الشرعية التى من حاد عنها ضلَّ، ومن سلك خلاف طريقها زلَّ. وكذلك المناشير المتعلقة بالإقطاعات، وعقد الجزية والمُهادَنَات والمفاسَخَات، وما يجرى مجرىٰ ذلك من الأمور السلطانية. فإذا عرف حكم كل قضية،وما يجب علىٰ الكاتب فيها، وفَّاهـا حقها، وأتىٰ بذكر مايتعلق بها من الشروط، وجرىٰ فى وصاياَ الولايات بمـا يناسب كل ولاية منهـا؛ فجرىٰ الأمر فى ذلك علىٰ السَّداد، ومشَتْ كتابته فيها علىٰ أتم المراد؛ إن كتب بَيْعة، أو عهدًا الخليفة، تعرّض فيه إلىٰ وجوب القيام بأمر الخلافة، ونَصْبِ إمام للنـاس يقوم بأمرهم، وتعرّض إلىٰ آجتماع شروط الخـلافة فى المولّىٰ، وأنه أحق بها من غيره. ثم إن كانت بيعة نشأت عن موت خليفة، تعرّض لذكر الخليفة الميت، وما كان عليه أمره من القيام بأعباء الخلافة، وأنه دَرَج بالوفاة، وأن المولّىٰ آستحقها من بعده دون غيره. وإن كانت ناشـئة عن خلع خليفـة تعرّض للسبب الموجب لخلعه: من الخروج عن سَنَن الطريق، والعدول عن مَنْهَج الحق ونحو ذلك مما يوجب الخلع لتصح ولاية الثانى. وإن كان عهدا تعرّض فيه إلىٰ عهد الخليفة السابق إليه بالخلافة، وأنه أصاب فى ذلك الغرض، وجرىٰ فيه علىٰ سَوَاء الصراط، ونحو ذلك ممـا يجرى هـذا المجرىٰ من سائر الولايات علىٰ ما سيأتى ذكره فى مواضعه إن شاء الله تعالىٰ.

وهذه فقرة من بيعة أنشأتها توضح ماأشرت إليه من ذلك.

فمن ذلك ماقلته فيها مشيرا إلى وجوب القيام بالإمامة :

أما بعد، فإن عقد الإمامة لمن يقوم بها من الأمة واجب بالإجماع، مستند لأقوىٰ دليل تنقطع دون نقضه الأَطْماع، وتنبو عن سماع مايخالفه الأسماع .

ومن ذلك ماقلته فيها مشيرا إلىٰ آجتماع شروط الخلافة فى المولّى وهو : وكان فلان أمير المؤمنين ، هو الذى جمع شروطها فَوَفَّاها ، وأحاط منها بصفات الكمال وآستوفاها ،ورامت به أدنىٰ مراتبها فبلغت أغياها ،وتسوّر مَعاليَهَا فَرقِىَ إلىٰ أعلاها ، وآتحد بها فكان صورتَها ومعناها .

ومن ذلك ماقلته فيها مشيرا إلىٰ عقد البَيْعة : فجمع أهلَ الحل والعَقْد، المعتبرِين للآعتبار والعارفين بالنقد : من القضاة والعلماء ، وأهل الخَيْر والصُلَحاء ، وأرباب الرأى والنُّصَحاء، وآستشارهم فى ذلك فصوّبوه، ولم يروا العدُول عنه إلىٰ غيره بوجه من الوجوه .

ومن ذلك ماقلته فيها مشيرا إلىٰ القبول ، وقابل عَقْدَها بالقَبُول بمحضر من القضاة والشهود فلزمت ، ومضىٰ حكمُها علىٰ الصحة فانبرمت ، إلىٰ غير ذلك مما ينخرط فى هذا من سائر الولايات وغيرها .

قلت : وكما يجب عليه معرفة الأحكام السلطانية، يتعين عليه معرفة ماعدا ذلك من الأمور الصناعية التى ينتظم أصحابها فى سلك الولايات كالهندسة ونحوها، وسيأتى التنبيه فيما يجب علىٰ كل واحد من أرباب الولايات عند ذكر ولاية كل منهم فى موضعها إن شاء الله تعالىٰ .

الطرف الثانى

(فى معرفة ما يحتاج الكاتب إلىٰ وصفه فى أصناف الكتابة مما تدعوه ضرورة الكتابة إليه علىٰ آختلاف أنواعها، ويشتمل علىٰ أنواع)

النوع الأوّل

(ممـا يحتاج إلىٰ وصفه النوعُ الإنسانى، وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(أوصافه الجسمية، وهى علىٰ ثلاثة أقسام)

القسم الأوّل

(مايَشترِك فيه الرجال والنساء، وهى عِدّة أمور)

منهـا حُسْن اللون، والألوانُ فى البَشَر، ترجِع إلىٰ ثلاثة أصول : وهى البياض، والسُّمْرة، والسَّواد ؛ ويعبَّر عن السواد بشدّة الأُدْمة ، وربما عبر عن البياض برِقّة السُّمْرة. ويستحسن من هـذه الألوان البياضُ ؛ وأحسنُ البياض ما كان مُشْرَبا بحمرة، وقد جاء فى حديث ضِمام بن ثعلبة أنه حين سألَ عن النبى صلى الله عليه وسلم عند وُفُوده عليه بقوله : "أيُّكم ابنُ عبدِ المُطَّلب ؟ قيل هو ذاك الأمغَرُ المُتَّكئُ" ، والامغرهو المُشْرَب بحمرة، اخذا من المَغْرة : وهى الصِّبْغ المعروف. وقد جاء فى وصفه صلى الله عليه وسلم انه "أزْهَرُ اللَّوْن" . والأزهر هو الأبيضُ بصُفْرة خفيفةٍ . والسُّمْرة مستحسَنة عنـد كثير من الناس ، وهو الغالب فى لون العَرَب ، وقد قيل فى قوله صلى الله عليه وسلم ، "بُعِثْتُ إلىٰ الأحْمَرِ والأسْوَدِ" إن المراد بالأحمر العجم لغلبة البياض فيهم، والمراد بالأسود العربُ لغلبة السُّمرة فيهم ؛ أما السواد فإنه غير ممدوح بل قد ذمَّ الله تعالىٰ السواد، ومدح البياض بقوله ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ الآية. علىٰ أن كثيرا من الناس قد جَنَحُوا إلىٰ آستحسان السُّودان والميل إليهم، وتأنقوا فى الآحتفال بأمرهم؛ وقد نص أصحابنا الشافعية علىٰ أنه لو قال لزوجته إن لم

تكونى أحسن من القمر فأنت طالق و إن كانت زنجيةً سوداء، فقد قال تعالىٰ ﴿وصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ . و بالجملة فالحَسَن فى كل لون مستحسن ولله القائل :

إن المَلِيحَ مَلِيحٌ * يُحَبُّ فى كُلِّ لَوْنِ

ومنها حُسْن القدّ، وأحسنُ القدُود الرَّبْعة : وهو المعتدل القامة، الذى لا طُول فيه ولا قصَر، وليس كما يقع فى بعض الاذهان من أنَّ المراد منه دُون الاعتدال . وقد جاء فى وصف النبى صلى الله عليه وسلم، "أنَّهُ كان رَبْعَةً" . و يستحسن فى القدّ القَوَام والرَّشَاقة، و يشبَّه بالرمح و بالغُصْن ، وأكثر ما يشبه به فى ذلك أغصان البان لقَوَامها .

ومنها سواد الشعر، وأكثر ما يكون ذلك فى السُّمْر، فإن آجتمع مع البياض سواد الشعر كان ذلك فى غاية من الحسن، و يشبَّه سواد الشعر بالليل، و ربما وقعت المبالغة فيه فشُبِّه بفَحْمة الليل، و بدُجىٰ الليل، و بفَحْمة الدُّجىٰ، وقد يشبَّه بالآبنُوس ونحوه مما يغلب فيه حَلَك السَّواد. وقد اختلف الناس فى جُعُودة الشعر وسُبُوطته ايهما احسن؟ فذهب قوم إلىٰ استحسان الجُعودة : وهى آنقباض الشعر بعض آنقباض وهو مما يستحسنه العرب، و إليه ذهب الفقهاء حتّى لو شرط البائع فى عبد كونَه جعدَ الشعر وظهر سَبِطَ الشعر رُدّ بذلك بخلاف العكس . وذهب آخرون إلىٰ آستحسان السُّبُوطة، وهى آسترسال الشعر وآنبساطه من غير آنكماش، وأكثر ما يوجد ذلك فى الترك ومَنْ فى معناهم . ثم الذاهبون إلىٰ آستحسان الجُعُودة يستحسنون التواء شعر الصُّدْغ، و يشبِّهونه بالواو تارَة و بالعقرب أُخرىٰ .

ومنها وضوح الجبين، وسَعةُ الجبهة، وآنحسارُ الشعر عنها، فيُستقبَحُ الغَمَم : وهو عموم الجبهة أو بعضها بشعر الرأس .

ومنها وَسَامة الوجه وحُسْن المُحَيَّا . و يشبَّه الوجه فى الحسن بالشمس، و بالقمر،

وبالسيف إلا أن التشبيه بالشمس وبالقمر أتمُّ من التشبيه بالسيف لما فيه من صورة الاستطالة ؛ وقد جاء فى بعض الآثار أنه قيل لبعض الصحابة رضى الله عنهم : "هل كان وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم كالسيف ؟ فقال بل كالشمس والقمر" .

ويستحسن فى الوجه حمرةُ الوجنتينِ ؛ ويشبَّه لونُهما بالورد، وبالشَّقيق، وبالعَقيق، وبالعَنْدَم، وما يجرى مَجْرىٰ ذلك مما تغلب فيه الحمرة المُشرِقَة .

ومنها بَلَج الحاجبين وزَجَجُهما، فالبَلَجُ انقطاع شعر الحاجبين : بأن لايكون بينهما شعَر يصل ما بينهما، وهو خلاف القَرَن ؛ وربما استُحسن الخفىُّ من القَرَن، وهو الذى دقَّ فيه شعر ما بين الحاجبين حتّى لايظهر فيه إلا خضرة خفِيَّة . والزَّجَج دقة الحاجب مع طوله بحيث ينتهى إلىٰ مُؤْخِر العين، وقد جاء فى وصف النبى صلى الله عليه وسلم "أنَّهُ كانَ أَزَجَّ الحاجِبَيْنِ" .

ويستَحْسَن فى الحاجبين سواد شعرهما، وأن يكونا مقوَّسين ؛ ويشبَّه تقويسُهما بالنون تارة، وبالقوس أُخرىٰ .

ومنها حُسْن العينين ؛ ويستحسَنُ فى العين الحَوَر : وهو خُلُوص بياض العين، والنَّجَل وهو سعَتُها ويقال فيه حينئذ أَنْجَلُ وربما قيل أَعْيَنُ، ومنه قيل للحُورِ عِين، والدَّعَج : وهو شِدّة سواد الحَدَقة، والكَحَل : وهو أن تسودّ مواضع الكُحْل من العين خِلْقة .

وتشبه العين بالصاد تارة، وبالجيم أُخرىٰ . وتشبه بالنَّرْجس وربما شبهت بنَوْر الباقِلّى ؛ واعتُرِض بأن فيه حوَلا . وربما شبهت العينُ بالسيف، وبالسَّهْم، وبالسِّنان . وقد يستحسن فى العينين الفُتُور وضعفُ الأجفان .

ومنها حُسْن الأنف ؛ ويستحسن فيه القَنَا : وهو ارتفاع وسطِ الأنف قليلا عن طرفيه مع دِقَّة فيه، وهو الغالب فى العرب ؛ وقد جاء فى وصفه صلى الله عليه وسلم "أنَّهُ كان أقْنىٰ الأَنْفِ" . ويستحسن فيه الشَّمَم أيضا : وهو استواء قَصَبة الأنف وعلُوُّ أَرْنبته . ويشبه الأنف بالسيف فى بَرِيقه .

ومنها حسن الفَمِ . ويستحسن فيه الضِّيق . ويشبَّه بالميم، وبالصاد، وبالخاتم.

ومنها حُسْن الشفتين . ويُستحسن فيهما الحمرة . وتشبه حُمْرتهما بما تُشَبَّه به الوجنة من الورد والعقيق والمرجان ونحوها . ويستحسن فيهما اللَّمَى : وهو سمرة تعلو حمرتَهما .

ومنها حسن الأسنان . ويستحسن فيها الشَّنَب : وهو بياض وبريق يعلوهما. وتشبه الأسنان فى البياض وحُسْن النظم باللؤلؤ، وبالبَرَد، وبالطَّلْع : وهو نبت أبيض، وبالأَقَاح، وبالحَبَب : وهو الذى يعلو الكأس عند شجِّه(١) بالماء. وقد تشبه بالجوهر، ويستحسَن فيها الأَشَر : وهو تحديد الأسنان كما يقع فى كثير من الصِّبيان، ويستحسن فى السِّنْخ : (وهو لحم الأسنان) حمرة لونه. ويشبه بالعقيق والورد وسائر مايشبه به الخدّ

ومنها حسن الجِيد : وهو العنق. ويستحسن فيه طُوله وبياضُه من الأبيض . ويشبه بإبريق فضة .

ومنها دِقَّة الخَصْر، وهو مَعْقِد الإزار حتَّى إنهم يشبهونه بدَوْر دُمْلُج، ودور خَلْخال وما أشبه ذلك .

قلت : وهذه الصفات وإن كانت مستحسنة فى الرجال والنساء جميعا فإنها فى النساء آكدُ . فإن الأمر فى الحسن منوط بهن، فمهما كانت المرأة أحسنَ كان أعظم لشانها، وأعز لمكانها ؛ وقد قيل لرجل من بني عُذْرة : ما بال الرجُل منكم يموتُ فى هوى امرأة إنما ذلك لضعف فيكم يابنى عُذْرة ـ فقال "أما والله لو رأيتم النَّواظر الدُّعْج، فوقها الحواجب الزُّجّ، تحتها المَبَاسم الفُلْج، لاتَّخذتموها اللاتَ والعزَّى !"

وقد أكثر الشعراء من التغزل بهذه المحاسن بما ملأ الدفاتر مما لا حاجة بنا إلى ذكره هنا .

(١) أى مزجه يقال شج الخمر بالماء اذا مزجها به . انظر اللسان

القسم الثـانى

(ما يختص به الرجال)

وأخص ما يختص به الرجال من المحاسن اللِّحية ، وقد قيل فى قوله تعالى ﴿ يَزِيدُ فِى الخَلْق ما يَشَاء ﴾ إن المراد اللحية ، علىٰ خلاف فى ذلك . ويستحسن فى اللحية آستدارتها وتوسُّطها فى المقدار، وسواد شعرها . فإذا حسُنت اللحية من الرجل كُملت محاسنه . وتزيد الأحداث علىٰ الرجال فى الحُسْن بمقدّمات ذلك : فيستحسن منهم خُضْرة الشارب، وخُضْرة العارض والعذار،ويشبه كل منهما بالآس ، وبالريحان، وبدَبِيب النمل ونحو ذلك . ويشبَّه العذار بالألف، وباللام، وبالباء . ويشبه الشارب الأخضر فوق حمرة الشفتين بقوس قُزَحَ ، وبالآس مع الورد ونحو ذلك؛ علىٰ أن أهل الفِرَاسة قد آستحسنوا فى الرجل أمورا تخالف ماتقدّم .

منها سَعَة الفم وغِلَظ الشفتين وما أشبه ذلك قائلين إن ذلك مما يدل علىٰ الشجاعة وهو أمر مطلوب فى الرجل كما تقدّم .

القسم الثالث

(ما يختص به النسـاء)

ومما ينفرد به النساء من الأوصاف الجسميَّة السِّمَنُ، فهو أمر مَطلوب فى المراة ما لم يُفْرِط ويخرُج عن الحـدّ المطلوب؛ ففى الصحيحين من حديث أمِّ زرع "بنتُ أبِى زَرْعٍ وما بِنْت أبى زَرْع؟ مِلْءُ كِسائهـا ، وغَيْظُ جارِتها " إشارة إلىٰ امتلائها بالشحم. ووصف أعرابىّ آمرأة فقال "بيَضْاءُ رُعْبُوبه، بالشَّحْم مَكْروبه، بالمِسْك مَشْبُوبه" . وهذا بخلاف الرجال فإن المطلوب فيهم الخِفَّة وقلة اللحم لأجل قوّة النَّهْضة، وسرعة الحركة فى الحرب وغيره، والسِّمَن يمنع ذلك، مع ما يقـال إن فيه تبليدا للذهن قال بعضهم : "ما رأيت حَبْرا سمينا إلا محمد بن الحسن" يعنى

صاحب أبى حنيفة رضى الله عنه . وربما آستحسن قلة اللحم فى المرأة أيضا، وتوصف حينئذ بالهَيَف .

ومن ذلك ثِقَل الرِّدف فهو مما يتمدّح به فى النساء بخلاف الرجل فإن ذلك فيه غير محمود .

ومن غريب ما يحكىٰ فى ذلك أن رجلا أخذ خَطَرا من قوم علىٰ أن يُغْضِب معاوية بنَ أبى سُفْيان مع غلبة حِلْمه، فعمد إلىٰ معاوية وهو ساجد فى الصلاة، فوضع يده علىٰ عجيزته وقال: ماأشبه هذه العجيزةَ بعجيزة هند! — يعنى أم معاوية — فلما سلم من صلاته، التفت إلىٰ ذلك الرجل وقال : "يا هذا إن أبا سفيان كان محتاجا من هند إلىٰ ذلك و إن كان أحد جعل لك شيئا علىٰ ذلك فخذه" .

ومما يستحسن فى المرأة طول الشعر فى الرأس، ودِقَّة العظم، وصغَر القدم، ونُعُومة الجسد، وقلة شعر البدن، فى أمور أخرىٰ يطول ذكرها .

الضرب الثانى

(الصفات الخارجة عن الجسد، وهى علىٰ ثلاثة أقسام أيضا)

القسم الأوّل

(ما يشترك فيه الرجال والنساء)

وهو يرجع إلىٰ أصلين : العقلِ والعِفَّة ؛ ويدخل تحت كل من هذين الأصلين عِدّة من أوصاف المدح . فأمّا العقل فيدخل تحته العلم . وصفاته المعرفة، والحياء، والبيان، والسِّياسة، والكِفَاية، والصَّدْع بالحُجّة، والحلم عن سفاهة الجَهَلة وغير ذلك مما يجرى هذا المجرىٰ . ولا يخفى أن هذه الأوصاف مطلوبة فى الرجال والنساء جميعا و إن كان أكثرها بالرجال أليق .

وأما العِفَّة فيدخل تحتها القَناعة ، وقِلَّة الشَّرَه، وطهارة الإزار، وغير ذلك مما لايستغنِى عنه رجل ولا آمرأةٌ؛ و إذا رُكِّب العقلُ مع العفَّة حدث عنهما صفاتٌ أُخرىٰ مما يتمدّح به: كالنَّزاهة، والرغبة عن المسألة، والاقتصار علىٰ أدنى معيشة، ونحو ذلك مما ينخرط فى هذا السلك .

القسم الثانى

(ما يختص به الرجال دون النساء)

وهو يرجع إلىٰ أصلين أيضا : وهما العَدْل والشجاعة ؛ ويدخل تحت كل من الأصلين عدّة أوصاف من أوصاف المدح ، فيدخُل تحت العدل السَّماحة ، والتبرُّع بالنائل، و إجابة السائل، وقِرىٰ الضيف، وما شابه ذلك . ويدخل تحت الشجاعة عدّة أوصاف كالحِمَاية والدِّفاع، والأخذ بالثأر ، والنِّكاية فى العدوّ، والمَهَابة، وقتل الأقران، والسير فى المَهَامِه المُوحشة، وما أشبه ذلك؛ و إذا رُكِّب العقل مع الشجاعة حدث عنهما صفات أُخرىٰ مما يتمدح به كالصبر علىٰ الملمات ونوازل الخطوب ، والوفاء بالوعد ونحو ذلك .

القسم الثالث

(ما يختص به النساء)

ويرجع إلىٰ أصلين مذمومين فى الرجل : وهما الجُبْن والبُخْل ؛ وذلك أن المرأة إذا جَبُنت كفَّت عن المَسَاوِى خوفا علىٰ نفسها أو عِرْضها، و إذا بَخِلت حفظت مال زوجها عن الضَّياع والإتلاف؛ وحينئذ فتكون أوصاف الرجال الممدوحة أربعة أوصاف : آثنان يشتركون فيهما مع النساء ــ وهما العقل والعفة ؛ وآثنان ينفردون بهما عن النساء ــ وهما العدل والشجاعة . وتكون أوصاف النساء الممدوحة أربعة أيضا اثنان يشترِكْن فيهما مع الرجال وهما العقل والعفة، واثنان ينفَرِدن بهما عن الرجال وهما

الجُبْن والبُخْل ؛ فيمدح كل من الصنفين بما هو مشتمل عليه بحسب ما يقتضيه المقام وما يوجبه الحال .

قال قُدَامة بن جعفر الكاتب فى نقد الشعر : "ومدائح الرجال تنقسم بحسب الممدوحين من أصناف الناس فى الارتفاع والاتضاع وضروب الصناعات والتبدّى والتحضُّر، فيحتاج إلى الوقوع على المعنى اللائق بمدح كل ؛ فمدح الملوك يكون بما يلائم قدرهم من رفعة القدر وعلوّ الرتبة والانفراد عن المِثل والقرين : كقول النابغة فى النعمان بن المنذر .

أَلَمْ تَرَ أنّ اللهَ أَعْطاكَ سَوْرَةً * تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَها يَتَذَبْذَبُ
بأنك شمسٌ والمُلُوك كواكبٌ * إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ منهنّ كَوْكَبُ

وما يجرى مجرى ذلك ؛ ومدح الوزير والكاتب بما يليق بالعقل والدُّرْبة ، وحسن التنفيذ والسياسة ، فإن أضيف إلى ذلك الوصف بالسرعة فى إصابة الحزم ، والاستغناء بحضور الذهن عن الإبطاء لطلب الإصابة كان أحسن وأكمل للمدح كما قيل :

بَدِيهَتُهُ مِثْلُ تَفْكيرِه * مَتَى رُمْتَهُ فَهُوَ مُسْتَجمع

وكما قيل :

يُرَى ساكِنَ الأَوْصَالِ باسِطَ وَجْهِه * يُرِيك الهُوَيْنَى والأُمُورُ تَطِيرُ

ويُمْدَح القائد يعنى الأمير الذى يقود الجيش بما يجانس البأس والنجدة ، ويدخل فى باب البطش والبَسَالة ، فإنْ أضيف إلى ذلك المدحُ بالجُود والسماحة والحِذْق والبَذْل والعطية ، كان أحسن وأتم : من حيث إن السخاء أخو الشجاعة ، وهما فى أكثر الأمور موجودان فى ذوى بُعْدِ الهِمّة ، والإقدام والصولة : كما قال بعضهم جامعا بين البأس والجود :

فَتًى دَهْرُه شَطْرانِ مِمَّا يَنُوبه * فَفِى بأسِه شَطر وفى جُودِه شَطر

فَلَا مِنْ بُغَـاةِ الخَـيْرِ فى عَيْنِهِ قَذًى * ولامِنْ زَئِيرِ الحَرْبِ فى أُذْنِهِ وَقْــر

قال : "وتمدح السُّوقة والمتعيشون بأصناف الحِرَف وضُروب المكاسب والصَّعاليك بما يضاهى الفضائل النفسانية من العقل والعِفَّة والعَدل والشَّجاعة، خاليا عن مثل مدح الملوك ومن تقدّم ذكره من الوزراء والكُتَّاب والقُوَّاد

ويمدح ذوو الشجاعة منهم بالإقدام والفتك والتشمير والتيقُّظ والصبر مع التحذُّق والسَّماحة وقلَّة الاكتراث بالخطوب الملمة ونحو ذلك" .

قلت : ويؤخذ مما ذكره قدامةُ أن القضاة والعلماء يُوصَفون بما يليق بمحلهم من ذلك فيوصف العالم بثَقَابة الذهن، وحِدَّة الفهم، وسَعَة الباع فى الفضل، ومايجرى مَجْرىٰ ذلك، ويُوصَفُ القُضاة بذلك وبالعدل والعفة ومباينة الجور ونحو ذلك ، وستقف فى قسم الولايات فى نسخ البيعات والعهود والتقاليد والتواقيع والتفاويض والمراسيم ونحوها من ذلك بما[1] يتضح لك به سواء السبيل .

واعلم أن الكاتب كما يحتـاج إلىٰ معرفة الصـفات المحمودة من النوع الإنسانىّ كذلك يحتاج إلىٰ معرفة الصفات المذمومة منه ، فربمـا احتاج إلىٰ الكتابة بذم شئ من ذلك فيكون عنده من العلم بالصفات المذمومة ماينفق معه[2] : كما حكى أن بعض العمال بعث إلىٰ الرشيد بعبد أسود فقلب كتابه ووقَّع عليه "أما بعدُ فإنَّك لو وجَدْتَ عَدَدًا أقل من الواحد، أو لَوْنا شرًّا من السواد لبعثت به إلينا والسلام" .

ولا يخفى أن كل ما خالف صفة من الصفات المستحسنة المتقدّمة فهو مستقْبَح مع ماهو معلوم من الصفات المذمومة الجسمية : كالحَدَب والحَوَل ونحوهما ، ومن الصفات المعنوية : كسُوء الخُلُق وبَذَاءة اللسان ونحو ذلك . وفى هذا مَقْنَع فى الإرشاد إلىٰ المراد والتنبيه علىٰ القَصْد .

(١) أى على مايتضح . (٢) لعله منه .

النوع الثـانى
(ممـا يحتاج إلىٰ وصفه هى دوابّ الركوب، وهى أربعة أصناف)

الصنف الأوّل
(الخيــل)

ويحتاج إلىٰ المعرفة بوصفها فى مواضع؛ من أهمها وصفُها عنـد بعث شئ منها فى الإنعام والهدايا، والجوابِ عن ذلك . ووصفُها فى ترتيب الجُيُوش والموَاكب وذكرها فى مجَالات الحرب، وما يجرى مَجْرىٰ ذلك. ويشتمل الغرض منه علىٰ معرفة أصـنافها، وألوانها، وشِيَاتها؛ وما يُستَحْسَن ويستقبح من صفاتها؛ ومعرفة الدوائر التى تكون فيها؛ والبصَرِ بأمور أسنانها وأعمارها .

أما أصنافها فثلاثة

الأوّل ـ العِرَاب : وهى أفضلها وأعلاها قيمةً، وأغلاها ثمنا ، تطلب للسبق واللَّحاقِ؛ والملوك تتغالىٰ فى أثمانها وتُعِدّها لمهم الحرب. وتُوجَد ببلاد العرب ومحلاتهم فى أقطار الأرض : كالحجاز، ونجد، واليمن ، والعراق ، والشام ، ومصر ، وبَرْقة، وبلاد المغرب وغيرها .

الثانى ـ العَجَمِيَّات : وهى البَرَاذين ويقال لها الهَمَاليجُ، وتُعرَف الآن بالأكاديش وتُجلَب من بلاد الترك، ومن بلاد الروم . وغالبُ ما تُوجد مشقوقةَ المناخر، وتطلب للصبر علىٰ السير وسرعة المشى .

الثالث ـ المُولَّد بين العراب والبرَاذين : فإن كان الأبُ عَجَمِياً والأم عربيَّة قيل له هَجِين، وإن كان بالعكس قيل له مُقْرِف؛ وهى تكون فى الجَرْى والمشىِ متوسطة بين النوعين .

وأما ألوانهـا فقد ذكر ابن أبى أصبع أن أصول الألوان فيهـا ترجع إلىٰ أربعة ألوان، وما سواها مفرّع عنها .

الأوّل ــ البياض : وقلّ أن يخلُص من لون يخالطه، فإن صفا بياضه قيل فيه أشهبُ قِرْطاسِىٌّ، فإن كان أذناه وقوائمه وعُرْفه وذيلُه سُودا، قيل مُطَرَّف، فإن خالط البياض شعرٌ أسود والأغلب فيه البياض قيل أشهبُ كافورىٌّ، وإن كان السوادُ فيه أغلبَ قيل أشهبُ حديدىٌّ، وأشهبُ أشمَطُ، وأشهبُ مخلَّس(١)، فإن كان فيه نُكَتٌ سُود قيل أشهب مُفَلَّس، فإن اتّسعتْ قليلا قيـل أشهبُ مُدَنَّر، فإن كان فى شُهْبته طرائقُ، قيل أشهبُ مُجَزَّع، فإن كان فيه بُقَع من أىّ لَوْن كان دون البياض قيل مبَقَّع، فإن صغُرت تلك البُقَع قيل أبقَعُ، فإن تفرّقتْ واختلفَتْ مقاديرُها قيل أشيَمُ، فإن تعادَلَ ذلك اللونُ مع البياض مع صِغَر النُّقَط من اللونين قيل أنْمَش، فإن تناهَتْ فى الصغر، قيل أبْرَشُ، فإن كان البياض نُكَتا صغيرة فى ذلك اللون قيل مُفوَّف، فإن كان شئ من ذلك كله فى عضو واحد قيد به، مثل قولك مُفَوَّف القَطَاة، وأنمش الصدر وما أشبه ذلك .

الثانى ــ السَّواد : فإذا كان الفرس شـديدَ السواد قيل فيه أدْهَمُ، فإن اشـتدّ سوادُه قيل أدْهَمُ غَيْهَبىّ، فإن علا السوادَ خضرةٌ قيل أحْوَى والجمع حُوٌّ، فإن خالط سوادَه شُقْرة قيل أدْبَسُ، فإن انضم إليه أدنىٰ حمرةٍ أو صُفْرةٍ قيل أَحَمُّ، فإن ضرب سوادُه إلىٰ يَسيرِ بيـاض قيل أوْرَقُ، ونحوه الأَكْهَبُ، وفى دونه من السواد يقـال أرْبَدُ .

الثالث ــ الحمرة : إذا كان الفرس خالص الحمرة، وعُرفه وذَيْلُه أسودان، قيل فيه أوْرَد والجمع وِرَاد والأنثى وَرْدة، فإن خالط حُمرتَه سوادٌ فهو كُمَيْت، الذكر والأنثى فيه سواء، فإن صفت حمرته شيئا قليلا قيل كميت مُدَمًّى، فإن كان صافيا قليل

(١) فى الأصل بالصاد وهو تصحيف كما يفهم من مراجعة القاموس واللسان فى مادة خ ل س .

الحمرة وعُرْفه وذيله أشقران قيل أشْـقر . فإن كان أحمر وذيلُه وعرفه كذلك قيل أمْغَر ؛ فإن خالط شُـقرةَ الأشقر أو الكميتَ شَـعْرَةٌ بيضاء قيل صِـنَابِيٌّ أخذا من الصِّـنَاب وهو الخَرْدل بالزبيب ، فإن كانت حمرته كصدإ الحديد ، قيل أصدأُ ، فإن زاد فيه السواد شيئا يسيرًا قيل أجْأَى والآسم الجُؤْوَة .

الرابع ـ الصُّفْرة : فإن كانت صُفرته خالصةً تُشْبه لون الذهب وعُرْفه وذيله أَصْهبانِ مائلان إلى البياض قيل أصفر خالِصٌ ، فإن كانا أبيضين قيل أصـفر فاضِح فإن كانا أسودين قيل أصفر مطرّف وهو الذى يسمونه فى زماننا الحبشيّ ، فإن كان أصـفر ممتزجا ببياض قيل أشهب سَوْسنِيّ ، فإن كان فى أكارعه خُطوط سُود قيل مَوْشِيٌّ .

وأما شياتها وهى البياض المخالف للونها ، فمنها الغُرّة : وهى البياض الذى يكون فى وجه الفرس اذا كان قَدْرُه فوق الدِّرْهم ، فإن كان دُونَ الدرهم قيل فى الفَرس أقْرَحُ والعامة تقول فيه أغَرُّ شعرات ؛ فإن جاوز البياضُ قدرَ الدرهم قيل فيه أَعْرَمُ(١) ، ثم أوّل رتبة الغرّة يقال له النَّجْم ، فإن سالت الغُرّة ورَقَّت ولم تجاوِز جبهته ، قيل فيه أغرّ عُصْفُورِىّ ، فإن تمادَتْ حتّى جلَّلت خَيْشُومه ولم تبلغ جَحْفَلته ، قيل أغرُّ شِمْراخِىّ ، فإن ملأَتْ جبهته ولم تبلغ العينين قيل أشْـدَخُ ، فإن أصابتْ جميع وجهـه إلا أنه ينظر فى سوادٍ ، قيل مُبَرْقَع ؛ فإن فشَتْ حتّى جاوزتْ عينيه وآبيضَّت منها أشفارُه ، قيل مُغْرَب ؛ فإن أصابت منه خدًّا دون خدّ قيل لَطِيم أَيْمَنُ أو أيسَرُ ؛ فإن كان بشَفَته العُليا بياض قيل أرْثَمُ ، وإن كان بالسفلى بياض قيل أَلْمَظُ(٢) ، فإن نالهما جميعا قيل أرثَمُ أَلْمَظُ .

(١) وقع فى الأصل أغرم بإعجام الغين وهو تصحيف .

(٢) فى الأصل أنمط بالنون والطاء وهو تصحيف .

ومنهـا التحجيل فى الرِّجْلين وما فى معنىٰ ذلك ؛ إن كان البياض فى مؤخر الرُّسْغ لم يستـدرْ عليه قيل فى الفَرَس مُنْعَل ، وإن كان فى الأربع قيل مُنْعَل الأربع ، او فى بعضها أضيف إليـه فقيل مُنْعَل اليـدين أو الرجلين أو اليد أو الرجل ، اليمنىٰ او اليسرىٰ ، فإن آستـدار علىٰ الرُّسْغ وهو المَفْصِـل الذى يكتنفُه الوظيفُ والحافرُ وكان فى إحدىٰ الرجلين ، قيـل أرجَلُ ، وإن كان فى الرجلين جميعا قيـل مُخَـدَّم وأخْدَمُ ، فإنْ جاوز رُسْغ الرِّجل وآتصل بالوَظِيف : وهو مابين الكعب وبين أسفله ولم يجاوز ثُلُثيه ، قيل مُحَجَّل ، أخذا من الحِجْل : وهو الخلخال ، فإن كان فى رِجْل واحدة ، قيل مُحَجَّل الرجل اليمنىٰ أو الرجل اليُسرىٰ ؛ فإن كان فى الرجلين جميعا قيـل محجَّل الرجلين ، فإن كان معه فى إحدىٰ اليدين بياض يجاوز الرُّسْغ إلىٰ دون ثاثى الوظيف قيل محجَّل الثلاث مطلقُ اليد اليمنىٰ أو اليسرىٰ ؛ فإن كان البياض فى اليد الأخرىٰ كذلك ، قيل محجَّل الأربع ، فإن كان البياض فى اليدين فقط قيل أعصَمُ ، سواء جاوز الرسغ أم لا ؛ ولا يُطْلق التحجيل علىٰ اليـدين أو إحداهما إلا بانضمام إلىٰ تحجيل الرجلين أو احداهما ، فإن كان فى اليد الواحدة قيل أعْصَمُ اليد اليمنىٰ أو اليسرىٰ ، وإن كان فيهما قيل أعصَمُ اليديْن ، وإن كان التحجيل فى يد ورجل من جانب واحد قيل مُمْسَك ، وإن كان ذلك من الجانب الأيمن قيل مُمْسَك الأَيامِن مطلقُ الأَياسر ، وإن كان بالعكس قيل مُمْسَـك الأياسر مطلقُ الأيامن ، وإن كان التحجيل فى يد ورجل من خلاف فهو الشِّكَال . وقيل الشكال بياضُ القائمتين من جانب ، وقيل بياض ثلاث قوائمَ ، فإن تعدّى البياضُ حتّى جاوز عُرْقوبَىِ الرِّجلين أو ركبتَىِ اليدين ، قيل فيه مُجبَّب ، فإن علا البياضُ حقْوى(١) رجليه ومِرْفَقىْ يديه قيـل أبلقُ ، فإن زاد علىٰ ذلك حتّى بلغ الأفخاذ والأعضاد ، قيـل أبلقُ مُسَرْوَل ، فإن آختص البياض بيدَيْه

(١) كذا فى الأصل بالقاف ولعله مصحف عن النون لان الحقو الخاصرة وبقية الكلام يأباه أما الحنو فهو الاعوجاج والغرض جاوز البياض العرقوبين ولم يبلغ الأفخاذ الخ .

وطال حتّى بلغ مِرْفقيه قيل أقفز ومُقَفَّز ؛ فإن كان البياض فى الوظيف غير متصل بالرسغ ولا بالعُرقوب ولا بالرُّكبة قيل مُوَقَّف .

ومنهـا الشِّيات التى تتخلل سائر جسدها ؛ فإن كان الفرس مبيَضَّ الأذنين أو فى أذنيه نَقْش بياض دون سائر لونه قيل فيه أَذْرأ ، وإن كان مبيض الرأس قيـل أَصْقَع ، فإن ٱبيضَّ قفاه قيل أقْنَف ؛ فإن شابت ناصيته قيل أسْعَف ، فإن ٱبيضَّت جميعها قيل أصبَغُ الناصية ؛ فإن غَشّى البياض جميع رأسه قيل أغْشى ، وربمـا قيل فيه أرْخَم ؛ فإن ٱبيضَّ رأسه وعنقه جميعا قيل أدْرَعُ ؛ فإن ٱبيض ظهره قيل أرْحَلُ ، فإن كان ذلك البياض من أثر الدَّبَر قيل مصرد ، فإن ٱبيضَّ بطنه قيل أَنْبَطُ ، فإن ٱبيضَّ جَنْباه قيل أخْصَفُ ، فإن كان البياض بأحد جَنْبيه قيل أخصَفُ الجنب الأيمن أو الأيسر ؛ فإن ابيضَّ كفَلُه قيل آزرُ ؛ فإن ابيض عَرْض ذَنَبه من أعلاه قيل أشعَلُ ؛ فإن ٱبيض بعض هُلْبه دون بعض قيل مُخَصَّـل ؛ فإن ٱبيضَّ جميعُ هُلْبه قيل أصبغ هُلْب الذَّنَب ؛ فإن عدى عرقوبه البياض جملة قيل بَهِيم ومُصْمَتٌ من أىّ لون كان .

وأما مايُستحسَن من أوصافها فقد قال العلماء بأمر الخيل : يستحَبُّ فى الفرس دِقَّة الأُذنين وطولهُما وٱنتصابهُما ، ودقة أطرافهما ، وقُرْب مابينهما ؛ وكل ذلك من علامات العِتْق . وفى الناصية ٱعتدال شعرها فى الطُّول ، بحيث لاتكون خفيفة الشعر ولا مُفْرِطةً فى كثرته . ويقال فى هذه الناصية الجَثْلة . ويُستحبُّ مع ذلك لِينُ الشَّكِير (وهو ماطاف بجَنْب الناصِـيَة من الزَّغَب) . ويستحب عِظَم الرأس وطُوله وسَعة الجبهة ، وأَسالة الخدّ ، ومَلاسته ، ودِقَّته ، وقلَّة لحم الوجه ، وعُرْيُ الناهِضَين (وهما عظمان فى الخدّ) وسَـعةُ العين ، وصفاء الحَدَقة ؛ وذلك كله من علامات العِتْق . ويستحبُّ فى العين السُّمُوّ والحِدّة ورِقَّةُ الجُفُون وبعدُ نظره . قال ٱبن قتيبة : وهم يصِـفونها بالقَبَل والشَّوَس والخَوَص ، وليس ذلك فيها عيبا ولا هو خلقـةً ، وإنمـا

تفعله لعزة أنفسها . ويستحَبُّ فى المَنْخَر السَّعة : لأنه إذا ضاق شقَّ عليه النَّفَس . قال وربما شُقَّ مُنْخُره لذلك وبعد مابين المنخرين . ويستحب فى الفم الهَرَت (وهو طول شَقّ شِدْقيه من الجانبين) لأنه أوسع لخروج نَفَسه ، ورقة الجَحْفَلتين وهما الشفتان لأنه دليل العِتْق، وطولُ اللسان ليكثر ريقه فلا ينبهر، ورقته لأنه أسرع لقضمه العلف، وصفاء الصهيل لأنه دليل صحة رئته وسهولة نَفَسه . ويستحب فى العُنُق الطُّول فقد كان سَلْمان بن ربيعة يفرق بين العِتاق والهجن فدعا بطست من ماء فوضعت بالأرض ثم قدمت الخيل اليها واحدا واحدا فما ثنى سُنْبُكه منها ثم شرب هَجَّنه، وما شرب ولم يثن سنبكه جعله عتيقا لأن فى أعناق الهجن قِصَرا فلا تنال الماءَ حتّى تثنى سنابكها؛ وقد روى أنه هَجَّن فرس عمرو بن معدى كرب فٱستعدى عليه أميرَ المؤمنين عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه فقال سَلْمانُ ٱدع بإناء فيه ماء ثم أُتِى بفرس عتيق لاشك فى عتقه فأشرع فى الإناء فصف بين سُنْبُكَيه ومدَّ عنقَه فشرب. ثم قال ائتونى بهَجين لاشك فيه فأشرع فبرك فشرب، ثم أُتِى بفرس عمرو بن معدى كرب فأشرع فصف بين سنبكيه ومدّ عنقه ثم ثنى أحد سنبكيه قليلا فشرب فقال عمر أنت سلمانُ الخيل . ويستحب فيها مع ذلك الكبر لأنه أقرب لٱنقياده وعَطْفِه، وغلظُ مُرَكَّبِ عنُقه ودقةُ مَذْبَحه . ويستحب فيه ٱرتفاع الكَتِفين والحارِك والكاهِل، وقِصَر الظهر وعِرَض الصَّهوة (وهى مقعَد الفارس من الظهر) وٱرتفاع القَطَاة (وهى مقعد الرِّدْف من الظهر أيضا) وقلة لحم المتنَيْن وهما ماتحت دفتى السرج من الظهر . ويستحب فى الكفل الٱستواء والٱستدارة والمَلاسة والتدوير . ويستحب طُول السَّبِيب : وهو الشعر المسترسِلُ فى ذيله ، وقِصرُ العَسِيب : وهو عَظْم الذنب وجلدُه ؛ ولذلك قال بعض الأعراب "اختَرْه طويلَ الذَّنَب قصير الذَّنَب" يعنى طويل الشعر قصير العَسيب . قال ٱبن قتيبة

ويستحب أن يرفع ذَنَبه عند العَدْو، ويقال إن ذلك من شدّة الصُّلْب . ويستحب عِرَض الصدر : وهو ماعَرُض حيثُ ملتقىٰ أعلىٰ لببه، ويسمّى اللَّبان والكَلْكَل ؛ وكذلك آرتفاعه عن الأرض مع دِقّة الزَّوْر، وهو ما استدق من صدره بين يديه، بحيث يقرُب مابين المِرْفقين لأنه أشدّ له وأقوىٰ لجريه . ويستحب فيه عِرَضُ الكتف وغِلَظه وقِصَر النَّسا : وهو عِرْق فى الساق مستبطِن الفَخِذ، وشَنَجُه، وقِصَر وَظيف اليد : وهو قَصَب يديه، وقِصَر الرُّسْغ، ودِقّة إبرة العُرْقوب وتحديده : لأنه أشدّ لقَصَب الساق ؛ وطُولُ وَظيف الرجل ليخْذِف الأرضَ بها فيكون أشدّ لعدوه، وغِلَظُ عَظْم القوائم، وغِلَظُ الحِبَال : وهى عَصَب الذراعين، ولُطْف الرُّكْبة، وقُرْب مابين الركبتين، وشِدّة كَعْبه : لأن ضَعْف الكعب داعية الجَرَد(١)، وآنحناء الرجلين وتوتُّرهما، وبُعْدُ مابين الرجلين : وهو الفَحَج : لأنه أشد لتمكُّن رجليه من الأرض. ويستحب صفاءُ الحافر، وصَلابَتُه، وسعتُه، وكونه أزرقَ أو أخضَرَ غير مَشُوب ببياض : لأن البياض دليل الضعف فيه، وأن يكون مع ذلك فيه تقعُّب ؛ ولُطْف نُسُوره : وهى شئ فى باطن حافره كالنوىٰ : لأنه إذا ضاق موضعها كان أصلب لحافره ؛ وأن تكون أطراف سَنَابكه وهى مَقَادم حوافرِه رقيقةً . ويستحب فيه مع ذلك كلّه آتساع إهَابه وهو جلده، ورقّة أديمه، وصفاء لونِه، ولِينُ شعره، وكثرةُ عُرْفه، وكثرة نومه، وسَعة خطوه، وخِفّة عِنانه، ولِين ظهره، وحُسْن آستقلاله فى أوّل سيره، وخِفّة وَقْع قوائمه علىٰ الأرض إذا مشىٰ، وشدّة وقعها اذا عَدَا، مع حِدّة نفسه وسُرعة عَدْوه، وآتساع طرقته، وقد يغتفر القِطَاف فى المشى فى دوابّ الجَرْى . ثم إنه قد يحتمل فواتُ آلة الحسن والفَرَاهة فى المشى ولا يُغتفَر النقص فى آلة الجَوْدة وشِدّة العَدْو والصَّبْر : لأن بهما يدرك مايطلُب، وينجو ممّا يهْرُب .

(١) فى اللسان الجرد ورم فى مؤخر عرقوب الفرس يعظم حتّى يمنعه المشى والسعى .

وأما مايُستقبح ويُذَمّ من أوصافها، فقد ذكروا للفرس عدّة عيوب، بعضها خِلْقية وبعضها حادثة .

فمن العيوب الخلقية البدد : وهو بُعْد مابين اليدين، والصَّمَم وهو أن لايسمع : وعلامته أن يراه يَصُرُّ أذنيه أبدا إلىٰ خلفُ، وإذا جُرّ خلفه خشبةٌ ونحوها لايشعر ولم ينفر عنها، والحِذاء : وهو أن يكون أذناه مسترخيتين منكوستين نحوَ العينين أوالخذين كآذان الكلاب السَّلُوقيَّة ، والطَّوَل وهو أن تطول إحدىٰ أذنيْه وتقصر الأخرىٰ ، وكونه أسَكَّ : وهو أن يكون صغير الأذن .

ومنها السَّفا : وهو قلّة شعر الناصية، والغَمَم : وهو أن يكثُر شعر الناصية ويطُولَ حتّى يغطِّيَ العين : وهو عيب خفيف والسَّفا (١) : وهو خفة الناصية .

ومنها القَرَح : وهو أن يكون البيـاض الذى فى الوجه دُون قدر الدرهم كما تقدم إلا أن يكون معه بياض آخر من تحجيل ونحوه فلا يكره حينئذ، فإن كان فى وسط البياض فى الوجه سواد كان عيبا يُتشاءم به .

ومنها العَشا : وهو أن لا يُبْصر ليلا (٢) فيصير بمثابة نصـف فرس لأنه لا ينتفع به فى الليـل دون النهار، وكونه قائم العين : وهو الذى يكون علىٰ ناظره سواد يضرب للخُضْرة والكُدْرة يقل معها بصرُه، والحَوَل : وهو أن يكون بإحدىٰ عينيـه بياضٌ خارجَ سواد الحدقة من فوق، ويكون خلاف العين الأخرىٰ وهو مع ذلك مما يتبرَّك به بعض الناس ويقول : إذا كان ذلك فى العينين كان أعظم لبركته، والخَيَف : وهو أن تكون إحدىٰ عينيه زرقاءَ : وهو ممـا يُتشاءم به لاسيمـا إذا كانت الزُّرقة فى العين اليسرىٰ، فإن آزرقَّت العينان جميعا كان أقلَّ لشُؤمه، وغُـُور العينين : وهو دخولهما فى وجهه، والغَرَب : وهو بياض أشفار العينين، يكون عنه ضعف بصره فى القمر والحرّ الشديد، والكُمْنة : وهو أن يبصر قدّامه، ولا يبصر عن يمينه ولاشماله .

(١) أى ان السفا بهذا المعنى عيب خفيف . (٢) فى الخط إسقاط لا وفى المطبوع اثباتها وهو الظاهر .

ومنها القَنَا : وهو ٱحديداب فى الأنف، ويكون فى الهُجْن، والخَنَس : وهو أن يُرىٰ فوق مَنْخِريه منخسفا : لأنه يضيق نَفَسه إذا ركَض .

ومنها الفَطَس : وهو أن تكون أسنانه العُلْيا داخلة عن أسنانه السُّفلىٰ، والطَّبْطَبة وهو أن تسترخىَ جَحْفاته السفلىٰ فإذا سار حركها وطبطبها كالبعير الأهْدَل، وأن يكون فى حنكه شامةٌ سوداء وسائر فمه أبيض .

ومنها قِصَر اللسان لأنه إذا قَصُر لسانه قلَّ ريقه فيُسرِع إليه العَطَش، والحَرَسُ وعلامته أن تراه يصهَلُ ولا يُحَمْحِم، وهو عيب لطيف .

ومنها القَصَر : وهو غلظ فى العنُق، واللَّفَف : وهو ٱستدارة فيه مع قصر، والدَّنَن وهو طُمَأْنينة فى أصل العنق، والهَنَع : وهو طمأنينة فى وسَط العنق، والقَوَد : وهو يُبْس فى العنق بحيث لايقدِر الفرسُ أن يدير عنقَه يمينا ولا شمالا ولا يرفع رأسه إذا مشىٰ، وهو عيب شديد، والجَسَأُ : وهو يُبْس المَعْطِف .

ومنها الكَتَف : وهو ٱنفراج يكون فى أعالى كَتِفَى الفرس مما يلى الكاهل؛ والقَعَس : وهو أن يطمئِنَّ الصُّلْب من الظهر وترتفع القَطاةُ، والبَزَخ : وهو أن يطمئن الصُّلْب والقَطَاة جميعا، وهو عيب ردىء يَضُرُّ بالعمل؛ وكونُ الكَفَل فيه تحديد ويكون العجُز صغيرا، والفَرَق : وهو نُقصان إحدى حَرْقفَتِى الوركَيْنِ، فإن نقصتا جميعا فهو ممسُوح الكفل ولا عيْب فيه .

ومنها الدَّنَن : وهو تطامُن الصدر ودُنُوُّه من الأرض، وهو من أسوإ العيوب، والزَّوَر : وهو دخول إحدىٰ فَهْدتى الصدر وخروج الأخرىٰ .

ومنها الهَضَم : وهو ٱستقامة الضُّلوع ودخول أعاليها؛ والإخطاف : وهو لُحوق ماخلف المَحْزِم من بطنه، والثَّجَل : وهو خروج الخاصرة ورقَّة الصِّفاق .

ومنهـا العَصَل : وهو التواء عَسِيب الذَّنَب حتَّى يبرُز بعضُ باطنه الذى لاشعرَ عليه، والكَشَف : وهو أكثر من ذلك، والصَّبَغ : وهو بياض الذَّنَب، والشَّعَل : وهو أن يبيضَّ عَرْض الذنب وهو وسطه .

ومنهـا الفَحَج وهو إفراط بُعْد مابين الكعبين ، والحَلَل : وهو رَخَاوة الكعبين، ويلتحقُ به تقويسُ اليديـن ، وهو عيبٌ فاحش، والطَّرَق : وهو أن ترىٰ ركبتيه مفسوختين كالمقوستين إلىٰ داخل، وهو عيب فاحش، والقَسَط وهو أن ترىٰ رجلاه منتصبتين غير مُحَنَّبَتين ، والبَدَد : وهو بُعد مابين اليدين ، والفَحَج وهو إفراط بُعدِ مابين العُرْقوبين، والقَفَد : وهو انتصاب الرُّسْغ وإقبـالُه علىٰ الحافر ولا يكون إلا فى الرِّجْل، والصَّدَف : وهو تدانِى الفخذين وتباعدُ الحافرَيْنِ فى التواء من الرُّسْغين بحيث ترىٰ رُسْغى يديه مفتوحين، والتَّوْجِيه : وهو نحو منه إلا أنه أقل من ذلك، والفَدَع وهو التواء الرُّسْغ من عُرْضه الوحشىِّ من الجانبين (١) من رأس الشَّظىٰ ، ووطْؤُه علىٰ وحشىِّ حافريه جميعا وهو الجانب الخارجُ، والارتهاشُ : وهوأن يصُكَّ بعُرْض حافره عُرْض عُجَايته من اليـد الأخرىٰ وذلك لضَعْف يده، والحَنَف : وهو أن يكون حافرا يديه مكبوبين إلىٰ داخل، والنَّقَد : وهو أن يرىٰ الحـافر كالمتقشر، والشَّرَج : وهو أن يكون ذو الحافر له بيضة واحدة، والأَرَحُّ : وهو أن يمس الأرض بباطن حافره .

ومنها البَدَد فى اليدين : وهو أن يكون إذا مشىٰ يدير حافِرَه إلىٰ خارج عند النَّقْل وليس فيه ضرر فى العمل، والتلقُّف (٢) وهو أن يخبِط بيـديه مسـتوى لا يرفعُهما إلىٰ بطنه وهو خلاف البَدَد .

ومنها التَّلْويح : وهو أن يكون الفرس إذا ضربته حَرَّك ذَنَبه، وهو عيب فاحش فى الجُحُورة لأنه ربمـا بالت الحِجْر ورشَّت به صاحبَها .

---

(١) لعله أو من الجانبين . (٢) فى اللسان . فى آستنانه .

الضرب الثانى

(العُيوب الحادثةُ وهى عِدّة عيوب)

منها الحَدَب، ويكون فى الظهر بمثابة حَدَبة الإنسان، وهو عيبٌ فاحش، والغُدّة وتكون فى الظهر أيضا بإزاء السُّرة .

ومنها العنق : وهو انتفاخ ووَرَم بقدر الرُّمانة أو أقلُّ مما يلى الخاصرة، وهو عيب فاحش لاعلاج فيه .

ومنها الحَمَر ـ وهو عيب يحدث عن تُخَمَة الشعير، وربما كان من شرب المـاء على التعب فيحدث عنه ثِقَل الصدر .

ومنها الانتشار : وهو انتفاخ العَصَب بواسطة التَّعَب، ويكون من فوق الرُّسْغ إلى آخر الركبة، وهو عيب فاحش .

ومنها تحرُّك الشَّظَاة : وهو عظم لاصق بالذّراع، وهو على الفرس أشق من الانتشار .

ومنها الرَّوَح : وهو داء يكون منه غِلَظٌ فى القوائم كمثل داء الفيل فى البشر .

ومنها المَشَش : وهو داء يكون فى بدء أمره ماءً أصفرَ، ثم يصير دمًا، ثم يصير عظما . ويكون على الوظيف وفى مَفْصِل الركبة، وهو على العَصَب والركبة شرٌّ منه على الوظيف .

ومنها القَمَع، ويكون فى الرجلين فى طرف العُرْقوبين، وهو غِلَظ يعتريهما . والمَلَح، ويكون فى الرجلين تحت القَمَع من خَلْف : وهو انتفاخٌ مستطيلٌ لايضر بالعمل، والجَرَذ : وهو كالعظم الناتئ يكون فى الرجلين تحت العُرْقوبين على المَفْصِل من داخل ومن خارج، وهو عيب فاحش تَئُول منه الدابة إلى العَطَب، والنَّفَخ :

وهو آنتفاخ يكون فى مواضـع الجَرَذ . وهو من دواعى الجَرَذ؛ والعُقَال : وهو أن تَقْلِص رجلهُ ، وذلك يكون فى عصَب الرجل الواحدة دون الأخرىٰ ، وربمـا كان فى الرجلين جميعا؛ وهو عيب فاحش يضُرّ بالعمل؛ وهو فى البرد أشدّ منه فى الحرّ .

ومنها الشُّقَاق : وهو داء يصيبه فى أرساغه ،وربما آرتفع إلىٰ وظيفه؛ والسَّرَطان : وهو داء يأخذ فى الرُّسْغ فُيُيَبِّس عروقَه حتّٰى ينقلب حافره .

ومنها العَرَنُ : وهو جُسوءٌ فى رُسْـغ رجله . والدَّخس : وهو ورم يكون فى حافره . والقَفَد : وهو تَشَنُّج عصب رُسْغه حتّٰى ينقلب حافره إلىٰ داخل فيمشى علىٰ ظاهر الحافر .

ومنها النَّمْلة : وهى شَقٌّ فى الحافر من ظاهره : والرَّهْسة : وهى مايكون فى الحافر من صَدْمة ونحوها ، والعامة تقولهـا بالصاد . والقَشَر وهو أن تتقَشر حوافِرُه ، وهو عيب فاحش؛ والنَّاسُور : وهو الذى تسميه العامة الوَقْرة : وهو داء يحدث فى نُسُور الدابة فإذا قُطِع سال الدمُ منه .

ومنهـا الأُدْرة : وهى عِظَم الخُصْيتين ، وربمـا عَظُمت خُصْيتاه فى الصـيف وآحمرت (١) فى الشتاء . والمُدْلِى : وهو الذى يدلى ذكَرَه ثم لا يرده ؛ وهو عيبٌ قبيح بحيث يقبحُ ركوب الفرس الذى به هذا العيب .

ومنها البَرَص : وهو بياض يعترى الفرَس فى مَرَقَّاته : كالجَحْفَلَة وجُفُون العينين وبَيْنَ الفخِذين والخُصْيتَين .

ومنها الخلد : وهو داءٌ شديد ينقُب موضعه من بَدَن الدابة يسيل منه ماءٌ أصفرُ، فإذا كُوِى بالنـار برَأ وآنفتح موضعٌ آخرُ، فلا يزال كذلك حتّٰى تعطَب الدابة؛ وهو

(١) لعله واضطمرتا

عيب فاحش ؛ فى عيوب أخرىٰ يطول ذكرها . وفى كتب البَيْطرة ذكر الكثير من ذلك مع علاج ماله عِلاجٌ منه وبيانِ مالا عِلاجَ له .

وأما الدوائر التى تكون فى الخيل فقد عدّها العرب ثمانِى عشرةَ دائرةً ، بعضها مستحب وبعضها مكروه . الأُولىٰ دائرة المُحَيَّا وهو الوجه : وهى اللاحقة بأسفل الناصية . الثانية دائرة اللَّطَاة : وهى دائرة تكون فى وسط الجبهة . الثالثة دائرة النَّطِيح : وهى دائرة ثانية فى الجبهة بأن يكون فى الجبهة دائرتان . الرابعة دائرة اللِّهْزِمة : وهى دائرة تكون فى لِهْزِمة الفرس . الخامسة دائرة المِقْوَد (١) : وهى التى تكون فى موضع القِلادة . السادسة دائرة السَّمَامَة : وهى دائرة تكون فى وَسَط العنق . السابعة والثامنة دائرتا البَنِيقتَيْنِ : وهما دائرتان فى نَحْر الفرس فيما قاله الأصمعى . وقال أبو عبيد البَنِيقة الشعر المختلف فى منتهىٰ الخاصرة والشاكِلةِ . التاسعة دائرة الناحر : وهى دائرة فى باطن الحلق إلىٰ أسفل من ذلك . العاشرة دائرة القالع : وهى دائرة تكون تحت اللِّبْد . الحادية عشرة دائرة الهَقْعة : وهى دائرة تكون فى عُرْض الزَّوْر . الثانيةَ عشرةَ دائرة النافذة : وهى دائرة ثانية تكون فى الزَّوْر بأن تكون فيه دائرتان فى الشِّقين فى كل شِقّ منهما دائرة وتسمّى النافذةُ دائرةَ الحزام أيضا . الثالثةَ عشرةَ والرابعةَ عشرةَ دائرتا الخَرَب : وهما اللتان يكونان تحت الصَّقرين وهما رأسا الجَبتين اللتين هما العظمان الناتئان المشرفان علىٰ الخاصرتين كأنهما صَقْران . الخامسة عشرة والسادسة عشرة دائرتا الصَّقْرين : وهما دائرتان بين الجَبَتين والقُصْرَيَيْن . السابعة عشرة والثامنة عشرة دائرتا الناخس : وهما دائرتان تكونان تحت الجاعرتين . قال ابن قتيبة وهم يكرهون منها أربع دوائر وهى دائرة الهَقْعة مع ذكره أن أبقىٰ الخيل المَهْقُوع . ودائرة القالع . ودائرة الناخس . ودائرة النطيح . قال وما سوىٰ ذلك من الدوائر فليس بمكروه .

---

(١) فى المخصص . العُمُوم .

وذكر صاحب زهر الآداب فى اللغة أنهم يستحبون من الدوائر دائرة المِقْود[1]، ودائرة السَّمَامَة، ودائرة الهَقْعة احتجاجا بأن أبقىٰ الخيل المَهْقُوع؛ ويكرهون دائرة النَّطيح، ودائرة اللَّهْزمة، ودائرة القالع .

ورأيت فى بعض كتب البيطرة أن المستحب منها ثلاث دوائر دائرة المِقْود ودائرة السَّمَامَة ، ودائرة الهَقْعة وما عدا ذلك فهو مكروه ، وكره حكماء الهند دوائر أخرىٰ ذكروها وهى أن يكون فى مقدَّم يده دائرةٌ ، أو فى أصل ذنبه من الجانبين دائرتان أو علىٰ ناصيته دائرة، أو علىٰ مَحْجِره دائرة، أو فى جَحْفلته السُّفْلىٰ دائرة، أو علىٰ سُرَّته دائرةٌ ، أو علىٰ مِنْسَجه دائرتان .

وأما أسنان الخيل فأول ما تَضع الحِجْرة جنينَها قيل مُهْر، والأنثىٰ مُهْرة . فإذا فُصِل عن أمه قيل فَلُوٌّ . فإذا آستكمل حَوْلا قيل حَوْلىّ والأنثىٰ حَوْلِيَّة . فإذا دخل فى الثانية قيل جَذَعٌ والأنثىٰ جَذَعة . فإذا دخل فى الثالثة قيل ثنىٌّ والأنثىٰ ثنِيَّة . فإذا دخل فى الرابعة قيل رَبَاع والأنثىٰ رَبَاعِيَة . فإذا دخل فى الخامسة قيل قارِح للذكر والأُنثىٰ . وفى الغالب يلقى أسنانَه فى السنة الثالثة ، وربما تأخر إلقاؤها إلىٰ السنة الرابعة : وذلك إذا كان أبواه شابَّين، وقد يلقى أسنانه فى حول واحد : وذلك إذا كان أبواه هَرِمَيْنِ، ثم لكل مُهْر اثنتا عَشْرَةَ سِنًّا : سِتّ من فوقُ وستٌّ من أسفَلُ، ويليها من كل جانب نابٌ، ويليها الأضراس . وتنبت ثَنَايَاه بعد وضعه بخمســة أيام . وتنبت رَبَاعِيَاته بعــد ذلك إلىٰ مدّة شهرين . وتنْبُت قوارحه بعد ذلك إلىٰ ثمانية أشهر . ويختص التبديل منها بالأسنان الاثنتى عشْرة دُون الأنياب والأضراس . وربما ألقىٰ المهر بعضَ أسنانه، ثم لاتنبُت . وإذا قَرَح المهر آصفرّت أسنانُه، وآسودّت رءوسها وطالتْ فيبقى كذلك خمس سنين ؛ فإذا جاوزت ذلك

(١) فى المخصص العموم .

ٱبيضت وحَفِى رءُوسها ، ثم تنتقل فتصير كلون العسل خمسَ سنين ، ثم تبيض فتصير كلون الغُبَار ويزداد طولها . وربما دلَّس النَّخَّاسون فنشروا أسنانها وسوَّوْها .

ومما وجد فى الكتب القديمة أنّ الفرس تتحرك ثناياه فى سبع وعشرين سنةً ، وتتحرّك الرَّباعِيَات فى ثمان وعشرين سنة ، وتتحرّك القَوارِح فى تسع وعشرين سنة ، ثم تسقُط الثنايا فى ثلاثين سنة ، والرَّباعِيَات فى إحدىٰ وثلاثين سنة ، والقَوَارِح فى ٱثنتين وثلاثين سنة وهو عمر الدابة .

وأما التفرّس فى الخيل فاعلم أن المُهْر وإن ظهرت فيه علامات النَّجابة أو العكس لا عبرة بذلك ، فإنه قد يتغير فيقبُح منه ما كان حَسَنا ، ويحسن منه ما كان قبيحا ؛ وإنما يتفرّس فيه إذا ركبه لحم العلَف ، وذهب عنه لحمُ الرَّضاع . وأفضل الفِراسة فى المهر أخذُه فى الجرْىِ ، فإنه صنعتُه التى خلق عليها وإليها يئول ، فإذا أحسن الأخذ فى الجرى فهو جَوَاد ، ولكنه ربما تغير أخذه للجرى إذا رُكِب لضَعْف فيه حينئذ ، وقصور عن بلوغ مدىٰ قوّته ؛ وقد لا يجرى جَذَعا ويجرى ثنِيًّا ، وقد لا يجرى ثنِيًّا ويجرى رباعِيًا ، وقد لا يجرى رباعِيًا ويجرى قارحًا حين تجتمع له قوّته . ويعرَف ضَعف الضعيف منها بتاوّيه تحت فارسه وعَجْزِه عنه وفترته إذا نزل عنه .

ومما يدل علىٰ جَوْدة الفرس وحُسن جريه أنه يراه إذا أخذ فى الجرى سَمَا بهاديه ، وأثبتَ رأسه ، ولم يستعن بهما فى حُضْرِه وٱجتمعت قوائمُه ، وسَبَح بيديه وضَرَح برجليه ، ولها فى حُضْره ، وامتدّ ، وبسط ضَبْعيه حتّى لا يجد مزيدا ، وتكون يداه فى قَرَن ، ورجلاه فى قَرَن ، فإذا كان الفرس كذلك فهو الجَوَاد السابق . وقد قيل : إن خير الخيل الذى إذا مشى تكفَّأ ، وإذا عدا بسط يديه ، وإذا أدبر جَفَا ، وإذا أقبل أقعىٰ .

الصنف الثـانى

(البِغـال)

وفيها نوعيّة من الخيل والحَمير : من حيث إنها تتولّد بين حِصَان وأتان، أو بين حمار وحِجْرة [(١)] . وفيها النفيس المختار لركوب الرؤساء : من العلمـاء ، والوُزَراء، والحكام وسائر رؤساء المتعمِّمين . و إنه صلى الله عليه وسلم، فى يوم أُحُد كان راكبا بغلةً ، ولولا شرَفُها ونَفاستُها وقيامُها مَقام الخيل لمـا ركبها النبيّ صلى الله عليه وسـلم فى موْطِن الحرب ؛ وألوانها وأسـنانها علىٰ ماتقدّم فى الخيل، ويستحسن فيها غالب مايستحسن فى الخيـل ؛ وقد قيل إن خيار مايقتنىٰ من البِغَال ما آشـتدّت قوائمه، وعظُمت قَصَرتُه، وعنُقــه وهامَتُــه ، وصـفَتْ عيناه ، ورحب جوفُه، وعَرُض كفَلُه ، وسلم من جميع العيوب والعِلَل ،

وممـا يستحسن فى البغال دون الخيل السَّفَا : وهو خفة شعر الناصية . وأن يكون بيديها ورجليها خُطُوط مختلفة : جُلُّ ماتكون للسِّنَّور : ويقال إن خير مايختار للسرج والركوبِ البِغالُ المصرية : لأن أمَّهاتِها عِتاق وهُجْن ، وخيار ما يُحتاج إليــه للسَّرايا والمواكب والرَّكْض مع الخيل بِغالُ الجزيرة وإفريقِيَة .

وممـا ينبغى التنبيه عليه أن فى البغلات منها شدّةَ محبة للدوابّ إذا ربطت معها وفسادا للدواب إذا آعتادتها حتّى يصير أحدهما لا يفارق الآخر إلا بمشقة . ويحسن فى البغال الخَصْى ، وفى البغلات التَّحْويص ، ولا يُعاب ركوب شىء منها حينئذ إذا كان نفيسا .

---

(١) قد تكرر فى هذا المقام تأنيث الحجر بالهـاء، وفى القاموس مانصه والحجر الأنثى من الخيل وبالهـاء لحن قال شارحه وهو عامى مسترذل ثم نقل عن الشهاب تصحيحه فتنبه .

الصنف الثالث

(الإبل)

ويشتمل الغرض منها علىٰ معرفة أنواعها ، وألوانها ، وأسنانها ؛ وما يُستقْبَح ويُستحسن من صفاتها .

أما أنواعها فإنها ترجع إلىٰ نوعين . الأول البَخَاتِيُّ : وهى جمال جُفَاة القُدُود، طويلةُ الوَبَر ، تجلَب من بلاد الترك . الثانى العِرَاب وهى الإبل العربية وأصنافها لا يأخذها الحَصْر . وأما ألوانها فترجع إلىٰ ثلاثة أصول .

الأول البياض ، فالجملُ إذا كان خالص البياض قيل آدمُ والأنثىٰ أدْماء علىٰ الضدّ من بنى آدم ، فإن خالط البياضَ يسيرُ شُقْرة قيل أعْيَسُ والأنثىٰ عَيْساء .

الثانى الحُمْرة فإن احمرّ وغلبت عليه الشُّقْرة قيل أصْهَبُ والأنثىٰ صَهْباء ، فإن خلَصت حمرتُه قيل أحمرُ والأنثىٰ حمراءُ، فإن خالط حمرته قُنُوءٌ قيل كُمَيت ، فإن صفتْ حمرتُه قيل أحمر مُدَمًّى ، فإن خالط الحمرة خُضرةٌ قيل أحْوىٰ ، فإن خالطها صُفْرة قيل أحمر رادِنِىّ بكسر الدال . فإن خالطها سوادٌ قيل أَرْمَكُ والأنثىٰ رَمْكاءُ . فإن كانت حمرته كصَدَإ الحديد قيل أَجْأَى .

الثالث السواد ، فإن كان السواد فيه ضعيفا قيل أكْلَفُ ، فإن خالط السواد صفرةٌ قيل أحْوىٰ ، فإن عَلِق بسواده بياضٌ قيل أوْرَقُ . فإن زادت وُرْقته حتّى أظْلم بياضُه قيل أدهم ، فإن اشتدّ سواده قيل جَوْن ، فإن كان بين الغُبْرة والحمرة قيل خَوَّار والأنثىٰ خَوَّارة .

وأما أسنانها فإنه يقال لولد الناقة عند الوضع قبل أن يُعرفَ أذكر أم أنثىٰ سَلِيل . فإن بان أنه ذكر قيل سَقْب ، وإن بان أنه أنثىٰ قيل حائل . ثم هو حُوَار حتّى

يُفْطم، فإذا فُطِم وفُصِل عن أمه قيل فصيل . وذلك فى آخر السنة الأُولىٰ من وضعه، فإذا دخل فى الثانية قيل آبن مَخَاض : لأن أُمَّه فيها تكون من المخاض (وهى الحوامل) والأنثىٰ بنت مخاض، فإذا دخل فى الثالثة قيل آبن لَبُونٍ : لأن أمَّه فيها تكون ذات لبن والأنثىٰ بنت لبون، وإذا دخل فى الرابعة قيل حِقٌّ : لأنه يستحق أن يحملَ عليه والأنثىٰ حقَّة ، فإذا دخل فى الخامســة قيل جذَع والأنثىٰ جذَعة ، فإذا دخل فى السادسة قيل ثَنِيّ لأنه يُلْقِى فيها ثنيَّته والأنثىٰ ثَنِيَّة . فإذا دخل فى السابعة قيل رَبَاع (بفتح الراء) لأنّ فيها يلقى رَبَاعِيَته والأنثىٰ رَبَاعِيَة بالتخفيف ، فإذا دخل فى الثامنة قيل سَدِيس وسَـدَس الذكرُ والأنثىٰ فيه سواء ، وربمــا قيل فى الأنثىٰ سَـدِيسة . فإذا دخل فى التاســعة قيل بازِلٌ لأنه فيها يَبْزُل نابُه، والذكر والأنثىٰ فيه سواء، وقد يقال فيه فاطِر، فإذا دخل فى العاشرة قيل مُخْلِف ،وليس وراء ذلك للإبل ضَبْط بل يقال مُخْلِف عامٍ ومخْلِف عامين فأكثر، فإذا علا السنّ بعد ذلك قيل فيه عَوْد والأنثىٰ عَوْدة، فإن علا عن ذلك قيل قَحْر، فإن تكسرتْ أنيابه لطُول هَرَمه قيل ثِلْب والأنثىٰ ثِلْبــة، ويقال فى الناقة إذا كان فيها بعضُ الشباب عَزُوم، وربما قيل شارِف .

وأما ما يستحسن من صفاتها فقد رأيت فى بعض المصنَّفات أن كلَّ ما يستحب فى الفَرَس يستحب فى البعير خلا عِرَض غارِبه ، وفتــل مِرْفَقِه، ونَكْس جاعِرَته وهى أعلىٰ الوَرِك ، وآنْدِلاق بطنه ، وتفرّش رجليه ، فإن ذلك يستحب فى الإبل دون الخيل .

وقد صرح الشعراء فى أشعارهم بعدّة أوصاف مستحسنة فى الناقة، منهــا دقة الأُذُن، وتحديد أطْرافها ، وكِبَر الرأس ، وآستطالة الوجه ، وعِظَم الوجنتين، وقُنُوُّ الأنف ، وطول العُنق وغلَظه، ودقة المَذْبَح ، وطُول الظهر، وعظم السَّنَام . وهى الكَوْماء، وطُول ذنبها، وكثرةُ شعره، غليظةُ الأطراف ، قليلة لحم القوائم، ليست

رَهِلة ، ولا مسترخيةً ، وأن تكون مع ذلك كثيرة اللحم ، مَلْساءَ الجلد ، تامَّةَ الخلق ، قويَّةً ، صُلْبة ، خفيفة ، سَريعة السير .

وأما كرمها فإنه يقال لكل كريم خالص من الإبل هِجَان من نِتاج مَهْرَةَ : وهى قبيلة من قُضاعةَ باليمن ، والعيديَّة منسوبة إلىٰ بنى العِيد من قبيلة مَهْرة المذكورة ، والأَرْحَبِيَّة منسوبة إلىٰ بنى أرحَبَ ، والغُرَيريَّة منسوبة إلىٰ غُرَيْرٍ ، وهو فحل كريم مشهور فى العرب . والشَّذْقَمِيَّة منسوبة إلىٰ شَذْقَم : فحل كريم أيضا ، والجَديليَّة منسوبة إلىٰ جَدِيل : فحل كريم ، والدَّاعِريَّة منسوبة إلىٰ داعر : فحلٍ كريم كذلك . قال فى كفاية المتحفظ ، والشَّدَنِيَّة منسوبة إلىٰ فحل أو بلد .

الصنف الرابع

(الحمير)

ومنها النَّفِيس الغالى الثمنِ وخيرها حُمُر الديار المصرية ، وأحسنُها ماأُتِى به من صعيدها . وهى تنتهى فى الأثمان إلىٰ مايقارب أثمانَ أوساطِ الخيل ، وربما يميَّز العالى القدر منها علىٰ المنحط القدر من الخيل ، والأحسن فيها ما كان غليظ القوائم ، تامّ الخَلْق ، حَديدَ النفس . ولا عيبَ فى ركوب الحمار ولا وَهِيصةَ (١) فقد ثبت فى الصحيح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، "رَكِبَ الحِمار" ولا عبرة برَفْع من ترَفَّع عن ركوبه بعد أن ركبه النبي صلى الله عليه وسلم .

---

(١) مراده ولا نقص ولكن لم نقف فى مادة ر هـ ص ولا و هـ ص على هذا المعنى .

النوع الثـالث

(مايحتاج إلىٰ وصفه من جليل الوحش وكريم صيوده؛ وهو أصناف)

الصــــــنف الأوّل

(جليل الوحش)

وهو مايتخذه الملوكُ للزِّينة وما فى معناها؛ ويحتاج الكاتب إليه لوصفه فى الهدايا والمواكب ، وما يجرى مجراهما .

والمعوّل عليه من ذلك خمسة أضرب .

الأوّل الأَسَد ـ ويجمع علىٰ أُسْد وأُسُد وأُسُود وآساد ، ويقال له أيضا اللَّيْث والضَّيْغم ، والضِّرْغام ، والهِزَبْر ، والهَيْصَم ، والهِرْماس ، والفُرَافِصَة ، وحَيْدرةُ ، والقَسْوَرَةُ . وله أسمـاء كثيرة سوىٰ هذه ، لا تكاد تدخل تحت الحصر ، حتّى قال آبن خالويه للأسد خمسمائةِ آسم . ويقـال لولده الشِّبْل ولأُنْثاه اللَّبُؤة . قال آبن السندى فى كتابه "المصايد والمطارد" : وإذا تأملت أصـناف الحيوان وبحثت صُوَرها وما أُعطِيتْ من الأَسْلِحة ومقادير الخَلْق ، وجدتَ الأسـد أعظم خلْقة ، وأكثر آبِدةً، وأشدّ إقداما من جميعها، ليست له غريزة فى الهَرَب البتَّة .

ومن خصائصه وعجيب خَلْقه أن عَظْم عُنُقِه عظمٌ واحد ليست له خَرَز عظام كما فى غيره من الحيوان بدليل أنه لايَلْوِى عنقَه، ولا يلتفت، ومع ذلك فهو يبتلع الشئ العظيم، ولَبُؤته لاتلد إلا جِرْوا واحدا،وإنها تضعه كاللَّحْمة ليس فيه حِسٌّ ولا حركة فتحرُسه ثلاثةَ أيام، ثم يأتى أبوه فينفُخ فيه المرَّةَ بعد المرّة حتّى يتحرّك، ثم تأتى أمُّه فتُرْضعه ، ولا يفتح عينيه إلا بعد سبعة أيام ؛ ويكتسب لنفسه بالتعليم من أبويه بعد ستة أشهر، وهو قليل الشرب للمـاء وإن كان لا يفارق الغِيَاض، وله صبر علىٰ

الجوع ولكنه إذا جاع ساءت أخلاقُه، وليس يُلْقِى رَجِيعه إلا مرةً واحدة فى اليوم، ويرفع رجله عند البول كما يفعل الكلب، ويبول إلىٰ خَلْف كما تبول الجِمَال، وهو أشدّ السِّباع ضَراوةً علىٰ أكل بنى آدم، وإذا آفترس فريسةً وأكل منها، لا يعود إليها، ولا يطأ أثَرَه شئ من السباع . قال آبن السندى فى "المصايد والمطارد" ولا يأكل من فريسةِ غيره من السباع . وقد قيل إنه يهرُب من الهرّ، ومن الجِرْو، ومن الدِّيك الأبيض، وإنه إذا رأىٰ النار عرضت له فكرة أورثته بَهْتة، وأنه يهرُب من عُوَاء الجِرْو إذا عُرِكَتْ أذنه، ويقال إن جلده إذا جعل فيما يخاف عليه السُّوس من الثياب وغيرها أمِنَ من ذلك، وإنه إذا عمل منه وَتَرقوس وأُضِيف إلىٰ أوتارٍ من فِرَاء ومِعًى أو غيرهما أبطل أصواتها وعلا صوته عليها، ومن طبعه أنه لا يشرب ماء وَلَغ فيه كلب وإن مات عَطَشا .

الثانى النُّمُور — جمع نَمِر (بفتح النون وكسر الميم) ويجمع أيضا علىٰ أنمار ونِمَار، والأنثىٰ نَمِرة؛ وهو حيوان مُرَقَّع اللون بسَواد وبياض، أقربُ شئ من خِلْقة الفَهْد، وهو أَخبَثُ من الأسد، لا يملك نفسَه عند الغضب حتّى إنه ربما قتل نفْسَه من شدّة غضبه . قال : ابن السندى : وهو وَدُود لجميع الحيوان، عَدُوٌّ للنَّسْر، وينام ثلاثةَ أيام، والحيوان يُطِيف به ويميل إليه، آستحسانا لجلدته .

وهو جنسان أحدهما عظيم الجُثَّة، صغير الذَّنَب، والثانى صغير الجُثَّة عظيم الذنب . قال فى "المصايد والمطارد" ويصاد بالخمر لأنه يحبها . قال : ومَن أراد قتله تمسَّحَ بشحم ضَبُع ودخل عليه فقتله .

الثالث الكَرْكَدَنّ — (بفتح الكافين وسكون الراء المهملة وفتح الدال المهملة ونون مشدّدة فى الآخر)[1] قال الزمخشرى فى "ربيع الأبرار" : وهو وَحْش يكون ببلاد الهِنْد يسمّى الحِمَار الهندىّ، له قرن واحد فى جبهته يبلغ غِلَظُه شبرين؛ وهو

(١) ضبطه فى القاموس بشدّ الدال أى وتخفيف النون وقال والعامة تشدّد النون

محدّد الرأس إلا أنه ليس بالطويل وأنه إذا قطع ظهرت فيه صور عجيبة : وانه رُبّما نطح الفيل فبعَجَه بقَرْنه ، وأن أُنثاه تحمل سبع سنين ، وأنه إذا كان بأرض لم يدع شيئا من الحيوان حتّى يكون بينه وبينه مائة فرسخ من جميع جهاته هيبةً له وهربا منه .

الرابع الفيل — وهو حيوان يُؤْتىٰ به من بلاد الهند والحبشة . قال الجاحظ : وهو من الحيوانات المـائية وإن كان لا يسكُن المـاء ، وهو من ذوات الخَراطيم ، وخرطومه أنفه كما أن لكل شيء من الحيوان أنفا ، وهو يده ، وبه يَتنـاوَل الطعام والشراب ، ومنه يُغَنِّى ويجرّ فيه الصوتَ كما يجرُّه الزامر فى القصـبة بالنفخ . قال : وأصحابنا يزعُمون أن بينه وبين السِّنَّور عداوة وأن الفيلَ يهرُب منه هَرَبا شديدا . وذكر صاحب "الحيل فى الحروب" أنه يقصر[(١)] عن صوت الخنزير وأنه بذلك ينَفِّر فى الحروب . وقد ذكر الجوزى أن للفيل إقداما علىٰ السبع . قال الجاحظ : وهو يعادى البعوضَ لأنه يثقُب جلده بقرصه ، ومن ثم يرىٰ الفيل دائما يحرك آذانه ليطرد عنـه الناموس ، وهو مخصوص بخفة وقع قوائمه علىٰ الأرض إذا مشىٰ حتّى لو أن إنسانا كان جالسا وجاء الفيل من خلفه لمـا شعر به . وذكر عبد القاهر[(٢)] البغدادىُّ أن الفِيلةَ تحمل سبْعَ سنين ، وقيل سنتيْنِ ، وقيل ثَلاث[(٣)] قبل أن تضع ، وأن لسان الفيل مقلوب : طرَفُه داخلَ حَلْقه وأصله من خارج علىٰ العكس من سائر الحيوان ، وأن ثدييها علىٰ كبدها وترضع أولادها من تحت صدرها . وقد ذكر الغزالى أن فرجها تحت بطنها فإذا كان وقت الضِّراب ٱرتفع وبرز للفحل حتى يتمكن من إتيانها .

الخامس الزَّرَافة — (بفتح الزاى وضمها) وهى حيوان يؤتىٰ به من بلاد الحبشة واليمن ، طويلُ اليدين ، قصيرُ الرجلين ؛ ذَنَبـه وحوافره كذَنَب البقر وحوافِرِها ،

(١) لعله يقصو بالواو بدل الراء أى يبعد .

(٢) فى حياة الحيوان عبد اللطيف وسيأتى بعد صحائف على الصواب مرارا .

(٣) كذا فى الاصل وعبارة الحياة ولا ينزو عليها اذا وضعت الا بعد ثلاث سنين .

ورقبتُه ورأسه كرقبة الجمل ورأسه، ولونه مُوَشًّى بالبياض والصُّفْرة. قال الجاحظ: وقد زعموا أن الزرافة تتولد من الناقة من نُوق الحبشة وبين بقَر الوحش وبين الذِّيخ ـ وهو ذكر الضِّبَاع. وذلك أن الذيخ يعرض للناقة فيسفِدُها فتلقح بولد يجيء خلقه بين الناقة والضبع فإن كان الولد أنثى عَرَض لها الثور الوحشى فيضربها فيأتى الولد زرافةً، وإن كان ذكرا تعرّض للمهاة فألقحها فيأتى الولد زرافة أيضا. قال: ومنهم من يزعم أن الزَّرافة الأنثى لا تَلْقَح من الزَّرافة الذكر. ثم قال وهذا مشهور باليمن والحبشة. ثم إن كانتْ أسنانها سُودا دلت على هَرَمها، وإن كانت بيضًا دلت على حَدَاثة سِنِّها.

ومن أمراضها الكَلَب (وهو كالجنون يعتريها كما يعترى الكلب فيقتلها) وكلُّ من عضته وهى على هذه الحالة قتلته إلا ٱبن آدم فإنه ربما عولج فسلم. ومن أمراضها أيضا الذِّبْحة والنِّقرس.

الصنف الثانى

(مُعَلَّمات الصيد)

وقد يعبر عنها بالضَّوَارى. وهى كل ما يقبل التعليم من الوُحُوش كائنا ما كان حتّى حكى عن السُّودانى القَنَّاص أنه بلغ من حذقه أنه ضرّى ذِئبا حتّى ٱصطاد به الظباءَ وما دونها، وألَّفه حتّى رجع إليه من ثلاثين فرسخا، وضرّى أسدا حتّى ٱصطاد به حُمُر الوحش. ويقال إن ٱبن عِرْس يُجْعَل حبل فى عنقه ويُدْخَل على الثعلب فلا يخرج إلا به. وهى على ضربين.

الأوّل الفُهودة ـ جمع فَهِد(١) بكسر الهاء. وقد زعم أرسطوطاليس أنه يتولد من أسد ونَمِرة أو من نمر ولبُوَة؛ وهو من السباع التى تصادُ ثم تُؤنَّس حتّى تصيد،

---

(١) فى المصباح الجمع فهود كفَلْس وفلوس وكذا بقية معاجم اللغة فلعل ما فى الاصل من التحريف والتصحيف وهو الأقرب.

وهو من الحيوان المحدّد الأسنان ، وأسنانه يدخل بعضها فى بعض كالكلب وغيره قال : فى "التعريف" وأوّل من صاد به كسرى أنوشَروان أحدُ ملوك الطبقة الأخيرة من الفُرس قال : فى "المصايد والمطارد" ويصطادونه بضروب من الصيد .

منها الصوت الحَسَن فإنه يصغى إليه إصغاء شديدا .

ومنها كدّه وإتعابُه حتّى يحمىٰ ويعيا وينبهر ويحفى ، فإذا أخذ غُطِّيت عيناه وأُدْخِل فى وعاء ، وجعل فى بيت مادام وحشيًّا ، ووضع عنده سراج ولازمه سائسه ليلا ونهارا ولم يدَعْه يرىٰ الدنيا ، ويجعل له مَرْكَبًا كظهر الدابة يعوّده رُكوبَه ويُطعمه علىٰ يده فلا يزال كذلك حتى يتأنَّس ، فإذا ركب مؤخَّر الدابة فقد صار داجنا وصاد .

وفى طباعه أمور .

منها كثرة النوم حتّى يضرَب بنومه المَثَل فيقال "أنوَمُ مِنْ فَهْد" . وكثرةُ الحياء حتّى إنه لا يعلم أنه عاظَـلَ أنثىٰ بين يدى الإنس ، وقد عُنِى بمراعاته فى ذلك فلم يوقَف عليه . وان كان الأسد يفعل ذلك كثيرا . ونقل ٱبن السندى عن بعض الفهَّادة أن سائسه إذا أمرّ يده عليه اطمأن إليه ومال فإذا وضع يده علىٰ فرجه نفَر وعضَّ يده .

ومنها الغضَب حتّى إنه إذا أُرْسل علىٰ صيد فلم يحصِّلْه احتد ، وان لم يأخذ سائسه فى تسليته قتل نفسه أو كاد . قال : صاحب "المصايد والمطارد" والمسنّ من الفُهُود إذا صيد كان أسرع فى الصيد من الجِرو الذى يُربَّى ويؤدَّب ، والأنثىٰ أصيدُ من الذكر كعامَّة إناثِ الجوَارح . قال : وليس شىء من الوحش فى قدر جِرْم الفهد إلا والفهْد أفضل منه . قال : فى "المصايد والمطارد" وضدُّ الفهد الظباءُ والوعول علىٰ اختلاف أجناسها .

الثانى الكلاب ــ جمع كَلْب ويجمع علىٰ أَكْلُب أيضا وعلىٰ كَلِيب كعبد وعَبِيد والأنثىٰ كَلْبة ، وتجمع علىٰ كلبات بالفتح ، وهو حيوان شديد الرِّياضة ، كثير الوَفاء

مشتَرِك الطِّباع بين السبع والبهيمة : لأنه لو تم له طباع السَّبُعية لما ألف الناسَ ولو تم له طِباع البهيمية لما أكل اللحم . ويقال إنه يحتلم وأُنْثاه تحيض ، وتحمل أنثاه ستين يوما ، وربما حملت أقلَّ من ذلك ، ويَسْفِد بعد سنة ، وربما تقدّم على ذلك . ولها عند السِّفاد اشتباك عظيم ، وإذا سفَدَ الأنثى كلبان مختلِفان أتت من كل واحد بلونه . وفيه من اقتفاء الآثار وشَمِّ الرائحة ما ليس لغيره من الحيوان ، والمَيْتةُ أحبُّ إليه من اللحم الغَرِيض .

ومن طبعه أنه يحرُس صاحبه شاهدا أو غائبا ، ذاكرا أو غافلا ، ونائما أو يقظانَ ، وهو أيقَظُ حيوان فى الليل ، وإذا نام كسر أجفان عينيه ولا يُطْبقها لخِفَّة نومه . ومن عجيب شأنه أنه يكرم الرئيسَ من الناس فلا ينبَحُه وإنما ينبَح أوْباش الناس . ومن طبعه أن الضبع إذا مشَتْ على ظله فى القمر رمى بنفسه بين يديها فتأكله ، وإذا ظَفِر بكلب غريب كاد يفترسه .

وقد أجاز الشارع اتخاذها للصيد ونحوه ، وأباح صَيْدها مع نجاسة عينها . قال فى "التعريف" : وأول من اتخذها للصيد دارًا أحدُ ملوك الفُرْس قال فى "المصايد والمطارد" : وإذا كسر الكلب الأرانب فهو نهاية وإن كان يُطيق فوق ذلك . والكلب يمسك لصاحبه ، ولذلك لا يأكُل من الصيد بخلاف سائر الجوارح . قال : وإناثها أسرع تعلُّما من الذكور ، وأطول أعمارا حتّى إنها تعيش عشرين سنة .

ومن خاصية الكلب أنه إذا عايَنَ الظِّباء قريبةً كانت أو بعيدة ، عرف منها العليلَ من غيره ، والعنز من التيس فيتبع التيس منها دون العنز وإن كان التيس أشدّ عَدْوا وأبعدَ وَثْبةً : لأنه يعلم أن التيس إذا عدا شَوْطا أوشوطين غلب عليه البولُ ولايستطيع إرساله فى عدوه فيقلُّ عند ذلك عَدْوُه ويقصر مَدَى خُطاه فيدركه الكلب ، بخلاف العنز فإنها إذا اعتراها البول أرسلته لسَعَةِ مَسيله ، والكلب يعرف ذلك كلَّه طبعا ،

وكذلك يعرِف جِحَرة الأرانب والثَّعالِب وإن ركبها الثلج والجليد بشمه فيقف عليه ويثير مافيهـا من الوحش، وإذا صَعِد منه أرنبٌ إلىٰ أعلىٰ جبل شاهق، كان له من التلطُّف فى الآرتقـاء والصعود ما لا يلحقه غيره بل لا يخفى عليه من الصيد الميتُ من المُتماوِت .

ومن خصائص الأنثىٰ أنها تحمل ستين يوما ويبقى جِرْوها بعد الولادة اثنَىْ عشرَ يوما أعمىٰ . وأكثَرُ ماتضع ثمانيةُ أجْراء، وربما وضعت واحدا فقط، ورأس الكلب كله عظمٌ واحد، والكلب يطرح مَقادِمَ أسنانه ويخلفها ولكنه لا يظهر لكثير من الناس لانه لا يُلقِى منهـا شيئاً حتّى ينبت فى مكانه غيرُه، والفرق بين الذكر والأُنثىٰ أن الذكر إذا أدرك يرفع رجله عند البول والأنثىٰ تبول مُقْعِية وربما رفعت رجلها، والذكر يَهِيج للسِّفاد فى السنة قبـل الأنثىٰ، وأسنان الذكر أكثر ومَضْغه أشـدّ . قال الجـاحظ : وخير الكلاب ما كان لونه يذهب إلىٰ لون الأسـد بين الصفرة والحمرة ثم البِيض اذا كانت عيونها سَوْداء . وذكر صاحب "المصايد والمطارد" أن الأبيض أفرهُ والأسودَ أصـبرُ علىٰ الحرّ والبرد . ومن علامة النجابة والفَراهة فيه أن يكون تحت حنكه طاقةُ شعر مفردةٌ غليظة، وأن يكون شعر خدّيه جافيـا . ومن علامة الفَرَاهة طُول ما بين يديه ورجليه وقِصَر ظهره وصِغَر رأسه وطُولُ عُنُقه وغَضَف أُذُنيه وبُعْدُ ما بينهما، وزُرْقة عينيه، وضخامة مُقْلتيه، ونتوُ حدقته، وطولُ خَطْمه وذَقَنه، وسَعَةُ شِدْقه، ونتوّ جبهته وعِرَضها . ويستحب فيه أن يكون قصير اليدين طويل الرجلين، طويل الصدر، غليظه، قريبَهُ من الأرض، ناتئَ الزور، غليظ العَضُدين مستقيم اليدين، منضمّ الأظافير، عريض ما بين مفاصل الأعطاف، عَريض ما بين عظمَىْ أصل الفخذين مع طولها وشدّة لحمهما، دقيق الوسَط، مستقيم الرجلين، قصير الساقين، غيرَ مَحْنِىّ الركبتين، قصير الذنب إن كان ذكرا مع دقة وصلابة، وإن الكلبة

إذا ولدت واحدا كان أفرَهَ من أبويه وإن ولدت اثنين كان الذكر منهما أفرَهَ من الأنثى وإن ولدت ثلاثة فيها أنثى فى شَبَه الأم كانت أفره من الثلاثة وإن كان فى الثلاثة ذكر واحد كان أفرهها وإذا أُلْقيت الجِراءُ وهى صغار فى مكان ندىّ فأيها مشى على أربع فهو أفره .

ومن أعظم أدوائها الكَلَب (بفتح اللام) وهو داء كالجنون يعترى الكَلْب يؤثِّر فيمن عضه أنه يخرج من ذكره جِراءٌ صغار .

ومن عجيب ما يحكى فى ذلك أن رجلا عضّه كَلْب كَلِب فتلقاه بكمه فأصابته أسنانه ولُعَابه فشمر كُمَّه ساعةً ثم نشره فتساقط منه جِراءٌ صغار .

ثم كلاب الصيد على ضربين : سَلُوقيَّة (بفتح السين) وزُغَارِيَّة (بضم الزاى) . فأمّا السَّلُوقية فمنسوبة إلى سَلُوقَ بلدة من اليمن كما قاله صاحب "المصايد والمطارد" والمؤيد صاحب حماه فى تقويم البُلْدان والمقرّ الشهابى آبن فضل الله فى "التعريف" قال فى "التعريف" : وهى مولدة بين الثعالب والكلاب، ولذلك لا تقبل التعليم إلا فى البطن الثالث منها ؛ قال : ولها سِلَاح جيد ؛ قال فى "المَصَايد والمَطَارد" ولها أنساب كأنساب الخيل، قال : وقلّ أن يعرِض لها مَرَضُ الكَلَب . وأمّا الزُّغَارِيَّة فهى ألطفُ قدّا من السَّلُوقية ولم أدر إلى ماذا تُنْسَب .

الصنف الثالث

(ما يعتنى بصيده من الوحش والمشهور منه عشرون ضربا)

الأوّل الحمارة العتابية — وهى حيوان فى صورة البِرْذَوْن موشّى الجلد بالبياض والسَّواد يَرُوق الناظرَ حسنُها، وقد كان أُهْدِى للظاهر برقوق سقى الله عهده حمارةٌ من هذا النوع فأقامت مدّة، ثم أعطاها فقيرا من فقراء العجم فكان يركبها كما تركب

الخيل والحمير ويمشى بها فى القاهرة ، ثم عوّضــه الناصر بن الظاهر سلطانُ العصر عنها عِوضًا ، وآعتادها منه ، وأرسلها فى هديّة لآبن عثمان صاحب بلاد الروم غربىّ الخليج القُسْطنطينى .

الثـانى البقر الوحشية ـ وتعرف بالمَهَا ، وهى دونَ البقر الأهلية فى المِقدار ، ولها قَرْنان فى رأسها ، فى كل قرن منهما شُعَب ، وهى من جليل الصيد ، ويقال للفتِىّ منها المَهَا ، وبها يضرَب المثل فى حُسْن العُيون وسوادِها . ومن طبْعه الشَّبَق وشِدّة الشهوة ، ولذلك إذا حملت أنثاه هربَتْ منه خوفا من تعبُّثه بها وهى حامل ، وربما ركب الذكرُ الذكرَ لشدّة شـبقه . قال صاحب "المصايد والمطارد" وكل إناث الحيوان أرق صوتا من الذكور إلا البقر الوَحْشـية فإن الأنثىٰ أفخم صوتا وأظهر من الذكر . ومواضعها من البرية الوَهَدات ، وما آستوىٰ من الأرض ودنا من المـاء والعُشْب ، وليست ممـا يسكُن الجبـلَ ، ولذلك عِيب فى ذلك محمدُ بن عبد الملك الزيّاتُ كاتبُ المعتصم ووزيرُه حيث وصـف ثورا من ثِيرانها برَعْيِه فى الجبـل . وهى ممـا يُصاد بالطَّرْد علىٰ الخيل ، ويقال إن أوّل مَنْ طردها علىٰ الخيل ربيعة بن نِزَار بن معَدّ بن عدنان فإنه أوّل من ركب الخيـل علىٰ قول ، ولمـا ركبها رأىٰ بقرة وحشية فطرَدَها فلجأت إلىٰ مكان يمكنه أخذها منه فرَقَّ لهـا وتركها . ويقال : إن من الكلاب ما يتسلط عليها ويتعلّق بها ، وأقدر مُعِين له عليها من جوارح الطير العُقاب . قال آبن السندىّ : ودمها أسرع إلىٰ الجُمُود من دم سائر الحيوان .

الثالث الحُمُر الوحشية ـ ويقال للأنثىٰ من حُمُر الوحش أتانٌ وللذكر حِمَار وعَيْر كما يقال فى الحُمُر الإنسية ، وربمـا قيل الفَرَأُ ، وهو من أشدّ الصـيد عَدْوا ولذلك يُضْرَب به المثل فيقال "كُلُّ الصَّيْدِ فى جَنْبِ الفَرَا" أو "فى جَوْف الفَرَا" . وبه تشـبِّه العرب خيْلَها وإبلَها فى السُّرْعة ، ويقال إن الحمـار الوحشىّ لا ينْزُو إلا إذا

كان له من العُمرُ ثلاثون شهرا وإن الانثى لا تَلْقَح منه حتّى يتم له ثلاث سنين، وقيل سنتان وستة أشهر . ويوصف بشدّة الغيرة على أُتُنِه حتّى يقال إن فيها ما إذا وُلِد له ولد ذَكَرٌ كَدَم قَضِيبَه وخُصيَيْه حتّى يقطعهما . قال فى "المصايد والمطارد" وليس يتعلّق به شىء من الضَّوارِى ولا الجوارح إلا العُقَاب، ولا شىءَ أبلغُ فى صيده من الرمى بالنُّشَّاب .

الرابع الغِزْلان — ويقال لها الظِّباء بكسر الظاء واحدها ظَبْى؛ ثم الظِّباء على ثلاثة أضرب : أحدُها البِيض، ويقال لها الآرَام جمع رِئْم، ومساكنُها الرمل، ويقال هى ضأْن الظِّباء . وثانيها الأُدْم؛ وهى ظِباءٌ سُمْر الظُّهور، بيضُ البُطون، طويلةُ الأعناقِ والقوائم؛ وهى أسرعُها عَدْوا . ومساكنها الجبال والشِّعاب . وثالثها العُفْر وهو صنف يعلوه مع البياض حُمْرة؛ قِصار الأعناق؛ ومسكنها صِلَاب الأرض .

ويصيد جميعَها الفَهْدُ والكلبُ والعُقَاب . وتُصاد أيضا بالحِبالة والشَّرَك، وربما صِيدَت بإيقاد النار بإزائها : لأن الظبى إذا رأى النار فى الليل تأملها وأدْمن النظر إليها وعَشِى بصرُه وذَهِل؛ وقد يُضاف إلى النار تحريكُ جَرَس ونحوه فيزداد ذُهُوله فيؤخذ . وتصاد بأمور أخرى غير ذلك .

الخامس الأيابيل — جمع أُيَّل (بضم الهمزة وتشديد الياء المثناة تحت ولام فى الآخر) . وهو حيوان قريبُ الشَّبَه من الظباء، له قرنان فى رأسه كالظبى . قال فى "المصايد والمطارد" وهو معتصم بالجبل قلّما يحُلّ السهلَ، وقُرونه مُصْمَتة لا تجويفَ فيها، ويخلُفُها فى كل عام غيرها، ويبتدئ فى ذلك بعد مضىّ سنتيْن من ولادته، وله أربع أسنان فى كل ناحية من ناحيتَىْ فيه؛ وذَكَرُه عَصَب لا لحم فيه ولا غُضْروفَ ولا عَظْمَ؛ ودمُ كل حيوان يَجْمُد إلا دمه؛ وليس للأُنثى منها قرونٌ البتَّةَ؛ وأصوات ذكورها أحمدُ من أصوات إناثها؛ وهو يرتاح لسماع الغناء . وإذا

مر بشجرة الزيتون ذَلَّ لها، ويأكل الحيات ولا يضره سمها، وسيأتى فى الكلام على الأحجار أن البادزهر الحيوانى من صنف منه . ومن خواصه أنه إذا بخر بقرنه مع كِبْريت أحمر هَرَبت الحيَّات .

السادس الأرانب — جمع أَرْنَب والأرنب مؤنَّثة[(١)] وهى حيوان صغيرة الجُثَّة قصيرة اليدين قريبٌ من لون الثعلب، وليس شىء مما يُوصَف بقِصَر اليدين أسرعَ منها .

ومن خصائصها كثرة الشَّعر حتّى إنه لينبت فى بطون شدقَيْها وتحت رجليها . وقضيبُ ذكر الأرنب من عَظْم ؛ وربما ركبت الأنثى الذكر فى السِّفَاد، ولا ينام الأرنبُ الا مفتوح العين . ومن طبعها أنها تطأ الأرض بباطن كفها لتُعفِّى أثَرَها إلا أن الكلب الماهر يدرك أثر قوائمها .

ومن شأنها أن لا تأوى إلى ساحل البحر، وإذا طُردت لجأتْ إلى الجبال واشتدّ عدْوها فيها، والأنثى لاتسمن، وهى عند العرب مما يحيض، وتُسفَد وهى حبلى، وتلد الأول والثانى على مافى بطنها .

السابع الذِّئاب — جمع ذئب وهو حيوان فى صورة الكلب فى لونه بَلَق بكُمُودة والذئبة أَجْرأُ من الذئب وأشدّ عَدْوا، وأسنانه عظم مخلوق فى فكيه ليست مغروسة فيهما كسائر الحيوان . قال ابن السندى : وأخبرنى أبو بكر الدقيشى أن هذه الخلقة فى أسنان الضبع أيضا، والذئب صاحب خلوة وانفراد . ومتى رأى الإنسانَ قبل أن يراه أخفى صوتَه؛ وإن رآه جَزِع منه اجترأ عليه وساوره، وإذا تسافد هو وأنثاه التحما التحاما شديدا حتّى يقال إنه إذا هجم عليهما داخلٌ فى هذه الحالة قتلهما كيف شاء ولذلك يبعُدان فى هذه الحال إلى مكان لا يُريَان فيه، وإذا تهارش ذئبان فأدمى أحدهما الآخر عدا الذى أَدْمى على المُدْمى فقتله خوفًا من أخذ الثار ،

(١) فى المصباح ويقع على الذكر والانثى وقد يؤنث بالهاء فتدبر .

و إذا عجز الذئب عن الدفع عوىٰ فاجتمع إليــه الذئاب نُصْرةً له ، و إذا لقى الفارسَ والأرض مثلوجة نَحَش الثلج بيديه ورمىٰ به فى وجه الفارس ليُدْهِشه ثم يعقر دابَّته فيتمكَّن منــه، ومتىٰ وطئ الفرسُ أثرَ الذئب رُعِد وخرج الدُّخَان من جســده كله ولذلك قلَّ مَنْ يطرد من الفُرْسان ولا يتفطَّن لوطء أثره . و يصاد بالكلاب وغيرها وقد تقدّم أن السودانىَّ ضرّى ذئبا حتّٰى آصطاد له الظباء .

الثامن الثعالب ـ جمع ثعلب . وهو حيوان معروفٌ، موصوفٌ بكثرة الرَّوَغان فى عَدْوه و بالحيل حتّٰى إنه يتمــاوَتُ عند رؤية الغُراب فينزل عليه الغرابُ علىٰ ظنّ موته ليأكل منه فيقبضَه هو . ومن خُبْثه وحيلته يختاط بكِبار الوُحُوش وجِلّتها ، قال فى "المصايد والمطارد" . ومن فضائله تشبيههم مِشْية الخيل بمِشيته التى يقال لها الثعلبية .

ومن عجائبه أن قضيبه فى خلقة الأنبوبة أو سطُه عظم فى صورة الثقب والباقى عَصَب ولحم . وهو كريم الوَبَر، والأسود من وبره فى الغاية القُصوىٰ، والأبيض منه لا يكاد يُفرَق بينه و بين الفَنَك .

ومن خصائصــه أنه يتمرَّغ فى الزرع فلا ينبُت موضعُه ، وربمــا سَفَد الكلبة فولدت كلبا فى خِلْقة السَّلُوقىّ الذى لا يُقدر علىٰ مثـله . وقد تقدّم ذكـر ذلك فى الكلام علىٰ الكلاب السَّلُوقية . ومواضعه الكروم والآجام ؛ ويصــيده الفهد والكلب وجوارح الطير

التاسع الضِّباع ـ جمع ضبع ، ويقال لها أم عامر ، وهى مما يؤكَل و إن كانت من ذوات الناب لورود النص بذلك ، وتزعُم العرب أنها تكون سنة ذكرا وسنة أنثىٰ .

ومن خصائصها أنها إذا رأت الكلب فى ليــلة مقمرة علىٰ سطح ووطئت ظلَّه وقع فأكلته ، و إذا آقتحم عليها مقتحم وِجارَها وقد سدّ جميع منافذ جحرها حتّٰى يمتنع

منه الضوء فلا يبقى فيه خرم إبرة ، ربطها بحبل وخرج بها ؛ وإن بقى مايدخل منه الضوء ، ولو قَدْرَ سَمِّ إبرة وثبَتْ عليه فأكلته . ومن كان معه شئ من الحنظل لم تقربْه الضبع .

العاشر سِنَّور البر ـ وهو التفا ، وفى حله عند الشافعية وجهان أصحهما التحريم وَصَيدُه يحتاج إلىٰ علاج كبير ، وربمـا وثب علىٰ وجوه الناس ، وطردُه بالحيل من أعسر الطراد ، وأولىٰ مايُصاد به الرمى ، ومنهم من يعدّه فى السباع قال فى "المصايد والمطارد" وقلَّمـا ٱنتُفِع به فى صـيد إلا أنه يَثب علىٰ الكُرْكىّ وما فى مقـداره من الطيور فيصيدُه . أما السِّنَّور الأهلىّ ، وهو الهر المعروف فغير مأكول ولا يصيد إلا الفأر وما فى معناه من خَشَاش الأرض ، ولذلك قال النبي صـلى الله عليه وسلم ، فى الهِرّة ولكنها من الطَّوّافين عليكم بمعنى أنها تطُوف علىٰ النائم فى بيته فتقبض ما لعله يسرح عليه من الخَشَاش .

الحادى عشر الدُّب ـ وهو حيوان قريب فى الصورة من السبع ، وهو يسكن الجبال والمغاير[1] ، والأنثىٰ ترفع ولدها أياما هَرَبا به من الذرّ والنمل لأنها تضعه كقِطعة لحم فلا تزال تنقله وتراعيه حتّى تشتدّ أعضاؤه ، وتجعله تحت شجرة الجوز وتصعَدُها فتجمع الجوزَ فى كفها ثم تضربُ اليمنىٰ علىٰ اليسرىٰ وترمى إليـه ، فإذا شـبع نزلتْ وربمـا قطعتْ من الشجرة العُودَ الذى يعجِز الناسُ عنه وتقبض عليـه فى موضع مقبِض العصا وتشدّ به علىٰ الفارس وغيره فلا تُصيب به شيئا إلا أهلكته . ومن خصيصته أنه يستتر فى الشتاء فلا يظهر إلا فى الصيف بخلاف سائر الحيوان .

الثانى عشر الخنزير ـ وهو حرام بنص القرءان ، نجس فى مذهب الشافعى رضى الله عنه قياسا علىٰ الكلب ؛ بل قالوا إنه أسوأ حالا منـه لعدم حِل ٱقتنائه إلا أنه مباح القَتْل فيكون فى معنىٰ الصيد . وهو حيوان فى نحو مِقدار الحمار وشعرُه كالإبر

(١) الاولى والمغارات كما لا يخفى .

وله نابان بارزان من فَكِّه الأسفلِ. ومن خاصَّته أنه لايُلْقِي شيئا من أسنانه، بخلاف سائر الحيوان فإنها تلقي أسنانَها خلا الأضراس؛ وهو كثير السِّفاد، كثير النَّسْل، حتّى إنه ربما بلغت عدّة خَنَانيصه[(١)] وهى أولاده اثنَيْ عشر خِنَّوْصا[(١)]. قال فى "المصايد والمطارد" وهو من الحيوان البرىّ الجاهل الذى لا يقبَل التأديب والتعليم، ويقبل السِّمَنَ سريعا، ويقال إنه إذا جعل بين الخيل سَمِنت.

الثالث عشر السَّمُّور - (بفتح السين وبالميم المشدّدة المضمومة علىٰ وزن السَّفُّود والكَلُّوب). وهو حيوان برّى يشبه السِّنَّوْر، وقد يكون أكبر منه. قال عبد اللطيف البغدادى: وهو حيوان جَرِىء ليس فى الحيوان أجرأُ منه علىٰ الإنسان، لايُصاد إلا بالحِيَل؛ ووقع للنووى فى تهذيب الأسماء واللغات أن السَّمُّور طير، ولعله سبق قلم منه وأغرب آبن هُشام البستىّ فى شرح الفصيح فقال: إنه ضرب من الجن. والتحقيق أنه من جملة الوحوش كما تقدّم. وحكمه حِلُّ أكله، ومنه يتخذ نَفِيس الفِراء التى لا يلبَسُها إلا الملوك وأكابر الأعيان ممن يدانى الملوك لحُسْنها ودِفائها؛ وأحسنه ما كان منه شديدَ النُّعومة مائلا إلىٰ السواد.

الرابع عشر الفَنَك - (بفتح الفاء والنون) وهو دُوَيْبَّة لطيفة، لها وبَرحَسَنٌ أبيض يخالطه بعضُ حمرة يُتَّخذ من جُلودِه الفراء. قال آبن البيطار: وفروُه أطيبُ من جميع الفِراء، ومزاجه أبردُ من السَّمُّور وأحر من السنجاب، ويصلح للأبدان المعتدلة قال وكثيرا مايُجلَب من بلاد الصَّقَالبة.

الخامس عشر القاقُمُ - (بقافين الثانية منهما مضمومة) وهو دُوَيْبَّة فى قدر الفأر لها شعر أبيض ناعم، ومنه يُتَّخَذُ الفراء، وهو أبرد مِزَاجا وأرطبُ من السِّنْجاب؛ ولذلك كان لونُه البياضَ، وهو أعز قيمة من السنجاب.

(١) فى الأصل بالسين وهو تصحيف أنظر كتب اللغة.

السادس عشر الدَّلَق ـ (بفتح الدال المهملة واللام وقاف فى الآخر) فارسىّ معرّب، وهو دُوَيْبَّة تقرب من السَّمُّور . قال عبد اللطيف البغدادى: وهو يفترِس فى بعض الأحايين ويكْرَع فى الدم . وذكر ٱبن فارس أنه النِّمس . وقد ذكر الرافعىّ أنه يسمّى ٱبن مُقْرِض والمعروف أن الدَّلَق حيوان تتخذ منه الفِراء .

السابع عشر السِّنجاب ـ وهو حيوان أكبر من الفأر ووَبَرُه فى غاية النُّعومة وجلده فى نهاية القوّة . وحكمه الحِلُّ ، وقال بتحريمه بعض الحنابلة . ويتخذ من جلده الفِراء النَّفيسة التى يلبَسها أعيانُ الناس ورؤساؤُهم . ومن شأنه أنه إذا أبصر الإنسان صَعِد الشجر العالى ، وفيها يأوِى ، ومنها يأكل ؛ وهو كثير ببلاد الفرنج والصقالبة ؛ وأحسن ألوانه الأزرقُ ؛ ثم إنه يقال إنه ربما تبقىٰ زُرْقته[(١)] لأنه يُخنق ولا يُذَكّىٰ ، فإن صح ذلك فهو ميتة لا يطهرُ شعره بالدباغ علىٰ أظهر القولين من مذهب الشافعى رضى الله عنه خلافا للأستاذ أبى إسحاق الاسفراينى وٱبن أبى عَصْرون فإنهما يريان طهارة الشعر بالدباغ وهو رواية الربيع الجيزىّ عن الشافعى وٱختاره الشيخ تقىّ الدين السبكى رحمه الله .

الثامن عشر سِنَّور الزَّباد ـ وهو فى صورة السِّنَّور الأهلىّ إلا أنه أطول ذَنَبا منه وأكبرُ جثّة ، ولونه إلىٰ السواد أميلُ ، وربما كان أنمَر ، وهو يُجْلَب من بلاد الهند والسند ، والزَّبَاد فيه شبيه بالوسخ الأسود اللزج ، ذَفِر الرائحة ، يخالطه طِيب كطيب المسك ، ويوجد فى باطن إبطه ، وباطن أفخاذه ، وباطن ذنبه ، وحول دُبُره . فيؤخذ من هذه الأماكن بمِلْعقة ونحوها .

التاسع عشر السِّنَّور الأهلىّ ـ (وهو الهرّ) ويقال فى أصل خلقه إن أهل السفينة شكَوْا إلىٰ نوح عليه السلام ضرر الفأر فمسح علىٰ وجه الأسد بيده فعَطَس فخرج السِّنَّور من أنفه ولذلك هو يشبهه فى التكوين وكيفية الأعضاء ، وفيه مشاركة

(١) كذا بالأصل .

للإنسان فى خصال . منها أنه يَعْطِسُ، و يتثاءب، ويتناول الشىء بيــده ، و يأكل اللحم، ويمسح وجهه بلُعابه كأنه يغسله ، وإذا آتسخ شىء من بدنه نظّفه ، وإذا قضىٰ حاجته خبأ ما يخرج منه ، ويشَمُّه حتّى تخفىٰ رائحته . ويقال إنه يفعل ذلك كيلا يشَمَّه الفأر فيهرُب ، وهو يهيج للسِّفاد فى آخر الشتاء ، ويُكثِر الصياح حينئذ ، وتحمل الأنثىٰ منه مرة فى السنة ، وتُقِيم حاملا خمسين يوما ، وإذا ألف منزلا منع غيره من السنانير من الدخول إليه ، وإذا طرده أهل البيت تملّق لهم وترقق ، وإذا آختطف شيئا هرب به خوفَ المعاقبة عليه . والهرّةُ إذا جاعت أكلت أولادها ـ ويقال إنها تفعل ذلك من شدّة الحنوّ . وقد ذكر القَزْوِينىُّ أن نوعا من السنانير له أجنحة كأجنحة الخفافيش متصلة من أذنها إلىٰ ذنبها .

العشرون النِّمْس ـ قال الجوهرى : وهو دُوَيْبّة عريضة كأنها قطعة قَدِيد ، تكون بأرض مصر تقتل الثُّعْبان ، والنِّمس بمصر معروفٌ ـ وهو حيوان قصير اليدين والرجلين أغبَرُ اللون ، طويل الذَّنَب ، يصيد الدَّجاج ، وإذا رأىٰ ثعبانا قبض عليه وقتله ، وربمـا صيد وأُنِّس فتأنَّس .

فإذا علم الكاتب صفاتِ الوحوش وخصائصَها ، عرف كيف يُورد الجليل منها من الأسد والفيل ونحوها مواردَه فى الوصف ، وكيف يصف ضوارِىَ الصيد كالفَهْد وكيف يصف وحوش الصـيد كالظِّباء ، وبقر الوحش ، وحُمُر الوحش وغيرها . وكذلك مايقع من التشبيهات بشىء من الحيوان كما قال بعض الشعراء :

وتَجْتَنِبُ الأُسُودُ وُرُودَ ماءٍ * إذا كان الكلابُ يَلَغْنَ فيــهِ

وكما أنشد الجاحظ :

جاءتْ مع الأفشين فى هَوْدج * تُزْجِى إلىٰ البَصْرة أجنادَها
كأنَّهـا فى فِعْلهــا هِــرَّة * تُرِيد أنْ تأكُلَ أولادَها

مشيرا بذلك إلىٰ ماتقدم من أكل الهرّة أولادها وغير ذلك مما يجرى هذا المَجْرىٰ وسيأتى ذكر مافى معنىٰ ذلك من الرسائل المتعلقة بأوصاف الحيوان فى المقالة العاشرة المعدّة لذلك إن شاء الله تعالىٰ .

النـــوع الرابع
(فيما يحتاج إلىٰ وصفه من الطيور)

ويحتاج الكاتب إلىٰ ذلك فى رسائل الصيد، و إهداء الجوارح، والجواب عن إهدائها، وكتابة قدم البُنْدق، وما يجرى مَجْرىٰ ذلك؛ وهو علىٰ أربعة أصناف .

الصـــنف الأوّل
(الجـــوارح)

وهى يُصاد بها الطير والوحش؛ ويحتاج الكاتب إلىٰ وصفها فى الرسائل الصيديّة وفى إهداء شىء من الجوارح أو الجواب عنها .

واعلم أن الصائد الكبير الجُثّة المعتبرَ فى الصيد فى جميع أجناس الجوارح هى الإناث ؛ أما ذكورها فإنها ألطف فى المقدار وأضعَفُ فى الصـيد علىٰ مايأتى بيانه فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ . قال فى "التعريف" ويستحب فى الجوارح كِبَرهامتها ، ونتوّ صدْرها ، وٱتساع حَماليقها ، وقوّة إبصارها ، وحدّة مَنَاسِرها ، وصفاءُ ألوانها ، ونُعومة رِيَاشها ، وقوّة قَوادمها ، وتكاثُفُ خَوافيها ، وثِقَل محملها ، وخِفَّةُ وَثَباتها ، وٱشتدادها فى الطلب ، ونَهَمها فى الأكل ؛ وقد قسمها فى "التعريف" إلىٰ قسمين : صُقُور و بُزَاة ، وفرّق بينهما بأن الصَّقْر ما كان أسودَ العين والبازِىَ ما كان أصفر العين علىٰ ٱختلاف المسَمَّيات ، ثم قال " أما العُقَاب فإنه لا يعدّ فى الصُّقور ولا فى البُزَاة وهو معدود فى الجوارح ، وفى الطير الجليل" . و بالجملة فالجوارح علىٰ ثلاثة أقسام .

القسم الأوّل

(العُــقَاب ، وهو ضربان)

الضرب الأوّل ـ المخصوص باسم العُقَاب وهى مؤنّثة لاتذكّر، وبجمع علىٰ عِقْبان وأَعْقُب . قال فى "المصايد والمطارد" وهى من أعظم الجوارح ، وليس بعد النَّسْر فى الطير أعظم منها . وأصل لونها السواد .

فمنها سوداء دَجُوجِيّة، وخُدَارِيَّة، وهى التى لابَيَاضَ فيها . ومنها البَقْعاء ـ وهى التى يخالط سوادَها بياضٌ . ومنها الشَّقْراء ـ وهى التى فى رأسها نُقَط بياض . قال أبو عبيدة ويونس : ويقال لذكر العُقَاب الغَرَنُ بفتح الغين والراء المهملة ـ ويقال إن ذُكور العُقْبان من طير آخَر لِطافِ الجرم، لاتُساوى شيئا، تلعب بها الصِّبْيان . والعُقَاب من أسرع الطير طَيَرانا، فقد حُكى أن عُقَابا حملت كفّ عبد الرحمن بن عَتَّاب ابن أسيد المسمّى بيَعْسُوب قريش، المقتول يوم الجمل بالكوفة، فألقتْها بمكة فأُخذتْ فوُجِد بها حَلْقــة فعرف أنها كفه ، وأُرِّخ ذلك الوقت فتبــيَّن أنها ألقتها يوم الجمل الذى قتل فيه، وأوّلُ مَن صادها أهلُ المغرب، فلما نظرت الرُّوم إلىٰ شِدّة أمرها وإفراط سُلَاحها قال حكماؤهم هذا لايفِى خيرُه بشرِّه .

وصفة الوثيق النجيب منها وَثَاقَةُ الخلق، وثُبُوت الأركان، وحُمْرة اللون، وغُئُــور العين بالحماليق، وأن تكون صَقْعاء، عَجْزاءَ، لا سيما ما كان منها من أرض سُرْتَ أو جبال المَغْرب. وهى تصيد الظِّباءَ والثَّعالِبَ والأرانب، وقد تصيد حُمُر الوحش، وطريق صيدها إيَّاها أنها إذا نظرتْ حِمار الوحش رمتْ بنفسها فى المــاء حتّٰى يبتلَّ جناحاها ثم تخرج فتقع علىٰ التراب فتحمل منه ومن الرمل ما يَعْلَق بهــما ، ثم تطير طَيَرانا ثقيــلا حتّٰى تقع علىٰ هامته فتُصفِّق علىٰ عينيه بجناحيها فيمتلئان ترابا من ذلك

التراب الذى عَلِق بجناحيها ، فلا تستطيع المَسيرَ بعد ذلك فيدركها القانصُ فيأخذها وربما كسَرت الآدمىَّ .

ومما يحكىٰ فى ذلك أن قيصر ملك الرُّوم أهدىٰ إلىٰ كسرىٰ ملك الفُرْس عُقَابا ، وكتب إليه إنها تعمل أكثَرَ من عمل الصُّقُور ، فأمر بها كسرىٰ فأُرسلتْ علىٰ ظبْي فاقتنصته ، فأعجبه ما رأىٰ منها فانصرف وجوّعها ليصيد بها فوثبت علىٰ صبىّ له فقتلته ، فقال كسرىٰ : إن قيصر قد جعل بيننا و بينه دما ثائرا بغير جَيْش . ثم إن كسرىٰ أهدىٰ إلىٰ قيصر نَمِرا وكتب إليه : أن قد بعثت إليك فَهْدا يقتل الظباء وأمثالها من الوحش ، وكتم ما صنعت العُقَاب فأَعجَبَ قيصرَ حسنُ النمر ووافق صفتُه ما وصف من الفهد وغفل عنه فافترس بعض فِتْيانه فقال صادنا كسرىٰ .

ومن شأنها أنها لاتطلب شيئا من الوحش الذى تصيده ، وهى لاتقرُب إنسانا أبدا خوفا من أن يطلب صيدها ، ولاتزال مرقبة[(1)] علىٰ مرقب عال ، فإذا رأت بعضَ سباع الطير قد صاد شيئا انقضَّت عليه ، فإذا أبصرها هرب وترك الصيد لها ، فإن جاعتْ لم يمتنع عليها الذئبُ فى صيدها ، وربما اغتالت البُزَاة فقتلتْها ،

ومن خصائصها أنها أشدّ إخفاء لفِراخها من سائر الطير . قال غِطْريف بن قُدَامة الغسانى صاحب صَيْد هشام بن عبد الملك : "وأوّلُ من لعب بالعُقَاب أهلُ المغرب" ، فلما عرفوا أسرارها نَفَّذوه إلىٰ ملك الروم فاستدعىٰ جميع حكمائه فقال لهم : انظروا فى قوة هذا الطير ، وعِظَم سلاحه ، كيف تجب تربيته ، وتعرّفوا أسراره فى صيده وتعليمه ، وكيف ينبغى أن يكون ـ فأجابوا جميعا بأن هذا الطائر دون سائر أجناسه كالأسد فى سائر الوحوش وكما أن الأسد ملك كذلك هذا ملك بين سائر سباع الطير ـ وعند العداوة والغضب كلُّ الأجناس عنده من سائر الحيوان

---

(1) لعله مرتقبة

علىٰ آختلاف أنواعه واحد لقوّة غضـبه وشدّة بأسه فهو لا يستعظم الآدمىّ ولا غيره من الحيوان .

الضرب الثانى ـ الزُّمَّج (بضم الزاى وفتح الميم المشدّدة ثم جيم) والعامّة تبدل الزاى جيما والجيم زايا ـ وهو طائر معروف تصيد به الملوكُ الوحشَ ، وأهل البيْزرة يعُدّونه من خِفَاف الطير الجوارح ، إلا أنهم يِصفُونه بالغَدْر وقِلّة الإلف لكثافة طبعه وكونه لا يقبل التعليم إلا بعد بطء ،

ومن عادته أنه يصيد علىٰ وجه الأرض . وأحسن صفاته أن يكون أحمر اللون . وقال الليث : الزُّمَّج طائر دون العُقاب حمرتُه غالبة ، والعجم تسميه دُوْبَرَا دَرَان ومعناه أنه إن عجز عن الصيد أعانه عليه أخوه .

القسم الثانى

(من الجوارح البُزَاة . وهى ما آصفرّت عينُه ،
وهى علىٰ خمسة أضرب)

الأوّل ـ البازى المختص فى زماننا باسم البازى ؛ وفى ضبطه ثلاثُ لغات أفصحها بازِى بكسر الزاى وتخفيف الياء فى الآخر ، والثانى بازٍ بغير ياء فى آخره ، والثالث بازىّ باثبات الياء وتشديدها حكاها آبن سـيده ؛ ويقال فى التثنية بازِيَان وفى الجمع بوَازٍ وبُزَاة ـ ولفظه مشتق من البَزَوان ـ وهو الوَثْب . وهو خفيف الجَنَـاح ، سريع الطَّيَران . وهو من أشرف الطُّيور الجوارح ، وأحرصها علىٰ طَلَب صيده . ففى أخبار نصر بن سَيَّار أن بعض كُبَراء الدَّهَاقِينِ غَدَا عليـه بطَبَرِسْتان ومعه مِنْدِيل فيـه شىءٌ ملفّف ، فكشف عنه بين يديه فإذا فيه شِلْو بازٍ ودُرّاجة ، فأطلقه عليها فأحسَّت به ، وكنت قد أمرت بإحراق قَصَب قد أفسـد أرضا لى فتحاملت الدُّرّاجة حتّى

ٱقتحمت النارَ هاربة من البازى ،وٱشتدّ طلبه لهـا وحرصه عليها فلم تردّه النارُ عنها وٱقتحمها فى أثرهـا فأسرعَتْ فيهما فأدركهما وقد ٱحترقا، فأحضرهمـا إلىٰ الأمير ليراهما فيرىٰ بهما ثمرَةَ إفراط الحرص و إفراط الجُبْن . وهو من أشدّ الحيوان كبْرا وأضيقها خُلُقـا . قال القَزْوينىّ ولا يكون إلا أُنْثىٰ، وذكرها نوع آخر من حِدَأة أو شاهينٍ أوغيرهما . ولذلك تختلف أشكالُها . والبازى قليل الصبر علىٰ العطَش ومأواه مساقِطُ الشجَرِ .

ومن فضـيلته أن الصيد فيه طبيعةٌ لأنه يؤخذ من وَكْره فرخا منْ غير أن يكون يَصيد مع أبويه فيصيد ٱبتداء وقريحةً من غير تضرية، بخلاف الصقر فإنه إذا أخذ قبل أن يتصيد مع أبويه لم يَنْجُب ولم يصِدْ، و إذا كان قد لحق أبويه وصاد معهما ثم عُوِّد أكثَرَ ممـا يوجد عنـده فى تلك الحـال وجُرِّئَ علىٰ ما هو أكبر من الظباء اعتاد ذلك ومَهَر فيه .قال صاحب "المصايد والمطارد" : وعددُ ريش جَناح البازى عشرون ريشةً ، أربع قوادم، وأربع منا كِبُ، وأربع أباهِرُ، وأربع كُلًى، وأربع خَوافٍ . و يقال سبعُ قوادمُ ، وسـبعُ خَوَافٍ ، وسائره لَغَب . والخَوَافى أخفُّ من القوادم .

والمستحب من صفاته صغر المِنْسَر، والرأس، وغِلَظ العنق، وسَعة اللحيين ، ودائرتى الأذنين والشِّدْقين، وسَعةُ الحَدَقة،وطُول القَوَادم،وقِصرُ الخوافى والذَّنَب، وشِدّة اللحم ، وعِرَض مابين المنكبين والزَّوْر، وسَعة الحَوْصَلاء، وسَعة ماينتقل إليه طُعْمه، وعِرَض المَخالب، ورَزَانة المَحْمَل، وغِلَظ خُطوط الصدر، وذَكاء القلب، والتشميرُ، وكثرةُ الأكل ، وتتابعُ النَّهْش، وسُرعةُ الاستمراء ، وشدّة الٱنتفاض، وضخامة السُّلَاح[1]، وبُعدالذَّرْق . وأن تراه كأنه مُقْعِيًا[1] إذا استقبلته علىٰ يد حامله تشبيها بالغُراب الأبْقَع . قال صاحب " المصايد والمطارد" : والمختـار من ألوانها الأحمرُ

(١) كذا فى الاصل .

الأكثرُ سوادا ، الغليظُ خطُوط الصـدر ، والأشهبُ الشـديدُ الشُّهبة ، الشَّبيه بالأبيض ، والأصفر المدبَّج الظهر . قال : وسواد لسانه أدلُّ علىٰ نجابته ،

والبازى يصـيد الكلبَ ، والأرنبَ ، والغزالَ ، والكُرْكِىَّ ومافى معناه ، والدُّرّاجَ ، والحجلَ ، وسائر الحمام ، والبطَّ ، وسائر طيور المـاء .

ومن محاسن البازى عدمُ الإباق فإنه إن صاد بَقِىَ علىٰ فريسته و إن لم يصد وقف مكانه فلا يحتـاج إلىٰ كدّ ولا تعب ولا طَرْد خيـل . وأوّل من صاده من الملوك قُسْطنطين ملك الروم ــ وذلك أنه مر يوما بِلِحْف جبل فرأىٰ بازياً يطير ثم نزل علىٰ شجرة كثيرة الأغصان كبيرة الشوك ، فأعجبته صورته ، وراقه حسنُ لباسـه ، فأمر بأن يصاد له جملةٌ من البُزاة فصيدتْ له وحملت إليه فٱرتبطها فى مجلسـه ، فعرض لبعضها فى بعض الايام أيْمٌ[1] فوثب عليه فقتله ــ فقال : هذا ملك يُغضبـه ما يغضبُ الملوكَ فنصب له بين يديه كندرة ، وكان هناك ثعلب داجنٌ ، وهو الذى يربىٰ فى البيوت فوثَب عليه فمـا أفْلت إلا جريحا ــ فقال هذا ملك جبَّار لايحتمل ضيما ــ ثم مرّ به طائر فكسَره ونهش منـه ــ فقال هـذا ملكُ نوعه لمـا جاع أخذ طعامه بسلطان وقدرة ــ فحمله علىٰ يده وصاد به .

الثانى الزُّرّق ــ (بضم الزاى المعجمة وتشـديد الراء المهـملة المفتوحة وقاف فى الآخر) وهو ذكر البازى قال فى "المصايد والمطارد" وهو يصيد ما يصيد البازى من دِقّ الطير ولا ينتهى إلىٰ صيد الكُرْكِىّ .

الثالث الفقيمى[2] ــ وهو بازٍ قضيفٌ قليل الصيد ذاهلُ النفس .

الرابع الباشَق ــ (بكسر الشين وفتحها) فارسى معرّب وهو طائر لطيف

(١) الايم الحية انظر القاموس (٢) فى حياة الحيوان العقصى ولم نجدهما فى القاموس .

وصــفاته المحمودة كصفات البازى المحمودة . وأفضلها أثقلها وزنا قال فى" المصايد والمطارد" وهو يصيد العصافير وما قاربها . وقال فى حياة الحيوان : إنه يصيد آخر مايصيده البازى وهو الدُّرّاج والحَمَام والوَرَشان، وإذا قوىَ على صــيده لايتركه إلا أن يتلَفَ أحدهمـــا .

الخامس البَيْدق ـــ وهو دون الباشق، وصيدُه العصافيرُ .

القسم الثـــالث

(من الجوارح الصقور ـــ وهى السُّود العيون من الجوارح ؛ وهى ضربان)

الضرب الأوّل ـــ الشَّواهين (واحدها شاهين) وهى صنفان . الأوّل المشتهر باسم الشاهين وقد ذكر العلمـــاء بالجوارح أن الشَّواهين هى أسرع الجَوارِح كلها وأشجَعُها وأخفُّها وأحسنُها تقلبا، وإقبالا، وإدبارا، وأشدّها ضَراوةً على الصيد؛ إلا أنهم عابوها بالإبَاق وما يعتريها من شدّة الحِرْص، حتّى إنها ربمـــا ضربَتْ نفسها على الغَلْظ من الأرض فماتتْ، وهى أصلب عظاما من غيرها من سائر الجوارح ـــ ويقال إن صدرها عَصَب مجدول مُلْحم . ولذلك تجدها تضرب بصدرها ثم تَعْلَق بكفها، وهم يحمَدُون منها ماقَرْنَص داجناً دُون ماقرنص وحشِيًّا .

ومن كلام بعضهم : الشاهين كآسمه يعنى كالميزان المسمَّى بالشاهين، فإنها لا تحمل أيسر حال من الشبع ولا أيسر حال من الجوع؛ بل حالُها معتدل كاعتدال الميزان . ويقال إن الحمـــام يخافها أكثَرَ ممـــا يخاف غيرها من الصقور .

ثم المختار من صــفاتها فيما ذكره صاحب " المصايد والمطارد" الأحمرُ اللونِ إذا كان عظيم الهامة، واسع العينيـــن حادّهما، سائل السُّفْعتين، تامّ المَنْسِر، طويلَ العُنُق، رَحْب الصــدر، ممتلئ الزَّوْر، عرِيض الوسَــط، جليل الفخذين، قصير

الساقين ، قريب القعدة من القفا ، طويلُ الجناحين ، قصير الذَّنَب ، سَبْط الكف ، غليظ دائرة الخَصْر ، قليل الريش ليِّنه ، تامّ الخَوافى ، ممتلئ العكوة ، رقيق الذَّنَب إذا صلب عليه جناحيه لم يفضل عنهما شيء من ذنبه . قال صاحب "المصايد والمطارد" وأهل الاسكندرية يزعمون أن السود منها هى المحمودة وأن السواد هو أصل لونها و إنما آنقلبت إلىٰ لون البرارى لخالت . قال والحمر منها تكونُ فى الأرياف والمواضع السَّهْلة ، والشُّهُب فى الجبال والبرارى . ثم قال ولا يصيد منها الكركىّ والحَبْرَج إلا البَحْريَّة . وأول من صادها فيما يقال قُسْطنطين ملكُ الروم أيضا ، وذلك أنه رأىٰ شاهينا محلِّقا علىٰ طير الماء يصطاده فأعجبه ماعاين من فَرَاهته ، وسُرْعة طيرانه وحُسْن صيده ؛ فإنه رآه يحَلِّق فى طيرانه حتّىٰ يلحق بعَنَان الجوّ ثم يعود فى طرفة عين فيضْرِب طيرَ الماء فيأخذُه قِنَاصا . فقال ينبغى أن يصاد هذا الطائر ويُعَلَّم ، فإن كان قابلا للتعليم ظهر منه أُعْجوبة فى أمر الصيد ، فأمر بصيده وتعليمه فصيد وعلم وحمله علىٰ يده . قال فى "المصايد والمطارد" وانه كان من رتبة ملوك الروم أنه إذا ركب سارت الشواهين حائمة علىٰ رأس الملك حتّىٰ ينزل فتقع حَوْله إلىٰ أن ركب بها ملك منهم ، وسار وهى علىٰ رأسه فطار طائر فانقضَّ بعض تلك الشواهين عليه فاقتنصه وأُعْجب الملك به فضَرَّاها علىٰ الصيد وصاد بها .

وقال آبن عُفَير : كانت ملوك العرب إذا ركبت فى مواكبها طيَّروا الشواهين فوق رءوسهم ، وكان ذلك عندهم هو الرتبة العظيمة .

الثانى من الشواهين الأنيوه [1] قال فى "المصايد والمطارد" وهو دونَ الشاهين فى القوة ، وله سُرْعة لاتزيد علىٰ صيد العصافير .

الضرب الثانى — من الصقور ماعدا الشواهين وهى أصناف .

الأوّل السُّنْقر . قال فى "التعريف" وهو أشرفُ الجوَارح و إن كان لا ذِكْرَ له

(١) لم نعثر على هذا الاسم .

فى القـديم . قال والسَّنَاقِر تُجْلَب من البحر الشامىّ مغالًى فى أثمـانها . ثم قال وكان الواحد منها يبلُغ ألف دينار، ثم نزل عن تلك الرتبة، وآنحط عن تلك الهَضْبة .

الثانى ــ المخصوص فى زماننا باسم الصَّقْر ويجمع علىٰ أصْقُر وصُقُور وصُقور وصَقورَة قال فى "التعريف" والعرب تسمى هذا النوع الحُرّ . ويقال له الأكدر، والأجْدل . قال فى "المصايد والمطارد" ويقال لهـا بِغَال الطير : لأنها أصبر علىٰ الأذىٰ، وأحمل لغليظ الغـذاء، وأحسن إلفا ، وأشـدّ إقداما علىٰ جِلَّة الطير، ومِزَاجُه أبرد من البازى والشاهين، وبسبب ذلك يُضَرَّى علىٰ الغزال والأرنب ولا يُضَرَّى علىٰ الطير لأنه يفوته، وهو أهدىٰ من البازى نَفْسا، وأسرع آستئناسا بالناس وأكثرها قُنعا ، وأبردُ مِزاجا ، لا يشرب ماءً وإن أقام دهرا . ونوع يُوصـف بالبَخَر ونَتْن الفم ومسكنه المغائر والكهوف وصُـدوع الجبال دون رءوس الأشجـار وأعالى الجبال، والعـرب تحمَدُ من الصُّقُور ما قَرْنص وحشيًّا ، وتذم ما قرنص داجِناً ، وتقول إنه يتبلد ولا يكاد يفلح . وهى تصيد الكُركىّ ومافى معناه، والبَطَّ وسائر طير المـاء .

والصقور من أثبت الجوارح جنَانا فى الطيران ، وأحرصها فى آتباع الصيد، حتىٰ يحكى أن بعض ملوك مصر أرسـل صقرا علىٰ كركىّ صبيحة يوم الجمعـة بمصر فبينما الناسُ يصلُّون الجمعة بدمشق إذ وقع هو والكركىّ بالجامع الأموىّ بدمشق ، فأخذ فوجد فيـه لَوْحُ السلطان فعرف به، فكتب نائب الشام إلىٰ السلطان يخبره وأرسله إليه هو وصيده . قال فى " المصايد والمطارد " ومن ألوان الصقر كونه أحمر، وأبغَثَ، وأحوىٰ ، وأبيضَ، وأخْرجَ، وهو الذى فيه نقط بيض . قال ويستحب فى الصقر أن يكون أحمرَ اللون، عظيمَ الهـامة، واسعَ العينين، تامّ المَنْسِر، طويلَ العُنُق، رَحْب الصَّـدْرِ، ممتلئ الزَّوْر، عريض الوَسَـط، جليل الفَخِذين، قصير الساقَيْنِ، قريب القَعْدة من القفا، طويلَ الجناحيْنِ، قصيرَ الذَّنَب، سَبْط الكف،

غليظَ الأصابع فيروزَجَها، أسود اللسان . قال وتجمع هذه الصفاتُ الفَرَاهةَ والوَثاقةَ والسرعةَ . قال أدهم بن محرز : وأوّل من لعب بالصقر الحارثُ بن معاوية بن كِنْدَةَ الكِنْدِيّ ـ خرج يوما الى الصيد فرأى صيَّادين قد نصبوا شِبَاكا عِدّة، فوقع فيها عصا فيرُ عدّة فحين رآها صقر من الجوّ آنقضّ عليها يطلُبها فأمر الحارث بنصْب الشباك للصقور فنُصِبت لها فآصطاد منها جملةً . ويقال إن صيد الصقر غير طبيعيّ له . وإنما يستفيد ذلك بالتعليم بدليل أن فراخ الباز إذا أخذت من العُشّ وعلّمت آصطادت أجودَ صيد لأن صيدها طبيعيّ بخلاف الصقر فإنه إذا أخذ من الوَكْر ثم كَبِر فإنه لايصطاد غير طُعْمه فلذلك يُنْهى عن تربية الصقر .

الثالث الكُونَج ـ قال فى حياة الحيوان نسبته من الصقور كنسبة الزُّرّق إلى البازى إلا أنه أحرُّ منه، ولذلك كان أخفّ جناحا وأقلّ بَخَرا . قال ويصيد أشياءَ من طير الماء ويعجز عن الغَزال لصِغره .

الرابع الكُوهِيَّة ـ وهى موشّاة بالبياض والسواد يخالط لونَها صُفْرة، قال فى "التعريف" وتجلب من البحر .

الخامس السقاوة، وهى قريبة الشكل من الصقر .

السادس اليُؤْيُؤ ـ (بضم الياء المثناة تحت وهمزة بعدها وضم الثانية وهمزة بعدها أيضا) قال فى "المصايد والمطارد" وتسميه أهل مصر والشام الجَلَم، وبهذا سماه فى "التعريف" وهو طائر صغير أسود اللون يَضْرِب للزُّرْقة ، وهى مع صغرها يجتمع الاثنان منها على الكركىّ فيصيدانه، وسمَّوه الجَلَم أخذا من الجَلَم : وهو المِقَصّ تشبيها به لأن له سرعةً كسُرْعة المِقَص فى قطعه، ومزاجُه بالنسبة إلى الباشَق بارد رَطْب لأنه أصبر نَفْسا منه ، وأثقل حركةً . وهو يشرب الماء شُرْبا ضروريا كما يشربه الباشَق، ومزاجه بالنسبة إلى الصقر حارّ يابس ولذلك هو أشجعُ منه . ويقال

إن أوّل من ضرّاه على الصيد وآصطاد به بهْرام جور : أحدُ ملوك الفرس ، وذلك أنه رأى يُؤْيُؤا يطارد قُنْبُرة ، ويراوغها ، ويرتفع معها ثم لم يتركها حتّى صادها ؛ فأمر بتأديبه والصيد به .

الصـــــنف الثـانى

(الطير الجليـــل)

وهو المعبر عنه بطير الواجب ، وبه تعتنى رماة البندق ونحوها ، وتفتخر بإصابته وصَرْعه ويحتاج إليه فى الرسـائل الصـيدية ، وفى كتابة قدم البندق ونحوها . وهو أربعـة عشر طائرا ؛ وهى على ضربين .

الضرب الأوّل ـ طيور الشتاء ـ وهى التى يكثر وُجْدانها فيه ـ وهى عشرة طيور .

الأوّل الكُرْكِىُّ ـ وهو طائر أغبرُ ، طويل الساقين ، فى قدر الإوزّة ، ويجمع على كَراكِىّ ؛ وفى طبعه خَوَر يحمله على التحارُس ، حتّى إنه إذا آجتمع جماعة من الكَراكِىّ لابدّ لهـا من حارس يحرسها بالنَّوْبة بينها . ومن شأن الذى يحرُس منها أن يهتف بصوت خَفِىّ كأنه ينذر بأنه حارس فإذا قضى نوبتـه ، قام واحد ممن كان نائمـا يحرُس مكانه حتّى يقضى كلٌّ منها نوبتَه من الحِراسة ، ولا تطير متفرّقة بل صـفًّا واحدا ، يقْدَمها واحد منها كالرئيس لها وهى تتبعه ، يكون ذلك حينا ثم يخلفه آخرُ منها مقدّما حتّى يصـير الذى كان مقدّما مؤخّرا ، وفى طبعها التناصُر والتعاضُد . ومن خاصتها أنّ أنثاها لاتقعد للسفاد بل يَسْفِدها وهى قائمة ، ويكون سفاده سريعا كالعصفور . وذكر جُمَيع بن عمير التميمى أنّ الكراكِىّ تبيض فى السماء ، ولا تقع فِراخُها ، وكذبه المحدّثون فى ذلك وإن كان قد روى عنه أهل السنن .

قال القَزوِينى فى عجائب المخلوقات ، والكُرْكِىُّ لايمشى على الأرض إلا بإحدى رجليه

ويعلّق الأُخرىٰ ، وإن وضعها وضعا خفيفا مخافة أن تُخسَف به الأرضُ قال في "المصايد والمطارد" وهو من أبعد الطير صَوْتا يُسمَع علىٰ أميال . قال وإذا تقدّم مجيئها في الفصل ٱستُدِلّ بذلك علىٰ قوّة الشتاء . ويقال إن الكراكيّ تأتي إلىٰ مصر من بلاد التُّرك . وفي طلبه وصيده تتغالىٰ ملوكُ مصر تغَاليا لايدرك حدّه ، وتنفق في ذلك الأموال الجَمَّة التي لانهاية لها . وكان لهم من علو الشأن بذلك مالا يكون لغيرهم . وأكله حلال بلا نِزاع .

الثاني الإوز – بكسر الهمزة وفتح الواو – واحدته إوزّة وجمعوه علىٰ إوزُّون والمراد هنا الإوز المعروف بالتركيّ ، وهو طير في قدر الإوز البلديّ أبيضُ اللون . وله تبختُر في مِشيته كالحَجَل ، وهو من جملة طير الماء مقطوع بحل أكله .

الثالث اللَّغْلَغ – وهو دون الإوز في المقدار ، لونه كلون الإوز الحبشيّ إلىٰ السواد ، أبيض الجَفْن ، أصفر العين . ويعرف في مصر بالعِرَاقي ، ويأتي إليها في مبادئ طلوع زرعها في زمن إتيان الكراكيّ إليها . ومن شأنها أن يتقدّمها واحد منها كالدليل لها ، ثم قد تكون صفا واحدا ممتدّا كالحبل ودليلُها في وسطها متقدِّمٌ عليها بعضَ التقدّم . وقد يصُفُّ خلفه صفين ممتدّين يلْقيانِه في زاوية حادّة حتى يصير كأنه حرف جيم بلا عراقة ، متساوية الطرفين . ومن خاصتها أنها إذا كبِرت حدث في بياض بطونها وصدورها نقطٌ سُود ، والفرخ منها لا يعتريه ذلك .

الرابع الحُبْرج – (بضم الحاء المهملة وسكون الموحدة وضم الراء المهملة وجيم في الآخر) – وهو الحُبارىٰ . قال في "المصايد والمطارد" ويقع علىٰ الذكر والأنثى ويجمع علىٰ حُبارَيَات وذكر غيره أنّ واحده وجمعه سواء . وبعضهم يقول إنّ الحُبْرُج هو ذكر الحبارىٰ . قال في "المصايد والمطارد" وهو طائر في قَدْرِ الديك ، كثير الرِّيش : ويقال لها دَجاجة البرّ . قال في حياة الحيوان : وهي طائر طويل العُنُق ،

رَمَادىّ اللون ، فى مِنْقاره بعضُ طول ، يقـال لذكر الحبارىٰ الخَرْب (بفتح الخاء المعجمة وسكون الراء المهملة و باء موحدة فى الآخر) [١] ـ و يجمع علىٰ خِرَاب وأخراب وخِرْبان .

ومن خاصته أنّ الجارح إذا آعتنقها أرسلت عليه ذَرْقا حاصلا معها، متى أحبت أرسلته ، فيه حدّة تمعّط رِيشَه ، ولذلك يقال : سُـلاحُها سِلاحها . قال فى حياة الحيوان : وهى من أشدّ الطير طَيَرَانا ، وأبعدها شَوْطا ، فإنها تُصاد بالبصرة فيوجد فى حواصلها الحبةُ الخضراء التى شجرُها البُطْم، ومنابتُها تُخوم بلاد الشام، و إذا نُتِف ريشها وأبطأ نباته ماتت كمدا ـ قال وهى من أكثر الطير جَهْدا فى تحصيل الرزق، ومع ذلك تموت جُوعا بهذا السبب . قال فى "المصايد والمطارد" : وهى مما يُعاف لأنها تأكل كلّ شئ حتّى الخنافس ـ وقال فى حياة الحيوان : حكمها الحلُّ لأنها من الطيبات، وآستشهد له بحديث الترمذى من رواية سَفِينة مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال : "أكلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، حُبارىٰ" ويقال لولدها اليَحبُور، وربمـا قيل له نَهَار كما يقال لولد الكَرَوان ليل .

الخامس التَّمّ ـ بفتح التاء وتشديد الميم ـ وهو طائر فى قدر الإوز أبيضُ اللون، طويلُ العنق، أحمرُ المِنْقار، وهو أعظم طيور الواجب وأرفعها قدرا .

السادس الصوغ ـ بضم الصاد المهملة [٢] وغين معجمة فى الآخر ـ وهو طائر مختلط اللون من السواد والبياض، أحمرُ الصدر، وأكثر ميله إلىٰ الخضرة والأشجار .

السابع العُنَّاز ـ بضم العين المهملة وتشديد النون و زاى معجمة فى الآخر ـ وهو طائر أسودُ اللون، أبيضُ الصدر، أحمر الرجلين والمِنْقار .

---

(١) لعله وفتح الراء . أنظر القاموس .

(٢) ذكره المجد وغيره فى فصل الضاد المعجمة من باب العين المهملة وضبطه كصرد فليتنبه .

الثامن العُقَاب وقد تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ الجوارح حيث هو معدود منها ومن طير الواجب؛ومما يتعلق بهذا المكان أنها منها الأسود،والخوخية،والسُّفْع، والأبيض، والأشقر. ومنها ما يأْوِى الجبال، وما يأْوِى الصحارىٰ، وما يأْوِى الغِياض، وما يأْوِى حول المُدُن.

وقد تقدّم ذكر الخلاف فى أن ذَكَرها من جنسها أو من جنس آخر فى الكلام علىٰ الجوارح. وحكمُها تحريم الأكل لأنها من ذوات المِخْلَب من الطير، وٱختلف فى قتلها هل هو مستحبٌّ أم لا فجزم الرافعىّ والنووىّ من أصحابنا الشافعية فى الحج باستحباب قتلها. وجزم النووىّ فى شرح المهذب بأنها من القسم الذى لايستحب قتله ولا يكره،وهو مايجتمع فيه نفع ومضرة،وبه جزم القاضى أبو الطيب رحمه الله.

التاسع النسر بفتح النون، ويجمع فى القلة علىٰ أَنْسُر. وفى الكثرة علىٰ نُسُور، وسمى نَسْرًا لأنه ينْسُر الشئ ويبتلعه. والنَّسر ذو مَنْسِر وليس بذى مِخْلَب وإنما له أظفار حِدَاد المَخَالب، وهو يَسْفِد كما يسْفِد الديك. وزعم قوم أن الأنثىٰ منه تبيض من نظر الذكر إليها وهى لاتحضُن بيضَها، وإنما تبيض فى الأماكن العالية الظاهرة للشمس فيقوم حرّ الشمس للبيض مَقام الحَضْن. والنسر حادّ البصر يرىٰ الجِيفة من أربعمائة فرسخ، وكذلك حاسَّة شمه فى الغاية؛ ويقال إنه إذا شم الرائحة الطيبة مات لوقته؛ وهو أشدّ الطير طَيرانا وأقواها جناحا حتّى يقال إنه يطير مابين المشرق والمغرب فى يوم واحد. وإذا وقع علىٰ جيفة وعليها عِقْبان تأخرتْ ولم تأكل مادام يأكل منها، وكل الجوارح تخافه، وهو فى غاية الشَّره والنَّهَم فى الأكل إذا وقع علىٰ جيفة وٱمتلأ منها لم يستطع الطيران حتّى يثب وَثَبات يرفع بها نفسَه طبقةً فى الهواء حتى يدخل تحت الريح، وربما صاده الضعيف من الناس فى هذه الحالة، والأنثى منه تخاف علىٰ بيضها وفراخها الخُفَّاشَ فتفرُش فى أوكارها ورق الدُّلب لتنفر منه

الخُفَّاش ، وهو من أشـدّ الطير حزنا علىٰ فراق إلْفه حتّٰى إذا فارق أحدُهما الآخَر مات حُزْنا .

وهو من أطول الطير أعمارا حتّٰى يقال إنه يُعمَّر ألفَ سنة . وحكمه تحريم أكله لأنه يأكل الجِيَف .

العاشر الأنيسة ــ قال فى حياة الحيوان : بذلك تسميه الرُّماة وإنما اسمه الأَنِيس. قال : وهو طائر حادّ البصر، يشبه صوتُه صوتَ الجمل، ومأواه قربَ الأنهار والأماكن الكثيرة المياه الملتفة الأشجار، وله لونٌ حسَن، وتدبير فى معاشه . وقال ارسطو : إنه يتولد من الشقِرّاق والغراب . وذلك بيِّن فى لونه . ويقال إنه يحب الأنس، ويقبل الأدب والتربية، وفى صَفيره وقَرْقَرَته أعاجيبُ ، حتّٰى إنه ربما أفصح بالأصوات كالقُمرىّ، وغذاؤه الفاكهةُ واللحم وغير ذلك . ومن شأنه أُلفة الغِياض . وحكمه الحل لأنه طيب غير مستخْبَث . فإن صح تولده من الشِّقِرَّاق والغراب فينبغى تحريمه . والأَنِيسـة ذات ألوان مختلفةٍ، بدنُها يميل إلىٰ الغُبْرة، وعنقُها يشتمل علىٰ خضرة وزُرْقة، ويقال إنها أشرف طيور الواجب وأعزُّها وجودا .

الضرب الثانى طيور الصيف ــ وهى التى يكثر وجودها فيه، وهى أربعة أطيار.

الأوّل الكى[(١)] بضم الكاف : وهو طير أغبر اللون إلىٰ البياض، أحمر المِنْقار والحَوْصَلَة، رجلاه تَضْرِبان إلىٰ السواد .

الثانى الغِرْنَوْق ــ بكسر الغين المعجمة وفتح النون ــ ويقال فيه غُرْنَيْق ــ بضم الغين وفتح النون، ويجمع علىٰ غَرانيقَ . قال الجوهرى : وهو طائر أبيض من طير الماء طويلُ العنق، وتبعه الزمخشرىّ علىٰ ذلك . وقال أبو خيرة : وسمى غُرْنَيْقا لبياضه . وقال صاحب "المصايد والمطارد" الغرنيق كركىّ إلا أنه أخضرُ طويل المِنْقار ،

(١) لم نعثر عليه فى حياة الحيوان ولم يذكر فى معاجم اللغة .

وقيل : لونه كلون الكركىّ إلا أنه أسود الصدر والرأس ، وله ذُؤابتان فى رأسه . وقال : ومن خصائصها أن ريشها فى شبيبتها يكون رَمَاديًّا، فإذا كبِرت آسودّ وليس ذلك فى سائر الطير، فإن الريش لا يحوّل بياضه إلىٰ السواد بل يحوّل سواده إلىٰ البياض : كما فى الغِرْبان والعصافير والخَطَاطِيف .

الثالث المرزم ــ وهو طير أبيضُ فى أطراف ريشه حُمْرة، طويل الرجلين والعُنُق، وهو حلال الأكل .

الرابع الشُّبَيْطر ــ بضم الشين المعجمة وفتح الموحدة والطاء المهملة ، ويسمّى اللَّقْلَقَ أيضا، ويعرف بالبلارح[1]. وكنيته عند أهل العراق أبوخَدِيج ــ وهو طائر أبيض، أسودُ طرفَىِ الجناحين، ورجلاه ومنقارُه حُمْر، وهو يأكل الحيَّات ولكنه يوصف بالفِطْنة والذكاء . وفى حله عند الشافعية وجهان أصحهما فى شرح المهذَّب والروضة الحرمة وإن كان من طير المـاء .

وسيأتى الكلام علىٰ ما يحمل من هذه الطيور الأربعةَ عشرَ بأعناقه وما يحمل منها بأسيافه فيما يتعلق بمصطلَح الرماة فى الكلام علىٰ كتابة قدم البندق فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ . وطيور الواجب كلُّها حلال إلا النَّسْر والعُقَاب .

الصنف الثالث

(ما عدا الطير الجليل ممـا يُصاد بالجوارح وغيرها، وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل مايحل أكله ــ وهو أنواع كثيرة لايأخذه الحصر، ونحن نقتصر علىٰ ذكر المشهور من أنواعه .

فمنها النَّعام ــ وهو آسم جنس الواحدة نَعَامة ، وهو طائر معروف مركَّب من

---

(١) مصحف لم نهتد اليه . ولعله البارح .

صورتَى جَمَل وطائر ولذلك تسميه الترك دَواقش بمعنى طير جمل، وتسميه الفُرْس آشترمرك، ومعناه جمل وطائر. ويجمع النعامة علىٰ نعامات، ويسمّى ذكرها الظَّلِيمَ؛ ومن المتكلمين علىٰ طبائع الحيوان من لم يجعلها طيرا وإن كانت تبيض لعدم طَيَرانها؛ ومن الناس من يظنّ أنها متولدة من جمل وطير ولم يصح ذلك . ومساكنها الرملُ، وتضع بيضها سطرا مستطيلا بحيث لو مدّ عليها خيط لم تخرج واحدة مِنها عن الأخرىٰ، ثم تعطى كلَّ بيضة منها نصيبها من الحَضْن : لأنها لاتستطيع ضم جميع البيض تحتهـا ، وإذا خرجت للطُّعْم فوجدت بيض نعامة أخرىٰ حضنَتْه ونسِيَتْ بيضها ، فربمـا حضَنتْ هـذه بيض هذه ، وربمـا حضنَت هذه بيضَ هذه ؛ ولذلك توصف فى الطير بالحُمْق؛ ويقال إنها تقسم بيضها أثلاثا فمنه ماتحضُنه، ومنه ما تجعله غِذاءً لهـا، ومنه ما تفتحه وتجعـله فى الهواء حتّى يتولد فيه الدود فتغذّى به أفراخها إذا خرجَتْ. وليس للنعام حاسَّةُ سمع ولكنه قوىّ الشم، يستغنى بشمّه عن سمـاعه حتّى يقال إنه يَشَمُّ رائحة القـانص من بُعْد؛ والعرب تقول إن النعامة ذهبت تطلُب قَرْنَينِ فقطعوا أذُنَيْها . وهو لا يشرب ماء ، وإن طال عليه الأمد ، ولذلك يسكن البرارىَّ التى لا ماء فيها . وأكثر ما يكون عَدْوُها إذا آستقبلت الريح .

ومن خصائصها أنها تبتلع العظم الصُّلْب والحجر والحديد فتذيبُه معدتُها حتّى تدفعه كالماء، وتبتلع الجمر فيطفئه جوفُها، وإذا رأت فى أذنِ صغير لؤلؤةً أوحلْقة آختطفتها. وحكمُه حِلُّ أكله إجماعا . ومن خاصته أن مرارته سَمٌّ وَحِىّ .

ومنها الإوزُّ ـ بكسر الهمزة وفتح الواو ـ وهو آسم جنس واحده إوزّة، وجموعه علىٰ إوَزُّون، وهو ممـا يُحِبُّ السِّباحة فى البحر، وإذا خرج فرخه من البيضة سبح فى الحال، وإذا حضنت الأنثىٰ قام الذكر يحرسها لايفارقها، ويخرُج فرخها فى دون الشهر من البيضة . وهو من الطيبات، وغِذاؤه جيد إلا أنه بطىء الهضم .

ومنها البَطُّ، وهو من طيور المـاء واحده بَطَّة للذكر والأنثىٰ وليس بعربىّ، وهو عند العرب من جملة الإوز .

ومنها القِرِلىّ ـ بكسر القاف، ويسمّى مُلَاعِبَ ظِله . وهو طائر صغير الجرم من طيور المـاء، سريعُ الاختطاف، لا يزال مرفْرِفا علىٰ وجه المـاء علىٰ جانب كطيران الحِدَأة، يهوِى بإحدىٰ عينيه إلىٰ قعر المـاء طمعا، ويرفع الأخرىٰ حذرا؛ فإن أبصر فى المـاء ما يستقلُّ بحمله من السمك أو غيره انقضَّ عليه كالسهم المرسَل فأخرجه من قعر المـاء، وإن أبصر فى الجوّ جارحا، مرّ فى الأرض . وبه يضرب المثل فى الإقبالِ علىٰ الخير والإدبار عن الشرّ، فيقال: "كأنه قِرِلّى، إن رأىٰ خيرا تدلّى، أو رأىٰ شرّا تولّى".

ومنها الغَطَّاسُ ـ ويقـال له الغوّاص، وهو طائر أسودُ نحو الإوَزَّة، يغوص فى المـاء فيستخرج السمك فيأكله؛ ووَهِم فيه فى حياة الحيوان بجعله القِرِلىّ .

ومنها الدجَاجُ ـ بفتح الدال المهملة وكسرها وضمها، حكاه ابن معن الدِّمشْقِىّ وابن مالك وغيرهمـا، وأفصحها الفتح وأضعفها الضم، والواحدة دجاجة والذكر والأنثىٰ فيه سواء . قال ابن سِيده: وسميت دجاجةً لإقبالها وإدبارها، يقال: دَجَّ القوم إذا مَشَوْا بتقارب خَطْوٍ، وقيل إذا أقبلوا وأدبروا، والفرخ يخرج من البيضة بالحَضْنِ، وتارة بالصنعة والتدفئة بالنار، وإذا خرج الفرخ من البيضة خرج كاسيا، ظريفا، سريع الحركة، يُدْعىٰ فيُجيب؛ ثم كلمـا مرّت عليه الأيام حَمُقَ ونقص حسنه . وممـا يعرف به الذكر من الأنثىٰ فى حالة الصغر أن يعلق الفرخُ بمنقاره فإن اضطرب فهو ذكر، وإلا فهو أنثىٰ . والدجاج يبيض فى جميع السنة، وربمـا باضت الدجاجة فى اليوم مرتين، ويتم خلق البيض فى عشرة أيام وتخرج لينة القشر

فإذا أصابهـا الهواء تصلَّبت . وتشتمل البيضة علىٰ بياض وصُفرة ويسمَّى المُحّ ، ومن البياض يتخلق الولد ، والصفرة غذاء له فى البيضة يتغذاه من سُرَّتِهِ ، وربمـا كان للبيضـة بياضان ، ويتخلق من كل بياض فرخ فإذا كبرت الدجاجة ، لم يبق لبيضها مُحٌّ وحينئذ فلا يخلق منه فرخ . ثم الدجاج من الطيور الدواجن فى البيوت ، وقد ورد فى سُـنَنِ ٱبن ماجه من رواية أبى هريرة رضى الله عنـه أمر الاغنيـاء باتخاذ الغنم وأمر الفقراء باتخاذ الدجاج . قال عبـد اللطيف البغدادىّ : أمرَ كل قوم من الكسب بحسب مَقْدُرَتِهم .

ومن عجيب أمر الدجاجة أنها تمرّ بها سائر السبـاع فلا تحَاماها فإذا مرّ بها ٱبن آوىٰ وهى علىٰ سطح رمت نفسها إليـه ؛ وهى توصف بقلة النوم وسرعة الآنتباه ، ويقال إن ذلك لخوفها وخَوَرِ طباعها .

ومن الدجاج نوع يقـال له الحبَشِىّ . أرقط اللون ، متوحش ، وربمـا ألف البيوت . والحكم فى الجميع الحل .

ومنها الديك ــ وهو ذكر الدجاج ، ويجمع علىٰ دِيَكَةٍ ودُيُوك ، وهو أَبْلَهُ الطبيعة حتّىٰ إنه إذا سقط من حائط لم يكن له هداية ترشده إلىٰ دار أهله ، ومع ذلك فقد خصه الله تعالىٰ بمعرفة الأوقات حتّىٰ رجح الرافعىّ من مذهب الشـافعىّ رضى الله عنه ٱعتماد الديك المجرّب وِفَاقا لِلْمُتَوَلِّى والقاضى حسين .

ومن عجيب أمره أنه يُقَسِّطُ أوقات الليل تقسـيطا لا يُخِلُّ فيه بشئ طال الليل أم قصر . لكن قد ورد فى معجم الطبرانىّ وغيره : إنّ لله سـبحانه وتعـالىٰ ديكا أبيض ، جَناحاه مُوَشـيان بالزَّبَرْجَد والياقوت واللُّؤْلؤ ، له جَناحٌ بالمشرق وجناح بالمغرب ، رأسه تحتَ العرش ، وقوائمه فى الهواء ، يُؤَذِّنُ كلّ سَحَر فيسمعَ تلك

الصيحةَ أهلُ السموات وأهل الأرض إلا الثقلين : الجنَّ والإنسَ، فعند ذلك تُجيبه دُيوكُ الأرض ؛ وحينئـذ فيكون الديك فى ذلك تابعـا . وقد ورد عدّةُ أحاديثَ فى النهى عن سَبِّ الديك، ومدح الديك الأبيض، والحثِّ علىٰ آتخاذه .

ومن حميد خصال الديك أنه يسوّى بين دجاجه : ولا يُؤْثِرُ واحدة علىٰ الأخرىٰ . ويقال إنه يبيض فى السنة بيضة ؛ ويَفْرُق بين بيضته وبيضة الدجاجة أن بيضته أصغر من بيضة الدجاجة، وهى مدوّرة لا تحديد فى رأسيها .

ومنها القَطَا ــ بفتح القاف : وهو طائر معروف واحده قطاة ويجمع علىٰ قَطَوَاتٍ وقَطَيَاتٍ، وأكثر ما يبيض ثلاث بيضات، ويسمّى قَطَا لحكاية صوته : لأنه يصيح "قطَا قطَا" ولذلك تصـفها العرب بالصدق . قال الجوهرىّ ، وهو معدود من الحَمَـام ، وبه قال آبن قتيبة ، وعليه جرىٰ الرافعىّ فى الحج والأطعمة : قال الشيخ محب الدين الطبرىّ : والمشهور خلافه .

ثم القطا نوعان : كُدْرِىٌّ وجُونِىٌّ، وزاد الجوهرىّ نوعا ثالثا وهو الغَطَاط ، فالكدرىّ غُبْرُ اللون ، رُقْش البطون والظهور ، صـفر الحلوق ، قصار الاذناب . والجُونِىُّ سُـودُ بطون الأجنحة والقوادم ، وظهرها أغبرُ أرقطُ ، تعلوه صُفْرة، وهى أكبر جِرْمًا من الكُدْرِىّ ، تعـدِل كلُّ جُونيَّة كُدْريَّتين ، والكدرية تُفْصِح باسمها فى صياحها، والجُونِيَّة لا تفصح بل تُقَرْقِرُ بصوت فى حلقها .

ومن خاصتها أنها لا تسير إلا جماعة . ومن طبعها أنها تبيض فى القَفْرِ علىٰ مسافة بعيدة من المـاء . وتطلب المـاء من مسافة عشرين ليلة وفوقها ودونها . وتخرج من أفاحيصها فى طلب المـاء عند طلوع الفجر فتقطع إلىٰ حين طلوع الشمس مسيرةَ سبع مراحل، فترد المـاء فتشربُ ثم تُقِيمُ علىٰ المـاء ساعتين أو ثلاثا ثم تعود إلىٰ

المـاء ثانية . والجُونية تخرج إلىٰ المـاء قبل الكُدْرِيَّةِ ،وهى توصف بالهداية فتأتى أفاحيصَها ليلا ونهارا فلا تضلّ عنها، وتوصف بحُسْن المشْى، و بقلة النوم .

ومنها الكَرَوانُ ــ بفتح الكاف والراء ــ وهو طائر فى قدر الدجاجة ، طويل الرجلين ، حسن الصوت ، لا ينـام الليل ؛ و يجمع علىٰ كِرْوَان بكسر الكاف والأنثىٰ كَروانة .

ومنها الحَجَلُ ــ بفتح الحاء المهملة والجيم ، وهو طائر علىٰ قدر الحَمَامِ كالقَطَا ، أحمر المِنْقَار والرجلين ، و يسمّٰى دَجَاجَ البر، و يقع علىٰ الذكر والأنثىٰ ، وقد يقال له القَبْجُ أيضا بفتح القاف وسكون الموحدة وجيم فى الآخر ، يقال للذكر والأنثىٰ منه قَبْجة ، و يسمّٰى الذكر منه اليَعقوب ، والقَبَجُ[1] بفتح القاف والموحدة وجيم فى الآخر ، ويقال فى الأنثىٰ منه حَجَلة . وهو صِنْفان : نَجْدِىٌّ وتِهامِىٌّ ، فالنجدى أحمر الرجلين ، والتهامى فيه بياض وخضرة ؛ ومن شَأْنه أنه يأتى إلىٰ مصر عند هَيَجان زرعها و يصيح صياحا حَسَناً ، تقول العامّة : إنه يقول فى صياحه : "طَابَ دَقِيقُ السَّبَلِ" . ومن شأن الأنثىٰ منه إذا لم تَلْقَحْ ، أنها تمرغ فى التراب وتصبه علىٰ أصول ريشها فَتَلْقَحُ ؛ ويقال : إنها تلقح بسماع صوت الذكر ، و بريح يَهُبُّ من قِبَـلِهِ ؛ وإذا باضت ميز الذكرُ الذكورَ منها لحضـنها ، وتحضنُ الأنثىٰ الإناثَ . وكذلك فى التربية ، وفرخها يخرج كاسيا بزَغَبِ الريش كما فى الدَّجاج ؛ وفى "المصايد والمطارد" أن القَبَجَ كثير السِّـفاد ، وأنه إذا آشتغلت عنه الأنثىٰ ورأى بيضها ، كسره . قال التوحيدى : ويعيش الحجل عشر سنين ويعمل عُشَّيْن ، يجلس الذكر فى واحد والأنثى فى واحد ، وهو من أشدّ الطيور غَيْرَةً علىٰ أنثاه حتّٰى إن الذكرين ربما قتل أحدهما الآخر بسبب الأنثىٰ ، فمن غلب منهما دانت له .

(١) هذا معطوف على القبج الاول اشارة الى لغة أخرى وليس معطوفا على اليعقوب كما قد يتوهم .

ومن طبعه أنه يأتى عُشَّ غيره فيأخذ بيضه ويحضُنه، فإذا طارت الفراخ لحقت بأمهاتها التى باضتها؛ وفيه من قوّة الطيران ما يظنه مَنْ لم يُحَقِّقْهُ عند طيرانه أنه حجر رُمِىَ بِمِقْلاع لسرعته .

ومنها القُمْرِىُّ ـ بضم القاف وسكون الميم : وهو طائر معروف حسن الصوت، ويجمع علىٰ قَمَارِىَّ غير مصروف . قال فى المحكم : ويجمع علىٰ قُمْرٍ أيضا، والأنثىٰ منه قُمْرِيَّةٌ، ويقال للذكر منه الوَرَشَانُ ـ بفتح الواو والراء المهملة والشين المعجمة، ويقال له أيضا سَاقُ حُرّ . قال البَطَلْيَوْسِىّ : وسُمِّى ساقَ حُرّ حكاية لصوته كأنه يقول ذلك، ويكنىٰ أبا الأخضر، وأبا عِمْران، وأبا الناجية . قال آبن السمعانىّ : والقُمْرِىّ منسوب إلىٰ القُمْرِ، وهى بلدة تشبه الجِصّ لبياضها . قال : وأظنها بمصر . وقال آبن سِيده القُمْرِىّ طير صغير، وعدّه فى المحكم من الحَمَام . ويقال : إن الهوامّ تهرُب من صوت القمارىّ . قال القَزْوينى : ومن خاصية القَمارىّ أنها إذا ماتت ذكورها لم تتزاوج إناثُها؛ والوَرَشَانُ الذى هو ذكر القُمْرِىّ يوصف بالحُنُوّ علىٰ أولاده حتّٰى إنه ربما قتل نفسه إذا رءاها فى يد القانص . قال عطاء : وهو يقول فى صياحه "لِدُوا لِلْمَوْتِ وآبْنُوا لِلْخَرابِ" . ومنه نوع أسود حجازىّ يقال له النوىٰ، شجىّ الصوت جدّا .

ومنها الفاخِتة ـ بالفاء والخاء المعجمة والتاء المثناة والجمع الفواخت بفتح الفاء وكسر الخاء : وهى طائر من ذوات الأطواق، حِجازية فى قدر الحَمَام، حَسَنة الصوت، ويقال إنّ الحيَّات تهرُب من صوتها . حتّٰى يحكى أنّ الحيات كثُرت بأرض، فشكا أهلُها ذلك إلىٰ بعض الحكماء، فأمرهم بنقل الفواخت إليها فانقطعت الحَيَّات عنها؛ وفى طبعها الأنس بالناس، وتعيش فى الدُّور، إلا أن العرب تسمها بالكَذِبِ فإن صوتها عندهم تقول فيه هذا أوان الرطب، وهى تقول ذلك والنخل لم يُطْلِعْ بَعْدُ، ولذلك تقول العرب فى أمثالهم : "أَكْذَبُ مِنْ فَاخِتَه" .

ومنها الدُّبْسِىُّ ــ بضم الدال ، وهو طائر صغير منسوب إلىٰ دِبْسِ الرُّطَبِ ــ بكسر الدال ، وذلك أنهم يُغَيِّرونَ فى النسب فيقولون فى النسبة إلىٰ الدَّهْرِ دُهرِىّ ونحو ذلك ، وهو ضرب من الحمام . ثم هو أصناف : مصرىّ ، وحجازىّ ، وعِراقىّ ؛ وكلها متقاربة ، لكن أنفرُها المصرىّ ، ولونه الدُّكنة ، وقيل هو ذكر اليمام . وفى طبع الدُّبْسِىّ أن لا يُرىٰ ساقطا علىٰ وجه الأرض ، بل فى الشتاء له مَشْتًى ، وفى الصيف له مَصِيفٌ ، لا يعرف له وَكْرٌ .

ومنها الشَّفْنِينُ ــ بفتح الشين (١) المعجمة وسكون الفاء ونون مكسورة بعدها ياء مثناة تحت ثم نون : وهو الذى تسميه العامّة بمصر اليمام ، وهو دون الحمام فى المقدار ولونُه الحمرة مع كُمُودَةٍ ، وفى صوته ترجيع وتحزين . ومن شأنها أنها تَحْسُنُ أصواتها إذا ٱختلطت . ومن طبعه أنه إذا فَقَدَ أُنثاه ، لم يزل أَعْزَبَ إلىٰ أن يموت ، وكذلك الأنثىٰ إذا فَقَدتْ ذكرها ؛ وفيه أُلْفة للبيوت ، وعنده ٱحتراس .

ومنها الدَّرَّاجُ ــ بفتح الدال (٢) ، وكنيته أبو الحجّاج وأبو خَطَّار : وهو طائر ظاهر جناحيه أغبرُ و باطنهما أسودُ ، علىٰ خِلْقة القَطَا إلا أنه ألطفُ . وهو يطلق علىٰ الذكر والأنثىٰ ؛ والجاحظ يَعُدُّه من جنس الحَمَام لأنه يجمع بيضه تحت جَنَاحه كما يفعل الحمام ، والناس يُعَبِّرون عن صوته بأنه يقول "بِالشُّكْرِ تَدُومُ النِّعَمُ" . ويقال إنه طائر مبارك ، وهو كثير النتاج ، يبشر بقُدُوم الربيع ؛ وهو يصلح بهبوب الشَّمَال ، وصفاء الهواء ، ويسوء حاله بهبوب الجَنُوب حتّىٰ لا يقدر علىٰ الطيران .

ومنها العُصْفُورُ ــ بضم العين ، وحكى ٱبن رَشِيقٍ فى كتاب الغرائب فتحها ، والأنثىٰ عُصْفورة ، وكنيته أبو الصَّفْو ، وأبو مُحْرِز ، وأبو مُزاحم ، وأبو يعقوب . قال حمزة :

---

(١) الذى فى حياة الحيوان أنه بالكسر اهـ .

(٢) فى حياة الحيوان والقاموس ضبطه بضم الدال أما الذى بالفتح فهو القنفذ .

سمى عصفورا لأنه عصىٰ وفرّ، وهو أنواع كثيرة وأشهرها المعروف بالدُّورِىّ، وَوَكْرُه العُمْران تحت السقوف خوفا من الجوارح، فإذا خلتْ مدينة من أهلها ذهبت العصافير منها، وهو كثير السِّفَاد حتّٰى إنه ربما سَفَدَ فى الساعة الواحدة مائة مرة، ولفرخه تدرّب علىٰ الطيران حتّٰى إنه يُدْعىٰ فيجيب . قال الجاحظ : بلغنى أنه يرجع من فرسخ .

ومنها الشَّحْرُورُ ـ بفتح الشين المعجمة وسكون الحاء المهملة (١)، وهو طائر أسود فُوَيْقَ العصفور له صوت شجىّ، ويكون بأرض الشَّأْم كثيرا .

ومنها الهَزَارُ ـ بفتح الهاء والزاى المعجمة، طائر نحو العصفور له صوت حسن ويسمّٰى العَنْدَلِيبَ أيضا ويجمع علىٰ عَنَادِلَ .

ومنها البُلْبُلُ ـ بضم الموحدتين وسكون اللام الأولىٰ والثانية (٢)، وهو طائر أسود فوق العصفور، والبحرى منه فوق ذلك؛ ويقال له النُّغَرُ ـ بضم النون وفتح الغين المعجمة وراء مهملة فى الآخر، والكُعَيْت ـ بضم الكاف وفتح العين المهملة ومثناة فوقية فى الآخر، والجُمَيْلُ ـ بضم الجيم، وقد ثبت فى الصحيحين من رواية أنس رضى الله عنه أنه قال : "كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أحسَنَ الناس خُلُقا، وكان لى أخٌ لأمّى فَطِيمٌ يقال له عُمَيْرٌ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءنا قال : ياأبا عُمَير، ما فَعَلَ النُّغَير؟ لنُغَر كان يلعب به" .

ومنها السُّمَانَىٰ ـ بضم السين المهملة وفتح النون ولا تشدّد ميمه، وهو طائر معروف فوق العصفور ويجمع علىٰ سُمَانَيَات : وهو من الطيور التى لايعرف من أين تأتى، بل يأتى فى البحر المِلْح يغوص بأحد جناحيه فى الماء ويقيم الآخر كالقِلْع للسفينة

(١) قال فى حياة الحيوان انه كسحنون وكذلك ضبطه فى القاموس بالضم .

(٢) لعل هذا اللفظ من زيادة الناسخ .

فتدفعـه الريح حتّى يأتىَ الساحل ، وكثيرا ما يوجد ببلاد السواحل ، وله صـوت حسن . ومن شأنه أنه يسكت فى الشتاء فإذا أقبل الربيع صاح .

ومنها الحَسُّون ـ وتسميه أهـل الجزيرة والشأم وحلب وتوابعها زقيقية ، وهو طائر فَطِنٌ ، ويسميه الأندلسيُّون أبو الحسن والمصريون أبو زقاية ، وربما أبدلوا الزاى منه سينا ، وهو عصفور ذو ألوان : حُمْرة وصُفْرة وبياض وسواد وزرقة وخضرة ، وهو قابل للتعليم يُعَـلَّمُ أخذَ الشئ كالفَلْس ونحوه من يد الإنسان على البعد والإتيانَ به لصاحبه .

ومنها أبو بَرَاقِش ـ بكسر القاف وبالشين المعجمة : وهو طائر كالعصفور يتلوّن ألوانا ، وبه يضرب المثل فى التلوّن .

ومنها الزاغ ـ بزاى وغين معجمتين بينهما ألف : وهو ضرب من الغِرْبانِ صغير أخضرُ اللون لطيفُ الشكل حسنُ المَنْظَرِ ، وقد يكون أحمرَ المِنقار والرجلين ، وهو الذى يقال له غراب الزيتون ، سمى بذلك لأنه يأكل الزيتون .

ومنها الغُدَافُ ـ بضم الغين المعجمة وبالدال المهملة والفاء فى آخره ، وهو غراب الغيط (١) ويجمع على غِدْفان بكسر الغين ؛ قال ابن فارس : هو الغراب الضخم ، وقال العبدرىّ : هو غراب صغير أسودُ لونه كلون الرَّماد ، وقد قال النووىّ فى الروضة بتحريمه وإن كان الرافعىّ قد جزم بحِلّه ورجحه صاحب المهمات .

ومنها غراب الزرع ـ وهو غراب أسودُ المِنقار ، وفيه وجه بالتحريم .

الضرب الثـانى ـ ما يحرم أكله

وهو أنواع كثيرة أيضا .

منها الطاوس ـ ويجمع على طواويس ، وهو طائر فى نحو مقدار الإوَزَّةِ حسن

---

(١) الذى فى القاموس وحياة الحيوان غراب القيظ .

اللون ، والذكر منـه غَايَةٌ فى الحُسْنِ ؛ له فى رأسه رياش خضر قائمة كالشربوش ، وفى ذنبه ريش أخضر طويل فى أحسن مَنْظَرٍ ، وليس للأنثىٰ شئ من ذلك ؛ وهو فى الطير كالفرس فى الدواب عزا وحُسْنا ؛ وفى طبعه الزَّهْو بنفسه والخُيَلاَءُ والإعجاب بريشه ، والأنثىٰ منه تبيض بعد ثلاث سنين من عمرها ، وفى هذا الحدّ يكمل ريش الذكر ويتم لونُه ، وبيضه مرةٌ واحدة فى السـنة ، ويكون بيضه من آثنتى عشرة بيضة إلىٰ ما حولها ، ولا يبيض متتابعا ، وسِفَادُهُ فى أيام الربيع ، وفى الخريف يُلْقِى ريشه كما يُلْقِى الشجر ورقَه حينئذ ، فإذا بدا طلوع أوراق الأشجار طلع ريشه ؛ وهو كثير العَبَثِ بالأنثى إذا حَضَنَتْ وربمـا كسر بيضها ؛ ولذلك يُحْضَنُ بيضُـه تحت الدَّجاج لكن لا تقوىٰ الدجاجة علىٰ حَضْنِ أكثرَمن بيضتين منها ، وتُتعاهدُ الدجاجة بالطُّعْمَةِ والسقية وهى راقدة عليه ، كيلا تقومَ عنه فيفسـد بالهواء إلا أن ما تحضُنُه الدجاجة يكون ناقصَ الجثة عمـا تحضُنُه أنثاه ، وليس له من الحسن والبهجة ما لذلك ؛ ومدّة حضنه ثلاثون يوما ؛ وفرخه يخرج من البيضـة كالفرّوج كاسيا بالريش يلقط الحب للحال .

ومنها السَّمَنْدَلُ ـ بفتح السين المهملة والميم وسكون النون وبفتح الدال المهملة ولام فى الآخر ، وقال الجوهرىّ : السَّنْدل بغير ميم . وقال آبن خَلِّكَانَ : السَّمَنْدُ بغير لام : وهو طائر يكون بأرض الصِّينِ والهند ؛ ومن خاصته أنه لا تؤثر النار فيه حتّى يقال إنه يبيض ويُفْرِخُ فيها ويستلذ بمكثه فيها ، ويتخذ من ريشه مناديل ونحوها فإذا آتسخت ألقيت فى النـار فتأكل النار وسخها ولا تتأثر هى فى نَفْسها . قال آبن خَلِّكَانَ فى ترجمة يعقوب بن صابر المنجنيق : رأيت منه قطعة ثخينة منسوجة علىٰ هيئة حزام الدابة فى طوله وعرضـه ، فألقيت فى النار فمـا أثَّرت فيها فغُمِس أحد جوانبها فى الزيت وجُعِل فى النار فآشتعل وبقى زمانا طويلا ثم أطفئ ، وهو علىٰ حاله

لم يتغير، قال : ورأيت بخط عبداللطيف البغدادىّ أنه أُهْدِىَ للظاهر آبن السلطان صلاح الدين صاحب حلب قطعةٌ منه عرض ذراع فى طول ذراعين ، فغُمِست فى الزيت وقربت من النار فاشتعلَتْ حتّى فَنِى الزيتُ، ثم عادت بيضاء كما كانت ، و بعضهم يقول إنه وحش كالثعلب و إن ذلك يعمل من وَبَرِهِ .

ومنها البَبَّغَاء ـ ببـاءين مفتوحتين الأولىٰ منهـما مخففة والثانية مشدّدة وغين معجمة بعـدها ثم ألف ؛ وهو المعبر عنه بالدُّرَّة بدال مهملة مضمومة ، وقال آبن السمعانى فى الأنساب : هى باسكان البـاء الثانية، وهى طائر أخضرُ اللون فى قدر الحمام يحاكِى مايسمعه من اللفظ؛ ثم هى علىٰ ضربين : هِنْدِىٌّ وهى أكبر جثةً ومنقارها أحمرُ، ونُوبِىٌّ وهى أدونهـا ومنقارها أسود، ويقال : إن منها نوعا أبيضَ، ويذكر أنه أُهْدِى لمعز الدولة آبن بُوَيْهِ بَبَّغَاء بيضاءُ اللون سوداءُ المِنْقَارِ والرجلين ، علىٰ رأسها ذؤابة فُسْتُقِيَّةٌ ؛ وهى طائر دَمِث الأخلاق ، ثاقب الفهم ، له قوة علىٰ حكاية الأصوات وقبول التلقين ، تتخذه الملوك والأكابر لِيَنِمَّ بمـا يســمع . ومن شأنه أنه يتناول طُعْمَهُ برجله كما يتناوله الإنسان بيده ؛ والهندىّ منـه أقرب إلىٰ التعليم من النوبىّ .

ومنها أبو زُرَيْقٍ ـ بزاى مضمومة ثم راء مهملة وفى آخره قاف، ويقال له القِيق بكسر القـاف والزِّرْيَابُ بزاى معجمة مكسورة ثم راء مهملة ساكنة ثم ياء مثناة تحت و بعد الألف باء موحدة؛ وهو طائر ألوف للناس يقبل التعليم، سريع الإدراك لمـا يعلَّم ، وقد يزيد علىٰ الببغاء إذا أنجب ، بل إذا تعلم جاء بالحروف مُبَيَّنَـةً حتّى يظن سامعُه أنه إنسان، بخلاف الببغاء فإنها لا تُفْصِحُ كلَّ الإفصاح .

ومن غريب ما يحكى فى أمره ما حكاه صاحب "مَنْطِقِ الطير" أن رجلا خرج من بغداد ومعـه أربعمائة درهم ، لا يملك غيرها ، فوجد فى طريقه عدّة من فراخه

فاشتراها بما معه ثم رجع إلىٰ بغداد فعلقها فى أقفاص فى حانوته، فهبت عليها ريح باردة فماتت كلُّها إلا واحدا كان أضعفَها وأصغرَها فثقل ذلك عليه وبات ليلته تلك يبتهل إلىٰ الله تعالىٰ بالدعاء وينادى ياغياث المستغيثين أغثنى، فلما أصبح إذا ذلك الفرخ الذى بقى يصيح بلسان فصيح : ياغياث المستغيثين أغثنى، فٱجتمع الناس عليه يسمعون صوته فٱجتازت جارية للخليفة فٱشترته منه بألف درهم .

ومنها الهُدْهُدُ ـ بضم الهاءين وإسكان الدال المهملة بينهما، وهو طائر معروف ذو خطوط مَوْشِيَّةٍ وألوان، ويجمع علىٰ هَدَاهِدَ، ويذكر عنه أنه يرىٰ الماء من باطن الأرض كما يراه الإنسان فى باطن الزجاج، قُوَّةٌ ركبها الله تعالىٰ فيه، ولذلك عُنِيَ به سليمانُ عليه السلام مع صِغَرِه كما قاله البيهقى فى "شُعَب الإيمان". ويقال : إنه كان دليلا لسليمانَ عليه السلام علىٰ الماء، وقصته مع سليمان مذكورة فى التنزيل . وقد ذكر الزمخشرىّ أن سبب تخلفه عن سليمان أنه رأىٰ هُدْهُدا آخر، فحكى له عظيمَ مُلْك سليمان، فحكى له ذلك الهدهدُ عظيمَ مُلْك بِلْقِيسَ باليمن، فذهب ليكشف الخبرَ فلم يرجع إلا بعد العَصْر، فلما عاد إليه توعَّدَه فأرخىٰ رأسه وجناحيه تواضعا بين يديه، وقال : يانبىّ الله ٱذكر وقوفك بين يدى الله! فٱرتعد سليمان وعفا عنه .

ومنها الخُطَّافُ ـ بضم الخاء المعجمة ويجمع علىٰ خَطَاطِيفَ، وهو طائر فى قدر العصفور، أسودُ، وباطن جناحيه إلىٰ الحمرة، والناس يسمونه عصفور الجنة لأنه يُعْرِضُ عن أقواتهم ويقتات البعُوضَ والذُّبَاب . ومن شأنه السكنىٰ فى البيوت المعمورة بالناس فى أفاحيص يبنيها من الطين، ويختار منها السقوف والأماكن التى لا يصل إليه فيها أحد . وقد ذكر الثعلبي فى تفسيره فى سورة النمل أن سبب قُرب الخطاطيف من الناس أن الله تعالىٰ لما أَهْبط آدم إلىٰ الأرض، ٱستوحش، فآنسه الله تعالىٰ بالخُطَّافِ وألزمه البيوت فهو لا يفارق بنى آدم أُنْسًالهم، والخُفَّاش يعاديه

فلذلك إذا أفرخ جعـل فى عُشِّه قُضْبانَ الكَرَفْس لينفِّر الخُفَّاشَ عنها .

ومن عادته أنه لايُفْرِخُ فىعُشٍّ عتيق حتى يُطَيِّنَهُ بطين جديد، ولا يلقى شيئا من ذَرْقِه فى عُشه بل يلقيه إلىٰ ما شاء ؛ وإذا سمع حس الرعد يكاد يموت ، ويوجد فى عُشِّــه حَجَرُ اليَرَقَانِ وهو حجر صغير فيه خطوط بين الحمرة والسواد إذا علق علىٰ من به اليَرَقَانُ أو شرب من سُحالته بَرِئَ؛ وإنمـا يأتى بهذا الحجر إذا أصاب فِراخَه اليَرَقَانُ ،ولذلك يحتال بعضُ الناس بلطخ فراخه بالزعفران ليظن أن اليَرَقَانَ قد أصابها فيأتى إليها بهذا الحجر فيُؤْخذ منه .

ومن الخطاطيف نوع آخر ألطفُ قدرا من هذا ، يَسْكُن شطوط الأنهار وجوانبَ المياه ، وعدّوا من أنواعه أيضا الذى يسميه أهل مصر الخُضَيْرِى ، وهو طائر أخضر دون البَبَّغاء فى المقدار لا يزال طائرا وهو يصيح ، يقتات الفَرَاشَ والذباب .

ومنهـا الصُرَد ـــ بضم الصاد وفتح المهملة ودال مهملة فى الآخر ، ويجمع علىٰ صِرْدَان . قال ابن قتيبة : وسمى صُردًا ، حكاية لصوته ، ويسمَّى الواقِ بكسر القاف ، وكنيته أبو كثير ، وهو طائر فوق العصفور ، نصــفه أبيض ونصــفه أسود ، ضخم الرأس ، ضخم المنقار والبراثن ، لايُرىٰ إلا فىشَعَفَة أو شجرة بحيث لايَقْدِر عليه أحد ، وله صَفِير مختلف . ومن شأنه أنه يصيد العصافير وما فى معناها ، فيصَفِّرلكل طير يريد صيدَه بلغته ، يدعوه إلىٰ التقرّب منه فيثب عليه فيأكله ، والعرب تتشاءم به وتنفر من صياحه ، وهو ممـا وردت الشريعة بالنهى عن قتله .

ومنها العَقْعَقُ ـ بعينين مهملتين مفتوحتين بينهما قاف ساكنة ، وربما قيل فيه القَعْقَع علىٰ القلب ، قال الجاحظ : سمى بذلك لأنه يَعُقُّ فراخه فيتركهــم أياما بلا طُعْم . ويقال لصوته العَقْعقة : وهو طائر علىٰ قدر الحمامة فىشكل الغُراب وجَناحاه أكبر من جناحى الحمامة ، ذو لونين : أبيضَ وأسودَ ، طويلُ الذَّنَبِ . ومن شأنه أنه

لا يأوِى تحت سقف ولا يستظل به، بل يهيئ وَكْره فى المواضع المُشْرِفة، وفى طبعه الزنا والخيانة، ويوصف بالسرقة والخُبْث، وإذا رأىٰ حُلِيًّا أو عِقْدا، آختطفه؛ والعرب تضرب به المَثَل فى جميع ذلك، وإذا باضت الأنثىٰ منه أخفتْ بيضها بورق الدُّلْب خوفًا عليه من الخُفَّاش، فإنه متىٰ قرُب من البيض مَذِرَ وتغير من ساعته. ويقال إنه يخبأ قُوتَه كما يخبؤه الإنسان والنملة إلا أنه ينسىٰ مايخبؤه؛ وبعضهم يعدّه فى جملة الغِرْبان؛ وفيه وجه عندنا بحل أكله .

ومنها الشَّقْرَاقُ ـ بفتح الشين المعجمة وسكون القاف وألف بين الراء المهملة والقاف الثانية، ويجوز فيه كسر الشين أيضا، وربما قلبوه فقالوا الشَّرْقاق، ويسمّى الأخيلَ أيضا، وهو طائر صغير بقدر الحمام أخضر مُشْبَع الخُضْرة، حسنُ المنظر فى أجنحته سواد، والعرب تتشاءم به. وفى طبعه الشَّرَهُ حتّى إنه يَسْرِقُ فِراخَ غيره وعدّه الجاحظ نوعا مِن الغِرْبان، ويكثر ببلاد الشام والروم وخُرَاسَانَ. ولا يزال متباعدا من الإنس، يألف الرَّوابِىَ ورُءوس الجبال، إلا أنه يَحْضُن بيضه فى عوالى العُمْران التى لا تنالُها الأيدى. وعُشُّه شديد البُنْيان، وله مَشْتًى ومَصِيف. قال الجاحظ: وهو كثير الآستغاثة، إذا مرّ به طائر ضربه بجناحه وصاح كأنه هو المضروب. وفيه وجه بِحِلِّ أكله.

ومنها الغُرَابُ الأبقع ـ قال الجوهرىّ: وهو الذى فيه بياض وسَواد، ويسمّى غراب البين أيضا، قال صاحب "المجالسة" سمى بذلك لأنه بان عن نوح عليه السلام حينَ أرسله لينظر الماء فذهب ولم يرجع. قال آبن قتيبة: وجعل فاسقا لأجل ذلك، ويسمّى الأعور إمّا لأنه يُغْمِضُ إحدى عينيه لقوة بصره، وإما لصفاء عينيه وحدّة بصره من باب الأضداد. ومن طبعه الخيانة والسرقة والعرب تتشاءم به وتكره صوته. وقد سبق القول علىٰ ذلك فى أوابد العرب من هذه المقالة.

ومن طبع الغراب ٱلاستتار عند السِّفاد وأنه يَسْفِدُها مواجهة مُلْقاة على ظهرها ، والأنثى تبيض أربع بيضات وخمسا ، وإذا خرجت الفِراخ من البيض نفرعنها الأبوان لبشاعة مَنْظَرِها حينئذ فتغتذى من البعوض والذباب الكائن فى عُشِّها حتّى ينبت ريشها فيعود الأبوان إليها، وعلى الأنثى الحَضْنُ وعلى الذكر أن يأتيها بالطُّعْم ؛ وفيه حَذَر شديد وتناصُر، حتّى إنه إذا صاح الغراب مستنصرا ٱجتمع إليه عدّة من الغِرْبان .

ومنها الغُراب الأسود الكبير ـ وهو الجَبَلىّ ؛ وفيه وجه بجله .

ومنها الحِدَأَةُ ـ بكسر الحاء والهمز الطائر المعروف ويجمع على حِدَإ وحِدْءَانٍ . ومن ألوانها السُّودُ والرُّمْدُ ، وهى لا تصيد بل تخطَف، ومن طبعها أنها تَصُفُّ فى الطيران وليس ذلك لشىء من الكواسر غيرها ، وزعم ٱبن وحشية وٱبن زهر أن الحِدَأَةَ والعُقَابَ يتبدّلان فتصير الحِدأةُ عُقابا والعُقابُ حدأةً . وربما قيل الغراب بدل العُقاب؛ ويقال : إنها تصير سنةً ذكرا وسنةً أنثى، ويقال : إنها أحسن الطير مجاورة لما جاورها من الطير حتّى لو ماتت جوعا لاتعدو على فرخ جارتها . وفى طبعها أنها إنما تختطف ممن تختطف منه من يده اليمنى دون اليسرى حتّى يقال إنها عسراء؛ وقد ثبت فى الصحيحين حل قتلها فى الحل والحرم .

ومنها الرَّخَمة ـ بفتح الراء المهملة والخاء المعجمة، وكنيتها أم جِعْرانَ، وأمّ رِسَالَةَ وأمّ عَجِيبة، وأم قَيْس، وأم كثير(١). ويقال لها الأَنُوق بفتح الهمزة : وهى طائر أبقع ببياض وسواد فوقَ الحِدَأَةِ فى المقدار تأكل الجِيَف، وهى معدودة فى بُغَاثِ الطير، وهى تسكُن رءوس الجبال العالية وأبعدها من أماكن أعدائه، ولذلك تضرب العرب المثل

(١) الذى فى حياة الحيوان "أم كبير" .

ببيضه فيقولون : "أَعَزُّ مِنْ بَيْضِ الأَنُوقِ" والأنثى لا تمكن من نفسها غير ذكرها وتَبِيض بيضة واحدة وربما باضت بيضتين .

ومنها البُومة ـ بضم الباء الموحدة وفتح الميم ـ للذكر والأنثى : وهو طائر من طير الليل فى قَدْر الإوزَّة ، لها وجه مستدير بالريش النابت حوله ، يشبه وجه الآدمىّ فى صفرة عينين وتوقُّدِهما ؛ ويقال للذكر منها الصَّدىٰ والضُّوَعُ ـ بضم الضاد المعجمة ـ والفَيَّادُ ـ بالفاء وتشديد المثناة تحت ، ويقال للأنثى الهامَةُ . وكنية الأنثى أمُّ الخَرَاب ، وأمُّ الصِّبيان ؛ ولها فى الليل قوّةُ سلطان لا يحتملها شىءٌ من الطير ، تدخل علىٰ كل طائر فى وَكْره فى الليل فتُخْرِجه منه وتأكل فِراخَه وبَيْضه ، ولا تنام الليلَ ؛ والطير بجملته يُعاديها من أجل ذلك ، فإذا رأَوْها فى النهار قتلوها ونَتَفُوا ريشها[(١)] ، ومن ثم يجعلها الصيَّادون فى شِباكهم ليقع عليها الطير فيَقْتَنِصُونها ؛ فهى لا تظهر بالنهار لذلك . ونقل المسعودىّ فى مروج الذهب عن الجاحظ أنها إنما تمتنع من ظُهُورها فى النهار خَوفًا من أن تصاب بالعين لحسنها وجمالها ، لأنها تصوّر فى نفسها أنها أحسن الحيوان . ومن طبعها سكنىٰ الخراب دون العامر .

ومن غريب ما يُحكى ما ذكره الطرطوشى فى "سراج الملوك" : أن عبد الملك بن مَروان أرِقَ ليلةً فاستدعىٰ سَمِيرا يحدّثه ، فكان مما حدّثه أن قال : يا أمير المؤمنين كان بالبصرة بُومة وبالمَوْصِل بُومة فخطبت بُومة الموصل إلىٰ بُومة البصرة بنتها لابنها ـ فقالت بومة البصرة : لا أفعل حتّى تجعلى فى صداقها مائة ضيعةٍ خراب ـ فقالت بومة الموصل : لا أقدر علىٰ ذلك الآن ولكن إن دام والينا سلّمه الله علينا سنة واحدة فعلت ؛ فاستيقظ لها وجلس للمظالم .

---

(١) عبارة حياة الحيوان فاذا رآها الطير . . . قتلنها ونتفن وهى أصوب .

ومنها البُؤة ــ بضم الباء وفتح الهمزة ــ قال الجوهرى (١) : وهو طائر يشبه البُومة إلا أنه أصــغر منها . وذكر ابن قتيبة فى أدب الكاتب نحوَه ، ويقــال له البُوهة أيضا ، وهى من طير الليل أيضا ، ولا يخفى أنها التى يسميها الناس فى زماننا المَصَّاصَة ويزعمون أنها تنزل علىٰ الأطفال فتمَصُّ أُنُوفَهم .

ومنها الخُفَّاش ــ بضم الخاء المعجمة وتشديد الفاء و بالشين المعجمة ، و يجمع علىٰ خَفَافِيش ــ وهو طائر غريب الشَّكْل والوصف لاريشَ عليه ، وأجنحتُه جلدة لاصقة بيديه ، وقيل لا صــقة بجنبه ؛ وسمى خُفَّاشا لأنه لا يبصِر نهارا ، و به سمى الرجل أخفش ، والعامّة تسميه الوَطْواط ، وقيل الخُفَّاش الصغير ، والوَطْواط الكبير ، و يقال إن الوطواط هو الخُطَّاف لا الخُفَّاش . وليس هو من الطير فى شئ ، فإن له أسنانا وخُصيتين ، ويحيض ، ويضحك كما يضحك الإنســان ، و يبول كما تبول ذوات الأربع ، و يُرضِــع ولده من ثديه . ولمــا كان لا يبصر نهــارا التمس وقتــا يكون بين الظلمة والضوء وهو قريب غروب الشمس : لأنه وقت هَيَجانــ البعوض فالبعوض يخرج فى ذلك الوقت يطلب قُوتَه من دماء الحيوان ، والخُفَّاشُ يخرج لطلب الطُّعْم فيقع طالبُ رزق علىٰ طالب رِزْق ؛ ويقــال إنه هو الذى خلقــه المسيح عليه الســلام من الطين ، ونفخ فيه فكان طيرا بإذن الله . قال بعض المفسرين : ومن أجل ذلك كان مبــاينا لغيره منــ الطيور ، ولذلك سائر الطيور مُبْغِضَــةٌ له وتسطو عليه ؛ فمــا كان منها يأكل اللحم أكله ، وما كان منهــا لا يأكل اللحم قتله ؛ وهو شديد الطَّيَرَان ، سريع التقلب ، يقتات البعوض والذباب و بعضَ الفواكه ؛ وهو موصوف بطول العمر حتّى يقال : إنه أطول عمرا منــ النَّسْر ، وتلد الأنثى ما بين ثلاثة أفراخ وسبعة ، وكثيرا ما يَسْفِدُ وهو طــائر فى الهواء ، وهو يحمل ولده

(١) لم يهمزه أحد من اللغويين بل ذكروه فى باب الهاء وقد رسم فى الصحاح بالواو وكذا فى القاموس وقال بالضم .

معه إذا طار، تحت جناحه، وربما قبض عليه بفيه حُنُوًّا عليه، وربما أرضعت الأنثىٰ ولَدها وهى طائرة . وفى طباعه أنه متىٰ أصابه ورق الدُّلْبِ خَدِرَ ولم يطر، وقد ورد النهى عن قتله .

فإذا عرف الكاتبُ أحوالَ الطير وخواصَّها ، تصرّف فيها بحسب ما يحتاج إليه فى نظمه ونثره كما فى قول الشاعر :

وإذا السعادةُ لاحظَتْكَ عيونُها ، * نَمْ ، فالمخَاوِفُ كلُّهنّ أمانُ
واصْطَدْ بها العنقاءَ فهى حبائلٌ ، * واقْتَدْ بها الجَوْزاءَ فهى عِنانُ

إشارةً إلىٰ عِظَم العنقاء وعدمِ القدرة علىٰ مقاومتها، ومع ذلك تنقاد بالسعد . وكما فى قول أبى الفتح كُشَاجم، مخاطبا لولده يطلب البرّ منه :

اتّخِذْ فِيَّ خُلّةً فى الكَرَاكِى * أتّخِذْ فيك خُلّةَ الوَطْوَاط
أنا إن لم تبرَّنِى فى عناء * فببِرى ترجو جَوَازَ السراط

يشير إلىٰ ما تقدّم من أنّ فى طبع الكُرْكِىّ بِرَّ والديه إذا كَبِرا ، كما أن فى طبع الوَطْوَاط برَّ أولاده بحيث يحملها معه إلىٰ حيث توجه ، وكما فى قولِ الشاعر :

مثل النهار يَزِيدُ إبصارَ الورىٰ * نُورا ، ويُعْمِى أعيُنَ الخُفَّاش

إشارة إلىٰ أنّ الخُفَّاشَ لا يُبْصِرُ نهارا ، بخلاف سائرأرباب الأبصار ، وكما قيل فى وصف شارد عن القتال :

وهُمْ تركوه أسْلَحَ مِنْ حُبَارىٰ (١) * رأىٰ صقرا ، وأشْرَدَ من نَعَامِ

يريد ما تقدّم مما يَعْرِضُ للحبارىٰ من إرسالها سَلْحَهَا علىٰ الجارح عند اقتناصه لها ، وأنّ النَّعام فى غاية ما يكون فى البرية من الشِّراد والنِّفار ، ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرىٰ .

---

(١) ورد هذا البيت فى حياة الحيوان هكذا : وهم تركوك ... ... رأت

الصـــنف الرابع

(الحمـام)

وقد ٱختلف فى الحمـام فى أصـل اللغة فنقل الازهرىّ عن الشافعىّ رضى الله عنه أن الحمام يطلق علىٰ كل ماعَبّ وهدر و إن تفرّقت أسماؤه، فيدخل فيه الحمام، واليَمام، والدَّباسِىّ، والقَمارِىّ، والفواخت وغيرها . وذهب الأَصْمَعِىّ إلىٰ أن الحمام يطلق علىٰ كل ذات طوق كالفواخت والقمارىّ وأشـباهها . ونقل أبو عُبَيْدٍ عن الكسائىّ سماعا منه أن الحَمَام هو الذى لا يألَفُ البيوت، وأن اليمام هو الذى يألف البيوت لكن الذى غلب عليه إطلاق الحمـام هذا النوع المخصوص المعروف .

ثم هو علىٰ قسمين .

أحدهمـا ما ليس له ٱهتـداءٌ فى الطيران من المسافة البعيـدة . والثـانى ماله ٱهتداء، و يعرف بالحمـام الهدى وهو المراد هنا ؛ وقد ٱعتنى الناس بشأنه فى القديم والحديث، وٱهتم بأمره الخلفاء : كالمهدىّ ثالثِ خلفاءِ بنى العباس، والواثقِ، والناصرِ وتنافس فيه رؤساء النـاس بالعراق، لاسيما بالبَصْرَةِ . فقد ذكر صاحب "الروض المعطار" أنهم تنافسوا فى ٱقتنائه، ولَهِجُوا بذكره، وبالغوا فى أثمانه حتّى بلغ ثمنُ الطائر الفارِهِ منها سَبْعَمائة دينار ؛ ويقال إنه بلغ ثمن طائر منها جاء من خليج القسطنطينية أَلْفَ دينار ؛ وكانت تباع بيضة الطائر المشهور بالفراهة بعشرين دينارا ، وإنه كان عندهم دفاتر بأنساب الحمـام كأنساب العرب، وإنه كان لا يمتنع الرجل الجليل ولا الفقيه ولا العَدْلُ من ٱتخاذ الحمام والمنافسة فيه والإخبارِ عنها، والوصف لأثرها والنعتِ لمشهورها، حتّى وجه أهل البصرة إلىٰ بكار بن قتيبة البكرانى، قاضى مصر، وكان فى فضله وعقله ودينه ووَرَعه ما لم يكن عليه قاض، بحمامات لهم مع ثِقَات، وكتبوا إليه يسألونه أن يتولّى إرسالها بنفسه، وكان الحمام عندهم مَتْجَراً من المتاجر لا يَرَوْنَ بذلك بأسا .

وذكر المقرّ الشهابىّ بن فضل الله فى "التعريف" أن الحمام أوّل مانشأ ـ يعنى فى الديار المصرية والبلاد الشامية ـ من الْمَوْصِلِ وأنّ أوّلَ مَن آعتنىٰ به من الملوك ونقله من الموصل الشهيدُ نور الدين بن زنكى صاحب الشام رحمه الله فى سنة خمس وستين وخمسمائة ، وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر ، وبالغوا حتّى أفردوا له ديوانا وجرائد بأنساب الحمام . وقد آعتنىٰ بعض المصنفين بأمره، حتّى صَنَّفَ فيه أبو الحسن بن ملاعب القوّاس البغدادىّ، كتابا للناصر لدين الله العباسى ، ذكر فيه أسماء أعضاءِ الطائر، ورياشِه، والوشومِ التى توشم فى كل عُضْوٍ، وألوانَ الطيور، وما يستحسن من صفاتها ، وكيفيةَ إفراخها ، وبعضَ المسافات التى أُرْسِلَتْ منها، وذكر شيء من نوادرها وحكاياتها ، وما يجرى مجرىٰ ذلك . وذكر فى "التعريف" أن القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر صنف فيها كتابا سماه "تمائم الحمائم"

ويتعلق الغرض منها بأمور .

الأمر الأوّل

(ذكر ألوانها)

قال أبو الحسن القوّاسُ : وقد أكثر الناس من ذكر ألوانها ويرجع القصد فيها إلىٰ ذكر ألوان ستة .

اللون الأوّل البياض ـ ومنه الأبيض الصافى، والأشقر : وهو ما كان يعلوه حمرة؛ فإن كان الغالب فى شُقْرَتِهِ البياض، قيل فِضِّىٌّ؛ فإن زاد، قيل أشقرُ .

اللون الثانى الخضرة ـ إن كانت خضرته مُشْبَعةً إلىٰ السواد، قيل أخضر مسنِّىٌّ؛ فإن كان دون ذلك، قيل نَبْتِىٌّ الخضرة؛ فإن كان دون ذلك، قيل صافى الخضرة؛ فإن تكدّرت خضرته بأن لم يكن صافى الخضرة، قيل أسمر .

اللون الثالث الصُّفْرة ـ وهى عبارة عن أن تكون خضرته تميل إلىٰ البياض، فإن كان صافيا، قيل أصفر قرطاسىّ .

اللون الرابع الحمرة ـ إذا كان شديدَ الحمرة، قيل عُنَّابِىّ، فإن كان دون ذلك، قيل خَمْرِىّ ؛ فإن كان دون ذلك، قيل خَلُوقىٌّ ؛ فإن كانت حُمْرَته تضرب إلىٰ الخضرة، قيل أَكْفَأ ؛ فإن كانت حمرته تضرب إلىٰ البياض، قيل أحمر صَدَفىّ .

اللون الخامس السواد ـ إذا كان شديد السواد لابياض فيه، قيل أسود مُطْبق ؛ فإن كان لون سواده ناقصا، قيل أسود أخْلَس ؛ فإن كان سوادُه يضرب إلىٰ الخضرة، قيل أسود رَمادِىّ ؛ فإن كان فى سواده مائية، قيل أسود بَرَّاق ؛ فإن كان ساقاه أيضا أسودين، قيل أسود حالك وأسود زِنْجِىّ .

اللون السادس النَّمرِىّ ـ وهو أن يكون فى الطائر نقط يخالف بعضُها بعضا، ويختلف الحال فيه باختلاف كِبرِ النُّقَط وصِغَرِها، فتارة يقال مدَنَّر، وتارة يقال ملَمَّع، وتارة يقال أبرَشُ، وتارة يقال مُوشَّح، وتارة يقال أبْقَع، وتارة يقال أبْلَقُ، وتارة يقال دبَاسِىّ، وتارة يقال مُدَرَّع إلىٰ غير ذلك مما لايُستوفىٰ كثرةً . ثم إن كان الطائر أكحَلَ العينينِ وحَولَ عينيه حمرةٌ، قيل فقيع ؛ فإن كان أصفر العين، قيل أصفَرُ زِرْنِيخِىّ ؛ فإن كان أبيض العنق، قيل هِلالىّ، وهو أحسنها، والأصفرُ العينِ بعده ؛ فإن كانت العين بيضاءَ وفيها حمرة، قيل رُمّانىّ العين .

الأمر الثـانى

(فى عدد ريش الجناحين والذنب المعتدّ به وأسمائها)

أما الجناحان فإن فيهما عشرين ريشة، فى كل جناح منهما عشرُ ريشات، الأولىٰ منها ـ وهى التى فى طرف الجناح ـ تسمَّى الصمة، والثانية وهى التى بعدها تسمَّى

المُضَافة الرئيسية ، والثالثة وهى التى بعدها تُسمّى الواسطية ، والرابعة وهىَ التى بعدها تسمّى المُضَافة ، والخامسة وهى التى بعـدها تسمّى المِنْظفة ، والسادسة وهى التى بعدها تسمّى المُنْحدِرة ، والسابعة وهى التى بعـدها تسمّى الناقصةَ ، والثامنة وهى التى بعدها تسمّى المُؤْنسة ، والتاسعة وهى التى بعدها تسمّى الزَّامِلَة ، والعاشرة وهى التى بعدها تسمّى المُعِينة .

وبعضهم يسمى الأولىٰ الصغيرة ، والثانيـة الرقيقة ، والثالثـة الموفية ، والرابعة الباحلة ، والخامسة الحيرة ، والسادسة الصرافة ، والسابعـة ممسكة الرمى ، والثامنة والتاسعة الحافظتين ، والعاشرة الملِكة .

وربمـا كان فى كل جناح إحدىٰ عشرة ريشةً فيسمّى الطائر حينئذ أعلم .

ولهذه الريشات العشرِ عشرُ ريشـات مع كل واحدة منها رادفةٌ : وهى الريش الصِّـغَارُ التى تغطِّى قصَب الجَنَـاح من ظاهره ، ولكل ريشة من هذه الريشات العشر ريشة صغيرة تغطى قصبتها ، لكل واحدة منها آسم يخصها .

ومن ريش الجناح أيضا الخَوَافِى ، وهى الريش المسَطَّر مع العشر ريشات الطِّوال المنقلبُ برءُوسه إلىٰ مُؤخَّر الجناح . وهى تسع ريشات ، الأولىٰ منها تسمّى الحدقة ، والثانية الرَّتَمة ، والثالثة الغرّة ، والرابعة الحز ، والخامسة الجائزة ، والسادسة المسلِّمة ، والسابعة الملازمة ، والثامنة الشعثة ، والتاسعة اللامعة . وبعضهم يسمِّى الأولىٰ بنت الملكة ، والثانية الإبرة ، والثالثة المقشعرّة ، والرابعة الصافية ، والخامسة المصفية ، والسادسة المصفرة ، والسابعة الزرقاء ، والثامنة السوداء ، والتاسعة المزرقَّة . وعدّ فيها عاشرة تسمّى المخضرَّة ــ ولكل ريشة من الريشات التِّسع ريشةٌ صغيرة تغطى قصبتها لهـا آسم يخصها أيضا .

وبعد الخوافى الغفار ، ولكل ريشة من الغِفَار ريشة صغيرة من باطنها تغطِّى قَصَبتها .

ومن ريش الجناحين المُقَوِّمات : وهى ثلاث ريشات فى طَرَف الجناح ، تسمّى الزوائد . ومن فوقها ثلاثُ ريشات صغارٌ تغطى قصبتها ، تسمّى الغَواشِى ، وأصلها مع أصلِ(١) أيضا .

وأما الذَّنَبُ ، فالمعتبر فيه ٱثنتا عشرة ريشةً من كل جانب : منه ست ريشات تسمّى الأولىٰ منها الغزالة ، والثانية العَرُوس ، والثالثة الباشِقة ، والرابعة الباقيـة ، والخامسة المجاورة ، والسادسة العمود ، ومن الجانب الآخَر كذلك .

الأمر الثـالث

(الفرق بين الذكر والأنثىٰ)

وقد ذكروا بينهما فروقا ؛ منها أنّ الأنثىٰ إذا تمشت ، قدّمَتِ الرِّجْلَ اليسرىٰ ؛ والذكرُ يقدّم الرِّجلَ اليُمْنى . ومنها أن يُرىٰ الذكر مُقْتَدِرًا فى الأرض مُسْتَشِـيطا ، والأنثىٰ بالضـدّ من ذلك ؛ ومنها أنّ ريشَ الذكر أعرضُ وأطولُ وأحسنُ ٱستواءً من الأنثىٰ ؛ ومنها أن مَذْبَحَ الذكر يكون عريضا ومذبَح الأنثىٰ دقيقا ؛ ومنها أن يكون وجه الذكر عريضَ الخـدّ والأنثىٰ بالضـدّ من ذلك ؛ ومنها أنّ الأنثىٰ إذا طارت فتحت جناحيها والذكر إذا طار أخرج عَشْرَيه .

الأمر الرابع

(فى بيان صفة الطائر الفارِه)

قال أبو الحسن القوّاس : علامته أن يكون رأسه مكعبا ، وعينه معتدلَةً ، غيرَ ناتئة ولا غائرة ، ولا فاترة ، ولا قلقة منزعجة ؛ وأن يكون مِنقاره غليظا قصيرا ؛ وأن يكون وسط المَنْخرينِ ، مُكَاثَم القِرْطِمَتَيْنِ ، أَهْرَتَ الشِّدْقَيْنِ ، واسعَ الصدر ، نَقِيَّ الريش ،

(١) لعله مع أصل الزوائد أيضا كما يفيده المقام تأمل .

طويلَ الفَخِذين ، قصيرَ الساقين ، غليظَ الاصابع ، شَثْنَ البراثن ، طويلَ القَوادِم من غير إفراط .

ويستحب فيه قِصَرُ الذنب ، ودِقّتُه ، واجتماع ريشه من غير تفرّق ، وأن يكون ظهره معتدلا وإلى القِصَرِ أقرب ، وأن يكون جُؤْجُؤُه : وهو جانب الصدر طويلا ممتدّا ، وعُنُقُه طويلا منتصبا ، وريش قَوَادمه وخوافيه مَبْنِيًّا متطابقا بعضُه مع بعض من غير تفرّق ولا تَمَعُّط ، وأن يكون شديد اللحم ، مكتنزا غير رِخْوٍ ولا رَهِلٍ .

ويستحب فيه أيضا أن يكون قليلَ الرِّعْدة عند الفزع ، سريع اللَّقْطِ للحب ، خفيفَ الحركة والنُّهوض ، والنزول من غير طَيْش ولا اختلاط ، وأن يكون ظهره مُسَطَّحا لا أحدبَ ولا أوقصَ ؛ ويستحب فيه إذا وقف ، أن ينصب صدرَه ، ويرفع عُنُقَه ، ويفتح ما بين فَخِذَيْه شبه البازى .

ومن علامة فَرَاهته أنه إذا طال عليه الطَّيَران (١) وأراد النزول على سطحه أن لا يُدَلِّيَ رجليه حتّى يقع صدره على سطحه لانه إذا دلّى ساقيه ، كان عيبا عظيما يقولون قد انحلت سراويله بمعنى أنه قد أدّى جميع ما عنده من القوّة والطاقة ؛ ويكره فيه دقة المَغْرِز ، وطولُ الذَّنَب ، وتفرّق الريش .

الأمر الخامس

(الفِرَاسة فى الطائر من حال صغره قبل الطيران)

قالوا من علامة الطائر الفاره فى صِغَرِه أن يكون حديدَ النظر ، شديدَ الحِذْر ، خفيفَ اللحم ، قليلَ الريش ، سريعَ النَّهْضة ، كثيرَ التَّلَفُّتِ فى الجو ، ممتدَّ العظم ، مستويا ، لطيفَ الذَّنَب ، خارجَ العُنُق ، قصيرَ الساقين ، طويل الفَخِذَين ، مُحَجَّلا ،

---

(١) لعلّ الجار ومجروره من زيادة الناسخ .

مذيلَ المنقار، مدوّرَ القَرَاطم، مضاعفَ المحَاجِر، يلزم موضعا واحدا من صغره إلىٰ ازدواجه، فإذا آزدوج علىٰ السَّطْح يكون حريصا علىٰ طائرته، حسنَ الأخلاق معها لا يَطْرُدُها طردَ الكلاب، ولا يغتالُ غِيلَةَ الذئاب، قليـلَ الذَّرْق، كثيرَ الدهن، مُدِلًّا بنفسه، كأنه يعلم أنه فاره. فإن كان فيه بعضُ هذه الخصال، كانت فراهته علىٰ قدر مافيه من ذلك.

قال أبو الحسن الكاتب : ومن علامة شهامة الفرخ أن تكون فيـه الحركة وهو تحت أبيه وأمّه، وكلما جمعتْه لتضمَّه تحتها، خرج من تحتها و يعتلق للخروج، وأن يكون ريش رأسه كأن فيه جَلَحا، وريشُ جسـده وجناحه مسـتطيلا عند نَبْعه من جسـده، وأن يطول ريشُه حتّٰى يغطِّيَ ظهره ولا ينتشر إلا بعـد ذلك، وأن يكون من جؤجؤ الصدر إلىٰ مَغْرِزِه أقصر من بطنه إلىٰ رأس بَرَاثِنه.

وفى الحمام طائر يقال له الأندم، وصفته أن يكون أسود المِنْقار ليس فيه بياض، ورأس مِنْقاره وأصله سواء، لاتحديد فى رأسه، عريضَ القَرَاطم، غليظَ الشِّدقين، منتشر المَنْخِرَين، جَهْوَرِيَّ الصوت، غائرَ العين، قال أبو الحسن القوّاس : ولا تكون هذه الصفة إلا فى الطائر الفاره الأصيل، الكريم الأب والأم.

الأمر السادس

(بيان الزمان والمكان اللائقين بالإفراخ)

أما الزمان فأصلح أوقات التأليف أيلول، وتشرين الأول، وتشرين الثانى، وأذار، ونيسان، وايار، فإذا وقع الإفراخ فى شئ من هذه الأوقات كانت الفراخ أقوياء، نُجَباء، أذكياءَ، ونُهوا عن الإفراخ فى كانون الأول، وكانون الثانى، وشباط، وآب، وتموز، وحزيران، فإن الذى يُفْرِخ فيه لا يزال ناقصَ البدن، قليلَ الفطْنة، يلقى ريشَه فى السنة مرتين فيضْعف.

وأما المكان فقد حكى عن إقليمن الهندى أن أولى ما أفرخ الحمامُ بالسُّطوح ، وذلك أنّ الفرخ يخرج من القشر فيلقى خشونة الهواء وحَرَّ الموضع فيصير له عادة ثم لاينهض حتّى يعرف وطنه وينقلب إليه أبوه وأمه بالزَّقّ والعَلَف فيعرف السَّطْح حقَّ المعرفة ، وينتقل خلفهما فيعلمانه الصُّعود والهُبُوط . وربما أخذاه إلى الرَّعْى بالصحراء فلا يكمل حتّى يصير شهما عارفا بأمور الطيران . بخلاف ما إذا أفرخ بالسُّفْل فإنه يتربّى جسده على برودة الفَىْء ولين الهواء ، فإذا كمل وترقّى إلى السطح لقيه خشونة الهواء وقوّة الحرّ، فيُحْدِث له الحرّ الجامد بفؤاده الكُبَادَ والدِّقَّ .

الأمر السابع

(فى مسافة الطيران)

قد تقدّم أنّ طائرا طار من الخليج القُسْطنطينىّ إلى البَصْرة ، وأن الحمام كان يُرَسَل من مصر إلى البصرة أيضا . وذكر ابن سعيد فى كتابه "جنى المحل وجنى النحل" أنّ العزيز ثانِىَ خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيره يعقوب بن كلس أنه ما رأى القَرَاصِيَة البعلبكية ، وأنه يحب أن يراها ، وكان بدمشق حمامٌ من مصر وبمصر حَمام من الشام ، فكتب الوزير بِطَاقةً يأمر فيها مَنْ بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام المصرىّ ويعلق فى كل طائر حبَّاتٍ من القَرَاصِيَة البعلبكية وتُرسَل ففعل ذلك فلم يمض النهار إلا وعنده قدر كثير من القَرَاصِية فطلع بها إلى العزيز من يومه . وذكر أيضا فى كتابه "المُغْرب فى أخبار المَغْرِب" أن الوزير اليازورى المغربى وزير المستنصر الفاطمى وجه الحمام من مدينة تونس من افريقيَةَ من بلاد المغرب إلى مصر فجاء إلى مصر .

وقد ذكر أبو الحسن القوّاس فى كتابه فى الحمـام أنّ حماما طار من عَبّـادانَ إلىٰ الكُوفة ، وأن حماما طار من التُّرْناوَذ إلىٰ الأُبُلَّةِ ونحو ذلك ، وسـيأتى الكلام علىٰ أبراج الحمام بالديار المصرية فى المقالة العاشرة فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

النوع الخـامس
(مايحتاج إلىٰ وصفه من نفائس الأحجار)

ويحتاج الكاتب إليه من وجهين : أحدهما من حيث مخالطةُ الملوك فلا بدّ أن يكون عارفا بصـفات الجواهر وأثمـانها والنَّفِيس منها وخواصِّها لأنه ربمـا جرىٰ ذكر شئ من ذلك بحضرة ملكه ، فتكون مشاركته فيه زيادة فى رِفْعة محله ، وعلوّ مِقداره ، وهذا هو الذى عوّل عليه صاحب "موادّ البيان" فى ٱحتياج الكاتب إلىٰ ذلك . والثانى أن يحتاج إلىٰ وصف شئ من ذلك مع هدية تصدُر عن ملكه أو هديةٍ تصل إليه ، مع مايحتاج إليه من ذلك لمعرفة التشبيهات والٱستعارات التى هى عمودُ البلاغة ، فمن لم يكن عارفا بأوصاف الأحجار ، ونفائس الجواهر لايُحسِن التعبير عنها ؛ ألا ترىٰ إلىٰ تشبيهات ٱبن المعتز ووصفه للجواهر كيف تقَعُ فى نِهاية الحُسْنِ ، وغاية الكمال لمعرفته بالمشاهدة فهو يقول عن علم ، ويتكلم عن معرفة "وليس الخبرُ كالمعاينة" وقد ٱعتنى الناس بالتصنيف فى الأحجار فى القديم والحديث .

فممن صنف فيـه فى القديم من حكماء الفلاسفة أرسطوطا ليس ، وبلينوس ، و ياقوس الإنطاكى .

وممن صنّف فيه من الإسلاميين أحمد بن أبى خالد المعروف بٱبن الجزار ، و يعقوب بن إسحاق الكِنْدىّ وغيرهما . وأحسن مصنَّف فيه مصنَّف أبى العباس أحمد بن يوسف التِّيفاشِىّ .

والذى يتعلق الغرض منه بذلك ٱثنا عشر صنفا .

الصنف الأوّل

(اللؤلؤ)

وهو يتكوّن فى باطن الصَّدَف ؛ وهو حيوانٌ من حَيَوان البحر المِلْح له جِلْد عَظْمِىٌّ كالحَلَزون ، ويغوص عليه الغوّاصُون ، فيستخرِجُونه من قعر البحر ، ويصْعَدُون به فيستخرجُونه منه . وله مَغَاصات كثيرة ، إلا أن مَظَانَّ النفيس منه بسَرَنْدِيبَ من الهند ، وبكِيش ، وعُمَانَ ، والبحرين من أرض فارس ؛ وأفخرُه لؤلؤ جزيرة خارَكَ ، بين كِيش والبحرين .

أمّا مايوجد منه ببحر القُلْزم وسائر بحار الحِجاز فردِىء ولو كانت الدُّرّة منه فى نهاية الكبر : لأنه لا يكون لها طائل ثمن . وجَيِّد اللؤلؤ فى الجملة هو الشَّفّاف الشديد البياض ، الكبيرُ الجِرم ، الكثيرُ الوزْن ، المستدير الشكل ، الذى لا تَضْرِيس فيه ، ولا تَفَرْطُحَ ، ولا اعوجاجَ . ومن عيوبه أن يكون فى الحبة تفَرْطُح ، أو اعوجاجٌ ، أو يلصق بها قِشْر أو دودة ، أو تكون مجوّفة غير مصمتة ، أو يكون ثقبها متسعا .

ثم من مصطلح الجوهريين أنه إذا اجتمع فى الدرّة أوصاف الجَوْدة ، فما زاد علىٰ وزن درهمين ، ولو حبة يسمّى درّا . فإن نقصت عن الدرهمين ولو حبة سمِّيتْ حَبَّة لؤلؤ ؛ وإذا كانت زنتها أكثر من درهمين وفيها عيب من العيوب ، فإنها تسمّى حبَّة أيضا ، ولا عبرة بوزنها مع عدم اجتماع أوصاف الجَوْدة فيها ، وتسمّى الحبة المستديرةُ الشكلِ عند الجوهريين الفارة ، وفى عرف العامّة المُدَحْرَجة . ومن طبع الجوهر أنه يتكوّن قشورا رقاقا طبقةً علىٰ طبقة حتّى لو لم يكن كذلك فليس علىٰ أصل الخلقة بل مصنوع .

ومن خواصه أنه إذا سُحِق وسُقِى مع سَمْن البقر نفع من السُّمُوم .

وقال ارسطوطاليس : من وقف علىٰ حل اللؤلؤ من كباره وصغاره حتّى يصير ماء رَجْراجا ثم طَلَى به البرص أذهبـه ، وقيمة الدرّة التى زنتُها درهمـان وحبة مثـلا أو وحبتان مع اجتماع شَرائط الجَوْدة فيها سبعمائة دينار ، فإن كان اثنتان علىٰ هـذه الصفة كانت قيمتهما ألفى دينار كل واحدة ألف دينار لاتفاقهما فى النظم ، والتى زنتها مثقال وهى بصفة الجودة قيمتها ثلثمائة دينار ، فإن كان اثنتان زنتهما مثقال وهما بهذه الصفة علىٰ شكل واحد لا تفريق بينهما فى الشكل والصورة ، كانت قيمتهما أكثر من سبعمائة دينار . وقد ذكر ابن الطوير فى تاريخ الدّولة الفـاطمية أنه كان عنـد خلفائهم دُرّة تسمّى اليتيمة زنتها سبعة دراهم تجعل علىٰ جبهة الخليفة بين عينيه عند ركوبه فى المواكب العظام علىٰ ماسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ترتيب دولتهم فى المسالك والممـالك إن شاء الله تعالىٰ .

ويضُرُّه جميع الأدهان ، والحُمُوضات بأسرها لاسيما الليمون ، ووهج النار ، والعَرَق ، وذَفَر الرائحة ، والاحتكاك بالأشياء الخشنة ، ويجلوه ماء حماض الأترج إلا أنه إذا أُلِحّ عليه به قَشَره ونقَص وزنه ، فإن كانت صـفرته من أصل تكوّنه فى البحر فلا سبيل إلىٰ جِلائها .

الصنف الثـانى

(اليـاقوت)

قال بليناوس : وهو حجر ذهبيٌّ ، وهو حصًى يتكوّن بجزيرةٍ خلفَ سَرَنْدِيبَ من بلاد الهند بنحو أربعين فرسخا ، دورها نحو ستين فرسخا فى مثلها ، وفيها جبل عظيم يقال له جبل الرَّاهُون تُحْدِر منه الرياحُ والسيولُ الياقوتَ فيُلْتَقَط ، والياقوتُ حصباؤه . وهو الجبل الذى أهبط الله تعالىٰ عليه آدم عليه السـلام ، فإذا لم تُحْدِر السيولُ منه

شيئا، عمد أهلُ ذلك الموضع إلىٰ حيوان فذبحوه وسلَخُوا جلده وقَطَّعوه قِطَعا كبارا وتركوه فى سفح ذلك الجبل فيختطفه نُسُور تأوِى إلىٰ ذلك الجبل فتصعَد باللحم إلىٰ أعلاه فيلصق بها الياقوت ثم تأخذه النسور وتنزل به إلىٰ أسفل فيسقط منه ماعَلِق به من الياقوت؛ فإذا أخذ كان لونه مظلما ثم يشف بملاقاة الشمس ويظهر لونه علىٰ أىّ لون كان .

ثم هو علىٰ أربعة أضرب .

الضرب الأوّل الأحمر ــ ومنه البَهْرَمان ، ولونه كلون العُصْفُر الشديد الحمرة الناصع فى القوّة الذى لايشوب حمرته شائبة، ويسمّى الرُّمَّانىَّ: لمشابهته حبَّ الرُّمَّان الرائِق الحب ،وهو أعلىٰ أصناف الياقوت وأفضلها وأغلاها ثمنا .

ومنه الخِيرِىُّ : وهو شبيه بلون الخيرىِّ : وهو المنثور، ويتفاضل فى قوّة الصبغ وضعفه حتى يقرب من البياض .

ومنه الوَرْدِىُّ : وهو كلون الورد ويتفاضل فى شدّة الصبغ وضعفه حتّى يقرب من البياض .

وأردأ ألوانه الوردىُّ الذى يضرب إلىٰ البياض ،والسُّمَّاقىّ الذى يضرب إلىٰ السَّواد .

الضرب الثانى الأصفر ــ وأعلاه الجُلَّنارىُّ ، وهو أشدّه صفرة، وأكثره شُعاعا ومائيةً، ودونه الخَلُوقىّ ، وهو أقلُّ صُفرةً منه ،ودونه الرقيق وهو قليل الصفرة كثير المـاء ساطع الشُّعاع .

وأردأ الأصفر ما نقص لونه ومال إلىٰ البياض .

الضرب الثالث الأبيض ـ ومنه المهانِىُّ :وهو أشدّها وأكثرُها ماءً وأقواها شُعاعا؛ ومنه الذكر : وهو أثقلُ من المهانىّ وأقلُّ شُعاعا وأصلبُ حَجَرًا؛ وهو أَدْوَنُ أصناف

الياقوت وأقلها ثمنا . وأجود الياقوت الأحمرُ البهرمانىّ والرمانىّ والوردىّ النيِّر المشرقُ اللون الشَّفَّافُ، الذى يَنْفُذُه البصر بسرعة. وعيوبه الشَّعْرَةُ : وهى شبه تشقيق يُرىٰ فيه، والسُّوس : وهو خروق توجد فيه باطنة ويعلوها شئ من ترابية المَعْدِن .

ومن أردإ صفاته قبح الشكل .

ومن خواصّ الياقوت أنه يقطع كلَّ الحجارة كما يقطعها الْمَاسُ، وليس يقطعه هو علىٰ أىّ لون كان غَيْرُ الْمَاسِ .

ومن خواصه أيضا أنه لا ينحكُّ علىٰ خشب العُشَر الذى تجلىٰ به جميعُ الأحجار، بل طريق جلائه أن يُكَسَّر الجَزْعُ اليمانى ويحرَق حتّٰى يصيرَ كالنُّورة ثم يسحق بالماء حتّٰى يصير كأنه الغِرَاءُ ثم يحك علىٰ وجه صفيحة من نحاس حجرُ الياقوت، فينجلى ويصيرُ من أشد الجواهر صَقَالَةً .

ومن خواصه أنه ليس لشىء من الأحجار الْمُشِفَّةِ شعاعٌ مثله، وأنه أثقل من سائر الأحجار المساوية له فى المقدار، وأنه يصبر علىٰ النار فلا يتَكَلَّسُ بها كما يتكلس غيره من الحجارة النفيسة، وإذا خرج من النار بَرَدَ بسرعة حتّٰى إنّ الإنسانَ يضعه فى فيه عَقِبَ إخراجه من النار فلا يتأثر به، إلا أن لون غير الأحمر منه كالصفرة وغيرها يتحوّل إلىٰ البياض، أمّا الحمرة فإنها تَقْوىٰ بالنار، بل إذا كان فى الفص نُكْتَةٌ حمراء، فإنها تَتَّسِعُ بالنار وتنبسط فى الحجر. بخلاف النكتة السوداء فيه، فإنها تنقُص بالنار فما ذهبت حمرته بالنار فليس بياقوتٍ بل ياقوت أبيضُ مصبوغ، أو حجر يشبه الياقوت .

ومن منافعه ما ذكره أرْطاطاليس، أن التختم به يمنع صاحبَه أن يصيبه الطاعونُ إذا ظهر فى بلد هو فيه، وأنه يعظم لابِسه فى عيون الناس، ويسهلُ عليه

قضاء الحوائج، وتتيسر له أسباب المعاش، ويقوّى قلبه ويشجعه، وأن الصاعقة لاتقع علىٰ من تختم به . وإذا وضع تحت اللسان، قطع العطش . وآمتحانه أن يُحَكَّ به ما يشبهه من الأحجار، فإنه يَجْرَحُها بأسرها ولا تؤثر هى فيه . قال التيفاشى : وقيمة الأحمر الخالص علىٰ ماجرىٰ عليه العُرْف بمصرَ والعراقِ أن الحجرَ إذا كان زنتُه نصفَ درهم، كانت قيمته ستةَ مثاقيل من الذهب الخالص، والحجرَ الذى زنته درهمٌ قيمته ستة عشر دينارا، والحجرَ الذى زنته مثقالٌ قيمته بدينارين القيراط، والحجرَ الذى زنته مثقال وثلثٌ قيمته ثلاثة دنانيرَ القيراط إلىٰ ثلاثة ونصف، ويزيد ذلك بحسب زيادة لونه ومائيته وكبر جرمه حتّى ربما بلغ مازنته مثقال من جيده مائةَ مثقال من الذهب إذا كان بهرمانا نهايةً فى الصِّبْغ والمائية والشعاع، قد نقص منه بالحك كثيرٌ من جِرْمه ؛ وقيمة الأصفر منه زنة كل درهم بدينارين ؛ وقيمة الأزرق والماهانىّ كل درهم بأربعة دنانير؛ وقيمة الأبيض علىٰ النصف من الأصفر . ويختلف ذلك كله بالزيادة والنقص فى الصِّبغ والمائية مع القرب من المَعْدِن والبعد عنه ؛ وقد ذكر آبن الطوير فى ترتيب مملكة الفاطميين أنه كان عندهم حجرُ ياقوت أحمر فى صورة هلالِ زنته أحد عشر مثقالا يُعْرَفُ بالحافر، يجعل علىٰ جبين الخليفة بين عينيه مع الدّرّة المتقدّمة الذكر عند ركوبه .

الصنف الثالث

(البَلَخْشُ)

قال فى مسالك الأبصار : ويسمّى اللَّعْلَ . قال بلينوس : وآنعقاده فى الأصل ليكون ياقوتا إلا أنه أبعده عن الياقوتية عِلَلٌ من اليُبْس والرطوبة وغيرهما، وكذلك سائر الأحجار الحُمْر؛ ومعدن البَلَخْش الذى يتكوّن فيه بنواحى بَلَخْشَان ، والعجمُ

تقول : بَذَخْشَان بذال معجمة وهى من بلاد الترك تتاخم الصين[1] . قال التيفاشى : وأخبرنى من رأىٰ مَعْدنَه من التّجَارِ أنه وجد منه فى المعدن حجرا وفى باطنه ما لم يكمل طبخه وٱنعقاده بعد، والحجر مجتمع عليه ،وهو علىٰ ثلاثة أضرب : أحمر مُعَقْرَبٌ وأخضر زَبَرْجَدِىٌّ ،وأصفر، والأحمر أجوده . قال التيفاشى : وليس لجميعه شىء من خواص الياقوت ومنافعــه ، وإنمـا فضيلته تشبهه به فى الصِّبْغ والمـائية والشعاع لا غير . قال : وقيمته فى الجمــلة غالبا علىٰ النصف من قيمة الياقوت الجيد . قال فى مسالك الأبصار : وهو لا يؤخذ من مَعْدِنِه إلا بتعب كثير وإنفاق زائد ، وقد لا يوجد بعــد التعب والإنفاق ، ولهذا عز وجودُه ، وغَلَتْ قيمتُه ، وكثر طالبُه ، والتفتت الأعناق إلىٰ التحلى به . قال : وأنفس قطعة وصلت إلىٰ بلادنا من البَلَخْش قطعة وصلت مع تاجر فى أيام العادل كتبغا وأُحضرت إليــه وهو بِدمَشْق ، وكانت قطعةً جليلةً مثلثة علىٰ هيئة المُشْطِ العُودىّ . وهى فى نهاية الحسن وغاية الجَوْدَةِ ، زنتها خمسون درهمـا ، كاد المجلس يُضِىء منها ،فأحضر الصاحبُ نَجمَ الدين الحنفىَّ الجوهرىَّ وسأله عن قيمتها فقال له نجمُ الدين الجوهرىُّ : إنمـا يعرف قيمتَها من رأىٰ مثلها ، وأنا وأنت والسلطان ومن حضر لم نر مثلها فكيف نعرف قيمتها ؟ فأُعْجِب بكلامه ، وصالح عليها صاحبها .

الصنف الرابع
(عَيْنُ الهِرّ)

قال التيفاشى : وهو فى معنى الياقوت إلا أن الأعراض المقتصرةَ به اقعدته عن الياقوتية ، ولذلك إنمـا يوجد فى مَعْدِنِ الياقوت المتقــدّم ذكره ؛ وتخرجه الرياح

---

(١) فى ياقوت أنها فى أعلى طخارستان متاخمة لبلاد الترك .

والسيول كما تُخْرِجُ الياقوتَ علىٰ ما تقدّم ، قال : ولم أجده فى كتب الأحجار ، وكأنه مُحْدَثُ الظهور بأيدى الناس ، والغالب علىٰ لونه البياض بإشراق عظيم ومائية رقيقة شفافة ، إلا أنه تُرىٰ فى باطنه نُكْتة علىٰ قدر ناظر الهِرّ الحامل للنور المتحرك فى فَصّ مقلتـه وعلىٰ لونه : علىٰ السواد ، و إذا تحرّك الفَصُّ إلىٰ جهة ، تحركت تلك النكتة بخلاف جهته . فإن مال إلىٰ جهة اليمين ، مالت النكتة إلىٰ جهة اليسار و بالعكس ، وكذلك الأعلىٰ والأسفل ، وإن كسر الحجر أو قطع علىٰ أقل جزء ، ظهرت تلك النكتة فى كل جزء من أجزائه ، ولذلك يسمّى عينَ الهر .

وأجوده ما اشتدّ بياض أبيضه وشفيفُه ، وكثرت مائية النكتة التى فيه مع سرعة حركتها وظهور نورها و إشراقها ؛ ولا يخفىٰ أن حُسْنَ الشكل وكِبَرَ الجرم يزيدان فى قيمته كسائر الأحجار . قال التيفاشى : والمشهور من منافعه عند الجمهور أنه يحفظ حامله من أعين السوء . ونقل عن بعض ثقات الجَوْهَرِيِّين أنه يجمع سائر الخواصّ التى فى الياقوت البهرمانىّ فى منافعه ، و يزيد عليه بأن لا يَنْقُصَ مالُ حامله ولا تعتريه الآفات ، وأنه إذا كان فى يد رجل وحضر مَصافَّ حرب وهُزِم حزبه فألقىٰ نفسه بين القتلىٰ ، رآه كل من يمرّ به من أعدائه كأنه مقتول متشحط فى دمه ؛ وان ثمنه بالهند مع قُرَب معدِنه أغلىٰ من ثمنه ببلاد المغرب بكثير ، لعلمهم بخواصه ؛ وقيمته تختلف بحسب الرغبة فيه ؛ و إذا وقع ببلاد المغرب بيعَ المثقالُ منه بخمسة دنانير ، و يزيد علىٰ ذلك بحسب الغرض .

وذكر التيفاشى عن بعض التجار أن حجرا منه بِيعَ فى المَعْبَر من بلاد الهند بمـائة وخمسين دينارا وأنه بيع منه حجر ببلاد الفُرْس بسبعمائة دينار .

الصنف الخامس

(المَـاسُ)

قال بلينوس فى كتاب الأحجار : وٱبتدأ فى مَعْدِنِه لينعقد ذهبا، فأبعدته العوارض عن ذلك ،وهو يتكوّن فى مَعْدِنِ الياقوت المقـدّم ذكره وتخرجه الرياح والسـيول من معدنه كما تخرج الياقوت ،وهو ضربان : أحدهما أبيض شـديد البياض يشبه البِلَّوْرَ يسمّى البِلَّوْرِىَّ لذلك ، والثانى يخالط بياضَه صفرةٌ فيصير كلون الزُّجَاج الفرعونى، ويعبر عنه بالزيتى . قال الكندىّ : والذى عاينته من هـذا الحجر ما بين الخردلة إلىٰ الجوزة ولم أر أعظم من ذلك .

ومن خواصه أنه يقطع كل حجر يمرّ عليه ، وإذا وضع علىٰ سـندال حديد ودُقَّ بالمِطْرَقَةِ لم ينكسر، وغاص فى وجه السندال والمِطْرَقَةِ وكسرهما، ولا يلتصق بشىء من الأجساد إلا هُشِمَ ويمحو النقوشَ التى فى الأحجـار كلِّها . وإنمـا يكسر بأحد طريقين : أحدهما أن يُجْعلَ داخلَ شىء من الشمع ويدخل فى أنبوب قصب وينقر بمطرقة أو غيرها برفق بحيث لا يباشر جسمُه الحديد ، فينكسر حينئذ ؛ أو يجعـل فى أُسْرُبٍّ وهو الرَّصَاصُ ويفعل به ذلك فيكسر أيضا .

ومن خواصه أن الذباب يشتهى أكلَه فمـا سقطت منـه قطعة صغيرة إلا سقط عليها الذباب وٱبتلعها أو طار بها، ومتىٰ ٱبتلع منه الإنسانُ قطعةً، ولو أصغر مايكون خَرَقَتْ أمعاءه وقتلته علىٰ الفور . قال أرسطوطاليس : وبينـه وبين الذهب محبة يَتَشَبَّثُ به حيث كان .

ومن خاصـته أن كلَّ قطعة تؤخذ منـه تكون ذاتَ زوايا قائمةِ الرأس : ستِّ زوايا وثمـان زوايا وأكثر، وأقله ثلاث زوايا ، وإذا كسر لا ينكسر إلا مثلثا ،

وبه يثقب الدرّ والياقوت والزُّمُرُّدُ وغيرها من جميع ما لا يعمل فيه الحديد من الأحجار كما يثقب الحديد الخشب، بأن يُرَكَّب فى رأس منقار حديد منه قطعةٌ بقدر ما يراد من سعةِ الثَّقْبِ وضِيقِه ثم يثقب به، فيثقب بسرعة .

ومن منفعته فيما ذكره ارسطوطاليس أن مَنْ كان به الحصاة الحادثة فى المثانة فى مجرى البول إذا أخذ حبة من هذا الحجر وألصقها فى مِرْوَدِ نُحاس بِمُصْطَكى إلصاقا مُحْكَماً ثم أدخل المِرْوَدَ إلى الحصاة فإنها تثقبها . قال أحمد بن أبى خالد : وبذلك عالجت وصيفا الخادمَ من حصاة أصابته وآمتنع من الشق عليها بالحديد . وقال آبن بوسطر : وإذا عُلِّقَ على البطن من الخارج، نفع من المَغْسِ الشديد ومن فساد المعدة؛ وقيمته الوُسْطى فيما ذكره التيفاشى أن زنة قيراط منه بدينارين؛ ونقل عن الكِنْدِىّ أن أغلى ما شاهد منه ببغداد المثقال بثمانين دينارا وأرخصَ ما شاهد منه ببغداد أيضا المثقال بخمسة عشر دينارا، وأنه إذا بدرت منه قطعة كبيرة تصلح لفَصٍّ قدرِ نصف مثقال يضاعف ثمنها على ما هو قدر الخردلة أو الفلفلة ثلاثةَ أضعاف وأربعةً وخمسةً .

الصنف السادس
(الزُّمُرُّدُ)

يقال بالذال المعجمة والمهملة . قال بلينوس : والزُّمُرُّدُ آبتدأ لينعقد ياقوتا، وكان لونه أحمرَ إلا أنه لشدّة تكاثف الحمرة بعضها على بعض عَرَضَ له السوادُ وامتزجت الحمرة والسواد فصار لونه أخضرَ؛ ومَعْدِنُه الذى يتكوّن فيه فى التخوم بين بلاد مصرَ والسودان خلف أسوان من بلاد الديار المصرية ، يوجد فى جبل هناك ممتدٍّ كالجسْر فيه معادن . قال فى مسالك الأبصار : وبينه وبين قُوص ثمانية أيام بالسير

المعتدل ولا عمــارة عنده ولا حوله ولا قريبا منه، والمــاء عنده على مسيرة نصف يوم أو أكثر فى موضع يعرف بغَدِير أعيَن . فمنه مايوجد قِطَعًا صغارا كالحصى منبثة فى تراب المعْدِن وهى الفصوص وربما أصيب العرْقُ منه متصلا فيُقْطَع وهو القصب وهو أجوده . قال فى مسالك الأبصار : وتلك العُروق منبثةٌ فى حَجَرٍ أبيضَ تستخرج منه بقطع الحجر . قال التيفاشى : ويوجد على بعضه تُرْبة كالكُحْل الشديد السواد، وهو أشدّه خضرة وأكثره ماء. وقد ذكر المؤيد صاحبُ حَماه فى تاريخه أن السلطان صلاحَ الدين يوسفَ بن أيُّوب رحمه الله لما آستولى على قصر الفاطميين بعد موت العاضد، وجد فيه قصبة زُمُرُّدٍ طولهـا أربعة أذرع أو نحوُها .

وهو على ثلاثة أضرب .

الأوّل الذُّبَابِىّ — وهو شديد الخُضْرة، لايشوب خضرتَه شئ آخرُ من الألوان : من صفرة ولا سواد ولا غيرهما، حسنُ الصَّبغ، جيدُ المـائية، شديدُ الشُّعاع، ويسمّى ذبابيا لمشابهة لونه فى الخضرة لونَ كِبار الذُّباب الأخضر الربيعىّ : وهو من أحسن الألوان خُضْرةً وبصيصا . قال فى مسالك الأبصار : وهو أقلُّ من القليل بل لا يكاد يوجد .

الثانى الرَّيْحَانِىُّ — وهو مفتوح اللون، شبيه بلون ورق الرَّيْحَان .

الثالث السِّلْقِىّ — وخضرته أشبه شئ بلون السِّلْق .

الرابع الصابونىّ — ولونه كلون الصابون الأخضر، قال فى "مسالك الأبصار": وإذا آســتخرج الزُّمُرُّدُ من المَعْدِن ، جُعِل فى زيت الكَتَّان ثم لُفَّ فى قطن وصرّ فى خرقة كَتَّان ونحوها، ولم يزل العمل فى هذا المعدن إلى أثناء الدَّوْلَةِ الناصرية محمد آبن قلاوون فتُرِكَ لكثرة كُلْفته .

وأفضل أنواعه وأشرفها الذبابىّ، ويزداد حسنه بِكبرِ الجرم ، وآستواء القصبة،

وعدم الاعوجاج فيها . ومن عيوب الذبابىّ اختلافُ الصَّبغ بحيث يكون موضع منه مخالفا للموضع الآخر ، وعدمُ الاستواء فى الشكل ، والتشعيرُ : وهو شِبْه شُقُوق خفية إلا أنه لا يكاد يخلو منه ، والرَّخاوة ، وخفة الوزن ، وشدّة المَلاَسة والصِّقال والنُّعومة ، وزيادةُ الخضرة والمائية إذا ركب على البطانة ؛ وهو ينحل بالنار ويتكلس فيها ، ولا يثبت ثباتَ الياقوت .

ومن خاصِّيَّة الذبابىّ التى امتاز بها عن سائر الأحجار أن الأفاعِىَ إذا نظرت إليه ووقع بصرها عليه ، انفقأتْ عيونُها . قال التيفاشى : وقد جربت ذلك فى قطعة زُمُرُّدٍ ذبابىّ خالصٍ ، فحصَّلتُ أفعى وجعلتها فى طَشْتٍ وألصقته بشمع فى رأس سهم وقرَّبته من عينها فسمعت قعقعة خفية كما فى قَتْل صُؤابةٍ فنظرت إلى عينيها فإذا هما قد بَرَزَتا على وجهها وضَعُفت حركتها . وبهذه الخاصّة يمتحن الزُّمُرُّدُ الخالص من غيره كما يُمْتحن الياقوت بالصَّبر على النار .

ومن منافعه أن من أدْمن نظَرَه أذهب عن بصره الكَلاَل ؛ ومن تختم به دفع عنه داء الصَّرْع إذا كان قد لبسه قبل ذلك ؛ ومن أجل ذلك كانت الملوك تعلقه على أولادها ؛ وإذا كان فى موضع لم تقربه ذوات السموم ؛ وإذا سُحِل منه وزن ثمان شعيرات وسقيتَه شارب السُّم قبل أن يعمل السم فيه ، خلصته منه ؛ وإذا تختم به من به نَفْث الدم أو إسهاله ، منع من ذلك ؛ وإذا عُلِّق على المعدة من خارج ، نفع من وَجَعِها ؛ وشُربُ حُكَاكَتِه ينفع من الجُذَام . وقيمة الذبابىّ الخالص فى الحجر الذى زِنَتُه درهم أربعة دنانير القيراط ، ويتضاعف بحسب كِبَرِه ، وينقص بحسب صِغَرِه ؛ إلا أنه لا ينقص بالصِّغَر نقصَ غيرِه من الأحجار لوجود خاصيته فى الكبير والصغير والمُعْوجِّ والمستقيم . أما بقية أصناف الزُّمُرُّدِ ، فإنه لا قيمة لها يعتدّ بها لعدم المنافع الموجودة فى الذبابىّ .

الصـــنف السابع

(الزَّبَرْجَدُ)

وهو حجر أخضرُ يتكوّن فى مَعْدِنِ الزُّمُرُّدِ، ولذلك يظنه كثير من الناس نوعا منه إلا أنه أقلُّ وجودا من الزُّمُرُّدِ . قال التِّيفاشى : أما فى هــذا الزمان فإنه لا يوجد فى المَعْدِن أصلا، وإنمـا الموجود منه بأيدى الناس فصوص تستخرج بالنبش من الآثار القــديمة بالإسكَنْدرية؛ وذكر أنه رأىٰ منــه فَصًّا فى يد رجل أخبره أنه ٱستخرجه من هنالك، زِنته درهم، لايكاد البصر يُقْلِعُ عنه لرقة مائه، وحسن صفائه . وأجوده الأخضر المعتدل الخُضرةِ، الحسن المـائية، الرقيق المستشَفّ، الذى يَنْفُذُه البصر بسرعة؛ ودونه الأخضر المفتوح اللون؛ وليس فيــه شئ من خواص الزُّمُرُّدِ إلا أن إدمان النظر إليه يجلو البصرَ . وقيمة خالصه نصف درهم بدينار .

الصـــنف الثـامن

(الفَيْرُوزَجُ)

وهو حجر نُحاسىّ يتكوّن فى مَعَادن النُّحَاس من الأبخرة الصاعدة منهـا، إلا أنه لا يوجد فى جميع معادن النُّحاس؛ ومعدنه الذى يوجد فيه بِنَيْسَابُورَ، ومنه يجلب إلىٰ سائر البُلْدَان؛ ومنــه نوع آخر يوجد فى نشاور إلا أنّ النيسابورىّ خير منه؛ وهو ضربان بسحاقىّ وخَلَنْجِىّ[1]، والخالص منه العتيق هو البسحاقىّ وأجوده الأزرق الصافى اللون، المشرق الصفاء، الشديد الصَّقالة، المستوى الصَّبغ؛ وأكثر ما يكون فصوصا؛ وذكر الكِنْدِىُّ أنه رأىٰ منه حجرا زنته أوقية ونصف .

ومن خاصته أنه يصفو بصــفاء الجوّ ويَكْدُر بكُدْرَته وإذا مســه الدُّهن أذهب حسنه وغيَّر لونَه، والعَرَقُ يطفئ لونَه، والمسك إذا باشره، أفسده وأذهب حسنه؛

(١) فى مفردات ابن البيطار سنجابى ولعل ما فى الأصل تصحيف .

وإذا وضع الفَصُّ الجيد منه إلىٰ جانب ماهو دونه فى الجَوْدَةِ، أذهب بهجته؛ وإذا وضع إلىٰ جانب الدَّهْنَجِ غلب الدهنج علىٰ لونه فأذهب بهجته ولو كان الفَصُّ الفَيْرُوزَجُ فى غاية الحسن والجَوْدَةِ .

ومن منافعه أنه يجلو البصرَ بالنظر إليه ؛ وإذا سحق وشرب نفع من لدغ العقارب ؛ وقيمته تختلف باختلاف الجَوْدَةِ اختلافا كثيرا فربما كان الفَصّانِ منه زنتهما واحدة وثمن أحدهما دينار وثمن الآخر درهم . وبالجملة فالخَلَنْجِيّ الجيد علىٰ النصف من البسحاقى الجيد . قال التيفاشى : وأهل المَغْرِبِ أكثر الناس له طلبا وأشدّهم فى ثمنه مغالاة، وربما بلغوا بالفَصِّ منه عشرةَ دنانير مَغْرِبية ويَحْرِصون علىٰ التختم به، وربما زعموا أنه يدخل فى أعمال الكيمياء .

الصنف التاسع
(الدَّهْنَجُ)

وقد ذكر أَرَسْطوطاليس أنه ايضا حجر نُحَاسِيّ يتكوّن فى معادن النحاس يرتفع من أبخرتها وينعقد، لكنه لايوجد فى جميع معادن كَرْمَانَ وسِجِسْتَانَ من بلادفارس . قال : ومنه ما يؤتى به من غار بنى سُلَيْم من برية المغرب، فى مواضع أخرىٰ كثيرة .

وأجودأنواعه أربعة : وهى الافرنديّ، والهنديّ، والكَرْمَانِيّ، والكركيّ؛ وأجوده فى الجملة الأخضر المُشْبَع الخضرة، الشبيه اللون بالزُّمُرُّدِ، معرّق بخضرة حسنة، فيه أَهِلَّة وعيون بعضها من بعض حسان، وأن يكون صُلْباً أملسَ يقبل الصَّقالة .

ومن خاصته فى نفسه أن فيه رخاوةً بحيث إنه إذا صنع منه آنية أو نُصُبٌ للسكاكين ومرت عليه أعداد سنين ، ذهب نوره لرخاوته وانحل ، ولذلك إذا حُكَّ انحك سريعا، وإذا خرط خرزا أو أوانى أو غيرَ ذلك، كان فى خرطه سهولة،

وإذا نقع فى الزيت آشـتدّت خضرته وحَسُن، فإن غُفِلَ عنـه حتّى يطول لُبْثُه فى الزيت، مال إلىٰ السواد .

ومن منافعه أنه إذا مسح به علىٰ مواضع لدغ العقرب، سكنه بعض السكون؛ وإذا سحق منه شيء وأذيب بالخل ودلك به موضعُ القوبة الحادثة من المِرّة السوداء، أذهبها .

ومن عجيب خواصّه أنه إذا سقى من سُحَالته شارب سُمٍّ نفعه بعضَ النفع؛ وإن شَرِب منه من لم يشرب سمـا، كان سمـا مفرِطا يُنَفِّطُ الأمعاء، ويُلْهِب البـدن، ويحدث فيه سمّا (١) لايبرأ سريعا، لاسيما إذا حُكَّ بحديدة؛ ومن أمسكه فى فيه ومصه أضرَّبه؛ وقيمته أن الافريدىّ الخالص منه كل مثقال بمثقالين من الذهب، ويوجد منـه فصوص وغيرها . وقد ذكر يعقوبُ بن إسحاق الكندىّ أنه رأىٰ منه صحفةً تسع ثلاثين رِطلا .

الصنف العاشر
(البِلَّوْرُ)

قال بلينوس : وهو حجر بُورَقِىٌّ وأصله الياقوتية إلا أنه قعدتْ به أعراضٌ عن بلوغ رتبة اليـاقوت؛ وقد آختلف أصحابنـا الشافعيةُ رحمهـم الله فى نفاسـته علىٰ وجهين، أصحهما أنه من الجوهر النفيس كالياقوت ونحوه، والثانى أنه ليس بنفيس لأن نفاسته فى صنعته لا فى جوهره . ويوجد بأماكن، منها برّية العرب من أرض الحجاز وهو أجوده ، ومنه مايؤتىٰ به من الصين وهو دونه ، ومنه ما يكون ببلاد الفرنجة وهو فى غاية الجَوْدَةِ، ومنه معادن توجد بأَرْمِينِيَةَ تميل إلىٰ الصفرة الزجاجية . وقد ذكر التيفاشى أنه ظهر فى زمنه مَعْدِنٌ منـه بالقرب من مَرَّاكُش من المغرب

(١) فى مفردات ابن البيطار بثرا . وهى أوضح .

الأقصى إلا أن فيه تشعيرا، وكثر عندهم حتى فرش منه لملك المغرب مجلس كبير : أرضا وحيطانا . ونقل عن بعض التُّجَّارِ أن بالقرب من غَزْنة من بلاد الهند على مسيرة ثلاثة عشر يوما منها بينها و بين كاشْغَر، جبلين من بلور خالص مطلّين على وادٍ بينهما وأنه يُقْطَعُ فى الليل لتأثير شُعَاعه إذا طلعت عليه الشمس بالنهار فى الأعين . وأجوده أصفاه وأنقاه وأشفُّه وأبيضه وأسلمُه من التشعير؛ فإن كان مع ذلك كبيرَ الجِرْمِ، آنية أو غيرها كان غاية فى نوعه . وقد ذكر الكندى أن فى البلور قطعا تخرج كل قطعة منه من المَعْدِنِ أكبرَ من مائة منّ . ونقل التيفاشى : أنه كان بقصر شهاب الدين الغورى صاحب غزنة أربعُ خوابٍ للماء كل خابية تسع ثلاث رَوَايَا ماء على محاملَ من بلور، كل محمل ما بين ثلاثة قناطير إلى أربعة . وذكر أيضا أنه رأى منه صورةَ دِيك مخروط من صنعة الفرنج إذا صب فيه الشراب ظهر لونه فى أظفار الديك .

ومن خاصَّتِه ما ذكره أو فرسطس الحكيم أنه يذوب بالنار كما يذوب الزجاج ويقبل الصِّبْغَ .

ومن خاصته أيضا أنه إذا آستقبل به الشمس ووجه موضع الشعاع الذى يخرج منه إلى خِرْقَةٍ سوداءَ، آحترقت وظهر فيها النار .

ومن منافعه أن من تختم به أو علقه عليه لم ير منام سوء . وقيمته تختلف بحسب كِبَرِ آنيته وصغرها وإحكام صنعتها . قال التيفاشى : وبالجملة فالقطعة التى تحمل[1] منه رطلا إذا كانت شديدةَ الصَّفاء سالمةً من التشعير، تساوى عشرة دنانير مصرية .

---

(١) مراده تزن ولكنه كثيرا مايستعمل بعض لغات العامة .

الصنف الحادى عشر
(المَرْجَانُ)

وهو حَجَر أحمرُ فى صورة الأشجار المتشعبة الأغصـان، ومَعْدِنه الذى يتكوّن فيه بموضع من بحر القُلْزُم بساحل إفريقية، يعرف بمرسَى الخرز، ينبت بِقَاعِه كما ينبت النبات، وتُعْمَلُ له شِبَاك قوية مُثَقَّلة بالرَّصاص، وتدار عليه حتّى يَلْتَفّ فيها، ويجذب جذبا عنيفا فيطلُعُ فيها المَرْجَان . وربمـا وجد ببعض بلاد الفِرنْجَـة إلا أن الأكبر والأكثر والأحسن بمرسَى الخرز، ومنـه يجلب إلى بلاد المشرق . ولأهل الهنـد فيه رغبةٌ عظيمة، وإذا آستخرج، حك على مِسَنّ المـاء، ويجلى بالسُّنْبَاذَج المعجونِ بالماء على رُخَامَةٍ فيظهر لونه، ويحسن، ويثقب بالفولاذ أو الحديد المسقّى . وأجوده ماعظم جِرْمه، وآستوت قَصَبَاته، وآشتدّت حُمْرته، وسَلِمَ من التسويس : وهو خروق توجد فى باطنه حتّى ربمـا كان منه شئٌ خاوٍ كالعَظْم، وأردؤه ما مال منه إلى البياض أو كثرت عُقَدُهُ وكان فيه تشطيب، ولا سبيل إلى سـلامته من العُقَد لوجود التشعب فيه، فإن آتفق أن تَقَعَ منه قطعة مُصْمَتَة مستوية لا عُقَدَ فيها ولا تشطيبَ، كانت فى نهاية الجَوْدَة . وقد يوجد منـه قِطَع كِبَار فتحمَل إلى صاحب إفْرِيقِيَـةَ فيعمل له منها دُوِيٌّ وأنصِـبةُ سكاكينَ . قال التيفاشى : رأيت منهـا مَحْبَرة طول شبر ونصف، فى عرض ثلاث أصابع، وآرتفاع مثلها، بغطائها فى غاية الحمرة وصفاء اللون . وقد ذكر آبن الطوير فى تاريخ الدَّولة الفاطمية بالديار المصرية وترتيبها : أنه كان لخلفـاء الفاطميين دَوَاة من المَرْجَان تُحمل مع الخليفـة إذا ركب فى المواكب العظام أمامَ راكب على فرس، كما سيأتى ذكره فى الكلام على المسالك والممـالك، فى المقالة الثانية فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ومن خاصته فى نفسه أنه إذا ألقى فى الخل لاَنَ وآبيضّ، وإن طال مكثه فيـه

ٱنحلَّ ، وإذا ٱتخذ منه خَاتَم أو غيرهُ ولُبِّس جميعه بالشـمع ثم نقش فى الشمع بإبرة بحيث ينكشف جِرْم المَرْجَان وجعل فى خل الخمر الحاذق يوما وليلة أو يومين وليلتين ثم أخرج وأزيل عنـه الشمع ، ظهرت الكتابة فيه حَفْرا بتأثير الخل فيه ، وبقية الخَاتَم علىٰ حاله لم يتغير . قال التيفاشى : وقد جربنا ذلك مرارا ؛ ومتىٰ أُلقى فى الدهن ظهرت حُمْرته وأشرقَ لونها .

ومن منافعه فيما ذكره الإسكندرُ أنه إذا علق علىٰ المصروع أو مَنْ به النِّقْرِسُ ، نفعه ؛ وإن أحرق وٱسْتُنَّ به ، زاد فى بياض الأسنان وقلع الحفر منها وقوّى اللِّثَةَ ؛ وطريق إحراقه أن يجعَلَ فى كوز فخار ويُطيَّنَ رأسه ويوضع فى تَنُّور ليلة ؛ وإذا سحق وشَرِبَه من به عسر البول ، نفعه ذلك ؛ ويحالِ أورام الطحال بشربه ، وإذا علق علىٰ المَعِـدَة نفع من جميع عللها كما فى الزُّمُرُّد ؛ وإذا أحرق علىٰ ما تقدّم وشرب منه ثلاثة دوانق مع دانَق ونصف صمغ عربىّ ببياض البيض وشرب بمـاء بارد ، نفع من نَفْثِ الدم . قال التيفاشى : وقيمته بإفريقيَةَ غشيما الرطل المصرىّ من خمسة دنانيرَ إلىٰ سبعة مَغْرِبية ، وهى بقدر دينارَين إلىٰ مايقاربهما من الذهب المصرى ، وبالإسكندرية علىٰ ضِعفَىْ ذلك وثلاثةِ أضـعافه ، ومن اسكندرية يحمل إلىٰ سائر البلاد ؛ ويختلف سـعره بحَسَب قرب البلاد وبعدها ، وقلتِه ، وكثرته ، وصغره ، وجَوْدَتِه ، ورداءته ، وحسنِ صَنعته .

الصـــنف الثـانى عشر
(البادزهر الحيوانىّ)

وهو حجر خفيف هَشّ . وأصل تكوّنه فى الحيوان المعروف بالأَيِّل بتخوم الصين . وإن هـذا الحيوان هناك يأكل الحيات ، قد ٱعتاد ذلك غذاء له ، فيحدث عن ذلك

وجود هذا الحجر منه على ماسيأتى بيانه، وقد اختلف الناس فى أىّ موضع يكون من هذا الحيوان، فقيل إنه يتكوّن فى مآقِى عينيه من الدموع التى تسقط من عينيه عند أكل الحيات ويتربّى الحَجَر حتّى يكبرَ فَيَحْتَكَّ فيسقط عنه. وقيل يكون فى قلبه فيصاد لأجله ويذبح ويستخرج منه . وقيل فى مرارته . قال أرسطاطاليس : وله ألوان كثيرة منها الأصفر والأغبر المُشْرَبُ بالحمرة والمشرب بالبياض. وأعظم مايوجد منه من مثقال إلى ثلاثة مثاقيل. وأجوده الخالص الأصفر الخفيف الهَشُّ. ويستدلّ على خلوصه بكونه ذا طبقات رِقاق متراكبة كما فى اللؤلؤ ، وبه نقط خفية سُود، وأن يكون أبيض المَحَكّ مُرّ المذاق . قال التيفاشى : وكثيرا ما يُغَشُّ فتصنع حجارة صغار مطبقة من أشياء مجموعة تشبه شكل البادزهر الحيوانىّ ولكنها تتميز عن البادزهر الحقيقىّ بأن المصنوع أغبر كَمِدُ اللون ساذَج غير منقط، والبادزهر الحقيقىّ الخالص أصفر أو أغبر بصفرة فيه نقط صغار كالنَّمَش ، وطبقاته أرقُّ من طبقات المصنوع بكثير، وهو أحسن من المصنوع وأهش ومَحَكُّه أبيض .

ومن خاصته فى نفسه أن احتكاكه بالأجسام الخشنة يخشّنه ويغيّر لونه وسائرَ صفاته حتّى لا يكاد يعرف . وقد ذكر التيفاشى أنه كان معه حجر منه ، فجعله مع ذهب فى كيس وسافر به فاحتك بالذهب فتغير لونُه ونقص وزُنه حتّى ظَنّ أنه غير عليه ، وأنه ربطه بعد ذلك فى خرقة وتركه أياما فعاد فى الصفة إلى ما كان، إلا أنه بَقِىَ على نقص ماذهب منه .

ومن منافعه دفع السموم القاتلة وغيرِ القاتلة، حارّةً كانت أو باردةً : من حيوان كانت أو من نبات ، وأنه ينفع من عضّ الهوامّ ونهشها ولدغها ، وليس فى جميع الأحجار ما يقوم مَقَامه فى دفع السموم . وقد قيل إن معنى لفظ بادزهر النافى للسم ، فإذا شرب منه المسموم من ثلاث شعيرات إلى اثنتى عشرة شعيرة مسحوقة

أو مسحولة أو محكوكة على المِبْرَدِ بزيت الزيتون أو بالماء ، أخرج السم من جسده بالعَرَق ، وخلصه من الموت . وإذا سحق وذُرّ على موضع النهشة جذب السم إلى خارج وأبطل فعله . قال ابن جمع : وإن حُكَّ منه على مِسَنّ فى كل يوم وزن نصف دانِق وسقيته الصحيح على طريق الاستعداد والاحتياط ، قاوم السموم القَتَّالة ولم تخش له غائلة ولا إثارة خلط ، ومن تختم منه بوزن اثنتى عشرة شعيرة فى فَصِّ خَاتَمَ ثم وُضع ذلك الفَصُّ على موضع اللدغة من العقارب وسائر الهوام ذوات السموم ، نفع منها نفعا بينا ، وإن وضع على فم الملدوغ أو من سُقِى سما نفعه .

قلت : هذه هى الأحجار النفيسة الملوكية التى تلتفت الملوك إليها وتعتنى بشأنها ، أما غيرها من الأحجار كالبنفش ، والعقيق ، والجَزْع ، والمِغْناطيس ، واليشم ، والسبج ، واللَّازِوَرْد وغيرها مما ذكره المصنفون فى الأحجار فلا اعتدادَ به ولا نظر إليه ولذلك أهملت ذكرَه .

النوع السادس
(نفيس الطيب)

ويحتاج الكاتب إلى وصفه عند وصوله فى هَدِيَّةٍ وما يجرى مَجْرَى ذلك ، والمعتبر منه أربعة أصناف .

الصنف الأوّل
(المِسْك)

وهو أجلُّها . قال محمد بن أحمدَ التميمىّ المقدسى فى كتابه "طيب العروس" : وأصل المسك من دابة ، ذات أربع ، أشبهِ شئ بالظبى الصغير ، قيل لها قرن واحد ، وقيل قرنان ، غير أن له نابين رقيقين أبيضين فى فكه الأسفل خارجين من فيه قائمين

فى وجهه كالخِنزير . قال بعض أهل المعرفة بالمسك : وهو فضلٌ دموىّ يجتمع من جسمها إلىٰ سرتها، بمنزلة الموادّ التى تَنْصَبُّ إلىٰ الأعضاء فى كل سنة فى وقت معلوم، فيقع الوَرَمُ فى سُرَّتِها ويجتمع إليها دم غليظ أسودُ فيشتدّ وجعها حتّى تُمْسِكَ عن الرَّعْيِ وورود المياه حتّى يسقط عنها .

ثم قيل إن تلك الظباءَ تصاد وتذبح وتؤخذ سُرَرُها بما عليها من الشعر، والمسك فيها دم عَبِيط : وهى النوافج، فإن كانت النافجة كثيرة الدم ، آكتفى بما فيها ؛ وإن كانت واسعة قليلة الدم ، زيدَ فيها من غيرها، ويصب فيها الرصاص المذاب وتخاط بالخوص وتعلق فى حلق مستراح أربعين يوما، ثم تخرج وتعلق فى موضع آخر حتّى يتكامل جفافها وتشتد رائحتها ، ثم تُصَيَّر النوافج فى مزاودَ صغَار وتخيطها التُّجّار وتحملها . وقيل انه يبنىٰ لهذه الظباء حين يَعْرِض لها هذا العارض بناءٌ كالمنارة فى طول عَظْم الذراع لتأتىَ الظباء فتحك سُرَرَها بذلك البناء فتسقط النوافج، حتّى إنه يوجد فى تلك المراغة ألوفٌ من النوافج ما بين رَطْب وجامد .

ثم قيل إن هذه الظباء توجد بمفازات بين الصين وبين التُّبَّت والصُّغْد من بلاد الترك، وإن أهل التُّبَّتِ يلتقطون ما قرب إليهم، وقد قيل إن المسك يحمل إلىٰ التُّبَّت من أرض بينها وبين التُّبَّتِ مسيرةُ شهرين .

وبالجملة فإنه تختلف أسماء أنواعه بآختلاف الأماكن التى ينسب إليها، إما باعتبار أصل وجوده فيها، وإما بآعتبار مصيره إليها . وأجوده فى الجملة ماطاب مرعىٰ ظبيه، ومرعىٰ ظِبائه النباتُ الذى يتخذ منه الطيب كالسنبل ونحوه ، ولا يخفىٰ أن بعضَ نبات الطيب أطيبُ رائحةً من بعض حتّى يقال إن منه مارائحته كرائحة المِسْك . وقيل أجوده ما كَمُل فى الظبي قبل بينونته عنه . وقال أحمد بن يعقوبَ : وأجود المسك فى الرائحة والنظر ما كان تُفَّاحِيًّا تشبه رائحتُه رائحةَ التفاح اللُّبْنَانِيّ،

وكان لونه يغلب عليه الصُّفْرة ، ومقاديره وسطا بين الِجلَال والرِّقَاق ، ثم ما هو أشدُّ سوادا منه إلا أنه يقاربه فى الرأى والمنْظَر ، ثم ماهو أشدّ سوادا منه ، وهو أدناه قدرا وقيمةً . قال : وبلغنى عن تُجّار الهند أن من المسك صِنْفَين آخرين يُتَّخذان من نبات أرض : أحدهما لايفسد بطول المُكْثِ ، والثانى يفسد بطول المُكْثِ ؛ والمشهور منه عشرة أصناف .

ونحن نوردها علىٰ ترتيبها فى الفضل مقدَّما منها فى الذكر الأفضلُ فالأفضل علىٰ ما رتبه أحمد .

الأول التُّبَّتى — وهو ما حمله التِّجَار من التُّبَّت إلىٰ خُرَاسانَ علىٰ الظهر لِطيب مَرْعاه، وحملِه فى البر، دون البحر .

الثانى الصُّغْدىّ — وهو ماحِمل من الصُّغْد من بلاد التُّرك علىٰ الظهر إلىٰ خُراسانَ .

الثالث الصِّينىّ — وإنما نقَصت رتبته لأن مَرْعاه فى الطِّيب دون مرعىٰ التُّبَّتِّى ، ولما يلحَقُه من عُفُونة هواء البحر بطول مكثه فيه . وأفضل الصينىّ ما يؤتىٰ به من خانفو : وهى مدينة الصين العظمى ،وبها ترسو مراكب تجار المسلمين ، ومنها يحمل فى البحر إلىٰ بحر فارس ،فإذا قرب من بلد الأُبلَّة ٱرتفعت رائحته ، وإذا خرج من المركب جادت رائحته وذهبت عنه رائحة البحر .

الرابع الهندى — وهو ما يحمل من التُّبَّت إلىٰ الهند ثم يحمل من الهند إلىٰ الدَّبِيل ثم يحمل فى البحر إلىٰ سِيرافَ من بلاد العجم ، وعُمَان من البحْرِيْن ، وعدَنَ من اليمن ، وغيرها من النواحى . وسبب ٱنحطاط رتبته عن الصينىّ وإن كان من جنس التُّبَّتى مع أنه أقربُ مسافةً من الصينىّ ما ذكره المسعودىّ : أنه إذا حمل إلىٰ الهند أخذه كَفَرَة الهند فلطَّخوه علىٰ أصنامهم من العام إلىٰ العام ثم يبدِّلونه بغيره ، ويبيعه سدنةُ الأصنام فبِطُول مُكْثِه علىٰ الأصنام تضعف رائحته . علىٰ أن محمد بن العباس قد فضَّل الهندىّ علىٰ الصينى لقرب مسافة حمله فى البحر .

الخامس القنبارى — ويؤتىٰ به من بلد تسمّى قنبار بين الصين والتُّبَّت . قال أحمد بن يعقوب : وهو مِسْك جيد إلا أنه دون التبتى فى القِيمة ، والجوهر ، واللون ، والرائحة . قال : وربما غالطوا به فنسبوه إلىٰ التبتى .

السادس الطُّغُرْغزىّ — وهو مِسْك رَزِين يضرب إلىٰ السَّواد ، يؤتىٰ به من أرض الترك الطغرغز وهم التتر ، وهو بطىء السحق ، ولا يسلم من الخشونة إلا أنهم ربما غالطوا به أيضا .

السابع القصارىّ — ويؤتىٰ به من بلد يقال لها القصار بين الهند والصين . قال ابن يعقوب : وقد يُلْحَق بالصينىّ إلا أنه دونه فى الجوهر والرائحة والقيمة .

الثامن الجَزِيرىّ — وهو مِسْك أصفرُ ، حسَن الرائحة ، يشابه التبَّتىّ إلا أن فيه زَعَارة .

التاسع الجبلىّ — وهو مسك يؤتىٰ به من السِّند من أرض المولِيان ، وهو كبير النوافج حسن اللَّوْن إلا أنه ضعيف الرائحة .

العاشر العصمارى — وهو أضعف أصناف المسك كلها وأدناها قيمة ، يخرج من النافجة التى زنتها أوقية زنةُ درهم واحد من المِسْك .

قلت : أمّا المسك الدارىُّ فإنه منسوب إلىٰ دارِينَ : وهى جزيرة فى بحر فارس معدودة من بلاد البحرين ترسو إليها مراكب تُجَّار الهند ، ويحمل منها إلىٰ الأقطار وليست بمعدِن للسك .

الصنف الثانى

(العنبر)

قال محمد بن أحمد التميمى : والأصل الصحيح فيه أنه ينْبُع من صُخُور وعُيُون فى الأرض ، يجتمع فى قَرَار البحر ، فإذا تكاثَف اجتذبته الدّهَانة التى هى فيه علىٰ

آقتطافه من موضعه الذى تعلَّق به، وطَفَا علىٰ وجه المـاء، وهو حارّ ذائب فتقطّعه الريحُ وأمواج البحر قطعا كبارا وصغارا فترمى به الريح إلىٰ السواحل، لا يستطيع أحد أن يدنو منه لشدّة حره وفوَرانه، فإذا أقام أياما وضربه الهواء جمد، فيجمعه أهلُ السواحل. قال أحمد بن يعقوب: وربما ابتلعته سمكة عظيمة يقال لها ا كيال وهو فائر فلا يستقرّ فى جوفها حتّى تموت فتطفُو ويطرحُها البحر إلىٰ الساحل فيُشَقُّ جوفُها ويُستخْرَج منها، ويسمّى العنبر السَّمَكِيَّ، والعنبر المَبْلوع. قال التميمى: وهو فى لونه شبيه بالنار، ردىء فى الطيب: للسُّهوكة التى يكتسبها من السمك. قال: وربما طرح البحر القِطعة العنبر فيبصِرُها طائر أسودُ كالخُطَّاف فيرفرف عليها بجناحيه، فإذا سقط عليها ليختطف بِمنقاره منها تعلَّق منقاره ومخـاليبه بها فيموت ويبلىٰ ويبقىٰ منقاره ومخاليبه فيها، ويعرف بالعنبر المَناقِيرِىّ.

قال التميمى: ولأهل سواحل البحر التى يوجد بها العنبر نُجُب يركبونها مؤدَّبةٌ تعرِف العنبر، يسيرون عليها فى ليالى القَمَر علىٰ شاطئ البحر فإذا رأت العنبر وقد نام راكِبُها أو غفلَ، بركت بصاحبها حتّى ينزل عنها فيأخُذَه.

قال التميمى: وألوان العنبر مختلفةٌ. منها الأبيض: وهو الأشهب، والأزرق، والرَّمادى، والخزازى: وهو الأبرش، والصفايح: وهو الأحمر، وهما أدنى العنبر قَدْرا. قال: وأفضل العنبر وأجوده ما جمع قوّةَ رائحةٍ، وذكاءً بغير زعارة.

قال أحمد بن يعقوبَ: وأنواع العنبر كثيرة، وأصنافه مختلفة، ومعادنه متباينة. وهو يتفاضل بمعادنه وبجوهره، والذى وقفت علىٰ ذكره منه ستة أضرب.

الأوّل الشَّحْرِىُّ ــ وهو ما يقذفه بحر الهند إلىٰ ساحل الشَّحْرِ من أرض اليمن. قال: وهو أجود أنواع العنبر، وأرفعه، وأفضله، وأحسنه لوناً، وأصفاه جوهرًا وأغلاه قيمةً.

الثانى الزَّنْجِىُّ ـ وهو ما يقذفه بحر البربر الآخذُ من بحر الهند فى جهة الجنوب إلىٰ سواحل الزَّنْج وما والاها . قال التميمى : وزعم الحسين بن يزيدَ السيرا فىّ أنه أجود العنبر وأفضله ، ويؤتىٰ به منها إلىٰ عدن ، ولونه البياضُ .

الثالث السلاهطى ـ قال التميمى : وأجوده الأزرق الدَّسِمُ الكثير الدُّهْن ، وهو الذى يستعمل فى الغَوَالى .

الرابع القَاقُلِّىّ ـ وهو ما يؤتىٰ به من بحر قَاقُلَّةَ من بلاد الهند إلىٰ عَدَن من بلاد اليمن ، وهو أشهبُ جيد الريح ، حسن المَنْظَرِ خفيف ، وفيه يبس يسير . وهو دون السلاهطى لا يصلح للغوالى إلا عن ضرورة . وهو صالح للذرائر والمُكَلَّسات .

الخامس الهِنْدِىّ ـ وهو ما يؤتىٰ به من سواحل الهند الداخلة ، ويحمل إلىٰ البَصْرَة وغيرها ؛ ومنه نوع يؤتىٰ به من الهند يسمّى الكرك بالوس ؛ يأتون به إلىٰ قرب عُمَانَ تشتريه منهم أصحاب المراكب .

السادس المَغْرِبِىُّ ـ وهو ما يؤتىٰ به من بحر الأَنْدَلُس فتحمله التُّجار إلىٰ مصرَ ، وهو أردأ الأنواع كلِّها . وهو شبيه فى لونه بالعنبر الشَّحْرِىِّ . قال التميمى : ويغالط به فيه .

قال التميمى : ومن العنبر صنف يعرف بالنَّدِّ ، ونقل عن جماعة من أهل المعرفة أن دابة تخرج من البحر شبيهةً ببقر الوحش فتلقيه من دبرها فيؤخذ وهو لَيِّن يمتدُّ فما كان منه عَذْبَ الرائحة حسنَ الجوهر فهو أفضله وأجوده . قال : وهو أصناف أحدها الشَّحْرِىُّ : وهو أسودُ فيه صفرة ، يَخْضِبُ اليدَ إذا لُمِس ، ورائحته كرائحة العنبر اليابس ، إلا أنه لا بقاء له علىٰ النار . وإنما يستعمل فى الغوالى إذا عزَّ العنبر السلاهطى ؛ ومنه الزَّنْجِىُّ : وهو نظير الشَّحْرِىّ فى المَنْظَرِ ودونه فى الرائحة : وهو أسودُ بغير صُفْرَة ؛ ومنه الخمرىُّ : وهو يَخْضِبُ اليد وأصولَ الشعر خَضْبا جيدا ، ولا ينفع فى الطيب .

قلت : أمّا المعروف فى زماننا بالعنبر ممـا(١) يلبسه النساء فإنمـا يقال له النَّد، وفيه جزء من العنبر . قال فى نهاية الأرب : وهو علىٰ ثلاثة أضرب .

الأوّل المُثَلَّث — وهو أجودها وأعطرها ؛ وهو يركَّب من ثلاثة أجزاء : جزء من العنبر الطيِّب ، وجزء من العود الهندىّ الطيّب ، وجزء من المسك الطيب .

الثـانى وهو دونه أن يجعل فيه من العنبر الخام الطيّب عشرةُ مثاقيلَ ، ومن النَّدِّ العتيق الجيد عشرةُ مثاقيل ، ومن العود الجيد عشرون مثقالا .

الثالث — وهو أدناها أن يؤخذ لكل عشرة مثاقيلَ من الخام عشرةُ مثاقيلَ من النَّدِّ العتيق وثلاثون مثقالا من العود ، ومن المسك ما أحب .

الصنف الثـالث

(العـــود)

قال التميمىّ : أخبرنى أبى عن جمـاعة من أهل المعرفة أنه شجر عِظَامٌ تنبت ببلاد الهنـد ، فمنه مايجلب من أرض قِشْمير الداخلة : من أرض سَرَنْدِيبَ ، ومن قَمَـارِ ، وما ٱتصل بتلك النواحى ، وأنه لاتصيرُ له رائحة إلا بعد أن يَعْتُقَ . ويُقَشَّرُ فإذا قشر وجفف ، حمل إلىٰ النواحى حينئذ . قال : وأخبرنى بعضُ العلماء به أنه لا يكون إلا من قلب الشـجرة ، بخلاف ما قارب القِشْرَ كما فى الآبَنُوس والعُنَّاب ونحوهمـا من الأشجار التى داخلها فيـه دَهَانَةٌ وما فى خارجها خشب أبيض ؛ وأنه يقطَع ويقلَع ظاهره من الخشب الأبيض ، ويدفن فى التراب سـنينَ حتّٰى تأ كل الأرض ما داخله من الخشب ويبقىٰ العود لا تؤثر فيه الأرض .

وحكىٰ محمـد بن العباس أنه يكون فى أودية بين جبال شاهقـة ، لا وصولَ

---

(١) مراده باللبس الاستعمال .

لأحد إليها لصعوبة مَسْلَكها، فيتكسر بعض أشجاره أو يتعفَّن بكثرة السـيول لِمَمَرّ الأزمان فتأكل الأرض مافيه من الخشب ويبقى صميمُ العود وخالصُه فتجرّه السيول وتُخْرِجُه من الأودية إلى البحر فتقذفُه الأمواج إلى السواحل فيلتقطه أهلُ السواحل ويجمعونه فيبيعونه . ويقال إنه يأتى به قوم فى المراكب إلى ساحل الهند فيقفون على البعد بحيث لاترى أشخاصهم، ثم يطْلُعون ليلا فيضعونه بفرضة تلك البلاد، ويخرج أهل البلد نهارا فيضعون بإزائه بضائعَ ويتركونها إلى الليل، فيأتى أصحابُ العود فَمَنْ أعجبه ما بإزاء متـاعه أخذه وإلا تركه ؛ فـيزيدونه حتّى يُعْجِبَه فيأخذه، كما يحكى فى السَّمُّورِ وغيره فى ساكنى أقصى الشِّمال .

وأجود العود ما كان صُلْبًا، رزينا، ظاهرَ الرُّطوبة، كثير المائية والدُّهْنية، الذى له صبر على النار، وغَلَيَانٌ، وبقاء فى الثياب .

أمّا اللون فأفضـله الأسود والأزرق الذى لا بيـاض فيه ؛ ثم منهم من يفضل الأسود على الأزرق ؛ ومنهم من يفضـل الأزرق على الأسود .

وهو على ثمـانية عشر ضربا .

الأول المَنْدَلِىُّ ـ نسبة إلى مَعْدِنِه؛ وهو مكان يقال له المَنْدَلُ من بلاد الهند .
قال محمد بن العباس الخشيكى : وهو أرفع أنواع العُود وأفضـلُها وأجودُها وأبقاها على النار وأعبقها بالثياب . على أن التُّجَّار لم تكن تَجْلُبُه فى الجاهلية وإلى آخر الدولة الأُمَوِيَّةِ، ولا ترغب فى حمله للمرارة فى رائحته إلى أن دخل الحسين(١) بن بَرْمك إلى بلاد الهند هاربا من بنى أمية ، ورأى العود المندلىّ فأستجاده ورغَّب التجارَ فى حمله ، فلما غلب بنو العباس على بنى أمية، وحضر بنو برمك إليهم وقرّبوهم، دخل الحسين

(١) هكذا بالاصل .

آبن برمك يوما على المنصور فرآه يتبخر بالعود القَمَارِىّ فأعلمه أن عنده ماهو أطيب منه، فأمره بإحضاره، فأحضره إليه فاستحسنه، وأمر أن يكتب إلى الهند بحمل الكثير منه، فاشتهر بين الناس وعز من يومئذ، وآحتمل ما فيه من مرارة الرائحة وزعارتها لأنها تقتل القمل وتمنع من تكوّنه (١) فى الثياب .

الثانى القَامِرُونِىّ — وهو مايجلب من القامِرُون : وهو مكان مرتفع من الهند. وقيل القامِرُون آسم لشجر من شجر العود ؛ وهو أغلى العودِ ثمنا وأرفعه قدرا .

قال التيمى : وهو قليل لايكاد يُجْلَب إلا فى بعض الحِين ؛ وهو عود رطب جدّا، شديد سوادِ اللون، رزينٌ، كثير الماء . وذكر الحسين بن يزيد السيرافىّ أنه ربما ختم عليه فآنطبع وقَبِلَ الختمَ للينه . قال : ويكون فيه ما قيمة المنّ منه مائتا دينار .

الثالث السَّمَنْدُورِىّ — وهو مايجلب من بلاد سَمَنْدُور، وهى بلد سُفالَةَ الهند، ويسمّى لطيب رائحته رَيْحَانَ العود، وبعضه يفضُل بعضا . قال التيمى : وتكون القطعة الضخمة منه منًّا واحدا .

الرابع القَمَارِىّ — وهو ما يجلب من قَمَار، وهى أرض سُفالَةَ الهند، وبعضه يفضل بعضا أيضا، وتكون القطعة منه نصفَ رطل إلى مادون ذلك .

الخامس القَاقُلِّىّ — وهو ما يجلب من جزائر بحر قَاقُلَّة ، وهو عود حسن اللون ، شديد الصَّلابة دسم ، فيه رَيْحَانِيَّة خُمْرَةٍ، وله بقاء فى الثياب إلا أن قُتَارَهُ ربما تغير على النار فينبغى أن لا يُستقصى إلى آخره .

السادس الصَّنْفِىّ — وهو ما يجلب من بلد يقال لها الصَّنْف ببلاد الصين، وهو من أحلى (٢) الأعواد وأبقاها فى الثياب . قال التيمى : ومنهم من يفضله على القَاقُلِّىّ ويرى أنه أطيب وأعبق وآمن من القُتَار، وربما قدّموه على القَمَارِىّ أيضا . قالوا :

(١) فى الاصل تلوثه وهو تصحيف (٢) فى ياقوت . وهو من أردإ العود لافرق بينه وبين الخشب الا اليسير .

وأجود الصَّنفِىِّ الأسودُ الكثير المـاء، وتكون القطعة منه منًّا وأكثر وأقلّ. ويقال إن شجره أعظم من شجر الهندىّ والقمارىّ .

السابع الصندفورى ـ وهو ما يجلب من بلاد الصندفور من بلاد الصين، وهو دون الصَّنْفِىِّ . ويقال إنه صِنْفٌ منه ولذلك كانت قيمته لاحقةً بقيمته، وفيه حسن لون وحلاوة رائحة، ورَزَانة، وصَلَابة؛ إلا أنه ليس بالقِطَع الكبار .

الثامن الصِّينِىُّ ـ ويؤتى به من الصِّينِ ، وهو عود حسن اللون ، أوّل رائحته تشا كل رائحة الهندىّ إلا أن قُتَارَهُ غير محمود ، وتكون القطعة منه نصـف رطل وأكثر وأقلّ .

التاسع القطعى ـ وهو عود رطب حلو طيب الرائحة، وهو نوع من الصِّينِىّ .

العاشر القسور ـ وهو عود رطب حُلْوُ طيِّب الرائحـة؛ وهو أعذب رائحةً من القطعىّ إلا أنه دونه فى القيمة .

الحـادى عشر الكلهى ـ وهو عود رطب يمضغ ، وفيه زَعَارَةٌ، وشدّة مرارة للدّهانة التى فيه، وهو من أعبق الأعواد فى الثياب وأبقاها .

الثـانى عشر العولاتى ـ وهو عود يجاب من جزيرة العولات بنواحى قَمـار من أرض الهند .

الثالث عشر اللوقينى ـ وهو مايجلب من لوقين : وهى طرف من اطراف الهند وله خُمْرَةٌ فى الثياب إلا أنه دون هذه الأعواد فى الرائحة والقيمة .

الرابع عشر المـانطائى ـ وهو ما يجلب من جزيرة ما نطاء، وقيمته مثـل قيمة اللوقينى، وهو خفيف ليس بالحسن اللون . قال أحمد بن العباس : وهو قطع كِبار، مُلْسٌ لا عُقَدَ فيها إلا أن رائحته ليست بطيبة وإنمـا يَصْلُح للأدوية .

الخامس عشر القندغلى ــ ويؤتىٰ به من ناحيــة كَلَه(١)، وهى ساحل الزنج ، وهو يشبه القَمارِى إلا أنه لاطِيبَ لرائحته .

السادس عشر السمولى ــ وهو عود حسن المَنْظَرِ، فيه حُمْرَةٌ وله بقاء فى الثياب .

السابع عشر الرانِجِىُّ ــ وهو عود يشــبه قرون الثيران ، لا ذَكاءَ له ، ولا بقاءَ فى الثياب .

الثامن عشر المُحَرَّم ــ سمى بذلك لأنه قد وقع بالبصرة فشــكَّ الناس فى أمره ، فحرّمه السلطان ومنعه فسمى المحرّم ، وهو من أدنى أصناف العود ، وجعل بعضهم بين الصَّنفِىِّ والقَاقُلِّىّ صِــنْفا يقال له العطلى يؤتىٰ به من الصِّــينِ ، وهو عود صُلْبٌ خفيف حسن المَنْظَر إلا أنه قليل الصبر علىٰ النار . وقد ذكر أحمد بن العباس بعد ذلك أصنافا من العود ليست بذات طائل . منها الأفليق ــ وهو عود يؤتىٰ به من أرض الصِّينِ ، يكون فى العِظَم مثل الخَشَب الرانجى الغِلاظ يباع المنّ منه بدينار وأقل وأكثر . والعود الطيب الريح فى قشوره ، وداخلُه خشب خفيف مثــل الخلاف ، وإذا وضع علىٰ الجمر وجد له فى أوله رائحة حُلْوَةٌ طيبة ، فإذا أخذت النار منه ظهرت منه رائحة رديئة كرائحة الشعر .

الصــــنف الرابع

(الصَّنْدَل)

وهو خشب شجر يؤتى به من سُفَالة الهند ، وهو علىٰ سبعة أضرب .

الأوّل المَقَاصِيرىّ ــ وهو الأصفر ، الدَّسِم ، الرَّزِين ، الذى كأنه مُسِحَ بالزَّعْفران الذَّكِىّ الرائحة . واختلف فى سبب تسميته بالمقاصيرىّ فقيــل نسبة إلىٰ بلد تسمّى

---

(١) الذى فى معجم البلدان لياقوت أنها كَلْوَة وأما كَلَه فقد قال إنها فرضة بالهند اهـ .

مقاصير، وقيل إن بعض خلفاء بنى العباس آتخذ لبعض أمهات أولاده ومَحَاظِيّه بمقاصيرَ منه ؛ وهو شجر عظام يُقْطع رطبا ، وأجوده ما آصفرّ لونه وذكت رائحته ولم يكن فيه زَعَارة . قال التميمى : وهو يدخل فى طيب النساء : الرطب واليابس ؛ وفى البرمكيات ، والمثلثات ، والذَّرائر ، ويتخذ منه قلائد ، ويدخل فى الأدوية ؛ ويقال إن صاحب اليمن الآن يعمل له منه الأَسِرّةُ وإنه يأمر بقطع مايحمل منه من اليمن إلىٰ غيرها من البلاد قِطَعا صغارا حتّى لا يكون منها مايعمل سريرا لغيره من الملوك .

الثانى الأبيض منه الطيب الريح — وهو من جنس المقاصيرى المتقدّم ذكره لايخالفه فى شىء إلا فى البياض ؛ ويقال إنّ المقاصيرى هو باطن الخشب وهذا الأبيض ظاهره .

الثالث الجَوْزى — وهو صُلْب العود أبيض ، يَضرب لونُه إلىٰ السُّمْرة ، ويؤتىٰ به من موضع يقال له الجَوْز ، وهو طيب الرائحةِ إلا أنه أضعف رائحة من الذى قبله .

الرابع الساوس ويقال الكاوس — وهو صندل أصفرُ طيب الرائحة إلا أنّ فى رائحته زعارةً ، ويستعمل فى الذرائر ، والمثلثات : فى الطيب والبَخُورات .

الخامس ، يضرب لونه إلىٰ الحمرة — وهو علىٰ نحو من الذى قبله .

السادس صندل جعد الشعرة — لا بَسَاطةَ فيه إذا شقق بل يكون فيه تجعيد كما فى خشب الزيتون ، وهو أذكى أصناف الصندل إلا أنه لايستعمل فى شىء سوىٰ البَخُورات والمثلثات .

السابع أحمر اللون — وهو خشب حسن اللون ، ثقيل الوزن لا رائحة له ، إلا أنه تتخذ منه المنجورات والمخروطات كالدُّوِىّ وقِطَع الشِّطْرَنْج ونحوها مع ما يدخل فيه من الأعمال الطيبة .

قلت : هذا ما يحتاج الكاتب إلىٰ وصفه من أصناف الطيب النفيسة مما يهدىٰ أو يرد هدية ، ويجرى ذكره فى مكاتبات الملوك ، أما ماعدا ذلك من أصناف الطيب كالسُّنْبُلِ ، والقَرَنفلِ ، والكافور ، فليس من هذا القبيل .

النوع السابع

(ما يحتاج إلىٰ وصفه من الآلات : وهى أصناف)

الصنف الأوّل

(الآلات الملوكية)

ويحتاج الكاتب إلىٰ وصفها عند وصف المواكب الحفيلة ، التى يركب فيها السلطان وهى عدّة آلات .

منها الخَاتَمُ بفتح التاء وكسرها ، وحكىٰ فيه ٱبن قتيبة والجوهرىُّ وغيرهما خِيْتام وخَاتَام ، وهو مايجعل فى الإصبع من الحلىّ ، وهو مأخوذ من الختم ، وهو الطبع : سمى بذلك لأنه يختم بنقشه علىٰ الكتب الصادرة عن الملوك . وسيأتى فى الكلام علىٰ خَتْم الكتب " أن النبى صلى الله عليه وسلم أرادَ أنْ يكتُبَ إلىٰ بعض ملوك الأعاجم فقيل له إنهم لا يَقْرءُون كتابا غيرَ مختومٍ فٱتخذ خاتَمًا من وَرِقٍ وجعل نقشه محمد رسول الله وٱقتدىٰ به فى ذلك الخلفاء بعده ، ثم توسعوا فيه إلىٰ أن جعلوا للكتب طَابَعا مخصوصا وأفردوا له ديوانا سموه " ديوان الخاتم " وٱقتفىٰ الملوك أَثَرَهم فى ذلك ، ثم غلب بمملكتنا وماناهزها الاكتفاءُ فى المكاتبات باللِّصاق ، وصار ٱسم الخاتَم مقصورا علىٰ ما يجعل فى الإصبع خاصة سواء كان فيه نقش أم لا ، وصارت الملوك إنما تَلْبَس الخواتم بفصوص الجواهر من اليواقيت ونحوها تَجَمُّلًا ، وربما بَعَثَتْ بها فى تأمين الخائف علامة للرضا عليه والصفح عما جناه وٱقترفه .

ومنها المِنْديل بكسر الميم ، وهو مِنْديل يُجعل فى المِنْطَقة المشدودة فى الوسط مع الصولق وغيره، ثم جرى ٱصطلاح الملوك على البَعْثِ به فى الأمانات كما تقدّم فى الخاتم ؛ والمِنْديل آلة قديمة للملوك ؛ فقد حكى أنه كان للأفضل بن أمير الجيوش أحدِ وزراء الفاطميين مائةُ بَدْلة معلقة على أوتاد من ذهب، على كل بَدْلة منها مِنْديل من لونها ؛ ولم يكن المنديل من آلات الخلافة بل إنما كان من آلاتها البُرْدَةُ على ما سيأتى ذكره فى الكلام على ترتيب الخلافة فى المقالة الثانية إن شاء الله تعالى .

ومنها التَّخْتُ، ويقال له السرير : وهو مايجلِسُ عليه الملوك فى المواكب ؛ ولم يزل من رسوم الملوك قديما وحديثا ، رفعةً لمكان الملك فى الجلوس عن غيره حتّى لا يساويه غيرُه من جُلسائه ؛ وقد أخبر تعالى فى كتابه العزيز أنه كان لسليمان عليه السلام كرسىٌّ بقوله "وأَلْقَينَا علىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا" ورأيتُ فى بعض التواريخ أنه كان له كرسىٌّ من عاج مُغَشًّى بالذهب .

ثم هذه الأسِرَّة تختلف بٱختلاف حال الملوك، فتارة تكون من أبنية : رُخام ونحوه، وتارة تكون من خشب، وتارة من فُرُشٍ محشوَّة متراكبة ؛ وقد حكى أنه كان لملوك الفُرْس سريرٌ من ذهب يجلسون عليه ؛ وكان عمرو بن العاص رضى الله عنه وهو أميرِ مصرَ يجلس مع قومه على الأرض غيرَ مرتفع عليهم، ويأتيه المُقَوْقِسُ ومعه سرير من ذهب، يحمل معه على الأيدى، فيجلس عليه فلا يمنعه عمرو من ذلك، إجراءً له على عادته فى المُلْكِ فيما قيل، لما عقده له من الذمّة وٱتخذه معه من العهد .

ومنها المِظَلَّة، وٱسمها بالفارسية الجتر بنون بين الجيم والزاى المعجمة، ويعبر عنها العامّة الآنَ بالقُبَّة والطَّير : وهى قبة من حرير أَصْفر، تحمل على رأس الملك، على رأس رمح بيد أمير يكون راكبا بحذاء الملك، يُظِلُّهُ بها حالةَ الركوب من الشمس فى المواكب

العِظام، وسيأتى ذكرها فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فى الدولة الفاطمية . وهذه الدولة فى المقالة الثانية إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها الرَّقَبَةُ : وهى لباس لرقبة فرس السلطان من حرير أصفر، قد طُرِّزت بالذهب الزَّرْكَش حتّىٰ غلب عليها وصار الحرير غيرَ مرئىّ فيها، تشدّ علىٰ رقبة فرس المَلِك فى المواكب العظام لتكون مضاهيةً لما يركب به من الكنبوش الزركش المغطّى لظهر الفرس وكَفَله .

ومنها الغاشِيَة، وهى غاشية سَرْج من أديم مخروزةٌ بالذهب، يظنها الناظر كلَّها ذهبا، يلقيها علىٰ يديه يمينا وشمالا .

ومنها الجفتاه، وهى فَرَسَان أشهبان قريبا الشبه، برقبتين من زركش، وعدّة تضاهى عدّة مركوب السلطان كأنهما مُعَدَّان لأن يركبهما السلطان، يعلوهما مملوكان من المماليك السلطانية قريبَيِ الشبه أيضا، علىٰ رأس كل منهما قُبَّعَةٌ من زَرْكَشٍ مشابه للآخر .

ومنها المِنْطَقَةُ بكسر الميم : وهى مايشدّ فى الوسط، وعنها يعبِّر أهل زماننا بالحِيَاصة، وهى من الآلات القديمة فقد روى أن أمير المؤمنين : علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه كان له مِنْطَقَةٌ . وهذه الآلة قد ذكرها فى "التعريف" فى الآلات الملوكية، علىٰ أن ملوك الزمان لم تجرِ لهم عادةٌ بشدّ مِنْطَقَةٍ، وإنما يُلْبِسها الملكُ للأمراء عند إلباسهم الخِلعَ والتشاريفَ، وهى تختلف بحسب آختلاف الرتب، فمنها ما يكون من ذهب مرصّع بالفُصُوص، ومنها ماليس كذلك .

ومنها الأعلام : وهى الرايات التى تُحْمل خلف السلطان عند ركوبه، وهى من شعار المُلْك القديمة، وقد ورد أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يَعْقِدُ لأمراء

سراياه الراياتِ عنــد بَعْثِها ؛ ثم قد يعــبَّرُ عن بعضها بالعصائب جمع عِصَابة : وهى الألوية، أخذا من عصابة الرأس: لأن الراية تَعْصِبُ رأس الرمح من أعلاه؛ وقد يعبر عنها بالسَّنَاجق جمع سَنْجَقٍ ، والسَّنْجَق باللغــة التركية معناه الطعن ؛ سميت الراية بذلك لأنها تكون فى أعلىٰ الرمح، والرمح هو آلة الطعن يسمّى بذلك مجازا .

ومنها الطُّبُول ، ويقال لها الدَّبَادِبُ ، والبُوقَاتُ، والزمر المعروف بالصهان الذى يُضْرَبُ به عشيَّةَ كل ليلة بباب الملك وخلفَه إذا ركب فى المواكب ونحوها ، وهى المعبر عنها بالطَّبْلَخَانَاه، وهى من شعار المُلْك القديم . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن الطبل فى بلاد المَغْرِب يختص ضربه بالسلطان دون غيره من كل أحد كما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ مملكة المغرب فى المسالك والممـالك إن شاء الله تعالىٰ . والسر فيها إرهابُ العدو، وتخذيلُه كما كتب به أرسْطُو فى كتاب "السياسة" للإسكندر، أو تقويةُ النفوس وتشجيعُها علىٰ الحرب كما قاله الغزالى رحمــه الله فى "الإحيـاء" وكلمـا كثرت أعدادها ، كان أفخم لشأن المَلِك وأبلَغ فى رفعــة شأنه . وقد حكى أن دبادب الإسكندر كانت أربعين حملا .

قلت : وقد ذكر فى "التعريف" من جمــلة الآلات الملوكية الدواةُ، والقــلمُ، والمِرْمَلَةُ . ولا يخفىٰ أنها بآلات الكُتَّابِ أليق وإن كان السلطان لا يســتغنِى عنها؛ وسيأتى الكلام عليها فى الكلام علىٰ آلات الكتابة من هذه المقالة إن شاء الله تعالىٰ .

الصـــنف الثانى

(آلات الركوب ـ وهى عدّة آلات)

منها السرج ـ وهو ما يقعُد فيــه الراكب علىٰ ظهر الفرس ؛ واشكال قوالبــه مختلفة؛ ثم من السرج مايكون مُغَشًّى بالذهب، وهو ممـا يصلح للملوك .

ومنها مايكون مغشًّى بالفضة البيضاء؛ وكل منها قد يكون منقوشا وقد يكون غير منقوش، ومنها ما يكون بأطراف فضة، ومنها مايكون ساذَجا .

ومنها اللِّجام — وهو الذى يكون فى فَكّ الفرس يمنعه من الجِماح؛ وقوالبه أيضا مختلفة؛ ثم منها مايكون مطلِيًّا بالذهب، ومنها مايكون مطلياًّ بالفضة، ومنها مايكون ساذَجًا، ومنها مايكون رأسه وجنباه محلًّى بالفضة، ومنها مايكون غير محلًّى .

ومنها الكنبوش — وهو مايستر به مؤخرُ ظهر الفرس وكَفَلُه ؛ وهو تارةً يكون من الذهب الزركش، وتارةً يكون من المخايش : وهى الفِضة المُلَبَّسَةُ بالذهب، وتارة يكون من الصوف المرقوم؛ و به يركب القضاةُ وأهلُ العلم .

ومنها العباءة بالمدّ — وهى التى تقوم مقام الكنبوش .

ومنها المِهْمَازُ — وهو آلة من حديد تكون فى رِجْل الفارس، فوق كعبه، فوق الخف وما فى معناه؛ ومؤخره إصبع محدَّدُ الرأس إذا أصـاب جانب الفرس تحرّكت وأسرعت فى المشى أو جدّت فى العَـدْوِ . وهو تارة يكون من ذهب محض، وتارة يكون من فِضَّة، وتارة يكون من حديد مَطْلِىٍّ بالذهب أو الفضة؛ وقد ٱعتاد القضاة والعلماء فى زماننا تركَهُ .

ومنهـا الكُور — وهو ما يقْعُد فيـه الراكب فى ظهر النجيب : وهو الهَجِين، والعرب تسميه الرَّحْلَ ؛ ثم قد يكون مقدّمه ومؤخره مغشًّى بالذهب أو الفضـة، وقد يكون غير مغشًّى .

ومنها الزِّمَام — وهو مايُقاد به النَّجيب، ويَضْبِطُه به الراكب كما يَضْبِطُ الفارس الفرس بالعِنَان .

ومنها الرِّكَابُ — وهو ماتجعل فيه الرِّجْلُ عند الركوب، وكانت العرب تعتاده

من الجلد والخشب ، ثم عُدِل عن ذلك إلىٰ الحـديد . قال أبو هلال العسكرىّ : فى كتابه " الأوائل " وأوّل من آتخذه من الحديد المُهَلَّبُ بنُ أبى صُـفْرَة ، وكانت رُكُبُ العرب من خَشَب فكان الفارس يصُكُّ الراكب(١) بركابه فيوهن مِرْفَقَه .

ومنها السَّوْط ـ وهو ما يكون بيـد الراكب يَضْرِبُ به الفرسَ أو النجيبَ ، وأهل زماننا يعبرون عنه بالمِقْرعة لأنه يُقْرَع به المركوب إذا تقاعس، وهو بدل من القضيب الذى كان للخلفاء علىٰ ما سـيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ترتيب الخلافة فى المقالة الثانية إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثـالث

(آلات السفر، وهى عدّة آلات)

منها المِحَفَّةُ بكسر الميم : وهى مَحْمِلٌ علىٰ أعلاه قُبَّة ،وله أربعة سواعد : ساعدان أمامَها وساعدان خلفَها، تكون مغطاة بالجوخ تارة و بالحرير أخرىٰ، تُحْمَل علىٰ بغلين أو بعيرين يكون أحدهمـا فى مقدّمتها، والآخر فى مؤخرتها، إذا رَكِبَ فيها الراكب صار كأنه قاعد علىٰ سرير، لا يلحقـه آنزعاج ، وقد جرتْ عادة المـلوك والأكابر باستصحابها فى السفر خشية مايَعْرِضُ من المرض .

ومنها المِحْمَلُ(٢) بكسر الميم الأولى وفتح الثانية :وهو آلة كالمِحَفَّة إلا أنه يحمل علىٰ أعلىٰ ظهر الجمل بخلاف المِحَفَّة فإنها تحمل بين جملين أو بغلين .

ومنها الفَوَانيس، جمع فانُوس ، وهى آلة كُرِيَّةٌ ذات أضلاع من حديد، مغشَّاةٌ بخرقة من رقيق الكَتَّانِ الصافى البياض يتخذ للآستضاءة بغرز الشمعة فى أسفل باطنه

(١) لعله المركوب.

(٢) ضبطه فى القاموس والصحاح كمجلس . ولعل مافى الأصل لغة ثانية نظرا لكونه آلة .

فيشِفُّ عن ضوئها ، ومن شأنها أن يحمل منها آثنان أمامَ السلطان أو الأمير فى السفر فى الليـــل .

ومنهــا المَشَاعل جمع مَشْــعَل : وهى آلة من حديد كالقَفَص مفتوحُ الأعلىٰ ، وفى أسفله حرقة لطيفة ، توقد فيه النار بالحطب فيبسط ضوءه ، يحمل أمام السلطان ونحوه فى السفر ليلا أيضا .

ومنها الخِيَام جمع خَيْمةٍ ، ويقال لهــا الفُسْطَاطُ والقُبَّة أيضا : وهى بيوت تتخذ من خِرَق القطن الغليظ ونحوه ، تحمل فى الســفر لوقاية الحرّ والبرد ، وكانت العرب تتخذها من الأديم ، وقد آمتنَّ الله تعالىٰ عليهم بذلك فى قوله تعالىٰ "وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيوْمَ إقَامَتِكُمْ" والملوك تتناهىٰ فى سَعَتِها ، وتتباهىٰ بكبرها . وســيأتى فى الكلام علىٰ ترتيب الدولة الفاطميــة أنه كان لبعض خلفائهــم خَيْمةٌ تسمّى القاتول سميت بذلك لأن فَرَّاشًا من الفَرَّاشين وقع من أعلىٰ عمودها فمــات لطوله .

ومنها الخركاه : وهى بيت من خشب مصنوع علىٰ هيئة مخصوصة ويغشّى بالجوخ ونحوه ، تحمل فى السفر لتكون فى الخيمة للبيت فى الشتاء لوقاية البرد .

ومنها القُدُورُ، جمع قِدْرٍ: وهى الآلة التى يطبخ فيها وتكون من نُحَاس غالبا ، وربما كانت من بِرَام . والملوك تتباهىٰ بكثرتها وعِظَمِها : لأنها من دلائل كرم الملك وكثرة رجاله ، وقد أخبر الله تعالىٰ عن سليمان عليه الســلام بعظيم قَدْرِ ما كانت الجن تعمله له من القُــدُور بقوله "يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَــاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ" .

ومنها الأثَافِيّ ، وهى الآلة المثلثة التى تعلّق عليها القدْر عند الطبخ ، وتكون من حــديد .

ومنها النار التى يوقد بها للطبخ ونحوه، وقد تقدم فى الكلام على نيران العرب ذكر نار القِرىٰ، وهى نار كانت تُرْفَعُ ليلا ليراها الضيف فيهتدىَ بها إلى الحىّ .

ومنها الجِفَانُ جمع جَفْنَةٍ : وهى الآنية التى يوضع فيها الطعام، وقد تقدّم فى الكلام على القدور أنها ممـا كانت الجن تعمله لسليمان عليه السـلام أيضا . وقد كانت العرب تفتخر بِكِبَرِ الجِفَانِ لدلالتهـا على الكرم ، وفى ذلك يقول الأعشىٰ فى مدح الْمُحَلَّق ليلَة بات عليه :

نفىٰ الذَّامَ عَنْ آلِ الْمُحَلَّق جَفْنَةٌ * كجَابِيَةِ الشَّـيْخِ العِرَاقِىّ تَفْهَقُ

قيل أراد بالشيخ العراقىّ كِسْرىٰ، فشبه جفنته بجفنته .

ومنها حِيَاضُ المـاء : وهى حياض من جلد تحمل فى السفر ليبقىٰ المـاء فيها لسقى الدَّوابّ ونحوها، وكِبَرُ قَدْرِها دليل على رِفْعة قدر صاحبها ونخامته : لدلالتها على كثرة دوابه، وآتساع عَسْكره .

الصـــنف الرابع
(آلات السلاح ، وهى عدّة آلات)

منهـا السَّيف : وهو معروف . وسيأتى فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة أنه مأخوذ من قولهم : ساف إذا هَلَكَ لأنه به يقع الْهُلْكُ .

وآعلم أن السيف إن كان من حديد ذَكَرٍ : وهو المعبَّر عنه بالفُولاذ، قيل سيف فُولاذ ، وإن كان من حديد أنثىٰ : وهو المعبر عنه فى زماننا بالحديد ، قيل سـيف أَنِيث ، فإن كان متنهُ من حديد أنثىٰ وحدّاه من حديد ذكر كما فى سيوف الفِرِنْجَة ، قيل سـيف مُذَكَّر ، ويقال إن الصاعقة إذا نزلت إلى الأرض وردّت[1] ، صارت حديدا ، وربما حفر عليها وأخرجت فطبعت سيوفا ، فتجىء فى غاية الحُسْنِ والمَضَاءِ .

(١) هكذا فى الأصل ولعلها مصحفة عن بردت .

ثم إن كان عريض الصَّفيح ، قيل له صَفيحة ؛ وإن كان محدقا(١) لطيفا ، قيل له قَضيب ؛ فإن كان قَصِيرا قيل أبْتَر ؛ فإن كان قِصَرُه بحيث يحمل تحت الثياب ويُشتمَل عليه ، قيل مِشْمَلٌ بكسر الميم ؛ فإن كان له حدّ واحد وجانبه الآخر جاف، قيل فيه صَمْصامة ، وبهذا كان يُوصَفُ سيفُ عمرو بن معدى كرب فارس العرب . فإن كان فيه حُزُوز مستطيلة(٢) قيل فيه فَقَارات، وبذلك سمى سيفُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذا الفَقَار ، يروى أنه كان فيه سبعَ عشرةَ فَقَارة .
ثم تارة ينسب السيف إلى الموضع الذى طبع فيه ، فيقال فيما طبع بالهند هِنْدىٌّ ومُهَنَّد ، وفيما طبع باليمن يَمانٍ ، وفيما طبع بالمَشَارف : وهى قُرًى من قُرى العرب قريبة من رِيف العِراق ، قيل له مَشْرَفِيٌّ ؛ فإن كان من المعدن المسمّى بقُسَاس : وهو معْدِن موصوف بجَوْدة الحديد قيل له قُسَاسىّ ، وتارة ينسب السيفُ إلى صاحبه كالسيف السُّرَيْجىّ نسبة إلى قَيْن من قُيُون العرب اسمه سُرَيج معروف عندهم بحُسْن الصنعة . ويوصف السيف بالحُسَام : وهو القاطع أخذا من الحَسْم : وهو القطع ، وبالصارِم : وهو الذى لاينبو عن الضَّرِيبة . والناس يبالغون فى تحلية السُّيوف فتارة تُرَصَّع بالجواهر ، وتارة يُحَلُّونها بالذهب ، وتارة يحلونها بالفِضة ؛ وإن كان الاعتبار إنما هو بالسيف لا بالحِلية .

ومنها الرُّمْح : وهو آلة الطعن . والرماح ضربان : أحدهما متَّخَذ من القَنَا ، وهو قَصَب مسدود الداخل ، ينبُت ببلاد الهند يقال للواحدة منه قَنَاة ، ويقال لمَفَاصلها أنابيبُ ، ولعُقَدها كُعُوب ؛ فإن كان قد نشأ فى نباته مستقيما بحيثُ لا يحتاج إلى تثقيف ، قيل له الصَّعْدة ـ بفتح الصاد وسكون العين المهملتين ، وإن احتاج إلى تقويم مقوّم قيل له مثقَّف . ويُوصَف القنا بالخَطِّىّ ـ بفتح الخاء المعجمة ، نسبة إلى

(١) لعله مدققا (٢) كذا بالاصل . وصوابه مطمئنة كما فى المخصص واللسان .

الخَطّ : وهى بلدة بالبحرين تجلَبُ إليها الرِّماح من الهند ، وتنقل منها إلىٰ بلاد العرب، وليست تُنْبِت القَنا كما توهَّمه ٱبن أصبغ فى أرجوزته المذهبة .

الثانى ما يُتَّخذ من الخشب كالزان ونحوه، ويسمّى الذابِل (بالذال المعجمة وكسر الموحدة) .

ويقـال للحديد الذى فى أعلىٰ الرُّمْح السِّـنان ، وللذى فى أسفله الزُّجُّ والعَقِب . ويُوصف الرُّمْح بالأسمر : لأن لون القَنَا السُّمْرةُ ، وبالعَسَّال : وهو الذى يضطَرِب فى هزه ، وباللَّدْن : وهو اللين، وبالسَّمْهرىّ نسبة إلىٰ بلدة يقال لهـا سَمْهَرة من بلاد الحبشة، وقيل إلىٰ السَّمْهرة، وهى الصَّلَابة .

ومنها الطَّبَر، وهو باللغة الفارسية الفأس ، ولذلك يسمّى السُّكَّر الصُّلب بالطَّبَرْزَد يعنى الذى يكسر بالفاس . وإلىٰ الطَّبَر تنسب الطَّبَرْدارِيَّة : وهم الذين يحملون الأطبار حولَ السلطان علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فى المسالك والممالك إن شاء الله تعالىٰ .

ومنهـا السِّكِّين ، وسيأتى ذكرها فى آلات الدَّواة فى الكلام علىٰ آلات الكتابة وإنمـا سميت سِكِّينا لأنها تُسَكِّن حركة الحيوان . وتسمّى المُدْيَةَ أيضا لأنها تقطع مَدىٰ الأجَلِ ، وهـذه الاشتقاقات أوْلىٰ بآلة الحرب من آلة الكتابة . وحاصل الأمر أن السكين تختلفُ أحوالُها بحسَب الحاجة إليها ، فتكون لكل شىء بحسب ما ينـاسـبه .

ومنها القَوْس ، وهى مؤنثة . والقِسِىُّ علىٰ ضربين : أحدهمـا العربيـة ، وهى التى من خشب فقط ،ثم إن كانت من عُودٍ واحد قيل لها قَضِيب ، وإن كانت من فِلْقَيْن قيل لهـا فِلْق . الثانى الفارسية : وهى التى تُرَكَّب من أجزاء : من الخشب والقَرْن والعَقَب والغراء . ولأجزائها أسمـاء يخص كلَّ جزء منها ٱسْمٌ، فموضع إمساك

الرامى من القوس يسمّى المَقبِض ، ومجرى السهم فوق قَبْض الرامى يسمّى كَبِد القوس ،وما يُعْطَف من القوس يسمّى سِيَةَ القوس،وما فوق المَقْبِض من القوس، وهو ماعلى يمين الرامى يسمّى رأسَ القوس، وما أسفله ،وهو ماعلى يسار الرامى يسمّى رِجْل القوس .

ومنها النُّشَّاب، والنَّبْل، فالنَّبلُ ما يرمى به عن القِسِىّ العربية، والنُّشَّاب ما يرمى به عن القِسِىّ الفارسيَّة حكاه الأزهرى ؛ ومَجْرى الوَتَر من السَّهم يسمّى الفُوق ؛ وحديدُه يسمّى النَّصْلَ؛ والريشُ يسمّى القُذَذَ ؛ والسهم قبل تركيب الريش يسمّى القِدْحَ (بكسر القاف وسكون الدال المهملة) .

ومنها الكِنَانَةُ، ويقال لها الجَعْبَةُ : وهى بكسر الكاف : وهى ظَرْف السهام، وتكون تارةً من جلد، وتارةً من خَشَب .

ومنها الدَّبُّوس، ويسمّى العامودَ : وهو آلة من حديد ذات أضلاع ينتفَع بها فى قتال لابس البيضة ومَنْ فى معناه . ويقال إن خالد بن الوليد رضى الله عنه به كان يقاتل .

ومنها العصا : وهى آلة من خشب تفيد فى القتال نحو إفادة الدبُّوس .

ومنها البَيْضَةُ : وهى آلة من حديد توضع على الرأس لوقاية الضرب ونحوه ، وليس فيه مايرسل على القفا والآذان، وربما كان ذلك من زَرَدٍ .

ومنها المِغْفَرُ، بكسر الميم : وهو كالبيضة إلا أن فيه أطرافا مسدولة على قفا اللابس وأذنيه، وربما جعل منها وقايةً لأنفه أيضا، وقد تكون من زَرَدٍ أيضا .

ومنها الدِّرْعُ : وهو جُبَّة من الزَّرَدِ المنسوج يلبَسها المقاتل لوقاية السيوف والسهام، وهى تذكر وتؤنث، وقد أخبر الله تعالى عن داود عليه السلام أنه أُلِينَ

له الحديد فكان يعمل منه الدروع بقوله تعالىٰ ﴿وأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ وقوله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ ولذلك تنسب الدروعُ الفائقةُ إلىٰ نَسْجِ داودَ عليه السلام .

ومن الدروع ما يقال لها السَّلُوقِيَّةُ نِسبةٌ إلىٰ سَلُوقَ ، قريةٌ من قُرىٰ اليمن ، وربما قيل دُرُوع حطومِيَّةٌ[1] بضم الحاء المهملة نسبة لحطوم رجل من عَبْدِ الْقَيْسِ .

وٱعلم أن لِبْسَ العرب فى الحرب كان الزردَ ، أما الآن ، فقد غلب عمل القَرْقَلَاتِ من الصفائح المتخذة من الحديد المتواصل بعضُها ببعض .

ومنها التُّرْس : وهو الآلة التى يتقىٰ بها الضرب والرمى عن الوجه ونحوه ، وتسمّٰى الجُنَّـةَ أيضا بضم الجيم أخذا من الاجتنان وهو الاختفاء ، وربمـا قيل لهـا الحَجَفَةُ بفتح الحاء المهملة والجيم ؛ ثم هى تارة تكون من خشب ، وتارة تكون من حديد ، وتارة تكون من عيـدان مضموم بعضُها إلىٰ بعض بخيط القطن ونحوه ؛ فإن كانت من جلد ، قيل لهـا دَرَقَةٌ بفتح الدال والراء المهملتين .

الصنف الخـامس

(آلات الحصار ؛ وهى عدّة آلات)

منها المَنْجَنِيقُ ، بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وكسر النون الثانية وسكون الياء وقافٍ فى الآخر ، وحكىٰ ٱبن الجوَاليقى فيه كسرَ الميم ، وحكىٰ فيه أيضا منجنوق بالواو ومَنْجَمِيق بإبدال النون الثانيـة ميمـا ، وهو ٱسم أعجمىّ ؛ فإن الجيم والقاف لا يجتمعان فى كلمة عربية ، ويجمع علىٰ مجانيق ومنَاجيق . قال الجوهرىّ : وأصله مَنْ جِى نِيك وتفسيره بالعربية ما أجودنى . قال ٱبن خلكان : تفسـير مَنْ وتفسير جى ايش ، وتفسير نيك جيد ، قال ٱبن قُتَيْبَةَ فى كتابه "المعارف" وأبو هلال العسكرىّ

---

(١) لعل زيادة الواو من تحريف النساخ . والصواب حُطَمية نسبة الى حُطَم رجل الخ . أنظر اللسان والقاموس .

فى " الأوائل " : وهو آلة من خشب لهـا دَفَّتَانِ قائمتان بينهما سهم طويلٌ رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، وفيه تجعل كِفَّةُ المَنْجَنِيقِ التى يجعل فيها الحجر ، يجذب حتّىٰ ترفع أسافله علىٰ أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبُه الذى فيه الكِفَّةُ فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئا إلا أهلكه .

وأول من وضع المَنْجَنِيقَ جَذِيمَةُ الأبرشُ مَلِكُ الحِيرَةِ علىٰ العرب . وذكر الواحدىّ فى تفسير سورة الأنبياء : أن الكفارَ لمـا أضرموا النار لإحراق إبراهيم عليه السـلام لم يَقْدِروا علىٰ القرب من النار ليُلْقوه فيها ، فجاءهم اللَّعين إبليس فعلمهـم وضع المنجنيق فعَمِلوه وأَلْقَوْهُ فيه فقذفوا به فى النار ، فكان أوّل مَنْجَنِيقٍ عُمِلَ .

ومما يلتحق بالمنجنيق الزيارات : وهى اللَّوالب والحبال التى يجذب بها المنجنيق حتّىٰ ينحط أعلاه ليرمىٰ به الحجر .

ومنها السِّهام الخطاية (١) ، وهى سهام عِظَامٌ يرمىٰ بهـا عن قِسِيٍّ عِظَام توتر بلَوَالِبَ يجرّ بها و يرمىٰ عنها فتكاد تَخْرِقُ الحجر .

ومنها مَكَاحل البارود ، وهى المدافع التى يرمىٰ عنها بالنِّفْط . وحالهـا مختلف : فبعضها يرمىٰ عنه بأسهم عِظَام تكاد تَخْرِقُ الحجر ، وبعضها يرمىٰ عنه ببُنْدُقٍ من حديد من زِنَةِ عشرة أرطال بالمصرىّ إلىٰ مايزيد علىٰ مائة رِطْل ؛ وقد رأيت بالإسْكَنْدَرِيَّةِ فى الدَّولة الأشرفية ، شَعْبَانَ بن حُسَين ، فى نيابة الأمير صلاح الدين بن عَرَّام رحمه الله ، بها مدفعا قد صُنِع من نُحَاس و رَصاصٍ وقُيِّد بأطراف الحديد رُمِىَ عنه من المَيْدَانِ ببُنْدُقَةٍ من حديد عظيمةٍ محمـاة ، فوقعتْ فى بحر السـلسلة خارج باب البحر ، وهى مسافة بعيدة .

(١) لعله مصحف والذى يؤخذ من المخصص أن السهم الخاطى هو السهم الغليظ الحادر فلعل هذا منه كما يفيده التفسير بعد تأمل .

ومنها قوارير النِّفْطِ، وهى قدور ونحوها يجعل فيها النِّفْطُ ويرمىٰ بها علىٰ الحصون والقِلَاع للإحراق، علىٰ أن القوارير فى اللغة آسم للزُّجَاج وإنما آستعيرت فى آلات النِّفْطِ مجازا .

ومنها الستائر، وهى آلات الوقاية من الطوارق، وما فى معناها ممـا يستر به علىٰ الأسوار والسفن التى يقع فيها القتال ونحو ذلك .

الصنف السادس

(آلات الصيد ؛ وهى عدّة آلات)

منها قوس البُنْدُق (ويسمّى الجُلَاهِق) قوس يتخذ من القَنَا ويلف عليه الحرير ويغرّىٰ، وفى وسط وَتَرِه قطعةٌ دائرة تسمّى الجوزَة، توضع فيها البُنْدُقَةُ عند الرَّمْيِ.

ومنها الجراوة ، وهى آلة من جلد يجعـل فيها البُنْدُقُ الطين الذى يرمىٰ به عن القوس المقدّم ذكره .

ومنها الشِّبَاكُ ، وهى آلة تتخذ تعقد من خِيطَانٍ وتنصب لآقتناص الصيد، وكذلك تطرح فى المـاء فيصاد بها السمك .

ومنهـا الزَّبَطَانَةُ[1]، وهى آلة من خشب مسـتطيلةٌ كالرمح مجوّفةُ الداخل يجعـل الصائد بُنْدُقَةً من طين صـغيرةً فى فِيهِ ، وينفخ بها فيها فتخرج منها بحدّة فتصيب الطير فترميه، وهى كثيرة الإصابة .

ومنها الفَخُّ، وهو آلة مُقَوَّسةٌ لهـا دَفَّتَانِ تفتحان قسرا ، وتعاقان فى طرف شَظاة ونحوها إذا أصابها الصيد، آنطبقت عليه .

ومنها الصَّنَانِيرُ جمع صِنَّارَةٍ، وهى حديدة مُعَقَّفَةٌ محدّدة الرأس يصاد بها السمك .

---

(١) فى الأصل الزبربطانة . والتصحيح من القاموس .

الصنف السابع
(آلات المعاملة ، وهى عدّة آلات)

منها الميزان ، وهو أحد الآلات التى يقع بها تقدير المقدّرات ، فالموازين قديمة الوضع قال تعالى : ﴿ والسَّماءَ رفَعَهَا وَوضعَ المِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِى المِيزانِ وأَقيمُوا الوَزْنَ بالْقِسْطِ ولَا تُخْسِرُوا المِيزَانَ ﴾ وأمر شعيب عليه السلام قومه بإقامة القِسْطِ بالوَزْن كما أخبر تعالى عنه بقوله ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ . قال أبو هلال العسكرىّ : وأوّل مَن آتخذ الموازينَ من الحديد عبد الله بن عامر . قال : وأوّل من وضع الأوزانَ سمير اليهودىّ ، وذلك أن الحَجَّاجَ ضرب الدراهم بأمر عبد الملك آبن مَرْوَانَ ونهى أن يضربها احدٌ غيره ، فضربها سمير فأمر الحجاجُ بقتله لآجترائه عليه . فقال سمير : أنا أَدُلُّك على ماهو خير للسلمين من قتلى ، فوضع الأوزانَ : وزنَ ألفٍ ، وخمسمائة ، وثلثمائة ، إلى وزن رُبْع قيراط ، وجعلها حديدا ، فعفا عنه . وكان الناس قبل ذلك إنما يأخذون الدرهم الوازن فَيَزِنُونَ به غيره ، وأكثرُها يؤخذ عددا .

ومنها الذراع ، مؤنثة ، وهى إحدى الآلات التى تقدّر بها المقاديرُ أيضا ، بها تقدّر الأرضون ، ويقاس البَزُّ وما فى معناه ، ولم تزل الناس قديمًا وحديثًا يتعاملون بها على آختلافها ، وقد ورد ذكرها فى القرءان الكريم فى قوله تعالى ﴿ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ . وقد ذكر المَاوَرْدِىّ فى الأحكام السلطانية سبعَ أذرع .

إحداها الْعُمَرِيَّةُ ، وهى الذراع التى قدّرها أميرُ المؤمنين عمرُ بن الخَطَّاب رضى الله عنه لمسح سَوَاد العراق . قال موسى بن طلحة : وطولها ذراع وقبضة وإبهام . قال الحكم بن عتيبة : عَمَدَ عمرُ رضى الله عنه إلى أطولها ذراعا وأقصرها ذراعا ، فجمع منها ثلاثة وأخذ الثُّلُثَ منها وزاد عليها قبضةً وإبهاما قائمةً ، ثم ختم فى طَرَفيها بالرَّصَاص ، وبعث بذلك إلى حُذَيْفَةَ وعثمانَ بنَ حُنَيْفٍ فمسحا بها السَّوادَ .

الثانية الهـاشمية ، وتسمّى الزيادية . قال : وهى أربع وعشرون إصـبعا، كل إصبع سبع شعيرات مُعْتَدِلات معترضات ، ظَهْرًا لبطنٍ ، كل شعيرة عرض سبع شَعَرَات من شعر البِرْذَوْنِ، وهذه الذراع التى يعتمدها الفقهاء فى الشرعيات ، وبها قدّروا البريد المعتبَر فى مسافة قصر الصلاة وغيرها ، وربما عَبَّروا عنها بذراع الملك؛ وسميت بالهـاشمية لأن أبا جعفرٍ المنصورَ ثانىَ خلفـاء بنى العباس آعتـبرها وعَمِل بمقتضاها فى المساحة وتَبِعَه سائرُ خلفائهم علىٰ ذلك ، وبنو العباس من بنى هـاشم، فنسبت إلىٰ بنى هاشم مباينةً لِمَنْ تقدّمهم من خلفاء بنى أُمَيَّةَ . قال المَـاوَرْدِىُّ : وتسمّى الزِّيَادِيَّةَ : لأن زيادا مسح بها السَّواد أيضا .

الثالثة البِلاَلِيَّةُ ، وهى أنقص من الهـاشمية المقدّم ذكرها ثلاثةَ أرباع عُشْرِها ؛ وإنمـا سميت البِلاَلِيَّةَ لأن بلال بن أبى بُرْدَةَ بن أبى موسىٰ الأشعرى هو الذى وضعها، وذكر أنها ذراعُ جدّه أبى موسىٰ .

الرابعة السَّوْدَاءُ ، وهى دون البلالية باصـبعين وثلثى اصبع ؛ وأوّل من وضعها الرشيد، قدّرها بذراعِ خادم أسودَ، كان قائما علىٰ رأسه . قال المـاوردىّ : وهى التى يتعامل بها الناس فى ذرع البَزّ والتجارة والأبنية وقياس نيل مصر .

الخـامسة اليُوسُفِيَّة ، وهى دون الذراع السوداء بثلثى إصـبع ؛ وأوّل من وضعها أبو يوسـفَ صاحبُ أبى حنيفة . قال المَـاوَرْدِىّ : وبها يَذْرَعُ القضاةُ الدُّورَ ببَغْدَادَ .

السادسة القصـبة ، وهى أنقصُ من الذراع السوداء بإصبع وثلثى إصبع؛ وأوّل من وضـعها آبن أبى ليلىٰ القـاضى . قال المـاوَرْدِىّ : وبها يتعامل أهل كَلْوَاذىٰ .

السابعة المَهْرانية، قال الماوَرْدِيّ : وهى بالذراع السوداء ذراعان وثلثا ذراع؛ وأوّل من وضعها المأمونُ، وهى التى يُتَعامل بها فى حفر الأنهار ونحوها .

ومنها المِقَصّ (بكسر الميم) وهو الآلة المعروفة، ويُنْتفع به فى أمور مختلفة .

الصنف الثامن
(آلات اللَّعِب ؛ وهى عدّة آلات)

منها النَّرْد (بفتح النون وسكون الراء المهملة) وهو من حِكَم الفُرْس ؛ وضعه أردَشِيرُ بن بَابَك أوّلُ طبقة الأكاسرة، من ملوكهم، ولذلك قيل له نَرْدَشِير، وضعه مثالا للدّنيا وأهلها، فرتب الرقعةَ آثنى عشرَ بيتا بعدد شهور السنة، والمهاركَ ثلاثين قِطْعَةً بعدد أيام الشهر، وجعل الفصوصَ بمثابة الأفلاك، ورميَها مثلَ تقلبها ودَوَرانها، والنُّقَطَ فيها بعدد الكواكب السيارة كل وجهين منها سبعة، وهى الشش، ويقابله اليك، والبنج، ويقابله الدو، والجهار، ويقابله الثا، وجعل مايأتى به اللاعبُ من النقوش كالقضاء والقَدَر : تارة له وتارة عليه، وهو يصرف المهاركَ علىٰ ماجاءت به النقوش، إلا أنه إذا كان عنده حُسْن نظر عرف كيف يتالى وكيف يتحيل علىٰ الغَلَب وقهر خَصْمِه، مع الوقوف عند ما حكمت به الفصوص كما هو مذهب الأشاعرة؛ لكن قد وردت الشريعة بذمّه قال صلى الله عليه وسلم "مَنْ لَعِبَ بالنَّرْدَشِير فكأنما غَمَس يده فى لحم خِنْزِير" وفى رواية "ملعونٌ مَنْ لَعِبَ بالنَّرْدشير". وفى تحريمه عند أصحابنا الشافعية وجهان، أصحهما التحريم، والثانى الكراهة . وإذا قلنا حرام، فالأصح أنه صغيرة وقيل كبيرة .

ومنها الشَّطْرَنْج[1]، بفتح الشين المعجمة أو السين المهملة لغتان، والأولىٰ منهما

(١) الذى فى القاموس أنه بكسر الشين ولا يفتح أوّله وفى لسان العرب أن الكسر فيه أجود ليكون من باب جِرْدَحْل .

أفصح، وهو فارسىّ معرَّب، وأصله بالفارسية شش رنك، ومعناه ستة ألوان وهى الشاه (والمراد بها المَلِكُ) والفرزان، والفيل، والفرس، والرُّخُّ، والبيدق؛ ثم الشِّطْرَنْجُ من أوضاع حكماء الهند وحِكَمِهم . وضعه صصه بن داهر الهندىّ لبلهيب مَلِك الهند مساواة لأردشير بن بَابَك فى وضعه النرد ، وعرضه على حكماء زمانه فقضَوْا بتفضيله ، ثم عرضه على الملك وعرّفه أمرَه ، فقال : آحتكم علىّ ، فتمنّى عليه عددَ تضعيف بيوته ، من قمحة إلى نهاية البيوت ، فاستصغر همته وأنكر عليه مواجهته بطلب نَزْرٍ يسير، فقال هذه طَلِبَتِى فأمر له بذلك ، فحَسَبَه أربابُ دواوينه فقالوا للملك : إنه لم يكن عندنا مايقارب القليل من ذلك ، فأنكر ذلك فأوضحوه له بالبرهان ، فكان إعجابه بالأمر الثانى أكثرَ من الأوّل . قال آبن خلِّكانَ : ولقد كان فى نفسى من هذه المبالغة شىء حتّى آجتمع بى بعض حُسَّاب الإسكندرية فأوضح لى ذلك و بينه ، وذلك أنه ذكر أنه ضاعف الأعداد إلى البيت السادس عشر ، فأثبت فيه آثنين وثلاثين ألفا وسبعمائة وثمانيةً وستين حبةً ، وقال : تجعل هذه الجملة مقدار قَدَحٍ ، ثم ضاعف السابع عشر إلى البيت العشرين فكان فيه ويبة ، ثم آنتقل من الويبات إلى الإردب ، ولم يزل يُضَعِّفُها حتّى آنتهىٰ فى البيت الأربعين إلى مائة ألف إردب وأربعة وسبعين ألف إردب وسبعمائة وآثنين وستين إردبا وثلثى إردب ، وقال : هذا المقدار شونة ، ثم ضاعف الشُّوَن إلى بيت الخمسين فكانت الجملة ألفا وأربعا وعشرين شونة ، وقال : هذا المقدار مدينة ؛ ثم إنه ضاعف ذلك البيت إلى الرابع والستين ، وهو نهايتها ؛ فكانت الجملة ست عشرة ألف مدينة وثلثمائة وأربعا وثمانين مدينة ، وقال : تعلم أنه ليس فى الدنيا مدن أكثر من هذا العدد

قال الصلاح الصَّفَدِىّ فى شرح اللامية : وآخر ما آقتضاه تضعيف رقعة الشِّطْرَنْج ثمانية عشر ألف ألف ست مرات ، وأربعمائة وستةٌ وأربعون ألفا خمس مرات ،

وسبعمائة وأربعةٌ وأربعون ألفا أربع مرات ، وثلاثة وسبعون ألفا ثلاث مرات ، وسبعمائة وتسعة آلاف مرتين، وخمسمائة وأحد وخمسون ألفا وستمائة وخمس عشرة حبة عددا .

قال الشيخ شمس الدين الأنصارىّ : إذا جمع هذا العدد هَرَماً واحداً مُكَعَّبا، كان طوله ستين مِيلاً، وعرضُه كذلك ، وآرتفاعه كذلك، بالميل الذى هو أربعة آلاف ذراع .

واللعب بالشِّطْرَنْج مباح ؛ وقد ذكر الشيخ أبو إسحاق الشيرازىّ رحمه الله فى "المهذب" أن سعيد بن جُبَيْرٍ الإمامَ الكَبيرَ التابعىَّ المشهورَ كان يلعب الشِّطْرَنْج عن آستدبار . وممن يضرب به المثل فى لَعِبِ الشِّطْرَنْج الصُّولِى : وهو أبو بكر محمد آبن يحيىٰ بن عبد الله بن العباس بن صُول تكين الكاتب ؛ ويقال إن المأمونَ كان لايجيد لَعِبَ الشِّطْرَنْج، فكان يقول : عجباً منى كيف أدبِّرُ مُلْكَ الأرض من الشرق إلىٰ الغرب ولا أُحْسن تدبيرَ رقعة : ذراعين فى ذراعين . ثم فى حِلّه عند أصحابنا الشافعية ثلاثة أوجه أصحها أنه مكروه والثانى أنه مباح والثالث حرام، فإن آقترن به رَهْن من الجانبين أو أحدهما، فإنه محرّم بلا نزاع .

الصنف التاسع
(آلات الطرب : وهى عدّة آلات)

منها العُودُ : وهو آلة من خشب مخرقةٌ ؛ له عنق ورأسه ممال إلىٰ خلفه، وهو آلة قديمة، وتسميه العرب المِزْهَرَ بكسر الميم، وهو أفخر آلات الطرب وأرفعُها قدرا وأطيبُها سماعا ، حتّى يقال إنه قيل له هل يُسْمَع أحسن منك ؟ فقال : لا، وأمال رأسه إلىٰ خلفه فهى ممالة لأجل ذلك .

ومنها الجنك، قال فى "التعريف" : وهو آلة مُحْدَثَةٌ طيبة النَّغْمة، لذيذ السماع يقارب العود فى حسنه، وشكلُه مباين لشكل العود، ورأسه ممال إلىٰ أسفل؛ يقال إنه قيل له : هل يُسْمَع أحسنُ منك ؟ فقال : نعم، يريد العود .

ومنها الرَّبَابُ (بفتح الراء) : وهى آلة مجوّفة مركب عليها خُصْلَةٌ لطيفة من شعر مُمَرّ عليها بقوس وَتَرُهُ من شعر فيسمع لهـا حِسٌّ طَيِّبٌ، وأكثر من يعانيها العربُ .

ومن أنواعها نوع يعبر عنه بالكَمَنْجة لطيف القدر فى تدوير، أطيب حسا وأشجىٰ من الرَّبَاب .

ومنها الدُّفُّ (بضم الدال) : وهو معروف، ثم إن كان بغير صُنُوج، وهى المعبر عنها فى زمننا بالصراصير، حلَّ سمـاعُه، أو بصُنُوج، فالأصح كذلك .

ومنها الشَّبَّابَةُ (بفتح الشين) : وهى الآلة المتخذة من القَصَبِ المجوّف، ويقال لها اليَرَاعِ أيضا تسميةً لها بٱسم ما ٱتخذت منه، وهو اليراع يعنى القصبَ، وربمـا عُبِّر عنهـا بالمِزْمار العراقِىّ؛ وتصحيح مذهب الشافعى رضى الله عنه يختلف فيها فالرافعى رحمه الله يجيز سَماعها والنَّوَوِىُّ يمنع من ذلك .

الصـــنف العاشر

(المسكرات وآلاتها ؛ وهى عدّة أشياء)

منها الخَمْرُ : وهى ما ٱتخذ من عصير العِنَب خاصَّـة ؛ وهى مُحَرَّمَةٌ بنصِّ القرءان . قال تعالىٰ : ﴿إِنَّمَـا الخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ وأبو حنيفةَ يبيحها للتداوى والعطش، ولم تُبَحْ عند الشافعية إلا لإساغة لقمة المغصوص خاصّةً؛ وشاربها يحدّ بالاتفاق؛ وحكم بنجاستها تغليظا فى الزجر عنها، وأباح أبو حنيفةَ المُثَلَّثَ : وهو ماذهب ثلثاه وبقى ثلثه وقال بطهارته ، وجرىٰ عند أصحابنا الشافعية وجه بالطهارة .

أما المتخذ من الزبيب والتمر وما شاكله ، فإنما يقال له نبيذ ، وقد ذهب الشافعيّ رضى الله عنه إلى القول بتنجيسه والحدِّ بشربه و إن لم ينته منه إلى قدر يحصل منه سُكْر . ومنع أبو حنيفةَ الحدَّ فى القدر الذى لا يُسْكِر ؛

ثم للخمر أسماء كثيرة باعتبار أحوال فتسمّى الخمرَ لأنها تُخَمِّرُ العقلَ : أى تغطيه ، والحُمَيَّا لأنها تُحْمِى الجسد ، والعُقَارَ لأنها تعاقر الدَّنَّ : أى تطول مدّتها فيه إلى غير ذلك من الأسماء التى تكاد تجاوز مائةً .

ومنها الإبريق : وهو الإناء الذى يُصبّ منه ؛ والإبريق فى أصل اللغة ماله خرطوم يصبُّ منه .

ومنها القَدَحُ : وهو إناء من زجاج ونحوه يصبُّ فيه من الإبريق المقدّم ذكره .

ومنها الكَأْسُ : وهوالقَدَحُ بعد امتلائه ، ولا يسمّى كأْسًا إذا كان فارغا بل قَدَحًا كما تقدّم .

ومنها الكُوبُ بالباء الموحدة : وهو الذى لاعُرْوَةَ له يُمسك بها ، أما إذا كانت له عروة ، فإنه يقال له كوز بالزاى المعجمة .

قلت : والعَجَبُ ممن يُذْهِب طيّباته فى حياته الدّنيا ، ويفوز بما وَصْفُهُ المرارة وطبعه إزالة العقل الذى به تُدْرَكُ اللذة ، ويفوت النعيمُ المقيمُ فى دار البقاء! فقد ورد "أن من شَرِب الخمر فى الدُّنيا لم يَطْعَمْهَا فى الآخرة" . قال العلماء : إذا رآها ، لايشتهيها ولم تطلبها نفسُه ، وقد وصف الله تعالى حال خمر الجنة بقوله : "يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَايُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ" وأتبع ذلك بكمال النعمة فى قوله : "وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَايَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ."

اللهم لا عيشَ إلّا عيش الآخرة ! فلا تحرمنا خير ما عندك بشر ما عندنا .

ومنها الحَشيشَةُ التى يأكلها سَفِلَةُ الناس وأراذلهم ، وتسميها الأطباء الشَّهْدَانِج ، وعبر عنها ٱبن البيطار فى مفرداته بالقِنَّبِ الهِنْدِىّ . وهى مذمومة شرعا، مضرة طبعا، تُفْسِد المِزاج ، وتؤثر فيه الجَفافَ وغلبــةَ السوداء، وتفسد الذهن ، وتورث مَسَاءة الأخلاق ، وتَحُطُّ قدرَ متعاطيها عند الناس إلىٰ غير ذلك من الصــفات الذميمة المتكاثرة . وكلام القاضى حُسَيْن يدل علىٰ أنه لا يحدّ متعاطيها وإن فُسِّقَ، فإنه قال : وغير الخمر مثل البَنْجِ، وجَوْزِ مَاثِلٍ، والأفيونِ لا يحدّ متعاطيه بحال؛ بل إن تعمد تناوُلَه فُسِّقَ به ، وإن تناوله غَلَطًا أو للتداوى به ، لم يُفَسَّــقْ ؛ وقد أفرد ٱبن القسطلانى الحشيشة بتصنيف سمــاه "تَكْرِمَةَ المَعِيشه، فى ذمّ الحشيشه" ذكر الكثيرَ من معانيها ومساوى متعاطيها، أعاذنا الله تعالىٰ من ذلك .

النوع الثامن

(ممــا يحتاج إلىٰ وصفه الأفلاك والكوا كب، وفيه مقصدان)

المقصــــد الأول

(فى بيان ما يقع عليه ٱسم الفَلَك وعددِ أُكَرِهِ[1]، وما بين كل كُرَتَيْنِ وحركة الأفلاك فى اليوم والليلة)

أما ما يقع عليه ٱسم الفلك، فالمراد بالأفلاك السموات . قال صــاحب "مناهج الفكر" : تواطأت الأمم علىٰ تسمية أجرام السموات أفلا كا ، وقال ٱبن قُتَيْبَةَ فى "أدب الكاتب" : الفلك مَدَار النجوم الذى يضمها ، وٱحتج بقوله تعالىٰ بعد

---

(١) فى القاموس الأ كرة لغية فى الكرة . وقد جمعها المؤلف علىٰ هذه اللغة وفى اللسان أن أ كرا جمع كرة مقلوب اللام إلىٰ موضع الفاء فانظره .

ذكر النجوم : "وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ" قال : وسمى فَلَكاً لاستدارته ومنه قيل فَلْكَةُ المِغْزَلِ لاستدارتها .

وأما شكل الفلك وهيئتُه ، فقد اختلف علماء الهيئة فى ذلك : فذكر الأكثرون منهم أنها كُرِيَّةٌ لا مسطَّحة ، لأن أسرع الأشياء حركةُ السموات وأسرعَ الأشكال حركة الكُرَة لأنها لاتثبت على مكان من الأمكنة إلا بأصغر أجزائها .

وأما عدد أُكَرِهِ ، فقد ذكر الجمهور من علماء الهيئة : أن الفلك عبارة عن تسع أُكَرٍ متسقة ، ملتفة بعضها فوق بعض التفافَ طبقات البصلة ، بحيث يماس محدّب كلِّ كُرَةٍ سُفلى مقعر كُرَةٍ أخرى عُليا إذ لاخلاء بينهما عندهم . قالوا : وأقربُ هذه الأُكَرِ إلى الأرض كُرَةُ القَمَرِ ، ثم كُرَةُ عُطَارِدَ ، ثم كرة الزُّهَرَةِ ، ثم كرة الشَّمس ، ثم كرة المِرِّيخ ، ثم كُرة المُشْتَرِى ، ثم كرة زُحَلَ ، ثم كرة الكواكب الثابتة ، ثم كرة الفَلَك الأطلسِ ، وسمى بالأَطْلَس لأنه لا كواكب فيه ، ثم الفَلَكُ المحيط . ويسمَّى فَلَكَ الكل ، وفلكَ الأفلاك ، والفلَكَ الأعلى ، والفلك الأعظم ، وحكى الموحسى (١) فى "كتاب الآراء والديانات" أن بعض القدماء ذهب إلى أن كُرَةَ الشمس أعلى من سائر كُرَات الكواكب ، وبعدها كُرَة القمر ، وبعدها كرة الكواكب المتحيرة ، ثم كرة الكواكب الثابتة . والمتفلسفون من الإسلاميين لما حكمت عليهم نصوص الكتاب والسنة بالاقتصار على ذكر سبع سموات ، زعموا أن الفلك الثامن من الأفلاك التسعةِ هو الكُرْسِىّ ، والفلكَ التاسع هو العرشُ . وذهب بعض القدماء من علماء الهيئة إلى أنّ فوق الكُرَة التاسعة كُرَةً عاشرة هى المحرّكة لسائر الأُكَرِ . وذهب آخرون إلى أن وراء نهاية الأجرام السماوية خَلَاءً لانهاية له ، وذهب بعض الفلاسفة إلى أن وراءها عالَم الصورة ، ثم عالَم النفس ، ثم عالَم السياسة ، ثم عالَم العِلَّة الأولى ، ويعنون به البارى تعالى عن الجهة . والصابئة يسمون هذه العوالم أفلاكا .

(١) أهمله فى الأصل ولم نعثر عليه بعد البحث .

وأما ما بينَ كل كُرَتينِ ، فذهب أهـل الهيئة إلىٰ أنها متراصّة لاخلاء بينها لكن قد ورد الشرع بمـا يخالف ذلك ، فأطبق القُصَّاصُ من أهل الأثر علىٰ أن بين كلِّ سماء وسماء خَمْسَمائة سنة ؛ وفى سُنَنِ التِّرْمِذِىّ أن "بين كل سماء وسماء واحدة أو آثنتان أو ثلاثٌ وسبعون سنة" .

وأما حركة الأفلاك اليوميةُ ، فإن الفَلَكَ الأطلسَ المقدَّمَ ذكُره يتحرّك بما فى ضِمْنه فى اليوم والليلة حركةً واحدة دَوْرِيَّةً علىٰ قُطْبَيْنِ مائلين يسميان قُطْبَيِ العالَمِ أحدهمـا(١) عظمى تقطع هذا الفَلَكَ نصفين تسمّٰى دائرة مُعَدَّلِ النهار ، لأن الشمس متىٰ حَلَّتْ بها ، آعتدل النهار فى سائر الأقطار ، وتقاطع هذه الدائرةَ دائرةٌ أخرىٰ متوهَّمة تقسم هذا الفَلَكَ نصفين علىٰ نقطتين متقابلتيـــن ، يصير نصفها فى شَمَـالِىِّ مُعَدَّلِ النهار ونصفها الآخر فى جَنُوبِيِّه ، ويسمّٰى مِنْطَقَةَ البروج ، وهذه الدائرة ترسمها الشمس بحركتها الخاصـة فى السنة الشمسية ، ومن ثَمَّ قسمت آثنى عشر قسما ويسمّٰى كلُّ قسم منها برجا .

المقصـــد الثـانى

(فى ذكر الكواكب ومحلها من الأفلاك ؛ وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(الكواكب السـبعة السيّارة)

وهى زُحَلُ ، والمُشْـتَرِى ، والمِرِّيخُ ، والشَّمْسُ ، والزُّهَرَةُ ، وعُطَارِدُ ، والقمر ويتعلق القول بها من جهة مراتبها ، وآشـتقاقِ أسمـائها ، ومقاديرِ أبعادها من الأرض ، وقدر مَحَطِّ كل كوكب منها .

---

(١) فى المواعظ للقريزى . [و يقسم الفلك خط من دائرة تقسمه نصفين ... ... وتسمى هذه الدائرة دائرة معدل النهار .] فلعل فى عبارة الأصل سقطا من الناسخ وحرر .

فأما القمر، فمأخوذ من القُمْرَةِ : وهى البياض، سمى بذلك لبياضه ؛ وقد تقدّم أنّ فَلَكَه أقرب الأفلاك إلىٰ الأرض ، وهو المعبر عنه بالسماء الدّنيا ، ودَوْرُه ألف ومائة وخمسةٌ وثمانون ميلاً ، وهو جزء من تسعة وثلاثين جزءًا من الأرض، وبُعْدُه عن الأرض مائة ألف وسبعة آلاف وخمسُمائة وتسعون ميلاً . وهو يسمّى هِلالا الليلةَ الأولىٰ والثانيةَ والثالثةَ، ثم هو قمرٌ إلىٰ آخر الشهر . ويسمّى فى ليلة أربعَ عشرة بالبدر، قيل لمبادرته الشمس(١) قبل الغروب، وقيل لتمامه وآمتلائه كما قيل لعشرة آلافٍ بَدْرَةٌ لأنها تمام العدد ومنتهاه ؛ ويَسْتَسِرُّ ليلة فى آخر الشهر، وربما آسْتَسَرَّ ليلتين فلا يُرىٰ بمعنىٰ أنه يختفى فلا يُرىٰ، ويسمّى هذا الآختفاءُ السِّرارَ .

وأما عُطَارِدٌ، فمعناه النافذ فى الأمور، ولذلك سمى الكاتِبَ؛ وهو فى الفلك الثانى بعد فَلَك القمر؛ ودَوْرُ قُرْصِه سبعُمائة وعشرون ميلا، وهو جزء من آثنين وعشرين جزءًا من الأرض؛ وبُعْدُ ما بينه وبين الأرض مائتا ألف وخمسةُ آلاف وثمانُمائة ميل .

وأما الزُّهَرَةُ ، فمأخوذة من الزاهر وهو الأبيض ، سميت بذلك لبياضها ؛ وهى فى الفلك الثالث من القمر ، ودَوْرُ قرصها ستةُ آلافٍ وسبعة وأربعون مِيلًا ، وهى جزء من ستة وثلاثين جزءا من الأرض ، وبعدها عن الأرض خمسمائة ألف وخمسة وثلاثون ألفا وستمائة وأربعة عشر ميلاً .

وأما الشمس ، فسميت بذلك لشبهها بالشمسة : وهى الواسطة التى فى المِخْنَقَة لأن الشمس واسطة بين ثلاثة كواكبَ سُفْلِيَّةٍ : وهى القمر وعُطَارِدُ والزُّهَرَةُ، وبين ثلاثة عُلْوِيَّة : وهى المِرِّيخُ والمُشْتَرِى وزُحَلُ، وذلك أنها فى الفَلَك الرابع من القمر، ودور قرصها مائة ألف وثمانُمائة وثمانون مِيلا ؛ وهى مثل الأرض مائة وستٌّ وستون مرة وربع وثمن مرةً، وبُعْدُها عن الأرض ثلاثة آلافِ ألفٍ وخمسةُ آلاف وآثنان وتسعون ألفًا ومائة وثلاثةٌ وأربعون ميلاً .

(١) أى بطلوعه قبل غروب الشمس .

وأما المِرِّيخُ، فمأخوذ من المَرْخ : وهو شجر تحْتَكُّ أغصانه فتورى النـارَ، فسمى بذلك لشبهه بالنار فى احمراره ، وقيل المِرِّيخُ فى اللغة هو السهم الذى لا ريشَ له ، والسهم الذى لاريشَ له يلتوى فى سيره ، فسمِّى النجم المذكور بذلك لكثرة التوائه فى سيره ؛ وهو فى الفَلَك الخامس من القمر ، وهو مثل الأرض مَرَّةً ونصفا ؛ وبُعْده عن الأرض ثلاثة آلاف ألف وتسعمائة ألف واثنا عشر ألفا وثمـانمائة وستة وستون مِيلًا .

وأما المُشْتَرِى ، فسمى بذلك لحسنه كأنه اشترىٰ الحسنَ لنفسه، وقيل لأنه نجم الشِّراء والبيع عندهم؛ وهو فى الفلك السادس من القمر، ودَوْرُ قرصه أحدٌ وتسعون ألفا وتِسْعُمائة وتسعةٌ وسبعون ميلا ،وهو مثل الأرض خمس وسبعون مرة ونصف وثمنُ مَرَّةٍ، وبُعْدُه عن الأرض ثمـانية وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف وثمانيةٌ وستون ألفا ومائتا مِيلٍ .

وأما زُحَلُ، فمأخوذ من زَحَلَ إذا أبطأ، سمى بذلك لبطئه فى سيره، وقد فَسَّر به بعض المفسرين قولَه تعالىٰ "النَّجْمُ الثَّاقِبُ" ودَوْرُ قرصه تسعون ألفا وسبعُمائة وتسعة عشر مِيلًا، وبُعْده عن الأرض ستة وأربعون ألفَ ألفٍ ومائتا ألفٍ وسبعمائة وسبعةٌ وسبعون مِيلًا ، وأهـل المغرب يسمون زُحَلَ المُقَـاتِلَ ، ويسمون المِرِّيخَ الأحمرَ، ويُسَمُّون عُطَارِدَ الكاتبَ .

والفُرْسُ يسمون الكواكب السبعةَ بأسماءٍ بلغتهم فيسمون زحلَ كِيوَانَ،والمُشْتَرِى تير، والمِرِّيخَ بهرامَ،والشمسَ مهر،والزهَرَةَ أناهيد،وعُطَارد هرمس، والقمر ماه .

واعلم أن لكل من هذه الكواكب السبعة حركتين ، إحداهمـا قَسْرِيَّةٌ ، وهى حركته بحركة فلك الكل فى اليوم والليلة حركةً تامةً، وتسمّى الحركةَ السريعةَ؛ والثانية حركة ذاتية يتحركـ فيها هو بنفســه من المغرب إلىٰ المشرق وتسمّى الحركةَ البطيئة ،

ويختلف الحال فيها بالسير باختلاف الكواكب فلكل واحد منها سيرٌ يخصه ؛ وهذه الحركة فى القمر أبين لسرعة سيره، إذ يقطع الفَلَكَ بالسير من المغرب إلى المشرق فى كل ثمانية وعشرين يوما مرة . وقد مثّل القدماء من الحكماء للحركتين المذكورتين بمثالين، أحدهما بحركة السفينة براكبها إلى جهة جريان الماء وتحرك الراكب فيها إلى خلاف تلك الجهة، والثانى تحرّك نملة تدبّ على دُولاب إلى ذات الشّمال والدُّولاب يدور إلى ذات اليمين .

الضرب الثانى
(الكواكب الثابتة)

وهى الكواكب التى فى الفَلَك الثامن على رأى علماء الهيئة ، وسميت ثابتة لأنها ثابتة بمكانها من الفَلَك لاتتحرك من المَغرِب إلى المَشْرِق، كما تتحرك السبعة السيارة، إلا حركة يسيرة جدّا ، وإنما تتحرك بحسب حركة فلَك الكل بها من المشرق إلى المغرب فى اليوم والليلة ؛ والذى يُحتاج إلى ذكره منها الكواكبُ المشهورة مما تُتَعرّف به الأزمنة على ما تقدّم ذكره ، أو ما يدخل تحت الوصف والتشبيه .

وهى ثلاثة أصناف .

الصِّنفُ الأوّل
(نجوم البروج التى تنتقل فيها الشمس فى فصول السنة)

وهى ٱثنتا عشرة صورة فى ٱثنى عشر برجا، بعضها من منازل القمر، وبعضها من صور أخرى جَنُوبيةٍ وشَمَاليةٍ، وبعضها من كواكبَ متفرّقةٍ لاتنسب إلى صورة .

الأوّل الحَمَلُ : وهو الكَبْشُ، وهو صورة كبش على خط وسط السماء مُقَدَّمُهُ فى المغرب ومؤخره للمشرق، وأوّل مايطلُعُ منه فَمُهُ وهو الكوكب الجنوبىّ المنفرد من

الكوكبين الشّماليين من مَفْصِلِ اليد من الشَّرَطَين ، وعلىٰ قرنيه الكوكبان الجنوبيان المقتربان من الشَّرَطينْ ، وعلىٰ عينه اليمنى الكوكبُ الشّمالىّ المضىء من الشَّرَطين ، وعلىٰ عينه اليسرىٰ كوكبٌ خفىّ بقرب الشّمالىّ من الشَّرَطين ، وعلىٰ لَحْيَيْهِ آخرُ مثلُه ، وعلىٰ مَفْصِـلِ يده الكوكبان الشّماليان اللذان علىٰ عَقِبِ الرِّجل اليسرىٰ من الثريا ، وهو الذى يقال له البُطَيْنُ ، ويده وساقاه ممتدّان إلىٰ الشّمال ، وكأنه إنمـا يظهر منه يد واحدة ورِجْلٌ واحدة ، والثريا علىٰ طرف أَلْيَتِه .

الثانى الثَّوْرُ : وهو صورة ثور علىٰ خط وسط السماء ، مُقَدَّمُهُ إلىٰ المشرق ومؤخره إلىٰ المغرب ، وظهره إلىٰ الشمال ، ويداه ورِجْلاه إلىٰ الجنوب ، وعلىٰ مؤخره أربعة كواكب تسمّى القَطْعَ أى هى موضع ذنبه المقطوع ، والدَّبَرَانُ وجهُه ، وركن الدَّبَرَانِ فَمُهُ ، والكوكب المضىء الذى فى الدَّبَرَانِ عينهُ ، وكوكبان خارجان عن الدَّبَرَانِ فَرْدَة قَرنِه ، وقرنه الآخر كوكبٌ متباعد عن الدَّبَرَانِ نفسه إلىٰ الشّمال ، وليس وجهه مستويا ولكنه شبيه بالمقطوع الذى جُعِل خدّه علىٰ رأس عُنُقه ويداه منحطتان إلىٰ الجَنُوب ، ويظهر منه رِجْل واحدة ويدان ، وذَنَبُهُ أبتر ، والثريا خارجة عنه إلىٰ الشّمال وكذلك اللَّطْخة ، وهى ثلاثة أنجم تشبه الثريا بين الثريا والدَّبَرَانِ وليستا من صورته .

الثالث التَّوْءَمُ : وهو المعبر عنه فى أَلْسِنَةِ الناس بالجوزاء . قال الحسين بن يونس الحاسبُ فى كتابه فى "هيئة الصُّوَر الفلكية" : والنـاس مخطئون فى ذلك وإنمـا الجوزاء هى الصورة المعروفة بالجَبَّار فى الصور الجنوبية ، وقدم التوءم الأيمن (١) بعض كواكب الجَبَّار التى علىٰ تاجه . قال : والتوءم علىٰ خط وسـط السماء جَسَدانِ ملتصقان برأسين ، يظهر لكل واحد منهـما يد واحدة ورِجْل واحدة ، والرأسان فى جهة المشرق ، ورجلاهما فى جهة المغرب ، والذراع الشامىّ هو الرأسان ، ويده

(١) لعل الصواب اليمنى .

اليمنىٰ وهى التى فى جهة الشَّمال هى الذراع اليمانى والمضىء من الذِّراع اليمانىّ يسمَّى الشِّعْرىٰ الغُمَيْصَاء، ويده اليسرىٰ ممتدّة إلىٰ التوابع .

الرابع السَّرَطَانُ : وهو صورة سَرَطَانٍ علىٰ وسط السماء، رأسه إلىٰ الشَّمال ومؤخره إلىٰ الجنوب، والنَّثْرَةُ علىٰ صدره، وعيناه كوكبان خفيَّان تحت النثرة يُدْعَيَانِ بالحمارين وزُبَاناه كوكبان فيهما خفاء، وأحدهما أضوا من الآخر، يكونان شَمَـالِيين من التوءم ومؤخَّره كفُّ الأسد .

الخامس الاسـد، فى وسط السماء ، فَمُه مفتوح إلىٰ النَّثْرة، وعلىٰ رأسه كواكب مضيئة، والطَّرْف علىٰ عنقه، والجبهة علىٰ صدره، وقلبه الكوكب الجنوبىّ المضىء من النَّثْرة، وهو عظيم النور، وكاهله كواكب خفية خارجة عن الطَّرْفِ والجبهةِ إلىٰ الشَّمال والخراتان خاصرته، والصَّرْفة ذنبه، وكَفُّه المتقدّمة فى آخر السَّرطَان، وكفه الأخرىٰ بعد هذه الكف إلىٰ المشرق، ورجله الأولىٰ تخرج من الكوكب القبلىِّ من الخَرَاتين إلىٰ الجنوب، والأخرىٰ تحت هذه للشرق، وكبده كوكب يتوسط مع الجبهة شمالىّ منها، وسائر فقاراته إلىٰ المشرق .

السادس العَـذْراء ، فى وسط السماء . قال حسين بن يونس : والعرب تسميها السُّنْبُلَة، وهو خطأ ، وإنمـا هى حاملة السنبلة، ورأسها فى الشَّمال بميلة إلىٰ المغرب ورِجْلاها فى الجنوب، وهى مستقبلة المَشرق وظهرها إلىٰ المغرب . قال : ورأسها كواكبُ صغار مستديرة كٱستدارة رأس الإنسان تكون جنوبية من كوكبى الخَرَاتين ومَنْكِباها أربعـة كواكب تحت هـذه إلىٰ الشرق ؛ وجَنَاحها الأيمن ستة كواكبَ كهيئة الجَنَاح .

السابع الميزان ، وهو صورة ميزان ؛ كِفَّتَاها[١] إلىٰ جهة المشرق وقَبُّها إلىٰ جهة المغرب، والسماك الأعزل علىٰ قَبِّها من الجهة اليمنىٰ ومقابله كوكب آخرُ علىٰ قَبِّهـا

(١) فى المصباح «الميزان مذكر» فلعل تأنيث المؤلف له باعتبار أنه صورة.

من الجهـة الشّمالية، وكوكب آخر خارج من وسطها إلىٰ المغرب علىٰ علاقتهـا ، وهو علىٰ قصبة السُّنْبُلَةِ، وكوكبان من الغَفْرِ علىٰ محامله مع كواكبَ أُخَرَ، وزُبَانيـا العقرب كِفَّتَاه .

الثامن العقرب، وهو صورة عَقْرَب علىٰ وسـط السماء، رأسه فى المغرب وذَنَبُه فى المشرق، وإحدىٰ رِجْليه فى الجنوب، والأخرىٰ فى الشَّمال، والغَفْرُ علىٰ رأسه والزُّبَانيان اللذان همـا كِفَّتَا الميزان زُبَانياه، وعيناه كوكبان خفيان فيما بينهما وبين الإكليل ، والإكليل علىٰ صدره ، والقلب هو قلبه ، ونِيَاط القلب كوكبان خفيان والقلب فى وسطهما ، وهو خارج عنهما إلىٰ الشَّمال ، والشَّوْلة ذَنَبه ، والكواكب التى علىٰ طرفها جبهته، وإبرته لَطْخة مسـتطيلة فيما بين الشَّوْلة والنَّعائم الصادرة؛ ففيـه من منازل القمر خمسُ منازلَ : وهى الغَفْر، والزُّبَانان، والإكليل، والقلب، والشَّوْلة؛ وأظهرُ ماتكون صورةُ العقرب وهو علىٰ الأنف عند الغروب؛ ففيه من منازل القمر ثلاثُ منازلَ : الإكليلُ والقلبُ والشولةُ .

التاسع القَوْس، ويسمّى الرامى، ونجوم هذا البرج نصفه شبه فرس، وهو مؤخره إلىٰ جهة المغرب، ونصفه وجه إنسان تقوس وهو فى جهة المشرق، ورأسه فى الشَّمال ورجلاه فى الجنوب؛ والنَّعائم الواردة علىٰ وسطه، وهو علىٰ الجسـد الذى يشبه بدن القوس، وذنبه يشبه لَطْخة مستطيلة مع كوكب صغير تحتها والكواكب بدعمان(١) أى النعائم، والبَلْدة علىٰ مقْبِض القوس ويده اليمنىٰ قابضة علىٰ رأس السهم، وهى كواكب تكون تحت لطخة صغيرة قريبة منها .

العاشر الجَدْىُ : وهو صورة جَدْيٍ مستلقٍ علىٰ ظهره مُقَـدَّمه فى المغرب ومؤخَّره فى المشرق، وظهره للجنوب ويداه ورجلاه إلىٰ الشَّمال، وهو شبيه بالمنقلب إلىٰ القوس

(١) كذا فى المخطوط ولم نهتد الى ايضاحه .

وقرناه إلىٰ بطنه، وفمه إلىٰ القوس، وليس له إلا يد واحدة، والكوكب الشَّمالىّ من سَعْد الذابح أحدُ قَرْنَيْه، والجنوبىّ منه قرنه الاخر، وكوكب آخر خفىّ تحت سهم القوس غربىّ سَعْد الذابح فَمُه، وعلىٰ كَتِفِه سعد بُلَع، وعلىٰ وَرِكه سَعْد السُّعود، والمضىء من سعد السعود حُقُّ وَرِكه وشق الحوت الجنوبىّ علىٰ ظهره، وطَرَف يده ثلاثة كواكب مضيئة بقرب اللامح فيها خفاء، وطرف رجله الكوكبُ المسمّى رأس الدّلو .

الحادى عشر الدَّلْو: وهو صورة رَجُل قائم بيده دَلْوٌ، رأسه إلىٰ الشَّمال، ورجلاه إلىٰ الجنوب، وظهره إلىٰ المشرق، ووجهه إلىٰ المغرب، والكواكب التى تسمّى الخِبَاءَ من سعد الأخبية رأسُه، ويده اليسرىٰ من فوق رأسه حتّى تنزل إلىٰ الدَّلْو الذى عن يمينه، وسعد الأخبية مِرْفَقُه الأيسر، وبطنه يسمّى الجرّة، ودلوه أربعة سعود من السُّعود السبعة التى ليست من منازل القمر، هى سعد نَاشِرَةَ، وسَعد المَلِك، وسعد البِهَام وسعد المائح، وكل سعد منها كوكبان، وعلىٰ رِجْله اليسرىٰ كوكب عظيم النور، وعلىٰ رِجْله اليمنىٰ كوكب أبيض يقرب فى العِظَم من الذى قبله، والفَرْغ المقدّم خارج عن صورته إلىٰ الشَّمال .

الثانى عشر الحُوت : وهو صورة سمكتين إحداهما المنزلة التى تسميها أصحاب المنازل بطن الحُوت وهى شمالية ؛ والثانية جنوبية عنها، وهى أطول منها وأخفىٰ الكواكب ؛ والكواكب السبعةُ السيارةُ ترسُم الجنوبيةَ منهما بمسيرهن، وشق السمكة الجنوبية ثلاثة من السُّعود السبعة التى من غير منازل القمر هى سعد الهُمَام وسعد البارِع وسعد الماطر(١)، وليس الفَرْغ المؤخّر فى جسم الحوت بل خارج عنه إلىٰ الشَّمال والمغرب .

---

(١) الذى فى القاموس سعد مطر .

الصـــــنف الثـانى

(نجوم منازل القمر التى يتنقل فيها القمر من أوّل الشهر إلىٰ الثامن والعشرين منه)

وهى ثمـان وعشرون منزلة يداخل أكثرُها صورَ البروج الاثنى عشر المتقدّمة .

الأولىٰ الشَّرطانِ ، والشَّرطان تثنية شَرط ، وهو العلامة كأنه سمى بذلك لكونه علامةً علىٰ طلوع الفجر عند طلوعه ، وتسمّى أيضا النَّطْحَ والناطحَ : لأنها عند أصحاب الصور قَرْنا الحَمَل ؛ وهمـا كوكبان نَيِّران بينهـما قابُ قَوْسين ، أحدهمـا فى الشَّمال والآخر فى الجنوب إلىٰ الجـانب الجنوبىّ ، ومنها كوكب ألطف منه يعدّ معه أحيانا ولذلك يسمِّى بعضهم هـذه المنزلةَ الأشراطَ علىٰ الجمع لا علىٰ التثنية ، وهذه الثلاثة الكواكب إذا ظهرت فى المشرق ، ظهرت كأنها مقلوبة منكَّسة ، وواحد منها أحمرُ مضىء وتحته آخر خفىّ والثالث فى الشَّمال وهو أحمرُ مضىء .

الثانية البُطَيْنُ ، تصغير بطن ، وإنما صُغِّر فرقا بينه وبين بطن الحوت الآتى ذكره فى جملة المنازل ؛ والبُطَيْنُ ثلاثة كواكب مثـل أَثَافِىّ القِدْرِ : وهى الشكل المُثَلَّثُ الذى ينصب عليه القِدْر عند الطبخ ؛ وهى علىٰ القرب منها فى موضع بطن الحَمَل من الصورة ؛ وواحد منها مضىء واثنان خفيان ، والخفيان يَطْلُعان قبل المضىء .

الثالثة الثُّرَيَّا ، ويسمّى النجم عَلَما عليها ، وبه فسر قوله تعالىٰ ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوىٰ﴾ وهى ستة أنجم صغار يظنها بعض الناظرين سبعةَ أنجم ، وهى فى شكل مثلثٍ متساوى الساقين ، وبين نجومها نجومٌ صـغار جدّا كالرشاش ، ومطلَعُها إلىٰ الشمال عن مطلع الشَّرَطَينِ والبُطَيْنِ ؛ وأوّل ما يطلُع منهـا ويغيب هو الجانب العريض دون الأنخاذ منها ؛ وهى عنـد أصحاب الصور بالقرب من محل ذَنَبِ الثور المقطوع . قال ابن يونس : وليست من صورة الثور ، وبعضهم يسميها أَلْيَـةَ الحمل لقربها منه .

الرابعة الدَّبَرَانُ ، ويسمَّى تَالِيَ النجم لكونه يطلع تِلْوَ الثريَّا ، وربما سمى حادِيَ النجم لذلك ، ويسمَّى أيضا المِجْدَحَ وعينَ الثور ، وهذه المنزلة سبعة أنجم تشبه شكل الدال ، واحد منها مضىء أحمرُ عظيم النُّور ، واسم الدَّبَرَان واقع عليه فى الأصل ثم غلب عليه وعلىٰ باقى المنزلة . وهذه الكواكب السبعة عند أصحاب الصور هى رأس الثَّور ، وأوّل ما يطلع منه طرف الدال ، ويكون رميها إلىٰ الجنوب وفتحها إلىٰ الشَّمال ، والكوكب الأحمر المضىء هو آخر ما يطلع منها ؛ والعرب تقول للكوكبين القريبين منه : كَلْباه ، والباقى غَنَمهُ ، وربما قالوا : قِلَاصه ، ويقولون فى خرافاتهم : إنّ الدَّبَرَان خطب الثريَّا إلىٰ القمر فقالت : ما أصنع بِسُبْرُوتٍ ؟ فساق إليها الكواكبَ المسماة بالقِلَاص مَهْرًا ، فهربت منه فهو يطلبها أبدا ، ولا يزال تابعا لها ، ومن ثَمّ قالوا فى أمثالهم : "أَوْفَى من الحَادِى[1] وأغدر من الثريَّا" .

الخامسة الهَقْعَةُ ، سميت بذلك تشبيها بدائرة تكون فى عُنُق الفرس ، وقد مر القول عليها فى الكلام علىٰ أوصاف الخيل ؛ وهى ثلاثة كواكبَ محابية صغار تسمَّى الأثافِيَّ ، وهى علىٰ أعلىٰ القدم اليسرىٰ من التوءم المعبر عنه بالجوزاء .

السادسة الهَنْعَةُ : وهى خمسة أنجم علىٰ شكل الصَّوْلَجَانِ : أربعة منها علىٰ خط مستقيم ، الثالث منها يسمَّى قوسَ الجَوْزَاءِ ، والخامس منعطف إلىٰ جهة الجنوب مقدارَ شِبْرٍ فى رأى العين ، وسميت هَنْعَةً لانعطافها أخذا من قولهم : هنعتُ الشئَ إذا عطفتَه ، وبعضهم يسميها التحية[2] ، وهى عند أصحاب الصُّوَر خلاف لأحد التوءمين المعبر عنهما بالجوزاء ، ويقال : الهنعة قوس الجوزاء يرمى بها ذراع الأسد ، وقائل ذلك يزعم أنها ثمانية أنجم فى صورة قوس من مقبضها النجمان اللذان يقال

---

(١) المراد بالحادى الدبران كما تقدم فى كلامه وكما يشير اليه قول الشاعر : * كما وفى بقلاص النجم حاديها * ووقع فى الأصل الجارى وهو تصحيف .

(٢) الذى فى القاموس واللسان فى مادة (ه ن ع) أنها تحياة وجمعها تحايى .

لها الهنعة، وبعضهم يقول : إن الهَنْعَة كوكبان مقترنان ، الشّمالىّ منهـما أضوءُهمـا وحذاءَهما ثلاثة كواكبَ تسمّى التَّحَايِي ربمـا عدل القمر فنزل بها .

السابعة الذِّراع : وهى كوكبان : أحدهما نيِّر والآخر مظلم، بينهما قدر سوط فى رأى العين، وفيما بينهما كواكبُ صِغَار تسميها العرب الأظفارَ، وسميت هذه المنزلة بالذراع لأنها عندهم ذراع الأسد وللأسد ذراعان : مقبوضـةٌ وفيها ينزل القمر، وهى جنوبية، وسميت مقبوضةً لأن الأخرىٰ أرفع منها فى السماء، ولهذا سميت مبسوطةً، وهى مثلها فى الصورة، وأصحاب الصور يجعلون هذه الذراع فى صورة الكلب الأصغر، وربمـا عدل القمر عن المقبوضة فنزل بها .

الثـامنة النَّثْرة ، وهى لَطْخة كقِطْعـة سحاب يجعلها أصحاب الصُّوَر علىٰ صـدر السَّرَطَان . وسميت نَثْرة لأن إلىٰ جانبها نجمين صغيرين همـا عند العرب علىٰ مَنْخِرى الأسد، وتسميهما الحمارين ، وقيل إنها لما كانت أمامَ جبهة الأسد شبهت بشئ نثره من أنفه، ويقال إنها فم الأسد ومنخراه، وتسمّى اللَّهَاةَ أيضا وتشبَّه بالمَعْلَف .

التاسعة الطَّرْفُ ، وهى كوكبان خفيان مقترنان بين يدى الجَبْهَة ، سميا بذلك لموقعهما موقع عينى الأسد، وقدّامهما ستة كواكبَ صـغار تسميها العرب الأشفار آثنان منها فى نَسَقِ الطَّرْف، والأربعة البواقى بين يديه .

العاشرة الجَبْهَةُ، ثلاثة كواكب نيرة قد عدل أوسطها إلىٰ الشرق، فهى لذلك علىٰ شكل مُثَلَّثٍ مسـتطيل القاعدة قصير الساقين، وإلىٰ الجنوب عنها نجم أحمرُ مضئ جدّا يسمّى قلبَ الأسد يرسمه المنجمون فى الأسطرلاب ، وأصحاب الصور يجعلون الجبهة علىٰ كَتِف الأسد .

الحادية عشرة الخراتان، وتسمّى الزُّبْرَة وعُرف الأسـد والزبرتين، وهما كوكبان نَيِّران بينهما فى رأى العين مقدارُ ذراعين ، وهما معترضان ما بين المشرق والمغرب ،

يمتدّان عند التوسط مع خط الآستواء، وسميا الخراتان تشبيها بثُقْبَين فى السماء، ومنه خَرْتُ الإبْرَة ، وتحتَ هذين النجمين تسعةُ أنجُم صغار. وسميت الزُّبْرَة لشعر يكون فوق ظهر الأسـد ممـا يلى خاصرته ، وعدّوا الجميع أحد عشر كوكبا منها نجمان همـا الخراتان والتسعة الشعر.

الثانية عشرة الصَّرْفَةُ : وهى كوكب نيِّر، وهو عند أصحاب الصور قُنْبُ الأسـد والقُنْبُ وعاء القضيب، وبالقُرْب من هذا الكوكب سبعة أنجم صغار طُمْس ملاصقةٌ له ، وسمى هذا الكوكبُ بالصَّرْفَةِ لآنصراف الحَرِّ عند طلوعه مع الفجر من المشرق وآنصراف البرد إذا غرب مع الشمس، ويقال الصَّرْفَةُ نابُ الدَّهر لأنَّها تفْـتَرع عن فَصْل الزمانين، ويشكل مع الخَرَاتان مثلَّثا له زاوية قائمة وإحدىٰ ساقيه أطولُ من الأخرىٰ وفى قاعدته قِصَر.

الثالثة عشرة العَوَّاء، وهى خمسة كواكبَ نيِّرةٌ علىٰ شكل لام (١)، كان آعتُبِر آبتداؤها من الشَّمال وعطفها من جهة الجنوب لكن المصطف منها أربعة والمنعطف واحد، ويقال لهـا أيضا وَرِكَى الأسـد، وتشبهها العرب بكلاب تَعْوى خلف الأسد لأنها وراءه، ولذلك سميت العَوَّا، وأصحاب الصور يجعلونها فى السُّنْبُلَة علىٰ صدرها .

الرابعة عشرة السِّمَاكُ، وهو السِّمَاكُ الأعزل : وهوكوكب نَيِّر يميل لونه إلىٰ الزُّرْقة وسمى سِمَاكًا لكونه قريبا من سَمْتِ الرأس، وسَمْتُ الرأس أعلىٰ ما يكون من الفَلَك وسمَّتْه العربُ الأعزلَ لأنه يطلُع إلىٰ جانبه نجمٌ مضىء يسمونه السِّمَاكَ الرَّامِحَ لكوكب صغير بين يديه، والأعزلُ لاشىء بين يديه ففرق بينهـما، وأحدهما جنوبىّ ، وهو المنزلة، وأصحاب الصُّوَر يثبتون السماكين : الأعزلَ والرامحَ فى صورة العذراء، وهى السنبلة، والعرب تجعلهما ساقى الأسد، وربما عدل القمرُ فنزل بعَجُزِ الأسد، وهو أربعة كواكبَ بين يدى السِّماك الأعزل ، يقال لها عرش السِّماك ، وتسمّى أيضا

(١) فى لسان العرب كأنها كتابة ألف ... ويقال كأنها نون .

الحَبَاء، والأحمال، والغُراب، وهذه المنزلة حدّ مابين المنازل اليمانية والمنازل الشامية، فما كان أسفل من مَطْلَعه فهو يمانى، وهو شِق الجنوب، وما كان فوقه فهو شامى، وهو شِقّ الشّمال.

الخامسة عشرة الغَفْرُ، ثلاثة كواكب خفية على خَطٍّ فيه تقويس، وسميت بذلك لخفائها مأخوذة من المَغْفِرَةِ التى تستُر الذنبَ وتخفيه يوم القيامة، ومنه المِغْفَر الذى فوق الرأس، وقيل لأنها زُبَانَى العقرب، وقيل مأخوذة من الغَفْرَة: وهى الشعر الذى فى طرف ذنَب الأسد، وأصحاب الصور يجعلونها بين ساقَىِ الأسد.

السادسة عشرة الزُّبَانَانِ، وهما كوكبانِ نَيِّران هما عند العرب يد العقرب يترس بهما: أى يدفع عن نفسه، وأصحاب الصُّوَر يجعلونهما كِفَّتَى الميزان، وبينهما فى رأىِ العين قدرُ قامة الرجل.

السابعة عشرة الإكْلِيلُ، وهو ثلاثة كواكبَ مجتمعةٌ فى خفاء الغَفْرِ مصطفَّةٌ معترضة، بين كل كوكب وكوكب منها قدرُ ذراع فى رأى العين، سميت بذلك لأنها فوق جبهة العقرب كالتاج، وهى عند أصحاب الصُّورَ على عمود الميزان.

الثامنة عشرة القَلْبُ، وهو كوكب أحمرُ نَيِّرٌ مضطرب قريب من الجبهة بين كوكبين خفيين تسميهما العرب نِيَاطَى القلب أى عِلَاقتيه، وسَمَّتْه أصحاب الصُّوَر قَلْبا لوقوعه موضع القلب من صورة العقرب، والقلوب أربعة هذا أحدها، والثانى قَلْب السمكة، والثالث قلب الثور، والرابع قلب الأسد. وحيثُ ذكر القلب على الإطلاق دون إضافة فالمراد قلب العقرب هذا.

التاسعة عشرة الشَّوْلَةُ، وهى كواكبُ متقاطرة على تقويس فى بُرْج العقرب أشبه شئ بذَنَب العقرب إذا شالته، ولذلك سميت الشَّوْلَةَ، وفى الشولة كوكبان خفِيَّان

ملتصقان يظهران كأنهما كوكب واحد مشقوق يسميان الإبْرَةَ والحُمَةَ ، وخلفهما نجم صغير لا يزايلهما يقال له التابع . وقال قوم : إنما ينزل القمر الشَّوْلة علىٰ المحاذاة ولا ينحط إليها لأنها منحدرة عن طريقه ، وربما نزل بالسفار فيما بين القلب والشَّولة ، وهى ستة كواكبَ بيض منعطفة .

العشرون النَّعَائم ، وكواكبها ثمانية ، منها أربعة يمانية نَيِّرة تشكل مربَّعا فيه أطراف تسمى الواردة وهى المنزلة ، وسميت واردة : لأنها لما كانت قريبة من المَجَرَّة شبهت بنَعَام وردت نهرا ، والأربعة الأخرىٰ تسمَّى النعائم الصادرة : لأنها لما كانت بعيدة من المجرَّة شبهت بنَعَام وردت ثم صدرت ، والواردة التى هى المنزلة عند أصحاب الصُّوَر واقعة فى يد الرامى الذى يجذب بها القوس .

الحادية والعشرون البَلْدَةُ ، وهى فُرْجَةٌ فى السماء مستديرة شبه الرُّقعة ليس فيها كواكبُ ، والبلدة فى كلام العرب الفُرْجَةُ من الأرض ، ويقال لصدر الإنسان البَلْدة لأنها قطعة مستطيلة ، ويدل عليها ستةُ كواكبَ مستديرةٌ صغار خفية تشبه القوسَ ، وبعضهم يسميها الأُدْحِىَّ لأن بالقرب منها كواكبَ تسميها العرب البَيْضَ لقربها من النعائم ، وربما عدل القمر فنزل بالأُدْحِىّ ، وأصحاب الصور يجعلون البلدة علىٰ جبهة الرامى .

الثانية والعشرون سعدُ الذَّابحُ ، وهو كوكبان صغيران بينهما فى رَأْىِ العين أقلُّ من قدر ذراع ، أحدهما مرتفع فى ناحية الشَّمال والآخر منخفض فى ناحية الجَنُوب سمى سعدا لانهمال الأمطار فى أيام طلوعه ، وسمى ذَابِحًا لقوّة البرد فى إبَّانِ طلوعه فتموت المواشى ببرده ، وقيل سمى ذابحا لأن بالقرب من نجمه الشَّمالِىِّ نجما صغيرا كأنه ملتصق به ، تقول العرب : هو شَاتُه التى تُذْبح ، ولذلك جعلوا الذابحَ صفةً لسعد

بخلاف سائر السعود ، فإنها يضاف إليها ما بعدها كما قاله الزجاج فى مقدّمة أدب الكاتب، وأصحاب الصُّوَر يثبتون هذا السعد فى موضع قَرْنَى الجَدْى من الصورة .

الثالثة والعشرون سعد بُلَعَ ، وهو نجمان أيضا يشبهان سعدا الذابحَ فى المسافة التى بينهما لكن أحد الكوكبين خَفِىّ، وهو الذى بلَعه، وهذا السعد عند أصحاب الصُّوَر على كَعْب ساكب الماء القريبِ من صورة الدَّلوِ، وسمى بُلَعَ لأنه فى أيامْ طلوعه تغيض الأنهار وتزيد الآبار، فكأن الأرض ٱبتلعت ماءها، وقيل لأنه يطلُع فى الوقت الذى قيل فيه "يَا أَرْضُ ٱبْلَعِى مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِى" زمن نوحٍ (عليه السلام) .

الرابعة والعشرون سعد السُّعُود، وعدّته كوكبان أيضا على ماتقدّم فى السعدين من البُعْد، وقيل هو ثلاثة كواكبَ أحدها نَيِّر والآخران دونَه فى النور، وأصحاب الصُّوَر يثبتونه على صدر ساكب الماء القريب من صورة الدَّلْو، وربما قصر القمر فنزل سعدَ نَاشِرَةَ ، وهو أسفل من سعد السعود ، ويسمِّى أصحاب الصور نجميه بالمُحِبَّيْنِ، وهما فى مؤخر الجَدْى، ومنهم من يثبت سعد السعود نجما واحدا .

الخامسة والعشرون سعد الأَخْبِيَةِ، والناس مختلفون فيه ، فمنهم من يقول : إنه كوكبٌ واحد حوله ثلاثة كواكب مثلثة تشبه رِجْلَ بَطَّةٍ والكوكب هو السعد والثلاثة الخباء، ومنهم من يجعل الكوكب الذى فى وسط الثلاثة عمودَ الخباءِ ، وهو عند أصحاب الصُّوَر على الكَتِف الشرقية من جسد ساكب الماء ، وسمى سعدَ الأخبية لخروج المخبَّآت فيه من الثمار والحشرات ، وكانت العرب تتبرك به لٱخضرار العود فيه .

السادسة والعشرون الفَرْغ المقدّم ، ويقال فيه مقدّم الدَّلوِ والفرغ الأوّل والفرغ الأعلى وعَرْقوة الدَّلْو العُلْيا، وهو كوكبان نيِّران بينهما فى رأى العين نحوٌ من خمسة أذرع، وأصحاب الصُّوَر يزعمون أن الشَّمالىَّ منهما على متن الفرس .

السابعة والعشرون الفَرْغُ المؤَخَّر، ويقال له مؤخر الدَّلْو السُّفْلىٰ ، وهو كوكبان يشبهان ما تقدّم ، احدهما شَمالىٌّ والآخر جنوبىٌّ ، وهما عند أصحاب الصُّور علىٰ مؤخر الفرس، وربما قصر القمر فنزل فى الكَرِبِ الذى فى وسط العَرَاقِى، وربما نزل ببَلْدة الثعلب .

الثامنة والعشرون الحُوتُ ، وهو آخر المنازل ، ويقال لها السَّمَكة ، وتسمّى الرِّشَاء أيضا ، وهى ثمانية عشر كوكبا تشكل شكلَ سمكة رأسها فى جهة الشَّمال وذَنَبُها فى جهة الجنوب، وفى الشرقىِّ منها كوكب نَيِّر، يسمى سُرَّةَ الحُوت ، وبطنَ الحوت، وبطنَ السمكة، وقلبَ السمكة، وربما عدل القمر فنزل بالسمكة الصُّغرىٰ، وهى من السمكة الكبرىٰ فى الشَّمال مثل صورتها إلا أنها أعرضُ منها وأقصرُ؛ وأصحاب الصُّوَر يجعلون الكوكب النَّيِّرَ من الحوت فى حدّ المرأة المسلسلة ، ورأسها هو الشمالىُّ من الفَرْغ المؤخَّر.

الصــــنف الثـالث

(من النجوم الثوابت ماليس داخلا فى شىء من البروج ومنازل القمر مما هو مشهور مما ذكرته العرب فى شعرها، وشبهت به، وضربت به الأمثال)

وهى عدّة نجوم .

منها بنات نَعْش : وهى سبعة أنجم علىٰ القرب من القُطْب الشَّمالىّ ، منها أربعة فى صورة نَعْشٍ وثلاثةٌ أمامه مستطيلةٌ، وهى المعبَّر عنها بالبنات ، وتُعْرَفُ هذه ببنات نعش الكُبرىٰ، وبالقرب منها سبعةُ أنجم علىٰ شكلها .

ومنها الجَدْىُ الذى تعرف به القِبْلة ، وهو نجم صغير علىٰ القرب من القُطْب الشَّمالىّ يستدلّ به علىٰ موضع القُطْب، ويقال له جَدْى بنات نعش الصغرىٰ .

ومنها الفَرْقَدَانِ، وهما كوكبان متقاربان معدودان فى بنات نَعْشٍ .

ومنها السُّهَا ، وهو كوكب خفىّ فى بنات نَعْشٍ الكبرىٰ ، والنـاس يَمْتَحِنُون به أبصارَهم لخفائه .

ومنها السِّماك الرامِحُ ، وهو غير الأعْزَلِ المقدّم ذكره فى منازل القمر ، سمى رامحا لكوكب يقْدُمه، تقول العرب : هو رُمْحُه بخلاف الأعزل فإنه الذى لا رُمْحَ معه .

ومنها النَّسْرُ الواقع ، وهو ثلاثة أنجم كأنها أثافى ، سمى الواقعَ لأنهم يجعلون آثنين منه جَنَاحيه ويقولون : قد ضمهما إليه كأنه طائر وقع .

ومنها النَّسْر الطائر، سمى بذلك لأنهم يجعلون آثنين منه جَنَاحيه، ويقولون : قد بسطهما كأنه طائر، والعامّة تسميه الميزانَ .

ومنها الكَفُّ الخَضِيب ، وهو كف الثُّرَيَّا المبسوطةُ ، ولهـا كف أخرىٰ يقال لهـا الجَذْماء، وهى أسفل من الشَّرَطين .

ومنها العَيُّوقُ ، وهو فى طَرَف المَجَرَّة الأيمن، وعلىٰ أثره ثلاثةُ كواكبَ بَيِّنَةٌ يقال لهـا الأقلام، وهى من مواقع العَيُّوق .

ومنهـا سُهَيْلٌ ، وهو كوكب أحمرُ منفرد عن الكواكب ولقربه من الأُفُقِ كأنه أَبَدًا يضطرب ، وهو من الكواكب اليمـانية ، قال آبن قُتَيْبَةَ : ومطْلَعه عن يسار مُسْتَقْبِلِ قبـلةِ العراق . قال : وهو يُرىٰ فى جميع أرض العرب ، ولا يرى فى شىء من بلاد أَرْمِينِيَةَ .

ومنها الشِّعْرَيَانِ : العَبُورُ، وكانت تعبد فى الجاهلية لقوله تعالىٰ : "وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرىٰ" وهى فى الجوزاء ، والشِّعْرىٰ الغُمَيْصَاءُ ، ومع كل واحدة منهـما كوكب يقال له المِرْزَمُ .

ومنها سعد ناشِرةَ، وسعد المَلِكِ، وسعد البِهَامِ، وسعد الهُمَامِ، وسعد البارع، وسعد مَطَر؛ وكل سعد منها كوكبان ، بين كل كوكبين فى رَأْيِ العين قَدْرُ ذراع فهى متناسقة؛ وهذه السعود الستة غير السعود الأربعة المتقدّمة فى منازل القمر؛ تكون جملةُ السعود عشرةً .

فإذا عَرَفَ الكاتب أحوالَ الأفلاك والكواكب وأسماءَها وصفاتِها، عرف كيف يصفها عند آحتياجه إلىٰ وصفها ، وكيف يعبِّر عنها عند جَرَيَان ذكرها .

كما قال بعضهم يمدح بعض الرؤساء :

لَا زِلْتَ تَبْقَىٰ وتَرْقىٰ للعُلَا أبدًا * ما دام للسبعةِ الأفلاكِ أحكامُ
مَهْرٌ ومَاهٌ وكِيوَانٌ وتيرُ معا * وهِرْمِسٌ وأناهيدٌ وبَهْرَام

مشيرا بذلك إلىٰ ذكر الأفلاك السبعة ، وما لها من الكواكب السبعة السيارة بالأسماء الفارسية المقدّم ذكرُها .

وكما قال الطُّغْرَائى فى لامية العجم :

وإن عَلَانِى مَنْ دُونِى، فلا عَجَبٌ * لِى أُسْوَةٌ بانحطاطِ الشمس عن زُحَلِ

مشيرا إلىٰ كون فلَك زُحَلَ أعلىٰ من فلَك الشمس لما تقدّم أنها فى الرابع، وهو فى السابع .

وكما قال بعضهم يَصف خُضْرة السماء، وما لها من الكواكب :

كأنّ سَمَاءَنا، والشُّهْبُ فيها * وأَصْغَرُهَا لأَكْبرها مُزَاحِمْ
بِسَاطُ زُمُرُّدٍ نُثِرتْ عليه * دنانيرٌ يخالِطُها دَرَاهِمْ

وكما قال ذو الرُّمّة وقد ذكر الثريّا :

يَدِفُّ علىٰ آثارها دَبَرَانُها * فلا هو مَسْبُوقٌ ولَا هو يَلْحَقُ
بعشرين من صُغْرىٰ النجومِ كأنها * وإيّاه فى الخَضْراء لو كان يَنْطِقُ

قِلاصٌ حَدَاها راكبٌ متعمِّم * إلىٰ الماء من جَوْز التَّنُوفة مُطْلَقُ

مشيرا إلىٰ ماتقدّم من خِطْبَةِ الدَّبرَانِ الثريّاَ وهَرَبِها منه وإمهارِه إياها بالقلائص: وهى النجوم التى حولها .

وكما قال أبو الفَرَج البَبَّغَا ذاكرا حال مختفٍ يُرْجىٰ له الظهورُ :

سَتَخْلُصُ من هذا السِّرارِ وأيُّمـا * هلالٌ توارىٰ فى السِّرار فما خلص

مشيرا بذلك إلىٰ حالة توارِى القمر حالةَ السِّرار ثم خلوصه عند إهلاله .

النوع التاســـع

(مـما يحتاج الكاتبُ إلىٰ وصفه العُلْويَّات مـما بين السماء والأرض، وهى علىٰ أصـــناف)

الصـــنف الاوّل .

(الريح)

وهى مؤنثة، يقال هبت الريح تَهُبُّ هبوبا، وتجمع علىٰ رياح، وقد دل الاستقراء علىٰ أنها حيث وردتْ فى القرءان الكريم فى مَعرِض العـذَاب ، كانت بلفظ الإفراد وحيث وردت فى معرض الرحمة، كانت بلفظ الجمع . قال تعالىٰ فى جانب العذاب : "فَأَرْسَـلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ" وقال : "إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِـمْ رِيحًا صَرْصَرًا" وقال فى جانب الرحمــة : "وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِـهِ" وقال جلت قدرته : "اللهُ الَّذِى يُرْسِـلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً" إلىٰ غير ذلك من الآيات . ومن ثَمَّ كان رسول الله صـلى الله عليه وسلم إذا اشتدّت الريح قال : "اللّهمّ اجْعَلْها رِيَاحًا ولا تَجْعَلْها رِيحًا" وقد ورد القرءان الكريم بأن الله تعالىٰ هو الذى يرسلها، قال تعالىٰ : "اللهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً"

وذهبت الفلاسفة إلىٰ أنها تَحْدُثُ عن الطبيعة، وأن سبب ذلك دُخَان يرتفع من الأرض فيضربه البرد فى ٱرتفـاعه فيتنكّس و يتحامل علىٰ الهواء و يحرّكه الهواء بشدّة فيحصل الريح .

وأصول الرياح أربعة :

الاولىٰ الصَّبَا : وهى التى تأتى من المَشْرِقِ، وتسمّى القَبُول أيضا : لأنها فى مقابلة مُسْتَقْبِلِ المشرق، قال فى صناعة الكُتَّاب : وأهل مِصْر يسمونها الشرقيةَ : لأنها تأتى من مَشْرِق الشمس ، وهى التى نُصِر بها النبىّ صلى الله عليه وسـلم يوم الأحزاب كما أخبر صلى الله عليه وسلم بقوله : "نُصِرْتُ بالصَّبَا" .

الثانية الدَّبُورُ ، ومَهَبُّها من مغرب الشمس إلىٰ حدّ القطب الجنوبىّ ، وسميت الدَّبُورَ لأن مستقبِل المشرق يستدبرها ، وتسمّى الغربيةَ لهبوبها من جهة المغرب ، وبها هلَكَتْ عاد كما أخبر عليه السـلام بقوله : "وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ" .

الثالثة الشَّمَالُ ، ويقال فيها شَمَـال وشَمْأَلٌ وشَامَلٌ وشَأْمَلٌ مهموزا وغير مهموز ، ومَهَبُّها من حدّ القطب الشمالىّ إلىٰ مغرب الشمس ، وسميت شَمَـالًا لانها علىٰ شمَال من ٱستقبل المشرق ، قال فى صناعة الكُتَّاب : وتسمى البَحرية لأنها يُسَار بها فى البحر علىٰ كل حال .

الرابعة الجَنُوبية ، ومَهَبُّها من حدّ القطب الأسفل إلىٰ مطلع الشمس ، وتسمّى بالديار المصرية القِبْلِيَّـةَ لأنها تأتى من القبـلة فيها ، وتسمّى بها أيضا المَرِيسيَّة لأن فى الجهة القبلية بلاد المَرِيس : وهم ضرب من السُّودان ، وهى أردأ الرياح عنـد اهل مصرَ . وقال النحاس : وكل ريح جاءت من مَهَبَّىْ ريحين تسمّى النَّكْباء ، سميت بذلك لأنها نَكَبَتْ عن مَهَابِّ هذه الرياح وعَدَلت عنها ، قال فى "فقه اللغة" : وإذا

جاءت بنَفَسٍ ضعيف ورَوْحٍ فهى النسيم ، وإن ٱبتدأت بشِـدَّة قيل لهـا النافجة ، فإن حركت الأغصـانَ تحريكا شـديدا وقلعت الأشجار قيـل زَعْزَع ، فإن جاءت بالحَصْـباء قيـل حاصبة ، فإذا هَبَّتْ من الأرض كالعـمود نحو السماء قيـل لهـا إعْصار . وقد ورد بها القرءان فى قوله تعـالىٰ : "فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ" والعامَّة تسميها الزَّوْبَعَة ، ويزعمون أن الشيطان هو الذى يثيرها ، ومن ثَمَّ سمـاها الترك نعـيم بك يعنى الشـيطان ، فإذا كانت باردة ، فهى الصَّرْصَر . وقد وقع ذكرهـا فى قوله تعـالىٰ : "إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا" ، فإذا لم تُلْقِح شجرا ولم تحمل مَطَرا ، فهى العَقِيم . وقد قال تعالىٰ فى قصة عاد : "إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ" كانت لامطر فيها .

الصـــــنف الثانى

(السَّحاب)

وهو الأجرام التى تَحْمِل المطرَ بين السماء والأرض يُنْشِـئُها الله سـبحانه وتعـالىٰ كما أخبر بقوله : "وَيُنْشِئُ السَّـحَابَ الثِّقَالَ" ويسوقهـا إلىٰ حيث يشاء كما ثبت فى الصحيح "أنّ رجلا سمِـع صوتا من سَحابة : ٱسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ" .

وذهب الحكماء إلىٰ أنه بُخَار متصاعد من الأرض مرتفع من الطبقة الحارّة إلىٰ الطبقة الباردة فيثقُل ويتكاثف وينعقِد فيصير سحابا . قال الثعالبىّ فى "فقه اللغة" : وأوّل ماينشأ يقال له النَّشْء ، فإذا ٱنسحب فى الهواء ، قيل له سَحاب ، فإذا تغيرت به السماء ، قيل له غَمَام ، فإن سُمِـع صوت رعده من بعيد قيل فيه عَقْر ، فإذا أظل ، قيل عارِضٌ .

وقد أخبر تعالىٰ عن قوم عاد بقوله : "فَلَمَّـا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا

هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا"؛ فإن كان بحيث إذا رُؤى ظُنَّ أنّ فيه مطرا، قيل له مُخَيِّلَةٌ؛ فإن كان السحاب أبيض، قيل له مُزْنٌ؛ فإذا هراق مافيه، قيل جَهَامٌ، وقيل الجَهَامُ هو الذى لامطَر فيه .

وقد أُولِع أهل النظم والنثر بوصفه وتشبيهه .

الصنف الثالث

(الرعد)

وهو صوت هائل يُسمَع من السحاب، وقد آختلف فى حقيقته فروى أنه صوت مَلَكٍ يزجُرُ به السحاب، وقيل غير ذلك؛ والنصيرية من الشِّيعة يزعمون أنه صوت أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه حيث زعموا أنّ مسكنه السحابُ؛ وذهبت الفلاسفة إلىٰ أنه دُخَان يتصاعد من الأرض و يرتفع حتّى يتصل بالسحاب و يدخُلَ فى تضاعيفه و يَبْرُدَ فيصيرَ ريحا فى وسط الغيم، فيتحرّك فيه بشدّة فيحصل منه صوت الرعد، و يقال منه رَعَدت السماء؛ فإذا زاد صوتها، قيل آرتجست؛ فإذا زاد، قيل أرْزَمَتْ ودَوَّتْ؛ فإذا آشتدّ، قيل قصَفَت وقعقَعَتْ؛ فإذا بلغ النهاية، قيل جَلْجلت وهَدْهَدتْ .

الصنف الرابع

(البرق)

وهو ضوء يُرىٰ من جوانب السحاب، وقد آختلف فيه أيضا فروى أنّ الرعدَ صوت مَلَكٍ يزجُرُ به السحابَ وأنّ البرق ضَحِكُه؛ والنصيرية من الشِّيعة يزعمون أنه ضَحِكُ أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه أيضا، والفلاسفة يقولون إنه دُخَان يرتفع

من الأرض حتّى يتصل بالسحاب كما تقدّم فى الرعد ، ثم تَقْوىٰ حركته فيشتعِل من حرارة الحركة الهواءُ والدخانُ فيصير نارا مضيئة وهو البرق؛ ويقال وَمَضَ البرق إذا لمع لَمَعَانا قويًّا ، وأومض إذا لمع لَمَعَانا خفيًّا؛ فإن أطمع فى المطر ثم ظهر أن لامطر فيه، قيل خُلَّبٌ .

الصـــــنف الخامس

(المطـــر)

وهو المـاء الذى يخلقه الله تعالىٰ فى السحاب ويسوقه إلىٰ حيث يشاء .

وقد ذهب الحكماء إلىٰ أنه بُخَـار يتصاعد (من الأرض أيضا فيه أو فى حرارة الشمس أو فيهما)[1] فيجتمع ، وربمـا أعانت الريحُ علىٰ جمعه بأن تسوق البعض إلىٰ البعض حتّى يتلاحق ؛ فإذا انتهىٰ إلىٰ الطبقة البـاردة تكاثف وصار ماء وتقاطر كالبخار الذى يتصاعد من القِدْرِ وينتهى إلىٰ غِطاء القـدر وعنـد أدنىٰ برودة ينعقد قَطَرات .

ثم للمطر زمان يكثر فيـه ، وزمان يَقِلُّ فيـه ؛ وقد رتب العرب ذلك علىٰ أنواء الكواكب التى هى منازل القمر، وجعلوا لكل منها نَوْءًا ينسب إليه . قال أبو حنيفةَ الدِّينَوَرِىُّ فى "كتاب الأنواء الكبير" : كانت العـرب تقول : لا بدّ لكل نَوْء كوكبٍ من أن يكون فيه مطر، أو ريح ، أو غيم ، أو حر، أو برد . ينسبون ما كان فيه من ذلك إليه ؛ وقد اختلف فى معنىٰ النَّوْءِ فذهب ذاهبون إلىٰ أن النَّوْءَ فى اللغة النُّهوضُ ؛ وذهب الفرّاء إلىٰ أنه السُّقوط والمَيَلان ؛ وذهب آخرون إلىٰ أنه يطلق علىٰ النهوض والسقوط جميعا ، علىٰ أنهم متفقون أن العرب كانت ترىٰ الأمر للسقوط

---

(١) كذا بالأصل . ولعل الصواب من الارض أيضا أو من حرارة الشمس أو منهما .

دون الطلوع، فمن ذهب إلىٰ أن المراد بالنَّوْءِ السقوطُ يجريه علىٰ بابه، ومن ذهب إلىٰ أن المراد بالنوء النهوضُ يقول: إنما سمى نوءًا لطلوع الكوكب لا لسقوط الساقط، ومنهم من يطلق النَّوْءَ علىٰ السقوط وإن كان موضوعه فى اللغة النهوض من باب التفاؤل كما يقال للديغ سَلِيم وللمَهْلَكَةِ مفازة، علىٰ أن بعضهم قد ذهب إلىٰ أن الكوكب ينوء بمعنى يَنْهَضُ ثم يسقط، فإذا سقط فقد مضىٰ نَوْءُهُ ودخل نوء الكوكب الذى بعده، قال أبو حنيفة الدِّينَوَرِىُّ: وهو التأويل المشهور الذى لا ينازع فيه لأن الكوكب إذا سقط النجم الذى بين يديه، أَطَلَّ هو علىٰ السُّقوط وكان أشبه حالا بحال الناهض. وقد عدّها أبو حنيفة ثمانيةً وعشرين نوءًا بعدد منازل القمر المتقدّمة الذكر، وذكر ان بعضها أجهرُ وأشهر من بعض.

الأوّل نوء الشَّرَطَيْنِ، وهو ثلاث ليال، وأثره محمود عندهم.

الثانى نوء البُطَيْنِ، وهو ثلاث ليال، وليس بمذكور عندهم ولا محمود. قال ٱبن الأعرابى: يقال إنه ماناء البُطَين والدَّبَرَان أو أحدهما فكان له نظر، إلا كاد ذلك العام يكون جَدْبا.

الثالث نوء الثريَّا، وهو خمس ليال وقيل سبع، وأثره محمود عندهم مشهور.

الرابع نوء الدَّبَرَان، وهو ثلاث ليال وقيل ليلة، وليس بمحمود عندهم، ولم يسمع فى أشعارهم له ذكر.

الخامس نوء الهَقْعَةِ، وهو ست ليال، ولا يذكرون نَوْءَهَا إلا بنوء الجوزاء التى الهقعةُ رأسها، والجوزاء مذكورة النوء مشهورة.

السادس نوء الهَنْعَةِ، وهو ثلاث ليال لايكاد ينفرد عن نَوْءِ الجوزاء.

السابع نوء الذِّراعِ المقبوضة، وهى خمس ليال، وقال ٱبن كناسة: ثلاث ليال،

وهو أوّل أنواء الأسد ، وأثره محمود عنـدهم موصوف؛ و ربمـا نسب إلىٰ المِرْزَمِ، وهو أحد كوكبي الذراع المذكورة، وربما نسب إلىٰ الشِّعْرىٰ الغُمَيْصَاءِ، وهو كوكبها الآخر الذى هو أنور من المِرْزَمِ ؛ وقد ذكر العرب مع الذراع المقبوضة الذراعَ المبسوطة فتجمعُهُمَا معا فى النوء، وهما لاينوآن معا بل ولا يطلعان معا،لكن لكثرة صحبة إحداهمـا للأخرىٰ فى الذكر وآجتماعهما فى آسم واحد مع تجاورهما وكونهما عُضْوَىْ صورة واحدة، وهى صورة الأسد .

الثامن نوء النَّثْرَةِ، وهو سبع ليال، وله عندهم ذكر مشهور .

التـاسع نوء الطَّرْفَةِ ، وهو ست ليال ، ولم يسمع به مفردا لغلبـة الجبهة الآتية الذكر عليه .

العاشر نوء الجبهة، وهو سبع ليال، وذكره مشهور لديهم .

الحادى عشر نوء الزُّبْرَةِ، ونوءها أربع ليال، وقلما تنفرد لغلبة الجبهة عليها أيضا.

الثـانى عشر نوء الصَّرْفَةِ ، وهو ثلاث ليـال ، ولا يكاد يوجد لهـا ذكر عندهم فى أشعارهم .

الثالث عشر نوء العوّاء، وهو ليلة واحدة، وليس من الانواء المشهورة .

الرابع عشر نوء السِّمَاكِ الأعزل، وهو أربع ليال، وله ذكر مشهور، وكثيرا مايذكر معه السِّماك الرامح ، وليس له نوء معه ولكنهما متقاربان فى الطلوع، وحينئذ فإفراد السِّماك الرامح بالنوء خطأ .

الخامس عشر نوء الغَفْر، وهو ثلاث ليال،وقيل ليلة ، وما بينه و بين نوء الهنعة المتقدمة الذكر من أنواء الأسد،وهى ثمانية أنواء أوّلها الذراع،وآخرها نوء السماك؛ وليس له فى السماء نظير فى كثرة الأنواء .

السادس عشر نوء الزُّبانَى، وهو ثلاث ليال .

السابع عشر نوء الإكليل، وهو أربع ليال .

الثامن عشر نوء القلب، وهو ليلة واحدة، وليس بمحمود .

التاسع عشر نوء الشَّوْلَةِ، وهو ثلاث ليال، وقلما يذكر.

العشرون نوء النعائم، وهو ليلة واحدة، وليس له ذكر .

الحادى والعشرون نوء البَلْدَةِ، وهو ثلاث ليال، وقيل ليلة .

الثانى والعشرون نوء سعدِ الذابِح، وهو ليلة واحدة .

الثالث والعشرون نوء سعدِ بُلَعَ، وهو ليلة واحدة .

الرابع والعشرون نوء سعد السعود، وهو ليلة، وليس بمحمود، ولا مذكور .

الخامس والعشرون نوء سعدِ الأخبية، وهو ليلة واحدة .

السادس والعشرون نوء الفَرْغ المقدّم، وهو أربع ليال، وله ذكر مشهور .

السابع والعشرون نوء الفرغ المؤخر، وهو أربع ليال، وله ذكر أيضا .

الثامن والعشرون نوء الحُوت ، وهو ليلة واحدة، وليس بالمذكور من حيث إنه يغلب عليه ما قبله وما بعده فلا يذكر . قال أبو حنيفة الدِّينَوَرِىُّ : والأيام فى هذه الأنواء تابعة لليالى لتقدّم الليل عليها، قال : وإنما جعلوا لهذه النجوم أنواءً موقوتة وإن لم تكن جميع فصول السنة مَظِنَّةَ الأمطار لأنه ليس منها وقت إلا وقد يكون فيه مَطَر، وقال ٱبن قُتَيْبَةَ : أوّل المَطَر الوَسْمِىُّ سمى بذلك لانه يَسِمُ الأرض بالنبات، ثم الربيع، ثم الصيف، ثم الحميم . قال الثعالبي عن أبى عمرو : إقبال الشتاء الخريف ، ثم الوَسْمِىُّ، ثم الربيع، ثم الصيف، ثم الحميم[1] .

---

(١) فى فقه اللغة الصميم .

الصـــــنف السادس

(الثـــلج)

وهو شيء ينزل من الهواء كالقطن المندوف فيقع علىٰ الجبال وعلىٰ سطح الأرض فتُذِيب الشمسُ منــه مالاقته شدّةُ حرارتها، ويبقى فى أماكنَ مخصوصــةٍ من أعالى الجبال بالأمكنة الباردة جميعَ السنة؛ وقد ذكر الحكماء أنه بُخَار يتصاعد من الأرض إلىٰ الهواء كما يتصاعد المطر فيصيبه برد شديد قبل أن ينعقد قطرات فيتساقط أجزاء لطيفة، ثم ينعقد بالأرض إذا نزل إليها؛ ويوصف بشــدّة البرد وشــدّة البياض؛ وسيأتى الكلام علىٰ ماينقل منه من الشام إلىٰ ملوك الديار المصرية فى خاتمة الكتاب إن شاء الله تعالىٰ.

الصـــــنف السابع

(البَرَد بفتح الراء)

وهو حب يســقط من الجوّ؛ وقد ذكر الحكماء أنه بخــار يتصاعد من الأرض أيضا ويرتفع فى الهواء فلا تدركه البرودة حتّى يجتمع قطرات، ثم تدركه حرارة من الجوانب فتنهزم برودتها إلىٰ مواطنها فتنعقد؛ وحب هذا البَرَد متفاوت المقــادير منه ماهو قدر الحِمَّص فمــا دونه، ومنه ماهو فوق ذلك؛ ويذكر أنه يقع منه ماهو بقدر بيض الحمــام والدَّجاج. قال الحكماء: ولا يتصوّر وقوعه إلا فى الخريف والربيع ويوصف بمــا يوصف به الثلج من شدّة البرد وشــدّة البياض، ويُشَبَّهُ به أسنانُ الإنسان الناصعة البياض.

الصــــنف الثــامن
(قوس قُزَح)

وهو قوس يظهر فى الجوّ من حُمرة وخضرَة ، وقد ورد النهى عن تسميته قوسَ قُزَحَ، وتسميتُه قوسُ الله لأن قزح اسم للشيطان . قال الحكماء : والسبب فيه أن الهواء إذا صار رطبا بالمطر مع أدنى صـقالة صار كالمرآة، والمحاذى له إذا كان الشمس فى قفاه يَرىٰ الشمس فى الهواء كما يرىٰ الشمس فى المـرآة ، ويشتبك ذلك الضوء بالبخار الرطب فيتولد منه هذا القوس .

قال الحكماء : ويكون له ثلاثة ألوان يعنون حُمْـرَةً بين خضرتين أو خضرةً بين حمرتين، وربما لا يكون اللون المتوسط، ويكون مرتفعا ٱرتفاعا قريبا من الأرض، فإن كان قبل الزوال، رُؤى ذلك القوس فى المغرب، وإن كان بعد الزوال، رؤى فى المشرق، وإن كانت الشمس فى وسط السماء، فلا يمكن أن يرىٰ إلا قوسا صغيرا فى الشتاء إن اتفق .

وفيه تشبيهات للشعراء يأتى ذكرها فى آخر المقالة العاشرة إن شاء الله تعالىٰ .

الصــــنف التــاسع
(الهَـالَة)

وهى الدائرة التى تكون حول القمر . قال الحكماء : والسبب فيها أن الهواء المتوسط بين البَصر وبين القمر صقيل رَطْبٌ ، فيُرىٰ القمر فى جزء منه، وهو الجزء الذى لو كان فيــه مرآة لرؤى القمر فيها ، ثم الشئ الذى يُرىٰ فى مرآة من موضع لو كانت فيــه مَرَاءٍ كثيرةٌ محيطة بالبصر، وكانت موضوعةً علىٰ تلك النســبة فيُرىٰ

الشيء فى كل واحدة من المَرائى ، فإذا تواصلت المرائى رؤى فى الكل ، فتُرىٰ حينئذ دائرة .

ولأهل النظم والنثر فيها وصف وتشبيه .

الصـــنف العـاشر
(الحَـــرُّ)

وسُلْطانه أواخِرَ فصـل الربيع وأوائلَ فصل الصـيف ، والسبب فيه مسامتة الشمس للرءُوس، فتشتدّ ثائرةً فى الهواء وجِرْمِ الأرض، لاسيما الحجازَ وما فى معناه.

وأهل النظم، والنثر مُولَعون بوصف شدّة حرّه .

الصنف الحـادى عشر
(الـــبَرْدُ)

وسلطانه أواخِرَ فصل الخريف وأوائل فصل الشتاء .

وأهل النظم والنثر مُكْثِرون من ذكره ووصفه، حتّى إنه ربمـا أفرد بعضُ الناس ماقيل فيه وفى وصفه بالتصنيف .

الصنف الثـانى عشر
(الهَبَـاءُ)

وهو الذى يحصل من ضوء الشمس عند مقابلتها كَوَّةً يدخل منها الضوء، فيكون شبه عمود ممتدّ من الكَوَّةِ إلىٰ حيث يقع ضوء الشمس من الأرض ، وفيـه أجزاء لطيفـة متفاوتة تُحَسُّ بالنظر دون اللمس ؛ وقد شـبه الله تعالىٰ به أعمـال الكُفَّار

فى القيامة فقال جل من قائل : "وقَدِمْنَا إلىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً" ومن النـاس من يزعم أن الواحدةَ من أجزائه هى المراد بالذَّرَّةِ المذكورة فى القرءان بقوله تعـالىٰ : "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ" ولأهل النظم والنثر أيضا فيه الوصف والتشبيه .

النوع العـاشر

(ممـا يحتاج الكاتب إلىٰ وصفه الأجسام الأرضية ، وهى علىٰ أصناف)

الصـــنف الأوّل

(الجبـال ، والأودية ، والقِفَار)

فأما الجِبَال فهى أوتاد الأرض ، أرسىٰ الله تعالىٰ بها الأرض حيث مادَتْ لَمَّـا دحاها الله تعالىٰ علىٰ المـاء . وقد روى أن الكعبة كانت رابيةً حمراء طافيةً علىٰ وجه المـاء قبل أن يدحو الله الأرض ، وأن الأرض منها دُحِيتْ ، فلما مادتْ وأُرْسيت بالجبال ، كان أوّلُ جبل أُرْسِيَ منها جبل أبى قُبَيْسٍ بمكة المشَرَّفةِ فلذلك هو أقرب الجبال من الكعبة مكانا . وقد نقل أن قاف جبـلٌ محيط بالدنيا عنه تتفرّع جميع جبال الأرض ، والله أعلم بحقيقة ذلك . وتوصـف الجبال بالعَظَمَةِ فى القَدْر والعُلُوّ وصعوبة المَسْلك ، وما يجرى مجرىٰ ذلك .

وأما الأودية ، فهى وِهَاد فى خلال الجبال جعلها الله تعالىٰ مجارى للسيل ونباتِ الزرع ومدارج الطُّرق وغير ذلك . وتوصف بالاتساع وبُعْد المسافة والعُمْقِ ، وربما وصفت بخلاف ذلك .

وأما القفار، فهى البرارى المتسعةُ الأرجاء الخاليةُ من الساكن . وتوصف بالسَّعةِ وبُعْد المسافة وقلةِ المـاء والإيحاش وصعوبة المَسْلَك، وما يجرى مجرىٰ ذلك .

الصـــنف الثـانى
(الميـاه الأرضـــية ؛ وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل ـــ المـاء الملح

ووقع فى لغــة الإمام الشــافعى رضى الله عنه المـاء المـالح ؛ وهو أحد العناصر الأربعة ، وسـيأتى فى الكلام علىٰ الأرض فى المقالة الثانية أنه محيط بالأرض من جميع جهاتها إلا ما ٱقتضـته الحكمة الإلهية لعمارة الدنيا من كشف بعض ظاهرها الأعلىٰ ، وأنه تفرّعت منه بحار منبثَّة فى جهات الأرض لتجرىَ السفنُ فيها بما ينفع الناس ؛ وقد ذكر الحكماء أنّ فى المـاء الملح كَثَافةً لا توجد فى المـاء العَذْب ، ومن أجل ذلك لاترسب فيه الأشياء الثقيلة كما ترسب فى المـاء العذب، حتّى يقال : إن السفن التى تَغْرَقُ فى البحر المِلْح لا تبلُغ أرضَه بخلاف التى تَغْرَقُ فى الأنهار فإنها تنزل إلىٰ قعرها . وشاهد ذلك أنك إذا طرحتَ فى المـاء العذب بيضــةَ دَجاجة ونحوها غَرِقت فيـــه ، فإذا أذبتَ فى ذلك المـاء مِلْحا بحيثُ يغلب علىٰ المـاء وطرحت فيه البيضة ، عامت ؛ وقد ٱختلف فى المـاء المِلْح هل هو كذلك من أصــل الخلقة أو عرضت له الملوحة بسبب مالاقاه من سَبَخ الأرض علىٰ مذهبين ؛ ومن خصائص البحر الملح أنه فى غاية الصَّــفاء حتّى إنه يُرىٰ ما فى قعزه علىٰ القرب من شَــطِّه . ويوصف البحرُ بالسَّعة والطول والعرض وكثرة العجائب حتّى يقال فى المثل "حَدِّثْ عَنِ الْبَحْرِ وَلَا حَرَجَ" .

الضرب الثانى ــ المـاء العذب

قالت الحكماء والسبب فيه أن الأبخرة تتصاعد من قعر الأرض فتدخل فى الجبال وتحتبس فيها ، ولا تزال تتكامل و يتحصل منها مياه عظيمة فتنبعث لكثرتها .

وهو على ثلاثة أنمـاط :

النَّمَط الأوّل ــ ماء الأنهار ، وهى ما بين صغار وكبار وقريبة المَدَى و بعيدته ، وقد وردت الأخبار بأن أفضلها خمسة أنهار، وهى سَيْحون، وجَيْحون، والدِّجلة، والفُرات ، ونِيل مِصْر، والنيل أفضل الخمسة وأعذبها وأخفُّها ماء على ما سيأتى ذكره فى المقالة الثانية إن شاء الله تعالى، وفى الأنهار الكبار تسير السفن .

النمط الثـانى ــ العيون : وهى مياه تَنْبُعُ من الأرض وتعلو إلى سطح الأرض ثم تسرح فى قُنِيٍّ قد حُفِرت لهـا ، وهى منبثة فى كثير من الأقطار .

النمط الثالث ــ البِئَار : وهى حفائرُ تحفر حتّى ينبُع المـاء من أسـفلها و يرتفع فيها ٱرتفاعا لا يبلغ أعلاها ، وقد ٱختلف فى المـاء الذى نبع من الأرض هـل هو الذى نزل من السماء أو غيره ، فذهب ذاهبون إلى أنه هو الذى نزل من السماء محتجـين لذلك بقوله تعـالى : "وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَـدَرٍ" الآية ، وذهب آخرون إلى أن الذى نبع من الأرض غير الذى نزل من السماء محتجين بقوله تعالى : "فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا". و يوصف الماء للاستحسان بالعذوبة ، والصـفاء ، والرقة ، والخِفَّة ، وشدّة البرد، وفى معناه الشَّبَمُ . ويشَـبَّه فى شدّة البرد بالزُّلَالِ : وهو ما يتربّى داخل الثَّلْج فى تجاويف توجد فيـه فيكون من أشدّ المـاء بَرْدا .

الصـــنف الثالث

(النبات ، وفيه ثلاثة مقاصدَ)

المقصد الأوّل ـــ فى أصل النبات

قد ذكر المسعودى فى مروج الذهب : أن آدم عليه السلام لما هبط إلىٰ الأرض ، خرج من الجنة ، ومعه ثلاثون قَضِيبا مودعةً أصناف الثمر ، منها عشرة لها قِشْر : وهى الجَوْز ، واللَّوْز ، والجِلَّوْز ، والفُسْتُق ، والبَلُّوط ، والشاه بَلُّوط ، والصَّـنَوْبر ، والنَّارَنْج ، والرُّمَّان ، والخَشْخَاش . ومنها عشرة لثمرها نَوًى : وهى الزَّيْتون ، والرُّطَب ، والمِشْمِش ، والخَوْخ ، والإجَّاص ، والغُبَيراء ، والنَّبق ، والعُنَّابَ ، والمُخَيَّطىٰ(١) ، والزُّعْرور . ومنها عشرة ليس لها قِشْر ولا نَوًى : وهى التُّفَّاح ، والسَّفَرْجل ، والكُمَّثْرىٰ ، والعِنَب ، والتِّين ، والأُتْرُجّ ، والخُرْنُوب ، والتُّوت ، والقِثَّاء ، والبِطِّيخ .

المقصـــد الثـانى

(فيما تختص به أرض دونَ أرض من أنواع النبات)

اعلم أن النبات منه ما يوجَد فى كثير من الآفاق ، ومنه مايختَصُّ ببعض الأماكن دُونَ بعض ، وقد حكى أبو بكر بن وحشِيَّة فى كتاب الفِلاحة النبطيَّة : أن ببلاد سِجِلْماسة من جَنوبىّ بلاد المغرب الأقصىٰ شجرةً ترتفع نصف قامة أو أرجح ، ورقُها كورق الغار ، إذا عُمِل منها إكليل ولبسه الرجلُ علىٰ رأسه ومشىٰ أو عدا أو عَمِل عملًا ، لم ينَمْ مادام ذلك الإكليل علىٰ رأسه ، ولا ينالُه من ضرر السَّهر وضَعْف القوَّة ما ينالُ من سَهر وعَمل . وفى بلاد إفْرِنجة شجرة إذا قعد الإنسان تحتها نصفَ ساعة مات ، وإن مسَّها ماسٌّ أو قطع منها غصنا أو ورقة أو هَزَّها مات .

---

(١) كذا فى المفردات لابن البيطار أيضا ولكن فى القاموس (وكثمامة وجميز) فلعل فيه لغة ثالثة .

قلت ومما يختصّ بأرض دونَ أرض البَلَسانُ : وهو شجرة لطيفة على نحو ذراع تتفرّع فروعا، لا تنبُت فى سائر الدنيا إلا فى الديار المِصْرية بموضع مخصوص من بَلْدة يقال لها المَطَرية، على القُرْب من مدينة عَيْن شمس، وتسقى من بئر هناك؛ ويقال إنه اغتسل فيها المسيحُ عليه السلام ولذلك النصارى يعظمون البَلَسانَ ويتبرّكون به.

المقصد الثالث

(فى ذكر أصناف النبات التى أُولِع الكُتَّاب والشعراءُ بوصفها وتشبيهها : وهى على أضرب)

الضرب الأوّل ــ ماله ساقٌ

وهو الشجَر، وأكثر ما أُولِع أهلُ النظم والنثر بثمارها أو نَوْرها، فى الوصف والتشبيه نثرا ونظما : كاللَّوْز، والفُسْتُق، والجِلَّوز : وهو البُنْدق، والشاه بَلُّوط : وهو القَصْطَل، والصَّنَوْبر، والرُّمَّان، والجُلَّنار، والإجَّاص، والقَراصيا، والزُّعْرور، والخَوْخ، والمِشْمِش، والعُنَّاب، والنَّبِق، والعِنَب، والتِّينُ، والتُّوت، والتُّفَّاح، والسَّفَرْجَل، والكُمَّثْرى، واللُّفَّاح، والخَرُّوب، والأُتْرُجّ، والنارَنْج، واللَّيمُون، والطَّلْع، والبَلَح، والبُسْر، والتمر، والرَّانَج : وهو جوز الهند، والتُّجَّار يسمُّونه النارَجيل. وربما وقع الوصف والتشبيه لبعض أصول الشجر : كالنخل والكرم وغيرهما.

الضرب الثانى ــ ماليس له ساق

وقد أُولِعوا بالوصف والتشبيه منه؛ فمن ذلك الزرع : من البُرّ والشعير ونحوهما، ويتبَعُ ذلك نَوْر الباقِلاء، وكذلك الخَشْخاش، والكَتَّان، والبِطِّيخ الهندىّ : وهو الأخضر، والخُراسانىّ : وهو العَبْدلىّ، نسبة إلى عبد الله بن طاهر، فإنه أوّل من نقله

من خُراسان إلىٰ مصرَ، والبِطّيخ الصينىّ : وهو الأصفر، والرسنيتو : وهو المعروف باللُّفَّاح، والقِثَّاء، والخِيار، والباذنجان، والسَّلْجم : وهو اللِّفْت، والجَزَر، والثُّوم، والبَصَل، والكُرَّاث، والرِّيباس، والهِلْيَوْن، والنَّعْناع، وغير ذلك .

الضرب الثالث — الفواكه المشمومة

والذى أُولِـع بوصفه وتشبيهه منـه الوردُ علىٰ آختلاف ألوانه : مِن أحمرَ، وأبيضَ، وأصفَرَ ، وأزرقَ، وأسودَ، والنِّسْرِينُ ، والبانُ، والخِلَاف ، والنَّيْلُوفَر ، والبَنَفْسَج ، والنَّرْجِس ، والياسَمِين ، والآس ، والزَّعْفَران ، والرَّيحان .

الضرب الرابع — الأزهار

والذى وقع الوَلُوع بوصفه وتشبيهه من ذلك الخِـيرِىُّ : وهو المنثور : من أصفرَ أو أزرق، والسَّوْسَن ، والآذَريون : وهو ورد أصفر له ريح، والخَزَم : وهو الخُزامىٰ ، والشَّقِيق (١) . ويسمّى الشقَاق ، ويقال له شَقائقُ النُّعمان : لأن النُّعمان بن المنـذر حمىٰ ظهر الكوفة وبه هذا النبات فعُرِف به ، والبَهَار : وهو نَوْر أحمر ، والأُقْحُوان ، وغير ذلك .

الضرب الخامس — الرياض

وهى الأماكن المشـتملة علىٰ الأشجار ، والأزهار ، والمياه الجارية ونحو ذلك . وقد آتفق جوّابُو الأرض علىٰ أن منتزهات الأرض أربعـةُ مواضعَ : وهى سُـغْد سَمَرْقَندَ، وشِعْب بَوّانَ، ونهر الأُبُلَّة، وغُوطة دِمَشْقَ .

وقد أكثر الشعراء فى وصف الرياض ووَلِـع الكُتَّاب بمثل ذلك .

---

(١) لعله والشقيقة ففى اللسان أن الشقائق لاواحد له أو واحدته شقيقة وعلل لذلك فانظره .

الطرف الثالث من الباب الأوّل من المقالة الأولىٰ

(فى صنعة الكلام، ومعرفة كيفية إنشائه، ونظمه، وتأليفه : وفيه مقصدان)

المقصـــد الأوّل

(فى الأصول التى يبنىٰ الكلام عليها : وهى سبعة أصول)

الأصـــل الأوّل

(المعرفة بالمعانى . والنظر فيه من وجهين)

الوجه الأوّل

(فى شرف المعانى ، وفضلها)

اعلم أن المَعانِىَ من الألفاظ بمنزلة الأبدان من الثِّياب . فالألفاظ تابعة، والمعانى متبوعة؛ وطلب تحسين الألفاظ إنما هو لتحسين المعانى؛ بل المعانى أرواح الألفاظ وغايتهـا الّتى لأجلها وُضِـعت ، وعليها بُنِيتْ؛ فاحتياج صاحب البلاغة إلىٰ إصابة المعنىٰ أشـدّ من آحتياجه إلىٰ تحسـين اللفظ : لأنه إذا كان المعنىٰ صوابا واللفظ منحطًّا ساقطا عن أُسْـلُوب الفَصاحة ، كان الكلام كالإنسان المشوّه الصورةِ مع وجود الرُّوح فيـه ، وإذا كان المعنىٰ خطأ كان الكلام بمنزلة الإنسان الميِّت الذى لارُوحَ فيه، ولو كان علىٰ أحسن الصُّور وأجملها .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر" : وممـا رأيته من المدّعين لهذا الفنّ الذين حَصَلوا منه علىٰ القُشُور ، وقَصروا معرفتهم علىٰ الألفاظ المسجوعة الغَثَّةِ ، التى لا حاصلَ وراءها، أنهم إذا أُنْكِرتْ هذه الحالةُ عليهم ؛ وقيـل لهم إن

الكلام المسجوعَ ليس عبـارةً عن تواطُؤ الفِقَر علىٰ حرف واحد فقط ، إذ لو كان عبارة عن هذا وحده لأمكن أكثرَ الناس أن يأتُوا به من غير كُلْفة ، وإنمـا هو أمر وراء هذا ، وله شروط متعدّدة ؛ فإذا سمعوا ذلك أنكروه لخلوّهم عن معرفته ؛ وإذا أُنْكِر عليهـم الاقتصارُ علىٰ الألفاظ المسـجوعة ، وهُدُوا إلىٰ طريق المعانى ، يقولون : لنا أُسْوة بالعرب الذين هم أربابُ الفصاحة ؛ فإنهم إنما اعتَنَوْا بالألفاظ ، ولم يعتَنُوا بالمعانى اعتناءهـم بالألفاظ . فلم يكفِهم جهلُهم فيما ارتكبوه حتّٰى ادّعَوُا الأُسْوة بالعرب فيـه فصارت جهالتُهم جَهَالتين . قال : ولم يعلموا أن العرب ، وإن كانت تعتنىٰ بالألفاظ فتُصْلِحها وتهذّبهـا فإن المعانى أقوىٰ عنـدها ، وأكرم عليها ، وأشرف قَدْرا فى نُفُوسها . ولمـا كانت الألفاظ عُنوانَ المعانى وطريقَها إلىٰ إظهار أغراضها أصلَحُوها ، وزيَّنُوها وبالغوا فى تحسينها : ليكون ذلك أوقع لهـا فى النفس ، وأذهب بها فى الدِّلالة علىٰ القصد . ألا ترىٰ أن الكلام إذا كان مسجوعا لَذَّ لسامعـه فحفِظه ، وإذا لم يكن مسجوعا لم يأْنَسْ به أُنْسَه فى حالة السجع ؛ فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحَسَّـنُوها ورقَّقُوا حواشِيَها وصقَلُوا أطرافها ، فلا تظُنَّ أن العناية إذ ذاك إنمـا هى بالألفاظ فقط ؛ بل هى خدمة منهـم للمعانى ، فصار ذلك كإبراز صورة الحَسْناء فى الحُلَل الموَشّاة والأثواب المحبَّرة ؛ فإنا قد نجد من المعانى الفاخرة ما شوّه من حسـنه بَذَاذة لفظه وسوءُ العبارة عنه .

قال أبو هلال العسكرى رحمه الله : ومَنْ عرف ترتيب المعانى واستعمل الألفاظ علىٰ وجوهها بلُغة من اللُّغات ثم انتقل إلىٰ لغة أخرىٰ ، تهيأ له فيها من صَنْعة الكلام ماتهيأ له فى الأُولىٰ . ألا ترىٰ أن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلةَ الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسىّ ، وحوّلها إلىٰ اللسان العربىّ . فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من تَكَمَّل لإصابة المعنىٰ وتصحيح اللفظ والمعرفة بوجوه الاستعمال .

قال فى "المثل السائر" : وآعلم أن المعانى الخَطَابية قد حُصِرت أصولُها، وأوّل من تكلم فى ذلك حكماء اليونان ؛ غير أن الحصر كلىّ لا جزئىّ ، ومُحَال أن تُحصَر جزئيات المعانى وما يتفرّع عليها من التفريعات التى لا نهايةَ لها، لا جَرَمَ أن ذلك الحصر لا يستفيد بمعرفته صاحبُ هذا العلم ، ولا يفتقر إليه ؛ فإن البدوىّ البادىَ راعِىَ الإبل ما كان يمرّ شئ من ذلك بفهمه، ولا يخطُِر بباله ، ومع هذا ؛ فإنه كان يأتى بالسِّحر الحلال إن قال شعرا أو تكلم نثرا . قال : ولقد فاوَضَنى بعضُ المتفلسفين فى هذا ، وآنساق الكلام إلىٰ شىء ذكره لأبى علىّ بن سينا فى الخَطَابة والشِّعر، وذكر ضَرْبا من ضُروب الشعر اليونانىّ يقال له اللوغاذيا ، وقام فأحضر كتاب الشفاء لأبى علىّ ووقفنى علىٰ ماذكره، فلما وقفت عليه آستجهلته؛ فإنه طوّل فيه وعَرَّض كأنه يخاطب بعض اليونان وكل هذا الذى ذكره لغو ، لا يستفيد به صاحب الكلام العربىّ شيئا، ثم مع هذا جميعه فإن معوَّل القوم فيما يذكر من الكلام الخَطَابىّ أنه يُورَد علىٰ مقدّمتين ونتيجة، وهذا مما لم يخطُِر لأبى علىّ بن سينا ببال فيما صاغه من شعر أو كلام مسجوع عمله ، وعند إفاضته فى صَوْغ ماصاغه لم تخطُِر المقدّمتان والنتيجة له ببال ، ولو أنه فكَّر أوّلا فى المقدّمتين والنتيجة ، ثم أتىٰ بنظم أو نثر بعد ذلك، لما أتىٰ بشىء يُنْتَفَع به، ولطال الخَطْب عليه. قال : بل إن اليونان أنفسَهم لما نظموا مانظموه من أشعارهم، لم ينظموه فى وقت نظمه وعندهم فكرة فى مقدّمتين ولانتيجة، وإنما هذه أوضاع توضَع وتطول بها مصنَّفات كتبهم فى الخَطَابة والشعر، وهى كما يقال :

قَعاقِعٌ لَيْس لها طائِلٌ * كأنَّها شِعْر الأبِيوَرْدِى

الوجه الثـانى

(فى تحقيق المعانى، ومعرفة صوابها من خَطَئِها، وحُسْنها من قبحها .
وقد قسم صاحب الصناعتين المعانى علىٰ خمسة أصناف)

الصـــــنف الأوّل

(ما كان من المعانى مستقيما حسنا : كقولك رأيت زيدا ،
وهو أعلىٰ الأنواع الخمسة وأشرفها)

قال فى الصناعتين : والمعنىٰ الصحيح الثابت ينادِى علىٰ نفسه بالصحة، ولا يحوج إلىٰ التكلُّف لصحته حتّٰى يوجد المعنىٰ فيه خطيبا .

فأما المعنىٰ المستقيم الجَزْل من النظم، فمن الوعظ قول النَّمِرِ بن تَوْلَب يذم طول الحيـاة :

يَوَدُّ الفَتىٰ طُولَ السَّـلامَةِ والغِنىٰ * فكيف تَرىٰ طُولَ السلامة يَفْعَلُ ؟
يَكادُ الفَتىٰ بَعْدَ ٱعتِـدالٍ وصِحَّةٍ * يَنُوء إذا رام القِيـامَ ويُحْمَـلُ

وقول أبى العَتاهِيَة فى الوعظ بزوال العز والنعمة بالموت :

وكانتْ فى حَياتِكَ لِى عِظَاتٌ * وأنتَ اليومَ أوْعَظُ منك حَيًّا !

وفى وصف الأيام قول أبى تمَّـام :

علىٰ أنها الأيَّامُ قد صِرْنَ كُلُّها * عجائِبَ حتّٰى ليس فيها عجائِبُ

ومن المدح قول أمية بنِ أبى الصَّلْت :

عَطَاؤكَ زَيْنٌ لآمرئ إنْ حَبَوْتَه * بسَيْبٍ وما كُلُّ العَطَـاءِ يَزِينُ
وليس بشَيْنٍ لآمْرِئٍ بَذْلُ وَجْهِه * إليـكَ كما بعضُ السُّؤال يَشِينُ

وقول أبى تمـام :

يَسْتَعْذِبُونَ مَنَايَاهُمْ كأنَّهُمُ * لايَيْئَسُون من الدُّنْيا إذا قُتِلوا

وقول الاخر :

هُمُ الأُولىٰ وهَبُوا للمَجْدِ أنْفُسَهُم * فما يُبالُون مانالُوا إذا حُمِدُوا

ومن الفخر قول مَعْن بن أوس :

لعَمْرُك ما أهْدَيتُ كفِّى لرِيبةٍ * ولا حَمَلَتْنِى نحوَ فاحِشةٍ رِجْلِى !

ولا قادَنِى سَمْعِى ولا بَصَرِى لها * ولا دَلَّنِى رأْيِى علَيْها ولا عَقْلِى !

وأعْلَمُ أنِّى لم تُصِبْنِى مُصيبةٌ * من الدَّهْرِ إلا قدأصابَتْفتًىقبْلِى !

ولَسْتُ بماشٍ ماحَيِيتُ لُمنْكَرٍ * من الأمرِ لايَمْشِى إلىٰ مِثْله مِثْلِى !

ولا مُؤْثِرٍ نَفْسِى علىٰ ذِى قَرابةٍ * وأُوثِرُ ضَيْفِى ما أقام، علىٰ أهْلِى !

وقول الآخر :

ولَسْتُ بنَظَّارٍ إلىٰ جانِبِ الغِنى * إذا كانَتِ العَلْياءُ فى جانِبِ الفَقْرِ

وقول الشنفرىٰ :

أُطِيلُ مِطَالَ الجُوعِ حتَّى أُمِيتَه * وأَضْرِبُ عنه القَلْبَ صَفْحا فيَذْهَلُ

ولولا آجتِنابُ العارِلم يُلْفَ مَشْرَبٌ * يُعاشُ بِهِ إلا لَدَىَّ ومَأْكَلُ

ومن الغزل قول جرير :

إنَ العُيونَ التى فى طَرْفِها حَوَرٌ * قتَلْنَنا ثم لَمْ يُحيِينَ قتْلانَا

يَصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حتّىلاحَرَاكَ بِهِ * وهُنَّ أضْعفُ خَلْقِ اللهِ أرْكانَا

وقول النظام :

تَوَهَّمَه طَرْفِى فآلَمَ خَدَّه * فصار مَكانَ الوهْمِ من نَظَرِى أَثْرُ

وصافَحَــهُ قلبِي فلَمَّا لمَسْتُه * فَمِنْ صَفْحِ قلبِي فى أناملِه حَفرُ
ومَرّ بفِكْرِى خاطِرًا بجَرَحْتُه * ولم أرَ خَلْقًا قَطُّ يَجْرحُه الفِكْر

ومن التشبيب قول القائل :

ومِنْ عَجَبٍ أنِّى أَحِنُّ إليهمُ * وأسألُ عَنْهُمْ مَنْ أرىٰ وهُمُ معِى
وتَطْلُبهم عَيْنِى وهُمْ فى سَوادِها * ويَشْتاقُهُمْ قلبِى وهُم بينَ أضْلُعِى

وقول الآخر :

إن لم أزُرْ رَبْعَكُمْ سَعْيا علىٰ حَدَقِى * فإنَّ وُدِّى مَنْسوبٌ إلىٰ المَلَق
تَبَّتْ يَدِى إن تَنَنْي عن زِيارتِكُمْ * بِيضُ الصِّفَاح ولوسُدَّتْ بها طُرُقِى

ومن الحكمة قول المتنبي :

والظُّلم من شِيَم النُّفُوس فإن تَجِدْ * ذا عِفَّــةٍ فلِعِــلَّةٍ لايَظْــلِمُ

وقول الآخر :

إذا أنت لم تَشْرَبْ مِرَارا علىٰ القَذىٰ * ظَمِئْتَ وأىُّ الناس تَصْفُو مَشَارِبُهْ؟

وقول الآخر :

ولَسْتَ بمسْتَبْقٍ أخًا لاتَلُمُّــه * علىٰ شَعَثٍ أىُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ؟

ومن الهجو قول الطرمّاح فى تميم :

تَميمٌ بِطُرْق اللُّؤم أهدىٰ من القَطا * ولو سلَكَتْ سُبْلَ المَكارِمِ ضَلَّتِ

وقول الآخر :

لَوِ اطَّلَعَ الغُرابُ علىٰ تميمٍ * وما فيها من السَّوْءاتِ شابَا

إلىٰ غير ذلك من معانى الشعر الحسنة البهيجة الرائقة .

ومما ينخرط فى هذا السلك من النثر مايُحْكىٰ أن أعرابيا وقف علىٰ عبد الملك بن مَرْوان برملة اللِّوىٰ فقال : رحم الله امرأً لم تمجّ أذُناه كلامى ، وقدَّم معَاذه من سوء مُقامِى ، فإن البلاد مُجْدِبه ، والحال مُسْغِبه ؛ والحياء زاجر ، يمنع من كلامكم ، والفقر عاذِر ، يدعو إلىٰ إخباركم ؛ والدعاء إحدىٰ الصـدَقتين ، فرحم الله امرأ أمر بمَيْر ، أو دعا بخَيْر .

ومعانى القاضى الفاضل هى التى ترقُص لهـا القلوب ، وتطرَبُ لهـا الألباب ، ويهجُم قَبولُهـا علىٰ النفوس من غير حاجب ولا بَوَّاب . فمن ذلك قوله :

"يابنى أيُّوبَ لو ملكتُم الدهرَ لامتطيتُمْ ليالِيَه أداهِم ، وقلَّدتم أيامه صَوَارِم ، وأفنيتم شموسه وأقمـاره فى الهِبـاتِ دنانيرَ ودَراهِم ، وأيَّامُكم أعراس وما ثَمَّ فيها علىٰ الأموال مآتِم ، والجُود فى أيديكم خاتَم ، ونفس حاتِم فى نقش ذلك الخاتَم" .

فهذا هو السِّـحر الحلال ، والمعانى التى تخضع لهـا شُمُّ الجبال ، ولا يقال فيـه قيل ولا قال .

الصـنف الثانى

(ما كان مستقيما قبيحا كقولك قد زيدا رأيت)

قال فى "الصناعتين" وإنمـا قَبُح لأنك أفسدت نظام اللفظ بالتقديم والتأخير . وهذا النوع يسميه علمـاء المعانى التعقيد . وسمـاه ابن الاثير فى "المثل السائر" المُعاظَلة المعنوية ، وهو تقديم ما الأَوْلىٰ به التأخير : كتقديم الصفة أو مايتعلّق بها علىٰ الموصوف ، وتقديم الصِّلة علىٰ الموصول ونحو ذلك ؛ وهو من المذموم المرفوض عند أهل الصنعة : لأن المعنىٰ يختلُّ به ويَضْطرب . قال فى "المثل السائر" وهو ضدّ

الفصاحة : لأن الفَصَاحة هى الظُّهور والبيان ، وهذا عارٍ عن هذا الوصف . فمن ذلك قول بعضهم :

فأصبَحَتْ بَعْدَ خَطَّ بَهْجتِها * كأن قَفْرارُ سُـومَهَا قلمـا

يريد فأصبحت بعدَ بهجتِها قَفْرا كأنَّ قلمًا خط رسومَها فقدَّم خبر كأنّ، وهو خَطَّ عليها فجاء مختلا مضطربا ؛ وأقبح منه وأكثر ٱختلالا قول الفرزدق :

إلىٰ مَلِكٍ ماأمُّه من مُحارِبٍ * أبُوه، ولا كانَتْ كُلَيْبٌ تُصاهِره

يريد إلىٰ ملك أبوه ماأمُّه من محارب ، والمعنىٰ ماأم أبيــه من محارب ؛ يمدحه بذلك ذمًّا لمحارب . وكذلك قوله، يمدح خال هشام بن عبد الملك :

وما مِثْلُه فى الناسِ إلا مملَّكا * أبو أُمِّه حَيٌّ أبُوه يُقـارِبُه

يريد وما مثـله فى الناس حَيٌّ يقاربه إلا مُمَلَّكا أبو أمه أبوه ، وهو خاله ؛ فلمـا ٱستعمل فيــه التقديم والتأخير فى غير موضــعه جاء مشوَّها رثًّا كما تراه . قال الوزير "ضياء الدين ٱبن الأثير" : وقد ٱستعمل الفرزدق من التعاظل كثيرا كأنه يقصد ذلك ويتعمَّده لأن مثله لايجىء إلا متكلَّفا مقصودا ، وإلا فإذا ترك مؤلف الكلام نفْسَه تجرى علىٰ سجيَّتِها وطبعِها فى الٱسترسال ، لم يعرض له شىء من هــذا التعقيد ؛ ألا ترىٰ أن المقصود من الكلام معدوم فى هــذا النوع ، إذ المقصود من الكلام إنمـا هو الإيضاح والإبانة و إفهام المعنىٰ ، فإذا ذهب هذا الوصف المقصودُ من الكلام، ذهب المراد به . ولا فرق عنــد ذلك بينــه و بين غيره من اللغات كالفارسـية والرومية وغيرهمـا .

الصـــنف الثـالث
(ما كان مستقيما ولكنه كَذِب : كقولك حَمَلْتُ الجبلَ ،
وشربت ماءَ البحر، وما أشبه ذلك)

وٱعلم أن المعـانى المستعملةَ فى الشعر والكتابة أكثرُها جارٍ علىٰ هذا الأُسْـلُوب خصوصا المعانِى الشعريَّة، فإنه مقدّمات تخييلية تُوجب فى النفس ٱنقباضاً وٱنبساطا علىٰ ماهو مقرر فى علم المنطق . وقد قال فى "الصناعتين" إن أكثر الشعر مبنىّ علىٰ الكذب والٱستحالة : من الصفات الممتنعة، والنعوت الخارجة عن العادة، والألفاظ الكاذبة : من قذف المُحْصَـنات ، وشهادة الزُّور ، وقول البهتان ، ولا سيْما الشعر الجاهلىّ الذى هو أقوىٰ الشـعر وأفحله . قال : وليس يراد منـه إلا حُسْن اللفظ وجَوْدة المعنىٰ، فهـذا الذى سوّغ ٱستعمال الكذب وغيرِه ممـا جرىٰ ذكره فيـه . وقيـل لبعض الفلاسفة : فلان يكذب فى شعره . فقال : يراد من الشاعر حسن الكلام ، والصدق يُراد من الأنبياء عليهم السـلام . قال الشيخ زكى الدين بن ابى الأصـبع رحمه الله فى كتابه تحرير التحبير : وأنا أقول قد ٱختُلِف فى المبالغة، فقوم يرون أن أجود الشعرأكذبه، وخير الكلام مابُولِـغ فيه ، ويحتجُّون بمـا جرىٰ للنابغة الذُّبيانىّ مع حسان بن ثابت رضى الله عنه فى ٱستدراك النابغة عليه تلك المواقع الجمة فى قوله :

لنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يلمَعْنَ بالضُّحىٰ ٭ وأسـيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدةٍ دَمَا

فإن النابغة إنمـا عاب علىٰ حسان تركَ المبالغة، والقصـة مشهورة . قال : والصواب مع حسان وإن رُوِى عنه ٱنقطاعه فى يد النابغة ؛ وقوم يرون المبالغة من عيوب الكلام ، ولا يرون من محاسنه إلا ماخرج مَخْرَجَ الصـدق، وجاء علىٰ مَنْهَج الحق ، ويزعمون أن المبالغة من ضَعْف المتكلم وعَجْزه عن أن يخترع معنًى، أو يفرّع

معنًى من معنًى، أو يحلِّى كلامه شيئا من البديع، أو ينتخبَ ألفاظا موصوفة بصفات الحسن، ويجيد تركيبها؛ فإذا عجز عن ذلك كله عدل إلى المبالغة يسدّ بها خَلَله ويتم نقصه : لما فيها من التهويل على السامع، ويَدَّعون أنها ربما أحالت المعانى فأخرجتها عن حدّ الإمكان إلى حدّ الآمتناع . قال : وعندى أن هذين المذهبين مردودان . أما الأوّل فلقول صاحبه إن خير الكلام ما بولغ فيــه ، وهذا قول من لا نظَر له لأنا نرى كثيرا من الكلام والأشعار جاريا على الصــدق المحض خارجا مخرَجَ البحث، وهو فى غاية الجَوْدة، ونهاية الحسن، وتمام القوة، وكيف لا والمبالغة ضرب واحد من المحاسن، والمحاسن لاتُحصر ضروبُها؛ فكيف يقال إن هذا الضرب على آنفراده يفضُل سائر ضروب المحاسن على كثرتها؛ وهذا شعر زُهير والحطيئة وحسان؛ ومَنْ كان مذهبُه توخّى الصدقِ فى شعره غالبا، ليس فوقَ أشــعارهم غايةٌ لمترقٍّ؛ ألا ترى إلى قول زهير :

ومَهْما يَكُنْ عِنْدَ آمرِئٍ من خَلِيقةٍ ❊ وإن خالهــا تَخْفَى على الناسِ تُعْــلَم

وإلى قول طَرَفة :

لَعَمْرُكَ إنَّ المَوْتَ ماأخْطأ الفَتَى ❊ لَكَا لطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْياهُ فى اليَدِ

وإلى قوله :

ستُبْدِى لكَ الأيّامُ ماكُنْتَ جاهِلًا ❊ ويأْتِيكَ بالأخْبــارِ مَنْ لم تُزَوِّد

وإلى قول الحطيئة :

مَنْ يفْعَلِ الخيْرَ لايَعْدَمْ جوَازِيَهُ ❊ لايَذْهَبُ العُرْفُ بيْنَ اللهِ والناسِ

فإنك تجد هــذه الأشعار فى الطبقة العُلْيا من البلاغة ، وإن خلَتْ من المبالغة ؛ والذى يدل على أن مذهب أكثر الفُحول ترجيح الصِّدق فى أشــعارهم على الكذب

ماروِى عن الحرورية آمرأةِ عمرانَ بن حِطَّانَ قاضى الصُّفرِيَّةِ من الخوارج أنها قالت له يوما : أنت أعطيتَ الله تعالىٰ عهدا أن لا تكذب فى شعرك ، فكيف قلت :

فهُنَاكَ مَجْزَأَةُ بْنُ ثَوْ * رٍ كان أشجعَ من أُسامه .

فقال : ياهذه إن هذا الرجل فتح مدينةً وحده وما سمعت بأسد فتح مدينة قط ، وهذا حسان يقول :

وإنما الشعرُ لُبُّ المرء يَعْرِضُه * علىٰ المَجَالسِ إنْ كَيْسًا وإن حمقَا

وإنَّ أشعَرَ بيتٍ أنت قَايِلُهُ * بيتٌ يقال إذا أنشدتَه : صَدَقا

علىٰ أن هؤلاء الفحولَ وإن رَجَّحوا هذا المذهب ، لا يكرهون ضدّه ، ولا يَجْحَدُون فضله ، وقلَّما تخلو بعض أشعارهم منه إلا ان توخِّىَ الصدق كان الغالبَ عليهم ، وكانوا يكثرون منه ، ومَنْ أكثر من شىء عُرِفَ به كما أن النابغة ومن تابعه علىٰ مذهبه لايكرهون ضدّ المبالغة ، وإلا فكل آحتجاج جاء به علىٰ النُّعْمان فى الآعتذار جار مجرىٰ الحقيقة كقوله :

حلفتُ فلم أتْرُكْ لنفسِك رِيبةً * وليس وراءَ اللهِ للمرء مَذْهَبُ

فعائب الكلام الحَسَنِ بترك المبالغة فقط مخطئ ، وعائب المبالغة علىٰ الإطلاق غير مصيب ، وخير الأمور أوساطها .

والتحقيق أن المبالغة إذا لم تخرج عن حدّ الإمكان ، ولم تَجْرِ مَجْرىٰ الكَذِب المحض ، فإنها لاتُذَمّ بحال ، كقول قيس بن الخَطِيم :

طَعَنْتُ آبنَ عبدالقيس طَعْنَةَ ثائر * لها نَفَذٌ لولا الشُّعاعُ أضاءَها

ملكتُ بها كَفِّى فأنْهَرْتُ فَتْقَها * يرىٰ قائمٌ مِن دونِها مَنْ(١) وراءَها

(١) فى اللسان ما ، ولعلها رواية .

فإن ذلك من جيـد المبالغة ، إذ لم يكن خارجاً مَخْرَج الٱستحالة مع كونه قد بلغ النهاية فى وصف الطعنة ، وكذلك قول أبى تمَّـامٍ .

تكاد تَنْتَقِلُ الأرواحُ لو تُرِكتْ * من الجُسُوم إليهـا حين تَنْتَقِلُ

فإنه لم يقنع بصحيح المبالغة وقربها من الوقوع فضـلا عن الجواز بتقديم كَادَ ، حتّى قال : لو تُرِكت ، قال : وهذا أصح بيت سمعته فى المبالغة وأحسنه ، وعلىٰ حدّه و رد قول شاعر الحَمَاسة ، وقد بالغ فى مدح ممدوحه فقال :

رهَنْتُ يَدِى بالعَجْزِ عن شُكْرِ بِرِّه * وما فوقَ شُـكْرِى للشَّكُورِ مزيدُ
ولو كان ممـا يُسْتَطاعُ ٱستطعتُه * ولكنّ مالا يُسْـتطاعُ شـديدُ

فإن هـذا الشاعر ألقىٰ بيـده وأظهر عجزه ، وٱعترف بقصوره عن شكر بِرِّ هذا الممدوح ، وفَطِنَ أنه لو ٱقتصر علىٰ ذلك ، لٱحتمل أن يقـال له : عجزك عن شكره لا يدل علىٰ كثرة بِرّه : لٱحتمال أن يكون لضعف مادّتك عن الشكر ، إذ لا يلزم من عجز الإنسان عن شئ تعظيم ذلك الشئ ولا بُدَّ : لٱحتمال أن يكون العجز لضـعف الإنسان ، فٱحترز عن ذلك بقوله :

* وما فَوْقَ شُكْرِى للشَّكُورِ مَزِيدُ *

ثم تمم المعنىٰ بأن قال للشَّكُور ، للمبالغة فى الشكر ، فإن شكورا معدول عن شاكر للمبالغة كما تقدّم ، ثم أظهر عذرَه فى عجزه بأن قال فى البيت الذى يليه :

* ولو كان ممـا يُستطاع ٱستطعته *

ثم ذيل هذا المعنىٰ بإخراج بقية البيت مُخْرَجَ المثل السائر ليكثر دَوَرَانُه علىٰ الألسنة فيحصل تجديد مدح الممدوح كل حين ، والتنويهُ بذكره فى كل زمان حيث قال :

* ولكنَّ مالا يُسْتَطَاعُ شَديدُ *

أما إذا خرجت المبالغة عن حدّ الإمكان، وجرت مجرى الكذب المحض ، فإنها مذمومة فى الشرع ، وإن كان الشعراء يستبيحون مثل ذلك ، ولا يتحاشَوْنَ الوقوع فيه . وقد أخبر تعالىٰ عنهم بالكذب بقوله : "أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ" وفى قوله صلى الله عليه وسلم : "أَصْدَقُ كلمةٍ قالها شاعِرٌ كلمةُ لَبِيدٍ :

* أَلَا كُلُّ شَيءٍ ماخَلَا اللهَ بَاطِلُ" *

إشارةٌ لذلك أيضا .

فمن المبالغة فى الشعر المنتهية إلىٰ حدّ الكذب قول البُحْتُرِىّ :

ولو قِسْتَ يومًا حِجْلَهَا بِحِقابِها * لكانا سواءً، لابل الحِجْلُ أوسعُ

وَصَفَهَا بِرِقَّةِ الخَصْرِ وغِلَظِ الساق حتّى جعل حِجْلَهَا الذى يدور علىٰ ساقها أوسعَ من حِقَابِهَا الذى يدور علىٰ خَصْرِها ، وأبلغ منه قول الآخر :

من الهِيفِ لو أنَّ الخَلَاخِيلَ صُيِّرت * لها وُشُحًا ، جَالَتْ عليها الخَلَاخِلُ

فجعل الخَلْخَال يجول فى جميع بَدَنِها ، لكنه ليس من المدح فى شئ لأن الخَلْخَالَ لو صار وُشَاحًا للمرأة ، لكانت فى غاية الدَّمامة حتّى تصير فى خِلْقَةِ الجِرْوِ(1) والهِرِّ .

وأبلغ منه قول الآخر .

ورَحْبُ صَدْرٍ لو أنَّ الأرضَ واسعةٌ * كَوُسْعِه ، لم يَضِقْ عن أهلِه بَلَدُ

فجعل صدره فى السَّعَةِ والرُّحْبِ أوسَع من الأرض ، ونحوُه قول الآخر :

ويوم كَطُولِ الدّهرِ فى عَرْض مِثْلِه * وَوَجْدِى من هـذا وهَاذَاك أطولُ

إلا أنه آستعمل العَرْضَ فى غير موضعه ، إذ الدهر يوصف بالطول لا بالعَرْض ، وهو قد جعل له طولا وعَرْضا ، ويقرب منه قول أبى الطَّيِّب :

كفىٰ بجِسْمِى نُحُولًا أنَّنِي رجلٌ * لولا مخاطَبَتِى إيَّاك ، لم أبِنِ(2)

(1) الجرو مثلث الجيم (2) المشهور فى الرواية لم ترنى وهى التى شرح عليها العكبرى .

فجعل كلامه هو الذى يدل عليه من شدّة النُّحُول. قال الشيخ زكىّ الدين بن أبى الأصــبع : وممــا يجرى به التمثيــل فى باب المبالغــة قولُ بعض العرب يذم إنسانا بقوله : فلان تَكُونُ له الحاجةُ فيغْضَبُ قبل أن يطلُبَها، وتكون إليه فيردُّها قبل أن يفهمَها . وقول بعض بلغاء الكُتَّاب : إن من النعمة علىٰ المُثْنِى عليك أن لايخلوَ من مساعد، ولا يخشىٰ من معاند، ولا تلحقه نقيصة المُكَذِّبِ، ولا يُكْرِهُه عَوَزُ الأوصاف بالتطلب، ولا ينتهى من القول إلىٰ منتهًى إلا وجد بعده مقتضًى ووراءه منحًى . وسيأتى من المبالغة فى أوصاف الخيل والسلاح، وغيرها فى قسم الأوصاف من ذلك مافيه مَقْنَعٌ إن شاء الله تعالىٰ .

الصــــنف الرابع

(ما كان محالا : وهو مالا يمكن كونه البتة : كقولك آتيك أمس، وأتيتك غدا، وما أشبه ذلك)

قال فى الصناعتين : فإن ٱتصل الكذب بمحال، صار كذبا محالا كقولك : رأيت قاعدا قائما، ومررت بيقظانَ نائمٍ، فإنه كذب للإخبار بخلاف الواقع، ومحال لعدم إمكان الجمع بين النقيضين، وقد تقدّم فى النوع الثالث أن أكثر الشـعر مبنىٌّ علىٰ الكذب والٱسـتحالة : من الصفات الممتنعة، والنعوت الخارجة عن العادة، وذلك فى الكذب ممـا لانزاع فى كثرته فى الشعر كما تقدّم .

أما المحال فإنه قليل الوقوع، نادر فى النظم والنـثر، معدود من المعايب، محكوم عليه بالردّ .

فمن ذلك قول عبد الرحمٰن بن عبد الله القَسِّ :

وإنّى إذا ما الموتُ حَلَّ بنفْسها، * يُزَالُ بنفسِى قبْــلَ ذاكَ فَأُقْبَرُ

قال العسكرىّ : هذا من المحال الذى لاوجه له ، قال : وهو شبيه بقول القائل : إذا دخل زيد الدار ، دخل عمرو قبله ، ثم قال : وهذا عين المحال الممتنع الذى لا يجوز . يريد أنه قد توقف كل من الأمرين على الآخر لأنه لا يوجد إلا به فيلزم الدَّوْر، وهو محال، فيحكم فيه بالبطلان وقطع الدَّوْر .

ومما يلتحق بالمحال وينخرط فى سِلكه تناقض المعانى وآضطرابها .

فمن ذلك قول المُسَيَّبِ بن عَلَسٍ فى وصف ناقة :

فَتَسُلّ حاجتها اذا هى أعرضَتْ * بخَمِيصَةٍ سُرُحِ اليدين وَسَاعِ

فكأنَّ قَنْطَرَةً بموضع كُورِهَا * ملساءَ بينَ غَوَامِضِ الأنْسَاعِ

وإذا أطفتَ بها، أطفتَ بِكَلْكَلٍ * بِيضِ الفَرَايِصِ مُجْفَرِ الأضْلَاعِ

قال فى "الصِّناعتين" : وهـذا من المتناقض لأنه قال بخميصة ، ثم قال موضع كُورِهَا قَنْطَرَةٌ، وهى مُجفَرة الأضلاع فكيف تكون خَمِيصة وهذه صفتها ؟

وقريب منه قول الحُطَيْئَةِ :

حَرِجٍ يُلاوذُ بالكِناس كأنَّهُ * متطوِّف حتَّى الصباح يدُور

حتَّى إذا ما الصُّبْحُ شَقَّ عمودَه * وعلاه أسْطَعُ من سَنَاه مُنِير

وحَصَى الكَثِيبِ بصَفْحتيه كأنَّهُ * خَبَثُ الحديدِ أطارَهُنَّ الكِيرُ

زعم أنه لم يزل يطوف حتَّى أصبح وأشرف على الكثيب، فمن أين صار الحصى بصفحتيه ؟ . وقول المُرَقِّش الأصغر :

صحَا قلبُـه عنها على أنَّ ذُكْرَةً * إذا خطرتْ دارتْ به الأرضُ قائمـا

وكيف صحا عنها مَنْ إذا ذكرت دارت به الأرض ؟ .

الصـــــنف الخامس

(ما كان غَلَطًا : وهو أن تريد الكلام بشئ فَيَسْبِقَ لسانك إلىٰ خلافه ، كقولك :
ضَرَبَنِي زيدٌ وأنت تريد ضربتُ زيدًا)

قال فى "الصناعتين" : فإن تعمدْت ذلك، صار كَذِبا، وهذا النوع أكثر وقوعا من الذى قبله، قال : وقد وقع فيه الفحول من الشعراء .

وأصناف الغلط فى المعانى كثيرة : فمن ذلك الغلط فى الأوصاف، وهى علىٰ وجوه : منها وصف الشئ بخلاف ما هو عليه وذكره بما ينافيه .

فمن غريب هذا النوع قول الراعى فى وصف المِسْك :

يَكْسُو المَفَارِقَ واللَّبَّاتِ ذا أَرَجٍ * من قُصْبِ مُعْتَلِفِ الكافُور درّاجِ

فجعل المِسْكَ من قُصْبِ الظَّبْيِ، وهو مِعاهُ، وجعل الظَّبْيَ يعتلف الكافورَ فيتولد منه المسك، وهذا من طرائف الغَلَط . وقريبٌ منه قولُ زُهَيرٍ يصف الضَّفادعَ :

يَخْرُجْن من شَرَبَاتٍ ماؤها طَحِلٌ * علىٰ الجُذُوع تَخافُ الغَمَّ والغَرَقَا[(١)]

ظن أن الضفادع يخرجن من الماء مخافة الغرق، ونشوءُها فيه . وقريب منه قولُ ذى الرُّمَّةِ :

إذا ٱنجابت الظَّلْمَاء ، أضحتْ رءُوسها * عليهن من جَهْدِ الكَرىٰ وهي ضُلَّعُ

فوصف الرءوس بالضَّلَع . قال ٱبن أبي فروة : ما أغفلتُ هـذا ، ولقد قلت لذى الرمة : ماعلمتُ أحدا أَضْلَعَ الرءُوسَ غيرَك، قال : أَجَلْ .

---

(١) فى اللسان يخفن فما فى الاصل رواية له .

قال فى الصناعتين : ومما لم يُسمع مثلُه قط قول عَدِىّ بن زيد فى الخمر :

والمُشرِفُ الهَيْــدَبُ يسعىٰ بها * أخضرَ مطموثًا بمـاء الحَرِيص

فوصف الخمر بالخضرة، والحريصُ السحابة تَحْرِصُ وجه الأرض أى تَقْشُرُها ، ومنه سميت إحدىٰ الشِّجَاجِ فى الرأس الحارصة لأنها تشق الجلد .

ومنها وصف الشئ علىٰ خلاف المعهود والعادة المعروفة .

فمن ذلك قول المَرَّار :

وخَالٍ علىٰ خَدَّيْكَ يبـدُو كأنه * سنَا البدرِ فى دَعْجَاءَ بادٍ دُجُونُها

والمعروف أن الخِيلاَنَ سُودٌ أو سُمْرٌ ، والخدود الحسان إنمـا هى البيض ، فأتىٰ هذا الشاعر بقلب المعنىٰ؛ ومثله قول الآخر :

كأنّمـا الخِيلانُ فى وجْهه * كواكبٌ أَحْدَقْنَ بالبَـدْر

قال أبو هلال العسكرىّ : ويمكن أن يُحْتَجَّ لهذا الشاعر بأن يقال : تشبيه الخِيلاَنِ بالكواكب من جهة الاستدارة لا من جهة اللون .

ومن ذلك قول امرئ القيس فى وصف الفرس أيضا :

وللسوط أُلْهُوبٌ وللساق دِرَّة * وللزَّجْرِ منه وَقْعُ أَخْرجَ مُهْذِبِ

قال أبو هلال العسكرىّ : فلو وصف أخسَّ حمارٍ وأضعفَه ، ما زاد علىٰ ذلك ؛ وقول القائل :

صبَبْنا عليها ظالمينَ سِيَاطَنَا * فطارتْ بها أيدٍ سراعٌ وأرجُلُ

فجعل ضربها بالسـوط من باب الظلم لأنها لا تحوجه إلىٰ ذلك؛ ومن ذلك قول امرئ القيس :

وأَرْكَبُ فى الرَّوْعِ خَيْفانَةً * كَسَا وجْهَهَا سَعَفٌ مُنْتَشر

شــبه ناصــية الفرس بسَعَفِ النخلة لطُولهـا، وإذا غطّى الشــعر عينَ الفرس لم يكن كريمـا .

ومثله قول طَرَفَة يصف ذَنَبَ البعير :

كأنَّ جَنَـاحَىْ مَضْرَحِىٍّ، تكنَّفا * حِفَافَيْه، شُكَّا فى العَسِيبِ بِمِسْرَدِ

فجعـل ذَنَبَه كثيفا ، طويلا عريضا ، وإنمـا توصــف النجائب بخفـة الذَّنَبِ ورِقَّة الشعر .

ومنها أن يجرىَ فى مقاصد المعـانى علىٰ خلاف المألوف المعروف ، وذلك قول جُنَـادة :

من حبها أتمنّى أن يُلَاقِيَنِى * مِن نَحْوِ بَلْدَتها ناعٍ فينعاها

لِكَىْ يكونَ فراقٌ لا لِقَـاءَ لَه * وتُضمِرَ النفسُ يأْسًا ثم تَسْلَاها

فإذا تمـنّى المحب للحبيب الموتَ فمـا ذا عسىٰ أن يتمنّى البغيضُ لبغيضـه ؟ وقول الآخر :

وَلَقَـدْ هَمَمْتُ بقتلها من حُبّها * كيما تكونَ خَصِيمتى فى المَحْشَرِ

فذكر أن شدّةَ الحبِّ حملته علىٰ قتل محبوبته حتّى تخاصمَه فى الحشر لطلب حقها، وشدّةُ الحب لا تحمل إلا علىٰ الإكرام والبِرّ، علىٰ أنها قد تكون تكرهه، فتترك حقَّها له حتّى لا يطول وقوفها معه للخصام، وقول نُصَيْبٍ :

فإن تَصِلِى، أَصِلْك وإن تعودى * بهَجْرٍ بعـــد ذاك ، فلا أُبَالِى

والعاشق يلاطف قلبَ محبوبه ولا يُحَاجُّه، ويلاينه ولا يُلَاجُّه .

الأصـــل الثـانى

(من صناعة إنشاء الكلام النظر فى الألفاظ، والنظر فيها من وجهين)

الوجه الأوّل

(فى فضـــل الألفـاظ وشرفها)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ المعانى أن الألفاظ من المعانى بمنزلة الثياب من الأبدان فالوجه الصبيح يزداد حسنا بالحُلَلِ الفاخرة، والملابس البهيَّة، والقبيح يزول عنـه بعض القُبْحِ: كما أن الحَسَنَ ينقصُ حُسْنُه بِرَثَاثَةِ ثيابه وعدم بهجة ملبوسه، والقبيح يزداد قبحا إلىٰ قُبْحه. فالألفاظ ظواهر المعانى، تَحْسُنُ بحسـنها وتَقْبُحُ بِقُبْحِها؛ وقد قال أبوهلالٍ العسكرىّ فى كتابه "الصناعتين": ليس الشأْنُ فى إيراد المعانى، لأن المعانِىَ يعرفها العربىّ والعجمىّ والقَرَوِىُّ والبـدوىّ، وإنمـا هو فى جَوْدَةِ اللفظ، وصَفَائه. وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقَائه، وكثرة طَلَاوَتِه ومائه، مع صحة السَّبْك والتركيب، والخلو من أَوَدِ النظم والتأليف. قال: وليس يطلب من المعنىٰ إلا أن يكون صوابا، ولا يُقْنَعُ من اللفظ بذلك حتّى يكون علىٰ ماتقدّم من نعوته. ثم قال: ومن الدليـل علىٰ أن مَدَار البلاغة تحسينُ اللفظ أن الخُطَبَ الرائعة، والأشعار الرائقة، ماعملت لإفهام المعانى فقط لأن الردىء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها فى الإفهام، وإنمـا يدل حسنُ الكلام وإحكام صنعته، ورونق ألفاظه، وجَوْدَةُ مَقَاطعه، وبديع مباديه، وغريب مبانيه، علىٰ فضل قائله، وفهم مُنْشِئِه؛ وأكثر هـذه الأوصاف ترجع إلىٰ الألفاظ دون المعانى، وتَوَخِّى صوابِ المعانى أحسنُ من توخِّى هذه الأمور فى الألفاظ، فلهذا يَتَأَنَّقُ الكاتبُ فى الرسالة، والخطيبُ فى الخُطْبَةِ، والشاعرُ فى القصيدة، ويبالغون فى تجويدها، ويُغْلُونَ فى ترتيبها، ليدُلُّوا علىٰ براعتهم،

وحِذْقِهِم بصناعتهم، ولو كان الأمر فى المعانى لطَرَحُوا أكثر ذلك فرَبِحُوا كدًّا كثيرا، وأسـقطوا عن أنفسهم تعبا طويلا ؛ وأيضا فإن الكلام إذا كان لفظه حُلْوًا عَذْبا، وسَلِسًا سهلا، ومعناه وَسَطًا، دخل فى جمـلة الجيِّـد، وجرى مع الرائع النادر، كقول الشاعر :

ولمـا قَضَيْنَا من مِنًى كُلَّ حاجة، * ومَسَّح بالأركان مَنْ هو مَاسِحُ،
وشُدَّتْ على حُدْبِ المَهارى رِحَالُنا * ولم يَنْظُرِ الغَادِى الذى هو رَائِحُ،
أَخَذْنا بأطراف الأحاديثِ بيننـا، * وسَالَتْ بأعنـاق المطِىِّ الأباطِحُ

وليس تحت هذه الألفاظ كثيرُ معنًى، وهى رائقة مُعْجِبَةٌ، وإنمـا هى : ولمـا قَضَيْنَا الحَجَّ ومَسَّحْنَا بالأركان، وشُدَّتْ رِحَالُنا على مَهازيل الإبِل، ولم ينتظر بعضُنا بعضا، جعلنـا نتحدّث وتسـير بنا الإبِلُ فى بطون الأودية ؛ وإذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا فاترا كان مستهجنا مَلْفُوظًا، ومذموما مردودا، كقول أبى العَتَاهِيَة فى أبى عثمان سعيدِ بنِ وَهْبٍ :

مَاتَ وَاللهِ سعيدُ بنُ وَهْبِ * رَحِمَ اللهُ سَعيدَ بنَ وَهْبِ
يا أبا عثمانَ أبْكَيْتَ عينِى * يا أبا عُثْمَانَ أوجعت قَلْبِى

الوجه الثـانى

(الألفاظ المفردة، وبيان ما ينبغى آستعماله منها، وما يجب تركه)

اعلم أن الذى ينبغى أن يستعمل فى النظم والنثر من الألفاظ هو الرائق البَهِجُ الذى تقبله النفس، ويميل إليه الطبع، وهو الفصيح من الألفاظ دون غيره .

والفصيح فى أصل اللغة هو الظاهر البَـيِّنُ، يقال أفصح الصبح إذا ظهر وبان ضوءه، وأفصح اللبن إذا تجلت عنـه رغوته وظهر، وأفصح الأعجمىّ وفَصُحَ إذا

أبان بعد أن لم يكن يُبِينُ ، وأفصح الرجل عما فى نفسه ، إذا أظهره . قال فى المَثَلِ السائر : وأهل البيان يَقِفُونَ عند هذا التفسير ، ولا يكشفون عن السر فيه . قال : وبهذا القول لا تتبين حقيقةُ الفصاحة لأنه يلزم أنه إذا لم يكن اللفظ ظاهرا بينا لم يكن فصيحا جيِّدًا ، ثم إذا ظهر وتبين صار فصيحا ؛ علىٰ أنه قد يكون اللفظ ظاهرا لزيد ولا يكون ظاهرا لعمرو ، فيكون فصيحا عند واحد دون آخرَ ، وليس كذلك ، بل الفصيح مالم يُخْتَلَفْ فى فصاحته : لأنه إذا تحقق حدّ الفصاحة وعُرِفَ ما هى ، لم يبق فى اللفظ المختص بها خلاف ؛ وأيضا فإنه لو جىء بلفظ قبيح ينبو عنه السمْع ، وهو مع ذلك ظاهر بيِّن ، فينبغي أن يكون فصيحا ، وليس كذلك لأن الفَصَاحة وصفُ حُسْنِ اللفظ لا وصفُ قُبْحِه . قال : وتحقيق القول فى ذلك أن يقال : الكلام الفصيح هو الظاهر البَيِّنُ ، والظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة لا يحتاج فى فهمها إلىٰ آستخراج من كتب لغة ؛ وإنما كانت بهذه الصفة لأنها تكون مألوفةَ الآستعمال بين أرباب النظم والنثر دائرةً فى كلامهم ، وانما كانت مألوفة الاستعمال دائرة فى الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان حُسْنها ، وذلك أن أرباب النظم والنثر غَرْبَلُوا اللغة باعتبار ألفاظها ، وسَبَرُوا وقسَّموا فاختاروا الحَسَن من الألفاظ فاستعملوه ، ونَفَوُا القبيحَ منها فلم يستعملوه ، فَحُسْنُ الألفاظِ سبب آستعمالِها دون غيرها ، وآستعمالُها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها ؛ فالفصيح إذَنْ من الألفاظ هو الحَسَنُ . ثم قال : والمرجع فى تحسين الألفاظ وقبحها إلىٰ حاسة السمع ، فما يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الحَسَن ، وما يكرهه وينفر عنه هو القبيح ، بدليل أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشُّحْرُورِ ، ويميل إليهما ؛ ويكره صوت الغراب وينفِر عنه ، وكذلك يكره نَهِيقَ الحِمَارِ ، ولا يجد ذلك فى صهيل الفرس ؛ والألفاظ جارية هذا المجرىٰ ، فإنه لا خلاف فى أن لفظة المُزْنَة والدِّيمةِ يستلذهما السمع ، ولفظة البُعَاق

قبيحة يكرهها السمع ، والألفاظ الثلاثة من صفة المطر ومعناها واحد ، وأنت ترىٰ لفظتى المُزنَةِ والدِّيمَـةِ وما جرىٰ مجراهمـا مألوفةَ الأستعمال وترىٰ لفظَ البُعَاقِ وما جرىٰ مجراه متروكا لايستعمل، وإن آستعمل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أو مَنْ ذَوْقُه غير سليم، لا جَرَمَ أنه ذمّ وقدح فيه، ولم يلتفت إليه، وإن كان عربيًّا محضا من الجاهلية الأقدمين، فإن حقيقة الشئ إذا علمت، وجب الوقوف عندها، ولم يُعَرَّجْ علىٰ ما خرج عنها .

إذا علمت ذلك فلا يوصف اللفظ المفرد بالحُسْنِ حتّٰى يتصف بأربع صفات :

الصـــــفة الأولىٰ

(أن لايكون غريبا : وهو ماليس مأنوسَ الأستعمال ولا ظاهرَ المعنىٰ)

ويسمّٰى الوحشىَّ أيضا، نسبة إلىٰ الوحش لِنفَاره وعدم تأنُّسه وتألُّفه، وربما قُلِب فقيل الحُوشِىّ نسبة إلىٰ الحوش : وهو النِّفار (١) . قال الجوهرى : وزعم قوم أن الحُوش بلاد الجنّ وراء رمل يَبْرِين، لايسكنها أحد من الناس، فالغريب والوحْشِىُّ والحُوشِىُّ كله بمعنى .

ثم الغريب علىٰ ضربين .

الضرب الأوّل ــ ما يُعاب آستعمالُه مطلقـا : وهو مايُحتاج فى فهمه إلىٰ بحث وتنقيب، وكَشْف من كتُب اللغة : كقول آبن جَحْدَر .

حلَفْتُ بمـا أرقَلَتْ حولَهُ * هَمَرْجَلَةٌ خَلْقُهـا شَـيْظَمُ
وما شَبْرَقَتْ من تَنُوفيّةٍ * بها من وَحىٰ الجنّ زِيزيَزَم

فالإرقال ضرب من السير : وهو نوع من الخَبَب، يقال منه أرقلت الناقةُ تُرْقل إرقالا، والهَمَرْجلةُ الناقة السريعة، وقال أبو زيد: الهمَرْجَلة الناقة النَّجيبة الراحلة .

---

(١) كذا فى الضوء أيضا وفيه تساهل لان النفار معنًى لانحاش لالحاش انظر القاموس .

والشَّيْظَمُ الشديد الطويل وهو من صفات الابل والخيل والأنثىٰ شَيْظمةٌ . والشَّبْرقة القَطْع ، يقال شبْرَقْتُ الثوب أُشبرقه شَبْرقة إذا قطعته ، وشبرقت الطريق إذا قطعتها والتَّنُوفة المفازة ، ويقال فيها تَنُوفِيَّة أيضا . والوَحىٰ هنا الصوت الخفِىُّ ، يقال سمعت وَحَاةَ الرعد : وهو صوته الممتدُّ الخفِىّ ، وقوله زيزيزَم حكاية لأصوات الجن إذا قالت زى زى ؛ وحاصله أنه يقول حلفْتُ هذه الحلفة بما سارت هذه الناقة الشديدة السير العظيمة الخَلْق ، وما قطعت من مَفَازة لايُسمع فيها إلا أصواتُ الجنّ ؛ وهذا مما لايوقف علىٰ معناه إلا بكدّ وتعب فى كشفه وتتبُّعه من كتب اللغة .

الضرب الثانى — مايحتاج إلىٰ تدقيق النظر فى التصريف وتخريج اللفظ علىٰ وجه بعيد : كلفظ مسرّج من قول العجاج .

ومُقْلةً وحاجِبًا مُزَجَّجا * وفاحِمًا ومَرْسِنًا مُسَرَّجا

فالمُقلة شحمة العين ، والحاجب معروف ، والمزجج المُقوّس مع طُولٍ ودقّةٍ فى طَرَفه والفاحم الشَّعر الأسود الذى لونُه كلون الفَحْم ، والمَرْسِنُ الأنف ، وصفه بكونه مُسَرّجا إما أنه كالسيف السُّرَيْجِىّ فى الدِّقَّة والاستواء ، والسُّرَيْجِىُّ نسبة إلىٰ قَيْن يسمّى سُرَيْجًا تنسب إليه السُّيوفُ ، وإما أنه كالسِّراج فى البَرِيق واللَّمعان ؛ أو من قولهم سَرّج الله وجهَه إذا بَهَّجه وحسَّنه . فهذا ومثله مما لا يقف علىٰ معناه إلا من عرف التصريف وأتقنه .

إذا تقرر ذلك فاعلم أن اللفظ يختلف فى الغَرابة وعدمها باختلاف النِّسَب والإضافات ؛ فقد يكون اللفظ مألوفا متداوَلَ الاستعمال عند كل قوم فى كل زمن ، وقد يكون غريبا متوحِّشا فى زمن دون زمن ، وقد يكون غريبا متوحشا عند قوم ، مستعملا مألوفا عند آخرين .

وهو أربعة أصناف .

الصـــــنف الأوّل

(المألوف المتداوَلُ الآستعمال عند كل قوم فى كل زمن)

وهو ما تداول آستعمالَه الأوَلُ والآخِرُ من الزمان القديم وإلىٰ زماننا : كالسماء والأرض ، والليل والنهارِ ، والحرّ والبرد ، وما أشبه ذلك ؛ وهو أحسن الألفاظ ، وأعذَبُها ، وأعلاها درجة وأغْلاها قيمةً ؛ إذ أحسن اللفظ ما كان مألوفا متـداوَلا كما تقدّم ؛ وهذا لايقع عليه آسم الوحشيِّ بحال . قال فى : "المثل السائر" وأنت إذا نظرت إلىٰ كتاب الله العزيز الذى هو أفصحُ الكلامِ ، وجدتَه سهلا سَلِسا ، وما تضمنه من الكلمـات الغريبة يسير جِدّا ـ هذا وقد أنزل فى زمن العرب العَرْباء ، وألفاظه كلُّها من أسهل الألفاظ ،وأقربها آستعمالا وكفىٰ بالقرءان الكريم قُدْوةً ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسـلم ، "ما أُنْزِلَ فى التَّوْراةِ ولا فى الإنْجِيل مثلُ أمِّ القُرْءان وهى السَّبْعُ المَثَانِى" يريد فاتحـة الكتاب . وإذا نظرت إلىٰ ما آشتَمَلت عليـه من الألفاظ ، وجدتها سَهْلة قريبة يَفْهَمُها كل أحد حتّى صبيانُ المكاتبِ وعوامُّ السُّوقة ، وإن لم يفهموا ما تحتها من أسرار الفصاحة والبَلاَغة ، فإن أحسن الكلام ماعرف الخاصةُ فضْلَه ، وفهم العامّة معناه ؛ وهكذا فلْتَكُن الألفاظ المستعملةُ فى سهولة فهمها وقُرب متَناوَلِهـا ؛ والمقتـدى بألفاظ القرءان يكتفى بها عن غيرها من جميع الألفاظ المنثورة والمنظومة ؛ وقد كانت العرب الأُوَل فى الزمن القديم تحاشىٰ اللفظَ الغريب فى نظمها ونثرها ، وتميل إلىٰ السهل وتستعذِبُه ؛ ويكفى من ذلك كلام قبِيصةَ بن نُعَيْم لمـا قدم علىٰ آمرئ القيس فى أشـياخ بَنِى أسد يسألونه العفْوَ عن دمِ أبيـه ، فقال له : "إنك فى المحلّ والقَدْر من المعرفة بتصرُّف الدَّهْر وما تُحْدِثه أيَّامُه وتنتقل به أحوالُه بحيث لاتحتاجُ إلىٰ تذكيرٍ من واعظ ، ولا تبصيرٍ من مجرِّب ، ولك من سُودَد مَنْصِبك وشَرَف أعْراقك ، وكَرَم أصْلك فى العرب مَحْتِدٌ يحتمل ما حُمِّل عليه :

من إقالة العَـثْرة ورُجوعٍ عن الهَفْوة ؛ ولا تتجاوزُ الهِمَم إلىٰ غاية إلا رجعَتْ إليك فوجدَتْ عندك من فضيلة الرأى ، وبصيرة الفَهْم ، وكرم الصَّفْح مايطوِّلُ رَغَباتِها ، ويستَغْرِق طَلِباتِها ، وقد كان الذى كان : من الخَطْب الجَليل ، الذى عمَّتْ رزيَّتُه نِزَارا واليَمَن ،ولم تُخْصَص بذاك كِنْدةُ دُونَنا : للشرف البارِع الذى كان لحُجْر، واوكان يُفْدىٰ هالكٌ بالأنفس الباقيةِ بعده لما بَخِلت كَرَائِمنا بها علىٰ مثله ، ولكنه مضىٰ به سبيلٌ لايَرْجِعُ أُخْراه علىٰ أُولاه ، ولا يَلْحقُ أقصاه أدْناه ، فأحمَدُ الحالاتِ فى ذلك أن تَعْرِف الواجبَ عليك فى إحدىٰ خِلالٍ ثلاث : إما أن اخترتَ من بنىأسدٍ أشرفَها بيتا ،وأعلاها فىبناء المَكْرُمات صوتا ،فقُدْناه إليك بنسعة تذهب مع شَفَرات حُسامك بباقى قَصَرته ، فنقول : رجل امتُحِن بهالكٍ عزيز فلم يستَلَّ سَخِيمتَه إلا تمكينُه من الانتقام . أو فداء بما يَرُوح علىٰ بنى أسـد من نَعَمِها ، فهى أُلُوف تجاوز الحِسْبَةَ فكان ذلك فِداءً رجعتْ به القُضُب إلىٰ أجفانها لم يرددها تسليط الإحَن علىٰ البرءاء . وإما أن وادَعْتنا إلىٰ أن تضَعَ الحواملُ فتُسـدل الأُزُر وتعْقَد الخُمُر فوق الرايَات".

فبكى آمرُؤ القيس ساعةً ، ثم رفع رأسه فقال .

"لقد علِمَتِ العربُ أنه لا كُفْءَ لحُجْر فى دم ،وأنى لن أعتاضَ به جملا ولا ناقةً ، فأكتسبَ به سُبَّة الأَبدِ ، وفتَّ العَضُد ؛ وأما النَّظِرة فقد أوجبتها الأجِنَّة فى بطون أمهاتها ، ولن أكونَ لعطَبِها سببا ؛ وستعرفون طلائع كِنْدة من بعد ذلك ، تحمل فى القلوب حَنَقا وفوق الأسنَّة عَلَقا .

إذا جالَتِ الحرْبُ فى مأْزِقٍ * تُصافِحُ فيه المَنَايَا النُّفوسا !

أتقيمون أم تنصرفون؟ " قالوا بل ننصرف بأسوإ الاختيار وأبلىٰ الاجترار ، بمكروه وأذيَّه ، وحَرْب وبليَّه .

ثم نهضوا عنه وقبيصة يتمثل :

لَعلَّك أن تستوخِمَ الوِرْدَ إن غدَتْ * كتائبُنـا فى مأزقِ الحـرب تُمطِر

فقال آمرؤ القيس لا والله ! ولكن أسـتعذبه ، فرويدا ينفرِجْ لك دُجاها عن فُرْسان كِندةَ وكتائب حِمْير . ولقد كان ذِكر غير هذا بى أولىٰ إذ كنتَ نازلا بربعِى ، ولكنك قلت فأوجبت .

فقال قبيصة مايُتوقَّع فوق قدر المعاتبة والإعتاب ، فقال آمرؤ القيس هو ذاك .

قال فى : "المثل السائر" فلينْظر إلىٰ هذا الكلام من الرجلين : قبيصةَ وآمرئ القيس حتّٰى يدَعَ المتعمقُون تعمُّقهم فى آستعمال الوحشىّ من الألفاظ . فإن هـذا الكلام قد كان فى الزمن القديم قبـل الإسلام بمـا شاء الله ، وكذلك هو كلام كل فصيح من العرب مشهور ، وما عداه فليس بشئ . قال : وهذا المشار إليـه هاهنا هو من جَزْل كلامهـم ، وهو علىٰ ما تراه من السَّلاسَة والعُذُوبة ؛ وإذا تصفَّحت أشعارَهم أيضا وجدت الوحشىّ من الألفاظ قليلا بالنسبة إلىٰ المسلسَل فى الفَمِ والسمع ؛ وعلىٰ هذا المَنْهج فى الجَزالة والسُّهولة يجرى من النظم قولُ آمرئ القيس :

فلَوْ أنَّ ماأسْعَى لِأدْنىٰ مَعيشةٍ ، * كفَانِى ولم أَطْلُبْ قليلٌ من المالِ

ولكِنَّما أسْـعىٰ لِمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ * وقد يُدْرِكُ المَجْدَ الموثَّل أمثَالِى

فآنظر إلىٰ هذين البيتين ليس فيهما لفظةٌ غريبة ، ولا كره مع مافيهما من الجزالة وكذلك أبيات السَّمَوءل المشهورة وهى .

إذا المَرْءُ لم يَدْنَس من اللُّؤم عِرضُه * فكُلُّ رِداءٍ يرْتَديهِ جَميـلُ

وإنْ هُو لم يَحمِل علىٰ النَّفْسِ ضَيْمها، * فلَيْس إلىٰ حُسْـنِ الثَّناء سَبيلُ

تُعَيِّرُنا أنّا قَليـلٌ عَـديدُنا * فقُلْتُ لهـا إنَّ الكِرامَ قَليـلُ

وما ضَـرَّنَا أنا قليـل وجارُنَا * عَزِيزٌ وَجارُ الأكْثَرِين ذَليـلُ

يُقَرِّبُ حُبُّ المَوْتِ آجالَنَا لَنَا * وتَكْرَهُهُ آجالُهُمْ فتطُولُ
وما ماتَ مِنَّا سَيِّدٌ فى فِرَاشِهِ * ولا طُلَّ مِنَّا حيثُ كان قَتِيلُ
وأسْيافُنا فى كُلِّ غَرْبٍ ومَشْرِقٍ * بها مِنْ قِراعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ
مُعوَّدَةٌ أنْ لاتُسَلَّ نِصالُها * فتُغْمَدَ حَتَّى يُسْتَباحَ قَبِيلُ

فإذا نظرت ماتضمنته هذه الأبيات من الجَزالة، خِلْتَها زُبَرا من الحديد مع ماهى عليه من السُّهولة والعُذُوبة وأنها غير فَظَّة، ولا غليظة . وقد ورد للعرب فى جانب الرِّقة من الأشعار مايكاد تَذُوب لِرِقَّته القلوبُ : كقول عروة بن أُذَينة :

إن التى زَعَمَتْ فؤادَكَ مَلَّها * خُلِقَتْ هَوَاكَ كما خُلِقْتَ هَوًى لها
بَيْضَاءُ باكَرَها النَّعِيمُ فصاغَهَا * بلَبَاقَةٍ فَأَدَقَّهَا وأَجَلَّها
حَجَبَتْ تحيتَها فقلتُ لصاحِبِى : * ماكان أكثرَها لنا وأقلَّها !
وإذا وجَدْتُ لها وَساوِسَ سَلْوَةٍ، * شَفَعَ الضميرُ إلى الفؤادِ فسلَّها

وقول يَزِيدَ بن الطَّثَرِيَّة فى محبوبته من بنى جَرْم .

بنَفْسِىَ من لو مَرَّ بَرْدُ بَنَانه * على كَبِدِى، كانت شفاءً أنامِلُه

وإذا كان هـذا قول ساكن الفَلَاة، لايرى إلا شيحة أو قيصومة ولا يأكل إلا ضبا أويَرْبُوعًا، فما بَالُ قوم سكنوا الحَضَر، ووجدوا رِقَّة العيش يتعاطَوْنَ وَحْشِىَّ الألفاظ وشَظِفَ العبارات ؟ ولا يُخْلِدُ إلى ذلك إلا جاهلٌ بأسرار الفصاحة ، أو عاجزٌ عن سلوك طريقها ، فإن كل أحد ممن حصل على نَبْذَةٍ من علم الأدب يمكنه أن يأتىَ بالوَحْشِىّ من الكلام ، إما بأن يلتقطه من كتب اللغة ، أو يتلقفه من أربابها . وأما الفصيح المُتَّصِفُ بصفة الملاحة ، فإنه لايَقْدِر عليه ولو قدرَ عليه لما علم أين يضع يده فى تأليفه وسَبْكه .

قال : و إن مارىٰ فى ذلك مُمَـارٍ، فلينظر إلىٰ أشعار علماء الأدب ممن كان يُشَار إليه حتّى يعلم صحةَ ذلك ، فإن ٱبن دُرَيْد قد قيل إنه أشعر علماء الأدب و إذا نظرتَ إلىٰ شعره، وجدته بالنسبة إلىٰ شعر الشعراء المجيدين مُنْحَطًّا، مع أن أولئك الشعراء لم يعرفوا من علم الأدب عُشْرَ مِعْشَـار ما علمه ، وأين شـعره من شعر العباس ٱبن الأحنف ؟ وهو من أوائل الشـعراء المُحْدَثِينَ ، وشعره كمَرّ نسـيم علىٰ عَذَبَاتِ أغصان، أو كلؤلؤاتِ طَلٍّ علىٰ طُرَر رَيْحَان، وليس فيه لفظة واحدة غريبة يُحتاج إلىٰ ٱستخراجها من كتاب من كتب اللغة، كقوله :

و إنّى لَيُرْضِينى قليـــلُ نوالِكم * وإن كنتُ لاأَرْضىٰ لكم بقليل

بحُرمةِ ماقد كانَ بَيْنِى و بينَــكُمْ * من الوُدّ إلا عُدْتُمُو بجميل

وقوله فى محبوبته فَوْز :

يا فَوْزُ يا مُنْيــــةَ عَبَّـاسِ * قلبى يُفَدِّى قلبَكَ القـاسِى

أسأتُ إذ أحسنتُ ظَنِّى بكم * والحَزْمُ سُوءُ الظنِّ بالنـاسِ

يُقْلِقُنِى شَــوْقِى فآتِيــكُمُ * والقلبُ مملوءٌ من اليأسِ

وهل أعذبُ من هذه الأبيات؟ وأعلقُ بالخاطر، وأسرى فى السمع؟ ولمثلها تسهر راقدات الأجفان ، وعن مثلها تتأخر السوابق عند الرِّهان ؛ ومن الذى يستطيع أن يسلك هذه الطريقَ التى هى سَهْلَةٌ وَعْرَة، قريبة بعيدة؟ .وقد كان أبو العتاهية أيضـا فى غُرَّة الدولة العباسية، وشعر العرب إذ ذاك موجود كثيرا، وإذا تأملت شعره وجدتَه كالمـاء الجارى، رقّةَ ألفاظٍ ، ولَطافَةَ سبك ، وليس بركيك ولا واهٍ ، وٱنظر إلىٰ قصيدته التى يمدح بها المهدىَّ و يشبب بجاريته عتب وهى :

أَلَا مَا لِسَـــيِّدَتِى ما لَهَـا * تُدِلُّ، فأحْمِــلُ إِدْلَالَهَـا

ألا إن جاريةً للإما * م قد أُسْكِنَ الحُسْنُ سِرْبَالَهَا
لقد أتعب الله قلبي بها * وأتعب في اللَّوْمِ عُذَّالَهَا
كأنَّ بعينيّ في حيثُ ما * سلكت من الأرض تِمْثَالَهَا

فلما وصل إلى المديح قال من جملته :

أتَتْه الخلافةُ منقادةً * إليه تُجَرِّرُ أذيالَهَا
فلم تكُ تَصْلُحُ إلّا لَهُ * ولم يكُ يصْلُح إلّا لَهَا
ولو رامها أحدٌ غيرُه، * لَزُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالَهَا
ولو لم تُطِعْهُ نِيَاتُ القلوب، * لَمَا قَبِلَ اللهُ أعمالَهَا

فهذه الأبيات من أَرَقِّ الشعر غَزَلًا ومديحا، وقد أذعن لمديحها الشعراءُ من أهل ذلك العصر، وهي على ماترى من السَّلاسَةِ واللَّطافة على أقصى الغايات، حتى قال بَشَّارٌ عند سماع المهديِّ لها من أبي العتاهية : "انظروا إلى أمير المؤمنين هل طار عن أَعْوَادِه" يريد هل زال عن سريره طَرَبا بهذا المديح . وعلى هذا الأسلوب كان أبو نُوَاسٍ في السهولة والسَّلاسَة والرِّقَةِ ، ولذلك قُدِّم على شعراء عصره مع مافيه من فحول الشعراء ومفلقيهم كمسلم بن الوليد وغيره ، وذلك لرقة شعره وسهولته : كقوله في محبوبته جِنَان :

ألم تَرَ أنّني أفنيتُ عُمْرِى * بِمَطْلَبِها ومَطْلَبُها عَسِير
فلَمَّا لم أجِدْ سَبَباً إليها * يُقَرِّبُني وأَعْيَتْنِي الأُمُور
حَجَجْتُ وقلت: قد حَجَّتْ جِنَان * فيجمعُنى وإيَّاها المَسِير

فانظر إلى هذه الأبيات ليس فيها لفظة منغلقة، وكذلك سائر شعره، وكان هو وأبو العَتَاهِيَة كأنما يُنْفِقَانِ من كيس واحد . ومن لطيف مايحكى في تَوَافُقِ طريقتهما

واتّحاد مأخذهما أن أبا نُوَاس جلس يوما إلىٰ بعض التُّجَّار ببغدادَ هو وجماعة من الشعراء فاستسقىٰ أبو نُوَاسٍ ماءً فلما شرب قال :

* عَذُبَ المَـاءُ وَطَابَا *

ثم قال : أجيزوه، فأخذ أولئك الشعراءُ يتردّدون فى إجازته وإذا هم بأبى العتاهية مجتازا فقال : ما شأنكم مجتمعين ؟ فقالوا كَيْتَ وكَيْتَ وقد قال أبو نُوَاسٍ :

* عَذُبَ المَـاءُ وَطَابَا *

فقال أبو العتاهية مجيزا له :

* حَبَّذَا الْمَـاءُ شَرَابَا *

فَعَجِبُوا لقوله علىٰ الفور من غير تلبث، فهذا هو الكلام السهل الممتنع تراه يُطْمِعُكَ أن تأتىَ بمثله، فإذا حاولت مماثلته راغ عنك كما يروغ الثعلب ؛ وهكذا ينبغى أن يكون مَنْ خاض فى كتابة أو شعر، فإن خير الكلام مادخل الأُذُنَ بغير إذْنٍ .

ومن النثر قول سَعيد بن حُمَيْدٍ : وأنا مَنْ لايُحَاجُّكَ عن نفسه، ولا يغالطك عن جُرْمِهِ، ولا يستدعِى بِرَّكَ إلا من طريقته، ولا يَسْتَعْطِفُكَ إلا بالإقرار بالذَّنْب، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجُرْمِ، نَبَتْ بى عنك غِرَّة الحَدَاثة، وردّتنى إليك الحُنْكَةُ، وباعدتْنى منك الثقةُ بالأيَّام، وقادتْنى إليك الضَّرورة، فإن رأيتَ أن تستقبل الصنيعة بقبول العُـذْر، وتجدّد النعـمة باطِّراح الحِقْد، فإنَّ قَديم الحُرْمة وحديث التوبة يمحقانِ ما بينهما من الإساءة، وإن أيامَ القدرة وإن طالت قصيرة، والمُتْعَةَ بها وإن كَثُرت قليلة، فَعَلْتَ إن شاء الله تعالىٰ .

فانظر إلىٰ قوّة هذا الكلام فى سهولته، وقُرْب مأخَذه مع بُعْـد تنـاوله والإتيان بمُشَاكله . وأجزلُ منـه مع السهولة قول الشَّعْبِىِّ للحَجَّاج، وأراد قتله لخروجه عليه

مع ابن الأشعث : "أجدبَ بنا الجَنَابُ، وأحْزَنَ بنـا المَنْزِل، فاسْتَحْلَسْنَا الحَـذَرَ، وا كْتَحَلْنَا السهرَ، وأصابَتْنا فتنةٌ لم نكن فيها بَرَرَةً أتقياء، ولا فَجَرَةً أقوياء" فعفا عنه.

قال صاحب الصناعتين : وقد غلب الجهل علىٰ قوم فصاروا يَسْتَجِيدُونَ الكلامَ إذا لم يَقِفوا علىٰ معناه إلا بِكَدٍّ، ويستفصحونه إذا وجدوا ألفاظه كَزَّةً غليظة، وجَاسِيَةً غريبة، ويستحقرون الكلام إذا رَأَوْهُ سَلِسًا عَذْبا، وسهلا حُلْوًا، ولم يعلموا أن السهل أمنعُ جانبا، وأعزُّ مطلَبا، وهو أحسن موقِعا، وأعذب مُسْتَمَعًا، ولهذا قيل "أجود الكلام السَّهْلُ الممتنع" وكان المُفَضَّل يختار من الشعر ما يَقِلُّ تداول الرواة له، ويكثر الغريب فيه. قال العسكرى : وهذا خطأ فى الآختيار : لأن الغريب لم يكثر فى كلام إلا أفسده، وفيه دِلَالَةٌ علىٰ الآستكراه والتكلف.

ووصف الفضلُ بنُ سهلٍ عَمرو بنَ مَسْعَدَةَ فقال : هو أبلغ الناس، ومن بلاغته أن كل أحد يظن أنه يكتُب مثل كُتُبه، فإذا رامها، تعذرت عليه،

وقال العباس بن ميمون : قلت للسيد : ألا تستعمل الغريب فى شعرك ؟ فقال ذلك عِيٌّ فى زمانى، وتَكَلُّفٌ منى لو قلتـه، وقد رُزِقت طبعا وآتساعا فى الكلام، فأنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير، ولا يحتاج إلىٰ تفسير، ثم أنشدنى :

أيا رَبِّ إنِّى لم أُرِدْ بالذى به * مَدَحْتُ عَلِيًّا غيرَ وجهِك فارحم

قال فى الصناعتين : فهذا كلامُ عاقلٍ يَضَعُ الكلام موضعه، ويستعمله فى إبَّانِه.

ومن كلام بعض الأوائل : تلخيص المعانى رِفْقٌ، والتشادق فى غير أهله نقص، والنظر فى وجوه الناس عِيٌّ، ومس اللِّحْيَةِ هُلْكٌ، والآستعانة بالغريب عَجْز، والخروج عمـا بُنِيَ عليه الكلامُ إسهاب، فأجود الكلام ما كان جَزْلا سهلا، لا يَنْغَلِقُ معناه، ولا يَسْتَبْهِم مَغْزاه، ولا يكون مكدودا مستكْرَها، ومتوعرا مُتَقَعِّرا، ويكون بريئا من

الغَثَاثة، عاريا من الرَّثَاثة، فالكلام إذا كان لفظُه غثًّا، ومَعْرِضُه رثًّا، كان مردودا، ولو آحتوىٰ علىٰ أجلِّ معنًى وأنبله ، وأرفعِه وأفضلِه . قال فى "المثل السائر": أما البداوة والعُنْجُهِيَّةُ، فتلك أمة قد خَلَتْ ، ومع أنها قد خَلَتْ وكانت فى زمن العرب العاربة فإنها قد عِيبتْ علىٰ مستعملها فى ذلك الوقت فكيف الآن ، وقد غلب علىٰ الناس رقة الحَضَر ؟

الصـــــنف الثانى

(الغريب المتوحش عند كل قوم فى كل زمن)

وهو ما لم يكن متداول الآستعمال فى الزمن الاوّل ولا ما بعده، بل كان مرفوضا عند العرب كما هو مرفوض عند غيرهم، ويسمّى الوَحْشِيَّ الغليظ، والعِكَر، والمتوعِّر وهو علىٰ ثلاثة أضرب :

الضرب الأوّل

(مايعاب آستعماله فى النظم والنثر جميعا)

قال فى "المثل السائر": والناس فى قبح آستعماله سواء، لا يختلف فيه عربِيٌّ بَادٍ، ولا قَرَوِيٌّ مُتَحَضِّرٌ . قال : وليس وراءه فى القبح درجة أخرىٰ ، ولا يستعمله إلا أجهلُ الناس ممن لم يخطُر بباله شيء من معرفة هذا الفنّ أصلا، وهو مامَجَّهُ سمعُك ، ونَبَا عنه لسانك، وثَقُل عليك النطقُ به ؛ علىٰ أنه قد وقع منه ألفاظ لبعض الشعراء المُفْلِقِينَ من العرب والمُحْدَثين . فمن ذلك لفظ الجَحِيش فى قول تأبط شرًّا من أبيات الحَمَاسَة :

يَظَـــلُّ بِمَوْمَاةٍ ويُمسِى بِغَــيْرِهَا ٭ جَحِيشًا ويَعْرَوْرِى ظُهورَ المَسَالِكِ

فإن لفظة جَحيش من الألفـاظ المُنْكَرة القبيحة ، قال فى "المَثَل السائر" : و ياالله العجب ! أليس أنها بمعنى فَرِيد ؟ وفريدٌ لفظة حَسَـنَةٌ رائقة لو وضعت فى هـذا البيت موضع جَحِيش لمـا آختـل شىء من وزنه ، فتأبط شرا ملوم من وجهـين : أحدهما آستعماله القبيحَ ، والثانى أنه كانت له مندوحة عن آسـتعماله فلم يعْدِل عنها ؛ وأقبح من ذلك لفظ آطْلَخَمَّ فى قول أبى تَمَّـام :

قد قلتُ لمـا آطْلَخَمَّ الأمر وآنْبَعَثَتْ * عَشْوَاءُ تَالِيَـةً غُبْسًا دَهَـارِيسَا

فإن لفظةَ اطْلَخَمَّ من الألفـاظ المنكرة التى جمعت الوصفين القبيحين من أنها غريبة ، وأنها غليظة فى السمع ، كريهة علىٰ الذَّوْق ؛ وكذلك لفظة دَهَارِيس فى آخر البيت المذكور .

وعلىٰ حدّ ذلك ورد لفظ جَيْدَر فى قوله من أبيات فى وصف فرس :

نِعْم متاعُ الدّنيا حَبَاكَ به * أَرْوَعُ لاجَيْدَرٌ ولا جِبْسُ

فلفظة جيدر وحشية غليظة ، وأغلظ منها لفظة جَفَخَتْ فى قول أبى الطَّيِّب المتنبى :

جَفَخَتْ وهم لا يَجْفَخُونَ بها بهم * شِيَمٌ علىٰ الحسب الأغرِّ دلائلُ

فإن لفظة جَفَخ مُرَّةُ الطعم ، وإذا مَرَّتْ علىٰ السـمع آقْشَعَرَّ منهـا ، وكان له مندوحة عن آستعمالها فإنَّ جَفَخَتْ بمعنى فَخَرَتْ وهما فى وزن واحد ، فلو أتىٰ بلفظ فَخَرَتْ ويَفْخَرُونَ مكان جَفَخَتْ ويَجْفَخُونَ ، لآستقام وزن البيت وحَظِىَ فى آستعماله بالأحسن ، فهو فى ذلك كتأَبَّطَ شَرًّا فى لفظة جَحِيش فى توجه الملامة عليه من وجهين .

قال فى "المثل السائر" : وما أعلم كيف يذهب هذا وأمثاله علىٰ هؤلاء الفحول من الشعراء ؟

هـذا ما أورده آبن الأثير من هـذا النوع ؛ ويشـبه أن يكون منه لفظ الحَقَلَّد فى قول زُهَيْر :

تَقِيٌّ نَقِيٌّ لم يُكَثِّرْ غَنِيمَةً * بِنَهْكَةِ ذِى قُرْبىٰ وَلَا بِحَقَلَّدِ

والحَقَلَّدُ السيئ الخلق . قال فى "الصناعتين"(١) : وقد أخذ الرُّواة علىٰ زُهَيْرٍ فى لفظة الحَقَلَّد فاستبشعوها ، وقالوا : ليس فى لفظ زُهَيْرٍ أنكَرُ منها ، وكذلك لفظ الجِرِشّى فى قول أبى الطَّيِّبِ فى مدح سيف الدولة بن حمدان وآسمه عَلِىّ :

مُبَـارَكُ الاسْمِ أغَرُّ اللَّقَبْ * كَرِيمُ الجِرِشّى شَرِيفُ النَّسَب

فلفظ الجِرِشّى مما يكرهه السمع ، وينبو عنه اللسان ، والجِرِشّى بمعنى النَّفْسِ فجعل آسمه مباركا ، ولقبَه أغرَّ ، ونفسَه كريمةً ، ونسبه شريفا ، وذلك أنه كان يسمّى عَلِيّاً وهو آسم مبارك لموافقة آسم أمير المؤمنين : علىّ كرم الله وجهه ويلقب سيفَ الدولة وهو لقب أعرابى مشهور ، وأغرُّ أخذا من غرّة الفرس لأنها أشهر ما فيها ، ووصفه بكرم النفس إما باعتبار الحَسَبِ والعَـرَاقَةِ ، وإما باعتبار بَذْل المـال وكثرة العطاء ، وأشار إلىٰ شرف نسبه باعتبار عَرَاقَته فى بيت الملك وعَرَاقَةِ حَسَبِه .

الضرب الثـانى

(مايعاب آستعماله فى النثر دون النظم)

وهذا الضرب مما ذكر صاحب المثل السائر أنه آستخرجه بفكره ، ولم يجد فيه قولا لغيره . قال : وهذا ينكره مَنْ يسمعه حتّى ينتهىَ إلىٰ ماأوردتُه من الأمثلة ، ولربما أنكره بعد ذلك إما عنادا وإما جهلا لعدم الذوق السليم عنده ، ثم ذكر منه أمثلة .

منها لفظ شَرَنْبَثَةٍ من قول الفَرَزْدَق :

ولولا حَيَاءٌ ، زِدتُ رأسَك شَجَّةً * إذا سُبِرَتْ ظَلَّتْ جَوَانِبُهَا تَغْلِي

شَرَنْبَثَةً شَمْطَاءَ مَنْ يرَ مَابِهَا * يُشَبْهُ وَلَوْ بَيْنَ الخُمَاسِيِّ وَالطِّفْلِ

---

(١) فى القاموس «الحقلد فى قول زهير الاثم» ومثله فى لسان العرب .

قال : فلفظة شَرَنْبَثَة من الألفاظ الغريبة التى يسوغ آستعمالها فى الشعر، وهى هاهنا غير مستكرهة إلا أنها لو وردت فى كلام منثور من كتاب أو خطبة ، لعيبت على مستعملها .

ومنها لفظة مُشْمَخِرٍّ الواردةُ فى أبيات بِشْرٍ فى وصفه لقاءَهُ الأسد حيث قال :

وأطلقتُ المُهَنَّدَ عن يمينى * فَقَدَّ لَهُ من الأضلاع عَشْرَا

فَخَرَّ مُضَرَّجًا بِدَمٍ كأنِّى * هَدَمْتُ بِهِ بِنَاءً مُشْمَخِرًّا

وكذلك فى قول البُحْتُرِىّ فى قصيدته التى يصف فيها إيوان كسرى :

مُشْمَخِرٌّ تَعْلُو لَهُ شُرُفَاتٌ * رُفِعَتْ فِى رُءوسِ رَضْوَى وَقُدْسِ

فإن لفظةَ مُشْمَخِرٍّ لا يحسُن آستعمالها فى الخطب والمكاتبات ، ولا بأس بها فى الشعر، وقد وردت فى خُطَب الشيخ الخطيب آبن نُبَاتَةَ كقوله فى خُطبة يذكر فيها أهوال يوم القيامة : آقْمطَرّ وبَالُها، وآشْمَخَرَّ نَكَالُهَا، فما طابت ولا ساغت .

ومنها لفظة الكَنَهْوَرِ من أوصاف السحاب كقول أبى الطَّيِّب :

يَا لَيْتَ بَاكِيَةً شَجَانِى دَمْعُهَا * نَظَرَتْ إليكَ كما نظرتُ فَتَعْذِرَا

وتَرَى الفَضِيلَةَ لَا تُرَدُّ فَضِيلَةً * الشَّمْسَ تُشْرِقُ والسَّحَابَ كَنَهْوَرَا

فلفظة الكَنَهْوَرِ لاتعاب نظما، وتعاب نثرا .

ومنها لفظة العِرمِس، وهو آسم الناقة الشديدة فإن هذه اللفظة يسوغ آستعمالها فى الشعر ولا يُعاب مُسْتَعْمِلُها كقول المتنبى :

وَمَهْمَهٍ جُبْتُهُ على قَدَمِى * تَعْجِزُ عنه العَرَامِسُ الذُّلُلُ

فإنه جمع هذه اللفظة ولا بأس بها، ولو آستعملت فى الكلام المنثور من

الخطب لمـا طابت ولا ساغت؛ وقد جاءت مُوَحَّدَةً فى شعر أبى تمـام فى قوله :

هى العِرْمِسُ الوَجْناء وابن مُلِمَّـةٍ * وجاشٌ علىٰ مايُحْدِث الدهرُ خافِضُ

ومنها لفظة الشَّدَنِيَّةِ فى قول أبى تمـام أيضا .

* ياموضِع الشَّدَنِيَّةِ الوجناء *

وهى ضرب من النُّوق ، فإن الشدَنيَّة لاتعاب شـعرا وتعاب لو وردت فى كتابة أو خطبة . هـذا ما أورده فى "المثل السائر" لهذا الضرب من الأمثلة . ثم قال : وهكذا يجرى الحكمُ فى أمثال هذه الألفاظ؛ وعلىٰ هذا فآعلم أن كل مايسوغ آستعماله فى الكلام المنثور يسوغ آستعماله فى الكلام المنظوم ، وليس كل ما يسوغ آستعماله فى الكلام المنظوم يسوغ آستعماله فى الكلام المنثور . قال : وذلك شئ آستنبطته وآطلعت عليه لكثرة ممـارستى هـذا الفن ، ولأنّ الذوق الذى عندى دَلَّنى عليه ؛ فمن شاء أن يقلِّدَنى فيـه ، وإلا فليُدْمِنِ النظرَ حتّٰى يطَّلع علىٰ ما آطلعت عليه . والأذهان فى مثل هذا المقام تتفاوت، علىٰ ان الشيخ سعد الدين التفتازانى رحمه الله قد تابعه علىٰ ذلك فى شرح التلخيص فلا أعلم أقلده فى ذلك أمّ ذوقه أدّاه إليه ؟ .

الضرب الثـالث

(مايعاب آستعماله بصيغة دون صيغة)

قال فى "المثل السائر": وهذا الضرب من هذه الصناعة بمنزلة عليَّة، ومكانة شريفة، وجُلُّ الأسرار اللفظية منوط به . قال : وقد لقيت جماعة من مُدَّعِى فنّ الفصاحة وفاوضتهم وفاوضونى، وسألتهم وسألونى، فمـا وجدت أحدا منهم يتقن معرفة هذا الموضع كما ينبغى، وقد آستخرجت فيه أشياء لم أُسْـبَق إليها فإن اللفظة الواحدة قد

تنتقل من هيئة إلىٰ هيئة، أو من صفة إلىٰ صفة، فتنتقل من القُبْح إلىٰ الحُسْنِ وبالعكس فيصير القبيح حَسَناً، والحَسَنُ قبيحا، والمرجع فى ذلك إلىٰ الذوق الصحيح والطبع السليم؛ وقد نبه منه علىٰ تسعة أنماط .

النمط الأول — مايترجح فيه الآسم فى الآستعمال علىٰ الفعل، وذلك فى مثل لفظ خَوْدٍ، فإنها عبارة عن المرأة الناعمة، فإذا نقلت إلىٰ صيغة الفعل، قيل خَوَّدَ علىٰ وزن فَعَّلَ بتشديد العين ومعناها أسرع . يقال : خوّد البعير إذا أسرع فى مَشْيِهِ، فهى علىٰ صيغة الآسم حسنة رائقة، قد وردت فى النظم والنثر كثيرا، وإذا جاءت علىٰ صيغة الفعل، لم تكن حسنة كقول أبى تمّام :

وإلىٰ بنى عبدِ الكريم تَوَاهَقَتْ * رَتْكَ النَّعَامِ رأى الطريقَ[1] فَخَوَّدَا

إلا أن لفظةَ خَوَّدَ قد آستعملت علىٰ غير هذا الوجه فى بعض المواضع فزال عنها بعضُ القُبْح وإن لم تلحق بدرجة الرائق الحسن، كقول بعض شعراء الحماسة :

أقولُ لنفسى حين خَوَّدَ رَأْلُهَا : * رُوَيْدَكِ لما تُشْفِقِي حين مَشْفَقِ

رُوَيْدَكِ حتّى تَنْظُرِي عَمَّ تَنْجَلِي * عَمَايَةُ هذا العارِضِ المتألِّقِ

والرَّأْلُ النعام، والمراد أن نفسه فرّت وفَزِعت، شبه بإسراع النعام فى فِراره وفزعه فلما أورد ذلك علىٰ سبيل المجاز، زال بعض القبح . قال : وهذا يدركه الذوق الصحيح فهى فى بيت أبى تَمَّامٍ قبيحةٌ سمجةٌ، وهاهنا بينَ بينَ، ويقاس علىٰ ذلك أشباهُه ونظائرُه .

النمط الثانى — مايترجح فيه فعل الأمر والمستقبل فى الآستعمال علىٰ الفعل الماضى وذلك فى مثل لفظة وَدَعَ، وهى فعلٌ ماض ثلاثىّ لاثِقَلَ بها علىٰ اللسان، ومع ذلك

(١) فى المثل السائر . الظّلام . وكذا فى ديوان أبى تمام .

فإنها لا تستعمل على صيغتها الماضيـة إلا جاءت غير مُسْتَحْسَنَةٍ، فإذا ٱستعملت على صـيغة الأمر أو الآستقبال، جاءت حسنة بهجة رائقة، أما على صيغة الأمر فكما فى قوله تعالى : "فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا(١)" ولم ترد فى القرءان الكريم إلا على هـذه الصـيغة، وأما على صـيغة الآستقبال فكقول النبى صلى الله عليه وسلم وقد واصل فى شهر رمضانَ فواصل معه قوم، فقال : "لو مُدّ لنـا الشَّهْرُ لواصَلْنَا وِصالًا يَدَعُ له المتعمِّقُون تعمُّقَهم" وقد ٱستعملها أبو الطَّيِّبِ على هذا الوجه فى قوله :

تَشُقُّكُمْ بِقَنَاهَـا كُلُّ سَـــاهِبَةٍ * والضَّرْبُ يَأْخُذُ مِنْكُمْ فوق مَايَدَعُ

فجاءت فى كلامه بهجة رائقـة، وأما المـاضى من هذه اللفظة، فلم يستعمل إلا شاذا ولا حُسْنَ له، كقول أبى العتاهية :

أَثْرَوْا فلم يُدْخِلُوا قبورَهُم * شيئًا من الثَّرْوَةِ التى جَمَعُوا

وَكَانَ ماقَدَّمُوا لأنفسهم * أعظمَ نَفْعًا من الذى وَدَعُوا

فلم تقع فى كلامه من الحسن موقعا، ولا أصابت من الطَّلاوة غَرَضًا؛ وهذه لفظة واحدة لم يتغير شئ من أحوالها سوى أنها نقلت من صيغة إلى صيغة؛ وكذلك لفظة وَذَرَ فإنها لاتستعمل ماضية، وتستعمل على صيغة الأمر كقوله تعالى : "ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا". وتستعمل مستقبلة أيضا كقوله تعالى: "سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَاسَقَرُ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ" ولم ترد فى القرءان الكريم إلا على هاتين الصيغتين؛ وكذلك فى غير القرءان الكريم من فصيح الكلام، أما فى حالة المضىّ، فإنها أقبح من لفظة وَدَعَ ، وقد ٱستعملت ماضية مع شذوذ، وهذه لم تستعمل أصلا .

النمط الثالث ـ مايترجح فيه الإفراد فى الآستعمال على التثنية، وذلك فى مثل لفظ

(١) كان عليه أن يمثل بقوله تعـالى : "وَدَعْ أَذَاهُمْ" .

الأَخْدَع ، فإنها يحسن آستعمالها فى حالة الإفراد دون التثنية ؛ فمما وردت فيه مفردة فجاءت حسنة رائقة، قول الصِّمَّةِ بن عبد الله من شعراء الحماسة :

تَلَفَّتُّ نَحْوَ الحَىِّ حتّى وَجَدْتُنِى * وَجِعْتُ مِنَ الإِصْغاءِ لِيتاً وَأَخْدَعا

ومما ورد فيه لفظ التثنية فجاء ثقيلا مستكرها قول أبى تمّام :

يَادَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ * أَضْجَجْتَ هَذَا الأَنَامَ مِنْ خُرُقِكْ

هكذا ذكره فى المَثَلِ السائر، ثم قال : وليس لذلك سبب إلا أنها جاءت مُوَحَّدَةً فى أحدهما فَحَسُنَتْ، وجاءت مثناة فى الآخر فقبُحت .

النمط الرابع ـ ما يترجح فيه الإفراد فى الآستعمال علىٰ الجمع ، وذلك كلفظة الأرض فإنها لم ترد فى القرءان الكريم إلا مفردة، سواء أفردت بالذكر عن السماء كما فى قوله تعالىٰ : "وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً" أو قُرِنت بالسماء مفردة كما فى قوله تعالىٰ : "وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَىٰ الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ" أو مجموعةً كما فى قوله تعالىٰ : "الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ" ولو كان آستعمالها بلفظ الجمع مستحسنا، لكان هذا الموضعُ وشبهُهُ به أليقَ لمقابلة الجمع فى السموات، ولما أراد أن يأتىَ بها مجموعةً قال : "اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ" وكذلك لفظة البُقْعَة ، وكذلك لفظة طَيْفٍ فى ذكر طَيْف الخيال ، فإنها تجمع علىٰ طُيُوف ، وهى فى حالة الإفراد من أَرَقِّ الألفاظ وألطفها؛ فإذا جمعت زالت عنها تلك الطَّلاوة، وفارقتها تلك البَهْجَةُ ، ولذلك وردت فى القرءان الكريم بلفظ الإفراد قال تعالىٰ : "إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ". ولم تزل الشعراء فى القديم والحديث يستعملونه بلفظ الإفراد فيقع أحسنَ موقع ، ولم يُلِمُّوا بآستعماله مجموعا، قال فى المَثَل السائر : ويالله العجب ! من هذه اللفظة ومن أختها

عدّة ووزنا، وهى ضيف فإنها تستعمل مفردة ومجموعة، وكلاهما فى الاستعمال حسن رائق، قال: وهذا ممـا لا يُعْلَمُ السرّ فيه، والذوق السليم هو الحاكم فى الفرق بين هاتين اللفظتين وما يجرى مَجْراهمـا، وكذلك يجرى الحكم فى جميع المصـادر، فإنها فى حالة الإفراد أحسنُ منها فى حالة الجمع، وقد جاء منها بعض ألفاظ مجموعة فجاءت غَثَّة مستكرهة، كما فى قول عنترة:

فإن يَبْرَأْ فلم أَنْفِثْ عليهِ ※ وإن يُفْقَدْ فَحَقَّ لَهُ الفُقُودُ

فالفقود جمع مصدر من قولنا: فقد يفْقِد فَقْدا، وليس له من الرَّوْنق والطَّلاوة ما لمفرده، وهو لفظ فَقْدٍ، وإن كان جائزا من جهة العربية.

النمط الخامس ـ ما يترجح فيه الجمع فى الاستعمال علىٰ الإفراد كلفظة اللُّبِّ الذى هو العقل، فإن استعمالها بصيغة الجمع فى غاية الحسن والبهجة والطَّلاوة، وقد ورد بهذه الصيغة فى غير موضع من القرءان الكريم، كقوله تعالىٰ: "وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ" وقوله: "وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَـابِ" إلىٰ غير ذلك من الآيات الوارد فيها ذلك بصـيغة الجمع، أما فى حالة الإفراد فإنها قليلة الاستعمال مع أنها لفظة ثلاثية خفيفة علىٰ النطق، بعيدة المخـارج، ليست بمستثقلة ولا مكروهة، قال فى المَثَل السائر: وإذا تأملت القرءان الكريم ودققتَ النظر فى رموزه وأسراره، وجدتَ هـذه اللفظة قد رُوعى فيها الجمع دون الإفراد فإن أضـيفت أو أضيف إليها، حسن استعمالهـا، وساغ فى طريق الفصاحة إيرادها. أما إضـافتها فكقول النبى صلى الله عليه وسلم فى ذكر النساء: "مَارَأَيْتُ نَاقِصَـاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ يَامَعْشَرَ النِّسَاءِ" وأما الإضافة إليها فكقول جرير:

إنّ العُيونَ التى فى طَرْفِها حَـوَرٌ ※ قَتَلْنَنَا، ثم لم يُحْيِينَ قَتْـلانَا

يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِ حتّى لَاحَراكَ به ※ وهُنّ أضـعفُ خلقِ اللهِ إِنْسانَا

قال فى المَثَل السائر : فإن عَرِيت هـذه اللفظة عن الجمع والإضـافة ، لم تأت حسنة . قال : ولا تجد دليلا علىٰ ذلك إلا مجرّدَ الذوق السليم ؛ وكذلك لفظة كوب فإنها لم ترد فى القرءان الكريم إلا مجموعة ، وهى وإن لم تكن مستقبحة فى حالة الإفراد ، فإن الجمع فيها أحسن . وٱنظر إلىٰ ماعليها من الطّلاوة والمائية فى قوله تعالىٰ : "يَطُوفُ عَلَيْهِـمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِن مَعِينٍ" وعلىٰ هـذا النحو لفظ رَجًا بالقصر ، ومعناه الجانب ، فإنهـا قد وردت فى القرءان بلفظ الجمع فى قوله تعـالىٰ : "والْمَلَكُ عَلىٰ أَرْجائِها" أى جوانبها ، ولم تستعمل مفردة : لأن الجمع يُكْسِبها من الحسن ما لم يوجد لهـا حالة الإفراد ؛ فإن أضـيفت حالة الإفراد كرجا البـئر ونحوه ، حسنت كما فى حالة الجمع . قال فى المَثَل السائر : وليس كذلك لفظ الصُّـوف والأصواف ، وإن كان لم يرد فى القـرءان الكريم إلا مجموعا حيث قال تعـالىٰ : "وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَـامِ بيُوتًا تَسْـتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْـعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَـاعًا إِلىٰ حِينٍ" لأن لفظ الصوف مسـتحسنٌ فى حالة الإفراد كما فى حالة الجمع . قال : وإنمـا قَبُح ذكره فى قول أبى تمَّـامٍ :

كانُوا بُرُودَ زمانِهِم فتصدّعوا * فكأنّمـا لَبِسَ الزمانُ الصُّوفَا

لأنها جاءت مجازية فى نسبتها إلىٰ الزمان . قال : وعلىٰ هـذا النَّهْج وردت لفظة حِبْر وأحبار فإنها مجموعةً أحسنُ منها مفردةً ، ولم ترد فى القرءان الكريم إلا مجموعة .

النمط السادس ــ ما يترجح فيه بعضُ الجموع فى الٱستعمال علىٰ بعض كما فى جمع صـائب من قولك : سهم صائب ، فإنه يقـال فى الجمع سِهَام صوائبُ وصائبات وصُيَّبٌ بالتشديد ، وهذه الجموع كلها حسنة ، رائقة ، مُعْجِبَةٌ ، دائرة علىٰ ألسنة أرباب النثر والنظم ، ويقال فى جمعه أيضا صُيُبٌ علىٰ وزن كُتُب ، وهو جمع قبيح ،

مرفوض الاستعمال، ثقيل على النطق، جاف عن السمع، وقد استعمله أبو نُوَاسٍ في شعره حيث قال :

ماأَحلَّ اللهُ ماصَنَعَتْ * عينُه تِلك العشيةَ بِي

قَتَلَتْ إنسانُها كَبِدِى * بِسِهَام للردى صُيُبِ

فجاءت غَثَّةً كريهة نابيــة عن السمع، نافرة عن اللسان؛ وكذلك الجمع في قَيْدٍ، فإنه يجمع على قيود، وهو جمع سائغ القبول، شائع الاستعمال؛ ويقال في جمعه أيضا أقياد، وهو من الجموع المستكرهة الخارجة عن الاستعمال، وقد ورد في قول عُوَيْفِ القوافى من أبيات الحماسة :

ذهب الرُّقَادُ فمـا يُحَسُّ رُقَادُ * ممـا شَجَاكَ ونامت العُوَّادُ

لمـا أتانى من عُيَيْنَةَ أنه * أمست عليه تُظَاهَرُ الأقْيَادُ

فلم يحسن ولم يَرُقْ، وكذلك القول في جمع قُبَّةٍ، فإنه يجمع على قبـاب وهو جمع حسن دائر على ألســنة الفصحاء من أهل النظم والنثر، ويجمع أيضا على قُبَبٍ، وليس بمستحسَن، وإن كان هو في الكراهة دون أقياد في جمع قَيْدٍ، وقد استعمله ابن مَحْكَانَ التَّمِيمِيُّ في قوله :

مَاذَا تَرَيْنَ أَنُدْنِيهِــمْ لِأَرْحُلِنَا * فِي جَانِبِ الْبَيْتِ أَمْ نَبْنِي لَهُمْ قُبَبَا ؟

فلم يحسن كحسن قباب بل جاءت كريهة مستشنعة؛ وأعجب ما في هذا الباب أن الجمع قد يكون متفقا في لفظة واحدة إلا أنها مختلفة المعنى فيختلف الاســتعمال في الجمع باختلاف المعـانى حتى لو جىء بجمع في مكان جمع لم يحسن اســتعماله وإن كان جائزا من جهة العربيــة : كلفظ العين، فإنها تطلق من جمـلة مدلولاتها على العين الباصرة، والعين من الناس، وهو النَّبِيهُ منهم، والعينُ الباصرة تجمع على

عيون، والعين من الناس تجمع علىٰ أعيان، وقد شذ هذا الموضع علىٰ المتنبي فى قوله :

وَالْقَوْمُ فى أَعْيَانِهِمْ خَزَرٌ * وَالْخَيْلُ فِي أَعْيَانِهَا قَبَلُ

بجمع العين الباصرة علىٰ أعيان فى الموضعين، قال فى "المَثَل السائر" : وكأنّ الذوق يأبىٰ ذلك ولا يجد له علىٰ اللسان حلاوةً و إن كان جائزا، وأعجبُ من ذلك كله أنك ترىٰ وزنا واحدا من الألفاظ ، فتارةً تجد مفردَه حسنا، وتارة تجد جمعه حسنا ، وتارة تجدهما جميعا حسنين .

فمما مفرده أحسن من جمعه حُبْرُورٌ : وهو فَرْخُ الحُبَارىٰ، فإنه يجمع علىٰ حَبَارير ومفرده أحسنُ من جمعه ، وكذلك طُنْبُورٌ وطنابير ، وعُرْقُوبٌ وعراقيبُ، وما أشبه ذلك .

ومما جمعه أحسن من مفرده بُهْلُولٌ وبَهَاليل، ولُهْمُومٌ ولهاميم، وهذا ضدّ الأوّل.

ومما مفرده حسن وجمعه حسن جُمْهُورٌ وجماهير ، وعُرْجُونٌ وعَرَاجينُ وما أشبه ذلك .

النمط السابع ــ مايترجح فيه أحد صور الوزن الواحد بٱختلافه بالحركة والسكون كلفظ الثلث والربع إلىٰ العشر، فإنها فى حالة سكون الوسط كلها حسنة سائغة الاستعمال فإذا تحركت أوساطها فقلت ثُلُث، ورُبُع، وخُمُس وكذلك إلىٰ عُشُر، فإن الحسن من ذلك جميعه ثلاثة وهى الثُّلُثُ، والخُمُس، والسُّدُس أما الربُع، والسبُع، والثمُن، والتُسع، والعُشر فليس كذلك فى حسنه . قلت : إنما يظهر ذلك فى السبُع، والتُسع، والعُشر خاصة فان الثِّقَلَ ظاهر فيها، أما الربُعُ والثمُنُ فانهما فى الحسن مع تحريك الوسط كالثلُث، والخمُس، والسدُس، وقد ورد القرءان بتحريك الوسط فيهما فى سورة النساء حيث قال تعالىٰ : "وَلَكُمْ نِصْفُ مَاتَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ

لهن ولد فلكم الربع مما تركن" وقوله : "ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم" وأى حسن وفصاحة بعد وروده فى القرءان الكريم ؟

النمط الثامن – ما تترجح فيه أبنية بعض أسماء الفاعلين فى الاستعمال على بعض كاسم الفاعل المبنى من فعل بفتح الفاء وكسر العين، فإنه يبنى على فاعل وفعل بكسر العين وفعلان نحو حمد فهو حامد، وحمد، وحمدان، وفرح فهو فرح، وفارح، وفرحان، وغضب فهو غضبان، وغاضب، فالأفعال الثلاثة على وزن واحد، وصيغ أسماء الفاعلين المبنية منها مختلفة فى الأحسن الغالب استعماله، لحامد من حمد أحسن من حمد وحمدان، وفرح من فرح أحسن من فارح وفرحان، وغضبان من غضب أحسن من غاضب، وإن كان جائزا ؛ وقد جاء بناء اسم الفاعل من فرح على فارح فى قول بعض شعراء الحماسة :

فما أنا من حزن وإن جل جازع * ولا بسرور بعد موتك فارح

فلم يحسن كحسن فرح، أما ماجاء منه على وزن فعلة نحو همزة ولمزة وجثمة ونومة ولكنة ولحنة، وما أشبه ذلك، فقد قال فى "المثل السائر": الغالب على هذه اللفظة أن تكون حسنة .

النمط التاسع – ما يترجح من أوزان الأفعال بعضها على بعض كلفظة فعل وافتعل فإن لفظة فعل لها موضع تستعمل فيه : ولفظة افتعل لها موضع تستعمل فيه، تقول : قعدت إلى فلان إذا جلست اليه، واقتعدت غارب الجمل، إذا ركبت عليه، ولا يحسن أن تقول اقتعدت إلى فلان وقعدت على غارب الجمل، وإن كان ذلك جائزا، وكذلك أفعل وافعوعل فإنك تقول أعشب المكان، فإذا كثر عشبه قلت : اعشوشب فلفظة افعوعل للتكثير، وهى على مافيها من تكرار الحروف طيبة

عَذْبة، وكذلك سائر ما فى وزنها نحو آخشَوْشَن المكان، وآغرَوْرَقت العين، وآحلَوْلىٰ الطعم، وما أشبه ذلك، قال فى "المَثَل السائر" : وهذا كله مما أخذته بالآستقراء، وفى اللغة مواضع كثيرة من ذلك لا يمكن آستقصاؤها .

فانظر إلىٰ مايفعله آختلاف الصيغة بالألفاظ، وعليك بتفقُّد أمثال هذه الكلمات لتعلمَ كيف تضع يدك فى آستعمالها، فكثيرا مايَقع لفحول الخطباء والشعراء فى مثلها، ومؤلِّف الكلام من كاتب وشاعر إذا مرَّتْ به الألفاظ عرضها علىٰ ذوقه الصحيح، فما يجده الحسُّ منها مُوَحَّدًا وحَّده، وما يجده الحس منها مجموعا جمعه، وكذلك يجرى الحكم فيما سوىٰ ذلك من الألفاظ .

الصنف الثالث

(المتوحش فى زمن دون زمن)

وهو ما كان متداولَ الآستعمال فى زمن العرب، ثم رُفِضَ وتُرِك بعد ذلك، وبهذا لا يعاب آستعماله علىٰ العرب لأنه لم يكن عندهم وَحْشِيًّا، ولا لديهم غريبا كما سيأتى التنبيه عليه، وإنما يُعاب آستعماله علىٰ غيرهم ممن قَصُر فهمهم عنه، وَقَلَّتْ معرفتُهم به؛ وقد كان كلام العرب مشحونا به فى نظمهم ونثرهم، دائرا علىٰ ألسنتهم فى مخاطَباتهم ومحاوَراتهم، غير معيب ولا ملوم عليه؛ وآنظر إلىٰ ماتضمنته خطبهم وأشعارهم من الغريب ترىٰ ذلك عِيَانا؛ فمن ذلك قول أبى المُثَلَّم الهُذَلِىِّ :

آبِى الهَضِيمَةِ نَابٍ بِالعَظِيمَةِ مِتْـ * ـلَافُ الكَرِيمَةِ جَلْدٌ غَيرُ ثُنْيَانِ
حَامِى الحَقِيقَةِ نَسَّالُ الوَدِيقَةِ مِعْـ * ـتَاقُ الوَسِيقَةِ، لَانِكْسٌ وَلَاوَانِ
رَبَّاءُ مَرْقَبَةٍ مَنَّاعُ مَغْلَبَةٍ * وَهَّابُ سَلْهَبَةٍ، قَطَّاعُ أَقْرَانِ
هَبَّاطُ أَوْدِيَةٍ حَمَّالُ أَلْوِيَةٍ * شَهَّادُ أَنْدِيَةٍ سِرْحَانُ فِتْيَانِ

وقول أعرابىّ فى وصـف إبل : كُومٌ بهَازِر ، مُكُد خَنَاجِر ، عِظَامُ الحَنَاجِر ، سِباطُ المَشَافِر، أجوافها رِغَاب ، وأعطانها رِحَاب ، تُمنَع من البَهم ، وتبرك للجُمَم . يريد بالكُوم جمع كَوْماءَ ، وهى الناقة العظيمة السَّنَام ، والبَهَازِر جمع بُهْزُرَة : وهى الناقة العظيمة ، والمُكُدُ جمع مَكُودٍ : وهى الناقة الغزيرة اللبن ، والخناجر جمع خُنْجور : وهى بمعـنى المَكُود أيضا ، والعِظَام الحناجر غِلَاظُ الأعنـاق ، وسِبَاطُ المَشَافِر أى مرسَلات المشافر ، والمِشْفَرُ من الناقة كالجَحْفَلَةِ من الفرس ؛ ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرىٰ وينخرط فى هــذا السِّلْك ؛ فهذا ومثله لايعاب آستعماله علىٰ العرب لأنه لم يكن عندهم غريبا ولا لديهم وَحْشِيًّا ، بل شائعا بينهم ، دائرا علىٰ ألسنتهم فى نظمهم ونثرهم ؛ وأعظم شاهد لآستحسان آستعماله عندهم ووضوح مَنْهَجِه لديهم أن القرءان الكريم الذى هو أفصح كلام وأبهج لفظ قد آشتمل علىٰ ألفـاظ مـن ذلك كقوله تعـالىٰ : "وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ" وقوله : "إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ" وما أشبه ذلك ؛ وهذه الألفاظ كانت مفهومة عند العرب ، معلومةَ المعـانى عند المخاطَبِين : لأنّ الله تعالىٰ قد خاطبهم به وأمرهم فيه ونهاهم ، والخطاب بما لايُفْهَم بعيد ، وقد قال تعالىٰ : "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ" . وكذلك ورد فى الأخبار النبوية جملة مستكْثَرة من ذلك ، وهى المعبر عنها بغريب الحديث . كقوله صلىٰ الله عليه وسلم "مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لم يَذْكُرِ اللهَ تعالىٰ فيه كانت عليه من الله تعالىٰ تِرَةٌ" أى نقص ، وقيل تَبِعَة ، وقيل حَسْرة . وقوله صلىٰ الله عليه وسلم "لِيَسْتَرْجِعْ أحدُكم حتّى فى شِسْعِ نَعْلِهِ فإنها من المَصَائب" والشِّسْعُ أحد سيور النعل ؛ وقوله صـلىٰ الله عليه وسـلم : "أَلِظُّوا بياذا الجَلَال والإكرام" أى آلزموا هذه الدعوة وأكثروا منها . وقوله صلىٰ الله عليه وسلم فى الدعاءِ : "وآغْسِلْ حَوْبَتِي وآسْلُلْ سَخِيمَةَ قلبى" وأشباه ذلك .

وحديث أمِّ زَرْعٍ صريح فى شيوع ذلك فيهم، وعمومه فى مخاطَبَاتهم ومكالَمَاتهم، وهو ماثبت فى الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها قالت: "جَلَس إحدى عشرةَ آمرأةً فتعاهَدْنَ وتعاقَدْنَ أن لا يَكْتُمْنَ من أخبار أزواجهن شيئا.

قالت الأولى: زوجى لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ على رأس جبل، لاسَهْلٍ فيرتقى ولا سمينٍ فيُنْتَقىٰ، وفى رواية فينتقل.

قالت الثانية: زوجى لاأَبُثُّ خبَرَه، إنِّى أخافُ أن لاأَذَرَه، إن أذكُرْه أذكُرْ عُجَرَهُ وبُجَرَهُ.

قالت الثالثة: زوجى العَشَنَّقُ، إن أَنْطِقْ أُطَلَّقْ، وإن أسكُتْ أُعَلَّقْ.

قالت الرابعة: زوجى كلَيْلِ تِهَامَه، لاحَرٌّ ولا قُرٌّ ولا خوفٌ ولا سآمه.

قالت الخامسة: زوجى إن دخل فَهِد، وإن خرج أَسِد، ولا يَسْأل عما عَهِد.

قالت السادسة: زوجى إن أَكَلَ لَفَّ، وإن شَرِب آشْتَفَّ، وإن آضطَجَع آلْتَفَّ، ولايُولِجُ الكَفَّ، ليعلم البَثَّ.

قالت السابعة: زوجى عَيَايَاءُ طَبَاقَاءُ، كلُّ داءٍ له داء، شَجَّكِ أو فَلَّكِ أو جَمَعَ كُلًّالكِ.

قالت الثامنة: زوجى الريحُ ريحُ زَرْنَب، والمَسُّ مَسُّ أرنَب.

قالت التاسعة: زَوْجِى رَفيعُ العِمَادِ، طويلُ النِّجَاد، عظيم الرَّماد، قريبُ البيتِ من النَّاد.

قالت العاشرة: زوجى مَالِكٌ وما مَالِكٌ؟ مالك خيرٌ من ذلك، له إبلٌ قليلاتُ المَسَارح، كثيراتُ المَبَارِك، وإذا سَمِعْنَ صوت المِزْهَرِ أيْقَنَّ أنهنَّ هَوَالك.

قالت الحادية عشْرةَ: زوْجِى أبو زَرْع وما أبُو زَرع؟ أَنَاسَ من حُلِيٍّ أُذُنَىَّ،

وَمَلأَ من شَحْمٍ عَضُدَىَّ ، وبَجَّحَنِي فَبَجِحَتْ إِلَىَّ نفسى ؛ وَجَدَنِى فى أهل غُنَيْمَةٍ بِشِقٍّ ، فَجَعَلَنِي فى أهل صَهِيلٍ وأَطِيطٍ وَدائِسٍ وَمُنَقٍّ ؛ فَعِنْدَهُ أقولُ فلا أُقَبَّحُ ، وأَرْقُدُ فأَتَصَبَّحُ ، وأَشْرَبُ فَأَتَقَنَّحُ ، (وفى رواية فأَتَقَمَّحُ) ؛ أُمُّ أبى زَرْعٍ فما أُمُّ أبى زرعٍ ؟ عُكُومُهَا رَدَاحٌ ، و بَيْتُها فَسَاحٌ ؛ اِبن أبى زَرْعٍ فما ٱبن أبِى زَرْع ؟ مَضْجَعُهُ كَمَسَلِّ شَطْبَةٍ ، وتُشْبِعُهُ ذِراعُ الجَفْرَةِ ؛ بنت أبى زَرْعٍ فما بنت أبى زَرْعٍ ؟ طَوْعُ أبيها ، وطَوْع أُمّها ، ومِلْءُ كِسَائِهَا ، وغَيْظُ جارتِها ؛ جارِيَةُ أبى زَرْعٍ فما جارية أبى زرعٍ ؟ لا تَنُثُّ حَدِيثَنَا تَنْثِيثًا (وفى رواية لاتَبُثُّ حَدِيثَنَا تَبْثِيثًا) ، ولا تُنَقِّثُ مِيرَتَنَا تَنْقِيثًا ، ولا تَمْلأُ بيتَنَا تَعْشِيشًا . قالت : خرج أبو زرع والأَوْطابُ تُمْخَضُ ، فَلَقِىَ ٱمرأة معها وَلَدانِ لها كالفَهْدَيْنِ يَلْعَبانِ من تحت خَصْرِهَا بِرُمَّانَتَينِ فطلّقنى ونَكَحَهَا ، فَنَكَحْتُ بعده رجلا سَرِيًّا ، رَكِبَ شَرِيًّا ، وأخذ خَطِّيًّا ، وأراحَ علىّ نَعَمًا ثَرِيًّا ، وأعطانى من كلِّ رائحةٍ زوجًا ، (وفى رواية فأعطانى من كل ذَابِحَةٍ زوجا) . وقال : كُلِى أُمَّ زَرْعٍ ومِيرِى أَهْلَكِ ؛ فلو جمعتُ كلَّ شَيْءٍ أعطانِى ما بلغ أصغرَ آنِيَةِ أبى زَرْعٍ

قالت عائشة : قال لى رسولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم كنتُ لكِ كأبِى زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ (وفى رواية غير أنّى لا أطلّقك) .

فاذا كان هذا كلامَ نسائهم الدائرَ فيما بينهن من محادثاتهن مع بعضهن فى خَلَوَاتِهِنّ ، فما ظنك بفُرْسان الكلام فى نظمهم ونثرهم ؟ فأنّى يُعاب عليهم ذلك ، ويُنْكَر عليهم الإتيان بمثله ؟

وقد ٱختصم رجل وٱمرأة إلىٰ يحيىٰ بن يَعْـمَر ، وهو من أكابر التابعين وجِلَّتِهم ، فقال للرجل : أَأَنْ سَأَلَتْكَ ثَمَنَ شَكْرِها وشَبْرِكَ ، أنشأت تَطُلُّها وتَضْهَلُهَا ؟ . أما غير العرب ممن تكلف ذلك وأتىٰ به فى كلامه المعتاد فى مخاطَبَاته أو نثره ونظمه فإنه يعاب عليه ذلك ، ويحطّ به عن درجة الفَصاحة ، ويخرج به عن قانونها ؛ إذ

المقصود من الكلام إنما هو الإفهام لا غير ، فيخاطب كلُّ أحد بما يفهمه ولا يُكَلَّف بما لا يعلمه ، وخير الكلام ما جاد وأفاد . قال بِشْر بن المعتمر : إيَّاك والتَّوعُّر ، فإنه يُسْلِمك إلىٰ التعقيد والتقييد ، وهو الذى يستهلِكُ معانِيَك ، ويمنعك مَرَامِيَكَ .

قال أبو هلال العسكرى : وربما غلب سوءُ الرأى وقلةُ العقل علىٰ بعض علماء العربية فيخاطبون السُّوقِىّ ، والملوكَ والأعجمىّ ، بألفاظ أهل نجد ، ومعانى أهل السَّرَاة ؛ وحكاياتهم فى ذلك كثيرةٌ . قال أبو نَصْرٍ الجوهرىّ : سقط عيسىٰ بن عُمَرَ عن حمار له فاجتمع عليه الناس فقال : مَا لَكُمْ تَكَأْكَأْتُمْ عَلَيَّ تَكَأْكُؤَكُمْ علىٰ ذِى جِنَّةٍ ؟ افْرَنْقِعُوا عَنِّى . أى ما لكم اجتمعتم علىّ اجتماعَكم علىٰ ذى جِنَّة تفرّقوا عنى . وذكر الجاحظ هذه الحكايةَ عن أبى عَلْقَمَةَ النحوىّ بزيادة فقال : مر أبو عَلْقَمَةَ ببعض طُرُق البصرة فهاجت به مِرَّةٌ فوثب عليه قوم يَعَضُّونَ إبهامَه ويؤذِّنون فى أذنه ، فأَفْلَتَ من أيديهم وقال : مَا لَكُمْ تَكَأْكَأْتُمْ علىّ كَمَا تَكَأْكَؤُونَ علىٰ ذى جِنَّةٍ افْرَنْقِعُوا عَنِّى . فقال بعضهم : دَعُوه فإن شيطانه يتكلم بالهِنْدِيَّة .

وقال أبو علقمة يوما لحاجمه : أُشْدُدْ قَصَبَ المَلَازِم ، وأرْهِف ظُبَاتِ المَشَارِط ، وأَمِرَّ المسحَ ، واسْتَنْجِل الرَّشْح ، وخَفِّف الوطء ، وعَجِّل النَّزْع ، ولا تُكْرِهَنَّ أَبِيّاً ، ولا تردّن أَتِيّاً ؛ فقال له الحَجَّامُ : ليس لى علم بالحروف .

ونظر إليه رجل وتحته بَغْل مِصْرىّ حسن المَنْظَر ، فقال : إن كان مَخْبَرُ هذا البغل كَمَنْظَرِه فقد كَمَل ! فقال أبو عَلْقَمَةَ : والله لقد خرجتُ عليه من مِصْرَ فتنكَّبتُ الطريقَ مخافة السُّرَّاقِ وجَوْرِ الساطان ، فبينا أنا أَسِيرُ فى ليلة ظَلْمَاءَ ، قَتْمَاءَ ، طَخْيَاءَ مُدْلَهِمَّةٍ ، حِنْدِسٍ ، داجيَةٍ ، فى صَحْصَحٍ أَمْلَسَ ، إذ أحس بنَبْأَةٍ من صوت نُغَرٍ ، أو طَيَرانِ ضُوَعٍ ، أو نَغْضِ سُبَدٍ ، فحَاصَ عن الطريق مُتَنَكِّبًا لِعِزَّةِ نفسه ، وفَضْلِ

قُوَّتِه ، فبعثته باللجام فَعَسَلَ ، وحَرَّكته بالركاب فَنَسَل ، وٱنْتَعَلَ الطريق يغتاله مُعْتَزِمًا ، والْتَحَفَ الليل لايهابه مُظْلِمًا ، فوالله ماشبهته إلا بظَبْيَة نافرة تَحْفِزُها فَتْخَاءُ شَاغِيَةٌ ، فقال الرجل فادعُ الله وسَلْهُ أن يحشرَ معك هذا البغلَ يوم القيامة ، قال : ولِمَ ؟ قال : ليُجيزَكَ الصِّراطَ بطَفْرة .

وكانت ٱمرأة تأكل الطِّين (١) فحصل لها بسببه إسهال مَرِضَت منه ، وكان لها ولد يتكلم بالغريب ، فكتب رِقَاعا وطَرَحها فى المسجد الجامع بمدينة السَّلام . فيها صِينَ ٱمْرُؤٌ ورُعِىَ ، دعا لٱمرأة إنْقَحْلَة مُقْسَئِنَّة قد مُنِيَتْ بِأَكْلِ الطُّرْمُوق فأصابها من أجله الٱسْتِمْصَالُ أن يمُنَّ الله عليها بالٱطْرِغْشَاشِ . فكل من قرأ رُقعته ، دعا عليه ولعنه ولعن أمه .

وحكىٰ محمد بن أبى المغازى الضبى عن أبيه قال : كان لنا جار بالكوفة لا يتكلم إلا بالغريب ، فخرج إلىٰ ضَيْعة له علىٰ حِجْرٍ ، معها مُهْر فأفْلَتَتْ ، فذهبت ومعها مُهْرُها فخرج يسأل عنها ، فمرّ بخَيَّاطٍ فقال : ياذا النِّصَاحِ وذَاتِ السَّمّ ، الطاعنَ بها فى غير وَغًى لغيرِ عِدًى ، هل رأيت الخَيْفَانَةَ القَبَّاءَ يتبعها الحَاسِنُ المُسَرْهَفُ ؟ كأنّ غُرَّتَه القمر الأزهر ، ينير فى حُضْره كالخَلب الأجرد ، فقال الخياط : ٱطْلُبها فى ترللج ؟ فقال : وَيْحك ما تقول ! قَبَحك الله ، فإنى ما أعرف رَطَانَتَكَ . قال : لعن الله أبغضَنا لفظًا وأخطأَنا مَنْطِقا .

وضرب عمرُ بنُ هبيرةَ عيسىٰ بنَ عمر النحويَّ ضربا كثيرا من أجل وديعة فكان يقول وهو يضرب : ماهى إلا أُثَيَّابٌ فى أُسَيْفَاط أخذها عَشَّارُوك . وسأله رجل عن مسألة . فقال : ليست مسألتك يَتْنًا : أى ليست مستوية ، وأصل اليَتْن خروج رِجْل الولد قبل رأسه . وسأله آخر عن كتابته ، فقال : كتبت حتّى ٱنقطع

(١) كذا فى الصناعتين أيضا ولعله مصحف عن الطير بالراء بدليل بقية الكلام فان الطرموق اسم للخفاش وهو من الطير .

سوائى أى ظهرى ، على ان أبا جعفر النحاسَ قد عدّ عيسى بن عمر من المطبوعين فى ذلك . قال الجاحظ : رأيتهم يديرون فى كتبهم هذا الكلامَ فإن كانوا إنما رَوَوْهُ ودوّنوه لأنه يدل على فصاحة و بلاغة ، فقد باعده الله من صفة الفصاحة والبلاغة ، و إن كانوا فعلوا ذلك لأنه غريب فأبيات من شعر العَجَّاج وشعر الطِّرِمَّاح وأشعار هُذَيْلٍ تأتى لهم مع الرصف الحسن على أكثر من ذلك . فلو خاطب أحد الأَصْمَعىّ بمثل هذا الكلام، لظننتُ أنه يستجهل نفسه، وهذا خارج عن عادة البلغاء .

الصنف الرابع
(الغريب المتوحش عند قوم دون قوم)

وذلك ككلام أهل البادية من العرب بالنسبة إلى أهل الحَضَر منهم ، فإن أهل الحَضَر يألفون السَّهْلَ من الكلام ، ويستعملون الألفاظ الرقيقةَ ، ولا يستعملون الغريب إلا فى النادر ، وأهل البادية يألفون اللفظ الجَزْل و يميلون إلى آستعمال الغريب ، و إذا نظرتَ إلى أهل مكةَ وكلامِ قريش الذين نزل القرءان بلغتهم و بُعِثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من أَرُومَتِهِمْ ، وكلامِ أهل حَضْرَمَوْتَ وما جاورها من اليمنِ ومَخَاليف الحجاز ، علمتَ فرقَ ما بين الكلامين ، وتبايُنَ ما بين الطَّرَفين ، حتّى كأنَّ البادى يَرْطُنُ بالنسبة إلى الحاضر ، و يتكلم بلغة غير العربية ؛ وكانت لغة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى يتكلم بها على الدوام ، و يخاطب بها الخاص والعامَّ ، لغة قريش وحاضرةِ الحجاز ، إلا أنه صلى الله عليه وسلم أُوتِىَ جوامع الكلم وجمع إلى سُهُولة الحاضرة جزالةَ البادية ، فكان يخاطب أهل نجد وتِهَامَةَ وقبائلَ اليمن بلغتهم ، و يخاطبهم فى الكلام الجزل على قدر طبقتهم .

فمن ذلك كلامه صلى الله عليه وسلم لِطَهْفَةَ النَّهدىّ وكتابُه إلى بنى نَهْدٍ ، وذلك أنه لما قَدمَ وُفودُ العرب على النبىّ صلى الله عليه وسلم قدم عليه طَهْفَةُ بن أبى زُهَيرٍ

النَّهْـدِىّ . فقال : أتيناك يارسول الله من غَوْرِ تِهَامَةَ علىٰ أكوار المَيْس ، ترتمى بنا العِيسُ ، نستحلب الصَّبيرَ، ونستخلب الخَبيرَ، ونَسْتَعْضِدُ البَرِيرَ ، ونَسْتَحِيلُ الرِّهَامَ، وَنَسْتَخِيلُ الجَهَامَ ، من أرض غائلة النِّطَاء، غليظة الوِطَاء، قد جَفَّ المُدْهُنُ، و يَبِس الجِعْثِنُ، وسَـقَطَ الأُمْلُوجُ، ومات العُسْلُوجُ ، وهَلَكَ الهَدِىُّ ، وفادَ الوَدِىُّ؛ بَرِئْنَا إليك يارسول الله من الوَثَنِ والعَنَنِ ، وما يُحْدِثُ الزمنُ؛ لنا دعوةُ السلام، وشريعة الإسلام ماطَمَا البحر ، وقامَ تِعَارُ، ولنا نَعَمٌ هَمَلٌ أغْفَالٌ ، ماتَبِضُّ بِبِلَالٍ؛ وَوَقِيرٌ كثير الرَّسَلِ، قليل الرِّسْلِ، أصابتها سُنَيَّةٌ حمراءُ مُؤْزِلَةٌ، ليس لها عَلَلٌ ولا نَهَلٌ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اللهمّ بارك لهم فى مَحْضِهَا ومَخْضِهَا ومَذْقِهَا وفِرْقِهَا، وٱبعث راعيها فى الدَّثْرِ بيانع الثَّمرِ، وٱفْجُرْ لهم الثَّمَد، و بارك لهم فى المال والوَلَد، مَنْ أقام الصلاة، كان مسلما . ومَنْ آتىٰ الزكاة، كان مُحْسِنا . ومَنْ شهد أن لا إله إلا الله، كان مُخْلِصا . لكم يابَنِى نَهْدٍ ودائعُ الشِّرك، ووَضائع المُلْك، لاتُلْطِط فى الزكاة، ولا تُلْحِدْ فى الحياة، ولا تَتَثَاقَلْ عن الصلاة" .

وكتب معه كتابا إلىٰ بنى نَهْدٍ فيه "بسم الله الرحمن الرحيم السلام علىٰ مَنْ آمنَ بالله و رسوله ، لكم يابنى نَهْدٍ فى الوظيفة الفريضــةُ ، ولكم العارضُ والفَرِيشُ وذو العِنَان الرَّكُوب ، والفَلُوُّ الضَّبِيسُ ؛ لا يُمنع سَرْحُكم، ولا يُعْضَدُ طَلْحُكم ولا يمنع دَرُّكم مالم تُضْمِروا الإمْآقَ، وتأكلوا الرِّباقَ؛ من أقرّ فله الوفاء بالعهد والذِّمَّة ؛ ومن أبىٰ فعليه الرِّبْوَةُ . "

ومن ذلك كتابه صـلى الله عليه وسـلم إلىٰ قبيلة هَمْدَانَ، وذلك أنه لما قَدِمَ عليه صـلى الله عليه وسلم وفود العرب قَدِمَ وَفْدُ هَمْـدانَ علىٰ رسول الله صـلى الله عليه وسـلم منهم مالك بن نَمَطٍ أبو ثَوْرٍ ، وهو ذو المِشْـعار، ومالك بن أيفع، وضِمَـام ابن مالك السلمانى، وعميرة بن مالك الخَارِفِىّ، فلقَوْا رسول الله صـلى الله عليه وسلم

مَرْجِعَهُمْ من تَبُوكَ وعليهم مُقَطَّعات الحِبَرَاتِ والعمائم العَدَنِيَّة، برحال المَيْس على المَهْرِيَّة والأرحَبِيَّة، ومالكُ بن نَمَطٍ ورجلٌ آخر يرتجزان بالقوم، يقول أحدهما:

هَمْدَانُ خيرُ سُوقَةٍ وأقيالْ * لَيْسَ لَهَا فى العالَمين أمثالْ

مَحَلُّهَا الهَضْبُ ومنها الأبْطالْ * لها إطاباتٌ بها وآكالْ

ويقول الآخر:

إلَيْكَ جاوَزْنَ سَوَادَ الرِّيفِ * فى هَبَوَاتِ الصَّيْفِ والخَرِيفِ

* مُخَطَّمَاتٍ بحِبَالِ اللِّيفِ *

فقام مالك بن نَمَطٍ بين يديه، ثم قال: يارسول الله! نَصِيَّةٌ من هَمْدَانَ من كل حاضر وبادٍ، أَتَوْكَ على قُلُصٍ نَوَاجٍ، متَّصِلةٌ بحبال الإسلام، لاتأخذُهم فى الله لومةُ لائم، من مِخْلَافِ خَارِفٍ، ويامٍ، وشاكرٍ، أهل السَّواد والقُرَى، أجابوا دَعْوة الرسول، وفارقوا آلهة الأنصاب، عهدُهم لاينقضُ ماأقام لَعْلَعٌ، وماجرى اليَعْفُورُ بصُلَّعٍ.

فكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا فيه "بسم الله الرحمن الرحيم! هذا كتابٌ من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لمِخْلَافِ خَارِفٍ وأهل جناب الهَضْبِ وحِقَاف الرَّمْلِ، مع وافدها ذى المِشْعار: مالك بن نَمَطٍ، ولِمَنْ أسلم من قومه على أن لهم فِراعَهَا ووِهَاطَهَا ما أقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة، يأكلون عِلَافَهَا ويَرْعَوْنَ عَافِيَها، لهم بذلك عهدُ الله وذِمَام رسوله، وشَاهِدُهم المهاجرون والأنصار."

فقال فى ذلك مالك بن نَمَطٍ:

ذَكَرْتُ رسولَ الله فى فَحْمَةِ الدُّجَى * ونحنُ بأعلى رَحْرَحَانَ وصَلْدَدِ

وهُنَّ بنا خُوصٌ طلائحُ تغتَلِى * بِرُكْبانِها فى لَاحِبٍ مُتَمَدِّدِ

على كُلِّ فَتْلَاءِ الذِّراعَيْنِ جَسْرَةٍ * تَمُرُّ بنا مَرَّ الهِجَفِّ الخَفَيْدَدِ

حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاقِصَاتِ إلىٰ مِنًى * صَوَادِرَ بالرُّكْبَانِ من هَضْبِ قَرْدَدِ

بأن رسولَ الله فينا مُصَــدَّقٌ * رسولٌ أتىٰ من عند ذى العَرْش مُهْتَدِ

فما حَمَلَتْ من نَاقَةٍ فوق رَحْلِهَا * أبرَّ وأوفىٰ ذمّةً من مُحَمَّــدِ

وأعطىٰ إذا ما طَالِبُ العُرْفِ جَاءَهُ * وأمضىٰ بِحَــدِّ المَشْرَفِىِّ المُهَنَّــدِ

وفى رواية أن فى كتابه إليهم، إن لكم فِرَاعَها ووِهَاطَهَا وعَزَازَهَا تأكلون عِلافَهَا وتَرْعَوْنَ عَفَاءَهَا، لنا من دِفْئِهِم وصِرَامهم ما سلَّمُوا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصَّدَقَةِ الثِّلْبُ والنَّابُ، والفَصِيلُ والعارضُ، والدَّاجِنُ والكَبْشُ الحَوَرِىّ، وعليهم فيها الصَّالِغُ والقَارِحُ .

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم لِأُكَيْدِر دُومَةَ. قال أبو عبيدة أنا قرأته فإذا فيه "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسولِ الله، لأُكَيْدِرَ حين أجاب إلىٰ الإسلام، وخَلَعَ الأَنْدَادَ والأصنامَ، مع خالد بن الوليد، سيفِ الله فى دُومَةِ الجَنْدَلِ وأكنافها، إنّ لنا الضَّاحِيَــةَ من الضَّحْلِ[١] والبُورَ والمَعَامِىَ وأغْفَالَ الأرض، والحَلْقَةَ والسِّلاحَ والحَافِرَ والحِصْنَ، ولكم الضَّامِنَةَ من النخل، والمَعِينَ من المعمور، لا تُعْدَلُ سَارِحَتُكُمْ، ولا تعدّ فَارِدَتُكُمْ، ولا يُحْظَرُ عليكم النبات، تُقِيمون الصلاة لوقتها، وتُؤْتون الزكاة بِحَقِّهَا، عليكم بذلك عهدُ اللهِ والميثاقُ، ولكم بذلك الصــدقُ والوفاءُ، شهد اللهُ ومَنْ حضر من المسلمين" .

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلىٰ وائل بنِ حُجْرٍ وأهل حَضْرَمَوتَ، وهو "بسمِ الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلىٰ الأقيال العَبَاهِلَةِ من أهل حَضْرَمَوتَ بإقامة الصــلاة وإيتاء الزكاة، علىٰ التِّيعَةِ الشَّاةُ، والتِّيمَةُ لصَاحِبِهَا، وفى السُّيُوبِ

(١) الضحل بالسكون القليل من الماء ويروى " لكم الضاحيــة من البعل " وهو النخل

الخُمُسُ ، لاخِلَاطَ ولا وِرَاطَ ، ولا شِنَاقَ ولا شِغَارَ ، ومن أجْبَىٰ فقد أربىٰ ، وكل مُسْكِرٍ حرامٌ . وفى رواية أنه كتب إليهم "إلىٰ الأقيال العَبَاهِلَةِ والأرْواعِ المَشَابِيبِ ، وفى التِّيعَةِ شاةٌ لامُقْوَرَّةُ الأَلْيَاطِ ولا ضِنَاكٌ ، وأنْطُوا الثَّبَجَةَ وفى السُّيُوبِ الخُمُسُ ، ومن زنىٰ من ٱمْبِكْرٍ فٱصْقَعُوه مائة ، وٱسْتَوْفِضُوه عاماً ، ومَنْ زَنىٰ من ٱمْثَيِّبٍ فَضَرِّجوه بالأضَامِيمِ ، ولا تَوْصِيمَ فى الدين ، ولا غُمَّةَ فى فرائض الله تعالىٰ ، وكل مُسْكِرٍ حرامٌ ، ووائل بن حُجْرٍ يترَفَّل علىٰ الأقيال" .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله "فى المَثَلِ السائر" : وفصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! لاتقتضى ٱستعمال هذه الألفاظ ، ولا تكاد توجد فى كلامه إلا جوابا لمن يخاطبه بمثلها كحديث طَهْفَةَ وما جرىٰ مجراه ، علىٰ أنه قد كان فى زمنه أوّلا متداوَلا بين العرب ولكنه صلى الله عليه وسلم ! لم يستعمله إلا يسيرا لأنه أعلم بالفصيح والأفصح .

الصفة الثانية

(للفظ الفصيح أن لايكون مبتذَلا عاميًّا ، ولا ساقطا سُوقِيًّا)

والللفظ المبتذل علىٰ قسمين

القسم الأوّل

مالم تغيره العامّة عن موضعه اللغوىّ إلا أنها ٱختصت باستعماله دون الخاصة فابتذل لأجل ذلك وسَخُف لفظُه ، وٱنحطّت رتبته لٱختصاص العامّة بتداوله ، وصار من ٱستعمله من الخاصة مَلُوما علىٰ الإتيان به لمشاركة العامة فيه ؛ وقد وقع ذلك لجماعة من فحول الشعراء فَعِيبَ عليهم .

فمن ذلك قول الفَرَزْدَقِ من قصيدة :

وأَصْبَحَ مُبْيَضُّ الضَّرِيبِ كأنه * علىٰ سَرَوات النَّبْت قُطْنٌ مُنَدَّفُ

فقوله منّدف من الألفاظ العامية المبتذلة ، وإن كان له أصل فى اللغة يقال نَدَف القُطْنَ إذا ضربه بالمِنْـدَفِ، ولذلك قيل للقُطْنِ المندوف نَدِيف .

ومن ذلك قول أبى نُوَاسٍ :

وَمُلِحَّةٍ بالعَذْلِ تَحْسَبُ أننى * بالجهل أترُكُ صُحْبَةَ الشُّطَّارِ

فالشطار جمع شاطر، وهو فى أصل اللغة ٱسم لمن أعيا أهلَهُ خُبْثاً، يقال منه شَطَر وشَطُر بالفتح والضم شَطَارَةً بالفتح فيهما، ثم ٱستُعمل فى الشجاع الذى أعيا الناس شجاعةً، وغلب دَوَرَانُه علىٰ لسان العامة فٱمتُهِن وٱبتُذِل ، فٱستعمال أبى نُوَاسٍ له غير لائق، وكذلك قوله أيضا :

يامَنْ جَفَـانى ومَلَّا * نَسِيتَ أهلاً وسَهْلا

وما تَمَـرْحَبْتَ لمـا * رأيتَ مالىَ قَـلَّا

إنى أظُنُّـــك فيما * فعلتَ تَحْـكِى القِرِلَّى

فلفظ القِرِلَّى من أشدّ ألفاظ العامة ٱبتذالا ، وهو ٱسم لطائر صغير من طيور الماء يخطَفُ صِغَار السمك من المـاء برجليه ومِنْقَاره، فإذا سقط علىٰ المـاء ولم يحصـل علىٰ صيد، ٱرتفع بسُرْعة، فتضرب به العامة المَثَل تقول : فلانٌ كأنه قِرِلَّى، إن وَجَدَ خيرا تَدَلَّى، وإن وجد شرا تَعَلَّى .

وقوله أيضا :

وأَنْمِرِ الجِـلْدَةِ صَـيَّرْتُه * فى النـاس زَاغًا وشِقِرَّاقَا

مَازِلْتُ أُجْرِى كَلْكَلِى فَوْقَهُ * حتّى دعا من تحته قَاقَا

فقوله قَاقًا حكاية لصوت يضرب به المثل لصياح المغلوب ، يقال فعلت بفلان كذا وكذا حتّى قال : قاق ؛ وأقبح من ذلك كله فى الابتـذال بين العامة والسَّخافة قول المتنبي :

ومن النـاس مَنْ يَجُوزُ عليهِمْ * شُـعَراءُ كأنهـا الخَـازِ بازِ

قال فى "المثل السائر" : وهـذا البيت من مضحكات الأشعار وهو من جملة البِرْسام الذى ذكره فى قوله :

إن بعضًا من القَرِيض هُذاءُ * ليس شيئا ، وبعضَه أحْكامُ -

فيـه مايَجْلُبُ البراعةُ والفَهْـمُ ، وفيـه مايَجْلُبُ البِرْسَامُ

وعدّ منه فى "المثل السائر" قول البُحْتُرِىّ :

وجوهُ حُسَّادِكَ مُسْوَدَّةٌ * أم صُبِغَتْ بعدى بالزَّاج ؟

قال : فلفظة الزاج من أشدّ ألفاظ العامة ابتذالا ، وكذلك عدّ منه قول النابغة الذُّبْيَـانِىّ :

أو دُمْيَةٍ فى مَرْمَرٍ مرفوعة * بُنِيَتْ بِآجُرٍّ يُشَـادُ بِقَرْمَـدِ

قال : فلفظة آجُرّ مبتذلة جدّا ، وإذا شئت أن تعلم شيئا من سرّ الفصاحة التى تضمنها القرءان الكريم ، فانظر إلىٰ هذا الموضع فإنه لما جىء فيه بذكر الآجُرّ لم يذكر بلفظه ، ولا بلفظ القَرْمَدِ أيضا ، ولا بلفظ الطُّوبِ الذى هو لغة أهل مِصْرَ ، فإن هذه الأسماء مبتذلة لكن ذكر فى القرءان علىٰ وجه آخر ، وهو قوله تعالىٰ : "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَاعَلِمْتُ لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَاهَامَانُ عَلَىٰ الطِّينِ فَاجْعَـلْ لِى صَرْحًا" فعبر عن الآجُرّ بالوُقُود علىٰ الطين ؛ نَعَمْ من الألفاظ المبتذلة السخيفة لفظة الكَنْس ، وما اشـتق منه ، ولذلك عابها القاضى الفاضل رحمه الله تعالىٰ علىٰ ابن سـناء الملك فى بعض أشعاره حيث قال من أبيات :

يُزَخْرِفُ منها وجهُها فهو جَنَّـةٌ * ويَخْضَرُّ منها نَضْرَةً فهو سُنْدُسُ
صِلِينِي وهذا الحسنُ بَاقٍ فرُبَّـا * يُعَزَّلُ بيتُ الحُسْنِ منه ويُكْنَسُ

فلمـا وقف القاضى الفاضل رحمه الله علىٰ هذه القصـيدة، كتب إلىٰ آبن سناء الملك من جملة فصل : وما قلت هذه الغاية، إلا وتعلمنى أنها البدايه، ولا قلت هذا البيت آية القصيدة إلا تلا مابعده : وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ . ولا عيب فى هذه المحاسن إلا قصور الأفهام، وتقصير الأنام، وإلا فقد لَهِجَ الناس بمـا تحتها، ودوّنوا مادُونَها ، وشغلوا التصانيف والخواطر والأقلام بمـا لايقاربها ، وسارت الأشعار وطالت بمـا لايبلغ مُدَّها ولا نَصِيفه، والقصيدة فائقة فى حسنها، بديعــة فى فَنِّها ؛ وقد ذَلَّت السين فيها وآنقادت، فلو أنها الراء لمـا رادت ؛ وبيت يُعَزَّل ويكنس أردت أنــ أَكْنُسَه من القصيدة ، فإن لفظة الكنس غير لائقة فى مكانها .

فأجابه آبن سناء الملك قائلا : وعلم المملوكُ مانبه عليه مولانا من البيت الذى أراد أن يكنُسَه من القصيدة، وقد كان المملوك مشغوفا بهذا البيت ، مستحِليا له متعجبا منه، معتقدا أنه قد مَلَّح فيه، وأنَّ قافية بيته أميرة ذلك الشعر وسيدةُ قوافيه ، وما أوقعه فى الكنس إلا آبن المعتز فى قوله :

وقَوَامِى مثـلُ القَنَاةِ من الخطّ * وخدّى من لِحْيتى مكنوسُ

والمولىٰ يعــلم أن المملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرجل ويتعثَّر، ويطلب مطالبه فتتعسر عليه وتتعذر، ولا آنَسَ نارَه إلا لَمَّا وجدعليها هُدًى، ولا مال المملوك إلا إلىٰ طريق مَنْ ميَّلَهُ إليه طبعهُ ، ولا سار قلبه إلا إلىٰ مَنْ دَلَّهُ عليه سمعُه، ورأىٰ المملوك أبا عُبَادَةَ قد قال :

ويا عاذلِى فى عَبْرَةٍ قد سَفَحْتُها * لِبَيْنٍ، وأُخْرىٰ قبلها للتجَنُّب
تُحَـاوِلُ منِّى شيمةً غيرَ شيمتِى، * وتطْلُب منِّى مَذْهَبا غيرَمَذْهَبِى؟

وقال :

وما زارنى إلّا ولِهتُ صبابةً * إليه، وإلّا قلتُ : أهْلا ومرْحبا

فعلم المملوك أنَّ هذه طريقةٌ لا تُسْلَك ، وعقيلة لا تُمْلَك ، وغاية لا تُدْرَك ؛ ووجد أبا تمّام قد قال :

* سَلِّم علىٰ الرَّبع من سَلْمىٰ بِذِى سَلَم *

وقال : * خَشُنْتِ عَلَيْهِ أُخْتَ بَنِى خُشَيْنِ * ؛

فاشمأزَّ من هـذا النَّمَط طبعُه، واقشعرّ منه فهمه ، ونَبَا عنـه ذوقُه ، وكاد سمعه يتجرّعه ولا يكاد يُسِيغُهُ، ووجد هذا السيد عبد الله بن المعتز قد قال :

وَقَفْتُ فى الرَّوْض أبْكِي فَقْدَ مُشْبِهِهِ * حتّى بَكَتْ بدُموعى أعيُنُ الزَّهَرِ

لو لم أُعِرْهَا دُموعَ العينِ تَسْفَحُها * لرحمتى، لاستعارتْها من المَطَر

وقال :

قَدُّكَ غُصْنٌ لاشَكَّ فيه كما * وجْهُك شمسٌ نهارُه جَسَدُك

فوجد المملوكُ طبعه إلىٰ هذا النَّمَط مائلا، وخاطره فى بعض الأحيان عليه سائلا ؛ فَنَسَجَ علىٰ هذا الأسلوب، وغلب عليه خاطرُه مع علمه أنه المغلوب؛ "وحُبُّكَ الشيء يُعْمِى ويُصِمُّ" فقد أعماه حبُّه وأصمه إلىٰ أن نظم تلك اللفظة فى تلك الأبيات تقليدا لابن المعتز حيث قالها، وحَمَل أثقالها ؛ وهى تُغْفَر لذاك فى جَنْبِ إحسانه، فأما المملوك فهى عَوْرة ظهرت من لسانه ؛

فأجابه القاضى الفاضل رحمه الله بقوله : ولا حجة فيما احتج به عن الكنس فى بيت ابن المعتز، فإنه غير معصوم من الغلط ، ولا يُقَلَّد إلا فى الصواب فقط؛ وقد علم ماذكره ابن رَشيقٍ فى عمدته من تهافُت طبعه ، وتباين وضعه ؛ فذكر من محاسنه مالا يُعَلَّق معه كتاب، ومن بارده وغَثِّه مالا تُلبس عليه الثياب .

وقد تَعَصَّبَ القاضى السعيد علىٰ أبى تَمَّامٍ فنقصه من حظه ، وللبُحْتُرِىّ فأعطاه أكثَرَ من حقه، وما أنصفهما :

ولو كان هذا مَوْضِعَ العَتْبِ لاشْتَفَىٰ * فُؤادِى ولكنْ للعِتَاب مواضعُ

قال المولىٰ صلاح الدين الصَّفَدِىّ رحمه الله تعالىٰ فى شرح لامية العجم : وقد آستعمل آبن سناء الملك رحمه الله تعالىٰ هـذه اللفظة فى غير هذا الموضع ولم يتَّعظ بنهى الفاضل ولا آرعوىٰ، ولا آزدجَرَ عما قبحه لأنه غلب عليه الهوىٰ، فقال :

تَوَسْوَسَ شِـعْرِى به مُدّةً * وما بَرِحَ الحَلْىُ والوَسْوَسه

وخَلَّصَنِى من يدَىْ عِشْقِه * ظلامٌ علىٰ خدّه حَنْدَسَـه

كَنَسْتُ فؤادىَ منعِشْقِه * ولِحْيَتـه كانت المِكْنَسَه

قال : وأما القاضى الفاضل، فما أظنه خلا فى هذا الإيراد، من ضعف آنتقاد، وأحاشى ذاك الذهن الوَقَّاد، من هـذا الآعتقال فى ورطة هذا الآعتقاد ، وما أراه إلا أنه تعمّد أن يعكس مراده ، ويُوهِىَ ماشـدّه ويُوهِنَ ماشاده، ويرميـه ببلاء البَلَاده، إما علىٰ سبيل النَّكال أو النَّكاده : لأن الفاضـل رحمه الله ممن يتوخّى هذه الألفاظ ويقصدها، وينشيها ويُنْشدها، ويورى زِنَادَها ويُوردها .

فمن كلام القـاضى الفاضل فى بعض رسائله ، وما آستطاعت أيديهم أن تَقْبِضَ جمره ، ولا ألبابهم أن تسيغ خمره ، ولا سيوفهم أن تكنُس قميمه . قال فى "المثل السائر": ومثل هذه الألفاظ إذا وردت فى الكلام، وضعتْ من قدره ولو كان معناه شريفا . قال : وهذا القسم من الألفاظ المبتذلة لايكاد يخلو منه شعر شاعر، لكن منهم المُقِلُّ ومنهم المُكْثِر .

القسم الثـانى

(ما كان من الألفاظ دالًّا علىٰ معنًى وضع له فى أصل اللغـة فغيرته العامة وجعلته دالًّا علىٰ معنًى آخر. وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل ــ ماليس بمستقبح فى الذكر ولا مستكره فى السمع . وذلك كتسميتهم الإنسانَ إذا كان دَمِثَ الأخلاق، حَسَن الصورة أو اللباس أوماهذا سبيله ظريفا، والظَّرْفُ فى أصل اللغة مختص بنُطْق اللسان فقط، كما أن الصَّبَاحَةَ مختصة بالوجه، والوضاءةَ مختصة بالبَشَرة ، والجمـالَ مختص بالأنف ، والحلاوةَ مختصـة بالعينين ، والملاحةَ مختصـة بالفم ، والرَّشاقةَ مختصة بالقدّ، واللّباقةَ مختصة بالشمائل؛ فالظَّرْفُ إنمـا يتعلق بالنطق فغيرته العامة عن بابه ونقلتـه إلىٰ أعمَّ من موضوعه كما تقـدّم؛ وممن وقع له الذُّهول عن ذلك فغلِط فيه أبو نُوَاسٍ فى قوله :

اِختَصَم الجُودُ والجَمـالُ * فيـك فصارا إلىٰ جِدَال

فقال هـــذا يمينـه لى * للعُرْف والبَذْلِ والنوالِ

وقال هـذاك وجهه لى * للظَّرْفِ والحُسْنِ والكمال

فافترقا فيك عن تَرَاضٍ * كلاهمـا صادقُ المَقَال

فوصف الوجه بالظَّرْفِ ، وهو من صفات النطق كما تقدّم ؛ وكذلك أبو تمَّـامٍ فى قوله :

لَكَ هضْبَةُ الحِلْمِ التى لو وازنت * أَجأً إذًا ثَقُلَتْ، وكان خفيفا

وحلاوةُ الشِّيَمِ التى لو مازَجَتْ * خُلُقَ الزمان الفَدْمِ، عاد ظريفا

فوصف الشِّـيَمَ بالحلاوة وهى مختصـة بالعينين، ووصف الخُلُقَ بالظَّرْفِ وهو مختص بالنطق كما تقدّم بيانه .

الضرب الثـانى ــ ما يُســتقبح ذكره كما فى لفظ الصُّرم بالصاد المضمومة والسُّرْم بالســين، فإن الصُّرم بالصاد فى أصل اللغة عبارة عن القطع ، يقال صرمه يَصْرِمُه صَرْما وصُرْما بالفتح والضم إذا قطعــه ، وبالسين عبارة عن المحل المخصوص ، وقد كانت العرب تستعمله بالصاد المضمومة فى أشعارها بهــذا المعنىٰ فلا يعاب عليها ؛ قال أبو صخر الهُذَلىّ :

قد كان صُرْمٌ فى المَمَات لنا * فعجِلْت قبلَ المَوْتِ بالصّرْم

فٱستعمله بمعنى القطع ولم يُعَب عليــه لأن الألفاظ فى زمن العرب لم تتغير بل كانت باقيةً علىٰ أوضاعها الأصلية ، فقلبت العامة السين من المحل المخصوص صادا وٱستعملت لفظ الصُّرْم الذى هو القطع فى المحل المخصوص، فصار لفظه مستقبحا وسماعه مستكرها، وعيب علىٰ أبى الطَّيِّب ٱستعماله فى قوله :

أذاق الغَوانِى حُسْنُه ماأذقْننِى * وعَفَّ،فجازاهنّ عنِّى بالصُّرْمِ

علىٰ أنه إنما يكره ٱستعماله بصيغة الٱسم لمــا تقدّم، أما إذا ٱستعمل بصيغة الفعل مثل صَرَمَ ويَصْرِمُ وما شاكل ذلك ، فإنه لا حَجْر فى ٱستعماله ، وقد ٱســتعمله ٱبن الرومى بالسين علىٰ بابه فجاء أقبحَ وأشنعَ ، فقال يهجو الوَرْد :

كأنه سُرْم بغل حيــن يُخرِجه * عند البِراز، وباقِى الرَّوْثِ فى وَسَطِه

قال الصلاح الصَّفَدىّ : وأين هذا التشبيه القبيح من قول الآخر فى الورد أيضا :

كأنَّهُ وَجْنةُ الحبيبِ وقَدْ * نَقَّطها عاشِــقٌ بدينــار

قال : فانظر إلىٰ هذا ، وَجْنة ، وحبيب ، ودينــار ؛ وإلىٰ ذلك ، سُرْمٌ ، وبغل ، ورَوْث . وشتّانَ ما بينهما .

الصـــفة الثالثة

(من صفات اللفظ المفرد الفصيح أن لا يكون متنافِرَ الحروف ، فإن كانت حروفه متنافرةً بحيث يثقُل علىٰ اللسان ويعْسُر النطقُ به فليس بفصيح)

وذلك نحو لفظ الهُعْخُع فى قول بعض العرب عن ناقة : تركتها تَرْعىٰ الهُعْخُعَ : بالخاء المعجمة والعين المهملة ، وهو نبت أسـود ، وكذلك لفظ مستَشْزِرات من قول آمرئ القيس فى قصيدته اللامية التى من جملة القصائد السبع الطِّوال :

غَـدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إلىٰ العُلىٰ * تَضِلُّ المَدَارِى فى مُثَنًّى ومُرْسَلِ

فلفظ مستشزرات من المتنافر الذى يثقل علىٰ اللسان، ويعسُر النطق به . قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله فى "المَثَل السائر": ولقد رءانى بعض الناس وأنا أَعيب علىٰ آمرئ القيس هذا اللفظ فأكْبَرَ ذلك لوقوفه مع شبهة التقليد فى أن آمرأ القيس أشعرُ الشعراء، فعجبت من آرتباطه بمثل هذه الشبهة الضعيفة، وقلت له : لايمنع إحسانُ آمرئ القيس من آسـتقباح مَالَه من القبيح ، بل مثال ذلك كمثال غَزَال المِسْك فإنه يخرج منه المِسْك والبَعْر ، ولايمنعُ طِيبُ مايخرج من مسكه من خُبْثِ ما يخرج من بَعْره ، ولا تكون لَذَاذَةُ ذلك الطِّيب حامية للخبيث من الآستكراه، فأُسْكِتَ الرجلُ عند ذلك .

إذا علمتَ ذلك ، فإن معظم اللغة العربية دائرة علىٰ ذلك ، لأن الواضع قسَّمها فى وضعه إلىٰ ثلاثة أقسام ؛ ثُلاثيًّا ، ورُباعيًّا ، وخُماسيًّا، فالثلاثىّ من الألفاظ هو الأكثر، ولايوجد فيه مايكره آستعماله إلا النادر، والخماسىّ هو الأقلُّ، ولايوجد فيه مايستعمل إلا الشاذ النادر، والرباعىّ وسط بين الثُّلاثىّ والخُمَـاسىّ فى الكثرة عَدَدا وآستعمالا، فيكون أكثر اللغة مستعملا غير مكروه . قال : ولا تقتضى حكمة هـذه

اللغة التى هى سـيدة اللغات إلا ذلك ، ولذلك أسـقط الواضعُ منها حروفا كثيرة فى تأليف بعضها مع بعض ٱستثقالا وٱستكراها، فلم يؤلِّف بين حروف الحلق كالحاء والعين ، وكذلك لم يؤلف بين الجيم والقاف، ولا بين اللام والراء، ولا بين الزاى والسين ، وذلك دليـل علىٰ عنايته بتأليف المتباعِد المخارج دون المتقارب ، وكيف كان الواضع يُخِلُّ بمثل هذا الأصل الكلىّ فى تحسين اللغة وقد ٱعتنىٰ بأمور جزئيـة دون ذلك ؟ كمماثلته بين حركات الفعل فى الوجود وبين حركات المصدر فى النطق كالغَلَيَانِ ، والضَّرَبَانِ ، والنَّقَزَانِ ، والنَّزَوَانِ ، وغير ذلك مما يجرى هـذا المجرىٰ ، فإن جميع حروفه متحركات ليس فيها حرف ساكن ، وهى ممـاثلة لحركات الفعل فى الوجود .

ومن نظر فى حكمة وضع هذه اللغة إلىٰ هذه الدقائق التى هى كالأطراف والحواشى فكيف كان يخلّ بالأصل المعوّل عليه فى تأليف الحروف بعضها إلىٰ بعض ؟ .علىٰ أنه لو أراد الناظم أو الناثر أن يعتبر مَخارج الحروف عنـد ٱستعمال الألفاظ ، أهى متباعدة أو متقاربة ؟ لطال الخَطْب فى ذلك وعَسُر، ولَمَـا كانـ الشاعر يَنْظِم قصيدا، ولا الكاتب ينشئ كتابا إلا فى مدّة طويلة، والأمر بخلاف ذلك، فإن حاسَّة السمع هى الحاكمة فى هـذا المقام فى تحسين لفظ وتقبيح آخر. علىٰ أنه قد يجىء من المتقارب المَخارِج ما هو حسن رائق ، ألا ترىٰ أن الحروف الشَّجْرِيَّة : (وهى الجيم والشين والياء) متقاربةُ المخارج : لأنها تخرُج من وَسَط اللسان بينه وبين الحَنَك ، وإذا تركب منها لفظ جاء حسـنا رائقا ، فإن لفظة جَيْشٍ قد ٱجتمع فيها الحروف الشَّجْرية الثلاثة ، وهى مع تقارب مخارجها حسنة رائقة ، وكذلك الحروف الشَّفَهية (وهى الباء والميم والفاء) متقاربة المخارج فإن مَخرَجَ جميعها من الشَّفَة ، وإذا تركب منهـا لفظ جاء سَلِسا غير متنافر ، كقولك أكلت بفمى ، وهو فى غاية الحسن ،

والحروف الثلاثة الشفهية مع تقارب مخارجها مجتمعة فيها ؛ وقد يجيء من المتباعد المخارج ما هو قبيح متنافر كقولك مَلَع بمعنى عدا ، فإن الميم من الشفة والعينَ من حروف الحلق واللام من وسط اللسان ، فهذه الحروف كلها متباعدة من بعضها ومع ذلك فإنها كريهة الاستعمال ، ينبُو عنها الذوق السليم ، ولو كان التباعد سببا للحسن لما كان سببا للقبح ؛ على أنه لو عُكِست حروف هذه اللفظة صارت علم وعاد القبح منها حُسْنا مع انه لم يتغير شيء من مخارجها ، على أن اللام لم تزل فيها وَسَطا والميم والعين يكتنفانها من جانبيها ؛ ولو كانت مخارج الحروف معتبرة فى الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة بتقديم بعض الحروف وتأخير بعض ، وليس ذلك لأن إدخال الحروف من الشَّفَةِ إلى الحلق فى مَلَع أعسَرُ من إخراجها من الحلق إلى الشَّفَة فى عَلِم ، فإنّ لفظة بَلِعَ فيها الباء وهى من حروف الشفة واللام وهى من وَسَط اللسان والعين وهى من حروف الحَلْق وهى غير مكروهة .

قال فى "المَثَل السائر" : ولربما اعترض بعض الجهال بأن الاستثقال فى لفظ مستَشْزِرات إنما هو لطولها وليس كذلك ، فإنا لو حذفنا منها الألف والتاء وقلنا مستشزر ، لكان ثقيلا أيضا لأن الشين قبلها تاء وبعدها زاى ، فَثَقُلَ النطق بها ، نعم لو أبدلنا من الزاى راءً ومن الراء فاءً فقلنا مُسْتَشْرِفٌ لزال ذلك ، ومن ثَمَّ ظهر لك أن اعتبار ابن سنان تركيب الكلمة من أقل الأوزان تركيبا غيرُ معتبر ، وقد ورد فى القرءان العظيم ألفاظ طِوَالٌ لا شكَّ فى حسنها وفصاحتها كقوله تعالى : ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وقوله تعالى : ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ فإن لفظ فسيكفيكهم مركب من تسعة أحرف ، ولفظ ليستخلفنهم مركب من عشرة أحرف ، ولفظ مستشزرات مركب من ثمانية أحرف . قال : والأصل فى هذا الباب أن الأصول لا تحسُن إلا فى الثلاثىّ وفى بعض الرُّباعىّ : كقولك عَذْب وعَسْجَدٌ ، فالأولى ثُلاثيَّة

والثانية رُبَاعيَّــة ، أما الْخمَــاسىّ من الأصول، فإنه قبيح كقولك : صَهْصَلِق وَجْحَمرِشٌ، وما جرىٰ مجْراهما، ولهذا لا يوجد فى القرءان الكريم من الخماسىّ الأصولِ شىء إلا ما كان من آسم نبىّ عُرِّب آسمــه ، ولم يكن فى الأصل عربيـا كإبراهيم وإسماعيل ونحوهما .

الصـــــفة الرابعة

(من صفات اللفظ المفرد الفصيح ، أن لا يكون علىٰ خلاف القانون المستنْبَط من تتبع مفردات ألفاظ اللغة العربية ، وما هو فى حكمها)

كوجوب الإعلال فى نحو قام والإدغام فى نحو مدّ ، وغير ذلك ممـا يشتمل عليه علم التصريف ، فإنه لو فَكَّ الإدغام فى مدّ فقــال مَدَد ، لم يكن فصيحا، وعلىٰ حدّ ذلك جاء قول بعض العرب .

* الحمدُ للهِ العَــلِىِّ الأجْلَلِ *

فإنّ قياس بابه الإدغام فيقال الأجَلّ .

قال الشيخ ســعد الدين التفتازانى فى شرح التلخيص : وأما نحو أبىٰ يأبىٰ وعَوِر وآستحْوَذَ وقَطِط شعره وما أشبه ذلك من الشواذ الثابتة فليست من المخالفة فى شىء لأنها كذلك ثبتت عن الواضع ، فهى فى حكم المستثناة .

فهذه الصفات الأربع هى عمود الفَصَاحة فى اللفظ المفرد، وقطب دائرة حسنه، فمتىٰ آتصف بها وسلم من أضــدادها، كان بالفصاحة متَّسِما، وبالحسن والرونق مشــتملا ، وللطبع ملائمــا ، وللســمع موافقا ، ومتىٰ عَرِى عن ذلك خرج عن طرائق الفصاحة ، وحاد عن سبيل الحسن ، ومال إلىٰ الْهُجْنة ، فَمَجَّه السمع ، وقَلَاه الطبع ورفضــتْه النفوس ، ونفَرت منه القلوب ، فلزم العيبُ قائلَه ، وتوجه العَتْبُ علىٰ مســتعمله . قال آبن الأثير رحمه الله : وقد رأيت جماعة من الْجُهَّال إذا قيــل

لاحدهم : إن هذه اللفظة حسنة وهذه قبيحة ، أنكر ذلك وقال : بل كل الألفاظ حسن والواضع لم يضع إلا حسنا . قال : ومن يبلغ جهله إلىٰ غاية لا يفـرق بين لفظة الغصن ولفظـة العُسْلوج ، وبين لفظة المدامة ولفظة الإسْفِنْط ، وبين لفظة السَّـيْف ولفظة الخَنْشَلِيل ، وبين لفظة الأسـد ولفظة الفَدَوْكَس ، فلا ينبغى أن يُخَاطَبَ بخطاب ، ولا يُجاب بجواب ، بل يترك وشأنَه كما قيل : "أُتركُوا الجاهلَ بجهله ، ولو ألقىٰ الجَعْرَ فى رَحْلِه"

وما مثاله فى ذلك إلا كمن يسوّى بين صورة زنجية سوداءَ مظلمة السواد ، شوهاء الخَلْق ذاتِ عين محمّرة ، وشَفَةٍ غليظة ، وشـعر قَطَط ، وبين صورةٍ رُوميَّة بيضاء مُشْرَبة بحمرة ، ذات خدّ أَسِيل ، وطَرْف كحيل ، ومَبْسِم كأنمـا نُظِم من أَقَاح ، وطُرّة كأنها ليـل علىٰ صَبَاح . فإذا كان بإنسان من سُقْم النظر أن يسوّىَ بين هذه الصورة وهذه ، فلا يبعد أن يكون به من سُقْم الفكر أن يسوّىَ بين هـذه الألفاظ وهذه ، ولافرق بين السمع والنظر فى ذلك ، فإن هذه حاسَّة وهذه حاسَّة ، وقياس حاسة علىٰ جاسـة غيرُ ممتنع ؛ ولا عبرةَ بمن يستحسن الألفاظ القبيحة ، ويميـل إلىٰ الصورة الشنيعة ، فإن الحكم علىٰ الكثير الغالب ، دون الشاذ النادر الخارج عن الاعتـدال ، فإنا لورأينا من يُحِبُّ أكل الفَحْم والجِصّ والتراب ، ويختار ذلك علىٰ مَلَاذّ الأطعمة ، فإنا لانستجيد هذه الشهوةَ بل نحكم عليه بالمرض وفساد المَعِدة ، وأنه يحتاج إلىٰ العلاج والمُداواة ، ومن له أدنىٰ بصـيرة يعلم أن للالفاظ فى الأذن نَغْمة لذيذة كنغمة الأوتار ، وصوتا مُنْكَرا كصوت الحمار ، وأن لها فى الفم حلاوةً كحلاوة العسل ، ومرارة كمرارة الحَنْظَلِ . ولا حجة لاستعمال العرب لهذه الألفاظ ، فإن استحسان الألفاظ واستقباحَها لا يؤخذ بالتقليد من العرب ، لأنه ليس للتقليد فيه مَجَال . وإنمـا له خصائص وهيئات وعلامات إذا وُجدت ، عُلم حسنه من قبحه والله أعلم .

الأصـــــل الثالث

(من صناعة إنشاء الكلام تركيب الكلام، وترتيب الألفاظ)
(والنظر فيه من وجوه)

الوجه الأوّل

(فى بيان فضل المعرفة بذلك، ومسيس حاجة الكاتب إلىٰ معرفته، والإشارة إلىٰ خفىّ سره وتوعُّر مَسْلَكه)

قال أبو هلال العسكرىّ : وأجناس الكلام المنظوم ثلاثة : الرسائل، والخُطَب، والشعر، وجميعها يحتاج إلىٰ حُسْن التأليف، وجَوْدَة التركيب؛ وحسنُ التأليف يزيد المعنىٰ وضوحا وشرحا، ومع سُوء التأليف ورداءة الرّصـف والتركيب شُعْبَةٌ من التعمية، فإذا كان المعنىٰ سيِّئا، ورصف الكلام رديئا، لم يوجد له قبول، ولم تظهر عليـه طَلَاوة. فإذا كان المعنىٰ وسطا ورَصْـف الكلام جيدا، كان أحسن مَوْقِعا وأطيب مُسْتَمَعًا، فهو بمنزلة العِقْد إذا جُعِـل كل خرزة منه إلىٰ مايليق بها، كان رائقا فى المرأىٰ، وإن لم يكن مرتفعا نبيـلا؛ وإن ٱختلّ نظمه فَضُمّت الحبة منه إلىٰ ما لا يليق بهـا، ٱقتحمته العين وإن كان فائقا ثمينا؛ وحُسْنُ الرَّصْفِ أن توضَع الألفاظ فى مواضـعها، وتمكَّن من أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والزيادة إلا حذفا لا يُفْسِـد الكلام، ولا يُعَمِّى المعنىٰ، وتُضم كل لفظة منها إلىٰ شكلها وتُضاف إلىٰ وَفْقِها؛ وسوء الرَّصْفِ تقديم ماينبغى تأخيره منها، وصرفها عن وجوهها، وتغيير صيغتها، ومخالفة الٱستعمال فى نظمها. وقد قال العتابىّ : الألفاظ أجساد والمعانى أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدّمتَ منها مؤخرا وأخرتَ منها مقدّما، أفسـدتَ الصورة وغيرت المعنىٰ، كما أنه لو حُوّل رأسٌ إلىٰ موضع يدٍ أو يدٌ إلىٰ موضع رأس أو رِجْلٍ، لتحوّلت الخلقة وتغيرت الحِلْيَةُ .

قال فى "الصناعتين" : وقد أحسن فى هذا التمثيل .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله فى "المَثَل السائر": وهذا الموضع يَضِلُّ فى سلوك طريقه العلماءُ بصناعة صوغ الكلام من النظم والنثر، فكيف الجهالُ الذين لم تَنْفَحْهُمُ منه رائحة ؟ ومَنِ الذى يؤتيه الله فِطْرة ناصعة يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار، حتّى ينظر إلىٰ أسرار ما يستعمله من الألفاظ فيضعَها فى مواضعها ؟ وذلك أن تفاوت التفاضل لم يقع فى تركيب الألفاظ أكثر مما يقع فى مفرداتها، إذ التركيب أعسر وأشقُّ، ألا ترىٰ أن ألفاظ القرءان الكريم من حيث ٱنفرادها قد ٱستعملتها العرب ومَنْ بعدهم، وهى مع ذلك تفوق جميع كلامهم وتعلو عليه، وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب . وٱنظر إلىٰ قوله تعالىٰ : " وَقِيلَ يا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ "وما ٱشتملت عليه هذه الآية من الحُسن والطلاوة والرونق والمائية الّتى لا يقدر البشر علىٰ الإتيان بمثلها، ولا يستطيع أفصحُ الناس وأبلغُ العالَم مضاهاتها، علىٰ أن ألفاظها المفردة كثيرة الٱستعمال دائرة علىٰ الألسنة، فقوّة التركيب وحسن السبك هو الذى ظهر فيه الإعجاز وأَفْحمت فيه البلاغةُ من حيث لاقت اللفظةُ الأولىٰ بالثانية والثالثة بالرابعة، وكذلك سائر الألفاظ إلىٰ آخر الآية . ويشهد لذلك أنك لو أخذت لفظة منها من مكانها وأفردتها عن أَخَواتها لم تكن لابسة من الحُسْن والرونق مالبِسته فى موضعها من الآية، ولِكُلّ كَلِمَةٍ مَعَ صَاحِبَتِهَا مَقَامٌ .

قال ٱبن الأثير : ومن عجيب ذلك أنك ترىٰ لفظتين يدلّان علىٰ معنى واحد، كلاهما فى الٱستعمال علىٰ وزن واحد وعدّة واحدة ، إلا أنه لا يحسن ٱستعمال هذه فى كل موضع تستعمل فيه هذه ، بل يُفْرَق بينهما فى مواضع السَّبْك ، وهذا مما لا يدركه إلا من دَقَّ فهمُه، وجلّ نظره . وإذا نظرت إلىٰ قوله تعالىٰ : "مَا جَعَلَ ٱللّٰهُ

لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ" وقوله تعالىٰ : "رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مافِي بَطْنِي مُحَرَّرًا" رأيت ذلك عِيانا ، فإن الجوف والبطن بمعنى واحد ، وقد آستُعمِل الجوف فى الآية الأولىٰ والبطنُ فى الآية الثانية ولم يُستعمل أحدهما مكان الآخر، وكذلك قوله تعالىٰ: "مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مارَأَىٰ" وقوله : "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَىٰ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ" فالقلب والفؤاد سواء فى الدلالة و إن كانا مختلفين فى الوزن، ولم يستعمل أحدُهما موضع الآخر .

ومما يجرى هذا المجرىٰ قول الأعرج من أبيات الحماسة :

نَحْنُ بَنُو الموت إذا المَوْت نَزَلْ * لا عَارَ بالموت إذا حُمَّ الأَجَلْ

* الموت أحلىٰ عِنْدنا من العَسَل *

وقول أبى الطيب المُتَنَبِّى :

إذا شِئْتُ حَفَّتْ بى علىٰ كل سابح * رِجالٌ كأَنَّ المَوْتَ فى فَمِها شَهْدُ

فلفظة الشهد ولفظة العسل كلاهما حَسَنٌ مستعمل ، وقد جاءت لفظة الشهد فى بيت أبى الطَّيِّب أحسن من لفظة العسل فى بيت الأعرج، علىٰ أن لفظة العسل قد وردت فى القرءان دون لفظة الشهد فجاءت أحلىٰ من الشهد فى موضعها؛ وكثيرا ماتجد أمثال ذلك فى أقوال الشعراء المُفْلِقِينَ و بُلَغاء الكُتَّاب ومصاقع الخطباء، وتحتها دقائقُ ورموز، إذا عُلِمتْ وقِيسَ عليها كان صاحب الكلام قد آنتهىٰ فى النظم والنثر إلىٰ الغاية القصوىٰ فى وضع الألفاظ فى مواضعها اللائقة بها . قال : وأعجب من ذلك أنك ترىٰ اللفظة الواحدة تَرُوقك فى كلامٍ، ثم تراها فى كلام آخر فتكرهها، وقد جاءت لفظة فى آى القرآن الكريم بَهِجة رائقة ، ثم جاءت تلك اللفظة بعينها فى كلام آخر فجاءت ركيكة نابيةً عن الذوق ، بعيدة من الآستحسان ؛ فمن ذلك لفظة يؤذى فإنها وردت فى قوله تعالىٰ : "إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي

منكُمْ وَاللّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ" فجاءت فى غاية الحسن ونهاية الطلاوة، ووردت فى قول أبى الطيب :

تَلَذُّ له المُرُوءةُ وهى تُؤْذِى * وَمَنْ يَعْشَقْ يَلَذُّ له الغَرامُ

فجاءت رَثَّةً مستهجنة، وإن كان البيت من أبيات المعانى الشريفة، وذلك لقوة تركيبها فى الآية وضعف تركيبها فى البيت الشعر، والسبب فى ذلك أن لفظة تؤذى إنما تحسن فى الكلام إذا كانت مندرجة مع ما يأتى بعدها متعلقةً به كما فى الآية الكريمة حيث قال : "إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ" وفى بيت المتنبى جاءت منقطعة ليس بعدها شئ نتعلق به حيث قال :

* تَلَذُّ له المُروءةُ وهى تُؤْذِى *

ثم آستأنف كلاما آخر فقال :

* ومَنْ يَعْشَقْ يلَذُّ له الغَرامُ *

وقد جاءت هذه اللفظة بعينها فى الحديث النبوىّ مضافةً إلىٰ كاف خطاب، فأخذت من المحاسن بِزِمَامِها، وأحاطتْ من الطَّلاوة بأطرافها، وذلك أنه لما آشتكى النبيّ صلى الله عليه وسلم جاءه جبريل فَرَقَاهُ فقال : "بسم الله أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ داءٍ يُؤْذِيك" فصارت إلىٰ الحُسْن بزيادة حرف واحد، وهذا من السِّرّ الخفىّ الذى يَدِقُّ فهمه . وعلىٰ نهج لفظة يؤذى يردُ لفظة لى، فإنها لا تَحْسُن إلا أن تكون متعلقة بما بعدها، ولذلك لحِقَها هاء السَّكْتِ فى قوله تعالىٰ : "مَا أَغْنىٰ عَنِّى مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ" لما لم يكن بعدها مانتعلق به، بخلاف قوله : "إِنَّ هَذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ" فإنه لم تلحقها هاءُ السكت آكتفاء بما هى متعلقة به .

ومما يجرى مثل هـذا المجرىٰ لفظة القُمَّلِ، فإنها قد وردتْ فى قوله تعـالىٰ : "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ والقُمَّلَ والضَّفَادِعَ والدَّمَ" فجاءت فى غاية الحسن، ووردتْ فى قول الفرزدق :

مِنْ عِزِّهِ ٱجْتَحَرَتْ كُلَيْبٌ عنده * زَرْبا كأَنَّهُمُ لَدَيْهِ الْقُمَّلُ

فجاءت منحطة نازلة ، وذلك لأنها قد جاءت فى الآية مندرجةً فى ضمن كلام لم ينقطع الكلامُ عنـدها ، وجاءت فى البيت قافيةً ٱنقطع الكلام عندها . هـذا ملخص ما ذكره ٱبن الأثير، وقال : إنه لم يُسْبَق إليـه، وجعل الحاكم فيه الذوق السـليم دون غيره . وعلىٰ الجمـلة فلا نزاع فى أن تركيب الألفاظ يُعْطِى الكلامَ من القوّة والضَّعف ما تزيد به قيمةُ الألفـاظ الفصيحة ، ويرتفع به قدرها ، أو يُحُطّ مقدارها عن درجة الفصاحة والحسن إلىٰ رتبة القبح والاستهجان .

الوجه الثـانى

(فى بيان ما ينبنىٰ عليه تركيبُ الكلام وترتيبه . وله ركنان)

الركن الأول ـ أن يُسْلك فى تركيبه سبيل الفصاحة والخروج عن اللُّكْنَةِ والهُجْنة . والفصاحةُ فى المركب بأن يتصف بعد فصاحة مفرداته بصفات .

الصفة الأولىٰ

(أن يكون سليما من ضَعْفِ التأليف)

بأن يكون تأليف أجزاء الكلام علىٰ القانون النحوىّ المشتهر فيما بين معظم أصحابه حتّى لا يمتنع عند الجمهور ، وذلك كالإضمـارِ قبل الذكر لفظًا أو معنًى ، نحو ضرب غلامُه زيدا ، فإنه غير فصيح وإن كان ما ٱتصل بالفاعل فيـه ضميرَ المفعول به

ممـا أجازه الأخفش وتبعه ٱبن جنى لشـدّة ٱقتضاء الفعل المفعول به كالفـاعل ، وٱستشهد بقوله :

لمـا عصىٰ أصحـابُه مُصْـعَباً * أدّى إليه الـكيلَ صَاعًا بِصَاع

وقوله :

جزىٰ بَنُوه أبَا الغِيلَانِ عن كِبَرٍ * وحُسْنِ فِعْلٍ كَما يُجْزىٰ سِنِمَّارُ

وقوله :

أَلَا ليتَ شِعْرِى، هَلْ يَلُومَنّ قَومُه * زُهَـيرًا علىٰ ما جَرَّ من كُلِّ جانِبِ

الصفة الثانية

(أن يكون سليما من التعقيد)

وهو أن لا يكونـــ الـكلام ظاهرَ الدلالة علىٰ المعنىٰ الذى يُراد منه ، وهو علىٰ ضربين .

الضرب الأوّل ــ وهو الذى يسميه ابن الأثير (المعاظلة المعنوية) أن لا يكون ترتيب الألفاظ علىٰ وَفْق ترتيبِ المعانى بسبب تقديم أو تأخير، أو حذف أو إضمار، أو غير ذلك ممـا يوجب صُعوبةَ فهمِ المراد، و إن كان ثابتا فى الكلام، جاريا علىٰ القوانين كقول الفَرَزْدَقِ، فى مدح إبراهم بن هشام بن إسمـاعيل المخزومىّ، خالِ هشامِ بن عبد الملك :

وما مِثْلُهُ فى الناس إلا مُمَلَّكًا * أبو أمّـه حَىٌّ أبُوه يُقارِبه

أىْ وما مثل هذا الممدوح فى الناس حىٌّ يقاربه ويُشْبهه فى الفضائل إلا مُمَلَّكًا ، أبو أمّ ذلك المملَّك أبو الممدوح ، فيكون الممدوح خالَ الْمُمَلَّكِ ، والمعنىٰ أنه لا يمـاثل

أحدُ هذا الممدوحَ الذى هو إبراهيم بن هشام إلا ٱبن أخته هشام، افسده وعقَّد معناه، وأخرجه عن حدّ الفصاحة إلىٰ حدّ اللُّكْنة، وكذلك قوله فى الوليد بن عبد الملك :

إلىٰ مَلِكٍ، ما أُمُّــه من مُحَارِبٍ * أبوه، ولا كانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهْ

يريد إلىٰ مَلِكٍ ماأمّ أبيه من مُحَارِبٍ، وقوله :

تعَالَ فإنْ عاهَدْتَنِي لا تَخُونُنِي * نَكُنْ مثلَ مَنْ ياذِئْبُ يَصْطَحِبانِ

يريد نكن ياذئب مثلَ مَنْ يصطحبان، وقوله :

وليست خُرَاسَانُ التى كان خالِدٌ * بها أَسَــدٌ، إذ كان سيفا أميرُها

يريد أن خالد بن عبد الله كان قد وَلِىَ خراسَانَ و وليها أَسَــدٌ بعده، فمدح خالدا بأنه كان سيفا، بعد أن كان أسدٌ أميرَها، فكأنه يقول وليست خراسان بالبلدة التى كان خالد بها سيفا إذ كان أسد أميرها . قال ٱبن الأثير : وعلىٰ هــذا التقدير ففى كان الثانية ضميرُ الشأن والحديث، والجملة بعدها خبرٌ عنها، وقد قُدِّمَ بعض ما إذْ مضافةٌ إليه وهو أســد عليها، وفى تقديم المضاف إليه أو شىء منه علىٰ المضاف من القبح مالا خفاء به . قال : وأيضا فإن أسدا أحدُ جزأى الجملة المفسِّرَةِ للضمير، والضمير لايكون تفسيره إلا من بعده، ولو تقدّم تفســيره قبله لما ٱحتاج إلىٰ تفسير، ولما سماه الكوفيون الضمير المجهول، وعلىٰ نحو ذلك ورد قول الآخر :

فأَصبحَتْ بَعْدَ خَطَّ بَهْجَتِهَا * كَأَنَّ قَفْرًا رُسُــومَهَا قَلَمَــا

يريد فأصبحت بعــد بهجتها قَفْرا كأنّ قَلَمًا خط رسومها، فقــدّم خبر كأنّ وهو خَطّ عليها لجاء مختلًّا مضطربا، قال فى "المَثَل السائر" : وهذا البيتُ من أقبح هذا النوع لأن معانيَه قد تداخلتْ، وركب بعضُها بعضا، علىٰ أن ذلك قد وقع لجمع من فحول شعراء العرب . كقول ٱمرئ القيس :

هُمَا أَخَوَا فى الحَرْب من لاأَخَا لَهُ * إذا خاف يوما نَبْــوَةً فَدَعَاهُمَــا

يريد أخوا من لاأخوىْ له فى الحرب، وقول النابغة :

يُثِرْنَ الــثَّرىٰ حتّى يبُاشِرْنَ بَرْدَهُ * ، إذا الشمسُ مجّتْ ريقها، بالكَلَاكِلِ

قال أبو هلال العسكرىّ : وهذا البيت مستهجَن جِدًّا لأن المعنىٰ تَعَمّى فيــه ، يريد يُثِرْنَ الثرىٰ حتّى يبــاشرن برده بالكلاكل إذا الشــمس مجّتْ ريقها ؛ وقول أبى حَيَّةَ النُّمَيْرىّ :

كَمَا خُطَّ الكِتَابُ بِكَفِّ، يوما، * يَهُــودِىٍّ يُقَــارِبُ أو يُزِيلُ

يريد كما خط الكتاب بكف يهودىّ يوما يقارب أو يزيل؛ وقول ذى الرمة :

نَضَا البُرْدَ عنه وهو مِنْ،ذو،جُنُونِه * أجارِىَّ،صَهَّالٌ وصوتُ مُبَرْسَمِ

يريد وهو من جنونه ذو أجارِىَّ؛ قال فى "الصناعتين": كأنه تخليط كلامِ مجنون أو هُجْرُ مبرسَمٍ؛ وقول الشماخ :

تَخَامَصُ عن بَرْدِ الوِشَاحِ إذا مَشَتْ * تَخَامُصَ حَافِى الخَيْلِ فى الأمْعزِ الوَجِىٰ

يريد تَخَامُصَ حافى الخيل فى الوجىٰ الأمعز؛ قال أبو هلال العسكرىّ : وليس للمحْدَثِ أن يجعل هــذه الأبياتَ حجةً و يبنِىَ عليها فإنه لايعُذر فى شئ منها ، لإجماع الناس اليومَ علىٰ مجانبة أمثالهــا وآستجادة مايضِحُ من الكلام و يستبين ، وآسترذال ما يُشْكِلُ منه و يَسْتبهم؛ وقد كان عمر رضى الله عنه يمدح زهيرا بأنه لم يكن يعُاظل بين الكلام .

قال فى "المثل السائر" : والفرزدق أكبر الشعراء تعاظلا وتعقيدا فى شعره، كأنه كان يقصــد ذلك ويتعمّده، لأن مثله لايجىء إلا متكلَّفا مقصودا، و إلا فإذا ترك مؤلف الكلام نفسَــه تجرِى علىٰ سَجِيَّتِها وطبعها فى الآسترسال لم يعرِض له شىء من هذا التعقيد، بدليل أن المقصود من الكلام معدوم فى هذا النوع، إذ المقصود من

الكلام إنما هو الإيضاح والإبانة وإفهام المعنىٰ ، فإذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به، ولا فرقَ عند ذلك بينه و بين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما .

الضرب الثانى من التعقيد ـ أن لايكون الكلام ظاهر الدلالة علىٰ المراد بخلل فى ٱنتقال الذهن من المعنىٰ الأوّل المفهومِ بحسب اللغة إلىٰ الثـانى المقصود، لإيراد اللوازم البعيدة المفتقرة إلىٰ الوسائط الكثيرة، مع خفاء القرائن الدالة علىٰ المقصود، كقول العبَّاس بن الأحنف :

سَأَطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ عنكم لِتقْرُبُوا * وتَسْكُبُ عَيْنَاىَ الدُّموعَ لِتَجْمُدَا

يريد إنى أطلب بُعْدَ الدار عنكم لتقربوا منى ، وتسكُبُ عينـاى الدّموع لتجمد وتكُفَّ الدمعَ بحصول التلاقى ، والمعنىٰ أنّى طبت نفسا بالبعد والفِراق ، ووطَّنْتُ نفسى علىٰ مقاساة الأحزان والأشـواق ، وأتجَرَّعُ الغُصَص ، وأحتمل لأجلها حُزْنا يُفيضُ الدّموع من عينَىَّ لأتسببَ بذلك إلىٰ وصل يدوم، ومَسَرَّة لا تزول، فتجمُد عينى و يرقأدمعى ، فإن الصـبر مِفْتَاحُ الفَرَجِ ؛ فكنّى بسَكْبِ الدموع عن الكا بة والحُزْن ، وهو ظاهر المعنىٰ لأنه كثيرا ما يُجعـل دليلا عليـه ، يقال أبكانى الدهرُ وأضحكنى بمعنى ساءنى وسرّنى؛ وكنّى بجمود العين عما يوجبه دوامُ التلاقى من الفرح والسرور؛ فإن المتبادر إلىٰ الذهن من جمود العين بخلُها بالدمع عند إرادة البكاء حال الحزن ، بخلاف ماقصـده الشاعر من التعبير به عن الفَرَح والسرور ، وإن كانت حالة جمود الدمع مشتركةً بين بخل العين بالدمع عند إرادة البكاء، وبين زمن السرور الذى لم يُطلب فيه بكاء؛ وكذلك يجرى القول فى كل لفظ مشترك ينتقل الذهن فيه من أحد المعنيين إلىٰ الآخر إذا لم يكن هناك قرينة تصرفه إلىٰ أحدهما ، كما صرح به الرمانىّ وغيره، خصوصا إذا كان أحد المعنيين الذى يدلّ عليه اللفظ المشترَك

مستقبحا كما نبه عليه ابن الأثير فى الكلام على فصاحة اللفظ المفرد؛ ألا ترى أن لفظة التعزير مشتركة بين التعظيم والإكرام، وبين الإهانة بسبب الخيانة التى لا توجب الحدّ: من الضرب وغيره، والمعنيان ضدّان فحيث وردت معها قرينة صرفتها إلى معنى التعظيم جاءت حَسَنَةً رائقة، وكانت فى أعلى درجات الفصاحة؛ وعلى نحو ذلك ورد قوله تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وقوله: "فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ" الآية فإنه لما ورد معها قرينة التوقير فى الآية الأولى وقرينة الإيمان والنصر فى الآية الثانية زال اللبس وحَسُنَ الموْقع، ولو وردت مهملةً بغير قرينة بإرادة المعنى الحسن، لسبق الفهم إلى المعنى القبيح، كما لو قلتَ عزَّر القاضى فلانًا وأنت تريد أنه عظمه، فإنه لا يتبادر من ذلك إلى الفهم إلا أنه أهانه، وعلى هذا النَّهج يجرى الحكم فى الحسن والقبح مع القرينة وعدمها.

قال ابن الأثير رحمه الله: فما ورد مع القرينة فجاء حسنا قول تأبط شرا:

أقول لِلحْيَانٍ، وَقد صَفِرَتْ لَهُمْ * وِطَابى ويومى ضَيِّقُ الجُحْرِ مُعْوِرُ

فإنه أضاف الجُحْرَ إلى اليوم فأزال عنه هُجْنة الأشتباه لأن الجحر يطلق على كل ثقب كجحر الحَيَّة واليربوع ونحوهما، وعلى المحل المخصوص من الحيوان فإذا ورد مهملا بغير قرينة تُخَصِّصُه سبق إلى الفهم المعنى القبيحُ لأشتهاره دون غيره(١). ومما ورد مهملا بغير قرينة فجاء قبيحا قول أبى تَمَّام:

أعطيتَنِى ديةَ القتيلِ وليس لى * عَقْلٌ ولا حَقٌّ عليك قَدِيمُ

فإن المتبادر إلى الأفهام من قوله وليس لى عقل أنه من العقل الذى هو ضدّ الجنون ولو قال وليس لى عليك عقل لزال اللبس. قال: فيجب إذًا على صاحب هذه الصناعة أن يراعىَ فى كلامه مثل هذا الموضع.

---

(١) أى الفرج.

الصـــــفة الثالثة

(أن يكون الكلام سليما من تَنافُر الكلمات و إن كانت مفرداته فصيحة)

وقد ٱختلف فى معنىٰ هذا التنافر علىٰ ثلاثة مذاهب .

المذهب الأوّل ـ أن المراد بتنافر الكلمات أن يكون فى الكلام ثِقَلٌ علىٰ اللسان ويَعْسُرُ النطقُ به علىٰ المتكلم ، وإليه ذهب السَّكّاكىّ وغيره من علماء البيان .

وهو علىٰ ضربين .

الضرب الأوّل ـ أن يكون فيه بعض ثقل ، كقول أبى تَمَّـام :

كَرِيمٌ متىٰ أمدحْه أمدحْه والورىٰ * معى ، و إذا مالُمْتُه ، لُمْتُه وَحْدِى

فقوله أمدحه أمدحه فيه بعضَ الثِّقَل علىٰ اللسان فى النطق به ، وذلك أن ا لحاء والهـاء متقاربان فى المخرج ، وقد ٱجتمعا فى قوله أمدحه ، ثم تكررت الكلمة فى البيت مع تَقَارُبِ مخرج الحرفين فثقلت بعض الثقل .

وأوّل من نبه علىٰ ذلك الأستاذ ٱبن العَميد رحمه الله .

وممـا يحكىٰ فى ذلك أن الصاحب بن عَبَّادٍ أنشد هذا البيت بحضرة ٱبن العميد ، فقال له ٱبن العميد : هل تعرف فى هذا البيت شيئا من الهُجْنَة ؟ فقال : نعم ، مقابلة المدح باللوم و إنمـا يقابل المدح بالذم والهجاء ، فقـال له ٱبن العميد : غيرَ هـذا أريدُ ، قال : لا أرىٰ غير ذلك . فقال ٱبن العَميد : هـذا التكرير فى أمدحه أمدحه مع الجمع بين الحاء والهاء وهما من حروف الحلق خارج عن حدّ الاعتدال ، نافر كلَّ التنافر ، فاستحسن الصاحب بن عَبَّادٍ ذلك .

قال الشيخ سعد الدّين التفتازانىّ فى شرح تلخيص المِفْتاح : ولا يجوز أن يراد أن الثقل فى لفظة أمدحه دون تكرار ، فإنّ مثل ذلك واقع فى التنزيل نحو قوله تعالىٰ :

"فَسَبِّحْهُ" والقول باشتمال القرءان علىٰ كلام غير فصيح ممـا لايجترئ عليه المؤمن .

الضرب الثانى ـ ما كان شديد الثقل بحيث يضطرب لسان المتكلم عند إرادة النطق به، كقوله :

وَقَـبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرِ * وليس قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

قال فى عجائب المخلوقات : إن من الجن نوعا يقال له الهاتف، فصاح واحد منهم علىٰ حَرْبِ بن أُمَيَّة فمات، فقال ذلك الجِنِّىّ هذا البيتَ . قال المسعودىّ فى "مروج الذهب" : والدليل علىٰ أنه من شعر الجن أمران ، أحدهمـا الرواية ، والثانى أنه لا يقوله أحد ثلاث مرات متواليات إلا تَعْتَعَ فيه . قال ضـياء الدين بن الأثير : والسبب فى ثقل البيت تكرير حرف الباء والراء فيه، فهذه الباءات والراءات فيه كأنها سِلْسِـلة ، ولا خَفَاءَ بمـا فى ذلك من الثقل . قال : وكذلك يجرى الحكم فى كل ما تكرر فيه حرف أو حرفان إلا أنه لم يُطْلِق علىٰ ذلك ٱسمَ التنافر، وجعل التنافر قسما مستقلا برأسه كما سيأتى ، وعدّ هذا من أنواع المعاظلة اللفظية، ثم ذكر من أمثلته قول الحريرى فى مقاماته :

وٱزْوَرَّ مَنْ كانَ له زَائِراً * وعافَ عَافِى العُرْفِ عِرْفَانَهُ

وقول كُشَاجِم :

والزَّهْرُ والقَطْرُ فى رُبَاهَا * مابينَ نَظْـمٍ وبيـنَ نَثْرِ
حدائقٌ ، كَفُّ كلِّ رِيحٍ * حلَّ بهـا خَيْطُ كُلِّ قَطْرِ

وقول الآخر :

مَلِلْتُ مِطَالَ مولود مُفَدًّى * مَلِيحٍ مانع مِـنِّى مُرَادى

وقول المتنبى :

كَيْفَ تَرْثِى التى ترىٰ كُلَّ جَفْنٍ * رَاءَهَا غَيْرَ جَفْنِهَـا غَـيْرَ رَاقِى

وعاب بيت الحريرى لتكرر العين فيه فى قوله :

* وَعَافَ عَافِي العُرْفِ عِرْفَانَهُ *

وعاب البيت الثانى من بيتى كشاجم لتكرر الكاف فيه فى "كَفّ وكُلّ" الاولى و"كل" الثانية، وقال هذا البيت يحتاج الناطق به إلى بِرْكَارٍ يضعه فى شِدْقِهِ حتّى يديره له ؛ وعاب البيت الذى يليه لتكرر الميم فيه فى أوائل الكلمات ، وقال : هذه الميمات كأنها عُقَدٌ ، متصلة بعضها ببعض ؛ وعاب بيت المتنبى لتكرر الجيم والراء فى أكثر كلماته ، وقال : هذا وأمثاله إنما يَعْرِض لقائله فى نوبة الصَّرْع التى تنوبه فى بعض الأيام . قال : وكان بعض أهل الأدب من أهل عصرنا يستعمل هذا القسمَ من المعاظلة كثيرا فى كلامه نثرا ونظما ، وذلك لعدم معرفته لسلوك الطريق كقوله فى وصف رجل سخىّ : "أنت المُرِيح كبِد الريح ، والمُلِيح إن تجهَّم المَلِيح بالتكليح ؛ عند سائل يَلُوح ، بل تفوق إذ تَرُوق مَرْأىٰ يُوح ؛ يامغبوقَ كأسِ الحمد يامَصْبُوح ضاق عن نَدَاك اللَّوح ، وببابك المفتوح يستريح ويُرِيح ذو التَّبْرِيح ، ويُرفِّه الطَّلِيح" فانظر إلى حرفى الراء والحاء كيف لزمهما فى كل لفظة من هذه الألفاظ فجاء على ما تراه من الثقل والغَثَاثة .

ثم قال : وآعلم أن العرب الذين هم الأصل فى هذه اللغة قد عَدَلُوا عن تكرير الحروف فى كثير من كلامهم ، وذاك أنه إذا تكرر الحرف عندهم أدغموه آستحسانا ، فقالوا فى جعل لك : جَعَلَّكَ ، وفى تضربوننى تضربُونِّى ، وكذلك قالوا : آستعدّ فلان للأمر إذا تأهب له ، والأصل فيه آستعدد ، وآسْتَتَبَّ الأمر إذا تهيأ والأصل فيه آستتبب ، وأشباه هذا كثير فى كلامهم حتّى إنهم لشدّة كراهتهم لتكرير الحروف أبدلوا الحرفينِ(١) المكررين حرفا آخر غيره ، فقالوا : أمليتُ

(١) صوابه أحد الحرفين كما هو نص العبارة فى المثل السائر .

الكتّاب ، والاصل فيه أمللت ، فأبدلوا اللامَ ياءً طلبا للخفة وفِرارا من الثقل ، وإذا كانوا قد فعلوا ذلك فى اللفظة الواحدة فما ظنك بالالفاظ الكثيرة التى يتبع بعضها بعضا .

قلت : ليس تكرار الحروف مما يوجب التنافر مطلقا كما يقتضيه كلامه بل بحسب التركيب ، فقد تتكرر الحروف وتترادف فى الكلمات المتتابعة مع القطع بفصاحتها وخِفّتها على اللسان ، وسهولة النطق بها ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿قِيلَ يَانُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّن مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كيف ٱجتمع فيه ست عشرة ميما فى آية واحدة ، قد تلاصق منها أربع ميمات فى موضع وميمان فى موضع ، مع ما ٱشتملت عليه من الطّلاوة والرَّوْنَقِ الذى ليس فى قدرة البَشَر الإتيان بمثله ، والله أعلم .

المذهب الثانى ـ أن المراد بتنافر الكلمات أن تكون أجزاء الكلام غير متلائمة ، ومعانيه غير متوافقة بأن يكون عجز البيت أو القرينة غير ملائم لصدره ، أو البيت الثانى غير مشاكل للبيت الأول ، وعليه جرى العسكرى فى "الصناعتين" فمما ٱختلفت فيه أجزاء البيت الواحد قول السموءل :

فَنَحْنُ كماءِ المُزْنِ ما فى نِصَابِنَا * كَهَامٌ ولا فِينَا يُعَدُّ بَخِيلُ

فليس بين قوله ما فى نصابنا كَهَامٌ وقوله فنحن كماء المزن مناسبة لأن المراد بالكَهَام الذى لا غَنَاءَ به ولا فائدة فيه ، يقال قوم كَهَامٌ أى لاغَناءَ عندهم ، ورجل كَهَامٌ أى مُسِنٌّ ، كذلك سَيْفٌ كَهَامٌ أى كَلِيلٌ ، ولسان كَهَامٌ أى عَيِيٌّ ، وفرس كَهَامٌ أى بطىء ، فهو يصف قومه بالنَّجْدَةِ والبأس ، وأنه ليس فيهم من لا يُغْنِى ، وماء المزن إنما يحسُن فى وصف الجود والكرم . قال فى "الصناعتين" : ولو قال : ونحن لُيُوثُ الحرب وأولو الصَّرامة والنجدة ، ما فى نِصَابنا كَهَامٌ ، لكان الكلام مستويا ؛

أو فنحن كماء المزن صَفَاءَ أخلاق وبذل أَكُفٍّ، لكان جيدا، ومن ذلك قول طَرَفة:

ولستُ بِحَلَّالِ التِّلَاعِ مخافةً * ولكن متىٰ يَسْتَرْفِدِ القومُ أَرْفِد

فالمصراع الثانى من البيت غير مشاكل لصورة المصراع الأوّل وإن كان المعنىٰ صحيحا لأنه أراد ولست بحلّال التِّلَاع مخافةَ السؤال ولكنى أنزل الأمكنة المرتفعة ليَنتابونى وأَرْفِدَهم، وهذا وجه الكلام فلم يعبر عنه تعبيرا صحيحا ولكنه خلطه وحذف منه حذفا كثيرا فصار كالمتنافر، وأدواء الكلام كثيرة، ومنه قول الأعشىٰ:

وإنّ آمرأً أسرىٰ إِلَيْكِ ودُونَهُ * سُهُوبٌ ومَوْمَاةٌ وبيداء سَمْلَقُ،
لَمَحْقُوقَةٌ أن تَسْتَجِيبِي لِصَوْتِهِ * وأن تَعْلَمِى أن المُعَانَ مُوَفَّقُ

فقوله: وأن تعلمى أن المُعَانَ موفق غير مشاكل لما قبله، وعلىٰ نحو ذلك ورد قول عَنْتَرَةَ:

حَرِقُ الجَنَاحِ كأنَّ لَحْيَيْ رَأْسِه * جَلَمَانِ بالأخبار هَشٌّ مُولَعُ
إنَّ الذِينَ نَعَبْتَ لِي بِفِرَاقِهِم * هُمْ أسلمُوا لَيْلَ التَّمَامِ وَأَوْجَعُوا

فليس قوله بالأخبار هشٌّ مُولَعُ من صفة جناحيه ولَحْيَيْه، وقريب منه قول أبى تَمَّام:

مُحَمَّدُ إنَّ الحاسِدِينَ شُهُودُ * وإنَّ مُصَابَ المُزْنِ حيث تُرِيدُ

فليس النصف الثانى من النصف الأوّل فى شيء، وكذلك قول الطالبىّ:

قومٌ هدىٰ اللهُ العبادَ بجدّهم * والمُؤْثِرُون الضيفَ بالأزواد

فلا مناسبة بين صدر البيت وعَجُزه بوجه.

وعدّ بعض الأدباء من هذا النوع قول آمرئ القيس:

كأنِّىَ لم أَرْكَبْ جوادًا لِلَذَّة، * ولم أَتَبَطَّنْ كاعِبًا ذاتَ خَلْخَالِ
ولم أَسْبَإِ الزِّقَّ الرَّوِىَّ ولم أقُلْ * لِخَيْلِيَ كُرِّى كَرَّةً بعد إجفال

وقال : لو وضع مصراعَ كل بيت من هـذين البيتين فى موضع الآخر، لكان أحسن وأدخل فى آستواء النسج، فكان يقال :

كأنى لم أركب جوادا، ولم أقل * لخيلى كُرِّى كرة بعـد إجفال

ولم أسبإ الزق الروىّ للذة، * ولم أتبطَّنْ كاعبا ذات خَلْخَال

لأن ركوب الجواد مع ذكر كرور الخيل أجود، وذكر الخمْر مع ذكر الكواعب أحسن . قال فى "الصـناعتين" : قال أبو أحمد : والذى جاء به آمرؤ القيس هو الصحيح لأنّ العرب تضع الشيء مع خلافه، فيقولون : الشدّة والرخاء، والبُؤْس والنعيم، ونحو ذلك . وكذلك كل مايجرى هذا المَجْرىٰ . قال أبو هلال العسكرىّ : أخبرنى أبو أحمد قال : كنت أنا وجماعةٌ من أحداث بغـدادَ ممن يتعاطىٰ الأدبَ نختلف إلىٰ مُدْرِك نتعلم منـه الشعر، فقال لنا يوما : إذا وضعتم الكلمة مع لِفْقِهَا، كنتم شعراء . ثم قال : أجيزوا هـذا البيت :

* أَلَا إِنَّمـا الدُّنيا مَتَـاعُ غُرُورِ *

فأجازه كل واحد منا بشيء، فلم يَرْضَهُ . فقلت أنا :

* وإن عَظُمَتْ فى أَنْفُسٍ وصُدُورِ *

فقال : هـذا هو الجيِّد المختار . قال : وأخبرنى أبو أحمد الشطنىّ قال : حدثنا أبو العباس بن عربىّ، قال : حدثنا حمـاد بن يزيد بن جبلة ، قال : دفن مسلمةُ رجلا من أهله ثم قال :

* نَرُوحُ ونَغْدُو كُلَّ يومٍ وليلةٍ *

ثم قال لبعضهم : أجز فقال :

* فحتّىٰ متىٰ هذا الرَّواحُ مَعَ الغُدُوّ *

فقال مسلمة : لم تصنع شيئا ، ثم قال لآخر : اجز فقال :

* فيالك مَغْدًى مرَّةً ومَرَاحَا *

فقال : لم تصنع شيئا، ثم قال لآخر : أجز فقال :

* وعَمَّا قليلٍ لا نَرُوحُ ولا نَغْدُو *

فقال : الآن تم البيت ، وأشباه ذلك ونظائره كثيرة . ومما آختلف فيه البيت الأوّل والثانى قول آبن هَرْمَةَ :

وإنّى وتَرْكى ندىٰ الأكْرمينْ * وقَدْحى بِكَفّىَّ زَنْدًا شَحَاحَا

كتاركةٍ بَيْضَهَا بالعَـــرَاء * ومُلْبِسَةٍ بيضَ أخرىٰ جَنَاحَا

وقول الفَرَزْدَقِ :

فإنَّكَ إذ تَهْجُو تميمًا وترتشِى * سَرَابيلَ قَيْسٍ أوسُحُوفَ العَمَائم

كَمُهْريقِ ماء بالفَلاةِ، وغَرَّهُ * سَرَابٌ أَذَاعَتْهُ رِياحُ السَّمَائم

كان ينبغى أن يكون بيت آبن هَرْمَةَ الأوّلُ مع بيت الفرزدق الثـانى ، وبيتُ الفرزدق الأوّلُ مع بيت آبن هَرْمَةَ الثانى، فيقال فى الأوّل :

وإنى وتركى ندىٰ الأكرمين * وقدحى بِكَفّىّ زَنْدًا شحـاحا

كمهريق ماءٍ بالفـلاة وغَرّه * سراب أذاعته رياح السمائمِ

مع تغيير إحدىٰ القافيتين، ويقال فى الثانى :

وإنك إذ تهجو تميما وترتشى * سرابيلَ قَيْسٍ أو سحوفَ العمائمِ

كتاركة بيضهـا بالعـــراء * وملبسة بيض أخرىٰ جَنَاحا

مع تغيير إحدىٰ القافيتين حتّى يصح التشبيه للشاعرين جميعا .

المذهب الثالث — أن المراد بتنافر الكلمات أن تذكر لفظة أو ألفاظ يكون غيرها مما فى معناها أولىٰ بالذكر، فتجىء الكلمة غير لائقة بمكانها، وهو ما ٱصطلح عليه ابن الاثير فى "المَثَل السائر". وهو علىٰ ضربين .

الضرب الأوّل ، ما يوجد منه فى اللفظة الواحدة فيمكن تبديله بغيره مما هو فى معناه، سواء كان ذلك الكلام نظما أو نثرا، وهو علىٰ أنواع شتّٰى .

منها فك الإدغام فى غير موضع فَكِّه، كقول ٱبن أمّ صاحب :

مَهْلًا أعاذلَ قد جَرَّبْتِ من خُلُقِي * أنى أجودُ لأقوام وإنْ ضَنِنُوا

ففكّ الإدغام فى ضننوا، وكان الأحسن أن يقال : وإن ضنوا أى بَخِلُوا .

وعلىٰ حدّ ذلك ورد قول المتنبي :

فلا يُبْرَمُ الأمرُ الذى هو حَالِلٌ * ولا يُحْلَلُ الأمرُ الذى هو يُبْرِمُ

فلو أدغم لجاءت اللفظة قارّة فى مكانها، غير قلقة ولا نافرة؛ وكذلك كل ما جاء علىٰ هذا النهج فلا يحسن أن يقال بَلَّ الثوبَ فهو بالل؛ ولا سَلَّ السيفَ فهو سالل، ولا هَمَّ بالامر فهو هامم، ولاخط الكتاب فهو خاطط، ولاحَنَّ إلىٰ كذا فهو حانن؛ وهذا لو عُرِض علىٰ من لاذوق له أدركه، فكيف من له ذوق صحيح كابى الطيب ؟ لكن لابدّ لكل جواد من كبوة .

ومنها زيادة حرف فى غير موضعه، كقول دِعْبِلٍ :

شفيعَك فاشكُرْ فى الحوائج، إنَّهُ * يَصُونُكَ عن مكروهها وهو يَخْلَقُ

فالفاء فى قوله فاشكر زائدة فى غير محلها، نافرة عن مكانها . قال الوزير ضياء الدين ابن الاثير : أنشدنى بعض الأدباء هذا البيت فقلت له : عجز هذا البيت حسن، واما صدره فقبيح : لأن سبكه قَلِقٌ نافر، والفاء فى قوله فاشكر كأنها رُكْبَةُ البعير،

وهى فى زيادتها كزيادة الكَرِش، فقال : لهذه الفاء فى كتاب الله تعالىٰ أشباه : كقوله تعالىٰ : ﴿يأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فقلت له بين هذه الفاء وتلك فرق ظاهر يدرك بالعلم أوّلا وبالذوق ثانيا، أما العلم فإن الفاء فى قوله تعالىٰ : "وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ" فهى الفاء العاطفة إذ وردت بعد قوله : "قُمْ فَأَنْذِرْ" وهى مثل قولك : ٱمْشِ فأسْرِع، وقلْ فأبْلِغْ، وليست الفاء التى فى قول دِعْبِلٍ : شفيعك فاشكر من هذا القبيل، بل هى زائدة ولا موضع لها، وإنما نسبتها أن يقال ربك أو ثيابك فطهر من غير تقدّم معطوف عليه(١)، وحاشا فصاحة القرءان من ذلك. فأذعن بالتسليم ورجع إلىٰ الحق. قال : ومثل هذه الدقائق التى ترد فى الكلام نظما كان أو نثرا لايتفطَّن لها إلا الراسخُ فى علم الفصاحة.

ومنها وصل همزة القطع فى الشعر وإن كان ذلك جائزا فيه بخلاف النثر كقول أبى تمَّام :

قَرَانِى اللُّها والوُدَّ حتّى كأنَّما * أفاد الغِنَى من نائلِى وفوَائِدِى

فأصْبَح يلْقانِى الزَّمانُ مِنَ ٱجْله * بإعْظَامِ مولُودٍ ورأفةِ والِدِ

فقوله من ٱجله بوصل همزة القطع من الكلام النافر، وعلىٰ حدّه ورد قول أبى الطَّيِّب :

يُوَسِّطُهُ المَفَاوِزَ كلَّ يَوْم * طِلَابُ الطَّالِبِينَ لَا ٱلٱنْتِظَارُ

فقوله لا الٱنتظار بوصل همزة الانتظار كلام نافر.

ومنها قطع همزة الوصل فى الشعر أيضا وإن كان جائزا فيه كقول جميل :

أَلَا لَا أرىٰ إثْنَيْنِ أجمَلَ شِيمَةً * علىٰ حَدَثَانِ الدَّهْرِ مِنّى ومن جُمْلِ

(١) لم يذكر الثانى وقد ذكره فى "المثل السائر" فقال. وأما الذوق فانه ينبو عن الفاء الواردة فى قول دعبل ويستثقلها ... الى أن قال فلما سمع ماذكرته أذعن الخ.

وقوله أيضا :

إذا جَاوَزَ الإثْنين سِرٌّ فإنَّهُ * بِنَشْرٍ وتَكْثِيرِ الوُشَاةِ قَمِينُ

فقطع ألف الوصل فى لفظ الآثنين فى البيت الأوّل والثانى .

ومنها أن يفرّق بين الموصوف والصفة بضمير من تقدّم ذكره كقول البُحْتُرِىّ :

حَلَفْتُ لهـا باللهِ يَوْمَ التفَرُّقِ * وبالوجْدِ مِنْ قَلْبِى بها المُتَعَلِّقِ

تقديره من قلبى المتعلق بها، فلما فصل بين الموصوف الذى هو قلبى والصفة التى هى المتعلق بالضمير الذى هو بها ، قَبُحَ ذلك . ولو قال من قلب بهـا متعلق لزال ذلك القبح وذهبت تلك الهُجْنة . ونحو ذلك .

الأصـــل الرابع

(المعرفة بالسجع الذى هو قِوام الكلام المنثور وعُلوّ رتبته، ويتعلق به ستة أغراض)

الغرض الأوّل

(فى معرفة معناه فى اللغة والآصطلاح، وبيان حكمه فى حالتى الدرج والوقف)

اما فى اللغة فقال فى "موادّ البيان" : إنه مشتق من الساجع : وهو المستقيم لآستقامته فى الكلام، وآستواء أوزانه . وقيل من سجع الحمامة : وهو ترجيعها الصوت علىٰ حدٍّ واحد، يقال منه سَجَعَتِ الحمامةُ تَسْجَعُ سَجْعا فهى ساجعة ؛ سمِّى السجع فى الكلام بذلك لأن مقاطع الفصول تأتى علىٰ ألفاظ متوازنة متعادلة ، وكلمات متوازية متماثلة . فأشبه ذلك الترجيعَ .

وأما فى الآصطلاح، فقال فى "موادّ البيان" : هو تقْفِيَة مقاطع الكلام من غير وزن، وذكر نحوه فى "المثل السائر" فقال : هو تواطؤ الفواصل من الكلام المنثور علىٰ حرف واحد؛ ويقال للجزء الواحد منه سجعة ، وتجمع علىٰ سَجَعَاتٍ ، وفِقْرَةٍ (بكسر

الفاء) أخذا من فِقْرَةِ الظهر : وهى إحدىٰ عظام الصُّلْبِ، وتجمع علىٰ فِقَرٍ وفِقْرات بكسر الفاء وسكون القاف وفتحها ، وربمـا فتحت الفاء والقاف جميعا ، ويقـال لهـا أيضا قَرِينـة لمقارنة أختها وتجمع علىٰ قرائنَ ، ويقال للحرف الأخير منها حرف الرَّوِىّ والفاصلة .

وأما بيـان حكمه فى الوقف والدّرج فٱعلم أن موضوع حكم السـجع أن تكون كلمات الأسجاع ساكنة الأعجاز، موقوفا عليها بالسكون فى حالتى الوقف والدّرج : لأن الغرض منها المناسبة بين القرائن ، أو المزاوجة بين الفِقَر، وذلك لايتم إلا بالوقف . ألا ترىٰ أن قولهم : ما أبْعَدَ مافات ، وما أقْرَبَ ماهوآت ، لو ذهبت تصل فيه لم يكن بدّ من إعطاء أواخر القرائن ما يعطيـه حكم الإعراب فتختلف أواخرُ القرائن ويفوت الساجع غرضُه .

الغرض الثانى

(فى بيان حُسْن موقعه من الكلام)

قال فى "الصناعتين" : لا يحسن منثور الكلام، ولا يحلو حتّى يكون مُزْدَوِجًا ، ولا تجد لبليغ كلاما محلولا من الآزدواج، وناهيك أن القرءان الكريم الذى هو عنصر البلاغة ومَنَاطُ الإعجاز مشحونٌ به ، لاتخلو منه سورة من سُوَرِهِ وإن قَصُرَتْ. بل ربمـا وقع السجع فى فواصل جميع السورة ، كما فى سورة النجم، وٱقتربت، والرحمن وغيرها من السُّوَر . بل ربمـا وقع فى أوساط الآيات، كقوله تعالىٰ : ﴿الَّذى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وقوله : "لَوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ" وقوله : "وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ" وما أشبه ذلك . وكذلك وقع فى الكثير من كلام رسول الله صلى الله عليه وسـلم كقوله عليه السلام

عند قدومه المدينة الشريفة : "أَفْشُوا السَّلام، وأَطْعِمُوا الطَّعَام، وصِلُوا الأرْحام، وصَلُّوا باللَّيْل والنَّاسُ نِيَام، تَدْخُلوا الجنَّةَ بسَلَام". بل ربما صرف صلى الله عليه وسلم الكلمة عن موضوعها فى تصريف اللغة طلبا للمزاوَجَة : كقوله فى تعويذه لابن ابنته : "أُعِيذُه مِنَ الهـامَّة والسامَّه، والعَيْن اللَّامَّه" وأصلها فى اللغة المُلِمَّة لأنها من أَلَمَّ، فعبر عنها باللامة لموافقة الهامَّة والسامَّة؛ وكذلك قوله صـلى الله عليه وسلم للنساء : "انْصَرِفْنَ مَأْزُورات غَيْرَ مَأْجُورات" والأصـل فى اللغة أن يقال مَوْزُورات أخذا من الوِزْر، فعبر بمأزورات لموافقة مأجورات؛ وعلى ذلك كان يجرى كلام العرب فى مُهِمِّ كلامهـم من الدعاء وغيره : كقول بعض الأعراب وقد ذهب السـيل بابنـه : اللهم إن كُنْتَ قد أَبْلَيْتَ ، فطَالَمَـا عافَيْت . وقول الآخر : اللهم هَبْ لنا حبك ، وأَرْضِ عنا خلقك، ونحو ذلك . أما ماورد من أنه صـلى الله عليه وسلم حين قضى على رجل فى الجَنِين بغرّة عبدٍ أو أمةٍ، فقال الرجل : أَأَدِى من لاشَرِب ولا أكل؛ ولا نَطَقَ ولا استَهَل، ومثل ذلك يُطَل . فقال النبى صلى الله عليه وسلم "أسجعا كَسَجْع الكُهَّان" فليس فيه دلالة على كراهة السجع فى الكلام وإن تمسك به بعض من نَبَا عن السجع طبعُه ، ونفرت منه قريحته . إذ يحتمل أنه صـلى الله عليه وسلم إنمـا كره السجع من ذلك الرجل لمشابهة سجعه حينئذ سجعَ الكُهَّان، لمـا فى سجعهم من التكلُّف والتعسُّف كما وجهه أبو هلال العسكرى ، وإما لجَرَيانه على عادتهم فى الجواب فى الأحكام وغيرها بالكلام المسجوع كما وجهه غيره؛ أو أنه إنمـا كره حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع بانكار إيجاب الدية لا نفس السجع المأتى به كما اختاره صاحب "المَثَـل السائر" ولو كره صلى الله عليه وسلم السجع نفسَه، لاقتصر على قوله أسجعا ولم يقيده بسجع الكُهَّانِ .

الغرض الثالث

(فى بيان أقسام السجع ، وهى راجعة إلىٰ صنفين)

الصـــــنف الأوّل

(أن تكون القرينتان متفقتين فى حرف الرَّوِىّ ، ويسميه الرُّمَّانِىُّ السجع الحالِى وعليه عمل أكثر الكُتَّاب من زمن القاضى الفاضل ، وهَلُمَّ جرّا إلىٰ زماننا ، وفيه ثلاث مراتب)

المرتبة الأولىٰ ــ أن تكون ألفاظ القرينتين مستوية الأوزان متعادلة الأجزاء ويسمّى التصريع ، وهو أحسن أنواع السجع وأعلاها . ومنه فى النثر قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ " . وقول النبى صلى الله عليه وسلم فى دعائه : " اللَّهُمَّ اقْبَلْ تَوْبَتِى ، وَٱغْسِلْ حَوْبَتِى " . وقوله للأنصار " إنكم لَتَكْثُرُونَ عند الفَزَع ، وتَقِلُّونَ عِنْد الطَّمع " وقول بعض الأعراب فى وصف سنةٍ جَدْبة : سنة جَرَدتْ ، وحالٌ جَهَدَتْ ، وأيدٍ جمدت ، ونحو ذلك . ومثاله فى النظم قول الخنساء :

حَامِى الحقيقةِ ، محمودُ الخليقة ، مهـــــدىُّ الطريقـــةِ ، نَفَّاعٌ وضَرَّارُ !
جوّاب قاصـيةٍ ، جَزَّازُ ناصـيةٍ ، * عـــدّاد ألوية ، للخيـــل جرّارُ !

المرتبة الثانية ــ أن يختص التوازن بالكلمتين الأخيرتين من الفِقْرتين فقط ، دون ماعداهما من سائر الألفاظ ، كقوله تعالىٰ : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ ثم قال : ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ . وكقول الحريرىّ فى مقاماته : أَلْجَأَنِى حُكْمُ دَهْرٍ قَاسِطْ ، إلىٰ أن أَنْتَجِعَ أرضَ وَاسِط . وقوله : وأَوْدىٰ الناطقُ والصَّامت ، ورَثىٰ لنا الحاسدُ والشَّامِت ، وما أشبه ذلك .

المرتبة الثالثة ـ أن يقع الاتفاق فى حرف الرَّوِىّ مع قطع النظر عن التوازُن فى شىءٍ من أجزاء الفِقْرة فى آخرٍ ولا غيره، ويسمّى المطرّف . كقوله تعالى : ﴿مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ وقولهم : جَنابه مَحَطُّ الرِّحال، ومُخَيَّمُ الآمال. وما يجرى هذا المَجْرىٰ .

الصـــنف الثـانى

(أن يختلف حرف الرَّوِىّ فى آخر الفِقْرتين، وهو الذى يعبرون عنه بالازدواج . والرُّمانىّ يسميه السَّجْع العاطل، وعليـه كان عملُ السلف من الصحابة ومَن قارب زمانهم : وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(أن يقع ذلك فى النثر : وفيه مرتبتان)

المرتبة الأولىٰ ـ أن يراعىٰ الوزن فى جميع كلمات القَرينتين أو فى أكثرها، مع مقابلة الكلمة بمـا يُعادلهـا وَزْنا ، ويسمّى التوازُن وهو أحسنها وأعلاها . كقوله تعالىٰ: "وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ" وكقول الحريرىّ: اسْوَدّ يومى الأبيض، وابْيَضّ فَوْدِى الأسْوَد .

المرتبة الثانية ـ أن لا يُراعىٰ التوازُنُ إلا فى الكلمتين الأخيرتين من القَرينتين فقط، ويسمّى التوازنَ أيضا ، ومنه قوله تعالىٰ : " وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ " وقولهم : اِصْبِرْ علىٰ حَرِّ القِتال ، ومَضَضِ النِّزال، وشِدّة النِّصاع، ومُداوَمة البِراز ، وما أشبه ذلك .

الضرب الثـانى
(السَّجْع الواقع فى الشِّـــعر)

ويسمّى التصريعَ فى البيت الأوّل، ومحل الكلام عليه علمُ البديع . وقد ذكره فى "المثل السائر" فى أعقاب الكلام علىٰ السجع فى الكلام المنثور، وجعله علىٰ سبع مراتب .

المرتبة الأولىٰ ــ وهى أعلاها درجةً ــ أن يكون كل مصراع من البيت مستقلًّا بنفسه، غيرَ محتاج إلىٰ مايليه؛ ويسمّى التصريعَ الكاملَ : كقول آمرئ القيس :

أَفَاطِمَ مَهْلًا بعضَ هـــذا التَّـدَلُّلِ * وإن كُنْتِ قد أَزْمَعْتِ هَجْرِى فأَجْمِلِى

فإن كل مصراع من البيت مفهوم المعنىٰ بنفسه، غير محتاج إلىٰ مايليه فى الفهم، وليس له به آرتباط يتوقف عليه .

المرتبة الثانية ــ أن يكون المِصْراع الأوّل مستقلًّا بنفســه ، غير محتاج إلىٰ الذى يليه إلا أنه مرتبط به، كقول آمرئ القيس أيضا :

قِفَا نَبْك مِنْ ذِكْرىٰ حَبِيبٍ ومَنْزِلِ * بِسِقْطِ اللِّوىٰ بين الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فإنّ المِصْراع الأوّل منــه غير محتاج إلىٰ الثـانى فى فهم معناه ، ولكنه لمـا جاء الثانى صار مرتبطا به .

المرتبة الثالثة ــ أن يكون الشاعر مخيَّرا فى وضع كل مصراع موضع الآخر، ويسمّى التصريع المُوَجّه، كقول آبن حَجّاج :

مِنْ شُروطِ الصَّبُوحِ فى المَهْرجانِ * خِفَّـةُ الشُّرْب مع خُلُوِّ المَكَانِ

فإنه لو جعل المِصْراع الثانى أوّلا والآخر ثانيا، لساغ له ذلك .

المرتبة الرابعة ــ أن يكون المِصْراع الأوّل غيرَ مستقلّ بنفسه، ولا يُفْهَم معناه إلا بالثانى؛ ويسمّى التصريعَ الناقصَ، وليس بمستحسَن . كقول المتنبى :

مَغَانِى الشِّعب طيبًا فى المَغَانِى * بمَنْزِلَةِ الربيعِ مِنَ الزَّمَانِ

فإنّ المِصْراع الأوّل لايستقلّ بنفسه فى فهم معناه دون المِصْراع الثانى .

المرتبة الخامسة ــ أن يكون التصريعُ فى البيت بلفظة واحدة فى الوسط والقافية، ويسمّى التصريعَ المكرَّر، ثم اللفظة التى يَقَع بها التصريع قد تكون حقيقةً لا مجازَ فيها، كقول عبيدِ بن الأبرص :

وكُلُّ ذِى غَيْبةٍ يَئُوبُ * وغائبُ الموتِ لا يَئُوب

وقد تكون اللفظة التى يَقَع بها التصريع مجازيّةً كقول أبى تمَّامٍ الطائىّ :

فَتًى كانَ شِرْبًا للعُفَاةِ ومَرْتَعَا * فأصبحَ للهِنْدِيَّةِ البِيضِ مَرْتَعَا

المرتبة السادسة ــ أن يكون المصراع الأوّل معلّقا علىٰ صفة يأتى ذكرها فى أوّل المصراع الثانى، ويسمّى التصريع المعلّق . كقول آمرئ القيس :

أَلَا أيُّها الليلُ الطَّوِيلُ ألا آنجَلِى * بِصُبْحٍ وما الإصْباحُ فيك بأمْثَلِ

فإن المصراع الأوّل معلق علىٰ قوله بصُبْحٍ، وهو مستقْبَح فى الصنعة .

المرتبة السابعة ــ أن يكون التصريع فى البيت مخالِفًا لقافيته، ويسمّى التصريعَ المشطورَ، وهو أنزل درجات التصريع وأقبحُها . كقول أبى نُوَاسٍ :

أَقِلْنِى قَدْ نَدِمْتُ علىٰ الذُّنوبِ * وبالإقرارِ عُذْتُ من الجُحُودِ

فإنه قد صَرَّع فى وسط البيت بالباء ثم فى آخره بالدال .

قلت وإنمـا أوردت هذا الصنف مع السجع وإن كان من خصوصيات الشعر لأنه قد يقَع مثله فى النثر إذ الفِقْرة من النثر كالبيت من الشعر، فالفقْرتان كالبيتين، وأيضا فإن الشعر من وظيفة الكاتب :

الغرض الرابع

(فى معرفة مقادير السَّجعات فى الطُّول والقِصَر، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(السَّــجَعات القِصَـار)

وهى ماصيغ من عشرة ألفاظ فما دونها، قال فى "حسن التوسل": وهى تدل علىٰ قوّة التمكن وإحكام الصنعة، لا سيما القصير منها للغاية، وأقل مايكون من لفظتين كقوله تعالىٰ: ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ وقوله: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ وما أشبه ذلك، وأمثاله فى القرءان الكريم كثير إلا أن الزائد علىٰ ذلك أكثر. كقوله تعالىٰ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوىٰ مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ﴾ وقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ وقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ونحو ذلك.

الضرب الثانى

(الســجعات الطِّوال)

قال فى "حسن التوسل": وهى ألذُّ فى السمع، يتشوّق السامع إلىٰ مايرد متزايدا علىٰ سمعه، وأقلُّ ما تتركب من إحدىٰ عشرة كلمة فما فوقها، وغالب ما تكون من خمس عشرة لفظة فما حولها، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ فالأُولىٰ من إحدىٰ عشرةَ لفظة، والثانية من ثلاث

عشرَة لفظة ، وقوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ فالأُولىٰ من أربعَ عشرةَ لفظة ، والثانية من خمسَ عشرةَ ، وقوله : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلٰكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ فالأُولىٰ عشرون لفظة ، والثانية تسع عشرةَ ، وهذا غاية ما ٱنتهىٰ إليه الطُّول فى القرءان الكريم . وينبغى أن يكون ذلك نهاية الطول فى السجع وقوفاً مع ماورد به القرءان الكريم الذى هو أفصح كلام ، وأقوَمُ نظام ، وإن كان الوزير ضياء الدين بن الأثير ، والشيخ شهاب الدين محمود الحلبى وغيرهما ، قد صرحوا بأنه لاضابط لأكثره .

وٱعلم أنه قد جرتْ عادة كُتَّاب الزمان ومصطَلَحُهم أن تكون السجعة الأولىٰ من ٱفتتاح الولاية من تقليد أو توقيع أو غير ذلك قصيرةً بحيث لايتعدّىٰ آخرها السطر الثانى فى الكتابة ليقع العلم بها بمجرّد وقوع النظر علىٰ أوّل المكتوب . وعلىٰ هذا فيختلف القِصَرُ فيها باختلاف ضيق الورق وسعته فى العرض .

الغرض الخامس

(فى ترتيب السجعات بعضِها علىٰ بعض فى التقديم والتأخير باعتبار الطول والقصر ، وله حالتان)

الحالة الأُولىٰ

(أن لايزيد السجع علىٰ سجعتين ، وله ثلاث مراتب)

المرتبة الأُولىٰ ـ أن تكون القرينتان متساويتين لاتزيد إحداهما علىٰ الأُخرىٰ كقوله تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ وقوله : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا

فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ وأمثال ذلك .

المرتبة الثانية ــ أن تكون القرينة الثانية أطول من الأولىٰ بقدر يسير كقوله تعالىٰ : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ فالأولىٰ ثمان كلمات ، والثانية تسع ونحو ذلك ؛ أما إذا طالت الثانية عن الأولىٰ طولا يخرج عن الاعتدال ، فإنه يستقبح حينئذ ، ووَجَّهَهُ فى "حسن التوسل" بأنه يُبْعِد دخول القافية علىٰ السامع فيقلّ الالتذاذ بسماعها . والمرجع فى قدر الزيادة والقِصَر إلىٰ الذوق .

المرتبة الثالثة ــ أن تكون القرينة الثانية أقصر من الأُولىٰ . قال فى "المثل السائر" : وهو عندى عيب فاحش ، لأن السمع يكون قد استوفىٰ أَمَدَه من الفصل الأول بحكم طوله ، ثم يجىء الفصل الثانى قصيرا فيكون كالشىء المبتور ، فيبقىٰ الإنسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء إلىٰ غاية فيعثُر دُونها ، وفيما قاله نظر ، فقد تقدّم فى قوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾ الآيتين أن الأولىٰ عشرون كلمة والثانية تسع عشرة ، بل قد اختار تحسين ذلك أبو هلال العسكرىّ فى "الصناعتين" محتجًّا له بكثرة وروده فى كلام النبوّة كقوله صلى الله عليه وسلم للأنصار : " إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الفَزَعِ ، وَتَقِلُّونَ عِنْدَ الطَّمَعِ " وقوله : " المُؤْمِنُونَ تَتَكَافَؤُ دِمَاؤُهم ، وهم يَدٌ علىٰ مَنْ سِوَاهم " وقوله : " رَحِمَ اللهُ من قال خيرا فَغَنِم ، أو سَكَتَ فسَلِم " .

الحالة الثانيــــة

(أن يزيد السجع علىٰ سجعتين . ولهـا أربع مراتب)

المرتبة الأُولىٰ ــ أن يقع علىٰ حدّ واحد فى التّساوى ، وهو مستحْسَن ، وقد ورد فى القرءان الكريم بعض ذلك كقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ

فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ فهذه السجعات الثلاث مركبة من لفظتين لفظتين .

المرتبة الثانية ـ أن تكون الأولى أقصر والثانية والثالثة متساويتين كقوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ فالأولى من ثمان كلمات، والثانية والثالثة من تسع تسع .

المرتبة الثالثة ـ أن تكون الأولى والثانية متساويتين، والثالثة زائدة عليهما؛ وقد أشار إلى هذه المرتبة فى "حسن التوسل" حيث قال : فإن زادت القرائن على اثنتين فلا يضر تساوى القرينتين الأوليين وزيادة الثالثة، ولم يمثّل لها .

المرتبة الرابعة ـ أن تكون الثانية زائدة على الأولى، والثالثة زائدة على الثانية. قال فى "المثل السائر" : وينبغى أن تكون فى هذه الحالة زيادة الثالثة متميزة فى الطول على الأولى والثانية أكثر من تميز الثانية على الأولى . ثم قال : فإذا كانت الأولى والثانية أربع لفظات أربع لفظات تكون الثالثة عشر لفظات أو إحدى عشرة لفظة، ومثّل له فى "حسن التوسل" بقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ فالأولى من ثمان كلمات ، والثانية من تسع ، والثالثة من عشر، ومثل له فى "المثل السائر" بقوله فى وصف صديق : فقلت : الصديق مَنْ لم يَعْتَضْ عنك بخالف، ولم يعاملك معاملة الحالف، وإذا بلّغته أذنه وشايةً أقام عليها حدَّ السارق أو القاذف؛ فالأولى : وهى لم يعتض عنك بخالف والثانية بعدها أربع كلمات ، والثالثة عشر كلمات . ثم قال : وينبغى أن يكون مايستعمل من هذا القبيل ، فإن زادت الأولى والثانية على هذه العدّة زادت

الثالثة بالحساب، وإن نقصت الأولىٰ والثانية، فكذلك . لكن قد ضبط فى ”حسن التوسل“ الزيادة فى الثالثة بأن لاتجاوز المِثْل، والأمر فيما بين الضابطين قريب، ولا يخفىٰ حكم الرابعة فى الزيادة مع الثالثة . قال فى ”حسن التوسل“: ولا بدّ من الزيادة فى آخر القرائن .

الغرض السادس

(فيما يكون فيه حسن السجع وقبحه)

أما حسنه ، فيُعتبر فيه بعد ما يقع فيكون به تحسين الكلام من أصـناف البديع ونحوها بأمور أخرىٰ .

منها أن يكون السجع بريئا من التكلف، خاليا من التعسف، محمولا علىٰ مايأتى به الطبع وتُبْديه الغريزة ، ويكون اللفظ فيه تابعا للمعنىٰ، بأن يُقْتَصر من اللفظ علىٰ ما يُحتاج إليه فى المعنىٰ دون الإتيـان بزيادة أو نقص تدعو إليه ضرورة السجع ، حتّٰى لو حصلت زيادةٌ أو نقص بسبب السجع دون المعنىٰ، خرج السجع عن حيِّز المدح إلىٰ حيز الذم .

ومنها أن تكون الألفاظ المسجوعة حُلوةً حادّة، لاغَثَّة ولا باردة، مُونَقةَ المعنىٰ، حَسَنة التركيب، غيْرَ قاصرة علىٰ صورة السجع الذى هو تواطؤ الفِقَرِ ، فيكون كمن نقش أثوابا من الكُرْسُف ، أو نظم عِقْدا من الخَرَزِ الملون . قال فى ”المَثَل السائر“: وهـذا مقام تَزِلُّ عنه الأقدام، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد . قال : ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا، ولولا ذلك كان كل أديب سَجَّاعًا إذ مامنهم من أحد إلا وقد يتيسر عليه تأليف ألفاظ مسجوعة فى الجملة .

ومنها أن تكون كلُّ واحدة من الفِقْرتين المسجوعتين دالَّة علىٰ معنى غير المعنىٰ الذى دلَّت عليه أختها ، لأن آشتمال السجعتين علىٰ معنى واحدٍ يمكن أن يكون فى إحداهما بمفردها هو عين التطويل المذموم فى الكلام، وهو الدلالة علىٰ المعنىٰ بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها علىٰ ماهو مقرّر فى علم البيان. قال فى "المَثَل السائر": فلا يكون مثْلَ قول الصابى فى وصف مُدَبِّر: "يسافر رأيُه وهو دان لم يَنْزَح، ويسير تدبيرُه وهو ثاوٍ لم يَبْرَحْ" ولو قال : يسافر رأيه وهو دان لم ينزح ، ويُثْخِنُ الجِرَاح فى عدوّه وسيفُه فى الغِمْد لم يجرح، لَسَلِمَ من هُجْنَةِ التكرار : فإنه تصير كل سجعة محتوية علىٰ معنًى بحياله .

ومنها أن يقع التحسين فى نفس الفواصل ، كقولهم : إذا قَلَّتِ الأنصار، كَلَّت الأبصار، وقولهم : ماوراءَ الخَلْقِ الدَّميم، إلّا الخُلُقُ الذميم، ونحو ذلك .

ومنها أن يقع فى خلال السجعة الطويلة قرائن قصار فتكون سجعا فى سجع، كقوله تعالىٰ : ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَالِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وقوله : ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ فإن قوله : ﴿علىٰ أموالهم﴾ وقوله : ﴿علىٰ قلوبهم﴾ سجعتان داخلتان فى السجعة التى آخرها ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وقوله : ﴿بآخذيه﴾ وقوله : ﴿تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ سجعتان داخلتان فى السجعة التى آخرها : ﴿غَنِيٌّ حَمِيد﴾ وعدّ العسكرىّ منه قولهم : عاد تَعْرِيضُك تصريحا، وتَمْرِيضُك تَصْحيحا .

وأما قبحه فيعتبر بأمور .

منها التجميع ، وهو أن تكون فاصلة الجزء الأوّل بعيدة المشاكلة لفاصلة الجزء الثانى كما حكىٰ قُدَامَةُ : أن كاتبا كتب فى جواب كتاب، وصل كتابك فوصل به

ما يَسْتَعْبِدُ الحرّ، وإن كان قديمَ العبودية، ويَسْتَغرِقُ الشكر؛ وإن كان سالف فضلك لم يُبْقِ شيئا منه؛ فإن العبودية بعيدة عن مشاكلة منه .

ومنها التطويل ، فيما ذكر قَدَامَةُ وغيرُه : وهو أن يجىء الجزء الأوّل طويلا فيحتاج إلىٰ إطالة الثانى بالضرورة . كما حكىٰ قُدَامَةُ أن كاتبا كتب فى تعزية : إذا كان للمحزون فى لقاء مِثْلِه كبيرُ الراحة فى العاجل، وكان طويل الحُزْنِ راتبا إذا رجع إلىٰ الحقائق وغيرَ زائل . قال فى "الصناعتين" : وذلك أنه لما أطال الجزء الأوّل ، وعَلِمَ أن الجزء الثانى ينبغى أن يكون مثله أو أطول، ٱحتاج إلىٰ تطويل الثانى فأتىٰ باستكراه وتكلف . قال فى "موادّ البيان" والإطالة بقوله وغير زائل . .

الأصل الخامس

(حسن الاتباع، والقدرة علىٰ الاختراع)

وٱعلم أن لكاتب الإنشاء مسلكين :

المسلك الأوّل

(طريقـــة الاتبـاع)

وهى نظر الكاتب فى كلام من تقدّمه منَ الكُتَّابِ ، وسـلوك منهجهم ، وٱقتفاء سبيلهم، وسماها ٱبن الأثير التقليدَ؛ وهى علىٰ صنفين .

الصنف الأوّل

(الاتبـاع فى الألفـاظ)

وهو ٱعتماد الكاتب علىٰ ما رتبه غيره من الكُتَّابِ، وأنشأه سواه من أهل صناعة النثر، بأن يَعْمِدَ إلىٰ ما أنشأه أفاضلُ الكُتَّابِ ورتبه علماء الصناعة : من نثر أو نظم فيأخذَه برُمَّته، ويأتِى عليه بصيغته؛ وغايته أن يكون ناسخا ناقلا لكلام غيره، حاكيا

له . ولمثـل ذلك تُوضَع الدساتير ، وتُدوَّن الدواوين . علىٰ أنه ربمـا غيَّر وبدَّل ، وحرَّف وصحَّف ، وأزال اللفظ عن وضـعه ؛ وأحال المعنىٰ عن حكمه . وبعضهم ربمـا حملته الأَنَفَةُ والخوف من أن يقـال أخذ كلام فلان برمَّته ، فعدل إلىٰ كلام غيره ، فالتقط من كل مكان سجعتين أو سجعات ، ورتب بعضها علىٰ بعض حَتّٰى تقوم بمقصوده ، وينتهى إلىٰ مراده .

فإن كان لطيفَ الذوق ، حَسَنَ الآختيـار ، رائق الترتيب ، فاختار من خلال السجع لطيفَه ، وأحسن رَصْـفَهُ وتأليفه ، جاء بَهِجًا رائقا . لأنه أتىٰ من كل كلام بأحسنه ، إلا أن فيه إخراجَ الكلام عن وضعه الذى قصده الناثر ، وتفريقَ مادُوِّن من كلام الأفاضل ، وتبديدَ شمله ، وخروجَ الكلام عن أن يُعْرَفَ قائلُه ، ويعلم منشئه ، فيقعَ من القلوب بمكان صاحبه ويهتدىٰ بهديه ، وينسج علىٰ منواله .

وإن لم يكن لطيف الذوق ، ولا حَسَن الآختيار ، جاء مالَفَّقَهُ من كلام غيره رَثًّا ركيكا ، نابيًا عن الذوق ، بَعِيـدا عن الصنعة ، يُعاد من النسخ إلىٰ المسخ ، وأخرج الكلام عن موضوعه ، وأفسده فىوضعه وتركيبه . فإن صحبه التصحيف والتحريف فتلك الطامَّة الكبرىٰ ، والمُصيبة العظمىٰ . ثم لايكتفى بذلك حتّٰى يتبجح به ، ويعتقد أن ذلك عين الإنشاء وحقيقته ، محتجا فىذلك بقول الحريرىّ : "إن صِناعةَ الحِسَابِ موضوعةٌ علىٰ التحقيق ، وصناعةَ الإنشاء مبنية علىٰ التلفيق". ظانًّا أن التلفيق هو ضم سجعات منتظمة ، وفِقَرات مؤلَّفة بعضها إلىٰ بعض . ولم يعلم أن المراد بالتلفيق ضم لفظة إلىٰ أختها ، وإضافة كلمة إلىٰ مشاكِلتها . وشَتَّانَ ما بين التلفيقين ، وبُعْدًا لمـا بين الطريقين :

وللزُّنْبُورِ والبـازِى جَميعًا * لَدىٰ الطَّيَرانِ أَجْنِحَةٌ وخَفْقُ
ولٰكِنْ بَيْنَ ما يَصْطَادُ بَازٍ * وَمَا يَصْطَادُهُ الزُّنْبُورُ فَرْقُ

وقد عابوا أخذ المعنىٰ إذا كان ظاهرا مكشوفا فما ظنُّك بمن يأخذ الكلام برمته، واللفظ بصورته، فيصيرُ ناسخا لكلام غيره، وناقلا له؟ فأىّ فضيلة فى ذلك؟ وقد قيل من أخذ معنًى بلفظه كان سارقا، ومن أخذ بعض لفظه كان سالخا، ومن أخذه فكساه لفظا من عنده كان أولىٰ به ممن تقدمه، وأين من هو أولىٰ بالشىء ممن سبقه إليه ممن يُعَدّ سارقا وسالخا؟ ويقال إن أبا عُذْرَةِ الكلام مَنْ سبك لفظه علىٰ معناه. ومن أخذ معنى بلفظه فليس له فيه نصيب. هذا فيمن أخذ سجعة أو سجعتين فى خطبة أو رسالة، أو بيتا أو بيتين فى قصيدة وما قارب ذلك؛ أما من أخذ القصيدة بكمالها، أو الخطبة أو الرسالة برُمَّتِهَا، أو لَفَّقها من خطب أو رسائلَ فذاك إنما يعدّ ناسخا إن أحسن النقل، أو ماسخا إن أفسده.

وٱعلم أن الناثر الماهر والشاعر المُفْلِقَ قد يأتى بكلام سبقه إليه غيره، فيأتى بالبيت من الشعر أو القرينةِ من النثر أو أكثر من ذلك بلفظ الأول من غير زيادة ولا نقصان، أو بتغيير لفظ يسير، وهذا هو الذى يسميه أهل هذه الصناعة وقوع الحافر علىٰ الحافر. وقد سئل أبو عمرو بن العلاء عن الشاعرين يتفقان علىٰ لفظ واحد ومعنى، فقال: عقول رجال توافت علىٰ ألسنتها.

والواقع من ذلك فى كلامهم علىٰ قسمين.

القسم الأوّل

(ما وقع الاتفاق فيه فى المعنىٰ واللفظ جميعا)

كقول الفَرَزْدَق:

وغُرٍّ قد وَسَقْتُ مُشَمِّراتٍ * طوالِعَ لا تُطِيقُ لها جَوَابا
بكُلِّ ثَنِيَّةٍ وبكُلِّ ثَغْرٍ * غَرائِبُهُنَّ تَنْتَسِبُ ٱنْتِسابا
بَلَغْنَ الشمسَ حِينَ تكون شرقا * ومَسْقَطُ رأسِها من حيثُ غابا

ووافقه جرير فقال مثل ذلك من غير زيادة ولا نقص . ويروى أنّ عُمَر بن أبي ربيعة أنشد ٱبن عباس رضى الله عنه :

* تَشُــطُّ غَدًا دارُ جيرانِنـا *

فقال ٱبن عباس رضى الله عنه :

* ولَلدَّارُ بَعْـدَ غدٍ أبعَــدُ *

فقال عمر: والله ماقلتُ إلا كذلك . قال أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الصناعتين": وأنشدت الصاحب إسماعيل بن عَبَّادٍ رحمه الله :

* كانت سَرَاةُ الناس تَحْتَ أَظَلِّهِ *

فسبقنى وقال :

* فَغَدَتْ سراةُ النـاسِ فوق سَرَاتِهِ *

وكذلك كنتُ قُلْتُ . قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله فى كتابه "المَثَل السائر" : ويحكىٰ أن آمرأة من عُقَيل يقال لهـا ليلىٰ، كان يتحدّث إليها الشَّبَابُ ، فدخل الفَرَزْدَقُ إليها وجعل يحادثها ، وأقبل فتًى من قومها كانت تَأْلَفُهُ فدخل إليها فأقبلت عليه وتركت الفَرَزْدَقَ، فغاظه ذلك فقال للفتىٰ : أتصارِعُنى؟ فقال : ذاك إليك ، فقام إليه فلم يلبَثْ أن أخذ الفَرَزْدَقَ فصَرَعه وجلس علىٰ صــدره فضَرِط، فوثب الفتىٰ عنه وقال ياأبا فِرَاسٍ : هذا مَقَام العائذ بك ، والله ما أردت ماجرىٰ ، قال : ويحك ! والله ما بى أنك صرعتنِي ولكن كأنِّى بابن الأتان،(يعنى جريرا)وقد بلغه خبَرِى ، فقال يهجونى :

جَلَسْتَ إلىٰ ليلىٰ لِتَحْظىٰ بِقُرْبِهَا * فخـانك دُبْرٌ لا يزالُ يَخُونُ
فلو كنتَ ذَا حَزْمٍ شَدَدْتَ وِكَاءَهُ * كَمَا شَــدَّ جُرْبَانَ الدِّلَاص قُيُونُ

فمـا مضى إلا أيام حتّى بلغ جريرًا الخبر، فقال فيـــه هذيــن البيتين . قال :
وهذا من أغرب مايكون فى هذا الموضع وأعجبه! قال فى "الصناعتين" : وإذا كان القوم فى قبيلةٍ واحدة، فى أرض واحدة، فإن خواطرهم تقع متقاربةً، كما أن أخلاقهم وشمائلَهم تكون متضارعة . قال فى "المثل السائر" : ويقال إن الفَرَزْدَق وجريرا كانا ينطِقان فى بعض الأحوال عـن ضمير واحد . قال : وهذا عندى مستبعَد، فإن ظاهر الأمر يدل على خلافه، والباطن لايعلمه إلا الله تعالى، وإلا فإذا رأينا شاعرا متقدّم الزمان قد قال قولا ثم سمعناه من شاعر أتى من بعده ، علمنا بشهادة الحال أنه أخذه منه . وهب أن الخواطر تتفق فى ٱســتخراج المعانى الظاهرة المتداولة، فكيف تتفق الألسنة أيضا فى صوغ الألفاظ ؟ وكلام العسكرىّ فى "الصناعتين" يوافقه بالعَتْبِ على المتأخر، وإن ٱدّعى أنه لم يسمع كلام الأوّل فى مثل ذلك .

القسم الثـــانى

(ماوقع الاتفاق فيه فى المعنى وبعض اللفظ، وهو على ضربين)

الضرب الأوّل

(ما ٱتفق فيه المعنى وأكثرُ اللفظ)

كقول ٱمرئ القيس :

وُقُوفًا بها صَحْبِي عَلَىَّ مَطِيَّهــم * يقولون : لاتَهْلِكْ أَسًى ، وتَجَمَّلِ

وقول طَرَفَةَ :

وُقُوفًا بها صَحْبى عَلَىَّ مَطِيَّهــم * يقولون : لاتَهْلِكْ أَسًى، وَتَجَلَّدِ

فالتخالف بينهما فى كلمة القافية فقط .

وقول البَعِيث :

أَتَرْجُو كُلَيْبٌ أن يَجِيء حَدِيثُها * بِخَيْرٍ، وقد أعْيَا كُلَيْباً قَدِيمُهَا ؟

وقول الفَرَزْدَق :

أَتَرْجُو رَبِيعٌ أن تجِيء صِغَارُهَا * بِخَيْرٍ وقد أعْيَا رَبِيعًا كِبَارُهَا ؟

فالتخالف بينهما فى موضعين من البيت ، كلمة القافية وآسم القبيلة .

وقول بعض المتقدّمين يمدح مَعْبَدًا صاحبَ الغِنَاء :

أجادَ طُوَيْسٌ والسُّرَيْجِيُّ بعدَه * وما قَصَبَاتُ السَّبْقِ إلا لِمَعْبَد

وقول الفَرَزْدَق بعده :

مَحَاسِنُ أصنافِ المُغَنِّينَ جملةٌ * وما قَصَبَاتُ السَّبْق إلا لِمَعْبَد

فاتفقا فى النصف الثانى، وآختلفا فى النصف الأول . إلىٰ غير ذلك من الأشعار التي وقعت خواطرُ الشعراء عليها، وتوافقت عقولهم عندها .

الضرب الثانى

(ما آتفق فيه المعنىٰ مع يسير اللفظ؛)

فمن ذلك قول البُحْتُرِىّ فى وصف غلام :

فوق ضَعْفِ الصغير إنْ وُكِلَ الأمـ * ـر إليه ، ودُونَ كَيْدِ الكِبَارِ

أخذه من قول أبى نُوَاسٍ :

لم يَخْفَ من كِبَرٍ عما يُرَادُ به * من الأمور، ولا أزْرىٰ به الصِّغَرُ

وقول أبى تَمَّامٍ :

ولم أمدَحْك تفخيما بِشِعْرِى * ولٰكنِّى مدحتُ بك المَدِيحَا

أخذه من قول حسانَ بن ثابت ، يمدح النبيّ صلى الله عليه وسلم :

مَاإنْ مَدَحْتُ محمدًا ! بمقالَتِي * لكِنْ مَدَحْتُ مَقالَتِي بمحَمَّد !

وقول أبي الطَّيِّبِ :

أين أزْمعتَ أيُّهـاذا الهُـمَامُ * نَحْنُ نَبْتُ الرُّبا، وأنت الغَمَامُ

أخذه من قول بَشَّارٍ :

كأَنَّ الناسَ حين تَغِيبُ عَنْهُم * نباتُ الأرضِ أخطأه القِطَارُ

الصنف الثـانى
(التقليـــد فى المعـانى)

وهذا مما لايَسْتغنى عنه ناظم ولا ناثر . قال أبو هلال العسكرىّ رحمه الله فى كتابه "الصناعتين" : ليس لأحد من أصناف القائلين غِنًى عن تناول المعانى ممن تقدّمهم والصَّبِّ على قوالب مَنْ سبقهم، ولكن عليهم إذا أخذوها ، أن يكسوها ألفاظا من عندهم، و يبرزوها فى معارضَ من تأليفهم، و يوردوها فى غير حِلْيتها الأُولى، و يزيدوا عليها فى حسن تأليفها وجَوْدَةِ تركيبها، وكمال حليتها ومعرضها ، فإذا فعـلوا ذلك فهم أَوْلى بها ممن سـبق إليها . قال : ولولا أن القائل يؤدّى ما سمع لمـا كان فى طاقته أن يقول، و إنمـا ينطق الطفل بعد آستماعه من البالغين . وقد قال أمير المؤمنـين علىّ كرّم الله وجهه ! : لولا أن الكلام يعاد، لنَفِدَ . ومن كلام بعضهم : كلُّ شىء إذا ثَنَيْتَه قَصُر إلا الكلام، فإنك إذا ثنيته طال، والمعانى مشتركة بين العقلاء، فربمـا وقع المعنى الجيّد للسُّوقِىّ والنَّبَطىّ والزِّنجىّ . و إنما يتفاضل الناس فى الألفاظ و رصــفها، وتأليفها ونظمها . وقد أطبق المتقدّمون والمتأخرون على تداوُل المعانى

بينهم ، فليس علىٰ أحد فيـه عيبٌ إلا إذا أخذه بكل لفظه ، أو أفسـده فى الأخذ وقصَّر فيه عمن تقدّمه . قال فى "الصناعتين" : وما يُعْرَف للتقدّم معنى شريفٌ إلا نازعه فيه المتأخر ، وطلب الشركة فيه معه ، إلا بيت عنترة :

وخَلَا الذُّبَابُ بها فلَيْس ببارِحٍ * غَرِدًا كفِعْل الشارب المُتَرَنِّمِ

هَزِجًا يَحُـكُّ ذِراعَهُ بِذراعِه * قَدْحَ المُكِبِّ علىٰ الزِّنادِ الأجْذَمِ

فإنه ماُنوزِع فيه علىٰ جَوْدَتِه . قال : وقد رامه بعض المحدّثين فافتضح مع العلم بأن ٱبتكار المعنىٰ والسبق إليـه ليس فيه فضـيلة ترجع إلىٰ المعنىٰ ، وإنمـا ترجع الفضـيلة فيه إلىٰ الذى ٱبتكره وسبق إليه ؛ فالمعنىٰ الجيّد جيّد ، وإن كان مسبوقا إليه ، والوسط وسط ، والردىء ردىء وإن لم يكن مسبوقا إليهما . علىٰ أن بعض علمـاء الأدب قد ذهب إلىٰ أنه ليس لأحد من المتأخرين معـنًى مُبْتَـدَعٌ ، محتجًّا لذلك بأن قول الشعر قديم مذ نُطِق باللغة العربية ، وأنه لم يبق معنًى من المعانى إلا وقد طُرِق مرارا . قال فى "المثل السائر" : والصحيح أن باب الآبتداع مفتوح إلىٰ يوم القيامة ، ومَن الذى يحجُر علىٰ الخواطر وهى قاذفة بمـا لا نهاية له ؟ إلا أنَّ من المعانى ما يتساوىٰ فيه الشـعراء ولا يُطْلَق عليه آسم الآبتداع لأوّل قبـل آخر لأن الخواطر تأتى به من غير حاجة إلىٰ آتباع الآخر الأوّلَ . كقولهم فى الغَزَل :

عَفَتِ الدّيارُ وماعَفَتْ * آثارُهُنّ من القُـلُوب

وقولهم فى المديح : إن عطـاءه كالبحر أو كالسَّحاب ؛ وإنه لا يمنع عطاءُ اليوم عَطاءَ غَدٍ ؛ وإنه يجود بمالِه من غير مسألة ؛ وأشباه ذلك .

وقولهم فى المَرَاثى : إن هذا الرزء أوّل حَادِثٍ ؛ وإنه آستوىٰ فيه الأباعد والأقارب ؛ وإن الذاهب لم يكن واحدا وإنما كان قبيلةً ؛ وإنَّ بعد هـذا الذاهب لا يُعدّ للمنيَّة ذنب ؛ وما أشبه ذلك . وكذلك سائر المعانى الظاهرة التى تتوارد عليها الخواطر من

غير كُلْفَة، ويستوى فى إيرادها كلُّ بارع . قال : ومثل ذلك لا يُطْلَق على الآخِرِ فيه آسم السرقة من الأول ، وإنما يطلق آسم السرقة فى معنًى مخصوص . كقول أبى تَمَّـام :

لا تُنْكِرُوا ضَرْبى له مَنْ دُونَه * مَثَلاً شُرودًا فى النَّدىٰ والبَاسِ،

فاللهُ قد ضَرَبَ الأقلَّ لنُورِه * مَثَلاً من المِشكاةِ والنِّبْراسِ

فإن هذا معنًى آبتداعُه مخصوص بأبى تَمَّام،وذلك أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم قصيدتَه السينيةَ التى مطلعها :

* مافى وُقُوفِك ساعةً مِن باس *

آنتهى إلى قوله منها :

إقْدام عَمْرو فى سَمَاحةِ حاتمٍ، * فى حِلْمِ أحْنَفَ،فى ذَكاء إياسِ

فقال الحكيم الكِنْدِىّ : وأىّ فخر فى تشبيه آبن أمير المؤمنين بأجلاف العرب؟ فأطرق أبو تَمَّـام ثم أنشد هذين البيتين معتذرا عن تشبيهه إيَّاه بعمرو وحاتم وإياس . فالحال يشهد بابتداعه هذا المعنىٰ ، فمن أتىٰ بعده بهذا المعنىٰ أو بجزء منه كان سارقا له ، وكذلك كلُّ ماجرىٰ هذا المجرىٰ . ولم يزل الشعراء والخطباء يقتبسون من مَعَانى مَنْ قبلهم، ويبنون علىٰ بناء مَنْ تقدّمهم .

فمما وقع للشعراء من ذلك قول أبى تَمَّـامٍ :

خُلِقْنا، رجالا للتَّجلُّدِ والأَسىٰ * وتِلْكَ الغَوانِى للبُكَا والمآتِمِ

أخذه من قول عبد الله بن الزُّبَيْرِ لمـا قتـل مُصْعَبُ بن الزبير : وإنمـا التسليم والسُّلُوّ لحُزَماء الرجال، وإن الجزَع والهلَع لربَّاتِ الحِجَال، وقوله أيضا :

تَعَجَّبُ أن رأتْ جسْمِى نحِيفًا * كأنَّ المجْدَ يُدْرَكُ بالصِّرَاع

أخذه من قول زياد ابن أبيه لأبي الأسود الدؤلي : لولا أنك ضعيف لاستعملتك، وقول أبي الأسود له في جواب ذلك : إن كنتَ تُرِيدني للصِّراع فإني لا أصْلُح له وإلا فغير شديد أن آمُرَ وأنهىٰ؛ وقوله من قصيدة البيت المتقدّم :

أطالَ يَدِي علىٰ الأيَّام حتّىٰ * جَزَيْتُ صُروفَها صاعا بِصَاعِ

أخذه من قول أمير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه :

فإن تُقْتَلا أو يُمْكِنِ اللهُ مِنْكُمَا، * نَكِلْ لَكُما صاعاً بصاعِ المُكَايِلِ

وقول أبي الطَّيِّب المتنبي :

وإذا كانتِ النُّفُوسُ كِبَارا * تَعِبتْ فِي مُرادها الأجسامُ

أخذه من قول أرسطوطاليس : إذا كانت الشهوةُ فوق القُدْرة، كان هلاكُ الجسم دونَ بلوغ الشهوةِ .

وقول الخاسر :

مَنْ راقب الناسَ مات غَمًّا * وفازَ باللَّـذَّةِ الجَسُـورُ

أخذه من قول بَشَّارٍ :

مَنْ راقب الناسَ لم يَظْفَرْ بحاجَتِه. * وفاز بالطِّيِّبَـاتِ الفـاتِكُ اللَّهِجُ

فلما سمع بَشَّارٌ بيت الخاسر، قال : ذهب ٱبنُ الفاعلة ببيتي . ومثل هذا وأشباهه ممـا لا ينحصر كثرةً، ولا يكاد أن يخلوَ عنه بيت إلا نادرا .

وممـا وقع للكُتَّاب من ذلك ما كتب به إبراهيم بن العبَّاس من قوله في فصـل من كتاب : إذا كان للمحسن من الثواب ما يُقْنِعُه، وللمسيء من العقاب ما يَقْمَعُه، آزداد المحسِنُ في الإحسان رَغْبـه ، وٱنقاد المُسيء للحقّ رَهْبه . أخذه من قول عليّ كرم الله وجهـه ! : يجب علىٰ الوالي أن يتعهَّد أموره ، ويتفـقَّد أعوانَه، حتّىٰ

لا يَخْفىٰ عليه إحسان مُحْسِنٍ، ولا إساءة مُسِيء، ثم لايترك واحدا منهما بغير جزاء، فإنْ تركَ ذلك تهاون المحسنُ واجترأ المسيء، وفَسَد الأمر، وضاع العَمَل .

وما كتب به بعض الكُتَّاب فى فصل وهو : لو سكتَ لسانى عن شُكْرِك، لنطق أثَرُك علىّ . وفى فصل آخر : ولو جحدتُكَ إحسانَك، لأكذبَتْنِى آثارُك، ونَمَّتْ علىّ شواهدُها . أخذه من قول نُصَيْبٍ :

* ولو سَكَتُوا أثْنتْ عليك الحَقائِبُ *

وما كتب به أحمدُ بن يوسفَ من فصل، وهو : أحقُّ مَنْ أثبت لك العذرَ فى حال شُغْلك، مَنْ لم يخلُ ساعةً من بِرِّك فى وقت فَرَاغك . أخذه من قول علىّ رضى الله عنه ! : لاتكونن كَمَنْ يعجِز عن شُكْر ما أُولِى، و يلتمسُ الزيادة فيما بَقِى .

والاقتباس من الأحاديث والآثار كثير، وقد تقـدّم الكلام عليـه قبل ذلك . قال فى "الصناعتين" : ومِنْ أخفىٰ أسباب السرقة أن يأخذ معنًى من نظم فيوردَه فى نثر، أو من نثر فيوردَه فى نظم، أو ينقل المعنىٰ المستعملَ فى صفة خمر فيجعلَه فى مَدِيح . أو فى مديح فينقله إلىٰ وصف . إلا أنه لا يصل لهذا إلا المُبَرِّز الكاملُ المقـدّم .

وقال فى " المَثَل السائر" : أشْكَلُ سرقات المعانى، وأدقُّها، وأغربها، وأبعدها مذهبا أن يؤخَذ المعنىٰ مجرّدا من اللفظ . قال : وذلك ممـا يصعُب جدّا ولا يكاد يأتى إلا قليلا، ولا يتفطَّنُ له و يستخرجه من الأشـعار إلا بعضُ الخواطر دون بعض .

فمن ذلك قول أبى تَمَّـام فى المدح :

فَتًى مات بينَ الضَّرْبِ والطَّعْنِ مِيتَةً * تقومُ مَقَامَ النَّصْرِ إذْ فَاتَه النَّصْرُ

أخذه من قول عُروة بن الورْد من شعراء الحماسة :

ومَنْ يكُ مِثْلِي ذا عِيَالٍ ومُقْتِرًا * من المال، يَطْرحْ نفسَه كلَّ مَطْرَحِ

لِيُبْلِغَ عُذْرًا أو يَنَالَ رَغِيبَةً * ومُبْلِغُ نَفْسٍ عُذرَها مثلُ مُنْجِحِ

فعروة جعل ٱجتهاده فى طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح ، وأبو تَمَّامٍ جعل الموت فى الحرب الذى هو غايةُ ٱجتهاد المجتهد فى لقاء العدوّ قائما مقام الٱنتصار .

قال فى "المثل السائر": وكلا المعنيين واحد، غير أن اللفظ مختلف . وأظهرُ من ذلك أخذا قول القائل :

وقد عزّى ربيعةَ أن يَوْمًا * عَلَيْها مثلَ يومِكَ لايَعودُ

أخذه من قول ٱبن المُقَفَّع فى باب المَرَاثى من الحماسة :

وقد جَرَّ نَفْعا فَقْدُنا لك أننا * أَمِنَّا علىٰ كلِّ الرَّزَايا مِنَ الجَزَعْ

علىٰ أنه ربما وقع للتأخر معنًى سبقه إليه مَنْ تقدّمه، من غير أن يُلِم به المتأخر ولم يسمعه . ولا ٱستبعاد فى ذلك كما يستبعد ٱتفاق اللفظ والمعنىٰ جميعا . قال أبو هلال العسكرىّ : وهذا أمر قد عرفتُه من نفسى فلا أَمْتَرِى فيه ! وذلك أنى كنت عملت شيئا فى صفة النساء، فقلت :

* سَفَرْنَ بُدُورا وٱنْتَقَبْنَ أَهِلَّةً *

وظننت أنى لم أُسبَق إلىٰ جمع هذين التشبيهين حتّى وجدت ذلك بعينه لبعض البَغْداديين فكثُر تعجبى ، وعزمت علىٰ أن لا أحكم علىٰ المتأخر بالسرقة من المتقدّم حكما حتما .

إذا تقرر ذلك فسرقة المعنىٰ المجرّد عن اللفظ لا تخرُج عن ٱثنى عشر ضربا .

الضرب الأوّل

أن يؤخذ المعنىٰ ويستخرجَ منه مايشبهه ، ولا يكون هو إيَّاه . قال فى "المَثَـل السائر" : وهذا من أدق السرقات مَذْهبا وأحسنها صورة ، ولا يأتى إلا قليـلا . فمِنْ ذلك قول المتنبي :

وإذا أتتْكَ مَذَمَّتِي من نَاقِصٍ، * فهى الشَّهادةُ لِى بأنِّى كَامِـلُ

وهذا المعنىٰ ٱستخرجه المتنبي من قول بعض شعراء الحَمَاسة، وإن لم يكن صريحا فيه حيث يقول :

لَقَــدْ زادَنِى حُبّاً لِنَفْسِىَ أنّنِى * بَغِيضٌ إلىٰ كلِّ ٱمرىءٍ غيرِ طَائِلِ

قال فى "المَثَل السائر" : والمعرفة بأنّ هذا المعنىٰ من ذلك المعنىٰ عَسِرٌ غامض غير متبيِّن إلا لمن أعرق فى ممـارسة الشـعر، وغاص علىٰ ٱستخراج المعـانى . قال : وبيـان ذلك أن الأوّل يقول : إن بغض الذى هو غير طائل إيَّاى قد زاد نفسى حبـا إلىّ أى قد جَمَّلها فى عينى وحسنها عنـدى كونُ الذى هو غير طائل منقصى ؛ والمتنبي يقول : إن ذم الناقص إياه بفضله كتحسين بُغْضِ الذى هو غير طائل نفسَ ذلك عنده .

وأظهر من ذلك أخذا من هذا الضرب قول البُحْتُرِىّ فى قصيدة يفخَرُ فيها بقومه :

شَيْخَانِ قد ثَقُلَ السِّلاحُ عليهما * وعداهما رَأْىُ السميعِ المُبْصِرِ

رَكِبا القَنَا من بعد ما حَمَلاَ القَنَا * فى عَسْكَرٍ متحامِلٍ فى عَسْكَرِ

أخذه من قول أبى تمَّـامٍ فى وصف جَمَلٍ :

رَعَتْه الفَيَافِى بعــد ما كان حِقْبَـةً * رَعَاها، وماءُ الرَّوْضِ يَنْهَلُّ سَاكِبُه

فأبو تمّـام ذكر أن الجَمَل رعى الارض، ثم سار فيها فرعَتْه أى أهزلَتْه، فكأنها فعلَتْ به مثلَ ما فعـل بها ؛ والبُحْتُرِىُّ نقله إلى وصف الرجل بعلو السنّ والهرَم، فقال : إنه كان يحمل الرمح فى القتال، ثم صار يركب الرُّمْحَ أى يتوكأ منه على عصا، كما يفعل الشيخ الكبير .

وأوضح من ذلك وأكثر بيانا فى الأخذ قول البُحْتُرِىّ أيضا :

أَعَاتِكَ ما كانَ الشَّبَابُ مُقَرِّبِى * إِلَيْكِ، فَأَلْحَى الشَّيْبَ إِذْ هُوَ مُبْعِدِى

أخذه من قول أبى تمّـام :

لا أَظْلِمُ النَّأْىَ، قد كانتْ خلائقُها * من قَبْلِ وَشْكِ النَّوى عِنْدِى نَوًى قُذُفَا

الضرب الثـانى

أن يُؤخذ المعنى فيعكس ؛ قال فى "المَثَل السائر" : وذلك حَسَنٌ يكاد يخرجه حسنه عن حدّ السرقة .

فمن ذلك قول أبِى نُوَاسٍ :

قالوا : عَشِقْتَ صغيرةً، فأجَبْتُهم * أشْهى المَطِىِّ إلىّ ما لم يُرْكَبِ.

كم بينَ حَبّـةِ لؤلؤ مَثْقُوبةٍ * نُظِمتْ وحَبَّةِ لُؤْلؤ لم تُثْقَبِ؟

وقول ٱبن الوليد فى عكسه :

إن المَطِيّـةَ لا يَلَذُّ رُكُوبها * حتى تُذَلَّلَ بالزِّمام وتُرْكَبا .

والدُّرّ ليس بنـافِعٍ أربابَهُ، * حتّى يُزَيَّنَ بالنِّظام ويُثْقَبا .

ومنه قول ٱبن جعفر:

ولَمَّـا بَدَا لى أنها لا تُرِيدُنِى * وأنَّ هواها ليسَ عَنِّى بمُنْجَلِى،

تَمنَّيت أن تَهوى سِوَاىَ لعَلَّها * تَذُوقُ صَبابَاتِ الهَوى فتَرِقَّ لِى

وقول غيره فى عكسه :

وَلَقَدْ سَرَّنِى صُـدُودُكِ عَنِّى * فى طِلَابِيكِ ، وٱمتناعُكِ منِّى

حَذَرًا أن أكونَ مِفْتاحَ غَيْرِى ، * وإذا ما خَلَوتُ ، كنتِ التَّمَنِّى

أما ٱبن جعـفر فإنه ألقىٰ عن منكبيه رداء الغَيْرَة ، وأما الآخر ، فإنه جاء بالضدّ من ذلك وبالغ غايةَ المبالغة .

ومنه قول أبى الشِّيص :

أَجِدُ المَلَامةَ فى هَوَاكِ لذيذة * شَغَفًا بِذِكْرِكِ ، فلْيَلُمْنِى اللُّوَّمُ

وقول أبى الطيب فى عكسه :

أَأُحِبُّهُ وأُحِبُّ فيه ملَامةً ، * إنّ المَلَامةَ فيـه من أَعْدَائِهِ

ومنه قول أبى تمَّـام :

ولولا خِلَالٌ سَنَّهَا الشِّعْر ما دَرىٰ * بُغَاةُ العُلىٰ من أين تُؤْتى المَكَارِمُ

وقول الوزير ضياء الدين بن الأثير فى عكسه :

لَوْلا الكِرام وما سَنُّوهُ من كَرَمٍ ، * لم يَدْرِ قائلُ شِعْرٍ كيف يَمْتَدِحُ

الضرب الثـالث

(أن يؤخذ بعضُ المعنىٰ دون بعض)

فمن ذلك قول أُمَيَّةَ بن أبى الصَّلْتِ يمدح عبدالله بن جُدْعَانَ :

عطاؤكَ زَيْنٌ لٱمرئٍ إن حَبَوْتَهُ * بِبَـذْلٍ ، وما كُلُّ العطاء يَزِينُ

وقول أبى تمَّـام بعده :

تُدْعىٰ عطاياه وَفْرًا ، وهْىَ إنْ شُهِرَتْ ، * كانتْ فَخَاراً لمن يَعْفُوه مُـؤْتَنِفَا

ما زِلتُ منتَظِرا أُعْجُـوبةً زَمَنًـا * حتّى رأيتُ سُـؤالا يُجْتَنىٰ شَرَفَا

فأمية بن أبى الصَّلت أتىٰ بمعنيين : أحدهما أن عطاءك زَيْن ، والآخر أن عطاءَ غيرِك ليس بزين؛ وأبو تمَّام أتىٰ بالمعنىٰ الأوّل فقط .

ومنه قول علىّ بن جَبَلة :

وأثَّلَ ما لم يَحْوِهِ مُتَقَدِّمٌ، * وإن نال منه آخِرٌ، فهو تابعُ

وقول أبى الطَّيِّب بعده :

تَرَفَّعَ عن عُونِ المكارِمِ قَدْرُهُ، * فما يَفْعَلُ الفَعْلَاتِ إلا عَذَارِيَا

فابن جبلة أتىٰ بمعنيين، أحدهما أنه فعل ما لم يفعله أحد ممن تقدّمه ، وإن نال الآخِر شيئا فهو مقتدٍ به وتابعٌ له ؛ وأبو الطَّيِّب أتىٰ بالمعنىٰ الأوّل فقط ،وهو أنه فعل مالم يفعله غيره مشيرا إلىٰ ذلك بقوله : فما يفعل الفَعْلَاتِ إلا عَذَارِيَا أى يستبكرها ويُزِيل عُذْرتها .

ومنه قول الآخر :

أَنْتِجِ الْفَضْلَ أو تَخَلَّ عن الدنـيا، * فَهَاتَانِ غَايَةُ الهِمَمِ

وقول البُحْتُرِىّ بعده :

اِدْفَعْ بأمثالِ أبى غَالِبٍ * عاديةَ العُدْمِ، أو ٱسْتَعْفِفِ

فالبُحْتُرِىُّ ٱقتصر علىٰ بعض المعنىٰ ولم يستوفه

الضرب الرابع

أن يؤخذ المعنىٰ فيزاد عليه معنى آخَر. قال فى "المَثَل السائر" : وهذا النوع من السَّرِقات قليل الوقوع بالنسبة إلىٰ غيره .

فمن ذلك قول الأخنس بن شِهاب :

إذا قَصُرَتْ أسيافُنَا، كان وَصْلُها * خُطَانَا إلىٰ أعدائنا، فنُضَارب

وقول مسلم بن الوليد بعده :

إنْ قَصُر الرُّمحُ لم نَمْشِ الخُطَا سَدَدا * أو عَرَّدَ السيفُ لم نَهْمُمْ بتعرِيد

أخذ مسلم المعنىٰ الذى أورده الأخنس : وهو وصْل السـلاح إذا قَصُر بالخُطَا إلىٰ العدوّ وزاد عليـه عدم تعريدهم أى فِرارهم إذا عرّد السيف . ومنه قول جرير فى وصف أبيات من شعره :

غَرائِب آلاف إذا حانَ وِرْدُها * أخذْنَ طَريقًا للقَصائِدِ مُعْلَمـا

وقول أبى تمـام بعده :

غرائبُ لاقَتْ فى فِنائِكَ أُنْسَها * من المَجْدِ فَهْىَ الْآن غَيْرُ غرائِبِ

فزاد أبو تمـام علىٰ جرير قِرَان ذلك بالممدوح ومدحَه مع الأبيات . ومنـه قول المُعَذَّل بن غيلان :

ولسْتُ بنَظَّارٍ إلىٰ جانِبِ الغِنىٰ * إذا كانَتِ العَلْياءُ فى جانِبِ الفَقْرِ

وقول أبى تمـام بعده :

يَصُدُّ عنِ الدُّنْيا إذا عَنَّ سُودَدٌ * ولو بَرَزَتْ فى زِىِّ عَذْراءَ ناهِدِ

فزاد عليه قوله :

* ولو برزتْ فى زىّ عَذْراء ناهِدِ *

وممـا آتفق لى نظمه فى هـذا الباب أنه لمـا عُمِّرت مدرسـة الظاهر برقوق بين القصرين بالقاهرة المحروسة، وكان القائم بعمارتها الأمير جركس الخليلىّ أميراخور الظاهرىّ ، وكان قد آعتمد بناءَها بالصُّخور العظيمة التى لاتُقِلُّها الجِمال حَمْلا ، ولا تحمَلُ إلا علىٰ العجل الخَشَب فأُولِع الشعراءُ بالنظم فىهذا المعنىٰ؛ فنظم بعض الشعراء أبياتا عرّض فيها بذكر الخليلىّ وقيامه فى عمارتها ، ثم قال فى آخرها :

وبَعْضُ خُدّامه طَوْعًا لخدْمته * يدعو الصُّخُور فتأتيه علىٰ عَجَل

وألزمنى بعضُ الإخوان بنظم شيء فى المعنىٰ، فوقع لى أبيات من جملتها :

وبالخَلِيلىّ قد راجَتْ عِمَـارَتُها * فى سُرْعةٍ بُنِيَتْ من غَيْرِ ماَمَهَلِ
كَمْ أظْهَرَتْ عَجَباً أسْواطُ حِكْمَتِهِ * وقد غَدَتْ مثلاً ناهِيكَ مِنْ مَثَلِ
وكَمْ صُخُورٍ تَخَـالُ الجِنَّ تَنْقُلُها * فإنَّهـا بالوَحَا تأتِى و بالعَجَلِ

فزدت عليه ذكر الوحَا الذى معناه السرعة أيضا وصار مطابقا لما يأتى به المعزِّمون فى عزائمهـم من قولهم الوحَا الوحَا العَجَلَ العجَلَ مع ما تقـدّم له من التوطئة بقولى تخال الجنّ تنقُلُها ، علىٰ أنى لستُ من فُرْسان هذا المَيْدان ، ولا من رجال هذا الوَغىٰ

الضرب الخـامس

أن يُؤْخَذَ المعنىٰ فيُكْسىٰ عبارةً أحسن من العبارة الأُولىٰ قال فى "المثل السائر" وهذا هو المحمود الذى يَخْرُج به حُسْنُه عن باب السرقة ، فمن ذلك قول أبى تمام :

إنَّ الكِرَامَ كَثِيرٌ فى البِلَادِ و إنْ * قَلُّوا كما غيْرُهم قُلٌّ و إن كَثُروا

أخذه البحْتُرِىُّ فقال :

قَلَّ الكِرامُ فصـار يَكْثُرُ فَذُّهُمْ * ولقـد يَقِلُّ الشيءُ حَتَّى يَكْثُرا

ومنه قول أبى نُوَاس :

يَدُلُّ علىٰ مافى الضَّمِيرِ مِنَ الفَتىٰ * تَقَلُّبُ عيْنَيْهِ إلىٰ شَخْصِ مَنْ يَهْوىٰ

وقول أبى الطيب بعده :

و إذا خَامَرَ الهَوىٰ قَلْبَ صَبٍّ * فعلَيْـــهِ لِكُلِّ عَيْنٍ دَلِيـــلُ

ومنه قول أبى العلاء بن سليمان فى مَرْثِيَّة :

وما كُلْفَةُ البَـدْرِ المُنِيرِ قَدِيمـةٌ * ولٰكِنَّها فى وَجْهِــهِ أثَرُ اللَّطْمِ

وقول القيسرانىّ بعده :

وأهْوىٰ الَّذِى يَهْوِى لَهُ البَدْرُ ساجدًا * ألَسْتَ ترىٰ فى وَجْهِـهِ أثَرَ التُّرْبِ

ومنه قول ٱبن الرومىّ :

إذا شَنَأَتْ عينُ امْرِئٍ شَيْبَ نَفْسِه * فعَيْنُ سِـوَاهُ بالشَّنَاءَةِ أجْـدَرُ

وقول مَنْ بعده :

إذا كان شَيْبِى بَغِيضًا إلَىَّ * فكَيْفَ يَكُونُ إليْهَـا حَبِيبًا

الضرب السادس

أن يؤخذ المعنىٰ ويسبك سَبْكا مُوجَزا قال فى "المثـل السائر" وهو من أحسن السرقات : لمـا فيه من الدلالة علىٰ بَسْطة الناظم فى القولْ وسَعَة باعه فى البلاغة ، فمن ذلك قول أبى تمـام :

بَرَّزْتَ فى طَلَبِ المَعَالِى واحِدا * فيهـا تَسِـيرُ مُغَوِّرًا أو مُنْجِدَا

عَجَبـا بأنَّكَ سَالِمٌ من وَحْشَـةٍ * فى غايةٍ ما زِلْتَ فيهـا مُفْـرَدَا

وقول ٱبن الرومى بعده :

غرَّبَتْهُ الخَلَايِقُ الزُّهْرُ فى النَّا * سِ وما أوْحَشَـتْه بالتَّغْرِيبِ

فأخذ معنىٰ البيتين فى بيت واحد، ومنه قول أبى العَتَاهِيَة :

وإنِّى لَمَعْـذُورعلىٰ فَرْطِ حُبِّها : * لأنَّ لهـا وَجْهًا يَدُلُّ علىٰ عُذْرِى

أخذه أبو تمـام فقال :

لَهُ وَجْـهٌ إذا أبْصَرْ * تَهُ ناجاكَ عَنْ عُذْرِى

فأوجز فى هذا المعنى غاية الإيجاز، ومنه قول أبى تمام يمدح أحمد بن سعيد :

كانتْ مُسَاءلَةُ الرُّكْبَانِ تُخْـبِرُنِى * عَنْ أحْمَدَ بْنِ سَعِيدٍ أطْيَبَ الخَبَرِ

حتَّى التقَيْنَا فَلَا واللهِ ما سَمِعتْ * أُذْنِى بأحسَنَ مما قَدْ رَأى بَصَرِى !

أخذه أبو الطيب فأوجز فى أخذه فقال :

وأَسْتَكْبِرُ الأخبارَ قَبْلَ لِقائِه * فلَمَّا التقَيْنَا صَغَّر الخَبَرَ الخُبْرُ

ومنه قول بعض الشعراء :

أمِنْ خَوْفِ فَقْرٍ تعجَّلْتَهُ * وأخَّرْتَ إنفاقَ ما تَجْمَعُ ؟

فِصرْتَ الفقِيرَ وأنْتَ الغنِىّ * وما كُنْتَ تَعْدُو الذى تَصْنَعُ

أخذه أبو الطيب فقال :

ومن يُنْفِقِ الساعاتِ فى جَمْعِ مالِهِ * مَخَافَةَ فَقْرٍ فالذى فَعَل الفَقْرُ

الضرب السابع

زيادة البيان مع المساواة فى المعنى، بأن يؤخذ المعنى فيُضْرَب له مثال يوضحه، فمن ذلك قول أبى تمام :

هو الصُّنْع إنْ يُعْجَلْ فنَفْع وإن يُرَثْ * فَلَلرَّيْثُ فى بعضِ المَوَاطِنِ أَنْفعُ

أخذه أبو الطيب فقال :

ومِنَ الخَيْرِ بُطْءُ سَيْبِكَ عَنِّى * أَسْرَعُ السُّحْبِ فى المَسيرِ الجَهَامُ

فزاده وضوحا بضرب المثال له بالجَهام : وهو السحاب الذى لا مَطَر فيه .

ومنه قول أبى تمام أيضا :

قد قَلَصتْ شَفَتَاهُ من حَفيظَتِه * فَخِيلَ مِنْ شدَّةِ التَّعْبِيس مُبْتَسِما

أخذه أبو الطيب فقال :

وجاهِلٍ مَدَّهُ فى جَهْلِهِ ضَحِكى * حتَّى أتَتْهُ يَدٌ فَرَّاسَةٌ وفَمُ

إذا رأيتَ نُيُوبَ اللَّيْثِ بارِزَةً * فلا تَظُنَّنَّ أنَّ اللَّيْثَ مُبْتَسِمُ

فضرب له مثالا بظهور أنياب الليث فزاده وضوحا .

ومنه قول أبي تمـام أيضا :

وكذاكَ لم تُفْرِطْ كآبَةُ عاطِـلٍ * حتّى يُجاوِرَها الزّمانُ بِحالِ

أخذه البحتريُّ فقال :

وقد زادَها إفراطَ حُسنٍ جِوارُها * لأخْلاقِ أصْفارٍ من المَجْدِ خُيَّبِ

وحُسْنُ دَرارِيِّ الكَواكِبِ أن تُرىٰ * طَوالِـعَ فى داجٍ من اللَّيْلِ غَيْهَبِ

فضرب له مثالا بالكواكب فى ظَلام الليل، فأوضحه وزاده حُسْنا .

الضرب الثـامن

اتحـاد الطريق وآختلاف المَقْصود ، مثل أن يسْلُك الشاعران طريقا واحدةً فتخرجَ بهما إلىٰ مَوْرِدين، وهناك يتبين فضل أحدهما علىٰ الآخر .

فمن ذلك قول النابغة :

إذا ماغزَا بالجَيْش حلَّقَ فَوْقَهُ * عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدى بِعَصَائِبِ

جَوَانحِ قدْ أيْقَنَّ أنَّ قَبِيلَهُ * إذا ما الْتَقَى الجَمْعَانِ أوَّلُ غالِبِ

وهذا المعنىٰ قد توارده الشعراء قديما وحديثا، وأوردوه بضروب من العبارات،

فقال أبو نُوَاس :

يَتَوخّى الطَّيْرُ غَزْوتَهُ * ثِقَةً باللَّحْم من جَزْره

وقال مسلم بن الوليد :

قَدْ عَوّدَ الطَّيرَ عاداتٍ وَثِقْنَ بهَا * فهُنَّ يَتْبَعنَهُ فى كُلِّ مُرْتَحَـلِ

وقال أبو تمـام :

وقد ظُلِّلَتْ عِقْبانُ أَعْلامه ضُحًى * بِعِقْبانِ طَيْرٍ فى الدِّمَاءِ نَوَاهِـلُ

أقامَتْ مع الرَّاياتِ حتّى كأنَّهـا * من الجَيْشِ إلا أنَّهـا لاتُقَاتِلُ

وكل هؤلاء قد أتَوْا بمعنًى واحد لا تفاضُلَ بينهم فيه إلا من جهة حُسْن السبك أو من جهة الإيجاز . قال ولم أر أحدا أغرب فى هذا المعنىٰ فسلك هـذا الطريق مع ٱختلاف مَقْصِده إلا مسلم بن الوليد فقال :

أَشْرَبْتَ أرواحَ العِـدَا وقُلُوبَهَا * خَوْفاً فأنفُسُها إليـكَ تَطِـيرُ

لو حاكَمَتْكَ فطالَبَتْكَ بذَحْلِهـا * شَهِدتْ عليك ثَعَـالِبٌ ونُسُورُ

فهذا قد فضل به مسلم غيْرَه فى هذا المعنىٰ، ولما ٱنتهى الأمر إلىٰ أبى الطيب سلك هذه الطريق التى سلكها مَنْ تقدّمه إلا أنه خرج فيها إلىٰ غير المقصد الذى قصدوه فأغرب وأبدع، وحاز الإحسان بجملته، وصار كأنه مبتدِع لهذا المعنىٰ دون غيره فقال :

سَحَابٌ من العِقْبانِ يَزْحَفُ تحتَهـا * سَحَابٌ إذا ٱستَسْقَتْ سَقَتْها صَوارِمُهْ

فَحَوىٰ طرفَيِ الإغراب والإعجاب

الضرب التـاسع

بيـاض بالأصل[1]

---

(١) اقتصر فى الضوء على أحد عشر نوعا وجعل العاشر تاسعا الخ وكذلك عدّها صاحب المثل السائر .

الضرب العاشر

أن يكون المعنىٰ عامًّا فيجعلَ خاصًّا أو خاصًّا فيجعل عامًّا، وهو من السرقات التى يسامَحُ صاحبها، فأما جعل العام خاصا، فمن ذلك قول الأخطل (١) .

لاتَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وتَأْتِىَ مِثْلَهُ * عارٌ عَلَيْكَ إذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

أخذه أبو تمام فقال :

أَأَلُومُ مَنْ بَخِلَتْ يَدَاهُ وأغْتَدِى * للبُخْلِ تِرْبًا ؟ ساءَذاكَ صَنِيعًا !

فالأخطل نهىٰ عن الإتيان بما ينهىٰ عنه مطلقا فجاء بالخُلُق منكَّرا فجعله شائعا فى بابه ؛ وأبو تمام خصَّص ذلك بالبُخْل ، وهو خُلُق واحدٌ من جملة الأخلاق .

وأما جعل الخاص عاما، فمن ذلك قول أبى تمام .

ولو حارَدَتْ شَوْلٌ عَذَرْتُ لِقاحَها * ولكِنْ مَنَعْنَ الدَّرّ والضَّرْعُ حافِلُ

أخذه أبو الطيب فجعله عاما فقال :

وما يُؤْلِمُ الحِرْمانُ من كَفِّ حارِمٍ * كما يُؤْلِمُ الحِرْمانُ من كَفِّ رَازِقِ

الضرب الحادى عشر

قلبُ الصورة القبيحة إلىٰ صُورة حسنة . قال فى "المثل السائر" وهذا لايسمّىٰ سرقة بل يسمّى إصلاحا وتهذيبا ، فمن ذلك قول أبى نُوَاس فى أُرْجوزة يصف فيها اللَّعِبَ بالكُرَة والصَّوْلَجَان فقال من جملتها :

جِنٌّ علىٰ جِنٍّ وإن كانوا بَشَرْ * كأنَّما خِيطُوا عليْها بالإِبَرْ

أخذه المتنبى فقال :

فكأنَّها نُتِجَتْ قِيامًا تَحْتَهُمْ * وكأنَّهُمْ خُلِقُوا علىٰ صَهَواتِها

---

(٢) كذا فى "المثل السائر" أيضا — وفى ديوان الأخطل صحيفة ٣٣٨ أن هذا البيت للمتوكل الليثى .

فهذا فى غاية العلو والارتقاء بالنسبة إلى قول أبى نُوَاس، ومنه قول أبى الطيب.

لو كانَ ماتُعْطِيهمُو من قَبْلِ أنْ * تُعْطِيهمو لم يَعْرِفُوا التَّأْمِيلَا

وقول ابن نباتة السعدى :

لم يُبْقِ جُودُكَ لِى شيئًا أؤمِّلهُ * تَرَكْتَنِى أَصْحَبُ الدُّنْيا بلا أَمَلِ

فكلام ابن نباتة أحسن فى الصورة من كلام المتنبى هنا، وإن كان مأخوذا منه .

الضرب الثانى عشر

قلب الصورة الحسنة إلى صورة قبيحة، وهو الذى يعبِّر عنه أهل هذه الصناعة بالمسخ، وهو من أرذل السرقات وأقبحها، فمن ذلك قول أبى تمام :

فَتًى لايَرَى أنّ الفَرِيصةَ مَقْتَلٌ * ولكِنْ يَرَى أَنَّ العُيوبَ مَقَاتِلُ

أخذه أبو الطيب فمسخه فقال :

يَرَى أَنَّ مَا مَابَانَ مِنْكَ لِضَارِبٍ * بأَقْتَلَ مِمَّا بَانَ مِنْكَ لعَائِبِ

ومنه قول عبد السلام بن رغبان :

نَحْنُ نُعَزِّيكَ ومِنْكَ الهُدَى * مُسْتَخْرَجٌ والصَّبْرُ مُسْتَقْبَلُ

أخذه أبو الطيب فمسخه فقال من أبيات :

وبِأَلْفاظِكَ اهتدى فإذا عَزَّاك قال الّذى له قُلْتَ قَبْلَا

المسلك الثانى
(طريقة الاختراع)

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر" فهى أن لايتصفح كتابة المتقدّمين ولا يطّلع على شىء منها، بل يصرفُ هِمَّته إلى حفظ القرءان الكريم وكثير من الأخبار النبوية وعدّة من دواوين فحول الشعراء ممن غلب على شعره الإجادةُ

فى المعانى والألفاظ ، ثم يأخذ فى الاقتباس من القرءان والأخبار النبوية والأشعار فيقوم ويقع ،ويُخْطِئ ويُصيب ،ويَضِلُّ ويهتدى ، حتّى يستقيم إلىٰ طريق يفتحها لنفسه ،وأخْلِقْ بتلك الطريق أن تكون مبتدَعة غريبة ، لاشركة لأحد من المتقدّمين فيها ! . قال: وهذه الطريق هى طريق الاجتهاد وصاحبها يعدّ إماما فى الكتابة كما يعدّ الشافعىّ وأبو حنيفة ومالك وغيرهم من المجتهـدين فى علم الفقه، إلا أنها مستوْعرة جدّا ،لايستطيعها إلا من رزقه الله تعالىٰ لسانا هَجّامًا ، وخاطرا رَقّاما. قال : ولا أريد بهذا الطريق أن يكون الكاتب مُرْتَبِطا فى كتابته بما يستخرجه من القرءان الكريم ، والأخبار النبوية والأشعار ،بحيث إنه لاينشئ كتابا إلا من ذلك ، بل أريد أنه إذا حفظ القرءان الكريم ، وأكثر من حفظ الأخبار النبوية والأشـعار ، ثم نقَّب عن ذلك تنقيبَ مطّلع علىٰ معانيه ، مفتش علىٰ دفائنه ، وقلَبَه ظهرًا لبطن ، عرف حينئذ من أين تؤْكل الكَتِف فيما ينشئه من ذات نفســه ، واستعان بالمحفوظ علىٰ الغريزة الطبيعيــة . علىٰ أنه لابدَّ للكاتب المرتقِى إلىٰ درجة الاجتهـاد فى الكتابة مع حفظ القرءان الكريم ، والاستكثار من حفظ الأخبار النبوية ، والأشعار المختارة ، من العلم بأدوات الكتابة وآلات البيان : من علم اللغة ، والتصريف ، والنحو ، والمعانى ، والبيان ، والبديع : ليتمكن من التصرف فى اقتباس المعانى واستخراجها فيرقىٰ إلىٰ درجة الاجتهاد فى الكتابة ؛ كما أن المجتهد من الفقهاء إذا عرف أدوات الاجتهاد : من آيات الأحكام ، وأحاديثها ، ونعتها ؛ وعرف النحو والناسخ والمنسوخ من الكتاب والسـنة ، والحسابَ والفرائض وإجماع الصحابة ، وغير ذلك من آلات الاجتهاد وأدواته ، استخرج بفكره حينئذ مايؤدّيه إليه اجتهاده . فالمجتهد فى الكتابة يستخرج المعانى من مظانّها من القرءان الكريم ، والأخبار النبوية ، والأشـعار ، والأمثال ، وغير ذلك بواسـطة آلة الاجتهاد ، كما أن المجتهد فى الفقهيات يستخرج

الأحكام من نصوص الكتاب والسنة بواسطة آلة الاجتهاد . فإذا أراد الكاتب المتصف بصفة الاجتهاد فى الكتابة إنشاء خطبة أو رسالة أو غيرهما مما يتعلق بفنّ الإنشاء

بياض بالأصل

الأصل السادس

(وجود الطبع السليم ، وخلو الفكر عن المشوّش)

أما وجود الطبع فقال فى "مواد البيان" : أوّل مَعَاوِن هذه الصناعة الجليلة القريحةُ الفاضلة ، والغَرِيزة الكاملة ، التى هى مبدأ الكمال ، ومَنْشأ التمام ، والأساس الذى يبنىٰ عليه ، والركنُ الذى يُستند اليه ، فإن المرء قد يجتهد فى تحصيل الآداب ، ويتوفَّر علىٰ اقتناء العلوم واكتسابها ، وهو مع ذلك غير مطبوع علىٰ تأليف الكلام فلا يفيده ما اكتسبه ، بخلاف المطبوع علىٰ ذلك ، فإنه وإن قصَّر فى اقتباس العلوم واكتساب الموادّ فقد يُلْحَق بأوساط أهل الصناعة ؛ وذلك أن الطبع يخص الله تعالىٰ به المطبوعَ دون المتطبِّع ، والمناسبَ بغريزته للصناعة دون المتصنِّع ، ولا سبيلَ إلىٰ اكتساب سُهولة الطبع ولا كَزَازته ، بل هو مَوْهَبَة تَخُصُّ ولا تعُم ، وتوجد فى الواحد وتُفْقَد فى الآخر .

قال ابن أبى الأصبع فى "تحرير التحبير" ومن الناس من يكون فى البديهة أبرعَ منه فى الرَّوية ، ومن هو مُجِيد فى الرَّوية وليست له بَدِيهة ؛ وقلَّما يتساويان .

ومنهم مَنْ إذا خاطب أبدع ، وإذا كاتب قَصَّر، ومن هو بضـدّ ذلك ، ومن قَوِى نثره ضَـعُف نظمه ، ومن قوِى نظمه ، ضـعُف نثره ، وقلمـا يتساويان .
وقد يُبَرِّز الشاعر فى معنًى من مقاصد الشـعر دون غيره من المقاصد، ولهذا قيل : أشـعَرُ النـاس آمرؤُ القيس إذا ركِب ، وزُهَيْر إذا رَغِب ، والنـابغة إذا رَهِب ، وعنـترة إذا كَلِب[(١)] ، والأعشىٰ إذا طَرِب . قال فى "المثـل السائر" بل ربمـا نَفَذَ فى بعض أنواع الشعر دون بعض فيُرىٰ مُجِيدا فى المدح دون الهَجْو، أو بالعكس، أو ماهرا فى المَقَامات ونحوها دُونَ الرسائل، أو فى بعض الرسائل دون بعض . قال آبن أبى الاصبع : ولربما واتاه العملُ فى وقت دون وقت ، ولذلك قال الفرزدق : إنى ليمرّ علىَّ الوقت ولَقَلْعُ ضِرس من أضْراسى أيسرُ علىّ من قول الشعر، ولذلك عز تأليف الكلام ونظمه علىٰ كثير من العلمـاء باللغة والمهَرَة فى معرفة حقائق الألفاظ من حيث نُبُوّ طباعهم عن تركيب بسائط الكلام الذى قامت صور معانيه فى نفوسهم وصَعُب الأمر عليهم فى تأليفه ونظمه ، فقد حكى أن الخليل بن أحمـد مع تقدّمه فى اللغة ومَهَارته فى العربية، وآختراعه علم العروض، الذى هو ميزان شعر العرب، لم يكن يتهيأ له تأليف الألفاظ السهلة لديه الحاصلة المعانى فى نفســه علىٰ صورة النظم إلا بصُعوبة ومشقَّة، وكان إذا سئل عن سبب إعراضه عن نظم الشعر يقول يأبانى جيِّـدُه وآبىٰ رديئه، مشيرا بذلك إلىٰ أن طبعــه غير مساعد له علىٰ التأليف المرضىّ الذى تحسُن نسبته إلىٰ مثله . وقيل للفضَّل الضبِّىّ ألا تقول الشعر وأنت أعلم الناس به، فقال علمى به يمنعنى من قوله وأنشد :

أبىٰ الشِّـعْرُ إلا أن يفُىءَ رَدِيئَه * علَىّ ويأْبىٰ منــه ما كانَ مُحْكَما
فياليتنى إنْ لم أَجِدْ حَوْكَ وَشْيِه * ولم أَكُ من فُرْسانِه كنت مُفْحَما

(١) أى غضب .

وأنشد أبو عبيدة خَلَفًا الأحمرَ شعرا له فقال : اخْبَأْ هذا كما تَخْبَأُ السِّنَّورة حاجتها، مع ما كان عليه أبو عبيدة من العلم باللغة وشعر العرب وأمثالها وأيام حروبها، وما يجرى مجرىٰ ذلك من موادّ تأليف الكلام ونظمه . ويحكىٰ عن أبي العباس المبرِّد أنه قال : لا أحتاج إلىٰ وصف نفسى : لأن الناس يعلمون أنه ليس أحد بين الخافقَيْنِ تختلج فى نفسه مسئلةٌ مُشْكلة إلا لقِينى بها وأعدّنى لها ، فأنا عالم ومُعَلِّم، وحافظ ودارس، لايخفىٰ علىّ مشتبه من الشعر، والنحو، والكلام المنثور، والخُطَب، والرسائل ؛ ولربما احتجت إلىٰ اعتذار من فَلْتة ، أو التماس حاجة، فأجعل المعنىٰ الذى أَقصِد نُصْب عينى ثم لاأجد سبيلا إلىٰ التعبير عنه بيدٍ ولا لسان؛ ولقد بلغنى أن عبيد الله بن سليمان ذكرنى بجميل فحاوَلْت أن أكتب إليه رُقْعة أشكُره فيها وأعرِّض ببعض أُمُورى فأتعبت نفسى يوما فى ذلك فلم أقدر علىٰ ما أرتضيه منها، وكنت أحاول الإفصاح عما فى ضميرى فينحرف لسانى إلىٰ غيره، ولذلك قيل زيادة المنطق علىٰ الأدب خُدْعة، وزيادة الأدب علىٰ المنطق هُجْنة .

فقد تبين لك أن العبرة بالطبع وأنه الأصل المرجوع إليه فى ذلك؛ علىٰ أن الطبع بمفرده لاينهض بالمقصود من ذلك نُهوضَه مع اشتماله علىٰ الموادّ المساعدة له علىٰ ذلك من الأنواع السابقة فيما تقدّم فى أول هذه المقالة : من العلم باللغة والنحو والتصريف والمعانى والبيان والبديع وحفظ كتاب الله تعالىٰ ، والإكثار من حفظ الأحاديث النبويّة والأمثال والشعر والخطب ورسائل المتقدّمين وأيام العرب وما يجرى مجرىٰ ذلك مما يكون مساعدا للطبع ومُسَهِّلا طريق التأليف والنظم ، بل يتفاوت فى العلو والهُبوط بحسب التفاوت فى ضعف المساعد من ذلك وقوّته؛ إذ معرفته هذه الأمور قائمةٌ من الإنشاء مقامَ المادّة ، والطبعُ قائم منه مقام الآلة، فلا يتم الفعل وإن قامت الصورة فى نفس الصانع مالم تُوجَد المادّةُ والآلةُ جميعا ، ولو كان حصول المادّة

كافيا فى التوصــل إلىٰ حسن التأليف الذى هو نظم الألفاظ المتناسبة وتطبيقها علىٰ المعانى المساوية لكانت صناعة الكلام المؤلَّف من الرسائل والخطب والأشعار سهلةً، والمُشاهَد بخلاف ذلك : لقُصور الأفاضل عن بلوغ هذه الدرجة .

وأما خلوّ الفكر عن المشوّش فإنه يرجع إلىٰ أمرين .

الأمر الأوّل

(صـــفاء الزمان)

فقد قال أبو تمـام الطائىّ فى وصيته لأبى عُبَـادة البحترىّ مرشِـدا له للوقت المناسب لذلك : تخيَّرِ الأوقاتَ وأنت قليـلُ الهُموم ، صِفْرٌ من الغُمُوم ؛ وٱعلم أن العادة فى الأوقات إذا قَصَد الإنسان تأليفَ شىء أو حفظَه أن يختار وقت السَّحَر، فإن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة ، وقِسْطها من النوم، وخفَّ عنها ثِقَلُ الغِذاء، وصَفَا الدِّماغ من أكثر الأبخرة والأدْخِنة ،وسكنت الغَمَاغِم، ورقَّت النسائم، وتغنَّت الحمائم .

وخالف ٱبن أبى الأصبع فى ٱختيار وقت السحر، وجنح إلىٰ ٱختيار وسط الليل، أخذا من قول أبى تمـام فى قصيدته البائية :

خُذْها ٱبْنَةَ الفِكْرِ المُهَذَّبِ فى الدُّجىٰ * واللَّيْـــلُ أَسْوَدُ رُقْعَـــةِ الجِلْبَابِ

مفسرا للدُّجىٰ بوســط الليل ، محتجا لذلك بأنه حينئذ تكون النفْس قد أخذت حظها من الراحة ،ونالت قِسطها من النوم، وخفَّ عنها ثِقَل الغِذاء،فيكون الذهن حينئذ صحيحا ، والصدر منشرحا ، والبدن نشيطا، والقلب ساكنا . بخلاف وقت السـحر فإنه وإن كان فيه يرِقُّ النسيم وينهضم الغذاء ، إلا أنه يكون قد ٱنتبه فيه أكثر الحيوانات : الناطقُ وغيره ، ويرتفع معظم الأصـوات ، ويجرى الكثيرُ من الحركات، وينقشِع بعضُ الظَّلْماء بطلائع أوائل الضوء ؛ وربمـا ٱنهضم عن بعض

الناس الغذاء فتحرّكت الشهوة لإخلاف ما آنهضم منه وخرج من فضلاته، فكان ذلك داعيا إلىٰ شُغْل الخاطر، وباعثا علىٰ آنصراف الهمّ إلىٰ تدبير الحَدَث الحاضر، فيتقسم الفكرُ، ويتذبذب القلْبُ، ويتفرّق جميع الهمّ. بخلاف وسط الليل فإنه خال من جميع ذلك.

الأمر الثانى

(صفاء المكان)

وذلك بأن يكون المكانُ الذى هو فيه خاليا من الأصوات، عاريا عن المَخُوفات والمَهُولات والطوارق، وأن يكون مع ذلك مكانا رائقا مُعْجِبا رقيقَ الحَوَاشى فَسِيح الأرجاء، بسيط الرِّحاب، غير غَمٍّ ولا كَدِر، فإن آنضم إلىٰ ذلك مافيه بَسْط للخاطر: من ماء وخُضرة وأشجار وأزهار وطيب رائحة، كان أبسط للفكر وأنجح للخاطر.

وقد ذهب بعضهم إلىٰ أنه ينبغى خُلوُّ المكان من النقوش الغريبة والمَرَائى المعجبة، فإنها وإن كانت مما يُنَشِّط الخاطر فإن فيها شُغْلا للناظر فيتبعه القلب فيتشتَّتُ.

المقصد الثانى

(من الطرف الثالث فى بيان طُرُق البلاغة ووجوه تحسين الكلام، وكيفية إنشائه، وتأليفه، وتهذيبه، وتأديته، وبيان مايُستحسَن من الكلام المصنوع، وما يُعاب به)

أما إنشاؤه وتأليفه فقد قال آبن أبى الأصبع فى "تحرير التحبير": يجب علىٰ كل من كان له مَيْل إلىٰ عمَل الشعر وإنشاء النثر أن يتعهد أوّلا نفسه ويمتحنها بالنظر فى المعانى، وتدقيق الفكر فى آستنباط المخترعات، فإذا وجد لها فِطْرة سليمة وجِبِلَّة

موزونة وذكاء وقّادا وخاطرا سَمْحا وفكرا ثاقبا وفهـما سريعا وبصـيرة مُبصِرة وألمعيَّـة مهذَّبة وقوّةً حافظة وقدرةً حاكية وهمة عاليـة ولَهْجة فصيحة وفِطْنة صحيحة ، أخذ حينئذ فى العمل ؛ وإن كان بعض ذلك غيرَ لازم لرب الإنشاء ، ولا يُضْطَرُّ إليه أكثرُ الشعراء ، ولكن إذا كملت هذه الصفات فى الكاتب والشاعر ، كان موصوفا فى هذه الصناعة بكمال الأوصاف النفيسة .

قال أبو هلال العسكرى فى "الصناعتين" : إذا أردتَ أن تصنع كلاما فأخطر معانيه ببـالك ، ونَقِّ له كرائم اللفظ ، فآجعلها علىٰ ذُكْر منك ليقرُب عليك تناوُلُها ، ولا يتعبَكَ تطَلُّبها ، واعمَلْه مادمت فى شباب نشاطك ، فإذا غشيك الفُتُور ، وتخوَّنك المَلَال ، فأمسك : فإن الكثير مع المَلَال قليل ، والنفيس مع الضَّجَر خسيس ، والخَوَاطر كالينَابِيع يُسقىٰ منها شىء بعد شىء فتجد حاجتك من الرِّىّ ، وتنال أربك من المنفعة ، فإذا أكثرت عليها نَضَب ماؤها ، فقلَّ عنك غناؤها . وينبغى أن تخرج مع الكلام معارضـه ، فإذا مررت بلفظ حَسَن أخذت برقَبته ، أو معنًى بديع تعلقتَ بذَيْله . وتحرَّزْ أن يسبقك ، فإنه إن سبقك تعبت فى تطلُّبـه ، ولعلك لا تلحقه علىٰ طول الطلب ، ومواصلة الدَّأَب ، وهذا الشاعر يقول :

إذا ضَيَّعْتَ أوّلَ كلِّ شىء * أبتْ أعجـازُه إلّا الْتِواء

وقد قالوا ينبغى لصانع الكلام أن لا يتقدّم الكلام تقدّما ولا يتبع ذُنَابَاه تتَبُّعا ، ولا يحمله علىٰ لسانه حَمْلا ، فإنه إن تقدّم الكلامَ لم يتبعه خفيفُه وهزيله وأعجَفُه والشاردُ منه ، وإن تتبعه فاتتْه سوابقه ولواحِقُه ، وتباعدت عنه جِياده وغُرَره ؛ وإن حمله علىٰ لسانه ثقُلتْ عليه أوساقه وأعباؤه ، ودخلت مَساويه فى مَحَاسنه ، ولكنه يجرى معه فلا تَنِدّ عنـه نادّة تُعجبه سِمَنا إلا كَبَحها ، ولا تتخلف عنه مُثْقَلة هزيلةٌ إلا أرْهقها ، وطورا يفرّقه ليختار أحسنه ، وطورا يجمعه ليقرب عليه خطوة الفكر ،

ويتناوله من تحت لسانه ، ولا يسلِّط الملل على قلبه ، ولا الإكثار على فكره ، فيأخذ عَفْوَه ويستغزر دَرّه ، ولا يكره آبيا ولا يدفع آتيا . وإيّاك والتعقيد والتوعُّر ، فإنّ التوعُّر هو الذى يستهلك معانيَك ويَشِين ألفاظك ، ومن أراغ معنًى كريما ، فليلتمس له لفظا كريما ، فإن حقَّ المعنى الشريف اللفظُ الشريفُ ، ومن حقهما أن يصونهما عما يُدَنِّسهما ، ويفسدهما ويُهَجِّنهما ، فتصير بهما إلى حدّ تكون فيه أسوأ حالًا منك قبل أن تلتمِسَ البلاغة ، وترتهِنَ نفسك فى مُلَابستها ؛ وليكن لفظك شريفا ، عذبا ، فَخْما ، سهلا ، ومعناه ظاهرا مكشوفا ، وقريبا معروفا ؛ فإن وجدتَ اللفظة لم تقع موقعها ، ولم تصِلْ إلى مركزها ، ولم تتصل بشَكْلها ، وكانت قلِقةً فى موضعها ، نافرةً عن مكانها ، فلا تُكْرِهْها على اغتصاب أماكنها ، والنزول فى غير أوطانها ؛ وإن بُلِيت بتكلف القول ، وتعاطى الصناعة ، ولم تسمح لك الطبيعةُ فى أوّل وهلة ، وعصَتْ عليك بعد إجالة الفكر ، فلا تعجَلْ ، ودَعْه سحابةَ يومك ، ولا تضجَرْ ، وأمهله سَوَادَ ليلتك ، وعاوِدْه عند نَشَاطك ، فإنك لا تعْدَم الإجابة والمُواتاة إن كانت هناك طبيعة ، أو جَرَيْت من الصناعة على عُرْف ؛ وينبغى أن تعرف أقدار المعانى ، فتوازنَ بينها وبين أوزانِ المستمعين وأقدار الحالات ، فتجعل لكل طبقة كلاما ، ولكل حال مَقاما ، حتّى تقسم أقدار المستمعين على أقدار الحالات ، فإن المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مَقام من المقال .

قال فى "موادّ البيان" ويكون استعمال كلٍّ من جزل الألفاظ وسهلها ، وفصيحها وسَلِسها وبهجها فى موضعه ، وأن يسلك فى تأليف الكلام ، الطريق الذى يخرجه عن حُكْم الكلام المنثور العاطل ، الذى تستعمله العامّة فى المخاطبات ، والمكاتبات ، إلى حكم المؤلَّف الحالِى بحِلَى البلاغة والبديع ، كالاستعارات ، والتشبيهات ، والأسجاع ، والمقابَلات ، وغيرها من أنواع البديع .

قال فى ,, الصناعتين ‹‹ و إنْ عملت رسالة أو خُطْبــة فتخَطَّ ألفاظَ المتكلِّمين : كالجِسْم ، والجَوْهر ، والعَرَض ، واللون ، والتأليف ، واللاهوت ، والنـاسوت ، فإن ذلك هُجْنة .

قال فى ,, موادّ البيان ‹‹ وذلك بأن يقصد الكاتب إلىٰ ألفاظ الصِّــناعة فيخرج منها إلىٰ ألفاظ غريبة عن الصناعة غير مجانِسة لها . قال و إنما يُؤتىٰ الكاتب فى هذا الباب من جهة أن يكون له شَرِكة فى صناعة غير الكتابة ، كصــناعة الفِقْه والكلام وغيرهمــا : مثل صناعة أصحاب الإعراب ونحوها ؛ فلكل طبقة من هذه الطبقات ألفاظٌ خاصة بها ، يستعملونها فيما بينهم عند المحاورة والخوض فى الصــناعة ؛ ومن عادة الإنسان إذا تعاطىٰ بابا من هذه الأبواب أن يسبق خاطِرُه إلىٰ الألفاظ المتعلِّقة به ، فيُوقعها فى الكتُب التى ينشئها لغلبــة عادة ٱستعماله إياها فيهجِّنها بإدخاله فيهــا ماليس من أنواعها .

قال فى ,, الصناعتين ‹‹ وتخيُّرُ الألفاظ و إبدال بعضها من بعض يوجب التئام الكلام ، وهو من أحسن نُعُوته وأزْيَن صــفاته ، فإن أمكن مع ذلك ٱنتظامُه من حروف سَهْلةِ المخارج ، كان أحسن له ، وأدْعىٰ للقلوب إليه ؛ و إن ٱتفق له أن يكون موقِعُه فى الإطنــاب أو الإيجاز أليق بموقعــه ، وأحق بالمقام والحال ، كان جامعا للحُسْن ، بارعا فى الفضل ؛ فإن بلغ مع ذلك أن تكون موارِدُه تُنْبِيك عن مَصَادره ، وأوّلُه يكشف قناعَ آخره ، كان قد جمع نِهايةَ الحسن ، و بلغ أعلىٰ مراتب التمام .

قال فى ,, موادّ البيان ‹‹ و إذا سلكت طريقا فمرّ فيها ، ولا تتنازل عنها إن كانت رفيعة ، ولا ترتفع عنها إن كانت وضيعة . وخالف ٱبن أبى الاصبع ، فقال : ولا تجعل كل الكلام شريفا عاليا ، ولا وضيعا نازلا ، بل فَصِّله تفصيل العُقُود ، فإن العِقْد إذا

كان كله نفيسا لا يظهر حسنُ فرائده، ولا يبين جمالُ واسطته ، فإن الكلام إذا كان متنوّعا فى البلاغة، أُفْتِنَت الأسماعُ فيه، ولا يلحق النفوسَ مَلَلٌ من ألفاظه ومَعَانيه؛ ولا يخرج عن غرض إلىٰ غيره حتّىٰ يكمل كل ماينتظم فيـه : كما إذا كان ينشئ كتابا فى العَذْل والتوبيخ ، فيشوبُ ألفاظَه بألفاظ أخرىٰ تخرُج عن الخشونة إلىٰ اللّين ، فإن ٱختلاف رُقْعة الكلام من أشدّ عيوبه .

قال فى "الصناعتين" ولا تجعل لفظك حُوشِيًّا بدوِيًّا، ولا مبتذَلا سُوقِيًّا، ورتّب الألفاظ ترتيبا صحيحا ، فتقدّمُ منها ما يحسُن تقديمه ، وتؤخر منها ما يحسن تأخيره ؛ ولا تقـدّم منها ما يكون التأخير به أحسن ، ولا تُؤَخر ما كان التقديم به أليق، ولا تكررِ الكلمة الواحدة فى كلام قصير : كما كتب سعيد بن حميد: "ومَثَل خادمُك بين يديه ما يملك فلم يجد شيئًا يَفِى بحقّك، ورأىٰ أن تقريظك بمـا يبلغـه اللسـان وإن كان مقصرا عن حقك أبلغُ فى أداء مايجب لك" . فكرر ذكر الحق مرتين فى مقدار يسير . علىٰ أن أبا جعفر النحاس قد ذكر فى " صناعة الكتاب " أنّ ذلك ليس بعيب عند كثير من أهل العربيـة ، وهو الحق فقد وقع مثل ذلك من التكرير فى القرءان الذى هو أفصح كلام ، وآنَقُ نظام ، فى قوله تعـالىٰ : ﴿ والسَّماَءَ رفَعَها ووَضَعَ المِيزانَ أَنْ لا تَطْغَوْا فِى المِيزانِ وأَقِيمُوا الوَزْنَ بالقِسْطِ ولا تُخْسِرُوا المِيزَانَ ﴾ فكرر ذكر الميزان ثلاث مرات فى مقـدار يسير من الكلام ، وأمثـاله فى القرءان الكريم كثير .

قال فى " الصناعتين" فإن ٱحتاج إلىٰ إعادة المعانى أعادها بغير اللفظ الذى ٱبتدأ به : كما قال معاوية : "مَنْ لم يكن من بنى عبد المطلب جَوَادا فهو دَخيل، ومن لم يكن من بنى الزُّبير شُجاعا فهو لَزِيق، ومن لم يكن من بَنِى المُغيرة تيَّاها فهو سَنِيد" . فقـال دَخِيـل ، ثم قال لَزِيق ، ثم قال سَنِيد والمعنىٰ واحد ، والكلام علىٰ ما ترىٰ

حسن . ولو قال لَزِيق ثم أعاد لسَـمُج . على أن الوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر" قد ذكر ماينافى ذلك، وتعقَّب أبا إسحاق الصابى فى قوله فى تحميدة كتاب : الحمد لله الذى لا تُدْرِكُهُ الأعيُنُ بألحاظها ، ولا تَحُدُّه الألسُن بألفاظها ، ولا تُخْلِقه العُصور بمرورها ، ولا تُهْرِمه الدُّهور بكُرورها ، وقوله بعد ذلك فى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم : لم يَرَ للكُفر أثرا إلَّا طَمَسه ومَحَاه ، ولا رَسْما إلا أزاله وعَفَّاه ؛ فقال لا فرقَ بين مُرور العصور ، وكُرور الدهور ؛ وكذلك لا فرق بين مَحْو الأثر وإعفاء الرسم ؛ ويحتمل أن يقال إنما كره صاحب "المثل السائر" ذلك لتوافق القرينتين فى جميع المعنى بخلاف كلام معاوية فإنه متوافق فى اللفظة الأخيرة فقط .

قال فى "الصناعتين" وتجنّب كلَّ ما يُكْسِب الكلام تعمية : كما كتب سعيد آبن حميد، يذكر مَظْلِمة إنسان فى كتابه : لفلانٍ وله بى حُرْمةٌ مَظْلِمةٌ ، يريد لفلانٍ مظلِمة وله بى حرمة، بمعنى أنه راعى حرمته . قال : وآعلم أن الذى يلزمك فى تأليف الرسائل والخُطَب هو أن تجعلها مُزْدوِجة فقط ، ولا يلزمك فيها السجعُ فإن جعلتها مسجوعةً كان أحسَنَ مالم يكن فى سَجْعك استكراه، وتنافُر ، وتعقيد ؛ وكثيرا مايقع ذلك فى السجع ، وقلَّما يسلم إذا طال من آستكراه وتنافر .

قال آبن أبى الأصبع : ولا تجعل كلامك كلَّه مبنيًّا على السجع ، فتظهرَ عليه الكُلْفة ، ويتبيَّنَ فيه أثرُ المشقَّة ، وتتكلَّف لأجل السجع آرتكاب المعنى الساقط ، واللفظِ النازل ؛ وربما آستدعيتَ كلمة للقَطْع رغبةً فى السجع فجاءت نافرة من أخواتها، قَلِقة فى مكانها . بل آصرف كلَّ النظر إلى تجويد الألفاظ وصحة المعانى ، وآجْهَد فى تقويم المَبَانى ، فإن جاء الكلام مسجوعا عَفْوا من غير قَصْد ، وتشابهت مَقَاطعُه من غير كسب كان، وإن عزَّ ذلك فاتْرُكه وإن آختلفت أسجاعه وتباينَتْ

فى التقفية مقاطعه ، فقد كان المتقدّمون لايحتفلون بالسّجع جملة ، ولا يقصدونه ، إلا ماأتت به الفصاحة فى أثناء الكلام ، واتّفق من غير قصد ولا اكتساب ، وإنما كانت كلماتهم متوازيه ، وألفاظهم متساويه ، ومعانيهم ناصعه ، وعباراتهم رائعه ، وفصولهم متقابله ، وجمل كلامهم متماثله ، وتلك طريقة الإمام على رضى الله عنه ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام : كابن المقفّع ، ويزيد بن هارون ، وإبراهيم بن العباس ، والحسن بن سهل ، وعمرو بن مسعدة ، وأبى عثمان الجاحظ ، وغيرهم من الفصحاء البلغاء .

قال فى "مواد البيان" : وأقلّ مايكون من الازدواج قرينتان .

قال فى "الصناعتين" : وينبغى أن يجتنب إعادة حروف الصّلات والرباطات فى موضع واحد إذا كتب ، فى مثل قول القائل له منه عليه ، أو عليه منه ، أو به له منه ، وحقه له عليه . قال وسبيله أن يداويه حتّى يزيله ، بأن يفصل مابين الحرفين مثل أن يقول : أقمت به شهداء عليه ، كقول المتنبى :

وتُسعِدُنِى فى غَمْرةٍ بعدَ غَمْرةٍ * سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

قال ابن أبى الاصبع : وليراع الإيجاز فى موضعه ، والإطناب فى موضعه ، بحسب مايقتضيه المقام ويتجنّب الإسهاب والتطويل غير المفيد .

قال العسكرى : وينبغى أن يأتى فى تأليفه الكلام بآيات من الكتاب العزيز فى الأمور الجليلة ، للترصيع والتحلية ، والاستشهاد للمعانى على مايقع فى موقعه ، ويليق بالمكان الذى يوقع فيه ، ولكنه لايستكثر منه حتّى يكون هو الغالب على كلامه ، تنزيها لكلام الله تعالى عن الابتذال ، فإنه إنما يستعمله على جهة التبرّك والزينة ، لاليجعل حشوا فى الكلام ، وإذا استعير منه شىء أتى به على صورته ، ولا ينقله عن صيغته ، ليسلم من تحريفه ، ومخالفة اختيار الله تعالى فيه . قال وكما لا يجوز الإكثار منه لا يجوز

أن يخلِّى كلامه من شىء منه تحليةً له ، فإن خلوّ الكلام من القرءان يَطْمِس محاسِنَه ، ويَنْقُص بَهْجته ؛ ولذلك كانوا يسمُّون الخطبة الخالية من القرءان بَتْراء .

و ينبغى أن لا يستعمل فى كتابتـه ما جاء به القرءان العظيم من الحذف ومخاطَبة الخاصّ بالعامّ، والعامّ بالخاص، والجماعة بلفظ الواحد، والواحد بلفظ الجماعة، وما يجرى هـذا المَجْرىٰ ، لأن القرءان قد نزل بلغة العرب ، وخوطب به فُصحاؤهم ، بخلاف الرسائل .

قال فى "الصناعتين" لا يجوز أن يستعمل فيها مايختص بالشِّعر من صَرْف مالا ينصرف، وحذف مالا يُحذف، وقَصْر الممدود، ومدّ المقصور، والإخفاء فى موضع الإظهار، وتصغير الاسم فى موضع تكبيره، إلا أن يريد تصغير التعظيم كقول القائل "أنا جُذَيْلُها المُحَكَّك، وعُذَيقُها المُرَجَّب" . ومما يُستحسن من وصية أبى تمام لأبى عُبَادَةَ البُحترىّ فى الشعر مما لايستغنِى الناثرُ عن المعرفة به، والنَّسج علىٰ مِنْواله : لانه يجب أن يُنَاسب بين الألفاظ والمعانِى فى تأليف الكلام ، و يكونَ كخَيَّاط يقـدّر الثيابَ علىٰ قدر الأجسـام، وأن يجعـل شهوتَه لتأليف الكلام هى الذَّرِيعـةُ إلىٰ حُسْن نظمه، فإنَّ الشهوة نِعْمَ المعين! و يَعتبر كلامَه بما سلَف من كلام المـاضين، فمـا آستحسنه العلمـاء فليَقْصِده، وما آستقبحوه فلْيجتنِبْه، و ينبغى أن يعمل السجعات مفرّقة بحسب مايجود به الخاطر ثم يرتبها فى الآخِر و يحترزَ عند جمعها من سُوء الترتيب ، و يتوخّى حُسْن النسَق عنـد التهذيب ، ليكون كلامه بعضـه آخذا بأعناق بعض، فإنه أكمل لحسنه، وأمثل لرصفه ؛ وأن يجيد المَبْدأ والمَخْلَص والمَقْطَع ، و يميز فى فكره محط الرسالة قبل العمل ، فإنه أسهل للقصد ؛ ويجتهد فى تجويد هذه المواضع وتحسينها ؛ و يوضِّح معانيه ما آستطاع .

قلت وقد سبق فى أوّل هـذه المقالة فى بيان مايحتاج إليه الكاتب من الأدوات

وذكر أنواعها بيانُ كيفية الاقتباس من آيات القرءان الكريم والأحاديث النبوية والاستشهاد بها، وكيفيَّة حلّ الشعر إلى النثر، وتضمينه فى خلال الكلام المنثور وما يجرى هذا المَجْرى فأغنى عن إعادته هنا .

وأما بيان مايُستحْسَن من الكلام المصنوع فقد قال فى "الصناعتين" إن الكلام يحسُن بسَلَاسته وسُهُولتِه ونَصَاعته، وتخيُّر لفظه، وإصابةِ معناه، وجودةِ مَطَالعه، ولِين مَعَاطفه، واستواء تقَاسِيمه، وتعادُل أطرافه، وتشبُّه أعجازه بهَوَاديه، وموافَقة أواخره لمَبَاديه، مع قِلَّة ضروراته بل عدمها أصلا، حتّى لايكونَ لها فى الألفاظ أثَرٌ فتجدُ المنظومَ مثلَ المنثور فى سُهولة مَطْلَعه، وجَوْدة مَقْطَعه، وحُسْن رَصْفه وتأليفه وكمال صَوْغه وتركيبه؛ فإذا كان الكلام قد جمع العُذُوبة والجَزَالةَ والسُّهولة والرَّصانة مع السَّلاسة والنَّصاعة، واشتمل على الرَّوْنق والطَّلاوة، وسَلِم من ضَعْف التأليف، وبَعُد من سَمَاجة التركيب، صار بالقَبول حَقِيقا، وبالتحَفُّظ خَلِيقا؛ فإذا ورد على السمع المُصيب استوْعبه ولم يَمُجَّه، والنفس تَقْبَلُ اللطيفَ، وتَنْبُو عن الغليظ، وتَقْلَق عن الجاسِى البَشِع؛ وجميعُ جوارح البدن وحواسِّه تسكُن إلى مايوافقُه وتنفر عما يُضادُّه ويخالفه؛ والعين تألَف الحَسَن، وتَقْذى بالقَبِيح؛ والأَنْف يرتاحُ للطِّيب ويَعَاف المُنْتِن؛ والفَمُ يلتَذُّ بالحُلْو، ويمُجُّ المرّ؛ والسمع يتشوّق للصوت الرائع، وينْزوِى عن الجَهِير الهائل؛ واليد تَنْعَم باللّيِّن، وتتأذّى بالخَشِن؛ والفَهْم يأْنَس من الكلام بالمعروف، ويسكُن إلى المألوف، ويَصْغَى إلى الصواب، ويَهْرُب من المُحَال، وينقبض عن الوَخِم، ويتأخّر عن الجافى الغليظ، ولا يقبل الكلام المُضْطَرِب إلا الفهمُ المضطرب والرويَّةُ الفاسدة .

قال وليس الشأن فى إيراد المعانى لأن المعانى يعرفها العربىّ والأعجمىّ، والقَرَوِىُّ والبَدَوِىّ، إنما هو فى جَوْدة اللفظ وصَفَائه، وحُسْنه وبَهَائه، ونَزاهته ونقائه، وكثرة

طَلَاوته ومائِه؛ وصحة السـبك والتركيب ، والخُلُوّ من أَوَد النظم والتأليف ؛ وليس يُطْلَب من المعنىٰ إلا أن يكون صـوابا ، ولا يُقْنَع من اللفظ بذلك حتّى يكون على ماوُصِف من نعوته التى تقدّمت . ألا ترىٰ أن الخُطَب الرائعة، والأشعار الرائقة، لم تُعمَل لإفهام المعانِى فقط : لأن الردىء من الألفاظ يقوم مَقَام الجيـد منها فى الإفهام ؛ وإنمـا يدلُّ حسن الكلام، وإحكام صـنعتِه، ورَوْنَق ألفاظه وجودةُ مَقَاطعه، وبديعُ مَبَاديه ، وغريب مبَانيه ، علىٰ فضل قائله ومنشيه . وأيضا فإن الكلام إذا كان لفظا حُلْوا عَذْبا وَسَطا دخل فى جملة الجيد، وجرىٰ مع الرائع النادر. وأحسنُ الكلام ماتلاءَمَ نَسْجُه ولم يَسْخُف ، وحَسُن نظمُه ولم يَهْجُن، ولم يُستعمَل فيه الغليظ من الكلام فيكون خَلَقا بغيضا ، ولا السُّوقِىُّ من الألفاظ فيكون مُهَلْهَلا دُونا، ولا خيْرَ فى المعانى إذا آستُكْرِهتْ قهرا، والألفاظ إذا أُجبِرَتْ قَسْرا؛ ولا خير فيما أُجِيـد لفظُه إلا مع وضوح المَغْزىٰ وظهور المَقْصِـد . قال وقد غلب علىٰ قوم الجهـلُ فصاروا يستجيدُون الكلام إذا لم يَقِفوا علىٰ معناه إلا بكَدّ، ويستَفْصِحُونه إذا وجدوا ألفاظه كَزَّة غليظة وجاسِيَةً غريبة، ويستحْقِرون الكلام إذا رأَوْه سَلِسا عَذْبا ، وسَهْلا حُلْوا ؛ ولم يعلموا أن السهلَ أمنعُ جانِبا ، وأعزُّ مَطْلَبا ؛ وهو أحسن مَوْقِعا، وأعذَبُ مستَمَعا ؛ ولهذا قيل أجودُ الكلامِ السهلُ الممتنع . وقد وصف الفضلُ آبنُ سهْل عمرو بنَ مَسْعَدة فقال : هو أبلغُ الناس، ومن بَلاغتـه أنّ كلّ أحد يظُنُّ أنه يكتُب مثلَ كُتُبه ؛ فإذا رامها تعذّرتْ عليه ؛ وأنشـد إبراهيم بن العبّاس لخاله العبّاس بن الأحنف :

إن قال لم يَفْعَلْ وإن سِيلَ لَمْ * يَبْـذُلْ وإن عُوتِبَ لم يُعْتِب
صَبٌّ بعِصْـيانِى ولو قالَ لِى * لاتَشْرب البـارِدَ لم أَشْرَب

ثم قال هذا والله الشعر الحسن المعنىٰ ، السهلُ اللفظِ، العذبُ المستَمَع ، القليلُ

النظير، العزيز الشبيه، المُطْمِع الممتنع ، البعيدُ مع قربه ، الصَّعْبُ مع سُهولته ، قال فجعلنا نقول هذا الكلام والله أحسن من شعره. وقيل لبعضهم: ألا تَسْتعمِلُ الغريب فى شعرك؟ فقال: ذلك عِىٌّ فى زمانى، وتكلُّف منِّى لوقلتُه ، وقد رُزِقْت طَبْعا وٱتساعًا فى الكلام فأنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير، ولا يَحْتاج إلىٰ تفسير .

وقال أبو داود : رأس الخَطَابة الطبعُ ، وعمودُها الدُّرْبة ، وجناحاها رِوَايةُ الكلام وحَلْيها الإعراب ، وبَهَاؤُها تخيُّرُ الألفاظ ، والمحبةُ مقرونةٌ بقلة الآستكراه ، وما كان من الكلام لفظُه سهلا ومعناه مكشوفًا بَيِّنا فهو من جملة الردىء المردود ، لا سيما إذا ٱرتُكِبتْ فيه الضرورات ، فأما الجَزْل المختارُ من الكلام ، فهو الذى تعرفه العامَّة إذا سمعته ، ولا تستَعْمِله فى مُحَاوراتها ؛ وأجودُ الكلام ما كان سَهْلا جَزْلا ، لا يَنْغلِق معناه ، ولا يستَبْهِم مَغْزاه ، ولا يكون مَكْدودا مستكْرَها ، ومتوعِّرا متقعِّرا ؛ ويكون بريئا من الغَثَاثة ، عاريا من الرَّثاثة . فمن الجزْل الجَيِّد من النثر قولُ سعيد بن حميد : وأنا مَنْ لايحاجُّك عن نفسه ، ولا يُغالِطك عن جُرْمه ، ولا يلتمِس رِضاك إلا من جهته ، ولا يستدعِى بِرَّك إلا من طريقته ، ولا يستعطِفك إلا بالإقرار بالذنب ، ولا يستميلك إلا بالآعتراف بالجُرْم ؛ نَبَتْ بى عنك غِرَّةُ الحَدَاثة ، وردّتْنى إليكَ الحُنْكة ، وباعدَتْنى منكَ الثقةُ بالأيَّام ، وقادَتْنى إليك الضرورة ، فإن رأيت أن تستقْبِل الصنيعةَ بقَبُول العُذْر ، وتجدِّد النعمة بٱطِّراح الحِقْد ، فإنَّ قديم الحُرْمة وحديثَ التوبة يمحَقان ما بينهما من الإساءة ؛ وإن أيام القدرة وإن طالتْ قِصيرة ، والمتعةَ بها وإن كَثُرَتْ قليلة ، فعَلْتَ إن شاء الله تعالى .

وأجزلُ منه قول الشعبىّ للحجاج ، وقد أراد قتْلَه لخُروجه عليه مع ابنِ الأشعثِ أجدبَ بنا الجَناب ، وأحْزَنَ بنا المَنْزِل ، فاستَحْلَسْنا الحَذَر ، واكتحَلْنا السَّهر ، وأصابتنا فتنةٌ لم نكُنْ فيها بررةً أتقياءَ ، ولا فَجَرة أقوياء . فعفا عنه .

ومن النظم قول المرّار :

لاتَسْألِى القَوْمَ عن مالِى وكَثْرتِه * قد يُقْتِرُ المرءُ يوما وهو محْمُود

أَمْضِى علىٰ سُنَّةٍ من والِدِى سَلَفَتْ * وفى أَرُومتِـه ماينْبُتُ العُـودُ

فهذا وان لم يكن من كلام العامّة فإنهم يعرفون الغَرَضَ منـه ويَقِفُون علىٰ أكثر معانيه لحُسْن ترتيبه وجودة نَسْجه؛

قال فى "الصناعتين" أما إذا كان لفظ الكلام غَثًّا، ومَعْرِضـه رَثًّا، فإنه يكون مَرْدودا، ولو آحتوى علىٰ أجلِّ معنًى وأنبلِه، وأرفَعِه وأفْضلِه، كقول القائل :

أَرىٰ رِجالًا بأدْنىٰ الدِّينِ قد قَنِعُوا * ولا أَرَاهُمْ رَضُوا فى العَيْش بِالدُّونِ

فاستَغْنِ بالدِّينِ عن دُنْيا المُلوكِ كما آسـ * ـتَغْنىٰ المُلوكُ بدُنْياهُمْ عن الدِّينِ

قال : فهو لايدخل فى جملة المختار، ومعناه كما ترىٰ جميل، فاضلٌ جليل، وأما الجَزْل الردىءُ الفَجُّ، الذى ينبغى تركُ آستعماله فقد مر فى الكلام علىٰ الغريب الحُوشىّ .

المقصِد الثـالث

(فى بيان مقادير الكلام ومقتضيات إطالته وقِصَره)

اعلم أن الكلام المصنوع من الخطب، والمكاتبات، والولايات وغيرها علىٰ ثلاثة ضروب .

الضرب الأوّل

(الإيجـاز)

وهو جمع المعانى الكثيرةِ فى الألفاظ القليلةِ، وعليه ورد أكثرُ آيِ القرءان الكريم فمن ذلك قوله تعالىٰ فى مُفْتَتَح سورة الفاتحة : ﴿ الحمدُ للهِ ربِّ العالَمين ﴾ . آنتظم فيه خلق السموات والأرض وسائرِ المخلوقات لم يشِذَّ عنه شيء فى أوْجَز لفظ وأقربِه

وأسهله ؛ ومنـه قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ ﴾ آستوعبَ جميعَ الأشياء علىٰ الآستقصاء فى كلمتين لم يخرج عنهما شىء ؛ وقولُه ﴿أُولَئِكَ لَهُـمُ الأَمْنُ﴾ فدخل تحت الأَمْن جميعُ المحبوبات لأنه نفىٰ به أن يخافوا شيئا : من الفَقْر والموتِ وزوال النِّعمة والجَوْرِ وغير ذلك ؛ وقوله : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُـمْ ﴾ جمع منافع الدنيا والآخرة ؛ وقوله فى صفة خَمْر أهل الجنة : ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾ آنتظم بقوله : ولا هم عنها ينزفُون عدمَ ذَهابِ العقل وذَهابِ المـالِ ونَفَاد الشراب ، فلم يكن فيها شىء من ذلك ؛ وقوله : ﴿ خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بالعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجاهِلِينَ ﴾ فجمع فيها مكارم الأخلاق بأسْرِها : لأنَّ فى العفو صِلةَ القاطعين ، وإعطاء المـانعين ؛ وفى الأمر بالمعروف تقوىٰ الله تعالىٰ ، وصلةَ الرحم ، وصونَ اللسان عن الكذب ، وغضَّ الطَّرْف عن المحرّمات ، والتبرِّى من كل قبيح ؛ إذ لا يأمر بالمعروف من هو ملابس شيئا من المنكر ؛ إلىٰ غير ذلك من الآيات التى لا تحصىٰ كثرةً .

ومن كلام النبوّة قوله صلى الله عليه وسلم : "نِيَّةُ المَرْءِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِه" وقوله عليه السلام : "حُبُّكَ الشَّىْءَ يُعْمِى ويُصِمُّ" إلىٰ غير ذلك من جَوَامع الكَلِم .

الضرب الثـانى

(الإطناب)

وهو الإشباعُ فى القول ، وتَرديدُ الألفاظ المترادفَة علىٰ المعنىٰ الواحد . وقد وقع منه الكثيرُ فى الكتاب العزيز ، مثل قوله تعالىٰ : ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وقوله جَلَّ وعزَّ : ﴿ فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا ﴾ كرر اللفظ فى الموضعين تأكيدا للأمر وإعلاما أنه كذلك لا محـالة . وقوله : ﴿ فَفِرُّوا إِلَىٰ اللهِ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ولا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ فكرّر إنى

لكم منه نذيرٌ مبين من حيث إن الكفر وإن تعـدَّدت أقسامُه لا يخرجُ عن تعطيل أو شرك ففى قوله فَفِرُّوا إلىٰ اللهِ نفىُ التَّعطيل بإثبـات الإلٰه وفى قوله : ولا تَجْعَلُوا مع اللهِ إلهًـا آخَرَ نفىُ الشّرك . وقد كرر سبحانه فى سورة الرحمن قوله : ﴿فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ حيثُ عَدَّد فيها نِعَـمه ، وأذكر عبـادَه آلاءَه ، ونبَّههـم علىٰ قَدْرها ، وقدرتِه عليها ، ولُطفِه فيها ، وجَعلها فاصِلةً بين كُلّ نعمة ونعمة ، تنبيهًا علىٰ موضع ماأسداهُ إليهم فيها ، وكذلك كَرَّر فى سورة المرسَلات : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ تأكيدًا لأمر القيامة المذكورة فيها . وقد وقع التكرار للتأكيد فى كلام العرب كثيرا كما فى قول الشاعر :

* أَتَاكَ أَتَاكَ اللَّاحِقُونَ أَتَاكَا[(١)] *

وقول الآخر :

* كَمْ نِعْمة كانَتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وَكَمْ *

إلىٰ غير ذلك ممـا وقع فى كلامهم ممـا لا تأخذه الإحاطة .

الضرب الثـالث

(المساواة)

بأن تكون الألفـاظ بإزاء المعانى فى القلة والكثرة لا يزيد بعضها علىٰ بعض . وقد مثل له العسكرىّ فى "الصناعتين" بقوله تعالىٰ : ﴿حُورٌ مَقْصُوراتٌ فى الخِيَامِ﴾ وقوله : ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ وقولِ النبى صلى الله عليه وسلم "لا تَزالُ أُمَّتِى بِخَيْرٍ ما لم تَرَ الأَمَانَة مَغْنَمًا والزَّكاةَ مَغْرَمًا" وقوله "إيَّاكَ والمُشَارَّةَ ، فإنها تُميت الغُرَّة[(٢)]

---

(١) فى الضوء بدله (أحبس أحبس) وهو المشهور فى البيت .

(٢) أى العمل الصالح الحسن تشبيها له بغرة الفرس . والعرة العمل السيئ تشبيها له بالعذرة . انظر اللسان .

وتُحْيِي العُرّة». وقول بعض الكُتّاب : سألتَ عن خَبَرِى وأنا فى عافية لاعَيْبَ فيها إلا فَقْدُك، ونِعْمةٍ لامَزِيدَ فيها إلا بك . وقول آخر : وقد علَّمَتْنِى نبوتُك سَلْوتُك، وأسلمنى يَأْسِى منْك، إلىٰ الصَّبْر عنك . وقول آخر : فتولّى اللهُ النعمةَ عليك وفيك، وتولّى إصلاحَك والإصلاحَ بك، وأجزل من الخير حَظَّكَ والحظَّ منك، ومنّ عليك وعلينا بك . وقول الشاعر :

أَهَـابُكِ إجْلالًا وما بِكِ قُدْرةٌ * عَلَىّ ولَكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُها
وماهَجَرْتُكِ النَّفْسُ أنَّكِ عِنْـدَها * قَلِيـلٌ ولا أنْ قَلّ مِنْكِ نَصِيبُها

إذا علمت ذلك فقـد ٱختلف البلغاء فى أىّ الثلاثة أبلغ وأولىٰ بالكلام، فذهب قوم إلىٰ ترجيح الإيجاز، محتجِّينَ له بأنَّه صورة البلاغة وأن ما تجاوز مقدارَ الحاجة من الكلام فَضْلة داخلةٌ فى حَيِّز اللَّغو والهُذْر، وهما من أعظم أدْواء الكلام، وفيهما دلالة علىٰ بَلَادة صاحب الصِّناعة وغَباوته . وقد قال الأمين محمد بن الرشيد : عليكم بالإيجاز فإن له إفهاما وللإطالة ٱستبْهاما . وقال جعفر بن يحيىٰ لكاتبه : إن قدَرتم علىٰ أن تجعلوا كُتُبكم توقيعاتٍ فٱفعلوا . وقال بعضهم : البلاغة بالإيجاز أنْجَعُ من البيان بالإطناب، وقيل لبعضهم : ماالبَلَاغة ؟ قال الإيجاز . وقيل لٱبن حازم لم لا تُطِيل القصائد فأنشد :

أبىٰلِى أن أُطِيلَ الشِّعْرَقَصْدِى * إلىٰ المَعْنىٰ وعِلْمِى بالصَّـوابِ
وإيجـازِى بمُخْتَصَرٍ قَـــرِيبٍ * حَذَفْتُ به الفُضُولَ من الجَوَابِ

وذهبت طائفة إلىٰ أن الإطناب أرجح، وٱحتجُّوا لذلك بأن المَنْطق إنمـا هو بيان والبيان لايحصل إلا بإيضاح العبارة، وإيضاح العبارة لا يتهيأ إلا بمرادَفَة الألفاظ علىٰ المعنىٰ حتّى تُحيط به إحاطةً يُؤْمَن معها من اللَّبْس والإبهام، وإن الكلامَ الوجيزَ لا يُؤْمَن وقوعُ الإشكال فيــه. ومن ثم لم يحصل علىٰ معانيه إلا خواصُّ أهل اللُّغة

العارفين بدَلالات الألفاظ . بخلاف الكلام المُشْبَع الشافى فإنه سالم من الالتباس لتَساوِى الخاصّ والعامّ فى جهته . ويؤيد ذلك ماحكى أنه قيل لقَيْس بن خارجة : ماعِنْدكَ فى حَمَالاتٍ ذاتِ حُسْن؟ قال : عندى قِرىٰ كل نازل، ورِضَا كلّ ساخِط، وخُطْبةٌ من لَدُنْ تطلُعُ الشمسُ إلىٰ أن تغرُبَ، آمرُ فيها بالتواصُل، وأنهىٰ عن التقاطُع . فقيــل لأبى يعقوب الخَرْمى" هلاَّ اكتفىٰ بقوله آمُر فيها بالتواصـل عن قوله وأنهىٰ عن التقاطع ؟ فقال : أو ماعلمت أن الكناية والتعريضَ لا تعملُ عَمَلَ الإطناب والتكشُّف؟ ألا ترىٰ أن الله تعالىٰ إذا خاطب العربَ والأعرابَ أخرج الكلام مُخْرَج الإشارة والوَحْى، وإذا خاطب بَنِى إسرائيل أو حكىٰ عنهم جعلَ الكلامَ مبسوطا، وقلمـا تَجِد قصةً لبنى إسرائيل فى القرءان إلا مطوَّلة مشروحة ومكررةً فى مواضع مُعادةً لبُعد فهمهم، وتأخُّر معرفتهم، بخلاف الكلام المُشْـبَع الشافى فإنه سـالمٌ من الالتباس لتساوى الخاصّ والعامّ فى فهمه .

وذهبت فرقة إلىٰ ترجيح مساواة اللفظ المعنىٰ، واحتجوا لذلك بأن مَنْزَع الفضيلة من الوسَط دون الأطراف وأن الحُسْن إنمـا يوجد فى الشىء المعتــدِل .

قال فى "موادّ البيان": والذى يوجبه النظر الصحيح أن الإيجاز والإطناب والمساواةَ صــفاتٌ موجودة فى الكلام ولكل منها موضع لايخلُفــه فيه رديفُه، إذا وضع فيه انتظمَ فى سِلك البلاغة ودلّ علىٰ فضل الواضِع، وإذا وُضع غيره دلَّ علىٰ نقص الواضع وجهلِه برُسُوم الصِّناعة .

فأما الكلام الموجز فإنه يصلح لمُخاطَبــة الملوك، وذوى الأخطار العاليــة، والهمم المستقيمة، والشُّـون السنِيَّة، ومن لا يجوز أن يُشْغَل زمانه بمـا همَّتــه مصروفةٌ إلىٰ مطالعة غيره .

واما الإطناب فإنه يصلح للمكاتبات الصادرة فى الفُتُوحات ونحوها مما يُقْرأ فى المحافل، والعُهودِ السلطانية، ومخاطبةِ من لا يصل المعنىٰ إلىٰ فهمه بأدنىٰ إشارة. وعلىٰ ذلك يحمل ما كتبه المهلَّب بنُ أبى صُفْرةَ إلىٰ الحجَّاج فى فتح الأَزارِقة من الخوارج والظهور عليهم علىٰ ٱرتفاع خَطَر هذا الفتح وطول زمانه وبُعْد صِيتِه، فإنه كتب فيه : "الحمد لله الذى كفىٰ بالإسلام قَصْدَ ما سِواه، وجعل الحمدَ متصلا بنُعْماه، وقضىٰ أن لا ينقطع المزيدُ وحبلُه، حتّٰى ينقطع الشكْرُ من خلقه. ثم إنا كنا وعدوَّنا علىٰ حالتين مختلفتين، نرىٰ منهم مايسرُّنا أكثرَ مما يسرُّهم، ويَرَوْن منا مايسُوءُهم أكثرَ مما يسرُّهم فلم يزل ذلك دأْبَنَا ودأْبَهم : ينصُرنا اللهُ ويَخْذُلهم، ويمحِّصنا ويمحَقُهم، حتّٰى بلغ الكتابُ بناديهم أجَلَه، فقُطِعَ دابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا والحمدُ للهِ ربِّ العالَمين.

فإن الذى حمله علىٰ الاختصار فى هذا الكتاب إنما هو كونه إلىٰ السلطان الذى من شأنه ٱختصارُ المكاتبات التى تُكتَب إليه، بخلاف مالو كُتِب به عن السلطان إلىٰ غيره، فإنه يتعين فيه بَسْطُ القول وإطالتُه علىٰ ماسيأتى ذكره فى أوّل المكاتبات فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالىٰ.

وأما مساواة اللفظ للمعنىٰ فإنه يصلُح لمخاطبة الأكفاء والنُّظَراء والطَّبَقة الوُسْطىٰ من الرؤساء. فكما أن هذه المرتبةَ متوسِّطة بيْن طرفَىِ الإيجاز والإطناب كذلك يجب أن تُخَصَّ بها الطبقةُ الوُسْطىٰ من الناس. قال أما لو ٱستعمل كاتبٌ ترديد الألفاظ ومرادَفَتها علىٰ المعنىٰ فى المكاتبة إلىٰ ملك مصروفِ الهمةِ إلىٰ أمور كثيرةٍ متىٰ ٱنصرف منها إلىٰ غيرها دخلها الخلَلُ، لرتَّب كلامه فى غير رُتَبه، ودلَّ علىٰ جهله بالصناعة. وكذا لو بنىٰ علىٰ الإيجاز كتابا يكتبُه فى فتحٍ جليل الخطَر، حسَن الأثر، يُقْرأ فى المحافل والمساجد الجامعة علىٰ رءُوس الأشهاد من العامَّة ومَن يُراد منه تفخيمُ شأن السلطان

فى نفسه، لأوْقعَ كَلامه فى غير موقعه، ونَزَّله فى غير منزِلته : لأنه لاأقبحَ ولاأسمَج من أن يُستنفَر الناسُ لسماع كتاب قد ورد من السلطان فى بعض عظائم أمور المملكة أو الدِّين، فإذا حضر النـاسُ كان الذى يمـرّ علىٰ أسماعهم من الألفاظ واردا مَوْرِدَ الإيجاز والاختصار لم يحسُن موقعه وخرج من وَضْع البلاغة لوَضْعه فى غير موضعه .

قلت وما ذكرته من الأصول والقواعد التى تبنىٰ عليهـا صنعة الكلام هو القدر اللازم الذى لا يسعُ الكاتبَ الجهلُ بشىء منـه، ولا يُسْمَح بإخلاء كتابٍ مصنَّفٍ فى هذا الفنّ منه .

أما المتمِّمات التى يكمُل بها الكاتب: من المعرفة بعلوم البلاغة ووجوهِ تحسين الكلام من المعانى والبيان والبديع فإن فيها كتباً مفردة، تكاد تخرُج عن الحَصْر والإحصاء فاقتضىٰ الحال من المتقدّمين للتصنيف فى هذا الفنّ أن قد قَصَروا تصانيفَهـم علىٰ علوم البلاغة وتوابعها كالوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثـل السائر" وأبى هلال العسكرىّ فى "الصناعتين" والشيخ شهاب الدين محمود الحلبى فى "حسن التوسل" كما تقدّمت الإشارة إليه فى مقـدّمة الكتاب ، فليُطْلَبْ ذلك من مظانِّه من هـذه الكُتُب وغيرها . إذ هذا الكتاب إنمـا يذكر فيه مايشق طلبه من كتب متفرّقة ، وتصانيف متعدِّدة، أو يكونُ فى المصنَّف الواحد منه النَّبذة غيرُ الكافية، ولا يجتمع منه المطلوب إلا من كشفِ الكثيرِ من المصنَّفات المتفرّقة فى الفنون المختلفة .

الفصـــــل الثالث

(من الباب الأوّل من المقالة الأُولىٰ)

في معرفة الأزمنة والأوقات من الأيام والشهور والسنين علىٰ آختلاف الأمم فيها، وتفاصيل أجزائها، والطرق الموصِّلة إليها، ومعرفة أعياد الأمم . وفيه أربعة أطراف

الطرف الأوّل

(فى الأيام ، وفيــه ست جمل)

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى مدلول اليوم ومعناه، و بيان آبتداء الليل والنهار)

وقد آختلفَ الناس فى مدلول اليوم علىٰ مذهبين .

المذهب الأوّل (وهو مذهب أهل الهيئة) ــ أنّ اليوم عبارة عن زمانٍ جامعٍ لليل والنهــار ، مدّتُه ما بين مفارقة الشمس نصفَ دائرة عظيمة ثابتــةِ الموضع بالحركة الأولىٰ إلىٰ عودها إلىٰ ذلك النصف بعينه ، وأظهر هذه الدوائر الأفق وفلكُ نصف النهار . والحُذَّاق من المنجِّمين يُؤْثِرون فلكَ نصفِ النهار علىٰ الأفُق بسهولة تحصل بذلك فى بعض أعمــالهم ؛ لأن آختلاف دَوَائره فى سائر الأوقات آختلافٌ واحد ؛ وبعضهم يُؤْثِر آســتعمال الأفُق : لأن الطلوع منه والغروب فيه أظهرُ للعِيان ، وهو الموافق لمــا نحن فيه .

ثم منهم مَنْ يقــدّم الليل فيفتتح اليومَ بغروب الشمس ويختم بغروبها من اليوم القابل ،وعلىٰ ذلك عمل المسلمين وأهلِ الكِتاب ،وهو مذهب العرب : لأن شهورهم مبنية علىٰ مسير القمر، وأوائلها مقدّرة برؤية الهلال .

ومنهم من يقدّم النهار على الليل فيفتتح اليومَ بطلوع الشمس ويختِمُ بطلوعها من اليوم القابل، وهو مذهبُ الروم والفُرْس .

ويحكى أن الاسكندر سأل بعضَ الحكماء عن الليل والنهار أيُّهما قبل صاحبِه فقال : هما فى دائرة واحدة، والدائرة لا يُعْلَم لها أوّلٌ ولا آخر، ولا أعلى ولا أسفلُ .

المذهب الثانى (وهو مذهب الفقهاء) ـ أن اليوم عبارة عن النهار دُونَ الليل حتّى لو قال لزوجته أنت طالق يومَ يقدَمُ فلان فقدِم ليلا لم يقع الطلاقُ على الصحيح . ثم القائلون بذلك نظروا إلى الليل والنهار باعتبارين : طبيعىّ وشرعىّ .

أما الطبيعىّ فالليل من لَدُنْ غروبِ الشمسِ وآستتارها بحَدَبة الأرض إلى طلوعها وظهورها من الأفق، والنهار من طلوع نصفِ قُرْص الشمس من المشْرِق إلى غيبوبة نصفها فى الأُفُق فى المغرب، وسائر الأمم يستعملونه كذلك .

وأما الشرعىّ ـ فالليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثانى، وهو المراد بالخيط الأبيض من قوله تعالى : ﴿حتّى يَتَبَـيَّنَ لَكُم الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسودِ مِنَ الفَجْرِ﴾ والنهار من الفجر الثانى إلى غروب الشمس، وبذلك تتعلق الأحكامُ الشرعية من الصوم والصلاة وغيرهما .

وآعلم أن الشمس فى الليل تكون غائبةً تحت الأرض، فإذا قَرُبَتْ منا فى حال غيبتها أحسَسْنا بضيائها المحيط (١) بظل الأرض الذى هو الليل، وهذا الضياء طليعةٌ أمامَها يطلعُ، فى السَّحَر بياضٌ مستطيل مستدِقُّ الأعلى، وهو الفجر الكاذب إذ لا حكم له فى الشريعة، ويُشَبَّه بذَنَب السِّرحان لآنتصابه وآستطالته ودِقَّته، ويبقى مدّة ثم يزداد هذا الضوء إلى أن يأخذ طُولا وعَرْضًا وينبسط فى عَرْض الأُفُق، وهو الفجر الثانى ويسمّى الصادق، وعليه تترتب جميعُ الأحكام الشرعية المتعلقةِ

(١) لعله المحجوب بظل الارض كما يفيده المقام .

بالفَجْر، وبعده يحمرّ الأفق لاقتراب الشمس وسُطُوع ضيائها على المدوّرات الغربية من الأرض، ويتبعه الطلوع؛ وعند غُرُوبها ينعكس الحكمُ فى الترتيب المتقدّم فيبقى الأُفُق محمرّا من جهة المغرب بعدَ الغروب، ثم تزول الحُمْرة ويبقى البَياضُ الذى هو نظير الفجر الصادق، وبالحمرة حكم صلاة العشاء عند الشافعية، وبالبياض حكْمُها عند الحنفيـة؛ ثم يزداد البياض ضعفا شيئا فشيئا إلى أن يغيب، ثم يتبعه البياض المستطيل المنتصب نظير الفجر الكاذِب مدّة من الليل ثم يذهب؛ وهذا لا حكم له فى الشرعيات . والهند لا يَعُدُّون الفجرَ ولا الشَّفَق من الليـل ولا من النهار، ويجعلونهما قِسْما مستقلا وهذا فى غاية البُعْد لأن الله تعالى قسم الزمان إلى ليل ونهار ولم يذكر معهما سواهما .

الجمـــلة الثـانية

(فى آختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان والآستواء باختلاف الأمكنة)

واعلم أن البلاد والنواحى على قسمين :

القســـم الأوّل

(ما يستوى فيه الليل والنهار أبدًا، لا يختلفان بزيادة ولا نُقْصانٍ)

وذلك فى البلاد التى لا عَرْضَ لها . وهى مامرّ عليـه خط الآستواء؛ والعلة فى التَّساوى هى أن أصحاب الهيئة لما توهموا أن بين قُطْبَىْ فلك البُروج دائرةً عظمى تَقْسِم سطحَ السماء نصفين على السَّواء وسَمَّوْها دائرة معدّل النهار، توهموا أيضا فى موازاتها دائرة أُخرى تقسم سطحَ الارض نصفيْنِ وسَمَّوْها دائرة الآستواء، وخط الآستواء؛ وكل بلد يمرّ عليه هذا الخط لاعَرْض له : وذلك لآنقسام الكرة فيه وطلوع

الشمسِ أبدا علىٰ رءُوس ساكنيه ، وميلها فى ناحيتى الشمال والجنوب بقدْر واحد، ودوائر الأوقات تقطع جميع الدوائر الموازية لدائرة معدّل النهار بنصــفين نصفين ، فيكون قوس النهار : وهو الزمان الذى من طلوع الشمس إلىٰ غروبها مساويا لقوس الليل : وهو الزمان الذى من غروب الشمس إلىٰ طلوعها فيكون الليل والنهار متساويين أبدا فى هذه المواضع فى جميع السنة .

القســـم الثـانى

(ما يختلف فيه الليل والنهار فى السنة بالآستواء والزيادة والنُّقْصانِ، وهى البلاد ذواتُ العُروض)

والعلّةُ فى الزيادة والنُّقصان أن المواضع التى تميــل عن خَطِّ الآستواء إلىٰ الشمال تميــل فى كل موضع منها دائرةُ معدّل النهــار إلىٰ الجَنُوب وتنحطُّ الشمسُ ويرتفعُ القطب الشمالىُّ من الأفُق ويصير للبلد عَرْض بحسب ذلك الآرتفاع ، وبقَدْر بُعْــده عن الخَطِّ . وإذا مالت الدائرة قطعت الآفاق كلَّ دائرة من الدوائر الموازية لهــا بقطعتين مختلفتين ، فيكون ما فوق الأرض من قسمَيْها أعظمَ من الذى تحتها : لأن القطب لمــا آرتفع آرتفعت الدوائر الشمالية فظهر من كل واحدة أكثرُ من نصــفها وآنحط مَدارُ الشمس عن سَمْت الرأس إلىٰ جهة الجنوب فبَعُد مَشْرِقُ الصــيف عن مَشْرِق الشــتاء فطال النهار وقَصُرا لليل ، وكلمــا زاد آرتفاعُ القطب فى الاقاليم زاد الآختلاف الذى هو بين هــذه القِطَع إلىٰ أن تكون نهــايةُ الأطوال حيث يكون آرتفاع القطب آثنتَىْ عشرةَ درجةً ونصفًا وربعًــا وهو أوّل المعمور، آثنتَىْ عشرةَ ساعةً ونصفا وربعا، وحيث يكون آرتفاعهُ تسعا وعشرين درجةً وهو آخر الإقليم الثــانى ، ثلاثَ عشْرةَ ساعةً ونصفا وربعا، وحيث يكون آرتفاعه ثلاثا

وثلاثين درجةً ونصفًا وهو آخر الإقليم الثالث أربعَ عشرةَ ساعةً وربعا ؛ وحيث يكون ٱرتفاعه تِسعا وثلاثينَ درجةً وهو آخر الإقليم الرابع أربعَ عشرةَ ساعة ونصفا وربعا؛ وحيث يكون ٱرتفاعه ثلاثا وأربعين درجةً ونصفا وهو آخر الإقليم الخامس خَمْس عَشْرةَ ساعة ورُبعا، وحيث يكون ٱرتفاعهُ سبعا وأربعين درجةً وهو آخر الأقليم السادس خمس عَشْرةَ ساعة ونصفا وربعا ، وحيث يكون ٱرتفاعه خمسين درجة وهو آخر الإقليم السابع ست عشرة ساعة وربعا .

ولا يزال ٱختلاف مَطَالع البروج يزداد بالإمعان فى الشمال ويتسعُ شَرْقَا المنقلَبيْنِ ويتقاربان مع مَغْرِبيهما إلىٰ أن يلتقِيا فى العَرْض المُساوى لتمام المَيْل الأعظم : وهو حيث يكون ٱرتفاع القُطْب سِتًّا وستين درجةً. وفى هذا الموضع يكون قطبُ فلك البروج فى دَوْره يمرّ علىٰ سمت الرؤُوس ، ويكون أوّل السَّرطان فقط ظاهرا فوق الأرض أبدا، ومَدار أوّل الجَدْى فقط غائبا أبدا . فيكون مقدارُ النهار الأطولِ أربعا وعشرين ساعة لا ليل فيه . ويعرض فى هذه المواضع عند موازاة قُطْب فلك البروج سَمْتَ الرؤُوس أن دائرة فلك البروج تنطبق حينئذ علىٰ دائرة الأفق ، فيكون أوّل الحَمَل فى المشرق، وأوّل الميزان فى المَغْرِب ، وأوّل السَّرطان فى الأفق الشَّمالىّ، وأوّل الجَدْى فى الأفق الجنوبىّ . فإذا صار قطبُ فلك البروج والأفق نصفين وٱرتفع النصف الشرقىّ من فلك البروج وٱنخفض النصف الغربىّ فيطلُع حينئذ ستةُ بروج دفعةً واحدةً ، وهى من أوّل الجَدْى إلىٰ آخر الجوزاء ؛ وكذلك تغرب الستة الباقية دفعة واحدة . وحيث يكون ٱرتفاع القطب سبعا وستين درجةً وربعا فهنالك يكون مَدار مابين النصف من الجوزاء إلىٰ النصف من السَّرطان ظاهرا فوقَ الأرض أبدا، وما بينَ النصف من القَوْس إلىٰ النصف من الجَدْى غائبا أبدا، فيكون مقدار شهر من شهور الصيف نهارا كلَّه لا ليل فيه وشهر من الشتاء ليلا كله لا نهار فيه

والعشرة الأشهرِ الباقيةُ من السنة كلَّ يوم وليلة أربعاً وعشرين ساعةً. وحيث يكون آرتفاع القطب تسعا وستين درجة ونصفا وربعا فهناك يكون مَدار بُرْجَى الجوزاء والسَّرَطان ظاهرا فوق الأرض ، ومدار برجَىِ القوس والجَدْى غائبا تحت الأرض أبدا . ولذلك يكون مقدارُ شهرين من الصيف نهاراً كلّه ، وشهرين من الشتاء ليلا كُلّه . وحيث يكون آرتفاعُ القطب ثلاثا وسبعين درجة يكون ما بين النصف من الثور إلىٰ النصف من الأسد ظاهرا أبدا والأجزاء[(١)] النظيرةُ لها غائبةً أبدا ، فيكون مقدارُ ثلاثة أشهر من الصيف نهاراً كُلّه ، وثلاثةِ أشهر من الشتاء ليلاً كُلّه . وحيث يكون آرتفاع القطب ثمانياً وسبعين درجة ونصفا فهناك يكون مَدار الثور والجَوْزاء والسَّرَطان ظاهرا أبدا والبروج النظيرةُ لها غائبة أبدا ، فيكون أربعةُ أشهر من الصيف نهارا كلّه وأربعةُ أشهر من الشتاء ليلاً كُلّه . وحيث يكون آرتفاع القطب أربعا وثمانين درجةً فهناك يكون مَدار ما بين النصف من الحَمَل إلىٰ النصف من السُّنْبلة ظاهرا أبدا والبُروج النظيرةُ لها غائبةً أبدا فيكون خمسةُ أشهر من الصيف نهاراً كلّه وخمسةُ أشهر من الشتاء ليلا كُلّه .

ومما يعرض فى هذه المواضع التى تقدّم ذكرها أنه إذا كان قطب فلك البروج فى دائرة نصف النهار مما يلى الجَنوبَ كان أوّلُ الحمل فى المَشْرق وأوّلُ الميزان فى المغرب ، وتكون البروج الشماليةُ ظاهرةً أبدا فوق الأرض والجَنُوبِيَّة غائبة تحتها ، وهناك يطلع ماله طلوع من آخر الفلك فيما بين الجَدْى والسَّرَطان منكوسًا ، فيطلُع الثورُ قبل الحَمَل ، والحملُ قبل الحوت ، والحوتُ قبل الدلو . وكذلك تغرب نظائرها منكوسةً ، وحيث يكون آرتفاع القطب تسعين درجة فيصير علىٰ سَمْت الرأس فهناك تكون دائرة معدّل النهار منطبقةً علىٰ الأفق أبدا ، ويكون دور الفلك

(١) المراد بها البروج كما يدل عليه بقية العبارة .

رَحَوِيًّا موازيا للأُفُق ويكون نصف السماء الشمالى عن معدّل النهار ظاهرا أبدا فوق الأرض والنصف الجَنوبىُّ غائبا تحتها، فلذلك إذا كانت الشمس فى البروج الشمالية كانت طالعة تدور حول الأُفُق ويكون أكثرُ ٱرتفاعها عنه بمقدار مَيْلها عن معدّل النهار، وإذا كانت فى البروج الجنوبية كانت غائبة أبدا فتكون السنة هناك يوما واحدا ستة أشهر ليلا وستة أشهر نهارا، ولا يكون لها طلوع ولا غروب . فظهر من هذا أن حركة الفلك بالنسبة للآفاق إما دُولابيّة، وهى فى خط الاستواء؛ وإما حَمَائلية، وهى فى الآفاق المائلة عنه، وإما رَحَوِيَّة : وهى فى المواضع التى ينطبق فيها قطبُ العالَم على سَمْت الرأس فسبحان مَنْ أتقن ما صنع !

الجملة الثالثة

(فى معرفة زيادة الليل والنهار ونقصانهما بتنقُّل الشمس فى البروج)

اِعلم أن للشمس حركتين : سريعةً وبطيئةً .

أما السريعة فحركة فلك الكُلّ بها فى اليوم والليلة من المَشرِق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق، وتسمّى الحركةَ اليوميَّةَ .

وأما الحركة البطيئة فقطعها فلَكَ البروج فى سنة شمسيَّة من الجَنُوب إلى الشَّمال ومن الشَّمال إلى الجَنُوب، ولتَعْلَمْ أن جهة المشرق وجهة المغرب لا تتغيران فى أنفسهما بل جهة المشرق واحدةٌ وكذلك جهة المغرب، وإن ٱختلفت مطالعهما . قال تعالى ﴿رَبُّ المَشْرِقِ والمَغرِبِ﴾ أى جهة الشُّروق وجهة الغُروب فى الجملة، إلا أن الشمس لها غايةٌ ترتفع إليها فى الشَّمال ولتلك الغاية مَشْرِق ومَغْرِب وهو مَشْرِق الصيف ومغربُه، ومطلعها حينئذ بالقُرب من مَطْلَع السِّماك الرامح، ولها غاية تحطُّ إليها فى الجَنُوب، ولتلك

الغاية أيضا مَشْرِق ومَغْرِب : وهو مشرق الشتاء ومغربه ، ومطلَعها حينئذ بالقُرْب من مطْلَع بطن العقرب ، وهذان المَشْرِقان والمَغْرِبان هما المراد بقوله تعالىٰ : ﴿ رَبُّ المَشْرِقَيْنِ وربُّ المَغْرِبَيْنِ ﴾ وبين هاتين الغـايتين مائة وثمـانون مَشْرِقا ويقابلها مائة وثمانون مَغْرِباً ، ففى كل يوم تطْلُع فى مَطْلَع من المشرق غيرِ الذى تطلُع فيه بالأمس ، وتغرُب فى مغرب غير الذى تغرب فيه بالأمس . وذلك قوله تعالىٰ : ﴿ربُّ المَشَارِق والمَغَارِب ﴾ ونقطةُ الوسط بين هاتين الغايتين : وهى التى يعتدل فيها الليـلُ والنهارُ يُسـمَّى مَطْلَع الشمس فيها مَشْرِق الآستواء ، ومَغْرِب الأسـتواء ، ومطلعها حينئذ بالقرب من مَطْلَع السماك الأعْزِلِ .

وقد قَسَّم علماء الهيئـة مابين غاية الآرتفاع وغاية الهُبُوط آثنَىْ عشرقِسْما ، قالوا : والمعنىٰ فى ذلك أن الشمس فى المبدإ الأوّل لمـا سارتْ مَسِيرَها الذى جعله الله خاصًّا بها قطعتْ دَوْر الفلك التاسع فى ثلثمائة وستين يوما ، وسميت جملةُ هـذه الأيام سنة شمسية ورَسَمت بحركتها هذه فى هذا الفلك دائرةً عُظْمىٰ علىٰ ماتوهَّمه أصحاب الهيئة ، وقسمت هذه الدائرة إلىٰ ثلثمائة وستين جزءا وسمَّوا كلَّ جزء درجةً ، ثم قسمت هذه الدَّرَج إلىٰ اثنىْ عشرقسما علىٰ عدد شهور السنة ، وسمَّوْا كل قسم منها برجاً ، وجعلوا آبتداء الأقسام من نقطة الآعتدال الربيعىّ : لاعتدال الليل والنهار عند مرور الشمس بهذه النقطة ، ووجدوا فى كل قسم من هذه الأقسام نجوما تتشكَّل منها صورةٌ من الصُّوَر فسمَّوْا كلَّ قسم بآسم الصورة التى وجدوها عليه ، وكان القسم الأوّل الذى ابتدؤا به نجوما إذا جُمِـع متفرِّقها تشكلتْ صورةَ حَمَل ، فسمَّوْها بالحمل ، وكذلك البواقى .

قال صاحب "مَنَاهِج الفكر" : وذلك فى أوّل ما رَصَدُوا ، وقد آنتقلت الصُّوَر عن أمكنتها علىٰ ما زعموا فصار مكانَ الحمل الثورُ ، وهى تنتقل علىٰ رأى بطليموس فى ثلاثة آلاف سنة وعلىٰ رأى المتأخرين فى ألفَىْ سنة .

إذا علمت ذلك فآعلم أن الدَّوْرة الفلكية فى العُرُوض الشَّماليـة تنقسم إلىٰ ثلثمائة وستين درجة ، كما تقدّمت الإشارة إليه ؛ والسـنةُ ثلثمائة وستون يوما منقسمة علىٰ الآثنى عشرَ برجا المتقدّمِ ذكرها ، لكل برج منها ثلاثُون يوما؛ وتُوزَّع عليها الخمسة أيام والربع يوم ، والليـل والنهار يتعاقبان بالزيادة والنُّقْصان بحسب سير الشمس فى تلك البُروج فما نقص من أحدهما زيد فى الآخَر . وذلك أنها إذا حلَّتْ فى رأس الحَمَل وهى آخذةٌ فى الآرتفاع إلىٰ جهة الشِّمال ، وذلك فى السابع عَشَر من برمهات من شُهور القبط ، ويوافقه الحادى والعشرون من آذار من شهور السُّرْيان ، وهو مارس من شهور الروم ، والرابع والعشرون من حردادماه من شهور الفرس ، آعتـدل الليلُ والنهار ، فكان كل واحد منهما مائةً وثمانين درجة ؛ وهو أحد الآعتدالين فى السنة ، ويسمّٰى الآعتـدالَ الربيعىَّ : لوقوعه أوّل زمن الربيع فيزيد النهارُ فيـه فى كل يوم نصفَ درجة ، وينقص الليلُ كذلك ، فتكون زيادةُ النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ عشرةَ درجة ، ونقصُ الليـل كذلك ، ويصـير النهار بآخره علىٰ مائة وخمس وتسعين درجةً ، والليل علىٰ مائة وخمس وستين درجةً .

ثم تنقُل إلىٰ الثور فيزيد النهار فيـه كلَّ يوم ثلث درجة ، وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما عشرَ درجات ونقصُ الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره علىٰ مائتين وخمس درجات ، والليل علىٰ مائة وخمس وخمسين درجةً .

ثم تنتقل إلىٰ الجوزاء فيزيد النهارُ فيها كلَّ يوم سُدْسَ درجة وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيها لمدّة ثلاثين يوما خمسَ درجات ، ونقص الليـل كذلك ، ويصير النهار آخِرَها علىٰ مائتين وعشر درجات والليل علىٰ مائة وخمسين درجة ، وذلك غاية آرتفاعها فى جهة الشمال . وهذا أطول يوم فى السنة وأقصر ليلة فى السنة .

ويسمّٰى سيرُ الشمس فى هذه البروج الثلاثة شَمَالِيًّا صاعدا : لصعودها فى جهة الشمال .

ثم تنْقُل الشمس إلىٰ السَّرطان وتَكُر راجعةً إلىٰ جهــة الجَنُوب ، ويسمَّى ذلك المُنقلَبَ الصيفيَّ ، وذلك فى العشرين من بؤنة من شُهور القبط ، ويبقىٰ من حزيران من شهور السُّرْيان ، ويونيه من شهور الروم خمســةُ أيام ، وحينئذ يأخُذ الليلُ فى الزيادة والنهارُ فى النقصان ، فينقُص النهارُ فيه فى كل يوم سُدُسَ درجة ، ويزيد الليل كذلك ، فيكون نقصُ النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ درجات ، وزيادة الليل كذلك ، ويصــير النهارُ بآخره علىٰ مائتين وخمس دجات ، والليل علىٰ مائة وخمس وخمسين درجة .

ثم تنقل إلىٰ الأسد فينقُص النهارُ فيــه كل يوم ثُلُثَ درجة ، فيكون نقص النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما عشْرَ درجات ، وزيادة الليل كذلك ، ويصــير النهار بآخره علىٰ مائة وخمس وتسعين درجةً ، والليل علىٰ مائة وخمس وستين درجةً .

ثم تنقل إلىٰ السُّنْبلة فينقص النهار فيهــا كلَّ يوم نصــفَ درجة ، ويزيد الليــل كذلك ، فيكون نقصُ النهار فيها لمدّة ثلاثين يوما خمْسَ عَشْرَة درجةً ، وزيادة الليل كذلك ، ويصــير النهار بآخرها على مائة وثمــانين درجة والليــل كذلك ، فيستوى الليلُ والنهار . ويســمَّى الاعتدال الخريفىَّ : لوقوعه فى أوّل الخريف . ويسمَّى سير الشمس فى هذه البروج الثلاثة شماليا هابطا ، لهُبُوطها فى الجهة الشَّمالية .

ثم تنقل إلىٰ الميزان فى الثـامن عشر من توت من شهور القبط ، وهى آخذة فى الهُبُوط ، والنهار فى النقص والليل فى الزيادة ، فينقُص النهار فيه كلَّ يوم نصفَ درجة ، ويزيد الليل كذلك ، فيكون نقصُ النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ عشرةَ درجةً ، وزيادة الليل كذلك ، ويصــير النهار بآخره علىٰ مائة وخمس وستين درجة والليل علىٰ مائة وخمس وتسعين درجةً .

ثم تنقل إلىٰ العَقْرب ، فينقص النهارُ فى كل يوم ثُلُثَ درجة ، ويزيد الليل كذلك ، فيكون نقصُ النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما عشرَ درجات ، وزيادةُ الليل كذلك ؛ ويصير النهار بآخره علىٰ مائة وخمس وخمسين درجة ، والليل علىٰ مائتين وخمس درجات .

ثم تنقل إلىٰ القوس ، فينقص النهار فيه كلَّ يوم سُدُس درجة ، ويزيد الليل كذلك ، فيكون نقص النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ درجات ، وزيادة الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره علىٰ مائة وخمسين درجة ، والليل علىٰ مائتين وعشر درجات ، وهو أقصر يوم فى السنة وأطول ليلة فى السنة ؛ وذلك غايةُ هبوطها فى الجهة الجنوبية . ويسمّى سيرُ الشمس فى هذه البروج جَنوبياً هابطا، لهُبُوطها فى الجهة الجنوبية .

ثم تنقل إلىٰ الجَدْى فى السابع عشر من كيهك وتكُرُّ راجعة، فتأخذ فى الآرتفاع ويأخُذ النهار فى الزيادة والليل فى النقصان، فيزيد النهار فيه كلَّ يوم سُدُس درجة، وينقص الليل كذلك ؛ فتكون زيادة النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ درجات ونقصُ الليل كذلك، ويصير النهار بآخره علىٰ مائة وخمس وخمسين درجةً ، والليل علىٰ مائتين وخمس درجات .

ثم تنقل إلىٰ الدلو، فيزيد النهار فيه كلَّ يوم ثلثَ درجة، وينقص الليل كذلك ؛ فتكون زيادة النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما عشرَ درجات ونقصُ الليل كذلك، ويصير النهار بآخره علىٰ مائة وخمس وستين درجة والليل علىٰ مائة وخمس وتسعين درجة .

ثم تنقل إلىٰ الحُوت فيزيد النهار فيه كلَّ يوم نصفَ درجة وينقص الليل كذلك، فتكون زيادة النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ عشرةَ درجةً ونقص الليل كذلك،

و يصير النهار بآخره على مائة وثمانين درجة والليل كذلك، فيستوى الليل والنهار وهو رأس الحمل وقد تقـدّم . ويســمّى سير الشمس فى هذه البروج الثلاثة جنو بيـا صاعدا : لصعودها فى الجهة الجنوبيّة ؛ وهذا شأنها إلى أن يرِثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها وهو خير الوارثين .

وهـذا العمل إنمـا هو فى مصر وأعمالهـا ؛ فإذا آختلفت العُروض كان الامرُ فى الزيادة والنُّقصان بخلاف ذلك والله أعلم .

تنبيه ـ إذا أردت أن تعرف الشمس فى أىّ برج من البرُوج وكم قطعَتْ منه فى أىّ وقت شئت فأقرب الطرق فى ذلك أن تعرف الشهر الذى أنتَ فيه من شهور القبط وتعرف أمسه (١)

الجملة الرابعـــة

(فى بيان ما يعرَف به آبتداء الليل والنهار)

وقد تقدّم أن النهار الطبيعىّ أوّله طلوعُ الشمس وآخرُه غروبُها، والنهار الشرعىّ أوّله طلوع الفجر الثـانى وآخره غروب الشمس ؛ فيخالفـه فى الآبتداء ويوافقـه فى الآنتهاء، وطلوع الشمس وغروبها ظاهر يعرفه الخاصّ والعامّ . أما الفجر فإن أمره خفىّ لا يعرفه كلُّ أحد؛ وقد تقدّم آنقسامه إلى كاذب: وهو الأوّل، وصادق: وهو الثانى، وعليه التعويل فى الشرعيات، فيحتاج إلى مُوضِّح يوضِّحـه ويظهره للعِيَان. وقد جعل المنجِّمون وعلماءُ الميقات له نجوما تدلُّ عليه بالطُّلوع والغروب والتوسط، وهى منـازل القمر، وعدّتها ثمـانٌ وعشرون منزلة : وهى الشَّرَطان ، والبُطَـيْن ، والثُّريّا ، والدَّبَران ، والهَقْعـة ، والهَنْعـة ، والذِّراع ، والنَّثْرة ، والطَّرْف ، والجَبْهـة ،

(١) بياض فى الأصل .

والخَرَتَان، والصَّرفة، والعوَّاء، والسِّماك، والغفْر، والزُّبانان، والإكليل، والقَلْب، والشَّولة، والنَّعائم، والبَلْدة، وسَـعْدُ الذابحُ، وسَعْدُ بُلَعَ، وسـعدُ السُّعودِ، وسَعدُ الأخبيةِ، والفَرْغُ المقدّم، والفَرْغ المؤخَّر، وبطن الحُوت،

والمعنىٰ فى ذلك أن الشـمس إذا قَرُبت من كوكب من الكواكب الثابتـة أو المتحركة سترته وأخفته عن العيون، فصار يظهر[1] نهارا ويختفى ليلا ويكون خفاؤه غيبةً له، ولا يزال كذلك خافيـا إلىٰ أن تبعُدَ عنه الشمسُ بُعْدا يمكن أن يظهر معه للأبصار وهو عند أوّل طلوع الفجر فإن ضوء الشمس يكون ضعيفا حينئذ فلا يغلبُ نورَ الكوكب فيُرىٰ الكوكب فى الأفق الشرقىِّ ظاهرا، وحصةُ كل منزلة من هذه المنازل من السنة ثلاثةَ عشرَ يوما وربعَ سبع يوم ونصفَ ثُمُن سبع يوم علىٰ التقريب كما سيأتى[2] علىٰ المنازل الثمانية والعشرين خص كل منزلة ماذكر من العدد والكسور ولما كان الأمر كذلك جعل لكل منزلة ثلاثة عشر يوما : وهى ثلاث عشرة درجة من درج الفلك وجمع مافضل من الكسور على كل ثلاثة عشر يوما بعد آنقضاء أيام المنازل الثمانية والعشرين فكان يوما وربعا فجعل يوما فى المنزلة التى توافق آخر السنة وهى الجبهة فكان حصتها أربعة عشر يوما، وبقى ربع يوم ونُسِئَ أربعَ سـنين حتّى صار يوما فزيد علىٰ الجبهة أيضا، فكانت كواكب المنازل المذكورة تطلُع مع الفجر منها أربعة عشر يوما ثلاث سنين وفى السنة الرابعة تطلع بالفجر خمسة عشر يوما.

فأما الشَّرَطان : وهما المنزلةُ الأولىٰ، فأوّل طلوعهما بالفجر فى الثالث والعشرين من برمودة من شهور القبط، وهو الثامن عشر من نَيْسان من شهور السُّرْيان .

وأما البُطَين : وهو المنزلة الثانية فأوّل طلوعه بالفجر فى السادس من بشنس من شهور القبط، وهو أوّل يوم من أيَّار من شهور السُّرْيان .

---

(١) لعله يختفى نهارا و يظهر ليلا . ومع ذلك بقية العبارة غير واضحة .

(٢) كذا فى الأصل ولعله فان أيام السنة اذا قسمت علىٰ الخ .

وأما الثُّريَّا : وهى المنزلة الثالثة فأوّل طلوعها بالفجر فى التاسع عشر من بشنس من شهور القبط، وهو الرابع عشر من أيار من شهور السُّريان .

وأما الدَّبَران : وهو المنزلة الرابعـة فطلوعها بالفجر فى الثانى من بؤنه من شهور القبط، وهو السادس والعشرون من أيار من شهور السريان .

وأما الهَقْعة : وهى المنزلة الخامسـة، فأوّل طلوعها بالفجر فى الخامس عشر من بؤنه من شهور القبط، وهو التاسع من حزيران من شهور السريان .

وأما الهَنْعة : وهى المنزلة السادسـة ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الثامن والعشرين من بؤنه من شهور القبط، وهو الثانى والعشرون من حزيران من شهور السريان .

وأما الذِّراع : وهو المنزلة السابعـة ، فأوّل طلوعه بالفجر فى الحـادى عشر من أبيب من شهور القبط، وهو الخامس من تَمُّوز من شهور السريان .

وأما النَّثْرة : وهى المنزلة الثامنـة ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الرابع والعشرين من أبيب من شهور القبط، وهو الثامن عشر من تموز من شهور السُّريان .

وأما الطَّرْف : وهو المنزلة التاسعة، فأوّل طلوعه بالفجر فى السابع من مسرىٰ من شهور القبط : وهو اليوم الآخر من تموز من شهور السُّريان .

وأما الجبهة : وهى المنزلة العاشرة ، فأوّل طلوعها بالفجر فى العشرين من مسرىٰ من شهور القبط، وهو الثالث عشر من آب من شهور السريان .

وأما الخَرَتان : وهو المنزلة الحاديةَ عشرةَ ، فأوّل طلوعه بالفجر فى الرابع من أيام النسىء القبطىّ، وفى السنة الكبيسة فى الخامس منه، وهو السابع والعشرون من آب من شهور السريان .

وأما الصَّرْفة : وهى المنزلة الثانيةَ عشرةَ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الثانى عشر من توت من شهور القبط، وهو التاسع من أيلول من شهور السُّرْيان .

وأما العَوّاء : وهى المنزلة الثالثةَ عشرةَ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الخامس والعشرين من توت من شهور القبط، وفى الثانى والعشرين من أيلول من شهور السُّرْيان .

وأما السِّماك : وهى المنزلة الرابعةَ عشرةَ ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الثامن من بابه من شهور القبط، وهو الخامس من تشرين الأوّل من شهور السريان .

وأما الغَفْر : وهى المنزلة الخامسةَ عشرةَ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الحادى والعشرين من بابه من شهور القبط، وهو الثامن عشر من تشرين الأوّل من شهور السُّريان .

وأما الزُّبانانِ : وهما المنزلة السادسةَ عشرةَ، فأوّل طلوعهما بالفجر فى الرابع من هاتور من شهور القبط، وهو آخر يوم من تشرين الاوّل من شهور السُّريان .

وأما الإكليل : وهو المنزلة السابعةَ عشرةَ ، فأوّل طلوعه بالفجر فى السابع عشرَ من هاتور من شهور القبط، وهو الثالث عشر من تشرين الثانى من شهور السريان .

وأما القَلْب : وهو المنزلةُ الثامنةَ عشرة، فأوّل طلوعه بالفجر فى آخر يوم من هاتور من شهور القبط، وهو السادس والعشرون من تشرين الثانى من شهور السُّريان .

وأما الشَّولة : وهى المنزلة التاسعةَ عشرةَ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الثالث عشر من كيهك من شهور القبط، وهو التاسع من كانون الأوّل من شهور السريان .

وأما النَّعائم : وهى المنزلة العشرون، فأوّل طلوعها بالفجر فى السادس والعشرين من كيهك من شهور القبط، وهو الثانى والعشرون من كانون الأوّل من شهور السريان .

وأما البَلْدة : وهى المنزلة الحادية والعشرون، فأوّل طلوعها بالفجر فى التاسع من طوبه من شهور القبط، وهو الرابع من كانون الثانى من شهور السريان .

وأما سعدُ الذابحُ : وهو المنزلة الثانية والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الثانى

والعشرين من طوبه من شهور القبط ، وهو السابع عشر من كانون الثانى من شهور السريان .

وأما سَعْدُ بُلَعَ : وهو المنزلة الثالثة والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الخامس من أمشير من شهور القبط ، وهو الثلاثون من كانون الآخر من شهور السّريان .

وأما سَعْدُ السّعود : وهو المنزلة الرابعة والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الثامن عشر من أمشير من شهور القبط ، وهو الثانى عشر من شباط من شهور السُّرْيان .

وأما سَعْدُ الأخبيةِ : وهو المنزلة الخامسة والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر أوّل يوم من برمهات من شهور القبط ، وهو الخامس والعشرون من شباط من شُهُور السريان .

وأما الفَرْغ المُقدَّم : وهو المنزلة السادسةُ والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الرابع عشر من برمهات من شهور القبط ، وهو السابع من آذار من شهور السريان .

وأما الفَرْغ المؤخَّر : وهو المنزلة السابعة والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر فى السابع والعشرين من برمهات من شهور القبط ، وهو الثانى والعشرون من آذار من شهور السريان .

وأما بَطْن الحوت : وهو المنزلة الثامنة والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر فى العاشر من برموده من شهور القبط ، وهو الخامس من نيسان من شهور السريان .

وقد نظم الشيخ كمال الدين حفيدُ الشيخ أبى عبد الله محمد القرطبى أبياتا ، يعلم منها مَطَالع هذه المنازل بالفجر بحروف رمزها للشهور والأعداد والكواكب ، وربما غَلِط بعض الناس فنسبها إلى الشيخ عبد العزيز الديرينى رحمه الله ، وهى هذه :

تبيص تهكع بحس بكأغ هـدز * هـيزاء هلق كيجش ككون برز

ططب طكبذ أهب أيحس بأخ * بيــدم بكزم بيت بكجش رمز(١)

ولَيْس فيها من الحَشْوات قط سوىٰ * أواخِرِ النظم فافهــم شرحها لتعز

و بيانُ ذلك أنّ الحرف الأوّل من كل كلمة ٱسم للشهر الذى تطلُع فيه تلك المنزلةُ والحرفَ الآخرَ منها ٱسمُ المنزلةِ وما بين الآخِر والأوّل عددُ ما مضىٰ من الشهر بحساب الجمَّل ، مثال ذلك التاء من تبيص كناية عن توت ، والصاد منها كناية عن الصّرفة ، والياء والباء اللذان بينهما عددهما بالجمَّل ٱثنا عشر ، إذ الياء بعشرة والباء باثنين فكأنه قال فى الثــانى عشر من توت تطلُع منزلة الصّرفة بالفجر ، وكذلك البواقى ، إلا أنه لا عبرة بأواخر البيتين ، وهى برز فى البيت الأوّل ، ورمز فى البيت الثانى .

ونظم الإمام محب الدين جار الله الطبرىّ أبيــاتا كذلك علىٰ شهور السريان ، وهى هذه :

تهس تحيــغ تلز تجىء * توكق كطش كبكن نزول

كدب كويذ كلب شبيس * شــهكح أزيم أبكم ألول

نهــب نحيش أآب * أوكد حطت حبكه ضجول

والحال فى هذه الكلمات من أوائل الأبيات وأواخرها وأوساطها كالحال فى الأبيات المتقدّمة ، فالتاء من تهس إشارة لتشرين الأوّل والسين إشارة للسماك ، والهاء بينهما بخمسة ففى الخامس من تشرين الأوّل يطلُع السماك ، وعلىٰ هذا الترتيب فى البواقى .

وٱعلم أن هذه المنازل لا تزال أربعَ عشرةَ منزلة منها ظاهرةً فوق الأرض فى نصف الفلك وأربع عشرة منزلة منها خافيةً تحت الأرض فى نصف الفلك ، وهى مراقبة بعضها لبعض لٱســتواء مقادير أبعادها ، فإذا طلعت واحدة فى الأفق الشرقىّ غَرَبت واحدة فى الأفق الغربىّ ، وكانت أخرىٰ متوسطة فى وسط الفلك فهى كذلك أبدا .

---

(١) بعده بيت ناقص غير موجود بالاصل و به تكمل الشهور والمنازل .

والقاعدة فى معرفة ذلك أنك تبتدئ بأية منزلة شئتَ ، وتعدّ منها ثمانية من الطالع فالثامنة هى المتوسطة والخامسة عشرة هى الغاربة ؛ فإذا كان الطالعُ الشَّرَطين فالمتوسط النَّثْرة والغارب الغَفْر ؛ وكذلك فى جميع المنازل ؛ وفى مراقبة الطالع منها للغارب يقول بعضُ الشعراء مقيِّدًا لهـا علىٰ الترتيب بادئا بطلوع النَّطْح : وهو الشَّرطان وغروب الغفر حينئذ :

كَمْ أمالُوا من ناطِحٍ باغْتفارٍ * وأحالُوا علىٰ البُطَيْن الزُّبانىٰ
والــثُّرَيّا تكَلَّلت فرأينـا الــ * ـقلْبَ منها يُشَــعِّرُ الدَّبَرانَا
هَقَعُوا شَـوْلَةً وهنعُوا نَعامًا * بَعْـدَ ماذَرَّعُوا البِلَادَ زمانا
نَثَرُوا ذَبْحُهُــم بطَرْف بُلَيْع * جَبهة السَّعْد فى خَرات خبانا
فانصرَفْنا وفى المُقَــدَّم عَوّا * آخرا والسِّماك مَــدّ رِشانا

وقال آخر :

النَّطْح يَغْفِر والبُطَيْن مُزابِن * ثم الــثُّرَيّا تبتغى إكْليـــلا
والقَلْب للدَّبَران خِلٌّ عاذِر * من أجْل هَقْعةِ شَولةٍ ماقيلا
تَهْوى الهُنَيعةُ للنَّعائم مثلَ مَا * يَنْوِى الذِّراع لَبَلْدةٍ ترحيلا
والنَّثْر يَذبح عند طَرْف بُلُوعه * وبجبهة سَــعْدٌ غدا منقولا
ولِزُبْرة وسـطَ الخِباء إقامةٌ * فاصرِفْ مقدّمَ ذكرها تعجيلا
يهوِى المُؤَخَّر إن سِماكُ مَرَّةً * مدّ الرِّشاءَ بِجيــده تنْكيلا

وقد نظم صاحبنا الشيخ إبراهيم الدهشورىّ الشهير بالسهروردىّ أُرجوزةً ، ذكر فيها الطالع ، ثم الغـارب فى بيت وبعـده المتوسط ثم الوتد وهو الذى يقابله تحت الارض فى بيت ثان ــ قال :

إن طلع الشرطان [(١)]

بُطَيْنُها نُورَ الزُّبانيْنِ خَلَعْ * فناعِسُ الطَّرْفِ رمى سعدَ بُلَع

ثُرَيَّا مَعَ الإكليلِ بالوَقُودِ * تُنَوِّرُ الجبهةَ فى السُّعُود

والدَّبَرانُ القَلْبُ منه يَخْفِقُ * فالخَرَتانُ للخِباء يَطْرُق

وهَقْعةٌ شَوْلتُها مُنْهَزِمهْ * وصَرْفةٌ بفَرْغِها مُقدَّمه

وهَنْعةٌ منها النَّعائمُ نَفَرتَ * بعَوَّة بالفَرْغ قد تأخَّرتْ

رمى الذراعُ بَلْدةً أصابَها * سماكُ بطنِ الحوتِ ما أصابها

فهذه جملتها مكمَّله * للشمس فى ثلاثَ عَشْرَ منْزِله

الجملة الخامسة

(فى ساعات الليل والنهار)

قال أصحاب الهيئة : لما كان الفلك متحرّكا حركاتٍ متعدّدةً يتلُو بعضُها بعضا، جُعِل مقدار كل حركة منها يوما، ولما كانت الشمس فى حركة من هذه الحركات تارةً تكونُ ظاهِرةً لاهل الرُّبْع المعمور وتارة مستترةً عنهم بحدَبة الأرض، انقسمَ لذلك مقدارُ تلك الحركة إلى الليل والنهار، فالنهار عبارةٌ عن الوقت الذى تظهر فيه الشمْس على ساكنى ذلك الموضِع من المَعْمور، والليل عبارة عن الوقت الذى تخفى عنهم فيه، فإنه يوجد وقتُ الصبح فى موضعٍ وقتَ طلوع الشمس فى موضعٍ آخر. وفى موضع آخَرَ وقت الظهر، وفى موضع آخر وقت المغرب، وفى موضْع آخر وقت نصف الليل.

ولما كانت منطقة البروج مقسومةً إلى اثنَىْ عشر برجا، وكل برج إلى ثلاثين درجة، وكانت الشمس تقطع هذه المنطقةَ بحركة فلك الكل لها فى زمان اليوم

---

(١) بياض بالاصل.

الجامع لليل والنهار، قُسِّم كل واحد منهما إلى آثنى عشر جزءا، وجعل قسطُ كل جزء منها خمسَ عشرةَ درجةً، وسمِّى ساعة. ثم لما كان الليل والنهار يزيد أحدهما على الآخر ويتساويان فى الاعتدالين على ما مرّ، اضطُرَّ إلى أن تكون الساعات نوعين: مستوية، وتسمَّى المعتدلةَ، وزمانيَّـة وتسمَّى المعوجَّة. فالمستوية تختلف أعدادها فى الليل والنهار، وتتفق مقاديرُها بحسب طول النهار وقصره. فإنه إن طال كانت ساعاته أكثر، وان قَصُر كانت ساعاته أقلّ، مقدارُكل ساعة منه خمسَ عشرة درجة لاتزيد ولا تنقص، والمعوجة تتفق أعدادُهـا وتختلف مقاديرُها، فإنّ زمانَ النهـار طال أو قصر ينقسم أبدا إلى آثنتىْ عشرةَ ساعة، مقدار كل واحدة منها نصفُ سُدُس الليل والنهار، وهى فى النهار الطويل أطول منها فى القصير. والذى كانت العرب تعرفه من ذلك الزمانيَّةُ دون المستوية، فكانوا يَقْسِمون كلا من الليـل والنهار إلى آثنتىْ عشرةَ ساعةً، ووضعوا لكل ساعة من ساعات الليل والنهار أسمـاءً تخُصُّها.

فأما ساعاتُ الليل فسَمَّوُا الأُولى منها الشاهِدَ، والثانيةَ الغَسَق، والثالثة العَتَمة، والرابعة الفَحْمة، والخامسة المَوْهِن، والسادسة القِطْع، والسابعة الجَوْشَن، والثامنة الهُتْكة، والتاسعة التَّباشير[1]، والحـاديةَ عشرةَ الفجرُ الأوّل، والثانيـةَ عشرةَ الفجر المعـــترض.

وأما النهار فسمَّوُا الساعة الأولى منه الذُّرور، والثانية البُزُوغ، والثالثة الضُّحى، والرابعة الغَزَالة، والخامســة الهاجِرَة، والسادسةَ الزَّوال، والسابعة الدُّلُوك، والثامنة العَصْر، والتاسعة الأَصِـيل[2]، والعاشرة الصَّبوب، والحاديةَ عشرةَ الحدود، والثانيةَ عشرةَ الغُرُوب.

---

(١) العاشرة غير موجودة فى الاصل. وعد فى نهاية الأرب بعد التباشير الفجر الأوّل ثم الفجر الثانى ثم المعترض وبه تعلم ماهنا (٢) لعل صوابه الحَدُور.

وتروىٰ عنهم علىٰ وجه آخر، فيقال فيها : البُكُور، ثم الشُّروق ، ثم الإشْراق ، ثم الرَّأْد ، ثم الضُّحىٰ ، ثم المُتُوع ، ثم الهاجِرَة ، ثم الأَصِيل ، ثم العَصْر ، ثم الطَّفَل (بتحرك الفاء)، ثم العَشِيّ ، ثم الغُروب . ذكرهما ٱبن النحاس فى "صناعة الكتّاب".

قال فى "مناهج الفكر": ويقال إن أوّل من قسم النهار إلىٰ ٱثنتى عشرة ساعة آدمُ عليه السلام، وضَمَّن ذلك وصيةً لٱبنه شيثٍ عليه السلام، وعرَّفه ماوُظِّف عليه كلَّ ساعة من عمل وعبادة والله أعلم .

الجملة السادسة

(فى أيام الأسبوع ،وفيها أربعة مَدَارك)

المُدْرَك الأوّل

(فى ٱبتداء خَلْقها وأصل وجودها)

وقد نَطَق القرءان الكريم بذكر ستة أيام منها علىٰ الإجمال والتفصيل .

أما الإجمال فقال تعالىٰ : ﴿وهُو الَّذى خَلَقَ السَّموَاتِ والأرْضَ فِى سِتَّةِ أيَّامٍ﴾ .

وأما التفصيل فقوله تعالىٰ : ﴿قل أئنَّكم لتَكْفُرونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأرْضَ فى يَوْمَيْنِ وتَجْعَلُون لَهُ أنْدادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَل فِيهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا وبَارَكَ فيها وقَدَّرَ فيهَا أقْوَاتَهَا فى أرْبعةِ أيَّامٍ سَواءً للسَّائِلِينَ ثُمَّ ٱسْتَوىٰ إلىٰ السَّماءِ وهِىَ دُخَانٌ فقالَ لهَا ولِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أوْ كَرْهًا قالَتَا أتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ والمراد بالأربعة الأولىٰ بما فيها من اليومَيْن المتقدّمين ، ومثله فى كلام العرب كثير، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم "إذا نَامَ أحَدُكم جاءَ الشيْطانُ فعَقَد تَحتَ رأسه ثَلاثَ عُقَد ، فإذا ٱسْتَيْقَظَ فذكر اللهَ تعالىٰ ٱنحلَّتْ عُقْدةٌ، فإذا تَوضَّأ ٱنحَلَّتْ عُقْدتانِ، فإذا صَلَّى ٱنحلَّتْ الثالثةُ" فالمراد بقوله عقدتان عُقدةٌ والعُقدة الأولىٰ . وقد ظهر بذلك أن

المراد من الآية ستة أيام فقط ، وهو ما ورد به صريحُ الآيات فى غير هذه الآية أن خلقَ السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام، وقد ورد ذلك مبينا فيما رواه ٱبنُ جَرير من رواية ٱبن عباس رضى الله عنهما "أنَّ اليهودَ أتتِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم، تسأله عن خَلْق السمٰوات والأرض، فقال خلَق اللهُ الأرضَ يومَ الأحدِ ويومَ الاثْنَيْنِ، وخلقَ الجبالَ يوم الثّلاثاء وما فيهنّ من منافـعَ، وخَلَق يومَ الأربعاء المَدائنَ والشَّجَرَ والعُمْران والخَرابَ ، فهذه أربعةُ أيّام، وخلق يومَ الخميس السماء، وخلَقَ يومَ الجمعـة النجومَ والشمسَ والقمرَ والملائكةَ إلىٰ ثلاث ساعات بقيَتْ منـه؛ وفى الثانية ألقىٰ الآفةَ علىٰ كل شىء مما ينتفع به الناسُ، وفى الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنّةَ وأمر إبليسَ بالسُّجود له ، وأخرجه منها فى آخر ساعة" قالت اليهود، ثم ماذا؟ قال "ثم ٱسْتوىٰ علىٰ العرش" قالوا: أصبت لو أتممت، قالوا: ثم ٱستراح فغضبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم غَضَبا شديدا فنزل ﴿ولقَدْ خَلَقْنا السَّمٰواتِ والأرضَ وما بَيْنَهما فى سِتَّةِ أيَّامٍ وما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ﴾ قال الشيخ عماد الدين بن كثير فى تفسيره: وفيه غرابة ، ولا ذكر فى هذا الحديث ليوم السبت فى أوّل الخلق ولا فى آخره، نعم ثبت فى صحيح مسلم من رواية أبى هريرة رضى الله عنه، أنه قال "أخذَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، بيَدِى فقال خَلَقَ اللهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْت ، وخلق فيها الجبالَ يَوْمَ الأحدِ ، وخَلَق الشَّجَر يومَ الاثْنينِ ، وخلق المكروه يوم الثّلاثاء ، وخَلَق النُّورَ يَوْمَ الأَرْبعاء، وبَثَّ فيها الدَّوابَّ يَومَ الخَميس، وخَلَق آدمَ بعْـدَ العَصْر يوم الجُمُعة آخِرَ الخَلْق فى آخِر ساعةٍ من ساعات الجُمُعة، فيما بَيْنَ العَصْر إلىٰ اللَّيْل" قال ٱبن كثير وهو من غرائب الصحيح، وعلله البخارىُّ فى تاريخه فقـال رواه بعضهم عن أبى هريرة عن كعبِ الأحبارِ، وهو أصح. فقد ورد التصريح فى هذا الحديث بذكر الأيَّام السـبعة ووُقوع الخلق فيها . قال أبو جعفر النحاس زعم محمد بن إسحاق أن هـذا

الحديث أولىٰ من الحديث الذى قبلَه ، وآستدلّ بأن الفَرَاغ كان يوم الجُمُعة ، وخالفه غيرُه من العلماء الحُذَّاق النُّظَّار . وقالوا دليلُه دليلٌ علىٰ خَطَئِه : لأن الخلق فى سِتَّة ايام يومُ الجمعةِ منها كما صح عن النبىّ صلى الله عليه وسلم برواية الجماعة ، فلو لم يدْخل فى الأيام لكان الخَلْقُ فى سبعة ، وهو خلاف ما جاء به التنزيل . علىٰ أن أكثر أهل العلم علىٰ حديث آبن عباس ، فتبين أن الآبتداء يومَ الأحد إذ كان الآخِر يومَ الجمعة ، وذلك ستة أيام كما فى التنزيل . قال أبو جعفر : علىٰ أن الحديثين ليسا بمتناقضين ، لأنا إن عملنا علىٰ الآبتداء بالأحد فالخلق فى ستة أيام وليس فى التنزيل أنه لايخلق بعدها شيئا وإن عملنا علىٰ الآبتداء بالسبت فليس فى التنزيل أنه لم يخلق قبلها شيئا .

إذا علمت ذلك فقد حكىٰ أبو جعفر النحاسُ أن مقدار كلْ يوم من أيام خلق السموات والأرض ألفُ سنة من أيام الدُّنيا ، وأنه كان بين آبتدائه عز وجل فى خلق ذلك وخَلْق القلَمَ الذى أمره بكتابة كلِّ ما هو كائن إلىٰ قيام الساعة يومٌ : وهو ألف عامٍ ، فصار من آبتداء الخلق إلىٰ آنتهائه سبعةُ آلاف عام ، وعليه يدل قول آبن عباس : إن مدّة إقامة الخَلْق إلىٰ قيام الساعة سبعةُ أيَّام كما كان الخلق فى سبعة أيام .

قال أبو جعفر وهذا بابٌ مَدَارُه علىٰ النقل دُونَ الآراء .

المُـــدْرَك الثانى

(فى أسمائها . وقد آختُلِف فى ذلك علىٰ ثلاث روايات)

الرواية الأولىٰ — مانطَقتْ به العربُ المستعرِبة من ولد إسماعيل عليه السلام وجرىٰ عليه الآستعمال إلىٰ الآن : وهوالأحدُ والاثنان والثّلاثاءُ والأربعاءُ والخَميس والجُمعة والسَّبْت .

والأصل فى ذلك مارُوِى عن ٱبن عباس رضىالله عنهما أنه قال : "إن اللهَ عز وجلَّ خَلقَ يومًا واحدا فسمَّاه الأحَدَ، ثم خلق ثانيًا فسمَّاه الآثنين، ثم خلق ثالثافسمَّاه الثَّـلَاثاءَ، ثم خلق رابعا فسمَّاه الأربعـاءَ، ثم خلق خامسًا فسمَّاه الخميسَ" ولاذكر فى هذه الرواية للجمعة والسبت . وقد ذكرهما اللهُ تعالىٰ فى كتابه العزيز . قال تعالىٰ ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا إذا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ ﴾ وقال جل وعز ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِم شُرَّعًا ﴾ . وسيأتيان فى غير هــذه الرواية عند ذكر الآختلاف فيما ٱبتُدِئَ فيه الخَلْق منها .

فالأحدُ بمعنىٰ واحد ويقال بمعنىٰ أوّل ورجحه النحاس ، وهو المطابِق لتسـمية الثانى بالآثنين . والثالث بالثَّلاثاء . وقيل أصــله وَحَد بفتح الواو والحاء كما أن أَنَاة أصــلها وَنَاة ، ويجمع فى القِـلَّة علىٰ آحادٍ وأحَدَاتٍ ، وفى الكثرة علىٰ أُحُود وأوحاد[1] ويحكىٰ فى جمعه أُحُد أيضا قال النحاس : كأنه جمع الجمع .

والاثنان بمعنى الثانى . قال النحاس ،وسبيله أن لايثنّى ،وأن يقال فيه : مضت أيامُ الاثنــين إلا أن تقول ذوات قال : وقد حكى البصريُّون الأَثْن والجميع الثُّنِيّ . وقال ٱبن قتيبة فى أدب الكاتب : إن شئت أن تجمعه فكأنه مبنى للواحد قلت أَثَانِينُ . وحكى النحاس مثله عن كتاب الفرّاء فى الأيام وقال : إنمـا يجوز علىٰ حيلة بعيدة ، وهى أن يقال اليوم الاثنانُ فتضُمُّ النونَ فتصير مثل عِمْران فتثنيه وتجمعه علىٰ هـذا . وحكى عن الفراء أيضا فى جمع الكثرة أَثانٍ فتقول مضت أثانٍ مثل أسمـاء وأَسَامٍ قال : وقرأت علىٰ أبى إسحاق فى كتاب سيبويه فيما حكاه اليوُم الثِّنىٰ فتقول علىٰ هذا فى الجمع الأَثْناء .

---

(١) لعله إحاد بدليل عبارة النحاس

والثَّلاثاء بمعنى الثالث ، ويجمع علىٰ ثَلاثاوات وحكىٰ الفراء أثالِثَ . قال النحاس ويجوز أثاليثُ ، وكذا ثَلاثِثُ مثل جمع ثلاثة لأن ألفِيَ التأنيث كالهاء . وتقول فيه مضت الثَّلاثاءُ علىٰ تأنيث اللفظ ومضىٰ علىٰ تذكير اليوم ، وكذا فى الجمع تقول مضت ثلاثُ ثَلاثاوات ، وثلاثةُ ثلاثاوات .

والأَرْبِعاء بمعنىٰ الرابع ، ويجمع علىٰ أَرْبِعاوات وكذا أرابيعُ والياء فيه عوضُ ما حُذِف ، فإن لم تعوّض قلت أَرَابع . وأجاز الفراء أربِعَاءات مثل ثلاثاءات ومنعه البصريون للفرق بين ألف التأنيث وغيرها .

والخميس بمعنىٰ الخامس ، ويجمع فى القِلَّة علىٰ أخْمِسة . وفى الكثرة علىٰ خُمُس ونُخْمسان كرُغُف ورُغْفان . ويقال أخْمِساء كأنصباء ، وحكىٰ عن الفراء فى الكثرة أخامِس .

والجمعة (بضم الميم وإسكانها) ومعناها الجمع . وٱختلف فى سبب تسميته بذلك فقال النحاس : لٱجتماع الخلق فيه ، وهذا ظاهر فى أن الٱسم كان بها قديما وقيل لٱجتماع الناس للصلاة فيه . ثم ٱختلف فقيل سميتْ بذلك فى الجاهلية وٱحتُجَّ له بما حكاه أبو هلال العسكرىّ فى كتابه الأوائل أن أوّل من سمّى الجمعة جمعةً كعبُ ٱبنُ لؤىّ جدُّ النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنَّه جمع قُرَيشا وخطَبهم فسميت جمعة وكانوا لايعرفون قبلَ ذلك إلا العَروبة . وقيل إنما سميت بذلك فى الإسلام وذلك أن الأنصار قالوا : إن لليهود يوما يجتمعون فيه بعدَ كل ستة أيام ، وللنصارىٰ كذلك فهَلُمُّوا نجعَلْ لنا يوما نجتمع فيه نذكُرُ الله تعالىٰ ونُصَلِّى ، فقالوا يوم السبتِ لليهود ويوم الأحد للنصارىٰ فٱجعلوا يوم العروبة لنا فٱجتمعوا إلىٰ سعدِ بنِ زُرارة الأنصارىّ فصلّى بهم يومئذ ركعتينِ وذكّرهم فسمّوْه يوم الجمعة لٱجتماعهم فيه فأنزل الله تعالىٰ سورةَ الجمعة . علىٰ أن السُّهَيْلِيَّ قد قال فى الروض الأُنُف : إن يوم الجمعة كان يسمّى بهذا الٱسم قبل أن يصلّىَ الأنصارُ الجمعةَ .

أما أوّل جمعة جمَّعها رسول الله صلى الله عليه وســلم فيما حكاه صاحبُ الأوائل فإنه لمـا قدِم المدينة مهُاجِرا نزل علىٰ بنى عَمْرو بن عوف وأقام عندهم أيَّاما ثم خرج يوم الجمعة عائدا إلىٰ المدينة فأدركَتْه الصـلاة فى بنى سالِم بنِ عوف فى بطن وادٍ لهم فخطب وصلّى بهم الجمعةَ . وتجمع علىٰ جُمَع وجُمْعات بالفتح والتسكين[1] .

والسبت ومعناه القطع بمعنىٰ أنه قُطِع فيـه الخَلْق علىٰ رأى مَنْ يرىٰ أن السبت آخِرُ أيام الجمعة، وأنه لاخلْقَ فيه علىٰ ماسيأتى ذكره . وقولُ النحاس إنه مشتقٌّ من الراحة أيضا لاعبرة به لمُضاهاة قول اليهود فيه علىٰ ماسيأتى إنْ شاء الله تعالىٰ . ويجمع فى القلّة علىٰ أسبُت وسَبَتات بالتحريك، وفى الكثرة علىٰ سُبُوت بضم السين مثل قَرْح وقُروح .

الرواية الثـانية ـ مايُروىٰ عن العرب العاربة من بنى قَحْطانَ وجُرْهم الأُولىٰ : وهو أنهم كانوا يُسـمُّون الأحد أوّلَ لأنه أوّلُ أعداد الأيام ويسمُّون الاثنين أَهْوَنَ أخذا من الهَوْن والهُوَينىٰ، وأَوْهَد أيضا أخذا من الوَهْدة : وهى المكان المنخفِض من الأرض لانخفاضه عن اليوم الأوّل فى العدد . ويسمُّون الثّلاثاء جُبَارا (بضم الجيم) لأنه جُبِر به العددُ . ويسمُّون الأربعاء دُبَارا (بضم الدال المهملة) لأنه دَبَر ما جُبِر به العـدد بمعنىٰ أنه جاء دُبُره . ويسـمون الخميس مُؤْنِسا لأنه يُؤْنَس به لبركته . قال النحاس : ولم يزل ذلك أيضا فى الإسلام، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتبرَّك به ولا يُسافر إلا فيه وقال : "اللهُمَّ بارِكْ لِأُمَّتِي فى بُكُورها يَوْمَ خميسها" . ويسمُّون الجمعــة العَرُوبة (بفتح العين مع الألف واللام) وفى لغة شاذّة عَرُوبة بغير ألف ولام مع عدم الصرف، ومعناه اليوم البيِّن أخذا من قولهم أعرب إذا أبانَ، والمراد أنه بَيِّنُ العظَمة والشَّرَف، إذ لم يزل معظَّما عند أهل كل ملة وجاء الإسلام فزاده

(١) وجُمُعات أيضا بضمتين . قال فى المصباح كغرفات فى وجوهها .

تعظيما ؛ وقد ثبت فى صحيح مسلم من رواية أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "خَيْرُ يومٍ طَلَعَتْ عليه الشمسُ يومُ الجمعة، فيه خُلِق آدمُ، وفيه دَخَل الجنَّةَ، وفيه أُخْرِجَ منها" . ويسمُّونه أيضا حَرْبَةَ بمعنىٰ أنه مرتفع عالٍ كالحَرْبة التى هى كالرُّمْح ، كما يقال مِحْراب لآرتفاعه وعلوِّ مكانته ؛ ويسمُّون السبت شَيارًا (بفتح الشين المعجمة وكسرها مع الياء المثناة تحتُ) أخذا من شُرْت الشىء إذا آستخرجْته وأظهرْته من مكانه إمّا بمعنىٰ أنه آستخرج من الأيام التى وقع فيها الخَلْق علىٰ مذهب من يرىٰ أنه آخر أيام الأسبوع وأن آبتداء الخلق الأحدُ وآنتهاءه الجمعةُ ، وإما بمعنى أنه ظهر أوّل أيام الجمعة علىٰ مذهب مَنْ يرىٰ أنه أوّل الجمعة وكان ابتداء الخلق فيه ، وإلىٰ هذه الأسماء يشير النابغة بقوله :

أؤمّل أنْ أَعِيشَ وأنَّ يَوْمِى * لِأَوّلَ أو لِأَهْوَنَ أو جُبارِ
أو التالى دُبارِ فإن أُفُتْه * فمُؤْنِسٍ أو عَرُوبَةَ أو شِيارِ

الرواية الثالثة — ماحكاه النحاس عن الضَّحَّاك : إن الله تعالىٰ خلق السمٰوات والأرض فى ستة أيّام، ليس منها يوم إلا له آسمٌ أَبْجَد هَوَّز حُطِّى كلمن سعفص قرشتْ . وقد حكى السهيلى رحمه الله أن الأسماء المتداوَلة بين الناس الآن مرويَّة عن أهل الكتاب، وأن العرب المستعرِبة لما جاورتْهم أخذتها عنهم ، وأن الناس قبل ذلك لم يكونوا يعرِفون إلا الأسماءَ التى وضعتها العرب العاربةُ : وهى أبجد هَوَّز حُطِّى كلمن سعفص قرشَتْ التى خلق الله تعالىٰ فيها سائر المخلوقات : عُلْويَّها وسُفْلِيَّها . وهذا يخالف ما تقدّم فى الرواية الثانية عن العرب العاربة . وعلىٰ أنها أسماءٌ للأيام التى وقع فيها الخلق يحتمل أن يكون أبجد آسما للأحد علىٰ مذهب من يرىٰ أن آبتداء الخلق يوم الأحد ويكون السبت لا ذكر له فى هذه الرواية[1] .

---

(١) أسقط الناسخ الآحتمال الثانى وقد ذكره فى الضوء بقوله (ويحتمل أن أبجد اسم للسبت على رأى من يرىٰ أنه ابتدئ فيه الخلق وتكون الجمعة لا ذكر لها) .

المُــــدْرَك الثـالث

(فى بيان أوّل أيام الأُسبوع، وما كان فيه ٱبتداء الخلق منها .
وقد ٱختلف الناس فى ذلك على ثلاثة مذاهبَ)

المذهب الأوّل ـ أن أوّل أيام ٱلأسبوع وٱبتداءِ الخلق الأحدُ . وٱحتج لذلك بما تقدّم من حديث ٱبن عباس "أن اليهودَ أتت النبى صلى الله عليه وسلم فسألَتْه عن خلق السمٰواتِ والأرض فقـال خلَق اللهُ عز وجلّ الأرضَ يومَ الأحدِ" الحديث وبحديثه الآخر "خلق اللهُ يومًا واحدا فسمّاه الأحَدَ" وإذا كان ابتداء الخلق الأحدَ لزم أن يكون لأوّل الأسبوع الأحد .

المذهب الثـانى ـ أن أوّل أيام الأسبوع وٱبتداء الخلق السبتُ . وٱحتج له بحديث أبى هريرة المتقدّم "أخذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيدِى فقال خَلَق اللهُ التُّرْبةَ يومَ السبْت" الحـديثَ ، وإذا كان ٱبتداءُ الخلْق السبتَ لزم أن يكون أوّلُ الأسبوع السبتَ .

المذهب الثـالث ـ أن أوّلَ أيام الأســبوع الأحدُ ، لحديث "خَلَقَ اللهُ يومًا وَاحِدًا فَسَمَّاهُ الأحَدَ ثُمّ خَلَقَ ثانِيًا فَسَمَّاهُ الاْثْنَـينِ" الحـديث . وٱبتداءُ الخلقِ يومَ السبت لحديث أبِى هريرةَ المتقدّمِ . قال النحاس : وهذا أحسنها .

المُــــدْرَك الرابع

(فى التفاؤلِ بأيام الأســبوع والتطيُّرِ بها وما يُعْزَىٰ لكلٍّ منهَا
من خير أو شرٍّ، علىٰ ماهو متداوَل بين الناس)

وٱعلم أنه لاأصل لذلك من الشريعة، ولم يرد فيه نصٌّ من كتاب ولا سنة . وقد وردت القرعةُ عن جعفر الصادق رضى اللهُ عنه فى توزيع الأعمـال علىٰ الأيام: أنه قال : السبت يوم مكْرٍ وخَديعةٍ؛ ويوم الأحد يوم غَرْسٍ وعِمَارةٍ؛ ويومُ الاثنين

يوم سفر وتجارة؛ ويوم الثلاثاء يوم إراقة دمٍ وحربٍ ومُكافحَة؛ ويوم الأربعاء يوم أخذٍ وعطاءٍ؛ ويقال يوم نحسٍ مستمرّ؛ ويوم الخميس يومُ دخول على الأمراء وطلَبِ الحاجات؛ ويوم الجمعة يوم خَلْوة ونكاح . ووجهوا هذه الدعوى بأن قريشا مكَرَتْ فى دار الندوة يوم السبت، وأن الله ابتدأ الخلق يومَ الأحد، وأن شعيبا سافر للتجارةِ يومَ الاثنين، وأن حوّاءَ حاضتْ يوم الثلاثاء، وفيه قتَل قابيلُ هابيلَ أخاهُ، وأن فرعونَ غَرِق هو وقومُه يومَ الأربعاءِ، وفيه أهلك اللهُ عادًا وثمودًا[1]، وأن إبراهيمَ دخل على النَّمرودِ يومَ الخميس، وأن الأنبياءَ عليهم السلامُ كانت تَنْكِحُ وتخطُب يومَ الجمعةِ. وقد نظم بعض الشعراء هذه الاختيارات فى أبياتٍ وإن كان قد خالف الواضعَ فى مواضعَ فقال:

لَنِعْمَ اليومُ يومُ السَّبْتِ حقًّا * لصيدٍ إن أرَدْتَ بِلا امتراءِ
وَفِى الأحَد البِناءُ فإنَّ فيهِ * تَبَدّى اللهُ فِى خَلْقِ السماءِ
وَفِى الإثْنَيْنِ إن سَافرْتَ فيهِ * سَتَرجعُ بالنجاحِ وبالغناءِ
وَإن تُرِدِ الحِجامَةَ فِى الثّلاثا * ففى ساعَاتِهِ هَرْقُ الدِّمَاءِ
وَإنْ شَرِبَ امرؤٌ منكم دَوَاءً * فَنِعْمَ اليومُ يومُ الأربعَاءِ
وَفِى يوم الخميس قضَاءُ حَاجٍ * فإنَّ اللهَ يأذَنُ بالقَضاءِ
وَيومَ الجُمْعَةِ التَّزويجُ حقًّا * وَلَذّاتُ الرِّجَالِ مَعَ النِّسَاءِ

وسيأتى الكلامُ على ما يتعلق من ذلك بأيامِ الشهرِ فى الكلام على الشُّهورِ فى الفصْلِ السابِع من الكتاب إن شاء الله تعالى .

---

(١) ثمود يصرف ولا يصرف .

الطرف الثـانى

(فى الشُّهورِ، وهى علىٰ قسمين : طبيعىٍّ وآصطلاحىٍّ)

القسم الأوّل

(الطّبيعىّ والمراد به القمرىّ)

وهو مدّة مَسِير القمر من حين يفارق الشمسَ إلىٰ حين يفارقها مرة أخرىٰ :

وهى علىٰ ضربين :

الضربُ الأوّلُ

(شُــهُورُ العَــرَب)

والشهرُ العربىُّ عبارة عَمّـا بين رؤيةِ الهلال إلىٰ رؤيته ثانيا، وعددُ أيامه تسعةٌ وعشرونَ يوما ونصفُ يومٍ علىٰ التقريب ، ولمـا كان هـذا الكسرُ فى العددِ عَسِرًا عدّوا جملةَ الشهرين تسعةً وخمسينَ يوما، أحدُهما ثلاثونَ وهو التام، والآخر تسعةٌ وعشرونَ وهوَ الناقص. وقد ثبتَ فى صحيح مسلم من حديث أُمِّ سَلَمَةَ رضى اللهُ عنها «أن النبىَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حَلَفَ لا يدخُل علىٰ بعضِ نسائهِ شَهْرًا فلمامضىٰ تِسعةٌ وعشرونَ غَدا عليهِــمْ أو رَاحَ فقيــلَ يا رسولَ الله حلفتَ لا تدخلُ عليهنّ شهرًا فقالَ الشهرُ يكونُ تسعة وعشرينَ» . وذلك بحسب مَسِيرِ النيِّرينِ : الشمْسِ والقَمرِ بالمسيرِ الأوسط . أما بالمسـير المقوّم فإنه يتفق إذا آســتكمل الشهرُ برؤيةِ الهلال عِيانا أن يتوالىٰ شهران وثلاثة تامّةً ونتوالىٰ كذلك ناقصةً وعلىٰ ذلك عَمَلُ العربِ واليهود .

ولهمْ فى آستعمالهِ طريقتَان .

الطَّرِيقةُ الأولىٰ

(طَرِيقَــةُ العَــرَب)

ومُدّةُ الشهرِ عنــدهُم من رُؤيةِ الهــلالِ إلىٰ رُؤيةِ الهــلالِ، وهى أسهلُ الطُّرُقِ وأقرَبُهَا، وعليها جاء الشرْعُ، و بها نطقَ التنزيلُ قال تعالىٰ ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ . وفيها جملتان :

الجمـــلةُ الأولىٰ

(فى أحوالِ الأهِلَّةِ التى عليها مدارُ الشهورِ فى ٱبتدائها وٱنتهائها)

واعلم أن مسيرَ القمرِ مقدّرٌ بمعرفةِ الشهورِ والسنين قال تعالىٰ ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْــلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ والشمسُ تُعْطِيــه فى كلِ ليلةٍ ما يَسْتَضِىءُ بِه نصفُ سُبُعِ قُرْصِهِ حتّٰى يَكْمُلَ ثم تسلبه من الليلة الخامسة عشْرَةَ كلَّ ليلةٍ نصفَ سُبعِ قرصه حتّٰى لا يبقىٰ فيه نورٌ فيستتر . و يروىٰ عن جعفر الصادق رضى اللهُ عنه أنهُ سُئِلَ عن القمرِ فقال : يُمحق كل ليلةٍ و يُولَدُ جديدا، ويبعدُ مثل هذا عن جعفر الصادق .

إذا علمتَ ذٰلك فالقمر حركتان : سريعة و بطيئة كما تقدّم فى الشمس .

أما الحركةُ السريعــةُ فحركةُ فلَك الكلِّ بِه من المشرق إلىٰ المغرب، ومن المغربِ إلىٰ المشرق فى اليومِ والليلةِ .

وٱعلم أن الهلال إذا طلَع مع غُروبِ الشمسِ كان مَغيبُــه علىٰ مضىِّ ستة أسباعِ ساعةٍ من الليلِ، ولا يزال مغيبه يتأخر عن مغيبه فى كل ليلة ماضية هذا المقدارَ حتّٰى يكون مغيبه فى الليلة السابعة نصفَ الليلِ، وفى الليلة الرابعة عشرةَ طلوعَ الشمسِ،

ثم يكون طلوعه فى الليلة الخامسة عشرة علىٰ مضىّ ستة أسباع ساعة منها، ولا يزال طلوعه يتأخر عن طلوعه فى كل ليلة ماضية بعد الإبدار هذا المقدار حتّى يكون طلوعه ليلة إحدىٰ وعشرين نصفَ الليل، وطلوعه ليلة ثمان وعشرين مع الغَدَاة .

وإذا أردت أن تعلم علىٰ مضىّ كم من الساعات يغيب أو يطلُع من الليـل، فإن أردت المغيب وكان قد مضىٰ من الشهر خمسُ ليال تقديرا فٱضربها فى ســتة تكون ثلاثين فأسقطها سبعة سبعة يبقىٰ ٱثنان فيكون مغيبه علىٰ مضىّ أربع ساعات وثلاثة[(١)] أسباع ساعة ، وكذلك العمل فى أىّ ليـلة شئت ؛ وإن أردت الطلوع وكان قد مضىٰ من الإبدار ستُّ ليال مثلا فٱضرب ستة فى ستة يكون ستة وثلاثين فأسقطها سبعةً ســبعةً يبقىٰ واحد، فيكون طلوعه علىٰ خمس ساعات وسبع ، وكذلك العمل فى أىّ ليلة شئت .

وقد قسمت العرب ليالىَ الشهر بعـد ٱســتهلاله كلَّ ثلاثة أيام قسما وسمتها بٱسم فالثلاث الأُوَل منهـا هِلال ، والثلاث الثانية قَمَـر ،والثلاث الثالثة بُهْر، والثلاث الرابعةُ زُهْر (والزَّهَر البياض)، والثلاثُ الخامسة بِيضٌ : لأن الليالى تَبْيَضُّ بطلوع القمر فيها من أوّلهـا إلىٰ آخرها، والثلاث السادسةُ دُرْع : لأن أوائلها تكون سُودا وسائرها بِيضٌ ، والثلاث السابعة ظُلَم، والثلاث الثامنة حَنَادِس ، والثلاث التاسعة دَآدِئُ (الواحدةمنها دَأْدَأَة علىٰ وزن فَعْلَلة)، والثلاث العاشرة ليلتان منها مِحَاق وليلة سِرَار لإمحاق الشمس القمرَ فيها .

ومنهم من يقول ثلاثُ غُرَر : (وغُرَّة كلِّ شئ أوّله) ، وثلاث شُهْب ، وثلاث زُهْر، وثلاث تُسَع[(٢)] : لأن آخر يوم منها اليوم التاسع، وثلاث بُهْر، بُهِر فيها ظلامُ الليل، وثلاثُ بِيض، وثلاث دُرْع، وثلاث دُهْم وحُم وحَنَادِس، وثلاث دَآدِئُ . ويروىٰ عنهم أنهم يسمُّون ليـلة ثمـانٍ وعشرين الدَّعْجاء، وليـلة تِسْع وعشرين

(١) لعل الصواب وسبعان كما هو واضح (٢) لعل هذه الثلاثة قبل التى قبلها بدليل التعليل .

الدَّهْماء، وليلة ثلاثين اللَّيْلاء، وهم يقولون فى أسجاعهم : القمر ٱبن ليله، رَضاعُ سُخَيله، حَلَّ أهلُها برُمَيْله ؛ وٱبن ليلتين حديثُ أَمَتَيْن، كَذِبٌ ومَيْن؛ وٱبن ثلاث، قليل اللَّبَاث؛ وٱبن أربع، عَتَمة أُمِّ رُبَع، لاجائع ولامُرْضَع ؛ وٱبن خمس، حديثٌ وأُنْس، وعَشَاء خَلِفات قُعْس؛ وابن سِتّ، سِرْ وبِتّ؛ وٱبن سبع، دُلْجة ضَبْع، وحديثٌ وجَمْع؛ وابن ثمان، قمرٌ إضْحِيَان؛ وٱبن تسع، مُحْذُوٌّ النِّسْع، ويقال الشِّسْع ؛ وٱبن عَشْر، مُخَنق الفَجْر، وثُلُثُ الشَّهر .

هذا هو المحفوظ عن العرب فى كثير من الكتب .

قال صاحب مناهج الفكر : وعثرت فى بعض المجاميع علىٰ زيادة إلىٰ آخر الشهر، وكأنها والله أعلم مصنوعه، وهى علىٰ ألسنة العرب موضوعه، وهى : وٱبن إحدىٰ عشره، يُرىٰ عِشاءً ويرىٰ بُكْره، وٱبن ٱثنتى عشرة، مُرْهِق البشر[1] بالبَدْو والحَضَر، وٱبن ثلاث عشرة، قمر باهِرْ، يُعْشِى الناظر، وٱبن أربع عشرة مُقْبِل الشباب ؛ مضىءُ دُجُنَّات السَّحاب؛ وٱبن خمس عشرة تَمَّ التمـام، ونَفِدَت الأيَّام، وٱبن ستَّ عشرةَ نَقَص الخلْق، فى الغَرْب والشَّرق، وٱبن سبع عشرة، أمْكَنتِ المُقْتفرَ القفرة، وٱبن ثَمـانَ عَشرةَ قليـلُ البَقاء، سريع الفَناء؛ وٱبن تِسعَ عَشرةَ بَطِىء الطُّلوع، سَريعُ الخُشُوع؛ وابن عشرين يَطْلُع سُحْره، ويَغِيبُ بُكْره؛ وٱبن إحدىٰ وعشرين كالقَبَس، يَطْلُع فى الغَلَس؛ وٱبن ٱثنتين وعشرين يُطيـل السُّرىٰ، رَيْثَمـا يُرىٰ؛ وٱبن ثلاثٍ وعشرين يُرىٰ فى ظُلْمة الليال، لا قمرٌ ولا هِلال؛ وٱبن خمس وعشرين دنا الأَجَلْ، وٱنقطع الأَمَـل؛ وٱبن ست وعشرين دَنَا مادَنَا، فمـا يُرىٰ إلَّا سَـنا، وٱبن سبع وعشرين يَشُقُّ الشمسَ، ولا يُرىٰ له حسّ، وٱبن ثمـانٍ وعشرين ضَئيل صَـغِير لايراه إلا البَصير .

(١) فى بعض الروايات . للشمس . . . والحضره

واما حركته البطيئة ، فحركته من جهة الشمال إلىٰ جهــة الجنوب، ومن جهة الجنوب إلىٰ جهــة الشمال وتنقله فى المنازل الثمــانية وعشرين فى ثمــانية وعشرين يوما بلياليها كالشمس فى البروج قال تعالىٰ ﴿ والقَمَرَ قَدَّرْناه مَنازِلَ حَتّٰى عادَ كالعُرْجُونِ القَدِيمِ ﴾ فما تقطعه الشمس من الشمال إلىٰ الجنوب و بالعكس فى جميع السنة يقطعه القمر فى ثمــانية وعشرين يوما . والمنازل للقمر كالبروج للشمس ؛ وذلك أنه لمــا آتصل إلىٰ العرب ماحققه القدماء برصدهم من الكواكب الثابتة ، وكان لاغنًى لهم عن معرفة كواكب ترشدهم إلىٰ العلم بفصول السنة وأزمنتها ، رصــدوا كواكب وآمتحنوها، ولم يستعملوا صور البروج علىٰ حقيقتها : لأنهم قسموا فلك الكواكب علىٰ مقدار الأيام التى يقطعه القمر فيها، وهى ثمــانيةٌ وعشرون يوما، وطلبوا فى كل قسم منها علامةً تكون أبعادُ ما بينها وبين العــلامة الأخرىٰ مقدارَ مسير القمر فى يوم وليلة ، وسَمَّوْها منزلة إلىٰ أن تحقق لهم ثمــانية وعشرون علىٰ ما تقدم ذكره فى الكلام علىٰ طلوعها بالفجر : لأن القــمر إذا سار سـيْرَه الوسطَ آنتهىٰ فى اليوم التاسع والعشرين إلىٰ المحاق الذى بدأ منه، فحذفت المتكرر، فبقىَ ثمــانية وعشرين ويزاد بالشرطين : لأن كواكبه من جملة كواكب الحمل، الذي هو أول البروج .

ثم هذه المنازل علىٰ قسمين : شماليّ وجنوبيّ كما فى البروج، وكل قسم منها أربع عشرة منزلة . فالشماليُّ منها ما كان طلوعه من ناحية الشام، وتسمّى الشامية : وهو ما كان منها من نقطة الآعتدال، التى هى رأس الحمل والميزان صاعدا إلىٰ جهة الشمال ،وهى : الشَّرطان، والبُطَين، والثُّريّا، والدَّبرانُ، والهَقْعة، والهَنْعة، والذِّراع، والنَّــثْرة ، والطَّرْف، والجَبْهة، والخَرَتان، والصَّرفة، والعوّاء، والسِّماك . وبطلوعها يطول الليــل ويقصر النهار . والجنوبيّ منها ما كان طلوعه من ناحية اليمن وتسمّى اليمــانية : وهو ما كان منها من نقطة الآعتدال المذكور هابطا إلىٰ جهة الجنوب .

وهى : الغَفْر، والزُّبانان، والإكْليل، والقَلْب، والشَّوْلة، والنَّعائِم، والبَلْدة، وسَعدُ الذابحُ، وسَعْدُ بُلَعَ، وسَعْدُ السُّعود، وسعدُ الاخبيةِ، والفَرْغُ المقدّم، والفَرْغُ المؤخَّر، وبطن الحوت؛ و بطلوعها يقصُر الليل و يطولُ النهار .

ثم المنزلة عند المحققين قِطْعة من الفلك مقدارها رُبْعُ سُبْعِ الدور، وهو جزء من ثمانية وعشرين جزءا من الفلك عبارة عن (١) لا عن الكواكب، وإنما الكواكب حدود تَفْرُق بين كل منزلة وأُخْرىٰ، فعُدل بالتسمية إليها وغلبتْ عليها .

ونزول القمر فى هذه المنازل علىٰ ثلاثة أحوال إما فى المَنْزِلة نفْسِها وإما فيما بينها وبين التى تليها وإما محاذِياً لهـا خارجًا عن السمت شَمَـالا أو جَنُوبا . وقد تقـدّم الكلام علىٰ عُدُول القمر عن بعض المنازل ونزوله فى غيرها .

ولتَعْلَمْ أن المنازل مقسومةٌ علىٰ البروج الأثْنَىْ عَشَر موزعةٌ عليها : فالشَّرَطان والبُطَين وثلثُ الثريا للحَمَل ، وثلثا الثُّرَيَّا والدَّبَرانُ وثلثـا الهَقْعة لِلثَّور، وثلثُ الهَقْعة والهَنْعـةُ والذِّراع للجَوْزاء ، والنَّثْرةُ والطَّرْف وثلُث الجَبْهة للسَّرَطان ، وثلثـا الجبهة والخَرَتان وثلثـا الصَّرفة للأَسـد ، وثلث الصَّرفة والعوَّاءُ والسِّماكُ للسُّنْبُلة ؛ والغَـفْر والزُّبانان وثُلُث الإكليل للميزان، وثلثا الإكليل والقلبُ وثلثا الشولة للعقرب؛ وثلث الشولةِ والنعائم والبلدة للقَوْس، وسعدُ الذابح وسعدُ بُلَعَ وثلث سعد السعود للجَدْى(٢)، وثلث الفرغ المقدّم والفرغ المؤخر وبطن الحوت للحوت .

إذا علمت ذلك فإذا أردت أن تعرف القمرَ فى أىّ منزلة هو أوكَمْ مضىٰ له فيها من الأيام ، فخذ ما مضىٰ من سنة القبط شهورا كانت أو أياما أو شهورا وأياما

(١) بياض بالاصل .

(٢) يظهر أن فيه سقطا هو [وثلثا سعد السعود وسعد الأخبية وثلثا الفرغ المقدم للدلو] .

وآبسُطْها أياما ، وأضف إلىٰ ما حصــل من ذلك يومين ، ثم آطرح المجموع ثلاثةَ عشَرَ ثلاثةَ عشَرَ، وهو عدد لُبْث القمر فى كل منزلة من الأيام ، وآجعـل أوّل كل منزلة من العدد الخرتان، فمـا بقى من الأيام دون الثلاثة عشر فهو عدد مامضىٰ من المنزلة التى آنتهى العدد إليها .

مثال ذلك أن يمضىَ من سَـنَة القبط شهر توت وأربعــة أيام من بابه فتبسطها أياما تكون أربعة وثلاثين يوما فتضيف إليها يومين تصير ستة وثلاثين يوما فاطرح منها ثلاثة عشر مرتين بسـتة وعشرين للخرتان منها ثلاثة عشر وللصَّرْفة ثلاثة عشر تبقىٰ عشرة، وهى مامضىٰ من المنزلة الثالثة وهى العوّاء .

وإن أردت أن تعرف فى أىّ برج هو فاحسُبْ كم مضىٰ من الشهر العربىّ يوما وزد عليه مثله ثم زد علىٰ الجملة خمسةً وأعط لكل برج خمسة وآبدأ من البرج الذى فيه الشمس فأعط لكل برج خمسة فأينما نَفِد حسابُك فالقمر فى ذلك البرج، والآعتماد فى ذلك علىٰ كم مضىٰ من الشهر العربىّ بالحساب دون الرؤية والله أعلم .

الجمـــلة الثـانية

(فى أسمـائها : وفيها روايتان)

الرواية الأولىٰ ــ مانطقت به العرب المستعرِبة، وجرىٰ عليه الآستعمال إلىٰ الآنَ وقد نطق القرءان الكريم بصِدْقها قال تعالىٰ : ﴿ إنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ آثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فى كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ﴾ والمراد شهور العرب الذين نزل القرءان بلغتهم ، ومدارها الأهلّة سواء جاء الشهر ثلاثين أو تسـعةً وعشرين . الشهر الأوّل منها المحرّم، سمِّى بذلك لأنهم كانوا يحرّمون فيه القتالَ، ويجمع علىٰ مُحرَّمات ومَحَـارِم ومَحَاريم . الشهر الثانى صَفَر، سمى بذلك لأنهم كانوا يُغيرون فيه علىٰ بلاد يقال لهـا

الصَّفَرِيَّة ، ويجمع علىٰ صَفَرَات وأصْفار وصُفُور وصِفَار. الشهر الثالث ربيع الأوّل سمى بذلك لأنهم كانوا يُحَصِّلون فيه ما أصابوه فى صَفَرَ . والرَّبيع فى اللغة الخِصْب ، وقيل لآرتباعهم فيه . قال النحاس والأول أولىٰ بالصواب ، ويقال فى التثنية رَبِيعان الأوّلان وفى الجمع رَبِيعات الأوّلاتُ . ومن شرط فيه إضافة شهر قال فى التثنية شهرا ربيع الأوّلان وفى الجمع شَهرات ربيع الأوّلات والأوائل ، وإن شئت قلت فى القليل أشهر وفى الكثير شهور ، وحكى عن قطرب الأَرْبِعة الأوائل ، وعن غيره رُبُعُ الأوائلُ . الشهر الرابع ربيع الآخر — والكلام فى تسميته وتثنيته وجمعه كالكلام فى رَبيع الأوّل . الشهر الخامس جمادىٰ الأولىٰ ، سمى بذلك لجمود المـاء فيه : لأن الوقت الذى سُمِّى فيه بذلك كان المـاء فيه جامدًا لشـدّة البَرْد ، ويقال فى التثنية جُمَادَيَان الأُولَيَان وفى الجمع جُمادَيات الأُولَيَات . الشهر السادس جمادىٰ الآخرة — والكلام فيه تسميةً وتثنيةً وجمعًا كالكلام فى جُمَادىٰ الأولىٰ . الشهر السابع رجب ، سمى بذلك لتعظيمهم له أخذا من الترجيب : وهو التعظيم ، ويجمع علىٰ رَجَبات وأرْجاب ، وفى الكثرة علىٰ رِجَاب ورُجُوب . الشهر الثامن شَعْبان ، سمى بذلك لتشعُّبهم فيه لكثرة الغارات عقِبَ رَجَب ، وقيل لتشعب العود فى الوقت الذى سُمِّى فيه . وقيل لأنه شَعَبَ بين شهرىْ رجبَ ورمضانَ ويجمع علىٰ شَعْباناتٍ وشعابة[1] علىٰ حذف الزوائد ، وحكىٰ الكوفيون شَعَابِينَ ، قال النحاس وذلك خطأ علىٰ قول سيبويه كما لايجوز عنده فى جمع عُثْمان عَثَامِين . الشهر التاسع رمضان — سمى بذلك أخْذًا من الرمضاء لأنه وافق وقتُ تسـميته زمَنَ الحرّ ، ويجمع علىٰ رَمَضانات وحكى الكوفيون رَمَاضِين ، والقول فيه كالقول فى شَعَابِين ، ومَنْ شرط فيه لفظ شهر قال فى التثنية شَهْرا رَمضانَ وفى الجمع شَهْرات رمضانَ وأشْهُر رمضان وشُهور رمضان . الشهر العاشر شوّال سمى بذلك أخذا من شالَتِ الإبل بأذنابها إذا حملت : لكونه أوّل شهور الحج وقيل من

(١) لعله وشعاب . بدون الهـاء .

شال يَشُول إذا ٱرتفع : ولذلك كانت الجاهليـة تكْرَه التزويج فيه لما فيه من معنىٰ الإشالة والرفع إلىٰ أن جاء الإسلامُ بهَدْم ذلك . قالت عائشةُ رضى الله عنها فيما ثبت فى صحيح مسـلم "تزوَّجَنِى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فى شوّالٍ وبَنىٰ بِى فى شوّالٍ فأىُّ نِسائِهِ كان أحظَى عنده مِنِّى" ويجمع علىٰ شوَّالات وشَواوِيل وشَواوِل . الشهر الحادى عشر ذو القِعدة، ويقال بالفتح والكسر، سمِّى بذلك لأنهم كانوا يَقْعُدُون فيه عن القتال لكونه من الأشهُر الحرم، ويجمع علىٰ ذَوات القَعدة، وحكى الكوفيون أُولاتُ القَعْدة، وربما قالوا فى الجمع ذات القعدة أيضا . الشهر الثانى عشر ذو الحِجة سمى بذلك لأن الحجَّ فيه، والكلام فى جمعه كالكلام فى ذى القَعْدة . ثم من الأشهر المذكورة أربعة أشهر حُرُم كما قال تعالىٰ : ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُم ﴾ وقد أجمعت العلمـاء علىٰ أن الأربعة المذكورة هى رَجَب وذُو القَعدة وذو الحِجَّة والمحرَّمُ . وقد ٱختلف فى الٱبتداء بعـددها فذهب أهـل المدينة إلىٰ أنه يُبْتدأ بذى القَعدة فيقال ذو القَعدة وذو الحِجَّة والمحرمُ ورجَب ، ويحتجُّون علىٰ ذلك بأنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم عدّها فى خُطْبة حجَّة الوَداع كذلك فقال "السَّنَةُ ٱثْنا عَشَرَ شَهْرا ، منها أربعةٌ حُرُم ، ثلاثةٌ مُتَوالِياتٌ وواحِدٌ فَرْدٌ : ذُو القَعْدة وذُو الحِجَّة والمحرَّم ورَجَب" وٱختاره أبوجعفر النحاس . وذهب أهل الكوفة إلىٰ أنه يبتدأُ بالمحرَّم فيقال المحرّم ورجب وذُو القَعْدة وذو الحِجَّة : ليأتوا بها من سنة واحدة وإليه ميلُ الكُتّاب . قال النحاس : ولا حُجَّةَ لهم فيه لأنه إذا عُلِم أن المقصود ذكرها فى كل سنة فكيف يتوهم أنها من سنتين . وكانت العربُ فى الجاهلية مع ماهم عليه من الضَّـلال والكُفْر يعظِّمون هذه الأشهرَ ويحرّمون القتالَ فيها حتّى لولَقِىَ الرجلُ فيها قاتلَ أبيه لم يهِجْه، إلىٰ أن حَدَث فيهم النسىُ فكانوا يُنْسِئُون المحرّم فيؤخرونه إلىٰ صَـفَر فيحرّمونه مكانه ويُنْسِئُون رجبًا فيؤخِّرونه إلىٰ شَعْبان فيحرّمونه مكانَه ليستبيحوا القتال فى الأشهر الحرم .

وآعلم أنه يجوز أن يُضاف لفظُ شهر إلى جميع الأشهر فيقال شَهْر المحرم، وشهرُ صَفَر، وشهر ربيع الأوّل وكذا فى البواقى . على أنّ منها ثلاثةَ أشهر لم تكد العرب تنطِقُ بها إلا مضافةً إليها، وهى شهرا ربيع وشهر رمضان؛ ويؤيد ذلك فى رمضان ما ورد به القرءان من إضافته قال تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ القُرْءانُ﴾ وقد روى عثمان بن الأسود عن مجاهد أنه قال "لاتقُلْ رمضانُ ولكن قل كما قال الله عز وجل شَهرُ رمضان فإنك لا تدرى ما رمضان" وعن عطاء نحوه وأنه قال لعلّ رمضانَ آسمٌ من أسماء الله تعالى، لكن قد ثبت فى الصحيحين من رواية أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال "إذا جاء رمضانُ أُغْلِقَتِ النِّيرانُ وصُفِّدَتِ الشَّياطِينُ" الحديث . وهذا صريح فى جواز تعريته عن الإضافة .

وقد آختلف الناس فى ذلك على ثلاثة مذاهبَ أصحها أنه يجوز تعريته عن لفظ شهر مطلقا ، سواء قامت قرينة أم لا فيقال جاء رمضان وصُمتُ رمَضانَ، وما أشبه ذلك وهو مارجّحه النووىّ فى شرح مسلم . والثانى المنعُ مطلقا، والثالث إن حَفَّت قرينة تدلّ على الشهر كما فى قوله صُمتُ رمضان فقد جازت التعرية ، وإن لم تَحُفَّ قرينة لم تجُزْ، وزاد بعضهم فيما يضاف إليه لفظ شهر رَجبٌ أيضا . وقال كل شهر فى أوّله حرف راء فلا يقال إلا بالإضافة . ويقال فى المحرَّم أيضا شهر الله المحرَّم ويقال فى الربيعين ربيع الأوّلُ وربيع الآخِرُ وفى الجُمادَيْنِ جُمادى الأولى وجُمادى الآخِرة . قال آبن مكىّ : ولا يقال جمادى الأوّل بالتذكير وجوّزه فى كلامه على "تثقيف اللسان"

قال النحاس وإنما قالوا ربيع الآخِر وجمادَى الآخِرة ولم يقولوا ربيع الثانى وجمادى الثانية كما قالوا السنة الأولى والسنة الثانية : لأنه إنما يقال الثانى والثانية لما له ثالث وثالثة ، ولما لم يكن لهذين ثالثٌ ولا ثالثةٌ قيل فيهما الآخِر والآخِرةُ

كما قيل الدنيا والآخرة، على أن أكثر آستعمال أهل الغرب على ربيع الثانى وجمادى الثانية . ويقال فى رجب الفَرْدُ : لآنفراده عن بقية الأشهر الحُرُم، ويقال فيه أيضا رجبُ مُضَرَ الذى بين جُمَادى وشَعْبان، ويقال فى شَعْبان المكرَّم لتكرمته وعلوّ قدره، وفى رمضان المُعظَّم والمعظم قدرُه : لعظمته وشرفه، وفى شوّال المُبارَك : للفرق بينه وبين شعبان خشيةَ الآلتباس فى الكتابة، ويقـال فى كلٍّ من ذى القَعدة وذى الحِجَّة الحَرَام . قال النحاس وقد جاء فى ذى الحجة أيضا الأَصَمُّ ، وروى فيه حديثا بسنده من رواية مُرَّة الهَمْدانى عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قام فينَا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم خطيباً على ناقةٍ حمراءَ مُخَضْرَمةٍ[1]، فقال : أتَدْرُونَ أىُّ يومٍ يومُكم هذا ؟ قلنا : يومُ النحْر قال : صدَقْتُم يومُ الحجِّ الأكبرِ، أتَدْرُونَ أىُّ شَهْر شهْرُكُم هذا؟ قلنا : ذو الحِجَّة قال: صدَقْتم شَهْرُ الله الأَصَمُّ .

الرواية الثانية ــ ما رُوِى عن العرب العاربة، وهو أنهم كانوا يقولون فى المحرّم المُؤْتَمِر : أخْذا من أَمِرَ القومُ إذا كثُروا بمعنى أنهم يحرّمون فيه القتالَ فيكثُرون . وقيل أخْذا من الآئتمار بمعنى أنه يؤْتَمَـر فيه بترك الحرب، ويجمع على مؤتَمِرات ومآمِرَ ومآمِيرَ . ويقولون فى صفر ناجِر إما من النَّجْر والنِّجار (بفتح النون وكسرها) الأصلِ، بمعنى أنه أصل للحرب : لأنه يبتدأ فيه بعد المحرّم، وإما من النَّجْر وهو السَّوْق الشديد . لشدّة سَوْقِهم الخيلَ إلى الحرب فيه ، وإما من النجر ، وهو شدّة الحرّ لشدّة حرارة الحرب فيه، ويجمع على نواجر . ويقولون فى شهر ربيع الأوّل خَوّان (بالخاء المعجمة) : لأن الحرب تشتدّ فيه فتخونهم فتَنْقُصهم : ويجمع على خَوَّانات وخَوَاوِين وخَوَاوِن . ويقولون فى ربيع الآخِرِ وَبْصـان ، أخذا من الوَبِيص وهو البَرِيق : لبَرِيق الحديد فيـه : ويجمع على وَبْصانات، وحكى قطربٌ فيـه بُصّان فيجمع على أَبْصِنةٍ

(١) أى قطع طرف أذنها . قاموس .

وفى الكثرة بِصْنَان . ويقولون لجمادى الأولى حَنِين : لأنهم يحنُّون فيه إلى أوطانهم : لكونه كان يقع فى زمن الربيع ، ويجمع على أحِنَّة وحُنُن كرغيف ورُغُف . ويقولون لجمادى الآخرة رُنّى ورُبَّة : لأنه يجتمع به جماعة من الشهور التى ليست بحُرُم : وهى مابعد صفر . قال أبو عبيد رُبَّان كل شئ جماعته ، ويجمع على رُبِّيات ورَبَايَا مثل حَبَالى . ومن قال رُبَّة جمعه على مآريب (١) . ويقولون فى رجب الأصمّ : لما تقدّم من أنه لايُسمع صوتُ السلاح ولا الاستغاثات فيه ، ويجمع على أَصَامّ . قال النحاس ولا تقل صمّ لأنه ليس بنعت كما أنك لو سمّيت رجلا أحمر جمعته على أَحامِر ولم تجمعه على حُمْر . ويقولون فى شعبان عادِلٌ ، بمعنى أنهم يعدلون فيه عن الإقامة لتشعبهم فى القبائل ويجمع على عَوادِل . ويقولون فى رمضان ناتِقٌ : لكثرة المال عندهم فيه لإغارتهم على الأموال فى الذى قبله ، ويجمع على نَواتِق . ويقولون فى شوّال وَعِلٌ أخذا من قولهم : وَعَلَ إلى كذا إذا لجأ إليه لأنهم يهربُون فيه من الغارات لأن بعده الأشهرَ الحُرُم فيلجئُون فيه إلى أمكنة يتحصَّنون فيها ، ويجمع على أوعال ككَتِف وأكتاف ، وفى الكثرة وُعُول . ويقولون فى ذى القَعْدة وَرْنَة والواو فيه منقلبة عن همزة أخذا من أَرِن إذا تحرّك : لأنه الوقت الذى يتحرّكون فيه إلى الحج ، أو من الأُرُون ، وهو الدنوّ : لقُرْبه من الحج ويجمع على وَرَنات ووِران كجِفان . ويقولون فى ذى الحجة بُرَكُ ، غيرَ مصروف : لأنه معدول عن بارك ، أو على التكثير كما يقال رجل حُكَم وهو مأخوذ من البَرَكة : لأن الحج فيه ، أو من بَرْك الجمل لأنه الوقت الذى تَبْرُك فيه الإبل للوسم ، ويجمع على بِرْكان مثل نُغَرٍ ونِغْران .

وفى هذه الأسماء خلاف عند أهل اللغة والمشهور ماتقدّم ذكره .

---

(١) كذا فى الضوء أيضا ولعله مصحف عن رِبَاب أو رُبَب تأمل

وقد نظم بعضهم ذلك فى أبيات على الترتيب فقال .

بمؤتمرٍ وناجرٍ ابتـــدأنا * وبالحَوّانِ يتبعه البُصانُ

ورُبّى ثم أيِّدة تليـــه * تَعُود أصمَّ صُمَّ به السِّنَان

[وعادِلة وناطِــلة جميعـا * وواغِلةٌ فهم غُرَر حِسان] (١)

ووَرْنةٌ بعدها بُرَكٌ فتمّت * شُهورُ الحول يُعْرِبها البَيانُ

ثم للنـاس فى إخراج أوّل الشهر العربىّ طُرُق، أسهلها أن تعرِفَ أوّلَ يوم من المحرَّم ، ثم تعدّ كم مضى من السنة من الشهور بالشهر الذى تريد أن تعرِف أوّله وتَقْسِمها نصفين ، فإن كان النصــف صحيحا أضفتَ على الجملة مثل نصفه، وإن كان مكسورا كمّلته وأضفته على الجملة ، ثم تبتدئ من أوّل يوم من الســنة وتعدّ منه أياما على توالى أسماء الأيام بعدد ماحصل معك من الأصل والمضاف فحيث آنتهى عدَدُك فذلك اليومُ هو أوّلُ الشهر .

مثال ذلك فى الصحيح النصــف : إن أردت أن تعرِف أوّلَ يوم من شــعبانَ وكان أوّلُ المحرَّم يوم الأحد مثــلا فتعدّ من أوّل المحرم إلى شــعبان وتدخل شعبان فى العدد فيكون ثمــانية أشهر فتقسمها نصفيْنِ يكون نصفُها أربعةً فتضيف الأربعةَ إلى الثمانية تكون آثنى عَشَر، ثم تبتدئ من يوم الأحد الذى هو أوّلُ المحرّم فتعدّ الأحد والآثنين والثّلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت ، ثم الأحد والآثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس فيكون آنتهــاء الآثنى عشر فى يوم الخميس فيكون أوّل شــعبانَ يوم الخميس .

ومثاله فى المكسور النصف إذا أردت أن تعرف أوّل رمضان أيضا وكان أوّل

---

(١) سقط هذا البيت من نسخة الأصل وقد وجدناه فى "نهاية الأرب" للنويرى فأثبتناه كما ترى وبه تمت عدّة الشهور .

المحرم الأحد كما تقدّم فتعدّ مامضى من شهور السنة وتعدّ منها رمضان يكون تسعة أشهر فتقسِمُها نصفين يكون نصفُها أربعةَ ونصفا فتكملها بنصف تصير خمسة فتُضيفها إلى الأصل المحفوظ وهو تسعة يكون المجموع أربعةَ عشرَ، ثم تبتدئ عدد الأيام من أوّل المحرم، وهو الأحد كما تقدّم فيكون انتهاء الرابعَ عشرَ فى يوم السبت فيكون أوّلُ رمضان يومَ السبت .

ومن الطُّرُق المعتبرة فى ذلك أن تنظُر فى الثالث من أيام النسىء من شهور القبط كم يوما مضى من الشهر العربىّ فما كان جعلته أصلا لتلك السنة، فإذا أردتَ أن تعرِف أوّلَ شهر من الشهور العربية أو كم مضى من الشهر الذى أنت فيه، فخذ الأصل المحفوظ معك لتلك السنة، وانظر كم مضى من السنة القبطية شهرا فخذ لكل شهرين يوما، فإن انكسرت الأشهر وجاءت فردا فاجبُرْها بيوم زيادة حتّى تصير زَوْجا، وزد على ذلك يومين أصلا أبدا، ثم انظر كم يومامضى من الشهر القبطىّ الذى أنت فيه فأضفه على ما اجتمع معك، وأسقط ذلك ثلاثين ثلاثين فما بقى فهو عدد ما مضى من الشهر العربىّ، ومنه يعرف أوّله .

ومثال ذلك نظرت فى الثالث من أيام النسىء فوجدت الماضى من الشهر العربىّ ثلاثة أيام فكانت أصلا لتلك السنة ثم نظرت فى الشهور القبطية فوجدت الشهر الذى أنت فيه أمشير مثلا فتعدّ من أوّل شهور السنة القبطية : (وهو توت) إلى أمشير يكون ستة أشهر فتأخذ لكل شهرين يوما تكون ثلاثة أيام فتضيفها على الأصل الذى معك من أيام النسىء : وهو ثلاثة تصير ستة فزد عليها اثنين يصير المجموع ثمانية، ثم تنظر فى الشهر القبطى الذى أنت فيه : (وهو أمشير) تجده قد مضى منه يومان فتضيفهما على المجموع يكون عشرة، وهو الماضى من الشهر العربىّ الذى أنت فيه ومنه يُعرَف أوّلُه .

الضرب الثـانى

(شهور اليهود)

والشهر عندهم من الآجتماع إلى الآجتماع ،وهو آقتران الشمس والقمرِ فى آخِر الشهر ولذلك تُوافق شهورُهم فى التقدير شهورَ العرب ، ولا تخالف أوائلَها إلا بيوم واحد فى بعض الأحيان لأسباب فى مِلَّتهم ولكنها لا تُطابق شهرا لشهر، فإنَّ شهور العرب غيرُ مكبوسة ، وشهور اليهود مكبوسة ؛ وهذه الطريقة لاتعرف إلا بتقويم الكواكب ومعرفة سير الشمس والقمر . ولذلك لايَعرِف شهورَ اليهود منهم إلا الآحادُ، وشهورهم وهى آثنا عشر شهرا بعضها ثلاثون ، و بعضها تسعة وعشرون علىٰ مايقتضيه مسير الشمس والقمر ؛ وفى السنة الكبيسة تكون شهورُهم ثلاثةَ عشرَ شهرا كما سيأتى ؛ وشهورهم توافق شهور السُّرْيان فى بعض أسمائها دون بعض ، الأوّل تشرى ، الشهر الثانى مرحشوان ، الشهر الثالث كسلا ، الشهر الرابع طابات ، الشهر الخامس شباط ، الشهر السادس آذار ، الشهر السابع نيسان ، الشهر الثامن أيَّار ، الشهر التاسع سيوان ، الشهر العاشر تموز ، الشهر الحادى عشر آب ، الشهر الثانى عشر أيلول ؛ وفى السنة التى يكبسون فيها بعد كل سنة أو بعد كل سنتين علىٰ ما سيأتى بيانه يكبسون شهرا كاملا بعد آذار وهو الشهر السادس من شهورهم ويسمونه آذار الثانى ، وسيأتى ذلك مفصلا فى الكلام علىٰ السنين إن شاء الله تعالىٰ . وقد تقدّم أنها توافق شهور العرب إلا فى القليل إلا أنها يدخلها الكَبْس لأمور فى مِلَّتهم ، وسيأتى الكلامُ علىٰ كَبْسهم عند ذكر السنين إن شاء الله تعالىٰ .

القسم الثانى

(من الشهور الاصطلاحىّ والمراد به الشمسىّ)

وهى مدّة قطع الشمس مَدَار بُرْج من بروج الفلك الاثنىْ عشَر، وذلك ثلاثون يوما وثلاثة عشر يوما[1] تقريبًا، وعليه عملُ القبط، والفرس، والسريان، والروم .

وهى على صنفين :

الصنف الأوّل

(ما يكون كلُّ شهر من شُهور السنة ثلاثين يومًا، وما فضل عن ذلك جعل نسيئا بين الشهور : وهو الشهور القبط، والفرس)

فأما شهور القبط (وتنسَب لدقلطيانوس الملك) فكل شهر منها ثلاثون يوما وأيام النسىء فى آخر الثانى عشر منها، وهى خمسة أيام .

الشهر الأوّل منها توت، ودُخُوله فى العشرين من آب من شهور السُّرْيان، وآخره السادسُ والعشرون من أيلول منها؛ فيه يُدرِك الرُّطَب، ويكثر السَّـفَرْجل والعِنَب الشَّتْوىّ، وتبتدئ المُحَمضات . وأوّل يوم منه يوم النَّيْروز وهو رأس سنة القِبْط؛ وفى سابعه يبتدئ لَقْط الزيتون؛ وفى سابع عشره عيدُ الصليب، فيـه تفتَحُ أكثرُ الترع بمصر؛ وفى ثامن عشره أوّل فصل الخريف؛ وفى تاسع عشره يبتدئ هَيَجان السوداء فى البدن؛ وفى العشرين منـه يُفْصَد البَلَسان؛ وفى الحادى والعشرين منه يبتـدئ بَيضُ النَّعام؛ وفى الرابع والعشرين منـه أوّل دى ماه من شهور الفرس؛ وفى الثامن والعشرين منـه يذهَبُ الحر؛ وفى التاسع والعشرين منـه أوّل رَعْى الكَرَاكِىّ؛ وفى الثلاثين منه وهو آخره يُزْرَع الهِلْيَوْن .

---

(١) لعله وثلاثة أعشار يوم .

الشهر الثانى بابه، ودخولُه فى السابع والعشرين من أيلول ، من شهور السُّرْيان، وآخره السادس والعشرون من تشرين الأوّل منها، فيه يُبْذَر كلُّ مالا تُشَق له الأرضُ كالبِرْسيم وغيره ؛ وفى آخره تُشَقُّ الأرض بالصعيد ؛ وفيـه يُحصَد الأرز ، ويطيب الرُّمَّان ، وتضَع الضأنُ والمَعْز والبقر الخِيسيَّة ؛ ويُستخْرَج دُهن الآس واللينوفر ، ويُدْرِك الثمرُ والزبيبُ وبعض المُحَمضات ؛ وفى ثالثه رأسُ سنة السريان ؛ وفى رابعه أوّل تشرين الأوّل من شُهُورهم ؛ وفى خامســه عُرْس النيل ؛ وفى سادسه يطيب شُرْب الدواء؛ وفى سابعه نِهايةُ زيادة النيل؛ وفى ثامنه يكره خُروج الدم؛ وفى حادى عشره يبتـدئ النيـل فى النقص ؛ وفى ثالث عشره بداية الوخم ؛ وفى رابع عشره يكثر الناموس ؛ وفى خامس عشره يبتدئ زرع القُرْط ؛ وفى سادس عشره تبتدئ كثرة السُّعال ؛ وفى تاسع عشره يبتدئ زرع السَّـلْجَم ، وفى الثانى والعشرين منه يبتدئ صَلَاح المَوَاشى ، وفى الثالث والعشرين منه تبتدئ كثرةُ الغُيوم ، وفى الرابع والعشرين منه تبتدئ أهـل مصر الزَّرْع . وفى السابع والعشرين منـه يبتدئ سِمَنُ الحيتان، وفى الثـامن والعشرين منه أوّل المدّ ، وفى التاسع والعشرين منه أوّل الليالى البُلْق .

الشهر الثـالث هتور ؛ ودخوله فى السابع والعشرين من تشرين الأوّل ؛ وآخره الخامسُ والعشرون من تشرين الثانى . فيه يُزْرَع القمح ويطْلُع البنَفْسَج والمَنْثور ، وأكثر البُقُول ، ويجمع ما بَقِى من الباذِنجـان وما يجرى مجراه ، ويُحْمَـل العنبُ من قُوص ، وفى ثانيه يبتدئ حصاد الأرز ، وفى خامســه أوّلُ تشرين الثانى من شهور السريان، وفيه يبتدئ برد المياه، وفى سادسه أوّل المَطَر الوسمىّ، وفى سابعه يبتدئ أهل الشام الزَّرْع، وفى ثامنه يبتدئ هُبوبُ الرياح الجَنُوبيَّـة ، وفى تاسعه يبتدئ زرعُ الخَشْخاش، وفى حادى عشره يبتدئ اختفاء الهوامّ، وفى ثالث عشره يبتـدئ

غَلَيان البحر، وفى رابع عشره تَعْمَى الحَيَّات، وفى سادس عشره يُجمَع الزعْفران، وفى ثامن عشره تكثُر الوحوش، وفى الثامن والعشرين منه يُغْلَق البحر الملح وتمتنع السُّفُن من السفر فيه لشدّة الرياح، وفى الثالث والعشرين منه تبتدئ سُخونةُ بطن الأرض، وفى الرابع والعشرين منه أوّل اسفيدار ماه من شهور الفُرْس .

الشهر الرابع كيهك، ودخوله فى السادس والعشرين من تشرين الثانى من شهور السُّرْيان، وآخره الخامس والعشرون من كانون الأوّل منها . فيه تدرك الباقِلاء، وتُزْرع الحُلْبة وأكثرُ الحبوبِ، ويُدرِك النَّرجس والبنَفْسَج، وتتلاحق المحمضات، وفى أوّله ٱبتداء أربعينيَّات مصر، وفى ثالثه يبتدئ موتُ الذُّباب، وفى خامسه أوّل كانون الأوّل من شهور السُّرْيان، وفى سابعه آخرُ الليالى البُلْق وأوّل الليالى السُّود، وفى حادى عشره يبتدئ الشجرُ فى رَمْى أوراقه، وفى ثانى عشره تظهر البَراغيثُ، وفى سابع عشره أوّل فصل الشتاء: وهو أوّلُ أربعينيّات الشام، وفى ثامن عشره يتنَفَّس النهار، وفى الحادى والعشرين منه يكثُر الطير الغريبُ بمصر، وفى الثالث والعشرين منه أوّل مردوماه(١) من شهور الفُرْس، وهو نَوْروزهم وأوّل سنتهم، وفى الخامس والعشرين منه يهيج البَلْغَم، وفى السادس والعشرين منه تَلْقَح الإبل، وفى السابع والعشرين منه يكثُر شُرْب الماء فى الليل، وفى الثلاثين منه يبتدئ تقليم الكُرُوم .

الشهر الخامس طوبه، ودخوله فى السادس والعشرين من كانون الأوّل من شهور السريان، وآخره الرابع والعشرون من كانون الثانى منها، فى زرع القمح فيه تغرير، وفيه تُشَق الأرض للقَصَب والقُلْقاس، ويتكامل النَّرجس، وفى أوّله تبيتُ الرياح الشديدةُ، وفى ثانيه يُدْرِك القُرْطُ، وفى سادسه أوّل كانون الثانى من شُهور السُّريان،

(١) سيأتى قريبا أن نيروز الفرس وأوّل سنتهم أفرودين ماه ونظنه الصواب لأنه الذى ورد فى مروج الذهب وغيره ومع ذلك لم يذكر هذا الشهر فى أسماء الشهور الآتية .

وفى عاشره آخر أربَعينِيَّات مصر، وفى حادى عشره أوّل نصب الكروم، وفى ثانى عشره يشتدّ البرد، وفى ثالث عشره يبتدئ زرع المَقَات، وفى سابع عشره يبتدئ غَرْس الأشجار، وفى ثامن عشره تبتـدئ كثرة النَّدىٰ؛ وهو آخر الليـالى السود، وفى تاسع عشره يبتدئ وقُوعُ الثلج بالشام وغيره، وفى الرابع والعشرين منه يبتدئ صَفْوُ ماء النيل، وفى التاسع والعشرين منه يبتدئ ٱختلاف الرياح .

الشهر السادس أمشير، ودخوله فى الخامس والعشرين من كانون الثانى من شهور السريان وآخره الثالث والعشرون من شباط منها. فيه تُغْرَس الأشجار، وتقَلَّم الكروم، ويُدْرك النبق واللوز الأخضر، ويكثر البَنْفَسج والمنثور، وفى رابعه يبتـدئ إفراخ النخل، وفى سادسه أوّل شباط من شهور السُّريان، وفى حادى عشره يبتدئ إنتاج الطيور وزرع بُقُول الصَّيف، وفى ثانى عشره يبتدئ تحرّك دوابّ البحر، وفى الثانى والعشرين منـه ثانى جمرة فاترة، ويبتدئ مرض الأطفال، ويبتدئ خروجُ ورق الشجر، وفى الثالث والعشرين منه يبتدئ خروج الدوابّ للمَرْعىٰ، وفى الرابع والعشرين منه أوّل حردادماه من شهور الفُرْس، وفى الخامس والعشرين منه يبتدئ هيَجَان الرِّياح، وفى السابع والعشرين منه تبتدئ ثالث جمرة حامية، وفى الثامن والعشرين منه أوّل المفرطات، وفى التاسع والعشرين منه آخِر نهى ابقراط .

الشهر السابع برمهات، ودخوله فى الرابع والعشرين من شباط من شُهور السُّرْيان، وآخره الخامس والعشرون من آذار. فيه تُزْهِرُ الأشجار، ويعقِدُ أكثَرُ الثِّمـار، ويُزْرَع أوائل السِّمْسِم، ويُقْلَع الكَتَّان، ويُدْرِك الفُول والعَدَس، وفى ثانيه يحمد خروج الدم، وهو أوّل الأعجاز، وفى ثالث عشره تُفَتِّح الحياتُ أعينها، وفى خامس عشره تطِيبُ الألبانُ، وفى سادس عشره يبتـدئ خروج دود القَزِّ، وفى ثامن عشره يَهِيج الدم، وفى تاسع عشره ظُهُور الهوامّ، وفى العشرين منه يُزْرع السِّمْسم، وفى

الرابع والعشرين منـه أوّل تيرماه من شهور الفُرْس ، وفى السادس والعشرين منه يبتدئ شُرْبُ المُسْهل ، وفى السابع والعشرين منه خروج الذُّباب الأزرق .

الشهر الثامن برموده، ودخوله فى السادس والعشرين من آذار من شهور السريان ، وآخره الرابع والعشرون من نيسان منها ، فيه تُقْطَف أوائل عَسَل النحل ، وفيه تكثر الباقِلَاء ، ويُنْفَض جَوْز الكَتَّان ، ويكثر الورد الأحمر ، والبطنُ الأوّل من الجُمَّيْز ، ويقْلَع بعض الشعير ، ويُدْرِك الخيار شنبر . وفى أوّله يُؤكَل الدَّرِيك ، وفى رابعه يُعْصَر دُهْن البَلَسان ، وفى خامسه تبتـدئ كثرة الزهور ، وفى سادسه أوّل نيسان من شهور السُّرْيان ، وفى ثانى عشره يُخاف على بعض الزرع ، وفى ثامن عشره آخر قلع الكَتَّان ، وفى العشرين منـه يُنْهىٰ عن أكل البُقُول ، وفى الثانى والعشرين منه ظهور الكَمْأة ، وفى الثالث والعشرين منه الخِتَام الكبير للزرع ، وفى الرابع والعشرين منه أوّل تردماه من شهور الفرس ، وفى الخامس والعشرين منه نهاية مَدّ الفُرات ، وفى الثامن والعشرين منه يَبِيض النَّعام .

الشهر التاسع بشنس، ودخوله فى الخامس والعشرين من نيسان من شهور السريان ، وآخره التاسع والعشرون من أَيَّار منها . فيه يكثر التُّفَّاح القاسمى ، ويبتدئ التُّفَّاح المِسْكىّ ، والبِطِّيخ العَبْـدِلىّ والحَوْفى ، والمِشْمِش ، والخَوْخ الزُّهْرِى ، والورد الأبيض . وفى نصفه يُبْذَر الأَرُز ، ويُحْصَدُ القمح ، وفى سادسه أوّل أَيَّار من شهور السُّريان ، وفى رابع عشره يجمع الخَشْخاش ، وفى ثامن عشره يجمع العُصْفُر ، وفى الحادى والعشرين منه تبتـدئ بُرودةُ الأرض ، وفى الرابع والعشرين منـه أوّل شهر برماه من شهور الفُرْس .

الشهر العاشر بؤنه ، ودخوله فى الخامس والعشرين من أَيَّار من شهور السُّريان ، وآخره الثالث والعشرون من حزيران منها ، فيه يكثر الحِصْرِم ، ويطيب بعض العنب

والتين البونىّ وهو الديفور، والخوخ الزّهْرى والمُشْعِر، والكمثرىٰ البوهىّ، والقراصيا، والتُّوت، ويطلُع البلَح، ويُقطَف جمهور العســل، وفى ثالثه يبتــدئ توحُّم النيل، وفى سادسه يكمل الدِّرْياق، وفى سابعه أوّل حزيران من شهور السُّريان، وفى تاسعه يبتــدئ مَهَبُّ الريح الشّمالية، وفى عاشره يبتدئ تنفُّس النيــل، وفى خامس عشره تتحرّك شهوةُ الجماع، وفى ثانى عشره عِيد ميكائيلَ، فى ليلته يُوزن من الطين زِنةُ ستة عشر درهمــا عند غروب الشمس ويُرفَعُ فى مكان ويُوزنُ عند طلوع الشمس فما زاد كان بكل خروبة زادت علىٰ السّتة عشرَ ذراعٌ، وفى ثالث عشره يبتدئ نقصُ الفُرَاتِ، وفى رابع عَشرِه تَهُبّ الرياحُ السّمائم، وفى تاسع عشره تذهبُ البراغيثُ، وفى العشرين منــه تَهِيجُ الصفراءُ، وفى الثانى والعشرين منــه يَعْقِدُ الجوز، ويَقْوىٰ آندفاعُ النيل، وفى الرابع والعشرين منه يَثُور وجعُ العين وهو أوّل مهرماه من شهور الفرس، وفى السابع والعشرين منــه يُؤخَذ قاعُ النيل، وفى الثامن والعشرين منه يُنادَى عليه، وفى التاسع والعشرين منه يُدْرِكُ البِطّيخُ .

الشهر الحادى عشر أبيب، ودخوله فى الرابع والعشرين من حزيران من شهور السريان، وآخره الثالث والعشرون من تمُّوز منها، فيــه يكثُر العنبُ والتينُ ويَقِلُّ البِطّيخ العَبْدَلِىُّ ويَطِيبُ البلحُ وتُقطَفُ بقاياَ العسلِ وتَقْوىٰ زيادةُ النيل، وفى رابعه أوّل نَهْى أبقراط، وفيــه يموتُ الجرادُ، وفى سابعه أوّل تمُّوز من شهور السريان، وفى عاشره يَبتــدئُ وقع الطاعون، وفى ثانى عشره تبتــدئ قوّة السمائم، وفى ثالث عشره تُدرِكُ الفاكهةُ، وفى سابع عشره تَغُورُ العيونُ، وفى ثامن عشره يُجمَعُ السُّمَّاقُ، وفى الثانى والعشرين منه يُدرِكُ الفُسْتُقُ، وفى الرابع والعشرين منه أوّل أبان ماه من شهور الفرس، وفى السادس والعشرين منه طلوعُ الشِّعرىٰ اليَمَانِيَة، وفى التاسع والعشرين منه يُدرِكُ نخلُ الحجاز .

الشهر الثانى عشر مسرىٰ؛ ودخوله فى الرابع والعشرين من تموز من شهور السريان ، وآخره السابع والعشرون من آب منها . فيه يُعمَلُ الخَلُّ ، ويُدرِكُ البُسر والمَوْزُ وتتغير طُعومُ الفاكهة لغلبة المـاء علىٰ الأرض ، ويُدرِكُ اللَّيمونُ التُّفَّاحىُّ ، ويبتدئ إدراكُ الرُّمَّان ، وفى رابعه نُقصانُ الدِّجلة ، وفى خامسه أوّل العصير ، وفى ثامنه أوّل آب من شهور السُّرْيان ، وفى ثانى عشره فِصَال المَوَاشى ، وفى رابع عشره تَقِلُّ الألبانُ ، وفى خامس عشره تَسخُنُ المياهُ ، وفى سابع عشره تختلفُ الرياح ، وفى ثامن عشره يُحذَرُ لَسْعُ الهوامِّ ، وفى الثانى والعشرين منه آخرُ العصير ، وفى الرابع والعشرين منه يَهيجُ النَّعام ، وفى الخامس والعشرين منه تَكثُرُ الغُيومُ ، وفى الثامن والعشرين منه آخر السَّمائِم ، وفى التاسع والعشرين منه أوّل آذرماه من شهور الفرس .

أيام النسىء — ودخولها فى الثامن والعشرين من آب من شهور السريان ويختلف آخرها باختلاف السنة الكبيسة وغيرها .

وقد وضعَ الناسُ طُرُقًا لإخراج أوّل الشهر القبطىّ بالحساب أقربُها أن تعرفَ يوم النَّيْروز ثم تَعدَّ مامضىٰ من الشهور القبطية بالشهر الذى تريد أن تَعرِفَ أوّله فما كان فأضْعِفْه فما تحصَّل فأسقط منه واحدا أبدا ، ثم أسقط الباقىَ سبعةً سبعةً فما فضل فعُدَّ من يوم النَّيْروز إلىٰ آخر الباقى بعد الإسقاط علىٰ توالى الأيام فأينما انتهى العدَدُ فذلك اليوم هو أوّل الشهر المطلوب .

مثال ذلك : كان يوم النيروز الأحدَ ، وأردنا أن نعرفَ أوّل أمشير ، عَدَدْنا كم مضىٰ من أوّل الشهور القبطيـة وعَدَدْنا منها أمشير ، وجدنا ذلك ستة ، أضعفناها صارت اثنى عشر ، أسقطنا منها واحدا بقى أحد عشر ، أسقطنا منها سبعةً بقى أربعةٌ ، عددنا من يوم النيروز وهو الأحدُ أربعةً فكان آخرها يومَ الأربعاء فعلمنا أن أوّل أمشير الاربعاءُ .

وأما شهور الفُرس، فهى آثنا عشر شهرًا كلُّ شهر منها ثلاثون يوما وأيامُ النسىء خمسة أيام فى آخر الشهر الثامن منها وهو أبان ماه . الشهر الأوّل منها افرودين ماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من كيهك من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من طوبه منها، وأوّل يوم منه نَيروزُ الفرس ورأسُ سنتهم . الشهر الثانى اردبهشتماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من طوبه من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من أمشير منها . الشهر الثالث حردادماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من أمشير من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من برمهات منهـا . الشهر الرابع تيرماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من برمهات من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من برموده منهـا . الشهر الخامس تردماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من برموده من شهور القبط، وآخره الثـالث والعشرون من بشنس منها . الشهر السادس شهر برماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من بشنس من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من بؤنه منها . الشهر السابع مهرماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من بؤنه من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من أبيب منها . الثامن أبان ماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من أبيب من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من مسرىٰ منها. أيام النسىء، وتسمى بالفارسية الاندركاه، ودخولهـا فى الرابع والعشرين من مسرىٰ، وآخرها الثامن والعشرون منها . الشهر التاسع ادرماه، ودخوله فى التاسع والعشرين من مسرىٰ من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من توت . الشهر العـاشر دى ماه . ودخوله فى الرابع والعشرين من توت من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من بابه منهـا . الشهر الحادى عشر بهمن‌ماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من بابه من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من هاتور منها[1] . الشهر

(١) وقع فى الاصل شىء من السقط والتحريف وقدصححناها من نهاية الارب ومن الضوء و بمعونة ترتيب الشهور القبطية فتنبه .

الثانى عشر [اسفندارماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من هاتور من شهور القبط ، وآخره الثالث والعشرون من كيهك منها] .

ولكل يوم من أيام الشهر عندهم آسم خاص يزعمون أنه آسم ملك من الملائكة موكل به .

وقد علم مما تقدم من شهور القبط مايقع فى هذه الشهور من والفواكه وغيرها .

الصـــــنف الثانى

(من الشهور الأصطلاحية مايختلف عدده بالزيادة والنقصان،
فيكون بعض الشهور فيه ثلاثين ، وبعضها أقلّ ، وبعضها أكثر،
وهو شهور السريان والروم)

فأما شهور السريان وتنسب للإسكندر فآثنا عشر شهرا، منها أربعة كل شهر منها ثلاثون يوما، وشهر واحد ناقص عن الثلاثين ، وسبعة زائدة عليها . الشهر الاول منها تشرين الأوّل، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ودخوله فى الرابع من بابه من شهور القبط، وآخره الرابع من هاتور منها؛ ويوافقه اكتوبر من شهور الروم، وهو الشهر العاشر منها . الشهر الثانى تشرين الثانى، وهو ثلاثون يوما؛ ودخوله فى الخامس من هاتور من شهور القبط، وآخره الرابع من كيهك منها، ويوافقه نوفمبر من شهور الروم، وهو الشهر الحادى عشر منها . الشهر الثالث كانون الأوّل وهو أحد وثلاثون يوما، ودخوله فى الخامس من كيهك من شهور القبط ، وآخره الخامس من طوبه منها ، ويوافقه دجنبر من شهور الروم، وهو الشهر الثانى عشر منها . الشهر الرابع كانون الثانى ، وهو أحد وثلاثون يوما، ودخوله فى السادس من طوبه من شهور القبط،

وآخره السادس من أمشـير منها ، ويوافقه ينير من شهور الروم ، وهو الشهر الأوّل منها . الشهر الخامس أشباط ، ويقال شباط ، وهو ثمانية وعشرون يوما ، ودخوله فى السابع من أمشير ، وآخره الرابع من برمهات منها ، ويوافقه فبرير من شهور الروم ، وهو الثانى من شهورهم . الشهر السادس آذار ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله فى الخامس من برمهات من شهور القبط ، وآخره الخامس من برمودة منها ، ويوافقه مارس من شهور الروم ، وهو الثالث من شهورهم . الشهر السابع نيسان ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله فى السادس من برمودة من شهور القبط ، وآخره الخامس من بشنس منها ، ويوافقه ابريل من شهور الروم ، وهو الرابع من شهورهم . الشهر الثامن أيّار ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله فى السادس من بشنس من شهور القبط ، وآخره السادس من بؤنه منها ، ويوافقه مايه من شهور الروم ، وهو الخامس من شهورهم . الشهر التاسع حزيران ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله فى السابع من بؤنه من شهور القبط ، وآخره السادس من أبيب منها ، ويوافقه يونيه من شهور الروم ، وهو السادس من شهورهم . الشهر العاشر تمّوز ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله فى السابع من أبيب من شهور القبط ، وآخره السابع من مسرى منها ، ويوافقه يوليه من شهور الروم ، وهو السابع من شهورهم . الشهر الحادى عشر آب ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله فى الثامن من مسرى من شهور القبط ، وآخره الثالث من توت منها ، ويوافقه اغشت من شهور الروم ، وهو الثامن من شهورهم . الشهر الثانى عشر أيلول ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله فى الرابع من توت من شهور القبط ، وآخره الثالث من بابه منها ، ويوافقه ستنبر من شهور الروم ، وهو التاسع من شهورهم ، وبذهابه يذهب الحرجلة ، وفى ذلك يقول أبو نواس :

مَضىٰ أيْلولُ وآرتَفَع الحَرُورُ * وأخْبتْ نارَها الشِّعرىٰ العَبُورُ

وقد نظمها صاحبنا الشيخ ابراهيم الدهشورى فى أبيات ٱبتدأ فيها بأيْلُولَ فقال :

وٱبْدَأْ بأَيْلُولٍ مِنَ ٱلسُّرْيَانِى * تَشرِينُ الأَوَّلُ يَتْبَعَنْه الثانِى
كانونُ كانونُ شَباطُ يَطْلعُ * آذَارُ نَيْسانُ أَيَارُ يَتْبَعُ
ثُمَّ حَزِيرانُ وتمُّوزُ وأبْ * تبارَكَ الرحمنُ يهْدِى مَنْ أَحَبّ

وقد نظم الشيخ أبو عبد الله الكيزانى رحمه الله أبياتا ذكر فيها الأشهر التى منها ثلاثون يوما والناقصة عن الثلاثين ولم يتعرض للزائدة علىٰ الثلاثين وليست بالطائل، وهى هذه :

شُهُورُ الرُّومِ أَلْوانُ * زِيادَاتٌ ونُقْصَانُ
فَتَشْرِينُهُمُ الثانِى * وأَيْلُولٌ ونَيْسانُ
ثَلاثُونَ ثَلاثُونَ * سَواءٌ وحَزِيرانُ
شَبَاطٌ خُصَّ بالنقص * وقَدْرُ النَّقْصِ يَوْمان

ونظم صاحب "مناهج الفكر" تداخلها مع شهور القبط فى أرجوزة فجاءت فى غاية الحسن والوضوح إلا أن فيها طولا، وهى هذه :

متىٰ تَشَأْ مَعْرِفَةَ التَّداخُلِ * مِنْ أَوَّل الشُّهور فى المَنازل
فعُدّ من تُوتٍ بلا تَطْوِيل * أربعةً فهى ٱبتدا أَيْلُولِ
وبابَةٌ كذاكَ مَعْ تَشْرِينِ * الأوّلِ السابِقِ فى السنين
والخامسُ المعْدُودُ من هَتُور * أوّلُ تشرينِهم الأخير
أوّلُ كانونٍ بغَيْرِ دَلْسه * إذا نقَصْتَ من كِيَهْكٍ خمسه
وطُوبةٌ إن مَرَّ منه سِتّه * أتاكَ كانونُ الأخيرُ بَغْتَه
ومن شَباطٍ أوّلٌ يُوافِق * سابعَ أَمْشِيرٍ حسابٌ صادِقُ
أوّل آذار إذا جعلْتَه * لبَرَمْهاتَ خامسا وجدْتَه

أوَّل نيسـانٍ لدى التَّجْرِيد * السادسُ المعدودُ من برمود

ومثـــله أيَارُ معْ بشَنْسِ * واحـــدةٌ مقـرونةٌ بخمس

أمَّا حَزيرانُ فيَحْسبُونَهْ * أوّلُه السـابعُ من بؤُنه

كذلك السـابعُ من أبيبِ * أوّلُ تمّـُّـوزٍ بلا تكذيب

أوَّلُ آبٍ عند مَنْ يُحَصِّـل * ثامِنُ مسرىٰ ذاك مالا يُجْهَلُ

وبالغ بعض المتأخرين فنظم معنىٰ هذه الأرجوزة فى بيت واحد، الحرف الأول من الكلمة منه للشهر السريانىّ والحرف الأخير للشهر القبطىّ وما بينهما لعدد الأيام التى إذا مضت من ذلك الشهر القبطىّ دخل ذلك الشهر السريانى وهو :

أدّت تدب تهه كهك كوط أزا * أهب نوب أوب حزب تزا أحم

فالألف من أدّت إشارة لأيلول من شهور السُّرْيان، وهو آخر شهورهم، والتـاء إشارة لتوت من شهور القبط، وهو أوّل شهورهم، والدال من أدت بأربعة، ففى الرابع من توت يدخل أيلول، والتاء من تدب إشارة لتشرين الأول، والباء إشارة لبابه، والدال بينهما بأربعة، ففى الرابع من بابه يدخل تشرين الأوّل، والتاء من تهه إشارة لتشرين الثانى، والهاء الأخيرة إشارة لهتور، والهاء المتوسطة بينهما بخمسة ففى الخامس من هاتور يدخل تشرين الثـانى، والكاف الأولىٰ من كهك إشارة لكانون الأوّل والكاف الأخيرة إشارة لكيهك والهـاء بينهما بخمسة، ففى الخامس من كيهك يدخل كانون الأوّل، والكاف من كوط إشارة لكانون الثانى، والطاء إشارة لطوبه، والواو بينهما بسـتة، ففى السادس من طوبه يدخل كانون الثانى، والألف الأولىٰ من أزا إشارة لأشباط، والألف الأخيرة إشارة لأمشير، والزاى بينهـما بسبعة، ففى السابع من أمشير يدخل أشباط، والألف من أهب إشارة لآذار، والباء إشارة لبرمهات، والهـاء بينهما بخمسة، ففى الخامس من برمهات يدخل آذار، والنون من

نوب إشارة لنيسان ، والباء إشارة لبرموده ، والواو بينهما بستة ، ففى السادس من برموده يدخل نيسان، والألف من أوب إشارة لأيّار، والباء إشارة لبشنس، والواو بينهما بستة، ففى السادس من بشنس يدخل أيّار، والحاء من حزب إشارة لحزيران، والباء إشارة لبؤنه، والزاى بينهما بسبعة، ففى السابع من بؤنه يدخل حزيران، والتاء من تزأ إشارة لتموز ، والألف إشارة لأبيب، والزاى بينهما بسبعة ، ففى السابع من أبيب يدخل تَمُّوز، والألف من احم إشارة لآب، والميم إشارة لمسرى، والحاء بينهما بثمانية، ففى الثامن من مسرى يدخل آب .

وأما شهور الروم : (وتنسَبُ لأغشطش ملك الروم) وهو قيصر الأوّل، فآثنا عشَرَ شهرا؛ بعضها ثلاثون يوما، وبعضها زائد على الثلاثين، وبعضها ناقص عنها كما فى شهور السريان؛ وهى مطابقة لشهور السريان فى العَدَد، مخالفةٌ لها فى الأسماء والترتيب . الشهر الأوّل ينير، ويُوافقه كانون الثانى من شهور السريان، وهو الرابع من شهورهم، وفى أوّل يوم منه يكون القلنداس، ويُوقد أهل الشام فى ليلته نيرانا عظيمة، لاسيما مدينة أنطاكِيَة، وكذلك سائر بلاد الشام وأرض الروم، وسائر بلاد النصارى . الشهر الثانى فبرير، ويوافقه شباط من شهور السريان؛ وهو الخامس من شهورهم . الشهر الثالث مارس، ويوافقه آذار من شهور السريان، وهو السادس من شهورهم . الشهر الرابع ابريل؛ ويوافقه نيسان من شهور السريان، وهو السابع من شهورهم . الشهر الخامس مايه، ويوافقه أيّار من شهور السريان، وهو الثامن من شهورهم . الشهر السادس يونيه ؛ ويوافقه حزيران من شهور السريان ، وهو التاسع من شهورهم . الشهر السابع يوليه، ويوافقه تَمُّوز من شهور السريان ، وهو العاشر من شهورهم . الشهر الثامن أغشت ، ويوافقه آب من شهور السريان، وهو الحادى عشر من شهورهم . الشهر التاسع شتنبر، ويوافقه أيلول من شهور

السريان ، وهو الثانى عشر من شهورهم . الشهر العاشر أكتوبر ، ويوافقه تشرين الأول من شهور السريان ، وهو الأوّل من شهورهم . الشهر الحـادي عشر نونبر ، ويوافقه تشرين الثانى من شهور السريان ، وهو الثـانى من شهورهم . الشهر الثانى عشر دجنبر ، ويوافقه كانون الأول من شهور السريان ، وهو الثالث من شهورهم ، وقد نظمها الشيخ ابراهيم الدهشورى فقال :

ينـير فُـبْرير مارسٌ للروم * أبريل مايُهْ خامس المعلوم
يُنْيُهْ ويُلْيه ثُمَّ آغشت شتنبر * أكتوبر نونمبر دجنبر

الطرف الثـالث

(فى السنين : وفيه ثلاث جمل)

الجمـــلة الأُولىٰ

(فى مدلول السـنة والعـام)

يقال : السنة ، والعام ، والحول ؛ وقد نطق القرءان بالأسماء الثلاثة قال تعالىٰ : ﴿ فلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عامًا ﴾ فأتىٰ بذكر السنة والعام فى آية واحدة ، وقال جلّ وعزّ : ﴿وَالْوالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ ﴾ وقد تختص السنةُ بالجَدْب والعامُ بالخِصْب ، وبذلك ورد القرءانُ الكريم فى بعض الآيات قال تعالىٰ : ﴿ ثم يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ فعبر بالعام عن الخِصْب وقال جل ذكره : ﴿ ولَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ونَقْصٍ من الثَّمَراتِ ﴾ فعبر بالسنين عن الجَدْب . علىٰ أنه قد وقع التعبير بالسِّنين عن الخِصْب أيضا فى قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوه فِي سُنْبُلِهِ ﴾ . أما الحول فإنه يقع علىٰ الخِصْب والجَدْب جميعا .

الجملة الثانية

(فى حقيقة السنة، وهى على قسمين : طبيعيّة وآصطلاحية كما تقدّم فى الشهور)

القسم الأوّل

(السنة الطبيعية : وهى القَمَرِيَّة)

وأوّلها آستهلال القمر فى غُرَّة المحرّم، وآخرها سَلْخ ذى الحِجّة من تلك السنة، وهى آثنا عَشَر شهرا هِلاليًّا قال تعالى : ﴿إنَّ عِدّة الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ آثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾. وعدد أيّامها ثلثمائة يوم وأربعة وخمسون يوما وخمسُ وسدُسُ يوم تقريبا؛ ويجتمع من هذا الخُمس والسدُس يومٌ فى كل ثلاث سنين فتصيرُ السنة ثلثمائة وخمسةً وخمسين يومًا، ويبقى من ذلك بعد اليوم الذى آجتمع شىء، فيجتمع منه ومن خمس اليوم وسدسه فى السنة السادسة يوم واحد، وكذلك إلى أن يبقى الكسر أصلا بأحد عشر يوما عند تمام ثلاثين سنة، وتسمّى تلك السنين كبائس العَرَب.

قال السهيلى : كانوا يُؤَخِّرون فى كل عام أحدَ عشَرَ يوما حتّى يَدُورَ الدورُ إلى ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلى وقته، فلما كانت سنةُ حَجَّة الوَدَاع : وهى سنة تسع من الهجرة، عاد الحجُّ إلى وقته آتفاقًا فى ذى الحِجّة كما وُضِع أوّلا فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه الحجَّ، ثم قال فى خطبته التى خطبها يومئذ : "إنَّ الزمانَ قد آستَدارَ كهيْئَتِهِ يوم خلقَ اللهُ السَّمٰواتِ والأرضَ،" بمعنى أن الحج قد عاد فى ذى الحِجّة. وفى بعض التعاليق أن سِنِى العرب كانت موافقةً لِسنِى الفُرْس فى الدخول والآنْسلاخ فحَدَثَ فى أحوالهم آنتقالاتٌ فسَد عليهم بها الكَبْس فى أوّل السنة السادسة من ملك أغيطش، وذلك بعد ملك ذى القرنين بمائتين وثمانين سنة وأربعين يوما فسَنُّوا كبس

الربع من ذلك اليوم فى كل سنة فصارت سنينُهم بعد ذلك الوقت محفوظةَ المواقيت .
وقيل لم تزل العرب فى جاهليتها علىٰ رسم إبراهيم وإسمـاعيل عليهما السـلام لاتَنْسأ
سِنِيها إلىٰ أن جاورتهم اليهود فى يثرب، فأرادت العرب أن يكون حَجُّهم فى أخصب
وقتٍ من السـنة، وأسهلِ زمان للتردُّد بالتجارة فعلموا الكبس من اليهود والله أعلم
أىُّ ذلك كان .

القســـم الثـانى

(الأصطلاحيــة : وهى الشمســيَّة)

وشهورها آثنا عشَرَ شهرًا كما فى السنة الطبيعية إلا أنــ كل طائفة راعتْ عدَم
دَوران سِنِيها جعلت فى أشهرها زيادةً فى الأيام إما جملة واحدة وإما متفرّقة وسَمَّتْها
نسيئًا، بحسب ما آصطلحوا عليه كما ستقف عليه فى مصطلَح كل قوم إن شاء الله تعالىٰ.
وعدد أيَّامها عند جميع الطوائف : من القبط، والفرس، والسريان، والروم، وغيرهم
ثلثُمائةِ يوم وخمســةٌ وستون يوما وربعُ يوم ، فتكون زيادتها علىٰ العربية عشرةَ أيام
وثمانيةَ أعشار يوم وخمسةَ أسداس يوم . وقد قال بعض حُذَّاق المفسرين فى قوله
تعالىٰ ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا﴾ : إنه إن حمل علىٰ السنين القمرية
فهو علىٰ ظاهره من العدد، وإن حمل علىٰ السنين الشمسية فالتسع الزائدة هى تفاوت
زيادة الشمسية علىٰ القمرية لأنَّ فى كل ثلثمائة سنة تسعَ سنينَ لاتُخِلُّ بالحساب أصلا
قال صاحب "مناهج الفكر" ولذلك كانوا فى صَدْر الإسلام يُسْقِطون عند رأس
كل ثلاث وثلاثين سـنة عربيَّة سنةً ويسمُّونها سنة الأزدِلاف : لأن كل ثلاث
وثلاثين سنة عربية آثنتان وثلاثون سنة شمسية تقريبا . قال وإنما حملهم علىٰ ذلك
الفرار من آسم النسىء الذى أخبر الله تعالىٰ أنه زيادة فى الكفر .

ثم المعتبرون السنة الشمسية ٱختلفت مصطلَحاتُهم فيها بحسب ٱختلاف مقاصدهم .

المصطلَح الأوّل ـ مصطلَح القبط ، وقد ٱصطلحوا علىٰ أن جعلوا شهرهم ثلاثين يوما كما تقدّم فإذا ٱنقضت الٱثنا عشرَ شهرا أضافوا إليها خمسة أيام يسمُّونها أيام النسىء ، يفعلون ذلك ثلاث سنين متوالية ، فإذا كانت السنة الرابعة أضافوا إلىٰ خمسة النسىء المذكورة ما ٱجتمع من الربع يوم الزائد علىٰ الخمسة أيام فى السنة الشمسية فتصير ستة أيام ، ويجعلونها كبيسة فى تلك السنة ، وبعض ظُرَفائهم يسمِّى الخمسة المزيدة السنةَ الصغيرة .

قال أصحاب الزيجات وأوّلُ ٱبتدائهم ذلك فى زمن أغشطش . وكانوا من قبلُ يتركون الربع إلىٰ أن تجتمع أيام سنة كاملة وذلك فى ألف سنة وأربعمائة وإحدىٰ وستين سنة ويسقطونها من سنيهم ، وعلىٰ هذا المصطلَح ٱستقرّ عملهم بالديار المصرية فى الإقطاعات ، والزرع ، والخَراج ، وما شاكل ذلك .

المصطلح الثانى ـ مصطلَح الفُرْس ، وشهورهم كشهور القبط فى عدد الأيام علىٰ ماتقدّم ، فإذا كان آخر شهر أبان ماه ، وهو الشهر السابع(١) من شهورهم أضافوا إليه الخمسة الأيام الباقية وجعلوه خمسة وثلاثين يوما ، وتسمِّى الفرس هذه الأيام الخمسة الاندركاه ، ولكل يوم منها عندهم ٱسم خاص كما فى أيّام الشهر ، ولما لم يَجُزْ فى معتقَدهم كبسُ السنة بيوم واحد بعد ثلاث سنين كما فعل القبط كانوا يؤخِّرونه إلىٰ أن يتم منه فى مائة وعشرين سنة شهرٌ كامل فيُلْقونه ، وتسمِّى السنةُ التى يلقىٰ فيها بهرك(٢) ، قال المسعودىّ فى "مروج الذهب" وإنما أخَّروا ذلك إلىٰ مائة وعشرين سنة لأن أيَّامهم كانت سُعودا ونُحُوسا فكَرِهوا أن يكبِسُوا فى كل أربع سنين يوما فتنتقل بذلك أيام السُّعود إلىٰ أيام النُّحوس ، ولا يكون النَّيْروز أوّل يوم من الشهر .

(١) الصواب الثامن كما يعلم مما تقدم . (٢) فى مروج الذهب ـ الهارك ، وفى الضوء ـ بهرك .

وعلىٰ هــذا المصطلح كان يُجْبىٰ الخَرَاج للخلفاء وتُمشى الأحوال الديوانية فى بداية الأمر وعليه العمل فى العراق و بلاد فارس إلىٰ الآن .

المصطلح الثالث ــ مصطلح السريان ، وشهورهم علىٰ ما تقدّم : من كونها تارةً ثلاثين يوما وتارة زائدة عليها ، وتارة ناقصة عنها ، وإنمــا فعلوا ذلك حتّىٰ لايلحقهم النسيءُ فى شهورهم إذ الأيام الخمسة المذكورة الزائدة علىٰ شهور القبط والفُرْس مُوزَّعة علىٰ رءُوس الزوائد من شهورهم ، وذلك أنــ من شهورهم ســبعةَ أشهر يزيد كل شهر منهــا يوما علىٰ الثلاثين : وهى تشرين الأوّل ، وكانون الأوّل ، وكانون الثانى ، وآذار ، وأيَّار ، وتموز ، وآب ، فتكون الزيادة سبعة أيام يكمل منها شباط : وهو ثمانية وعشرون يوما بيومين يبقىٰ خمسة أيام ، وهى نظير النَّسِيء فى سنة القبط والفُرْس ، ويبقىٰ بعد ذلك الربع يوم الزائد علىٰ الخمسة أيام فى الســنة الشمسية ، فإذا ٱنقضت ثلاث ســنين متواليات جمعوا الأرباع الثلاثة الملغاة إلىٰ الربع الرابع فيجتمع منهــا يوم فيجعلونه نظيرَ اليوم الذى كبسه القبطُ ويُضِيفونه إلىٰ شباط ، فيصير تســعةً وعشرين يوما .

المصطلَح الرابع ــ مصطلح اليهود ، وشهورهم وإن كانت قَمَــريَّة كالعربية كما تقدّم فقد ٱضْطُرّوا إلىٰ أن تكون سنتُهم شمســيَّة : لأنهم أمروا فى التوراة أن يكون عيد الفطر فى زمان الفَرِيك فلم يتأتَّ لهم ذلك حتّىٰ جعلوا سنيهم قسمين : الأوّل بشيطا ومعناه بسيطة وهى القمرية ، والثانى معبارت ، ومعناه كبيسة وهم يكبسون شهرا كاملا ، ومعبارت ٱسم موضوع عندهم علىٰ الكامل ، فإنه لما كان فى بطنها زيادة عليها كانت هذه الســنة مثلها باضافة الشهر المكبوس إليها ، وكل واحدة من السنين ثلاثة أنواع أحدها جسارين ومعناه ناقصــة ، وهى التى يكون الشهر الثانى والثالث منها (وهمــا مرحشوان وكسلا) ناقصين ، وكل واحد منهما تسعة وعشرون يوما ؛

والنوع الثانى شلاميم ومعناه تامّة ، وهى التى يكون فيها كل شهر من الشهرين المذكورين تامّا ، والنوع الثالث كسدران ومعناه معتدلة ، وهى التى تكون أشهرُها ناقصٌ يتلوه تامٌّ ؛ وهذا يلزم من جهة أنهم لا يجيزون أن يكون رأس سنتهم يوم أحد ولا يوم أربعاء ولا يوم خميس .

وأما معبارت فإنها تكون فى كل تسعَ عشرةَ سنة سبع مرات ، ويسمُّون الجملة مخزورا ومعناه الدور ، وهذه السبعة لا تكون على التوالى ، وإنما تكون تارة سنتان بشيطان يتلوهما معبارت ، وتارة سنة بشيطا يتلوها معبارت ، كل ذلك حتّٰى لاتخرم عليهم قاعدة الثلاثة أيام التى لا يختارونها أن تكون أوّل سنتهم ، فإذا آنقضى آذار من هذه السنة كبسوا شهرا وسموه آذار الثانى ، فإذا انقضت التسع عشرة سنة أعادوا دورا ثانيا وعَمِلوا فيه كذلك وعلى هذا أبدا .

أما مصطَلَح المنَجِّمين فالسنة عندهم من حُلُول الشمس فى أوّل نقطة من رأس الحَمَل إلى حلولها فى آخِرِ نقطة من الحوت ، ومنهم من يجعلها من حلول الشمس فى أوّل نقطة من رأس المِيزان إلى حلولها فى آخر نقطة من السُّنْبلة ، والأوّل هو المعروف . وتساهل بعضهم فقال : هى من كونِ الشمس فى نقطة مّا من فَلَكِ البروج إلى عودها إلى تلك النقطة ، ويقال إن سنة الجُنْد والمرتَزِقة بالديار المصرية كانت أوّلا على هذا المصطَلَح ، وبه يعملون فى الإقطاعات ونحوها .

الجمـــــلة الثـالثة

(فى فصول السنة الأربعة : وفيه ثلاثة مَهَايِـعَ)

المَهْيَعُ الأوّل

(فى الحكمة فى تغيير الفصول الأربعة فى السنة)

وآعلم أن الفُصول تختلِف بحسَب آختلاف طبائع السـنة لتبايُنِ مصالح أوقاتها حكمةً من الله تعالىٰ . قال بطليموس : تحتاج الأبدان إلىٰ تغيير الفصول ، فالشـتاء للتجميد ، والصيف للتَّحْليل ، والخريف للتَّدْريج ، والربيع للتَّعْديل . وعلىٰ ذلك يقال : إن أصل وَضْع الحمّـام أربعةَ بيوت بعضها دون بعض علىٰ التدريج ترتيبُها علىٰ الفصول الأربعة .

المَهْيَع الثـانى

(فى كيفيَّة آنقسام السنة الشمسية إلىٰ الفُصول)

وآعلم أن دائرة منطقة البُروج لما قاطعت دائرة معدّل النهار علىٰ نقطتين متقابلتين مال عنهما[(١)] فى جهتى الشمال والجنوب بقـدر واحد فالنقطة التى تجوزُ عليها الشمس من ناحيـة الجَنُوب إلىٰ الشمال عن معدّل النهـار تسمّى نقطة الآعتدال الربيعىّ ، وهى أوّل الحَمَل ، والنقطة التى تجوز عليها من الشمال إلىٰ الجنوب تسمّى نقطة الآعتدال الخَرِيفىّ : وهى أوّل المِيزان . ويتوهم فى الفلك دائرة ثالثة معترضـة من الشمال إلىٰ الجنوب تمرّ علىٰ أقطاب تقـابل الدائرة المخطوطة علىٰ الفلكين تقطَعُ كلَّ واحد من فلك معدّل النهار وفلك البروج بنصفين، فوجب أن يكون قطعها لفلَك البروج علىٰ

---

(١) لعله مال نصفها فى جهة الشمال والآخر فى جهه الجنوب كما يستفاد من المقريزى .

النقطتين اللتين هما فى غاية المَيْل والبُعْد عن معدّل النهار فى جهتى الشمال والجنوب : فتسمّى النقطة الشمالية نُقطة المُنْقَلَب الصيفىّ : وهى أوّل السَّرطان؛ وتسمّى النقطة الجنوبية نقطة المُنْقَلَب الشَّتْوىّ، وهى أوّل الجَدْى . وٱختلافُ طبائع الفصول عن حركة الشمس وتنقُّلها فى هـذه النُّقَط ، فإنها إذا تحرّكت من الحمل ، وهو أوّل البروج الشمالية أخَذَ الهواءُ فى السُّخُونة لقربها من سَمْت الرءُوس وتواتر الإسخان إلىٰ أن تصل إلىٰ أوّل السرطان ، وحينئذ يشتدّ الحرّ فى السَّرطان والأسدِ إلىٰ أن تصل إلىٰ الميزان ، فحينئذ يطيبُ الهواءُ ويعتـدلُ ؛ ثم يأخذُ الهواء فى البُرودة ويتواتَرُ إلىٰ أوّل الجَدْى ، وحينئذ يشتدّ البرد فى الجَدْى والدَّلْو لبُعْد الشمس عن سَمْت الرءُوس إلىٰ أن تصل إلىٰ الحَمَل فتعود الشمس إلىٰ أوّل حركتها .

المهيع الثالث

(فى ذكر الفصول، وأزمنتها، وطبائعها، وما حصة كلّ فصل منها من البروج والمنازل ؛ وهى أربعة فصول)

الأوّل — فَصْل الربيع — وٱبتداؤه عند حُلُول الشمس برأس الحَمَل . وقد تقدّم ومدّته أحدٌ وتسعون يوما وربعُ يوم ونصف ثمن يوم . وأوّله حُلول الشمس رأسَ الحَمَل، وآخرُه عند قطعها بُرجَ الجوزاء ؛ وله من الكواكب القمر، والزُّهَرة؛ ومن المنازل الشَّرَطان ، والبُطَين ، والثُّرَيَّا ، والدَّبَران، والهَقْعة ، والهَنْعة ، والذِّراع بمـا فى ذلك من التداخل كما مر ؛ ومن الساعات الأُولىٰ والثانيةُ والثالثةُ ؛ ومن الرِّياح الجَنُوب؛ وطبعه حارٌّ رَطْب ؛ وله من السِّـنّ الطُّفُولِيّة والحَدَاثة ؛ ومن الأخلاط الدمُ؛ ومن القُوىٰ الهـاضمة . وفيه تتحرّك الطبائع ،وتظهَر الموادّ المتولدة فى الشِّتاء، فيطلُع النباتُ، وتُزْهِر الأشجارُ وتُورِق، ويهيج الحيوان للسِّـفاد، وتذوب الثُّلُوج،

وَتَنْبُع العُيون ، وتَسِيل الأوْدِيةُ ، وأخَذَت الأرضُ زُخْرُفَها وٱزَّيَنَتْ فتصير كأنها عَرُوس تبدَّت لخُطَّابها ، فى مُصَبَّغَات ثيابها ؛ ويقال : إذا نزلت الشمسُ رأسَ الحمل.تصرَّم الشتاءُ ، وتنفَّس الربيعُ ، وٱختالتِ الأرضُ فى وَشْيِها البديع ، وتبرَّجتْ للنَّظَّاره ، فى مَعْرِض الحُسْن والنَّضَاره .

ومن كلام الوزير المغربىّ : لو كان زمنُ الربيع شخصًا لكان مُقَبَّلا ، ولو أن الأيام حيوان لكان لها حليا ومُجَلِّلا : لأن الشمس تخلُص فيه من ظُلُمات حُوتِ السماء ، خَلاَصَ يونُسَ من ظُلُمات حُوتِ الماء ، فإذا وردت الحَمَلَ وافت أحبَّ الأوطان إليها ، وأعزَّ أماكنها عليها .

وكان عَبْدوس الخزاعىّ يقول : من لم يَبْتَهِج بالربيع ولم يستَمْتِع بأنواره ، ولا ٱستروَحَ بنسيم أزهاره ، فهو فاسدُ المِزَاج ، محتاجٌ إلى العِلاج .

ويروى عن بقراط الحكيم مثله ، وفيه بدل قوله "فهو فاسدُ المِزاج" فهو عديمُ حِسّ ، أو سقيم نفْس . ولجَلاَلة محلِّ هذا الفصل فى القلوب ، ولنزوله من النفوس مَنْزِلةَ الكاعِب الخَلُوب ، كانت الملوك إذا عَدِمتْه ٱستعملَتْ ما يُضاهِى زَهْره من البُسُط المصوَّرة المنقَّشه ، والنَّمارق المُفَوَّفة المرقَّشه . وقد كان لأنوشروانَ بِساط يسميه بِساطَ الشِّتاء مرصَّعٌ بأزرقِ الياقوتِ والجواهر وأصفرِه وأبيضه وأحمره ، وقد جعل أخضرُه مكانَ أغصان الأشجار ، وألوانه بموضع الزَّهْر والنوّار . ولما أُخِذ هذا البساطُ فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى واقعة القادِسيَّة ، حُمِل إليه فيما افاء الله على المسلمين ؛ فلما رآه قال : "إن أُمَّةً أدّتْ هٰذا إلىٰ أميرها لأمينةٌ" ثم مزَّقه فوقع منه لعلىّ عليه السلام قطعةٌ فى قسمه مقدارُها شبر فى شبر فباعها بخمسةَ عشرَ ألف دينار .

وقد أطنب الناس فى وصف هذا الفصل ومدحه ، وأتوا بما يقصُر عن شرحه ؛

وتغالى الشعراء فيه غاية التَّغالى ، وفَضَّلُوا أيامه ولياليَه على الأيَّام والليالى ، وما أحلى قولَ البحتُرِىّ ! :

أتاكَ الربيعُ الطَّلْقُ يختالُ ضاحِكًا * من الحُسْن حتَّى كاد أن يتكلَّما

وقد نبَّه النَّوْرُوزُ فى غَسَقِ الدُّجى * أوائِلَ وَرْدٍ كُنَّ بالأَمْسِ نُوَّما

يُفَتِّحُها بَرْدُ النَّدى فكأنَّما * يَبُثُّ حَدِيثًا بَيْنَهُنَّ مُكَتَّمَا

ومِنْ شَجَرٍ رَدَّ الرَّبيعُ رِداءَهُ * كما نَشَرتْ ثَوْبًا عليه مُنَمْنَما

أحلَّ فأبْدى للعُيُونِ بَشاشَةً * وكانَ قذًى للعَيْنِ إذْ كانَ مُحْرِما

ورَقَّ نَسِيمُ الجَوِّ حتَّى كأنَّما * يَجِيءُ بأنْفاسِ الأَحِبَّةِ نُعَّما

وأحلى منه قول أحمد بن محمد العلوىّ :

أوَ ما ترى الأيَّام كَيْفَ تبرَّجتْ * ورَبِيعُها والٍ عليْها قَيِّمُ ؟

لَبِسَتْ بِهِ الأرضُ الجمالَ فحُسْنُها * مُتأَزِّرٌ بِبُرُودِهِ مُتَعَمِّمُ

أُنْظُرْ إلى وَشْيِ الرِّياضِ كأنَّهُ * وَشْيٌ تُنَشِّرهُ الأكُفُّ يُنَمْنَمُ

والنَّورُ يَهْوِى كالعُقُود تبدَّدتْ * والوَرْدُ يَخْجَلُ والأَقَاحِى تَبْسِمُ

والطَّلُّ يَنْظِمُ فوقَهُنَّ لآلِئًا * قَدْ زانَ مِنْهُنَّ الفُرادَى التَّوْءَمُ

ويَكادُ يُذْرِى الدَّمْعَ نَرْجِسُها إذا * أضْحى ويَقْطُرُ مِنْ شَقائِقِها الدَّمُ

ومنها :

أرضٌ تُباهِيهَا السماءُ إذا دَجا * لَيْلٌ ولاحتْ فى دُجاها الأَنْجُمُ

فلِخُضْرةِ الجَوِّ اخْضِرارُ رِياضِها * ولِزَهْرِهِ زَهْرٌ ونَوْرٌ يَنْجُمُ

وكما يَشُقُّ سَنَا المَجَرَّةِ جَرّه * وادٍ يَشُقُّ الأرضَ طامٍ مُفْعَمُ

لم يَبْقَ إلا الدَّهْرُ إذ باهَتْ به * وحَيًا يَجُودُ بِهِ مَلِكٌ مُزْهِمُ

وقول الآخر :

طَـرَقَ الحَيـاءُ بِبِرِّهِ المَشْكُورِ * أهْـلًا به مِنْ زائِرٍ ومَزُورِ !

وحَبَا الرِّياضَ غِلالةً مِنْ وَشْـيِهِ * بغَرائِبِ التَّفْوِيفِ والتَّحْبِـيرِ

وأعَارَهـا حَلْيـا تأنَّى الغيثُ فى * تَرْصِـيعِه بجَواهِرِ المَنْثُـور

بمُـوَرَّدٍ كمُوَرَّدِ اليـاقُوتِ قا * رَنَ أبيَضًا كمَصاعِدِ الكافُور

ومُعَصْـفَرٍ شَرِقٍ وأصْـفَرَ فاقِعٍ * فى أخْضَرٍ كالسُّـنْدُسِ المَنْشُور

فكأنَّ أزرَقَهُ بَقَايَا إثْمِـدٍ * فى أعْـيُنٍ مَكْحُولةٍ بفُتُـورِ

كَمُلَتْ صِفاتُ الزَّهْرِ فيه فنابَ عَمَّـا * غاب مِنْ أنْواعِهِ بحُضُـورِ

وقول الآخر :

اشْربْ هَنِيئًا قَدْ أتاكَ زَمانُ * متعطِّـرٌ متَهَلِّلٌ نَشْوانُ

فالأرضُ وَشْيٌ والنَّسِيمُ مُعَنْبَرٌ * والمـاءُ راحٌ والطُّيورُ قِيـانُ

الثـانى ـ فصل الصيف : وهو أحد وتسعون يوما وربع يوم ونصف ثمن يوم وٱبتـداؤه إذا حلّت الشمسُ رأسَ السَّرطانِ، وٱنتهاؤه إذا أتتْ علىٰ آخِرِ درجة من السُّنْبلة؛ فيكون له من البُروج السرطانُ، والأسـدُ، والسنبلة . وهذه البروج تدلُّ علىٰ السُّكون، وله من الكواكب المِرِّيخ والشمسُ؛ ومن المنازل النَّثرةُ ، والطَّرْفُ، والجبهةُ ، والزُّبرة ، والصَّرْفة ، والعوَّاءُ ، والسِّماكُ يتداخل فيـه؛ وله من الساعات الرابعة والخامسة والسادسة ، ومن الرياح الصَّبَا ، وطبعُه حارّ يابس؛ وله من السنّ الشَّبابُ ؛ ومن الأخلاط المِرّةُ الصـفراءُ ؛ ومن القُوَى القوّة النفسية والحيوانية . وللعرب فى هـذا الفَصْـل وغَراتٌ : وهى الحُرورُ؛ منها وغْرَةُ الشِّعرىٰ، ووَغْرة الجوزاءِ ، ووَغْرة سُهَيل ، أوّلها أقواها حرًّا ؛ يقال إن الرجل فى هذه الوغرة يَعْطَشُ بين الحوضِ والبئر، وإذا طلع سُهيلٌ ذهبت الوَغَراتُ ؛ وتُسمَّى الرياحُ التى فى هذه

الوَغَراتِ البَوارحَ؛ سميت بذلك لأنها تأتى من يسار الكعبة كما بَرَح الظَّبْىُ إذا أتاك من يسارك ؛ وقد أُولِعَ الناسُ بيْن لَفَحات الحرّ وسَمُومه ، وأَتوا فيه ببدائعَ تقلَعُ من قلب الصَّبِّ غَمامَ غُمومه . وفى ذلك قول بعضهم : أوقدت الظهيرةُ نارَها ، وأذْكَتْ أُوَارَهـا ، فأذابت دِمَاغَ الضَّبّ ، وألهبت قلبَ الصَّبّ ؛ هاجرةٌ كأنهـا من قلوب العُشّاق ، إذا آشتعلت فيها نارُ الفِراق ؛ حَرٌّ تَهرُبُ له الحِرْباءُ من الشمس ، وتستجير بمتراكم الرَّمْس ؛ لا يطيب معـه عيش ، ولا ينْفَع معه ثَلْج ولا خَيْش ؛ فهو كالقلب المهجور ، أو كالتَّنُّور المَسْجور . ووصف بعضُهم : وهو ذو الرمّة حَرَّ هَاجرةٍ فقال :

وهَاجرةٍ حَـــرُّها واقِـــدٌ * نَصبْتُ لحـاجِبِها حاجِبى
تَلُوذُ من الشَّمْسِ أطْلاؤُها * لِيَـاذَ الغَريمِ من الطَّـالب
وتَسْـجُد للشمسِ حِرباؤها * كما يَسْـجُد القَسُّ للرَّاهِب

وقال سوّار بن المُضَرِّس :

وهاجِرةٍ تُشْـتَوَى بالسَّمُوم * جَنَـادِبُها فى رُءُوسِ الأَكَمْ
إذا المَوْتُ أخْطَأَ حِرْباءَهَا * رمىٰ نَفْسَه بالعَمىٰ والصَّمَمْ

وقال أبو العَلاء المَعرّى :

وهَجِـــيرةٍ كالهَجْرِ مَوْجُ سَرَابِها * كالبَحْرِ لَيْس لِمـائها من طُحْلُبِ
واخىٰ بِه الحِرْباءُ عُودَىْ مِنبَرٍ * للظُّهْــر إلا أنه لم يَخْطُبِ

وقال آخر :

ورُبَّ يَوْمٍ حَـرُّه مُنْضِجٌ * كـأنَّهُ أحْشَـاءُ ظَمْآنِ
كأنَّمـا الأَرْضُ علىٰ رَضْفةٍ * والجَــوُّ مَحْشوٌّ بِنِـيرانِ

وبالغ الأمير ناصرُ الدين بن الفقيسى فقال من أبيات :

فى زَمانٍ يَشْـوِى الوُجُوهَ بحَـرٍّ * ويُذِيبُ الجُسُـومَ لو كُنَّ صَخْـرا

لا تَطِيرُ النُّسورُ فيهِ إذا مَا * وَقَفَتْ شَمْسُه وقارَبَ ظُهْرا
يَشْتَكِى الضَّبُّ ما اشتكىٰ الصَّبُّ فِيهِ * ولِحِرْبائِهِ إلىٰ الظِّلِّ حَرَّا
ويَودُّ الغُصْنُ الرَّطِيبُ بِه لَوْ * أنَّهُ مِنْ لِحَائِهِ يتَعَرَّى

وقال أيضا يَصِف ليلة شديدةَ الحرّ

يا لَيْلَةً بِتُّ بِهَا ساهِرًا * مِنْ شِدَّةِ الحَرِّ وفَرْطِ الأُوَارْ
كأنَّنِى فى جُنْحِها مُحْرِم * لو أنَّ لِلْعَوْرَةِ مِنِّى آسْتِتَارْ
وكَيْفَ لا أُحْرِمُ فى لَيْلَةٍ * سماؤُها بالشُّهْبِ تَرْمِى الجِمَارْ

علىٰ أن أبا علِىّ بن رَشِيق قد فَضَّله علىٰ فصل الشتاء فقال :

فَضْلُ الشِّتاءِ مُبِينٌ لا خَفَاءَ بِهِ * والصَّيْفُ أفضَلُ مِنْهُ حِينَ يَغْشَاكَا
فِيهِ الَّذِى وَعَدَ اللهُ العِبَادَ بِهِ * فِى جَنَّةِ الخُلْدِ إن جَاءُوه نُسَّاكَا
أنْهارُ خَمْرٍ وأطْيارٌ وفاكِهَةٌ * ماشِئْتَ مِنْ ذَا ومِنْ هَذَا ومِنْ ذَاكَا
فَقُلْ لِمَنْ قال لَوْلَا ذاكَ لَمْ يَكُ ذَا * إذًا تُفَضِّلُ علىٰ أُخْرَاكَ دُنْيَاكَا
سَمِّ الشِّتَاءَ بعَبَّاسٍ تُصِبْ غَرَضًا * من الصَّوابِ وسَمِّ الصَّيْفَ ضَحَّاكَا

الثالث ـ فصل الخريف : وهو أحد وتسعون يوما وربع يوم ونصف ثمن يوم . وأوّله عند حُلُول الشمس رأسَ الميزان، وذلك فى الثامن عشر من توت وإذا بَقِىَ من أيلول ثمانية أيام؛ وآخره إذا أتت الشمسُ علىٰ آخر درجة من القَوْس؛ فيكون له من البروج الميزانُ والعقربُ والقوسُ؛ وهذه البروج تدلُّ علىٰ الحركة، وله من الكواكب زُحَلُ، ومن الساعات السابعة والثامنة . والطالع فيه مع الفجر من المنازل الغَفْر والزُّبَانان والإكليل والقَلْب والشَّوْلة والنَّعائم والبَلْدة يتداخل فيه . وهو بارد يابس، له من السِّن الكُهُولة؛ تهيج فيه المِرَّة السَّوْداء وتقوىٰ فيه القوّة الماسكةُ، وتهبُّ فيه الرياح الشَّمالِيَّة، وفيه يبرُد الهواء، ويتغيَّر الزمانُ، وتتصرم

الثِّمارُ، ويتغير وجهُ الأرض، وتُهْزَل البهائم، وتموت الهوامّ، وتَجْحَرُ الحَشَرات، ويطلب الطير المواضع الدَّفِئة، وتصير الأرض كأنها كَهْلةٌ مُدْبِرة . ويقال : فصل الخريف ربيعُ النفْس كما أن الربيعَ ربيعُ العين : فإنه ميقاتُ الأقوات، ومَوْسِم الثِّمار وأوانُ شَبَاب الأشجار؛ وللنُّفوس فى آثاره مَرْبَع، وللجُسوم بمواقع خيراته مستمْتَع . وقد وصفه الصابى فقال " الخريف أصحُّ فصول السنة زمانا، وأسهلها أوانا؛ وهو أحد الاعتدالين المتوسِّطين بين الانقلابين، حين أبدَتِ الأرض عن ثمرتها، وصَرَّحت عن زُبْدتها؛ وأطلقت السماءُ حَوَافِلَ أنوائها، وآذنتْ بانسكاب مائها؛ وصارتِ المَوَارد، كمُتون المَبَارد؛ صفاءً من كَدَرها، وتهذبا من عَكَرها؛ واطّرادا مع نَفَحات الهواء، وحركات الرِّياح الشَّجْواء؛ واكتست الماشيةُ وبَرَها القشيب، والطائرُ ريشَه العَجيب " .

ومن كلام ابن شبل : كلُّ مايظهَرُ فى الربيع نُوَّارُه، ففى الخريف تُجْتَنَى ثِمارُه .

وقال أبو بكر الصنوبرى :

ما قَضَى فى الرَّبيعِ حَقَّ المَسَرَّا * تِ مُضِيعٌ لِحَقِّها فى الخَرِيفِ
نحنُ مِنْه على تَلَقِّى شِتاءٍ * يُوجِبُ القَصْفَ أو وداعِ مَصِيفِ
فى قَمِيصٍ من الزَّمانِ رَقِيقٍ * ورِدَاءٍ من الهَوَاءِ خَفِيفِ
يَرْعُدُ الماءُ فيه خوفاً إذا ما * لَمَسَتْه يَدُ النَّسيمِ الضَّعِيفِ

وقال ابن الرومى يصفه :

لَوْلَا فواكهُ أيْلُولٍ إذا اجتمعَتْ * من كُلِّ فَنٍّ ورَقَّ الجوُّ والماءُ
إذًا لَمَا حفَلَتْ نفسى إذا اشتَمَلَتْ * علىّ هائلةُ الحالَيْنِ غَبْراءُ
ياحَبَّذَا ليلُ أيْلُولٍ إذا بَرَدَتْ * فيهِ مَضاجِعُنا والرِّيحُ شجواءُ !
وخَمَّش القُرُّ فيه الجِلْدَ والتأمَتْ * من الضَّجِيعَيْنِ أجسامٌ وأحْشاءُ

وأسْـفَرَ القَمرُ السارِى بصَفْحَتِهِ * يُرىٰ لهـا فى صَـفَـاءِ المـاء لألاءُ
بل حَبَّـذَا نَفْحةٌ من رِيحِهِ سَحَرًا * يأْتيـك فيها من الرَّيْحان أنْباءُ
قُلْ فيه ما شِئْتَ من فضل تَعَهَّدُه * فى كُلِّ يومٍ يَدٌ لله بَيْضَـاءُ

وقال عبد الله بن المعتز يصفه ويفضله علىٰ الصيف من أبيات :

طابَ شُرْبُ الصَّبُوح فى أيْلُولِ * بَرَدَ الظلُّ فى الضُّحىٰ والأَصيلِ
وخَبَتْ لَفْحةُ الهـوا جِرِعَنَّـا * وٱستَرَحْنَا من النَّهـار الطَّوِيلِ
وخرجْنَا من السَّمُومِ إلىٰ بَرْ * دِ نَسِيم وطِيبِ ظِلٍّ ظَلِيـلِ
فكأنَّا نَزْدادُ قـربا من الجنّـ * ـةِ فى كُلِّ شَارِقٍ وأَصِيلِ
ووُجُوهُ البِقَـاعِ تَنْتَظِـر الغَيْـ * ـثَ ٱنتِظَارَ المُحِبِّ رَدَّ الرَّسُولِ

وقريب منه قول الآخر :

اِشْرَبْ علىٰ طِيبِ الزَّمانِ فقَدْ حَدَا * بالصَّـيْف للنُّدْمانِ أطْيَبُ حادِ
وأشَمَّنـا باللَّيْـلِ بَرْدَ نَسِيمِه * فٱرتاحَتِ الأرْواحُ فى الأجْسَادِ
وافَاكَ بالأَنْداءِ قُـدَّامَ الحَيَـا * فالأرضُ للأمطـار فى ٱستِعْدادِ
كَمْ فى ضَمَائِرِ تُرْبِها من رَوْضةٍ * بمَسِيلِ ماءٍ أو قَـرَارَةِ وَادِ
تَبْدُو إذا جاء السَّحابُ بقَطْـرِهِ * فكأَنَّمَا كُنَّا علىٰ مِيعـادِ

ومما يقرُب منه قول جَحْظَةَ البرمكىّ :

لا تَصْـغَ لِلَّوْمِ إن اللَّوْمَ تَضْلِيلُ * وٱشرَبْ ففى الشُّرب للأَحْزان تَحْلِيلُ
فقدْ مَضىٰ القَيْظُ وٱجتُثَّت رَوَاحِلُه * وطـابت الرِّيحُ لمـا آلَ أيْلُولُ
وليس فى الأرض بيتٌ يشتَكِى مَرَهًا * إلا وناظِـرُه بالطَّـلِّ مَكْحُولُ

وبالغ بعضهم فسوّىٰ بينه وبين فصل الربيع فقال فى ضِمْن تهنئةٍ لبعض إخوانه :

هُنِّيتَ إقْبَـالَ الخَـرِيـ * ـفِ وفُزْتَ بالوَجْه الوَضِـ

تَمَّ ٱعتِدَالًا فى السَّمَا * ل بجاء فى خَلْقٍ سَوِىّ
فَحَكَى الرَّبِيعَ بحُسْنِهِ * ونَسِيمِ رَيَّاهُ الذَّكِىّ
ويَنُوبُ وَرْد الزَّعفرا * نِ له عَنِ الوَرْدِ الجَنِىّ

وأبلغ منه قول الآخر، يفضله على فصل الربيع الذى هو سيدُ الفصول ورئيسُها :

مَحَاسِنُ للخَرِيفِ لَهُنَّ فَخْرٌ * علىٰ زَمَن الرَّبِيعِ وأىُّ فَخْر
بِهِ صار الزَّمَانُ أَمَامَ بَرْدٍ * يُرَاقِبُ نَزْحَه وعَقِيبَ حَرّ

ومع ذلك فالأطباء تذمُّه لٱستيلاء المِرّة السَّوْداء فيه، ويقولون إنَّ هواءه ردىءٌ متىٰ تشبَّث بالجسم لا يمكن تَلَافيه؛ وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

خُذْ فِى التَّدَثُّرِ فى الخَرِيفِ فإنَّهُ * مُسْتَوْبِلٌ ونَسِيمُه خَطَّافُ
يَجْرِى مَعَ الأَيَّامِ جَرْىَ نِفَاقِهَا * لصَدِيقِها ومن الصَّدِيقِ يُخَافُ

الرابع ـ فصل الشتاء : وهو أحد وتسعون يوما وربع يوم ونصفُ ثُمن يوم، ودخولُه عند حُلول الشمس رأسَ الجَدْى ؛ وذلك فى الثامن عشر من كيهك وإذا بَقِى من كانون الأوّل ثمانيةُ أيام؛ وآخره إذا أتت الشمسُ علىٰ آخر درجةٍ من الحُوت فيكون له من البروج الجَدْىُ والدَّلْو والحُوت ؛ وهذه البروج تدلُّ علىٰ السكون؛ والطالعُ فيه مع الفجر سعدُ الذابحُ ، وسعدُ بُلَعَ ، وسعدُ السُّعود، وسعدُ الأَخْبِيَة، والفَرْغُ المقدَّم والفَرْغ المؤخَّر، والرِّشاء. فيه تَهُبُّ رياح الدَّبُور؛ وهو بارد رَطْب . فيه يَهِيج البَلْغَم ، وتضعُف قُوىٰ الأبدان . له من السِّن الشيْخُوخة ومن القُوىٰ البدنيَّة القُوّة الدافعة ؛ وفيه يشتدّ البَرْد ، ويَخْشُن الهواء ، ويتساقط ورقُ الشَّجَر، وتَنْجَحِرُ الحيَّات ، وتكثر الأنواء، ويُظْلِم الجوُّ وتصير الأرضُ كأنها عجوزٌ هَرِمة ، قد دنا منها الموتُ . وله من الكواكب المُشْتَرِى وعُطاردٌ . ومن الساعات العاشرةُ والحادية عشرةَ . ويقال إذا حلَّت الشمسُ الجَدْىَ مدّ الشِّتاء رُواقَه ، وحلّ نِطاقَه ؛ ودبَّت

عقاربُ البَرْدِ لاسِبه ، ونفع مُدَّخَرُ الكسبِ كاسِبَه . وللبلغاء فى وصف حال من أظله ، مُلَحٌ تدفع عن المقرور متىٰ آستعدّ بها طَلَّه ووبْلَه .

فمن ذلك قول بعضهم يَصف شِدّة البرد: "برد يغَيِّر الألوان، ويَنَشِّف الأبدان، ويُجَمِّد الريقَ فى الأشْداق، والدَّمع فى الآماق؛ بردٌ حال بين الكلب وهَريره، والأسدِ وزَئيره، والطيرِ وصَفيره، والماءِ وخَريره".

ومن كلام الفاضل : "فى ليلة (١) جَمَد خمرُها، وخَمَد جَمرُها؛ إلىٰ يومٍ تَوَدّ البَصَلة لو آزدادت قُمُصا إلىٰ قُمُصها، والشمسُ لو جَرَّت النارَ إلىٰ قُرْصها؛ أخذه بعضهم فقال :

وَيَوْمُنا أرياحُــهُ قَــرَّةٌ * تَخْمِش الأبْدانَ من قَرْصِها
يَوْمٌ تَوَدُّ الشمسُ من بَرْدِه * لو جَرَّتِ النـارَ إلىٰ قُرْصِها

ولآبن حكينا البغدادىّ :

اِلْبَسْ إذا قَـدِم الشِّتاءُ بُرودَا * وآفْرُشْ علىٰ رَغْم الحَصِيرِ لُبُودَا
الرِّيقُ فى اللَّهواتِ أصْبَحَ جامِـدًا * والدَّمْعُ فى الآماقِ صـار بُرُودا
وإذا رَمَيْتَ بفَضْل كأسِكَ فى الهَوَا * عادَتْ إليْــكَ من العَقيقِ عُقُودا
وترىٰ علىٰ بَرْدِ المِيـاهِ طُيورَهـا * تختــارُ حَرَّ النـارِ والسَّــفُّودا
ياصاحِبَ العُودَيْنِ لا تُهمِلْهُــما * حَرِّقْ لنـا عُــودًا وحَرِّكْ عُودا

ولبعضهم :

شِتاءٌ تَقْلِصُ الأشداقُ منه * وبَرْدٌ يجعَلُ الشُّـبَّانَ شِيبَا
وأرضٌ تَزْلَقُ الأقدامُ فيها * فمـا تَمْشِى بهـا إلَّا دَبِيبَا

ومن كلام الزمخشرى :

أقبلْتَ يا بَرْدُ بــبَرْدٍ أجْـرَدِ * تَفْعَل بالأوْجُهِ فِعْــلَ المِبْرَدِ

---

(١) لعله من بدليل الى .

أَظَلُّ فى البَيْتِ كمِثْلِ المُقْعَدِ * مُنْقَبِضًا تحتَ الكِسَاءِ الأَسْوَدِ
لَوْ قِيلَ لِى أنْتَ أميرُ البَلَدِ * فهاتِ للبَيْعَةِ كَفًّا يُعْقَدِ

ومن كلام أبى عبد الله بن أبى الخِصَال، يصف ليلةً باردةً من رسالة : والكلبُ قد صافَحَ خيشومُهُ ذَنَبَه، وأنكر البيتَ وطُنُبَه، والتوى الْتِوَاءَ الحُبَاب، وٱستدار استِدَارةَ الحُبَاب، وجلَّده الجَليد، وضَرَبه الضَّرِيب، وصَعَّد أنفاسَه الصَّعِيد، فحِمَاه مُبَاح، ولا هَرِيرٌ ولا نُبَاح .

ومن شعر الحماسة فى وصف ليلة شديدة البَرْد :

فى ليلةٍ من جُمادىٰ ذاتِ أَنْدِيَةٍ * لايُبْصِرُ الكَلْبُ من أنْدائِها الطُّنُبا
لايَنْبَحُ الكَلْبُ فيها غَيْرَ واحِدةٍ * حتَّى يَلُفَّ علىٰ خَيْشُومه الذَّنَبا

ولأبى القاسم التنوخىّ :

ولَيْلَةٍ تَرَكَ البَرْدُ البِلَادَ بها * كالقَلْبِ أُسْعِرَ نارًا فهو مَثْلُوج
فإنْ بَسَطْتَ يَدًا لم تَنْبَسِطْ خَصَرًا * وإنْ تَقُل فبِقَوْلٍ فيه تَثْبِيجُ
فنحنُ منه ولم نُخْرَسْ ذَوُو خَرَسٍ * ونَحْنُ فيه ولم نُفْلَجْ مَفَالِيجُ

وقال بعضهم يصف يوما باردا كثير الضَّبَاب :

يَوْمٌ من الزَّمْهَرِيرِ مَقْرُورُ * عَلَيْهِ جَيْبُ السَّحابِ مَزْرُورُ
وشَمْسُهُ حُرَّةٌ مُخَدَّرةٌ * لَيس لَهَا مِنْ ضَبابِهِ نُورُ
كأنَّما الجَوُّ حَشْوُهُ إبَرٌ * والأرْضُ مِنْ تَحْتِهِ قَوارِيرُ

وحكى أنَّ أعرابيًّا ٱشتدّ به البردُ فأضاءتْ نارٌ فدَنَا منها ليَصْطلِىَ، وهو يقول : اللهم لاتَحْرِمْنِيها فى الدُّنيا ولا فى الآخرة! . أخذه بعضُهم فقال وهو فى غاية المبالغة :

أيارَبِّ إن البَرْدَ أصبحَ كالِحًا * وأنتَ بِحَالِى عالِمٌ لا تُعَلَّمُ
فإن كُنْتَ يَوْمًا مُدْخِلِى فى جَهَنَّمٍ * ففِى مِثْلِ هَذَا اليَوْمِ طابَتْ جَهَنَّمُ

وقد اعتنى الناس بمدحه فقال بعضهم : لو لم يكن من فضله إلا أنه تَغِيبُ فيه الهوَامُّ وتَنْجحر الحَشَرات، ويموت الذُّباب، ويَهْلِكُ البَعُوض، ويَبْرُد الماء، ويَسْخُن الجوف، ويَطِيبُ العِناق، ويظهر الفرش، ويكثر الدخن، وتلذ جمرة البيت .

وتابعه بعض الشعراء فقال :

تركَتْ مقدِّمةُ الخَرِيف حميـده * وبدا الشِّـتاءُ جَـديدُه لايُنْكَرُ
مَطَرٌ يرُوقُ الصَّحْوُ منـه وبَعْدَهُ * صَحْوٌ يَكادُ من الغَضارةِ يمطر
غَيْثـانِ : والأَنْوَاءُ غَيْثٌ ظاهِرٌ * لكَ وجْهُه والصَّحْو غَيْث مُضْمَر

وقال أبو الفتح كُشَاجم :

أذِنَ الشِّـتاءُ بلَهْوِهِ المسـتَقْبَلِ * فـدَنَتْ أوائلُه بغيثٍ مُسْـبَلِ
مُتَكاثِفِ الأنواءِ مُنْغَـدِقِ الحَيَا * هَطِلِ النَّدىٰ هَزِجِ الرُّعود بجُلْجُلِ
جاءتْ بعَزْلِ الجَدْبِ فيهِ فبَشَّرتْ * بالخِصْبِ أنواءُ السِّماكِ الأعْزلِ

وقد وَلِـع الناسُ بذكْرِ الاعتدادِ لهـا قديمـا وحديثا .

قيل لأعرابىّ ماأعدَدْتَ للبرد ؟ فقال طُولُ الرِّعْده، وتَقَرْفُص القِعْده، وذوب[1] المِعْده . أخذه ابن سُكَّرة، فقال :

قِيـلَ ماأعْدَدْتَ للبَرْ * دِ وقد جاء بِشِـدّه
قُلْتُ دُرَّاعـةُ عُرْيٍ * تحتهـا جُبَّـةُ رِعْدَه

واعلم أن ما تقدّم من أزمان الفصول الأربعة هو المصطَلَح المعروف، والطريق المشهور . وقد ذكر الأبّىّ فى كتاب الدرّ أن العرب قسَّمت السنةَ أربعة أجزاء فجعلوا الجزء الأوّل الصَّـفَرِيَّة، وسمَّوا مطرَه الوَسْمِىَّ، وأوّلُه عنـدهم سُـقُوط عَرْقُوة الدَّلْو السُّفْلىٰ، وآخِرُه سقُوط الهَقْعة، وجعلوا الجزء الثانى الشتاء، وأوّله سقوط الهَنْعة،

(١) لعل الصواب وذَرَب بالراء بدل الواو .

وآخره سقوطُ الصَّرْفة . وجعلوا الجزء الثالث الصيف، وأوّله سقُوط العوّاء، وآخره سقُوط الشَّوْلة . وجعلوا الجزء الرابع القَيْظ، وسموا مطَره الخَرِيف، وأوّله سقُوط النَّعائم، وآخره سقوط عَرْقُوَة الدَّلْو العُلْيا .

وذكر ابن قتيبة فى "أدب الكاتب" طريقا آخر فقال .

"الربيع يذهب الناس إلىٰ أنه الفصل الذى يتبعُ الشتاءَ، ويأتى فيه الوردُ والكَمْأَة، والنَّوْر؛ ولا يعرِفون الربيع غيرَه . والعرب تختلف فى ذلك : فمنهم من يجعل الربيع الفصل الذى تُدْرِك فيه الثمارُ، وهو الخريف، وبعده فصلُ الشتاء، ثم فصل الصيف : وهو الوقت الذى تسمِّيه العامَّةُ الربيعَ؛ ثم فصلُ القَيْظ : وهو الذى تسميه العامة الصيفَ، ومنهم من يسمِّى الفصلَ الذى تُدْرِك فيه الثمارُ : وهو الخريف الربيعَ الأوّل، ويسمِّى الفصل الذى يلى الشتاء وتأتى فيه الكَمْأَة والنَّوْر الربيعَ الثانى؛ وكلهم مجمعون علىٰ أن الخريف هو الربيع" .

وفى بعض التعاليق أن من العرب من جعل السنة ستة أزْمنة . الأوّل الوَسْمِىّ وحِصَّتُه من السنة شهران، ومن المنازل أربع منازلَ وثُلثَا منزلةٍ : وهى العَوّاء، والسِّماك والغَفْر، والزُّبَانانِ، وثلثَا الإكليل . الثانى الشتاءُ، وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربعُ منازلَ وثُلُثَا منزلة : وهى ثلُثُ الإكليل، والقلبُ، والشَّوْلة، والنَّعائمُ، والبَلْدة، وثلُثُ الذَّابِح . الثالث الربيع، وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربعُ منازلَ وثلُثَا منزلةٍ، وهى ثلثَا الذابح، وبُلَعُ، والسُّعُود، والأخْبِيَةُ، والفَرْغ المقدّم . الرابع الصيف، وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربع منازل وثلثا منزلة، وهى الفَرْغ المؤخَّر، وبطْن الحوت، والشَّرطان، والبُطَين، وثلثا الثريَّا . الخامس الحَميم، وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربعُ منازلَ وثُلثَا منزلة : وهى ثلث الثريا، والدَّبرانُ، والهَقْعة، والهَنْعة، والذِّراع وثلُثُ النثرة . السادس

الخريف، وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربعُ منازلَ وثُلُثَا منزلة : وهى، ثلثا النَّثْرة، والطَّرْف، والجَبْهة، والخَرَتان، والصَّرْفة .

والأوائل من علماء الطِّب يقسِمُون السنة إلىٰ الفصول الأربعة إلا أنهم يجعلون الشتاء والصـيف أطولَ زمانا وأزيد مُدَّة من الربيع والخريف، فيجعلون الشِّـتاء أربعةَ أشهر، والصيفَ أربعة أشهر، والربيع شهرين، والخريف شهرين، إذ كانا متوسطَين بين الحرّ والبرد وليس فى مُدّتهما طُول ولا فى زمانهما ٱتِّساع .

وٱعلم أن ما تقدّم من تفضـيل بعض الفُصول علىٰ بعض إنما هو أقاويل الشُّعَراء وأفانينُ الأدباء، تفنُّنا فى البلاغة، وإلا فالواضع حكيم جعل هذه الفصولَ مشتملةً علىٰ الحرّ تارة وعلىٰ البرد أخرىٰ لمَصَالح العباد، ورتَّبها ترتيبا خاصًّا علىٰ التدريج، يفهَم ذلك أهلُ العقول وأرباب الحِكْمة، جلَّتْ صنعتهُ أن تكون عَرِيَّة عن الحكمة أو موضوعة فى غير موضعها ﴿ماتَرىٰ فى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ من تَفَاوُتٍ فارجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرىٰ مِنْ فُطُورٍ ثم ٱرْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إلَيْكَ البَصَرُ خاسِئًا وهو حَسِيرٌ﴾ :

الطـــرف الرابع

(فى أعياد الأمم ومواسمها : وفيه خمس جمل)

الجملة الأُولىٰ

(فى أعيـاد المسلمين)

واعلم أن الذى وردت به الشريعة وجاءت به السنَّة عيدانِ : عيدُ الفِطْر، وعيدُ الأضحىٰ . والسبب فى ٱتخاذهمـا مارواه أبو داود فى سُنَنه عن أنس بن مالك رضى الله عنه "أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قَدِم المدينةَ ولِأهْلِها يَوْمانِ يَلْعَبُونَ فيهما، فقال : ماهٰذانِ اليَوْمان؟ فقالوا كُنَّا نَلْعَبُ فيهما فى الجاهليَّةِ ؛ فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم إنّ اللهَ عزّ وجلّ قد بَدَّلَكُمْ خيْرًا مِنْهما يومَ الأضحىٰ، ويومَ الفِطْر" فأوّل مابُدِئ به من العيدين عيد الفطر، وذلك فى سنة آثنتين من الهجرة . وروى آبن باطيش فى كتاب الأوائل أن أوّل عيد ضحّى فيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سنةَ آثنتين من الهجرة وخرج إلىٰ المصلّى للصلاة، وحينئذ فيكون العيدانِ قد شُرِعا فى سنةٍ واحدة؛ نعم قد آبتدعت الشيعة عيدا ثالثا وسمَّوْه عيد الغَدِير . وسبب آتخاذهم له مؤاخاة النبيّ صلى الله عليه وسلم لعلىّ كرم الله وجهه يومَ غَدِيرِ خُمّ : وهو غدير على ثلاثة أميال من الجُحْفة يَسْرَةَ الطريق تصُب فيه عينٌ وحوله شجرٌ كثير، وهى الغَيْضة التى تسمَّى خُمًّا . وذلك أن رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم لما رجع من حَجَّة الوَدَاع نزل بالغَدِير وآخىٰ بين الصحابةِ ولم يؤاخ بين علىٍّ وبينَ أحدٍ منهم فرأىٰ النبىّ صلى الله عليه وسلم منه آنكسارا فضمَّه إليه وقال "أمَا تَرْضىٰ أن تكونَ مِنّى بمنزلة هارُونَ من مُوسىٰ إلا أنّه لا نبِىَّ بَعْدِى والْتفتَ إلىٰ أصحابه وقال مَنْ كُنْت مَوْلاه فَعلِىّ مَوْلاه ، اللهم وَالِ مَنْ وَالاهُ، وعادِ مَنْ عاداه" وكان ذلك فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنةَ عشرٍ من الهجرة . والشيعة يُحيُون ليلةَ هذا العيد بالصلاة ويصلُّون فى صبيحتها ركعتين قبل الزوال وشِعارُهم فيه لُبْس الجديد، وعِتْقُ العبيد، وذَبْحُ الأغنام، وإلحاق الأجانب بالأهل فى الإكرام . والشعراء والمترسلون يهنِّئُون الكبراء منهم بهذا العيد .

الجملة الثانية

(فى أعياد الفرس)

وكان دينهم المجوسية، وأعيادهم كثيرة جدّا حتّى إن علىّ بن حمزة الأصبهانىّ عَمِل فيها كتابا ذكر فيه أسباب آتخاذهم لها، وسببَ سُلُوكهم فيها؛ وقد آقتصرنا منها علىٰ المشهور الذى وَلِع الشعراءُ بذكره، وآعتنىٰ الأمراء بأمره؛ وهى سبعة أعياد .

العيد الأوّل النَّيْروز ـــ وهو تعريب نُوروز ، ويقال إن أوّل من ٱتخذه جم‌شاد أحد ملوك الطبقة الثـانية من الفُرْس ومعنىٰ شاد الشُّـعاع والضياء . وإن سبب ٱتخاذهم لهذا اليوم عيدا أن الدِّين كان قد فســد قبله ، فلمـا ملك جدّده وأظهره ، فسمِّى اليوم الذى ملك فيه نوروز أى اليوم الجديد . وفى بعض التعاليق أن جم‌شاد ملَك الأقاليمَ الســبعةَ والجنّ والإنس ، فٱتخــذ له عَجَلة ركِبَها ، وكان أوّل يوم ركبها فيه أوّل يوم من شهر افرودين ماه ، وكان مدّة ملكه لا يُريهم وجهه ، فلما ركبها أبرز لهم وجهه ، وكان له حظ من الجَمَـال وافرٌ ، فجعـلوا يوم رؤيتهم له عيدا ، وسمّوه نوروزا . ومن الفرس من يزعُم أنه اليومُ الذى خلق الله فيه النُّور ، وأنه كان معظَّما قبــل جم شاد . وبعضهم يزعم أنه أوّل الزمان الذى ٱبتدأ الفَلَكُ فيــه بالدَّوَران . ومدّته عندهم ستة أيام أوّلهـا اليوم الأوّل من شهر افرودين ماه الذى هو أوّل شهور سنتهم . ويســمُّون اليومَ السادس النُّوروزَ الكبير ، لأن الأكاسرة كانوا يقضُون فى الأيام الخمسة حوائجَ الناس علىٰ طَبَقاتهم ، ثم ينتقلون إلىٰ مجالس أُنْسِهم مع ظُرَفاء خواصِّهم .

وحكىٰ ٱبن المقفَّع أنه كان من عادتهم فيه أن يأتىَ الملِكَ رجل من الليل قد أُرْصِد لما يفعله ، مليح الوجه ، فيقفُ علىٰ الباب حتّى يُصْبِح ، فإذا أصبح دخل علىٰ الملِك من غير ٱستئذان ، ويقف حيثُ يراه ، فيقول له : من أنتَ ؟ ومن أين أقْبلتَ ؟ وأيْن تُرِيد؟ وما ٱسْمُك ؟ ولأىّ شىءٍ ورَدْت؟ ومامعك؟ فيقول : أنا المنصورُ! وٱسمى المُبارَك! ومن قِبَل الله أقبلتُ ! والملِكَ السعيدَ أردتُ! وبالهَنَاء والسلامة ورَدْت ! ومعى السَّــنةُ الجديدة ! ثم يجلس ، ويدخُلُ بعــده رجل معه طَبَق من فِضّة وعليه حِنْطة ، وشعير ، وجُلْبانٌ ، وحِمّص ، وسِمْسِم ، وأَرُزّ : من كل واحد سَبْعُ سُنْبُلات ، وسبعُ حَبّات ، وقطعةُ سُكَّر ، ودينارٌ ودِرْهم جديدان ، فيضع الطبق بين

يدى المَلِك ، ثم تُدْخَل عليه الهَدَايَا ، ويكون أوّل من يدخل عليه بها وزيره ، ثم صاحب الخَرَاج ، ثم صاحبُ المَعُونة ، ثم النـاس علىٰ طبقاتهـم ؛ ثم يقدَّم للملك رغيف كبيرٌ من تلك الحبوب مصنوعٌ موضوع فى سَلَّة ، فيأ كُل منـه ويُطْعِم من حضر ؛ ثم يقول : هـذا يومٌ جديدٌ ، من شهر جديدٍ ، من عامٍ جديد ، يحتاج أن يُجدّد فيه ما أخْلَقَ من الزَّمان ؛ وأحق الناس بالفضـل والإحسان الرأسُ : لفَضْله علىٰ سائر الأعضاء . ثم يخلَعُ علىٰ وُجُوه دولته ، ويصِـلُهم ، ويفرّق عليهم ماوصـل إليه من الهَدَايا .

وأما عوامُّ الفرس فكانت عادتُهم فيه رفعَ النار فى ليلته ، ورشَّ الماء فى صَبِيحتِه ؛ ويزعمون أن إيقاد النِّيران فيه لتحليل العفُونات التى أبقاها الشِّتاءُ فى الهواء . ويقال إنمـا فعلوا ذلك تنويها بذكره ، وإشهارا لأمره . وقالوا فى رَشِّ المـاء : إنمـا هو بمنزلة الشُّهْرة لتطهير الأبدان ممـا ٱنضاف إليها من دُخَان النار المُوقَدة فى ليلته .

وقال آخرون : إن سبب رش الماء فيه أن فَيْروز بن يزدجرد لما ٱستتم سُورَ جَىّ ، وهى أَصْبَهان القديمة لم تُمْطَر سبعَ سـنين فى مُلْكه ؛ ثم مُطِرت فى هذا اليوم ففرح الناسُ بالمطر وصَبُّوا من مائه علىٰ أبدانهـم من شِدّة فَرَحهم به ، فصار ذلك سُـنَّة عندهم فى ذلك اليوم من كل عام ، وما أحْلىٰ قولَ بعضهم يخاطب مَنْ يهواه ، ويذكر ما يُعتَمَد فى النيروز من شب النِّيران وصَبِّ الأمواه :

كَيْفَ ٱبتِهاجُكَ بالنَّيْروزِ ياسَكَنِى * وكلُّ مافيـــه يَحْكِينى وأَحْكِيهِ
فتارَةً كلَهيب النَّارِ فى كَبِـدى * وتارةً كتَـــوَالِى عَـــبْرَتِى فيهِ
أَسْلَمْتَنِى فيه ياسُؤْلِى إلىٰ وَصَبٍ * فكَيْفَ تُهْدىٰ إلىٰ مَنْ أَنْتَ تُهْدِيهِ

وأوّل من رسم هدايا النَّيْروز والمَهْرجان فى الإسلام الحجاجُ بنُ يوسفَ الثَّقفِىّ ، ثم رفع ذلك عمرُ بنُ عبد العزيز رضى الله عنـه ، وٱستمرّ المنعُ فيه إلىٰ أن فتح باب

الهديَّة فيه أحمدُ بن يوسف الكاتبُ فإنه أهدىٰ فيه للمأمون سَـفَطَ ذهبٍ فيه قِطْعة عُودٍ هندىّ فى طُوله وعَرْضه، وكتب معه : هــذا يومٌ جَرَتْ فيه العاده، بإتحاف العَبِيد الساده، وقد قلت :

عَلىٰ العَبْدِ حَقٌّ وهْو لاشَكَّ فاعِلُهْ * وإن عَظُم المَوْلىٰ وجَلَّتْ فَوَاضِلُهْ

أَلَمْ تَرَنَا نُهْــدِى إلىٰ الله مالَهُ * وإنْ كان عَنْهُ ذاغِنًى فهو قابِلُهْ

فَلَوْ كان يُهْــدىٰ للجَلِيلِ بقَدْرِه * لَقَصَّر عَنْهُ البَحْرُ يَوْمًا وساحِلُهْ

ولٰكِنَّنا نُهْــدِى إلىٰ مَنْ نُجِلُّهُ * وإنْ لم يَكُنْ فى وُسْعِنا مايُشَاكِلُهُ

وكتب سعيد بن حميد إلىٰ صديقٍ له يوم نَيْروز: هٰذا يومٌ سَهَّلتْ فيه السنَّةُ للعبيد الإهــداءَ للملوك ، فتعَلَّقَتْ كلُّ طائفةٍ من البِرّ بحسَب القُدْرة والهِمَّة، ولم أَجِد فيما أملِك مايَفِى بحقِّـك، ووجدتُ تقريظَـك أبلغَ فى أداء مايجب لك، ومن لم يُؤْتَ فى هَدِيَّته، إلا من جِهَة قُدرته، فلا طعنَ عليه .

هذا مايتعلق بنَيْروز الفُرْس من ذكر الهَـدَايا فيه ، وإيقادِ النار، ورشِّ المـاء، وأوّلِ من سنَّه . وأما تعلُّقه بالخراج فسيأتى الكلام علىٰ ذلك إن شاء الله تعالىٰ عند الكلام علىٰ جِبَاية الخَرَاج فى فنِّ الدِّيْونة .

العيد الثانى من أعياد الفُرس المَهْرجانُ ــ وهو فى السادس والعشرين من تشرين الأوّل من شهور السُّرْيان، وفى السادس عشر من مَهْرماه من شهور الفُرْس، وفى التاسع من أبيب من شُهور القبط ؛ و بينـه وبين النيروز مائةٌ وسبعةٌ وستون يوما، وهذا الأوانُ فى وسط زمان الخريف، وفى ذلك يقول الشاعر :

أُحِبُّ المَهْرَجانَ: لأنَّ فيه * سُرورًا للْمُلُوك ذَوِى السَّناء

وبابًا للمَصِــير إلىٰ أَوانٍ * تُفَتَّحُ فيــه أبوابُ السَّماء

ومدّته ستة أيام، ويُسمّى اليوم السادس منه المَهْرجان الاكبر، كما يُسمّى اليوم السادس من أيام النَّيْروز عندهم النيروز الأكبر،

قال المسعودى : وسبب تسميتهم لهذا اليوم بهذا الآسم أنهم كانوا يُسمُّون شُهُورهم بأسماء ملوكهم، وكان لهم ملك يسمّى مَهْر، يسير فيهم بالعُنْف والعَسْف، فمات فى النصف من هذا الشهر، وهو مَهْرماه، فسمّى ذلك اليوم مهرجان، وتفسيره نفس مهر ذهبت، والفُرْس تقدّم فى لغتها ماتؤخره العرب فى كلامها وهذه اللغة الفهلوية وهى الفارسية الأولىٰ . وزعم آخرون أن مهر بالفارسية حِفَاظ وجان الروح، وفى ذلك يقول عبيدُ الله بن عبدِ الله بن طاهر :

إذا ما تَحَقَّقَ بالمَهْرَجا * نِ مَنْ لَيْس يَعْرِفُ مَعْناهُ غاظا
ومَعْناهُ أن غَلبَ الفُرْسُ فِيهْ * فَسَمَّوْه للرُّوح فِيهِ حِفَاظا

ويقال إنما ظهر فى عهد افريدون الملك، ومعنىٰ هذا الآسم إدْراكُ الثأر، وذلك أن افريدون أخذ بثار جدّه جم شاد من الضَّحَّاك، فانه كان أفسد دينَ المَجُوسيَّة وخرج علىٰ جم شاد فأخذ منه المُلْك وقتله، فلما غَلَبه افريدون قتله بجبل دُنْباوَنْدَ، وأعاد المجوسية إلىٰ ما كانت، فاتَّخذ الفُرْسُ يوم قَتْله عيدا، وسَمّوه مَهْرجان، والمهر الوفاء، وجان سلطان، وكان معناه سلطان الوفاء،

وزعم بعضُ الفُرْس أن الضحَّاك هو النُّمْرود وافريدون هو إبراهيم عليه السلام، بلغتهم .

ويقال إن المَهْرجان هو اليوم الذى عُقِد فيه التاج علىٰ رأس اردشير بن بابك، أوّل ملوك الفُرْس الساسانيَّة . وكان مذهب الفرس فى المهرجان أن يَدَّهِن ملكُهم بدُهن البان تبرُّكا، وكذلك العوام، وأن يَلْبَس القصبَ والوَشْى، ويتُوّج بتاج عليه صورة الشمس وعجلتها الدائرة عليها، ويكون أوّل مَنْ يدخل إليه المُوبَذان بطبق فيه

أُتْرُجَّة، وقطعة سُكَّر، ونَبِقٌ، وسفَرْجل، وعُنَّاب، وتُفَّاح، وعنقودُ عِنَب أبيض، وسبع طاقاتِ آسٍ، قد زَمْزم عليها؛ ثم تدخُل الناس على طبقاتهم بمثل ذلك، وربما كانوا يذهَبون إلى تفضيله على النَّيْروز، وفيه يقول عبيدُ الله بن عبد الله بن طاهر:

أخَا الفُرْسِ إن الفُرْس تَعْلَمُ إنَّهُ * لأَطْيَبُ مِنْ نَيْرُوزِها مَهْرَجانُها

لِإدبار أيَّامٍ يغُمُّ هــواؤُها * وإقْبالِ أيَّامٍ يَسُرّ زَمانُهـا

قال المسعودى: وأهل المُرُوءات بالعراق وغيرها من مُدُن العجم يجعلون هـذا اليوم أوّلَ يوم من الشتاء فيُغيِّرون فيه الفُرُش والآلاتِ، وكثيرا من الملابس.

العيد الثالث السَّدَق ـ ويسمّى أبان روز، ويعمل فى ليلة الحادى عَشَر من شهر بهمن ماه من شهور الفُرْس، وسُنَّتهم فيه إيقاد النِّيران بسائر الأدهان والوَلُوع بها حتّى إنهم يُلْقُون فيها سائر الحُبُوب؛ ويقال إن سبب اتخاذهم لهذا العيد أن الأب الأوّل، وهو عندهم كيومرت لما كمل له من ولده مائةُ ولد زوّج الذكور بالإناث، وصنع لهم عُرْسا أكثر فيه وَقُود النيران، ووافق ذلك الليلةَ المذكورة فاستسنَّتْ ذلك الفرسُ بعده. وقد وَلِعت الشعراءُ بوصف هذه الليلة فقال أبو القاسم المطرِّز يصف سَدَقا عمِله السلطان ملكشاه بدِجْلة، أشعل فيه النِّيران والشموعَ فى السَّمارِيَّات[1] من أبيات:

وكُلُّ نارٍ على العُشَّاقِ مُضْرَمَــةٌ * من نارِ قَلْبِي أوْ مِنْ لَيْـلَةِ السَّــدَقِ

نارٌ تجَلَّتْ بهـا الظَّلْمـاءُ واشْتَبَهَتْ * بسُــدْفة الليــل فيهـا غُرَّة الفَلَقِ

وزارتِ الشمْسُ فيها البَدْرَ واصطَلَحا * على الكَواكِبِ بَعْــدَ الغيْظ والحَنَقِ

مَدّتْ على الأرض بُسْطًا من جَواهِرِها * ما بَيْنَ مُجْتَمِــع وارٍ ومُفْــتَرِق

مِثْــل المَصَابيحِ إلَّا أنَّهَــا نَزَلَتْ * مِن السَّماءِ بــلا رَجْمٍ ولا حَرَق

أعْجِبْ بِنَــارٍ ورِضْــوانٌ يسَــعِّرُها * ومالكٌ قائِمٌ منهـا عــلى فَــرَق

فى مجْلِسٍ ضَحِكتْ رَوْضُ الجِنَان لَهُ * لمـا جَلا ثَغْــرُه عن واضِحٍ يَقَق

---

(١) كذا فى نهاية الارب أيضا والاظهر السُّمَيْرِيَّات وهو اسم لنوع من السفن.

وقال ٱبن حجاج من أبيات، يمدح بها عَضُد الدولة :

لَيْلَتُنَا حُسْنُهَا عَجِيبُ * بالقَصْف والتيهِ قد تَحَقَّق
لِنَارِها فى السَّما لِسانٌ * عن نُور ضَوْءِ الصَّباحِ يَنْطِق
والجَوُّ منها قد صار جَمْرا * والنجْمُ منها قد كاد يُحْرَق
ودِجْلةُ أُضْرِمتْ حَرِيقًا * بألْفِ نارٍ وألِف زَوْرق
فماؤُها كلُّه حَمِيمٌ * قد فار مما غَلَى وبَقْبَق

وقال عبد العزيز بن نُباتَة من أبيات يمدح بها عضد الدولة أيضا :

لَعَمْرِى لقَدْ أذْكَى الهُمَامُ بأرْضِهِ * مُشَهَّرةً يَنْتَابُها الفخرُ صالِيَا
تَغِيبُ النُّجُوم الزُّهْرُ عِنْدَ طُلُوعِها * وتَحْسُدُ أيَّامُ الشُّهورِ اللَّيالِيَا
قِلادَةُ مَجْدٍ أغْفلَ الدَّهْرُ نَظْمَها * عليه وقد السِّنِينَ الخَوَالِيَا (١)
هِىَ اللَّيْلَةُ الغَرَّاءُ فى كُلِّ شَتْوَةٍ * تُغَادِرُ جِيدَ الدَّهْرِ أبْلَجَ حالِيَا

العيد الرابع الشركان ـ وهو فى الثالث عشر من تيرماه من شهور الفُرْس، زعموا أن أرس رمَى سهمه لما وقعتِ المُصالحةُ بين منوجهر وقراسياب التركى من المملكة على رَمْية سهم، فٱمتدّ السهمُ من جبال طَبَرِسْتان إلى أعالى طخارِستان .

العيد الخامس أيام الفرودجان ـ وهى خمسة أيام، أوّلها السادس والعشرون من أبان ماه من شهور الفُرْس، ومعناه تربيَة الرُّوح : لأنهم كانوا يعملون فيها أطعمةً وأشربةً لأرواح موتاهم، ويزعمون أنها تغتذى بها .

العيد السادس رُكُوب الكَوْسَج ـ ويعمل فى أوّل يوم من ادرماه من شهور الفُرْس، وسُنَّتهم فيه أن يركب فى كل بلد من بلادهم رجل كَوْسَج، قد أُعدّ لما يُصْنَع

---

(١) كذا فى الاصل . ولعله وقد بذ الخ

به بأكل الأطعمة الحارّة كالجَوْز، والثُّوم، واللَّحْم السمين ونحوها، وبشُرْب الشراب الصِّرف أيَّاما قبل حلول الشهر، فإذا حلَّ الشهر لبس غِلالةً سابُورِيَّة، وركب بقرة وأخذ علىٰ يده غُرابا، ويتْبَعه الناس يصُبُّون عليه الماء، ويَضْرِبونه بالثَّلْج، ويروِّحُون عليه بالمَرَاوح، وهو يصيح بالفارسية كرم كرم أى الحرّ الحرّ، يفعل ذلك سبعةَ أيام، ومعه أوباش الناس ينهَبُون ما يجِدُون من الأمتعة فى الحوانيت؛ وللسلطان عليهم مال، فإذا وُجِدوا بعد عصر اليوم السابع ضُرِبوا وحُبِسوا.

قال المسعودى: ولا يُعْرَف ذلك إلا بالعراق، وأرض العجم؛ وأهلُ الشام والجزيرة ومصرَ واليمن لا يعرفون ذلك. ويقال إن هذا الفِعْل كان يتداوله أهلُ كل بيت منهم كَوْسَجٌ، وحكىٰ الزمخشرى فى كتابه "ربيع الأبرار" أن سبب ذلك أن كَوْسجا كان يَشْرَب فى هذه الأيام الدَّواء، ويَطْلِي بدنه فيها فغَلَب عليها، وفى ذلك يقول الشاعر:

قَدْ رَكِبَ الكَوْسَجُ ياصَاحِ * فَٱنْزِلْ علىٰ الزَّهْرة والرَّاحِ
وٱنْعَمْ بآذِرْماه عَيْشًا وخُذْ * من لَذَّة العَيْش بأفْيَاحِ

والسَّنَة عندهم منقسمة علىٰ أقسام، فى أوّل كل قسم منها خمسةُ أيَّام تسمَّى الكنبهارات، زعم زرادشت أن فى كل يوم خلق الله تعالىٰ نوعا من الخليقة فهم يتخذونها أعيادا لذلك.

العيد السابع عيد بهمنجة — ويتخذونه فى يوم بهمن من شهر بهمن ماه، وسُنَّتهم فيه أنهم يأكلون فيه البَهْمَن الأبيض باللَّبن الحامض علىٰ أنه ينفع الحفظ؛ ورؤساء خُراسانَ يعملون فيه الدَّعَوات علىٰ طعامٍ يطبُخُون فيه كلَّ حبٍّ مأكولٍ ولحم حيوانٍ يؤكل، ويحضر ما يوجد فى ذلك الوقت من بقل أو نبات.

فهذه أعياد الفُرْس المشهورة الدائرة بين عامّتهم وخاصّتهم.

الجمـــلة الثـالثة

(فى أعياد القبط)

وٱعلم أن أعياد القبط كثيرة، وقد أتينا علىٰ ذكر تفصيلها سردا فى خلال شهور القبط مع ذكر غيرها ، وأوردنا كلَّ عيد منها فى يومه من شهور القِبْط، وربما ذكرنا بعضها أيضا فى شهور السُّريان والروم، علىٰ أن منها مالا يتعلق بوقتٍ مقيدٍ كالفِصْح الأكبر عنـدهم، فإنه متعلق بفِطْرهم من صومهـم الأكبر، وهو غير مؤقت بوقتٍ معينٍ، بل يتغير بالتقديم والتأخير قليلا علىٰ ما سـيأتى بيان ذلك إن شاء الله تعالىٰ، ونحن نقتصر فى هذا الفصـل علىٰ المشهور من أعيادهم دون غيره ، ونبين أوقاتها ، ونشرح أسبابها . وهى أربعة عشر عيدا . وهى علىٰ ضربين : كبار وصغار .

الضرب الأوّل

(الكبار : وهى سـبعة)

العيد الأول البِشارة، ويَعْنون به بِشارة غِبْريال، (وهو جبريل علىٰ زعمهم) لمريم عليها السـلام بميلاد عيسىٰ صلواتُ الله عليه، يعْمَلُونه فى التاسع والعشريـن من بَرمهات من شهور القبط .

الثانى الزَّيْتونة، وهو عيد الشَّعانين، وتفسيرُه بالعربِيَّة التَّسْبيح، يعملونه فى سابع أحد من صومهم . وسنَّتُهم فيه أن يَخْرُجوا بسَعَف النخل من الكنيسة، وهو يوم ركوب المسيح لليَعْفُور،(وهو الحمار) فى القُدْس ودُخولِه صِهْيَوْن وهو راكب والناس يسبِّحُون بين يديه، يأمر بالمعروف وينْهىٰ عن المنكر .

الثـالث الفِصْح، وهو العيـد الكبير عندهم، يعْمَلونه يوم الفِطر من صومهـم الأكبر، يزعُمُون أن المسيح قام فيـه بعْدَ الصَّلَبُوت بثلاثة أيام، وخَلَّص آدم من

الجحيم، وأقام فى الأرض أربعين يوما آخرهـا يوم الخميس ، ثم صَـعِد إلىٰ السماء .
قاتَلَهُمُ اللهُ أنّى يُؤْفَكُون .

الرابع خميس الأربعين، ويسميه الشامِيُّون السُّلَّاق : وهو الثانى والأربعون من الفِطْر، يقولون إن المَسِيح عليه السلام تسَلَّق فيه من تلاميذه إلىٰ السماء بعد القيام، ووعدهم بارسال الفارقليط، وهو رُوح القُدُس عندهم .

الخامس عيد الخميس، وهو عيد العُنْصُرة يعملونه بعـد خمسين يوما من القيام؛ وهو فى السادس والعشرين من بشنس، ويقولون إن رُوح القُدُس حلّتْ فى التلاميذ وتفرّقت عليهم ألسنة الناس فتكلموا بجميع الألسنة، وذهب كُلُّ واحد منهم إلىٰ بلاد لسانِه الذى تكلَّم به يدعوهم إلىٰ دين المسيح .

السادس الميلاد، وهو اليوم الذى يقولون إن المسيح ولد فيه ببيتِ لَحْمٍ (قرية من أعمـال فِلَسْطين) ويعملونه فى التاسع والعشرين من كيهك من شهور القِبْط ، وهم يقولون إنه وُلِد يوم الاثنين ، فيجعلون عشـيَّةَ الأحد ليلةَ المِيلاد، فيُوقِدون فيهـا المصابيحَ بالكنائس ويزيّنُونها .

السابع الغِطَاس، يعملونه فى الحادى عشَرَ من طوبه، من شهور القبط . يقولون إن يحيىٰ بن زكريَّا عليه السلام وينعَتُونه بالمعمدان غَسَل عيسىٰ عليه السلام بِبُحَيرة الأُرْدُنّ ، وأن عيسىٰ لمـا خرج من المـاء اتصل به روح القدس علىٰ هيئة حمامة ، والنصارىٰ يغْمِسون أولادهم فيه فى المـاء علىٰ أنه يقع فى شـدّة البرد، إلا أنّ عقبه يحمىٰ الوقت، يقول المصريون : غَطَّستم صيَّفتم، ونَوْرَزْتم شَتَّيتم .

الضرب الثـانى

(من أعياد القبط الأعياد الصِّغار . وهى سبعة أيام)

الأوّل الخِتَان، ويعملونه فى سادس بـؤونة من شُهور القبط . ويقولون : إن المسيح خُتِن فى هذا اليوم وهو الثامن من الميلاد .

الثانى الأربعون، يعملونه فى الثامن من شهر أمشير من شُهور القبط، ويقولون : إن سَمْعان الكاهن دخل بعيسىٰ عليه السـلام مع أمه بعد أربعـين يوما من ميلاده الهَيْكَل وبارك عليـه ؛ تلك عقول أضلَّها باريها، وإلا فأين مَقَامُ الكاهن من مَقَام عيسىٰ عليه السلام . وهو رُوح الله وكلمتُه .

الثالث خَمِيس العهد، يعملونه قبل الفِصْح بثلاثة أيام، وشأنهم أن يأخذوا إناء ويملـئوه ماء ويزمزموا عليه، ثم يغسل البطريرك به أرجل جميع النصارىٰ الحاضرين، ويزعمون أنّ المسيح عليه السلام فعل هذا بتلاميذه فى هذا اليوم يعلِّمُهم التواضعَ، وأخذ عليهم العهد أن لا يتفرقوا وأن يتواضع بعضُهم لبعض، والعامّة من النصارىٰ يُسمُّون هذا الخميس خميس العَدَس ؛ وهم يطبخون فيه العَدَس علىٰ ألوانٍ .

الرابع سَبْت النُّور، وهو قبل الفِصْح بيوم . يقولون : إن النُّور يظهر علىٰ مقبُرَة المسيح فى هـذا اليوم فتشتعِل منه مصابيحُ كنيسةِ القُمامة بالقُدْس . قال صاحب "مناهج الفكر" وغيره : وما ذاك إلا من تخييلاتهم النيرنجية التى يفعلها القِسِّيسون منهم ليستميلُوا بها عقولَ عوامِّهم الضعيفةَ . وذلك أنهم يعلِّقون القناديل فى بيت المَذْبَح ويتحيَّلُون فى إيصال النار إليها بأن يمدّوا علىٰ جميعها شريطا من حديد فى غاية الدقة مدهونا بدُهْن البَلَسَان ودهن الزنبق، فإذا صلَّوْا وجاء وقتُ الزوال فتحُوا المَذْبَح فتدخل الناس إليه، وقد اشتعلت فيه الشموعُ ويتوصّلُ بعضُ القوم إلىٰ أن يُعْلِق

النـار بطَرَف الشريط الحديد فتسرى عليـه فتتقد القناديل واحدا بعد واحد ، إذ من طبيعة دُهْن البَلَسان عُلُوق النار فيه بسُرْعة مع أدنىٰ ملامسة ، فيظنّ مَنْ حضر من ذوى العُقول الناقصةِ أن النار نزلتْ من السماء فأوقدتِ القناديلَ ، فالحمد لله علىٰ الإسلام .

الخـامس حدّ الحُدُود ، وهو بعـد الفِصْح بثمانية أيام ، يعملونه أوّل أحدٍ بعـد الفِطْر : لأن الآحاد قبله مشغولةٌ بالصوم ، وفيه يجدّدون الآلات وأَثَاث البُيوت ، ومنه يأخذون فى الاستعداد للمعاملات والأمور الدُّنْيويّةِ .

السادس التجلِّى ، و يعملونه فى الثالث عشر من مسرىٰ من شهور القبط ، وآخره السابع والعشرون منها . يقولون : إن المسـيح عليه السـلام تجلّٰى لتلاميذه بعد أن رُفِع فى هذا اليوم ، وتمنَّوْا عليه أن يُحْضِرَ لهم إيليا وموسىٰ عليهما السلام ، فأحضرهما لهم بمصلّٰى بيت المَقْدِس ثم صَعِدَ وصَعِدا .

السابع عيد الصَّليب ، وهو فى السابع عشر من توت من شهور القبط ، والنصارىٰ يقولون : إن قُسْطَنطين بن هيلانى انتقل عن اعتقاد اليونان إلىٰ اعتقاد النصرانيـة و بنىٰ كنيسة قُسْطَنْطِينية العظمىٰ وسائر كنائس الشام ، و يزعمون أن سبب ذلك أنه كان مجاورا للبُرْجان[(١)] فضـاق بهم ذَرْعا من كثرة غاراتهم علىٰ بلاده ، فهمَّ أن يصانعهم و يَفْرِض لهم عليه إتاوة فى كلّ عام ليكُفُّوا عنه ، فرأىٰ ليلةً فى المنام أن ملائكةً نزلتْ من السماء ، ومعها أعلامٌ عليها صُلْبانٌ فحاربت البُرْجان فانهزمُوا ؛ فلمـا أصبح عمل أعلاما وصوّر فيها صُلْبانا ثم قاتل بهـا البُرْجان فهزمهم ، فسأل من كان فى بلده من التُّجّار هل يعرِفون فيما طافوه من البلاد دينا هـذا زِيُّه ؟ فقـالوا له دينُ النصرانيّة وإنه فى بلد القُدْس والخليـل من أرض الشـام . فأمر أهل مملكته بالرُّجُوع عن دينهم إليه ، وأن يقُصُّوا شعورَهم و يحلِقُوا لِحَاهم . وإنمـا فعل ذلك لأنهم يزعمون

(١) البُرجان جنس من الروم (قاموس) .

أن رُسُل عيسىٰ عليه السلام كانوا قد وردُوا علىٰ اليُونان قبلُ يأمرونهم بالتعبُّد بدين النصرانيـة فأعرضوا عنهم ومَثَّلوا بهم هـذه المُثْلة نَكَالا لهم ففعلوا ذلك تأسِّياً بهم .
ولما تنصَّر قسطنطين خرجت أمّه هيلانى إلىٰ الشام فبنت به الكنائس، وسارتْ إلىٰ بيت المَقْدِس وطلبت الخشبةَ التى زعمتِ النصارىٰ أن المسيح صُلِب عليها فُحِملتْ إليها فغشَّتْهْا بالذهب، وآتخذت ذلك اليوم عيدا .

وسيأتى الكلام علىٰ ذلك مفصَّلا فى ترجمة قُسْطنطين فى خاتمة الكتاب عند ذكر الملوك الذين آستَوْلَوْا علىٰ الديار المصرية ، وفيما ذكرنا هنا مَقْنع والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وقد صار من أعيادهم المشهورة بالديار المصرية النَّيْروز، وهو أوّل يوم من سَنَتِهم، وإن لفظة النيروز فارسية معرّبة، وكأن القبط والله أعلم آتخذوا ذلك علىٰ طريقة الفُرْس وآستعاروا آسمه منهم فسمَّوُا اليوم الأوّل من سَنَتِهم أيضا نَيْروزا وجعلوه عيدا .

قال فى "مناهج الفكر" وهم يظهرون فيه من الفَرَح والسرور، وإيقاد النيران، وصَبِّ الأمواه أضعافَ مايفعله الفُرْس، ويشاركهم فيه العوامُّ من المسلمين .

قال المسعودىّ : وأهل الشام يعملون مثلَ ذلك فى أوّل سنتهم أيضا، وهو أوّل يوم من ينير من شهور الروم ويوافقه كانون الثانى : وهو الشهر الرابع من شهور السُّرْيان، وذلك فى السادس من طوبة من شهور القبط، ويسمُّونه القلنداس، إلا أن أهل مِصْر يزيدون فيه التَّصَافُع بالأنطاع، وربما حملهم تركُ الآحتشام علىٰ ان يتجرءُوا علىٰ الرجل المُطَاع، ولولا أنَّ وُلاة الأمر يَرْدَعُونهم ويمنعونهم من ذلك، لمنعُوا الطريقَ من السالك، وهم مع ذلك مَنْ ظَفِروا به لايتركونه إلا بما يُرْضيهم .
والذى آستقرّ عليه الحال بالديار المصرية إلىٰ آخر سنة إحدىٰ وتسعين وسبعمائة أنهم

يقتصرون على رَشّ الأمواه والتَّصافُع، وترك الآحتشـام دون إيقاد النيران، إلا من يفعل ذلك من النصارى فى بيته أو خاصّته .

ولهم أعياد ومواسمُ سِوى ما تقـدّم، ذكرها صاحب التذكرة ونحن نذكرها على ترتيب شهور القبط، وهى :

عيد سيغورس، وعيد متّى الإنجيلى، وهمـا فى الثانى من توت . عيد سَمْعان الحبيس؛ وهو فى الرابع من توت . عيـد ماما؛ وهو فى الخـامس من توت . عيد شـعيا؛ وهو فى السادس من توت . عيد ساويرس؛ وهو فى السابع من توت . عيد موسى النبيّ عليه السـلام؛ وهو فى الثـامن من توت . عيد تُوما التلميذ؛ وهو فى التاسع من توت . وخروج نُوحٍ عليه السلام من السفينة، ومَوْلِد مَرْيَمَ عليها السلام، وهما فى العاشر من توت . عيد باسيليوس، وهو فى الحادى عشَرَ من توت . عيد ميخائيل، وصوم جدليا؛ وهما فى الثالث عشَرَ من توت . عيد سمعان الحبيس، وعيد تادرس الشهيد؛ وهمـا فى الرابع عشر من توت . عيد اسفانوس؛ وهو فى السادس عشر من توت . وصوم كبور؛ وهو فى العشرين من توت . ونياحة أبى جرج؛ وهى فى الثانى والعشرين من توت . عيد أولاد الفرس؛ وهو فى الثالث والعشرين من توت . عيد أليصابات؛ وهو فى السادس والعشرين من توت . عيد اسطاتوا، وآنتقال يوحنا؛ وهما فى السـابع والعشرين من توت . عيد اجرويفون؛ وهو فى أوّل بابه . عيد سوسنان؛ وهو فى الثانى من بابه . عيد يعقوب بن حلفا؛ وهو فى الخـامس من بابه . عيد أبو بولا؛ وهو فى السابع من بابه . عيد تُوما؛ وهو فى الثامن من بابه . عيد أبى مسرجة؛ وهو فى العاشر من بابه . عيد يعقوب؛ وهو فى الحادى عشر من بابه . وشهادة متّى؛ وهى فى الثانى عشر من بابه . عيد القُرَات؛ وهو فى الثالث عشر من بابه .

وشهادة يُوحَنَّـا ؛ وهى فى العشرين من بابه . وتذكار السـيدة ؛ وهو فى الحادى والعشرين من بابه . عيد لُوقا ؛ وهو فى الثـانى والعشرين من بابه . عيـدِ أبى جرج؛ وهو فى الثالث والعشرين من بابه . ودخول السيدة الهيكل؛وهو فى الحادى والعشرين من بابه . عيد يَعقوبَ و يُوسـفَ ؛ وهو فى السادس والعشرين من بابه . عيد أبى مقار؛ وهو فى السابع والعشرين من بابه . عيد مُرْقُص ؛ وهو فى آخر يوم من بابه . عيد بُطْرُس البطرك ؛ وهو فى أوّل يوم من هاتور . عيد زَكَرِيَّا ؛ وهو فى الرابع من هاتور. وآجتماع التلاميذ؛ وهو فى السادس من هاتور . وتكريز أبى جرج ؛ وهو فى السابع من هاتور . وعيد الأربع حيوانات ؛ وهو فى الثامن من هاتور . وتَذْكار الثلثمائة وثمـانية عشر؛ وهو فى التـاسع من هاتور . ونِيَاحة إسحاق؛ وهو فى العاشر من هاتور . عيد ميكائيل؛ وهو فى الثانى عشر من هاتور . وشهادة أبى مينا؛ وهو فى الخامس عشر من هاتور . عيد فيلبس الرسول؛ وهو فى التاسع عشر من هاتور . عيد أساسـياس ؛ وهو فى العشرين من هاتور . عيد شَمْعون؛ وهو فى الحادى والعشرين من هاتور . تَذْكار الشهداء، وهو فى الثانى والعشرين من هاتور . عيد مركوريوس ؛ وهو فى الرابع والعشرين من هاتور . عيدَ أبى مقورة ؛ وهو فى الخـامس والعشرين من هاتور . عيد ادفيانيوس ؛ وهو فى السادس والعشرين من هاتور . عيد يعقوب المُقَطَّع؛ وهو فى السابع والعشرين من هـاتور . عيد ياهور ؛ وهو فى الثـانى من كيهك . عيـد اندراس ؛ وهو فى الرابع من كيهك . عيد سيورس ؛ وهو فى الخامس من كيهك . عيد بزباره ، وهو فى السابع من كيهك . عيد أيامين ؛ وهو فى الثامن من كيهك . عيد مارى نُقُولا ؛ وهو فى العـاشر من كيهك . عيـد سَمْعان؛ وهو فى الرابع عشر من كيهك ونيَاحة يوحنا؛ وهى فى السادس عشر من كيهك؛ وصوم الميلاد؛ وهو فى الثـالث

والعشرين من كيهك . وقتل الاطفال ؛ وهو فى الثـالث من طوبه . عيد يُوحَنَّا الإنجيـلى ؛ وهو فى الرابع من طوبه . وعيد توما ؛ وهو فى السابع من طوبه . عيد الخِتَان، وهو فى الثامن من طوبه . عيد إبراهيم، وهو فى التاسع من طوبه . وصوم الغطاس، وأوّله العاشر من طوبه . وصوم العذارىٰ، وهو فى الثالث عشر من طوبه . عيد ملسوس ؛ وهو فى الرابع عشر من طوبه . عيـد غاريوس ؛ وهو فى الخامس عشر من طوبه . عيد قيلانوس، وهو فى السادس عشر من طوبه . عيد يوحنس ؛ وهو فى التاسع عشر من طوبه . ونزول الإنجيل، وتذكار السيدة، وهما فى العشرين من طوبه . وصوم نينوى، وهو فى الحادى والعشرين من طوبه . ومقتل يحيىٰ، وهو فى الرابع والعشرين من طوبه . عيد أبى بشارة، وهو فى الخامس والعشرين من طوبه . عيـد الشهداء، وهو فى السادس والعشرين من طوبه . عيد طيارس الرسول ؛ وهو فى السابع والعشرين من طوبه ؛ وآخر نيـاحة نقولا ؛ وهو فى اليوم الآخر من طوبه . عيد العذارىٰ، وعيد يهوذا ؛ وهما فى الأوّل من أمشير . عيد مقار، وهو فى الثانى من أمشير . ونياحة تيادرس، وهو فى السادس من أمشير . ونياحة برصوما ، وهو فى التاسع من أمشـير . عيد بيطن ، وشهادة يعقوب، وهما فى العاشر من أمشير . عيد أبى مسرجة، وهو فى الرابع عشر من أمشير . عيد قلانوس ؛ وهو فى السادس عشر من أمشير . عيد يعقوب الرسول ؛ وهو فى السابع عشر من أمشير . عيد بطرس الشهيد، وهو فى التاسع عشر من أمشير . ونزول السيدة من الجبل، وهو فى الحادى والعشرين من أمشير . وشهادة سدرس ؛ وهو فى السادس والعشرين من أمشير . ووجود رأس يوحنا، وهو فى اليوم الآخر من أمشير . عيد الجلبانة، وهو فى الثالث من شهر برمهات . عيد أرمانوس، وهو فى السابع من برمهات . عيد المعمودة ؛ وهو فى التـاسع من برمهات . وظهور

الصليب ؛ وهو فى العاشر من برمهات . عيد أبى مينا ؛ وهو فى الحادى عشر من برمهات . عيد ميلاخى ؛ وهو فى الثانى عشر من برمهات . عيد إلياس الشهيد ؛ وهو فى السابع عشر من برمهات . ونياحة بولص ؛ وهى فى الثانى والعشرين من برمهات . عيد العازر ؛ وهو فى الثالث والعشرين من برمهات . عيد الشعانين ؛ وهو فى الرابع والعشرين من برمهات . عيد المرسونة ؛ وهو فى الخامس والعشرين من برمهات . وغسل الأرجل ؛ وهو فى الثامن والعشرين من برمهات . وجمعة الصلبوت ؛ وهو فى التاسع والعشرين من برمهات . عيد مرقص الإنجيلى ؛ وهو فى اليوم الآخر من برمهات . عيد توما البطرك ؛ وهو فى الثانى من برموده . عيد حزقيال النجيب ؛ وهو فى الخامس من برموده . عيد مرقص ؛ وهو فى السابع من برموده . والأخذ بالحديد ؛ وهو فى الثامن من برموده . عيد يوحنا الأسقُفّ ؛ وهو فى الحادى عشر من برموده . عيد جرجس ؛ وهو فى الثالث عشر من برموده . عيد أبى مَتَّى ؛ وهو فى السادس عشر من برموده . عيد يعقوب ، عيد سنوطه ، وهما فى التاسع عشر من برموده . وذكران الشهداء ؛ وهو فى الحادى والعشرين من برموده . عيد ساويرس ؛ وهو فى السادس والعشرين من برموده . عيد أبى نيطس ؛ وهو فى السابع والعشرين من برموده . عيد أصحاب الكهف ؛ وهو فى التاسع والعشرين من برموده . عيد مرقص الإنجيلى ، وهو فى اليوم الآخر من برموده . عيد تيادرس ؛ وهو فى الثانى من بشنس . عيد شمعون ؛ وهو فى الثالث من بشنس . عيد الحندس ؛ وهو فى الرابع من بشنس . ونياحة يعقوب ؛ وهو فى السابع من بشنس . عيد دفرى سوه ؛ وهو فى السادس من بشنس . عيد أساسياس ؛ وهو فى السابع من بشنس . وصعود المسيح عندهم فى الثامن من بشنس . عيد دير القصير ؛ وهو فى الحادى والعشرين من بشنس . ونزول السيد

إلى مصر؛ وهو فى الرابع والعشرين من بشنس . عيد سوس ؛ وهو فى الخامس والعشرين من بشنس . عيد توما التلميـذ ؛ وهو فى السادس والعشرين من بشنس . عيـد سمعون العجاس؛ وهو فى السابع والعشرين من بشنس . عيـد طيارس؛ وهو فى التاسع والعشرين من بشنس . عيد الورد بالشا؛ وهو فى اليوم الآخر من بشنس . عيد أبى مقار؛ وهو فى الثانى من بـؤونه . ووجود عظام لوقا؛ وهو فى الثالث من بـؤونه . عيد توما، وعيد مامور؛ وهمـا فى الرابع من بـؤونه . عيـد يوحنا، ونزول صحف إبراهيم (عليه السلام)؛ وهما فى التاسع من بـؤونه . عيد أبى مينا؛ وهو فى الخامس عشر من بـؤونه . عيد أبى مقار، وهو فى السادس عشر من بـؤونه . عيد السيدة؛ وهو فى الحادى والعشرين من بـؤونه . عيد اتريب وهو فى الثالث والعشرين من بـؤونه . عيد أبى مينا، وهو فى (١) والعشرين من بـؤونه ؛ وتذكار تيادرس ؛ وهو فى أول أبيب . ونياحة بولص؛ وهو فى الثانى من أبيب والثالث منه أيضا . وعيد المعينة؛ وعيد القيصرية ؛ وهما فى الخامس من أبيب . وعيد أبى سنوبة؛ وهو فى السابع من أبيب . وعيد اسنباط؛ وهو فى الثامن من أبيب . وشهادة هرون، وعيد سمعان؛ وهما فى التاسع من أبيب . وعيـد تادرس نطيره؛ وهو فى العاشر من أبيب . وعيد أبى هور؛ وهو فى الثانى عشر من أبيب . وعيد أبى مقار؛ وهو فى الرابع عشر من أبيب . وعيد اقدام السريانى ؛ وهو فى الخـامس عشر من أبيب . وعيـد يوحنا وزكريا؛ وهو فى السادس عشر من أبيب . وعيد يعقوب التلميذ، وهو فى السابع عشر من أبيب . وعيد بولاق، وهو فى التاسع عشر من أبيب . وعيد تادرس الشهيد، وهو فى العشرين من أبيب . وعيد السـيدة ، وعيد ميخائيل؛ وهما فى الحادى

(١) بياض بالاصل

والعشرين من أبيب . وعيد سمعان البطرك، وعيد شنوده؛ وهما فى الثالث والعشرين من أبيب . وعيد سمنود؛ وهو فى الرابع والعشرين من أبيب . وعيد مرقوريوص؛ وهو فى الخامس والعشرين من أبيب . وعيد حزقيل النبيّ عليه السلام؛ وهو فى السابع والعشرين من أبيب . ورفعة إدريس عليه السلام، وعيد مريم؛ وهما فى الثامن والعشرين من أبيب . وحرم السيد؛ وهو فى اليوم الآخر من أبيب . وعيد الخندق؛ وهو فى اليوم الأوّل من مسرى . وعيد أبى مينا؛ وهو فى اليوم الثانى من مسرى . وعيد سمعان المعمودىّ؛ وهو فى الثالث من مسرى . ودخول نوح السفينة؛ وهو فى الثامن من مسرى . وعيد طور سينا، وعيد السيدة، وهما فى التاسع من مسرى . وعيد اللباس؛ وهو فى العاشر من مسرى . وشهادة أنطونيوس، وعيدالعدوية، وهو فى الخامس عشر من مسرى . وعيد يعقوب الشهيد، وهو فى السابع عشر من مسرى . وعيد أبى مقار؛ وهو فى الثامن عشر من مسرى . وعيد اليَسَع؛ وهو فى التاسع عشر من مسرى . وعيد أصحاب الكهف؛ وهو فى العشرين من مسرى . وصوم الأربعين؛ وهو فى الحادى والعشرين من مسرى . وعيد الجوزة بِدِمَشْقَ؛ وهو فى الثالث والعشرين من مسرى . وعيد صوفيل؛ وهو فى السادس والعشرين من مسرى . وعيد إبراهيم وإسحاق؛ وهو فى الثامن والعشرين من مسرىٰ . وعيد موسىٰ الشهيد؛ وشهادة يوحنا؛ وهو فى اليوم الآخر من مسرىٰ .

الجمـــلة الرابعة

(فى أعياد اليهود ، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(مانطقت به التوراة بزعمهم؛ وهى خمسة أعياد)

العيد الأوّل ـ رأس السنة ، يعملونه عند رأس سنتهم ويسمُّونه عيد رأس هيشا أى عيـد رأس الشهر ، وهو أوّل يوم من تشرى يتنزل عندهم منزلة عيد الأضحى عندنا، ويقولون : إن الله تعالىٰ أمر إبراهيم عليه السـلام بِذَبْح إسمـاعيل ٱبنهِ فيه وفَدَاه بِذِبْحٍ عظيم .

العيـد الثانى ـ عيد صوماريا : ويسمونه الكبور ، وهو عندهم الصوم العظيم الذى يقولون : إنـ الله تعالىٰ فرض عليهم صومه ، ومن لم يصمه قُتِل عندهم . ومدّة هـذا الصوم خمس وعشرون ساعة يُبْدأ فيها قبـل غروب الشمس فى اليوم التاسع من شهر تشرى ،وتختم بمضىّ ساعة بعد غروبها فى اليوم العاشر،وربمـا سَمَّوْهُ العاشور . ويُشْـترط فيه لجواز الإفطار عندهم رؤية ثلاثة كواكب عنـد الإفطار وهى عنـدهم تمـام الأربعين الثالثة التى صامها موسىٰ عليه السلام . ولا يجوز أن يقع هذا الصوم عندهم فى يوم الاحد، ولا فى يوم الثلاثاء، ولا فى يوم الجمعة، ويزعمون أن الله يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم ماخلا الزنا بالمحصَنَة ، وظلمَ الرجل أخاه، وجحده ربوبية الله تعالىٰ .

العيد الثـالِث ـ عيدالمِظَلّة : وهو سـبعة أيام أوّلهـا الخامس عشر من تشرى وكلها أعياد عندهم ، واليوم الآخر منها يسمّى عرايا أى شجر الخلاف ، وهو أيضا حج لهم ، يجلسون فى هذه الأيام تحت ظلَالٍ منـ جريد النخل وأغصان الزَّيْتون

والخِلاف، وسائر الشجر الذى لاينتشر ورقُه علىٰ الأرض؛ ويزعمون أن ذلك تَذْكار منهم لإظلال الله إياهم فى التيهِ بالغمام .

العيد الرابع ـ عيدالفَطير : ويسمُّونه الفِصْح ، ويكون فى الخامس عشر من نَيْسَانَ؛ وهو سبعة أيام أيضا ، يأكلون فيها الفطير، ويُنَظِّفون بيوتهم فيها من خبز الخمير لأن هذه الأيامَ عندهم هى الأيامُ التى خلَّص الله فيها بنى إسرائيل من يَدِ فرعون وأغرقه، فخرجوا إلىٰ التيهِ، فجعلوا يأكلون اللحم والخبز الفَطِير وهم بذلك فرحون ، وفى أحد هذه الأيام غرق فرعون .

العيد الخامس ـ عيدالأسابيع : ويسمّى عيد العُنْصرة وعيد الخطاب، ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع ؛ وآتخاذهم لهذا العيد فى السادس من سيوان من شهور اليهود ، وهو الثالث والعشرون من بشنس من شهور القِبْط . يقولون : إنه اليوم الذى خاطب الله فيه بنى إسرائيل من طُور سِينا، وفى جملة هذا الخطاب العشر كلمات :وهى وصَايَا تضمنت أمرا ونهيا،وضمنت التوفيق لمن حَصَّلها حفظا ورعيا، وهو حج من حجوجهم ؛ وحجوجهم ثلاثة : الأسابيع ، والفطير، والمِظَلة ؛ وهم يعظمونه،ويأكلون فيه القطائف،ويتفننون فى عملها،ويجعلونها بدلا عن المنّ الذى أنزل الله عليهم فى هذا اليوم، ويسمّى هذا العيد أيضا عشرتا، ومعناه الآجتماع .

الضرب الثانى

(ماأحدثه اليهود زيادة علىٰ مازعموا أن التوراة نطقت به، وهو عيدان)

العيد الأوّل ـ الفوز : وهوعندهم عيد سرور ولَهْو وخَلاَعَةٍ يُهْدِى فيه بعضُهم إلىٰ بعض؛وهم يقولون : إن سبب آتخاذهم له أن بختنصر لما أجلىٰ مَنْ كان ببيت المَقْدس من اليهود إلىٰ عراق العجم، أسكنهم بجَىّ، وهى إحدىٰ مدينتى أصفَهَان

ثم ذهبت أيام الكلدانيين وملكت الفرس الأولىٰ والأخيرة فلمــا ملك أردشــير بن بابك وتسميه اليهود بالعبرانية أجشادوس، وكان له وزير يسمونه بلغتهــم هيمون، ولليهود يومئذ حَبْرٌ يسمّى بلغتهم مردوخاى، فبلغ أردشـير أن له ٱبنةَ عَمٍّ من أحسن أهل زمانها وأكملهم عقلا، فطلب تزويجها منه فأجابه لذلك، فَحَظِيت عنده حُظْوة صار بها مردوخاى قريبا منه، فأراد هيمون إصـغاره وٱحتقاره حسدا له، وعزم علىٰ إهلاك طائفة اليهود التى فى جميع مملكة أردشير، فرتب مع نوّاب الملك فى جميع الأعمال أنْ يقتلَ كلٌّ أحد منهم من يعلمه من اليهود، وعين له يوما : وهو النصف من آذار، وإنما خَصَّ هذا اليوم دون سائر الأيام : لأن اليهود يزعمون أنّ موسىٰ ولد فيه وتُوُفِّىَ فيه، وأراد بذلك المبالغةَ فى نِكَايتهم ليتضاعف الحزن عليهم بهلاكهم وبموت موسىٰ فٱتضـح لمردوخاى ذلك من بعض بِطَانة هيمون، فأرسـل إلىٰ ٱبنة عمه يُعْلِمها بما عزم عليه هيمون فى أمر اليهود، وسألهــا إعلام الملك بذلك، وحضَّها علىٰ إعمــال الحيلة فى خلاص نفسها وخلاص قومها فأعلمت الملك بالحال وذكرت له إنمــا حمله علىٰ ذلك الحسد علىٰ قُرْبنا منـك ونصيحتنا لك، فأمر بقتل هيمون وقتلِ أهــله، وأن يكتب لليهود بالأمان والبِرِّ والإحسان فى ذلك اليوم، فٱتخذوه عيدا . واليهود يصومون قبــله ثلاثة أيام ؛ وفى هــذا العيد يصوّرون من الورق صورة هيمون ويملئُون بطنها نخالة ومِلْحًا ويلقونها فى النــار حتّى تحترق، يخدعون بذلك صِبْيانهم .

العيد الثانى، عيـد الحنكة، وهو ثمــانية أيام، يُوقِدون فى الليـلة الأولىٰ من لياليه علىٰ كل باب من أبوابهم سراجا، وفى الليـلة الثانية سراجين، وهكذا إلىٰ أن يكون فى الليلة الثامنة ثمــانيةُ سُرُج . وهم يذكرون أن سبب ٱتخاذهم لهذا العيد أن بعض الجبابرة تغلَّب علىٰ بيت المقدس وفَتَكَ باليهود وٱفتَضّ أبكارهم، فوثب عليه

أوّلا كُهّانُهم وكانوا ثمانية فقتله أصغرهم، وطلب اليهود زيتا لوَقُود الهيكل فلم يجدوا إلا يسيرا ووزّعوه على عدد مايُوقِدونه من السُّرُج على أبوابهم فى كل ليلة إلى تمام ثمان ليال فاتخذوا هذه الأيام عيدا وسمّوه الحنكة، ومعناه التنظيف لأنهم نظّفوا فيه الهيكلَ من أقذار شِيعة الجبار، وبعضهم يسميه الربانىّ .

الجملة الخامسة

(فى أعياد الصابئين)

ومَدار أعيادهم على الكواكب، وأعيادهم عند نزول الكواكب الخمسة المتحيِّرة : وهى زُحَلُ، والمشتَرِى، والمِرِّيخُ، والزُّهَرةُ، وعُطَارِدُ فى بيوت شَرَفها ؛ وذلك أن من البروج مايقوم لهذه الكواكب مَقَام قصر العز للملك، يشتهر فيه ويعلو ويشرُف، وفيها درجات معلومة يُنْسَب الشرف إليها، ومنها مايخمُل فيه ويفسُد حاله، ويكون ذلك أيضا فى درجات معلومة، تقابِلُ درجاتُ الشرف به من البرج المقابِل . ويسمّى ذلك هُبوطا، فزُحَلُ شرفه فى إحدى وعشرين درجة من الميزان، ويهبِط فى مثلها من الحَمَل، والمشترِى يشرُف فى خمس عشرة درجةً من السَّرَطان، ويهبط فى مثلها من الجَدْيِ ؛ والمِرّيخ يشرف فى ثمانَ عشرةَ درجة من الجَدْى، ويهبط فى مثلها من السَّرَطان ؛ والزُّهَرة تشرُف فى تسع وعشرين درجة من الحُوت، وتهبط فى مثلها من السُّنْبلة ؛ وعُطَاردُ شرفُه فى خمسَ عشرةَ درجة من السنبلة، ويهبط فى مثلها من الحوت ؛ وكذلك الشمس تشرُف فى تسعَ عشرةَ درجة من الحَمَل، وتهبط فى مثلها من الميزان ؛ والقمر يشرُف فى ثلاث درجات من السنبلة، ويهبط فى مثلها من الحوت . وهم يعظمون اليوم الذى تنزل الشمس فيه الحَمَلَ، ويلْبَسون فيه أفخر ثيابهم . وهو عندهم من أعظم الأعياد . وكانت ملوكهم تَبْنِي الهياكل وتجعل لها أعيادا بحسَب الكواكب التى بُنِيت على آسمها فيه .

البـاب الثـانى

من المقـــــالة الأولىٰ

(فيما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العملية : وهو الخط وتوابعه ولواحقه ؛
وفيه فصـــلان)

الفصـــــل الأوّل

(فى ذكر آلات الخط، ومباديه، وصوره، وأشكاله، وما ينخرط فى سلك ذلك؛
وفيه ثلاثة أطراف)

الطـــــرف الأوّل

(فى الدّواة وآلاتها ؛ وفيه مقصدان)

المقصـــــد الأوّل

(فى نفس الدّواة، وفيه أربع جمل)

الجمـــــلة الأُولىٰ

(فى فضـــلها)

قد أخرج ٱبن أبى حاتم من رواية أبى هريرة رضى الله عنــه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال "خَلَقَ اللهُ النُّونَ : وهى الدَّواة" وأخرج ٱبن جرير عن ٱبن عبـاس رضى الله عنهما، قال : "لمَّا خلق اللهُ النُّونَ : وهى الدَّواة وخلَقَ القلَمَ، فقال : ٱكْتُبْ، فقال : وما أَكْتُبُ؟ قال : ٱكتُبْ ماهو كائن إلىٰ يوم القيامة". وهذا

الخبر والأثر دالّان علىٰ أن المراد بالنون فى الآية هو الدّواة، وإن فسره بعضهم بغير ذلك . إذ الدواة هى المناسبة فى الذّكر لذكر القلم وتسطير الكتابة فى قوله تعالىٰ : ﴿نٓ والقلَمِ وما يَسْطُرُونَ﴾ . وبالجملة فإن الدواة هى أُمُّ آلات الكتابة، وسِمْطُها الجامعُ لها . ولا يخفىٰ ما يجب من الاهتمام بأمرها ، والاحتفال بشأنها، فقد قال عبد الله بن المبارك : مَنْ خَرَج من بيته بغير مِحْبَرة وأداةٍ، فقد عَزَم علىٰ الصَّدَقة". قال المدائنى : يعنى بالأداة مثلَ السِّكِّين، والمِقْلَمة، وأشباههما . قال محمد بن شعيب ابن سابور : مَثَل الكاتب بغير دوَاة، كمَثَل مَنْ يسير إلىٰ الهيجاء بغير سِلاح .

الجملة الثانية

(فى أصلها فى اللغة)

قال أبو القاسم بن عبد العزيز : تقول العرب : دَوَاة ودَوَيات فى أدنىٰ العدد، وفى الكثير دُوىٌّ ودِوِىٌّ (بضم الدال وكسرها) ويقال أيضا دُوَاء، ودِوَاء (بضم الدال وكسرها) ودَوَايَا مثل حَوَايَا، وأدْوَيت دَوَاة أى اتخذت دواة، ورجل دَوّاء (بفتح الدال وتشديد الواو) إذا كان يبيعها، كقولك عَطَّار وبَزَّاز .

الجملة الثالثة

(فيما ينبغى أن تتخذ منه، وما تحلّىٰ به)

أمّا ما تتخذ منه فينبغى أن تُتَّخذ من أجود العِيدَان وأرفعها ثمنا كالآبِنُوس، والسَّاسَم ، والصَّنْدَل ، وهذا اعتماد منه علىٰ ما كان يعتاده أهلُ زمانه ، ويتعاناه أهلُ عصره .

قلت : وقد غلب علىٰ الكُتَّاب فى زماننا من أهل الإنشاء وكُتَّاب الأموال اتخاذُ الدُّوِىِّ من النُّحاس الأصفر، والفُولاذ ، وتغالَوْا فى أثمانها وبالغُوا فى تحسينها .

والنُّحاس أكثر ٱستعمالا ، والفُولاذ أقلُّ لِعزَّته ونَفَاسته ، وٱختصاصه بأعلىٰ درجات الرياسة، كالوزارة وماضاهاها .

وأمّا دُوِىُّ الخشب فقد رُفِضت وتركت إلا الآبِنُوس والصَّنْدل الأحمر، فإنه يتعاناه فى زماننا قضاةُ الحكم ومُوَقِّعوهم وبعض شهود الدواوين .

وأمّا التحلية، فقال الحسن بن وهب : سبيل الدَّواة أن يكون عليها من الحِلْيـة أخفُّ مايكون ويمكن أن تُحَلَّىٰ به الدُّوِىُّ، فى وَثَاقةٍ ولُطْفٍ : ليأمن من أن تتكسر أو تنقَصِم فى مجلسه ، قال : وحق الحليـة أن تكون سَاذَجَةً بغير حُفَرٍ ولا ثَنْيَات فيها : ليأمن من مسارعة القَذىٰ والدَّنَس إليها ، ولا يكون عليها نقشٌ ولا صُورة . وحقُّ هـذه الحِلْيَة مع ماذكره ابن وهب أن تكون من النحاس ونحوه دون الفِضَّة والذهب . علىٰ أن بعض الكُتَّاب فى زماننا قد ٱعتاد التحلية بالفضة ، ولا يخفىٰ أنَّ حكم ذلك حكم الضبة فى الإناء فتحرم مع الكِبَر والزينة ، وتكره مع الصغر والزينة والكِبَر والحاجة ، وتباح مع الصغر والحاجة من كَسْرٍ ونحوه، كما قرّره أصحابنا الشافعية رحمهم الله ، نعم يحرم التكفيت بالذهب والفضة ، وكذلك التمويه إذا كان يحصل منه بالعرض علىٰ النار شىء، والله أعلم .

الجمـــلة الرابعة
(فى قـــدرها وصـــفتها)

قال الحسن بن وهب : سبيل الدَّواة أن تكون متوسطة فى قَدْرها : لا بالقصيرة فتقصُر أقلامها وتقبُح ، ولا بالكثيفة فيثقل مَحْمَلُها وتُعجِف . فلا بدّ لصاحبها أن يحملها ويضَعَها بين يدى مَلِكه أو أميره فى أوقات مخصوصة ، ولا يحسن أن يتولّىٰ ذلك غيره . قال الفضل : ويكون طُولهـا بمقدار عَظْمِ الذراع أو فُوَيْقَ ذلك قليلا

لتكون مناسبة لمقدار القلم . قلت : وقد ٱختلفَتْ مقاصد أهل الزمان فى هيئة الدواة : من التدوير والتربيع . فأما كُتَّاب الإنشاء فإنهم يتخذونها مستطيلة مدوّرة الرأسين، لطيفة القَدّ، طلبا للخِفَّة، ولأنهم إنما يتعانون فى كتابتهم الدَّرْج، وهو غير لائق بالدواة فى الجملة . علىٰ أن الصغير من الدَّرْج لا يأبىٰ جعله فى الدواة المدوّرة . وأما كُتَّاب الأموال، فإنهم يتخذونها مستطيلة مربعة الزوايا، ليجعلوا فى باطن غطائها ما ٱستخفوه مما يحتاجون إليه من وَرَق الحِسَاب الديوانىّ المناسب لهذه الدواة فى القطع . وعلىٰ هذا الأنموذج يتخذ قضاة الحكم ومُوَقِّعوهم دُوِيَّهم، إلا أنها فى الغالب تكون من الخشب كما تقدّم .

وٱعلم أنه ينبغى للكاتب أن يجتهد فى تحسين الدواة وتجويدها وصونها . ولله المدائنى حيث يقول :

جوِّد دَوَاتَكَ، وٱجتهد فى صَوْنِها * إن الدُّوِىَّ خزائنُ الآدابِ

وأهدىٰ أبو الطَّيِّب عبد الرحمن بن أحمد بن زيد بن الفرج الكاتب إلىٰ صديق له دواة آبِنُوس مُحَلَّاة وكتب معها .

لم أَرَ سَوْداءَ قبلَها ملَكَتْ * نَوَاظِرَ الخَلْقِ والقُلوبَ مَعَا
لا الطُّولُ أزرىٰ بِهَا ولا قِصَرٌ * لَكِنْ أتَتْ للوُصولِ مجتَمَعا
فَوْقَكَ جُنْح من الظَّلام بها * وبارِقٌ بِٱئْتِلاقها لَمَعَا !
خُذْهَا لِدُرٍّ، بها تُنَظِّمُه * يَروقُ فى الحُسْن كُلَّ مَنْ سَمِعا

أما المِحْبرة المفرَدة عن الدواة فقد ٱختلف الناس فيها : فمنهم من رجَّحها ومالوا إلىٰ ٱتخاذها لخِفَّة حَمْلها ، وقالوا : بها يكتب القرءان والحديث والعلم . وكرهها بعضهم وٱستقبحها من حيث إنها آلة النسخ الذى هو من أشدّ الحِرَف وأتعبها ، وأقلها مَكْسَبا .

ويروى أن شعبة رأى فى يد رجل مِحْبرة، فقال : ٱرم بها فإنها مشئُومة لايبقى معها اهل ولا ولد، ولا أمّ ولا أب .

الطـــرف الثـانى

(فى الآلات التى تشتمل عليها الدواة ، وهى سبع عشرة آلة ،
أوّل كل آلة منها ميم)

الآلة الأولى — المِزْبَرُ (بكسر الميم)، وهو القلم أخذا له من قولهم زَبَرت الكتاب إذا اتقنتَ كتابته، ومنه سميت الكُتُب زُبُراً كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ وفى حديث أبى بكر أنه دعا فى مرضه بدواة ومِزْبَرٍ أى قلم .

وفيه جملتان .

الجمـــلة الأولى

(فى فضـــله)

عن الوليد بن عُبَادة بن الصـامت رضى الله عنه قال : دعانى أبى حين حضره الموتُ فقال : إنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أوّلُ ماخَلَق الله القَلَمُ، فقال : ٱكتُبْ، قال : يارَبِّ وما أكتُب ؟ قال : ٱكتبِ القدَرَ وما هو كائنٌ إلى الأبَد" رواه أحمد وأبو داود والتِّرمِذىّ، وقال : حسن غريب، وٱبن أبى حاتم واللفظ له . وعن ٱبن عباس رضى الله عنهما يرفعه "إن أول ماخَلَق اللهُ القلَمُ والحُوتُ، فقال له ٱكتُبْ، فقال : يارَبِّ وما أكتُب ؟ قال : ٱكتُبْ كلَّ شىء كائن إلى يوم القيامة" ثم قرأ "نٓ والقَلَم" رواه الطبرانىّ ووقفه ٱبن جرير على ٱبن عبَّاس . وفى رواية قال ٱبن عباس : "أوّل ماخلق اللهُ القَـلَمُ، قال : ٱكتب، قلل : وما أكتب ؟ قال : ٱكتب القدَر، فجرى بما يكون من ذلك

اليوم إلىٰ يوم قيامِ الساعة ، ثم خلق النون ورفع بُخار الماء، فتفتَّقتْ منه السماءُ وبُسِطت الأرضُ علىٰ ظهر النُّون ، فاضطرب النُّون ، فمادتِ الأرضُ، فأُثبِتتْ بالجبال، فإنها لتَفْخَر علىٰ الأرض : لأنها أُثبِتَتْ عليها" رواه ابن جرير وآبن أبى حاتم .

وروىٰ محمد بن عمر المدائنى بسنده إلىٰ مجاهد " إن أوّلَ ماخلق الله اليراعُ، ثم خَلَقَ من اليرَاع القَلَمَ ، فقال له : آكتُب ، قال : ما أكتُب ؟ قال : ما هو كائن ، قال : فزبرَ القلمُ بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة" . وأخرج بسنده إلىٰ آبن عباس ، قال : " أوّلُ ماخلقَ اللهُ اليراعُ : وهو القَصَب المُثقَّبُ ، فقال : آكتُبْ قضائى فى خَلْقِى إلىٰ يوم القيامة" . ويروىٰ أنه لما خلقه الله تعالىٰ نظر إليه فانشَقَّ بنصفين، ثم قال : آجْرِ قال : يارب بما أجرى ؟ قال : بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة، فجرىٰ علىٰ اللوح المحفوظ بذلك، وكان منه ﴿تبتْ يدا أَبى لهَبٍ﴾ . ويروىٰ أنَّ خلقَه قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألفَ سنة .

وآعلم أن القلم أشرفُ آلات الكتابة وأعلاها رتبة، إذ هو المباشر للكتابة دون غيره، وغيرُه من آلات الكتابة كالأعوان، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ نٓ والْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ فأقسم به، وذلك فى غاية الشرف . ولله أبو الفتح البُسْتِيُّ حيث يقول :

إذا أَقْسَمَ الأبطالُ يومًا بِسَيْفِهِمْ * وعَدُّوهُ مما يُكْسِبُ المجدَ والكَرَمْ

كفىٰ قَلَمَ الكُتَّاب عِزًّا ورِفْعَةً * مَدىٰ الدَّهرِ أن اللهَ أقسمَ بِالْقَلم

وقال تعالىٰ : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ فأضاف التعليم بالقلم إلىٰ نفسه . قال آبن الهيثم : من جلالة القلم،أن الله عز وجل لم يكتب كتابا إلا به، لذلك أقسم به . قال المدائنى : وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال "مَنْ قَلَمَ قَلَمًا يكتب به علما أعطاه الله شجرةً فى الجنة، خيرٌ من الدُّنيا وما فيها" .وقد قيل الأقلام مَطَايا الفِطَن، ورُسل الكَرَم .وقال عبد الحميد : القلم شجرةٌ ثمرها الألفاظ ،

والفِكْر بحر لُؤْلؤه الحِكْمة، وفيــه رِىُّ العُقُول الكامنة . وقال جبل بن يزيد : القلم لسان البصر يناجيه بمـا سُتِر عن الأسماع . وقال آبن المقفَّع : القلم بريد العلم يحث علىٰ السحر(١)، و يبحث عن خفىّ النظر . وقال أحمد بن يوسـف : ماعبَرات الغوانى فى خُدودهن بأحسَنَ من عبَرات الأقلام . وقيل : القلم الطلسم الأكبر . وقيل : البيان آثنان : بيان لسان، و بيان بَنَان، ومن فضل بيان البنَان أن ما تثبته الأقلام باقٍ علىٰ الأبد، وما ينْبِسُه اللسان تدرُسه الأيام . ويقال : عقول الرجال تحت أسِنَّة أقلامها ، بنوء الأقلام يَصُوب غيثُ الحكمة . وقال جعـفر بن يحيىٰ : لم أر باكيًا احسن تبسُّما من القلم .

قال آبن المعتز : القلم مجهِّز لجيوش الكلام ، تخدُمه الإراده ، ولا يَمَـلُّ من الآستزاده ، كأنه يُقَبِّل بساط سُلْطان، أو يفَتِّح نَوْرَ بُسْتان .

ومن إنشاء الوزير ضـياء الدين بن الأثير الجزرىّ ، من جواب كتبه للعماد الأصْـفَهانى : وكيف لا يكون ذلك ، وقلَمُها هو اليراع الذى نفَثت الفصـاحة فى رُوعِه ، وكَمَنت الشـجاعة بين ضُـلُوعه ! فإذا قال أراكَ كيف تُنَسَّق الفرائد فى الأجيـاد .

ومن كلام ابى حفص بن برد الأندلسىّ : ما أعجبَ شأنَ القلم ! يشرب ظُلْمَةً، ويلْفِظ نُورا، قد يكون قلم الكاتب، أمضىٰ من شَباةِ المُحارِب، القلم سهم ينْفُذ المَقاتِل، وشَفْرَةٌ تَطيح بها المفاصل . ومن كلام العميد : عمرَ بن عثمان الكاتب : قلم يُطْلِقُ الآجالَ والأرزاق، وينْفُث السّم والدرياق، قلم تَدِقُّ عن الإدارك حركاتُه، وتحلّى بالنفائس فتكاته ، يُسرِع ولا آنحدارَ السـيل إلىٰ قراره، وآنقداحَ الضوء من شراره، معطوفة الغايات علىٰ المبـادى، مصروفة الأعجاز إلىٰ الهوادى، وإذا صال

(١) كذا بالاصل ولعلها الحبر .

أراك كيف آختلاف الرماح بين الآساد . وله خصائصُ أخرىٰ يبدعها إبداعا، فإذا لم يأت بها غيره تَطَبُّعًا أتىٰ بها هو طبعا، فَطَوْرًا يُرىٰ إماما يُلْقِي درسا ، وطَوْرا يرىٰ ماشطة تجلو عِرْسًا ، وطورا يُرىٰ وَرْقَاءَ تصـدَحُ فى الأوراق ، وطورا يرىٰ جوادا مُخَلَّقا بخلوق السِّباق، وطورا أُفعُوانا مطرقا، والعجب أنه لا يزهو إلا عند الإطراق! ولطالمـا نَفَثَ سِحْرا، وجلب عِطْرا، وأدار فى القِرْطاسِ خمرا، وتصرَّف فى صنوف الغَنَاء فكان فى الفتح عُمَر ، وفى الهَدْيِ عَمّارا ، وفى الكيد عَمْرا ، فلا تَحَظَّىٰ به دولة إلا نخرت علىٰ الدول، وآستغنت عن الخيل والخَوَل .

وقال الإسكندر : لولا القلم ما قامت الدنيـا ، ولا آسـتقامت المملكة . وكلُّ شيءٍ تحت العقل واللسان لأنهما الحاكمان علىٰ كل شيء، والقلم يريكهما صورتين، و يوجدُ كَهُما شكلين .

وقال بعض حكماء اليونان : أمور الدنيا تحت شيئين : السيف والقلم، والسيف تحت القلم . وقال آخر : فاقتْ صـنعة القلم عند سائر الأمم ، جمع الحكم فى صحون الكتب . وقال العتـابى : ببكاء القـلم تبسم الكتب . وقال البُحْتُرِيّ : الأقلام مَطَايا الفِطَن . وقال أبو دُلَف العِجْلِيّ : القلم صائغ الكلام، يفرغ ما يجمعه الفكر، و يصوغ ما يسبكه اللب . وقال سهل بن هارون : القلم أنف الضـمير، إذا رُعِف أعلن أسراره، وأبان آثاره . وقال ثمامة : ماأثَّرته الأقلام، لم تطمع فى دَرْسه الأيام. وقال هشام بن الحكم : أحسن الصنيع صنيع القلم والخطِّ الذى هو جَنَىٰ العقول . وقال على بن منصور : بنور القلم تُضِيء الحكمة . وقال الجاحظ : من عرف النعمة فى بيـان اللسان، كان بفضل النعمة فى بيان القلم أعْرَف . وقال غيره : بالقلم تُزَفُّ بنـاتُ العقول إلىٰ خُدُور الكُتُب . وقال المأمون : لله درّ القلم كيف يحوك وَشْيَ المملكة . وقال بعض الأعراب : القـلم ينهَضُ بمـا يَظْلَع بحمله اللِّسان، ويبلغ مالا

يبلغه البيان . وقال بعضهم : القلم يجعل للكتب ألْسُنا ناطقة ، وأعيُنا ملاحظة ، وربما ضمنها من ودائع القلوب مالا تبوح به الإخوان عند المشاهدة . وقال أوميرس الحكيم : الخط شيء أظهره العقل بواسطة سِن القلم ، فلما قابل النفس عشقته بالعنصر . وقال مرطس الحكيم : الخط بالقلم يُنَمِّى الحكمة . وقال جالينوس : القلم الطلسم الأكبر . وقال بقراط : القلم على[1] إيقاع الوتر ، والمَهْنة المنطقية مقدّمة على المَهْنة الطبيعية . وقال بليناس : القلم طبيب المَنْطق . وقال أرسطاطاليس : القلم العلّة الفاعلة ، والمِداد العلة الهَيُولانيّة ، والخط العلة الصُّورية ، والبلاغة العلّة التمامية . وقد أكثر الشعراء القول فى شرف القلم وفضله .

فمن ذلك قول أبى تمّام الطائىّ :

إن يَخْدُمِ القلمُ السَّيفَ الذى خَضَعَتْ * له الرِّقَابُ وذلّتْ خَوْفَه الأمَمُ

فالمَوْتُ والمَوتُ لا شىءٌ يغالبه * مازال يَتْبَعُ ما يجرى به القَلَمُ

كذا قضى الله للأقلام مذ بُرِيَتْ * أن السيوفَ لها مُذْ أُرْهِفَتْ خَدَمُ

وقوله :

لك القلمُ الأعلى الذى بِشَبَاتِهِ * تُصَاب من الأمر الكُلَى والمفاصِلُ

لُعَابُ الأفاعِى القاتلاتِ لُعَابُهُ * وأَرْىُ الجَنى اشتارته أيدٍ عَوَاسِلُ

له رِيقةٌ طَلٌّ ، ولكنّ وقعها * بآثاره فى الشَّرْق والغرب وَابِلُ

فَصِيحٌ إذا استنطقته وهو راكب * وأعجمُ إن خَاطَبْتَه وهو رَاجِلُ

إذا ما امتطى الخمسَ اللِّطاف وأُفْرِغَتْ * عليه شِعَابُ الفِكْرِ وهى حَوَافِلُ

أطاعته أطرافُ القَنَا ، وتقوّضت * لنَجْواه تقويضَ الخِيَامِ الجَحَافِلُ

إذا استغزر الذهنُ الجلىّ وأقبلت * أعاليه فى القِرْطاس وهى أَسَافِلُ

---

(١) لعله مقدم على أو نحو ذلك .

وقد رَفَدَتْهُ الخِنْصِرانِ وسدّدت * ثلاثَ نواحيه الثلاثُ الأنامِلُ
رأيتَ جليلًا شأْنُه وهو مُرْهَف * ضَنًّا، وسَمِينًا خطبُه وهو نَاحِلُ

وقول أبى هلال العسكرىّ :

أُنظرْ إلىٰ قلمٍ يُنَكِّسُ رأسَه * لِيَضُمَّ بين مُوَصَّل ومُفَصَّل
تَنْظُرْ إلىٰ مِخْلَابِ لَيْثٍ ضَيْغَمٍ * وغِرَارِ مسنونِ المَضَارب مِفْصَل
يَبْدُو لناظره بلَوْنٍ أصْفَرٍ * ومَدَامِعٍ سُودٍ وجِسْمٍ مُنْحَل
فالدَّرْجُ أبيضُ مثلُ خدٍّ واضحٍ * يَثْنِيه أسودَ مثلَ طَرْفٍ أكحَل
قسَم العَطَايا والمَنَايا فى الورىٰ * فإذا نظرتَ إليه فآحذَرْ وأْمُلِ
طَعْمانِ شَوْبُ حلاوةٍ بمرارةٍ * كالدّهر يَخْلِط شَهْدَهُ بالحَنْظَل
فإذا تَصرَّفَ فى يديك عِنَانُه، * ألحقتَ فيه مؤمّلا بمؤمّل
ومُذَلَّلا بمعَزَّز، ولربّما * ألحقتَ فيه معزَّزا بمذَلَّل

وقوله :

لكَ القَلَمُ الجارى ببُؤْسٍ وأَنْعُمٍ * فمنها بَوَادٍ تُرْتَجىٰ وعوائدُ
إذا مَلأ القرطاسَ سُودُ سُطوره * فتلك أُسُودٌ تُتّقىٰ وأَسَاوِدُ
وتلك جِنَانٌ تُجْتَنىٰ ثمراتُها * ويلقاك من أنفاسهنّ بوَارِدُ
وهنّ بُرودٌ مالهنّ مَنَاسِجٌ * وهنّ عقودٌ مالهن معَاقِدُ
وهنّ حيَاة للوَلِىِّ رَضِيّةٌ * وهنّ حُتوفٌ للعدوّ رَوَاصِدُ

الجملة الثانية

(فى آشتقاقه)

وقد اختُلِف فى ذلك ؛ فقيل : سمى قَلَمًا لآستقامته، كما سميت القِدَاحُ أقلاما فى قوله تعالىٰ : ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ قال بعض المفسرين : تشاحُّوا فى كفالتها فضربوا عليها بالقداح، والقداح مما يضرب بها المَثَل فى الآستقامة؛ وقيل : هو مأخوذ من القُلَّامِ : وهو شجر رِخْوٌ فلما ضارعه القلم فى الضعف سمى قلما ؛ وقيل : سمى قلما لِقَلْم رأسه ، فقد قيل إنه لا يسمّى قلما حتّى يُبْرىٰ ، أما قبل ذلك، فهو قَصَبة . كما لا يسمّى الرمح رُمْحا إلا إذا كان عليه سِنَانٌ وإلا فهو قَنَاة . ومنه قُلَامة الظفر، وإلىٰ ذلك يشير أبو الطَّيِّب الأزدىّ بقوله :

قَلَمٌ قَلَّمَ أظفارَ العِدا * وهو كالإصبع مقصوصُ الظُّفُرْ
أَشْبَهَ الحَيَّةَ حتّى إنه * كُلَّما عَمَّرَ فى الأيدى قَصُرْ

وقيل لأعرابىّ : ما القلم ؟ ففكَّر ساعة وقلب يده، ثم قال : لا أدرى ، فقيل له : توهَّمْه . قال : هو عود قُلِّمَ من جوانبه كتقليم الظُّفُر، فسمى قلما .

الجملة الثالثة

(فى صفته)

قال إبراهيم بن العباس لغلام بين يديه يعلمه الخطَّ : ليكن قلمك صُلْبًا، بين الدّقة والغِلَظ، ولا تَبْرِه عند عُقْدة فإن فيه تعقيدَ الأمور ، ولا تكتبْ بقلم ملتوى، ولا ذى شَقٍّ غير مستوى، وإن أعوزك البحرىّ والفارسىّ، واضطررت إلىٰ الأقلام النبطية فاختر منها ما يميل إلىٰ السُّمْرة .

وقال إبراهيم بن محمد الشيبانى : ينبغى للكاتب أن يتخيَّر من أنابيب القصب أقلَّه عُقَدا ، وأكثفه لحما ، وأصلبه قِشْرا ، وأعدله آستواء . وقال العتابى : سألنى الأصْمَعِىُّ يوما بدار الرشيد: أىّ الأنابيب للكتابة أصلَحُ وعليها أصبر؟ فقلت: ماَنَشِف بالهجير ماؤه، وستره من تلويحه غِشَاؤه، من التِّبْرِيَّةِ القشور، الدُّرِّيَّةِ الظهور، الْفِضِّيَّةِ الكُسُور . وكتب علىّ بن الأزهر إلىٰ صديق له يستدعى منه أقلاما :

أما بعدُ فإنا علىٰ طول الممارسة لهذه الكتابة، التى غلبت على الأسم، ولزمت لزوم الوَسْم ؛ فحلَّت محل الأنساب ، وجَرَتْ مجرىٰ الألقاب ، وجدنا الأقلام الصحرية اجرىٰ فى الكَوَاغد ، وأمرّ فى الجلود ؛ كما أن البحريَّة منها أسْلَسُ فى القراطيس ، وألين فى المعاطف ، وأشدّ لتصرُّف الخط فيها ؛ ونحن فى بلد قليل القصب رديئه ، وقد أحببت أن تتقدّم فى آختيار أقلام صحرية ، وتتنوّق (1) فى آقتنائها قبلَك ، وتطلبها من مظانِّها ومنابتها : من شطوط الأنهار ، وأرجاء الكروم ؛ وأن تتيمن (2) باختيارك منها الشديدة الصُّلبة ، النقيَّة الجلود ، القليلة الشحوم ، الكثيرةَ اللحوم ، الضيِّقة الأجواف، الرزينة المَحْمَل : فإنها أبقىٰ علىٰ الكتابة، وأبعد من الحَفَاء . وأن تقصد بانتقائك الرقاق القُضْبان ، المقوّمات المتون ، المُلْس المعاقد ، الصافية القشور ، الطويلة الأنابيب ، البعيدة ما بين الكعوب ، الكريمة الجواهر ، المعتدلة القَوَام ، المستحكمة يُبْسًا ، وهى قائمة علىٰ أصولها لم تُعْجَل عن إبَّان يَنْعِهَا ، ولم تؤخر إلىٰ الأوقات المخوفة عليها من خَصَرِ الشتاء ، وعَفَن الأنداء . فإذا آستجمعت عندك ، أمرت بقطعها ذراعا [ذراعا] (3) قَطْعا رفيقا ، ثم عَبَّأت منها حُزَمًا فيما يصُونها من الأوعية (4) ، وتكتب معه بعدّتها وأصنافها من غير تأخير ولا توان .

(١) فى العقد الفريد تتأنق وهو بمعناه . قال ذو الرمة .

كان عليها سَحق لَفق تنوّقت * به حضرميات الأكفِّ الحوائك

(٢) فى العقد الفريد تتيمم . (٣) الزيادة عن العقد الفريد . (٤) فى العقد . ووجهها مع من يؤدى الامانة فى حراستها وحفظها وايصالها وكتبت الخ .

وأهدىٰ آبن الحرون إلىٰ رجل من إخوانه الكُتَّاب أقلاما، وكتب إليه :

إنه لما كانت الكتابة (أبقاك الله) أعظمَ الأمور، وقِوام الخلافة، وعمود المملكة، أتحفتك من آلتها بمـا يخف مَحْمَله، وتثقل قيمتُه، ويعظم نفـعه، ويَجِلُّ خَطَره؛ وهى أقلام من القصب النابت فى الصخر، الذى نَشِف بحرّ الهجير فى قشره ماؤه؛ وسـتره من تلويحه غشاؤه؛ وهى كاللآلئ المكنونة فى الصَّدف، والأنوار المحجوبة فى السَّدَف، تِبْرِيَّةُ القشور، دُرِّيَّةُ الظهور، فِضِّـيَّةُ الكسور؛ قد كسـتها الطبيعة جوهرا كالْوَشْيِ المُحَبَّر، ورونقا كالديباج المنيَّر .

ومن كتاب لأبى الخطاب الصابئ، يصف فيه أقلاما أهداها فى جملة اصناف :

وأضفتُ إليها أقلاما سليمةً من المعايب، مُبَرَّأة من المثالب، جمَّة المحاسن، بعيدةً عن المطاعن؛ لم يربها طُول ولا قصر، ولا ينقصها ضَعْف خَوَر؛ ولا يَشِينها لين ولا رخاوة، ولم يَعِبْها كَزَازة ولا قساوة؛ وهى آخذة بالفضائل من جميع جهاتهـا، مستوفِيَة للمَمَادح بسائر صفاتها، صُلْبة المَعَاجم، لَدْنة المقاطع، موفية القدود[(١)] والألوان، محمودة المَخْبَرِ والعِيَان؛ وقد آسـتوىٰ فى المَلاَسـة خارجها وداخلها، وتناسب فى السَّلاسة عاليها وسافلُها؛ نبتت بين الشمس والظل، وآختلف عليها الحرّ والقُرّ؛ فلفَحها وَقَدانُ الهَواجر، ولفَعها سَمَـائم شهر ناجر؛ ووقذها الشَّفَّان بصَرِده، وقذفها الغمام بِبَرَده، وصابَتْها الأنواء بصَيِّبها، وآستهلَّتْ عليها السحائب بشآبيبها؛ فاستمرَّت مرائرها علىٰ إحكام، وآسـتحصد سَجْلُها[(٢)] بالإبرام؛ جاءت شَتَّى الشِّـيات، متغايرة الهيئات، متباينة المحالّ والبُلْدان؛ تختلفُ بتباعد ديارها، وتأتلف بكرم نِجَارها .

فمن أنابيبِ قَنًا ناسبَتْ رماحَ الخط فى أجنـاسها، وشاكلَتِ الذهب فى ألوانها،

---

(١) لعله وافية القدود . أى تامة كاملة .

(٢) لعله حبلها وحرر .

وضاهت الحرير فى لَمَعانها، مضابطة الحفاء، نَمِرَةَ القُوىٰ؛ لا يسيطها القط، ولا يُشَعَّبُ بها الخط .

ومن مِصْريَّة بيض كانها قَباطِيُّ مِصْر نقاء، وغِرقِئُ البيض صفاء؛ غَذاها الصعيد من ثراه بلُبِّه، وسقاها النيل من نَميره وعَذْبه؛ فجاءت ملتئمة الأجزاء، سليمة من الألتواء؛ تستقيم شقُوقُها فى أطوالها، ولا تنكّب عن يمينها ولا شمالها، مقترن بها صفراءُ كأنها معها عِقْيانٌ قُرِنَ بلُجين، أو ورقٌ خُطَّ بعينْ؛ تختال فى صُفْر ملَاحفها، وتميس فى مُذْهَب مَطَارِفها؛ بلونِ غِياب الشمس، وصِبْغ ثياب الوَرْس .

ومن منقوشة تَرُوق العين، وتُونِقُ النفس؛ ويُهْدِى حسنُها الأرْيَحيَّةَ إلىٰ القلوب، ويَحُلُّ الطَّرْف لها حَبْوة الحليم اللبيب؛ كأنها آختلاف الزَّهر اللامع، وأصناف الثمر اليانع .

ومن بحريَّة مَوْشِيَّة اللِّيط، رائقةِ التخطيط؛ كأنّ داخلها قطرةُ دم، او حاشية رداء مُعْلَم؛ وكأنّ خارجها أرقم، أومتن وَادٍ مُفْعَم؛ نشرت ألوانا تُزْرِى بوَرْدِ الخدود، وأبدتْ قامات تفضَح تأوّد القُدُود .

ومن كلام آبن الزيات : خير الأقلام ما آستحكم نُضْجه وخف بزره؛ قد تساعدتْ عليه السعود فى فلَك البروج حولا كاملا، تؤلفه بمختلِف أركانها وطباعها، ومتباين أنوائها وأنحائها؛ حتّى إذا بلغ أشدّه وآستوىٰ، وشقّتْ بوازله، ورَقّتْ شمائله؛ وآبتسم من غشائه، وتأدّىٰ من لحائه؛ وتعرّىٰ عنه ثوب المَصِيف، بانقضاء الخريف، وكشف عن لَوْن البَيْض المكنون، والصَّدَف المخزون؛ قُطِعَ ولم يُعَجَّلْ عن تمام مصلحته، ولم يؤخَّر إلىٰ الأوقات المخوفة عاهاتُها عليه من خَصَر الشتاء، وعفَن الأنداء؛ فجاء مستوِىَ الأنابيب معتدلها، مُثقَّفَ الكعوب مقوَّمها .

وقد حرر الوزير أبو علىّ بنُ مقلةَ رحمه الله مَنَـاط الحاجة من هذه الأوصاف، وٱقتصر علىٰ الضرورىّ منها فى ألفاظ قلائل فقال :

خير الأقلام ما ٱستحكم نُضْجه فى جرمه، ونَشِف ماؤه فى قشره، وقُطِـع بعد إلقاء بزره، و بعد أن ٱصفرَّ لِحَاؤه و رَقَّ شحمه، وصلب شحمُه، وثقُل حجمه .

الجمــــلة الرابعة

(فى مساحة الأقلام فى طولهـا وغِلَظها)

قال ٱبن مقلة : خير الأقلام ما كان طولهُ من ستةَ عشر إصبعا إلىٰ ٱثنى عشر، وٱمتلاؤه ما بين غِلَظ السَّبَّابة إلىٰ الخِنصر . وهـذا وصف جامع لسائر أنواع الأقلام علىٰ ٱختلافها .

وقال فى موضع آخر : أحسنُ قُدود القلم أن لا يُتجاوَز به الشِّـبْر بأكثر من جِلْفَتِه ويشهد له قول الشاعر :

فَتًى لو حوىٰ الدّنيـا لأصبح عَارِيًا * من المـال، معتاضا ثيابا من الشُّكْرِ
له تَرْجُمَانٌ أخرسُ اللفظِ صامتٌ، * علىٰ قَابِ شِبْرٍ بل يزيد علىٰ الشِّبْرِ

وقال الشيخ عماد الدين الشيرازى : أَحمَدُ الأقلام ما توسطت حالاته فى الطول والقِصَر، والغِلَظ والدقة ، فإن الدقيق الضئيل تجتمع عليـه الأنامل فيبقى مائلا إلىٰ مابين الثلث، والغليظَ المفرطَ لاتحمله الأنامل .

وقال فى الحِلْيَة : إذا كانت الصحيفة لينة ينبغى أن يكون القلم لَيِّن الأُنْبوب، وفى لحمه فضل، وفى قِشْره صلابة؛ و إن كانت صُلْبَةً، كان يابس الأُنْبوب صُلْبه، ناقص الشحم : لأن حاجته إلىٰ كثرة المداد فى الصحيفة الرِّخْوَة أكثر من حاجته إليه فى الصحيفة الصُّلْبَةِ . فرطوبته ولحمـه يحفَظان عليه غزارة الآستمداد ؛ ويكفى

فى الصحيفة الصُّلْبَة ما وصل إليها فى القلم الصُّلْبِ الخالى من المداد ، والله جل ذكره أعلم .

الجملة الخامسة
(فى بَرْى القلم ؛ وفيه خمسة أنظار)

النظر الأوّل
(فى ٱشتقاقه وأصل معناه)

يقال بَرَيْت القلم أَبْريه بَرْيًا وبِرَاية غير مهموز، وهو قلم مَبْرِىٌّ ، وأنا بَارٍ للقلم بغير همز أيضا . قال الشاعر :

يا بَارِىَ القَوْسِ بَرْيًا ليس يُحْكِمُهُ * لا تُفْسِدِ القوس ، أَعْطِ القَوْسَ بَارِيَهَا

ويقال أيضا بَرَوْتُ القلم والعُودَ بروًا بالواو ، والياءُ أفصح . ويقال لما سقط منه حالة البَرْى بُرَايَةٌ (بضم الموحدة فى أوّله) علىٰ وزن نُزَالَةٍ وحُثَالَةٍ ، والفُعالة ٱسم لكل فضلة تفضل من الشىء ، وتقول فى الأمر : ٱبر قلمك .

النظر الثانى
(فى الحث علىٰ معرفة البِرَاية)

قال الحسن بن وهب : يحتاج الكاتب إلىٰ خِلال ؛ منها جودة بَرْى القلم ، وإطالة جِلْفَتِه ، وتحريف قَطَّته ، وحسن التأتى لٱمتطاء الأنامل ، وإرسال المَدّة بعد إشباع الحروف ، والتحرز عند فراغها من الكشوف ، وترك الشكل علىٰ الخطإ والإعجام علىٰ التصحيف .

ومن كلام المَقرّ العلائى ٱبن فضل الله ، طيب الله مَهْجَعه ! : من لم يحسن **الأستمداد ، وبرىَ القلم ، والقطّ وإمساك الطُّومار ، وقسمةَ حركة اليد حال الكتابة ، فليس هو من الكتابة فى شىء .**

ويحكىٰ أنّ الضّحاك كان إذا أراد أن يبرىَ قلمـا، توارىٰ بحيث لا يراه احد، ويقول: الخط كلُّه القلم . وكان الأنصارىّ إذا أرادأن يبرى فعل ذلك، فإذا أراد أن يقوم من الديوان قطع رءوس الأقلام حتّٰى لا يراها أحد .

وقال إسحاق بن حَمّاد : لاحذْقَ لغير مميز لصنوف البِرَاية . ورأىٰ إبراهيم بن المحبس رجلا يأخذ علىٰ جارية قَلَمَ الثلث، فقال : أعلمتها البِرَاية؟ قال : لا، قال : كيف تحسن أن تكتب بمـا لاتحسن بِرَايته ؟ تعليم البراية أكبر من تعليم الخط .

قال المقر العلائى ٱبن فضل الله : ورأيت بخط أبى علىّ بن مقلة رحمه الله ، نَعَمْ نَعَمْ مِلَاك الخطِّ حسن البِراية، ومَنْ أحسنها سهُل عليه الخط، ولا يقتصر علىٰ علم فنّ منها دون فنّ ، فإنه يتعين علىٰ من تعاطىٰ هـذه الصناعة أن يحفظ كل فنّ منها علىٰ مذهبه : من زيادة فى التحريف، ومن النقصان منه، ومن ٱختلاف طبقاته . ومن وعىٰ قلبُه كثرةَ أجناس قَطِّ الأقلام ، كان مقتـدرا علىٰ الخط ، ولا يتعلَّم ذلك إلا عاقل، والقلم للكاتب كالسيف للشُّجاع .

وقال الضحَّاك بن عَجْلان : القلم من أجناس الأقلام كاللحن من أجناس الألحان فى الصناعة، والبراية الواحدة من أجناس البراية كذلك .

ومن كلام المقر العلائى ٱبن فضل الله : جَوْدَةُ البراية نصفُ الخط .

ومنهم من ذهب إلىٰ أن العبرة بحسن الصنعة دون برى القلم، حتّٰى حكى الغزالىٰ رحمه الله فى نصيحة الملوك أن الصاحب بن عَبَّـاد كان وزيرا لبعض الملوك، وكان معه ستة وزراء غيره فكانوا يحسُدونه، ولم يزالوا حتّٰى ذكروا للملك أنه لا يُحْسِن بِراية القـلم، وعمـدوا إلىٰ أقلامه فكسروا رءوسها، ثم إن الملك أمره بكتب كتاب فى المجلس، فوجد أقلامه كلّها مكسرة الرءوس فأخذ قلمـا منها، وكتب به إلىٰ أن ٱنتهىٰ إلىٰ آخر الكتاب بخط فائق رائق، فقـال له الملك : إن هؤلاء يزعمون أنك لاتحسن بَرْى القلم، فقال : إن أبى علمنى كاتبا ولم يعلمنى نَجَّارًا .

النظــــر الثـالث
(فى معرفة محلّ البِرَاية من القلم)

قال إبراهيم بن محمد الشَّيْبَانِىّ : يجب أن يكون البرى من جهة نبات القصـبة، يعنى من أعلاها إذا كانت قائمة علىٰ أصـلها ، فإن محل القلم من الكاتب محل الرمح من الفارس . وإلىٰ هذا المعنىٰ أشار أبو تَمَّـامٍ الطائىّ بقوله فى أبياته المتقدّمة :

وأقبلت * أعاليه فى القِرْطاس وهى أسافِلُ

وقال أبو القاسم : إذا أخذ القلم ليبْرِيَه فلا يخلو من ٱستقامة فى البنية أو ٱعوجاج فى الخلقة ، فإن كان مسـتويا فالبرية من رأسـه ، وهو حيث ٱستدق ، وإن كان مُعْوَجًّا ودعت الضرورة إليه، فالبرية من أسفله لأن أسفله أقل ٱلتواءً من أعلاه .

النظــــر الرابع .
(فى كيفية إمساك السِّكِّين حال البرى)

قال ٱبن البربرىّ : إذا بدأت بالبِراية فأمسـك السكين باليد اليمنىٰ ، والأنبوبة باليسرىٰ، وضع إبهامك اليمنىٰ علىٰ قفا السكين، ثم ٱعتمد علىٰ الأنبوبة ٱعتمادا رفيقا .

النظر الخـامس
(فى صــنعة الــبراية)

قال العَتَّـابىّ: سألنى الأَصْمَعِىّ يوما بدار الرشـيد : أىُّ نوع من البرى أَصْوَبُ وأَكْتَبُ؟ فقلت : البَرْية المسـتوية القَطَّة التى عن يمين سنها برية تأمن معها المجةَ عند المدّة والمطة، الهواءُ فى شـقها فتيق، والريح فى جوفها خريق، والمـداد فى خرطومها رقيق .

واعلم أنه ربمـا حَسُن الخط باعتبـار براية القلم، وإن لم يكن علىٰ قواعد الخط وهندسته، فقد قيل : إن الأحول المحرر كان عجيب البراية للقلم، فكان خطه رائقا بَهِجًا من غير إحكام ولا إتقان . قال الأنصارى المحرر : كنت أكتب فى ديوان الأحول، فقرُبت منه وأخذت من خطه، وسرقت من دواته قلمـا من أقلامه، فجاد خطى به، فلاحت منه نَظْرة إلىٰ دواتى، فرأىٰ القلم فعرفه، فأخذه وأبعدنى . وكان إذا أراد أن يقوم من مجلسه أو ينصرف قطع رءوس أقلامه كلّها .

واعلم أن البَرْىَ يشتمل علىٰ معان .

المعنىٰ الأوّل – فى صفته، ومقداره فى الطول، والتقعير .

قال الوزير أبو على بن مقلة رحمه الله : ويجب أن يكون فى القلم الصُّلْب ا كثر تقعيرا، وفى الرِّخْوِ أقلّ، وفى المعتدل بينهما . وصفته أن تبتدئ بنزولك بالسكين علىٰ الاستواء، ثم تُميلَ القطع إلىٰ مايلى رأس القلم، ويكون طول الفتحة مقـدار عُقْـدة الإبهام، أو كمناقير الحمـام، وإلىٰ ذلك أشار الشيخ علاء الدين السرَّمَرِىٰ رحمه الله فى أرجوزته بقوله :

وطُولُهـا كعُقْدة الإبهامِ لا * أعلىٰ ولا أدنىٰ يكون أرْذَلا

قال الأستاذ أبو الحسن بن البوّاب رحمه الله : كل قلم تقصُر جِلْفَتُهُ، فإن الخط يجىء به أوْقَص، والوَقَص قِصَرُ العنق، ولذلك سمى متفاعلن فى عروض الكامل إذا حذفت منه التاء أوقص، وكأنه يريد بالقِصَرِ مادون عقدة الإبهام .

وقد قال إبراهيم بن العباس الصولى الكاتب : أطِلْ خُرْطوم قلمك . فقيل له : اله خرطوم قال : نعم . وأنشد .

كأنّ أُنوفَ الطير فى عَرَصَاتِها * خراطِيمُ أقلامٍ تَخُطُّ وتُعْجِمُ

وقال عبد الحميد بن يحيى كاتبُ مَرْوان لرغبان، وكان يكتب بِقلم قصير البَرْية : أتريد أن يَجُود خطُّك ؟ قال : نعم . قال : فأطل جلْفَةَ قلمك وأسْمنها ، وحرِّف القطة وأيمنها ؛ قال رغبان : ففعلت ذلك فجاد خَطِّى . وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله : إذا طالت البَرْية ،فإنه يجيءُ الخط بها أخف وأضعف وأجلى؛ وإذا قصرت، جاء الخط بها أصفى وأثقل وأقوى .

المعنى الثانى — النحت .

قال الوزير أبو علىّ بن مقلة : وهو نوعان، نحت حواشيه، ونحت بطنه . أما نحت حواشيه، فيجب أن يكون متساويا من جهتى السن معا ، ولا يحمل على إحدى الجهتين فيضعف سنه ، بل يجب أن يكون الشق متوسطا بجِلْفَةِ القلم دَقَّ أو غَلُظَ . قال : ويجب أن يكون جانباه مسيَّفين، والتسييف أن يكون أعلاه ذاهبا نحو رأس القلم أكثر من أسفله ، فيحسن جرىُ المداد من القلم . قال : وأما نحت بطنه فيختلف بحسب آختلاف الأقلام فى صلابة الشحم ورخاوته ؛ فأما الصُّلْبُ الشحمة فينبغى أن يُنْحت وجهه فقط،ثم يجعل مسطحا وعرضه كقدر عرض الخط الذى يُؤْثِرُ الكاتبُ أن يكتبه . وأما الرخو الشحمة فيجب أن تستأصل شحمته حتّى تنتهى إلى الموضع الصُّلْب من جرم القلم، لانك إن كتبت بشحمته، تشظّى القلم ولم يَصْفُ جريانه .

ومن كلام آبن البربرى: لاتقصع البِرَاية،ولا تخالف بين حدّى القلم؛ فإن ذلك حِيَاكة ، وإذا كان كذلك يكون القلم أحول .

ثم الجِلْفَةُ على أنحاء: منها أن يرهف جانبى البَرْية، ويُسْمن وسطها شيئا يسيرا؛ وهذا يصلح للبسوط والمعلّق والمحقّق .

ومنها ماتستأصل شحمته كلها، وهذا يصلح للرسل والممزوج والمفتح .

ومنها مايرهف من جانبه الأيسر ويبقى فيه بقية فى الأيمن؛ وهذا يصلح للطوامير وما شابهها .

ومنها مايرهف من جانبي وسطه ، ويكون مكان القطة منه أعرض ممـا تحتها؛ وهذا يصلح فى جميع قلم الثلث وفروعه .

المعنى الثـالث ــ الشق : وفيه مهيعان .

المهيع الأوّل

(فى فائدته)

قال الوزير أبو على بن مقلة رحمه الله : لو كان القـلم غير مشقوق ما آستمرّت به الأنامل، ولا آتصل الخط للكاتب، ولكَثُر الآستمداد، وعُدِم المشق، ولمال المداد إلىٰ أحد جنبي القلم علىٰ قدر فتل الكاتب له .

المهيع الثـانى

(فى صفة الشق، وفيه مُدْركان)

المُـــدْرك الأوّل

(فى قدره فى الطول)

قال آبن مقلة : ويختلف ذلك بحسب آختلاف القلم فى صلابته ورخاوته . فأما المعتدل فيجب أن يكون شَقُّه إلىٰ مقدار نصف الفتحة أو ثلثيها . والمعنىٰ فيه أنه إذا زاد علىٰ ذلك آنفتحت سنا القلم حال الكتابة وفسد الخط حينئذ. وإذا كان كذلك أمن من ذلك .

وأما الصُّلْبُ ، فينبغى أن يكون شـقه إلىٰ آخر الفتحة ؛ وربمـا زاد علىٰ ذلك

بمقدار إفراطه فى الصـلابة . وقد نظم ذلك الشيخ علاء الدين السُّرَّمَرّىّ رحمه الله فى أرجوزته فقال :

وٱعلم بأن الشَّقّ أيضا يَخْتَلِفْ * بحسَب الأقلام، فافهم ما أَصِفْ
فإن يكن معتدلا شُـقّ إلىٰ * مقدار ثُلْث الحِلْفَة ٱنقل وٱقبلا
والرِّخْوُ للنصف أو الثلثين زد * والصُّلْبُ بالفتحة ألْحِقْ تَسْتَفِدْ
وربّما زادوا علىٰ ذاك إذا * أَفْرَطَ فى الصلابة، ٱعرِف ذا وذا

المُدْرَك الثانى

(فى محله من الحِلْفَة فى العرض)

وقد تقدّم من كلام ابن مقلة رحمه الله فى المعنىٰ الثالث أنه يجب أن يكون الشق متوسطا لحلْفَةِ القلم، وعليه جرىٰ الأستاذ أبو الحسن بن البوّاب رحمه الله فقال : وليكن غِلَظ السنين جميعا سواءً . قال : ويجوز أن يكون الأيمن أغلظَ من الأيسر دون العكس علىٰ كل حال؛ وهذا إنما يأتى إذا كانت الكتابة آخذة من جهة اليمين إلىٰ جهة اليسار، أما إذا كانت آخذة من جهة اليسار إلىٰ جهة اليمين كالقبطية فإنه يكون بالعكس من ذلك لأنه يقوىٰ الآعتماد علىٰ اليسار دون اليمين .

المعنى الرابع ـ القَطّ؛ وفيه مهيعان :

المهيع الأوّل

(ٱشتقاقه ومعناه)

يقال قطَطْت القلم أقُطُّه قَطًّا فأنا قاطٌّ وهو مَقْطُوط وقَطِيط : إذا قطعت سِنَّهُ وأصل القَطّ القطع؛ والقَطُّ والقدّ متقاربان، إلا أنّ القط أكثر ما يستعمل فيما يقع السيف فى عَرْضه ، والقدّ ما يقع فى طُوله . وكان يقال : إذا علا الرجل الشىءَ

بسيفه قدّه ، وإذا عرضــه قَطَّه . وذلك أن مخرج الطاء والدال متقاربان، فأبدل أحدهما من الآخركما يقال مط حاجبيه، ومدّ حاجبيه .

المهيع الثـانى
(فى صفته)

وٱعلم أن أجناس القَطِّ تختلف بحسب مقاصد الكُتَّاب ، وهو المقصود الأعظم من البِرَاية، وعليــه مَدَار الكتابة . قال الضَّحَّاك بن عجلان : من وعىٰ قلبــه كثرةَ أجناس قطّ الأقلام ، كانــ مقتدرا علىٰ الخط . وقال المقرّ العلائىّ ابن فضل الله تغمده الله برحمتــه : كان بعض الكُتَّاب إذا أخذ الأنْبوبة ليَبْرِيها تفرّس فيها قبــل ذلك، فإذا أراد أن يقُطَّ توقف ثم تحرّى، فتوقف ثم يقُطُّ علىٰ تثبُّت .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : والقط علىٰ نوعين :

النوع الأول ــ المحرّف، وطريق بريه أن يحرف السكين فى حال القط، وهو ضربان؛قائم ومصوّب : أما القائم فهو ماجعل فيه ٱرتفاع الشحمة كارتفاع القشرة وأما المصوّب، فهو ما كان القِشْر فيه أعلىٰ من الشحم .

النوع الثانى ــ المستوى؛وهو ماتساوى سناه؛ وأجودهما المحرّف، وقد صرح بذلك الوزير أبو على بن مُقْلة ، فقال : وأحمدها ما كان ذا سنّ مرتفع من الجهــة اليمنىٰ ٱرتفاعا قليــلا إذا كان القلم مصوّبا ، وهذا معنىٰ التحريف؛ وذلك إذا كانت الكتابة آخذة من جهة اليمين إلىٰ جهة اليسار كما تقدّم عند ذكر سِنّي القلم ، بخلاف ما إذا كان آخذا من جهة اليسار إلىٰ جهة اليمين . قال الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله : وأجودها المحرفة المعتدلة التحريف ، وأفسدها المستوية ، لأن المستوى أقلُّ تصرفا من المحرّف . قال : وقد كان بعض مَنْ لا يعتدّ به يقط القلم علىٰ ضــد

مايعتمده الأستاذون، فيصير الشحم من القلم هو المشرف علىٰ ظاهره ، فكان خطه لا يجيء إلا رديئا ، و إذا كانت القَطَّة علىٰ الضـدّ من ذلك ، كان الكاتب متصرِّفا فى الخط، متمكنا من القرطاس . قال الوزير ابن مقلة : وأَضْجِـع السكين قليلا إذا عزمْت علىٰ القَطّ ولا تنْصِبها نصـبا ، يريد بذلك أن تكون القطة أقرب إلىٰ التحريف، وأن تكون مصوّبة . قال الشـيخ شمس الدين بن أبى رقيبة : سألت الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله عن الكتابة بالأقلام، والتحريف والتدوير، فقال : الرقاع والتواقيع أميلُ إلىٰ التدوير بينَ بينَ ، قَطَّةٌ مُرَبَّعة ، والنسخ والمحقَّق والمشعر أميل إلىٰ التحريف، والمحقق أكثر تحريفا منهـما . وقد فسر ٱبن الوحيد قول ٱبن البوّاب : لكن جملة ما أقول بأنه ما بين تحريف إلىٰ تدوير، إن المعنى أن لكل قلم قَطّ صفة ، فقطَّة الريحانى أشدّها تحريفا ، ثم يَقِلُّ التحريف فى كل نوع من أنواع قط الأقلام حتّٰى تكون الرقاع أقلها تحريفا .

النظر السادس

(فى معرفة صفات القلم فيما يتعلق بالبِرَاية، وما لكل من سِنَّىِ القلم من الحروف)

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : من لم يَدْرِ وجه القلم، وصدْره، وعَرْضه، فليس من الكتابة فى شيء. وقد فسر ذلك الوزير أبو علىٰ بن مقْلة فقال: ٱعلم أن للقلم وَجْها وصَدْرا وعَرْضا، فأما وجهه فحيث تضع السكين وأنت تريد قَطَّه، وهو مايلى لمة القلم وأما صدره فهو مايلى قشرته ، وأما عرضه، فهو نزولك فيه علىٰ تحريفه. قال : وحرف القلم هو السنّ العليا وهى اليمنىٰ .

الجمـــــلة السادسة

(فى مساحة رأس القلم ومقـدارها من حيث موضع القطة ، وتفرّعها عن قلم الطومار ، ونسبتها من مساحته علىٰ آختـلاف مقاديرها فى الدقة والغِلَظ والتوسُّط ، وما ينبغى أن يكون فى دواة الكاتب من الأقلام) :

أما مساحة رأس القلم ، فاعلم أن رءُوس الأقلام تختلف باختـلاف الأقلام التى جرىٰ الاصطلاح عليها بين الكُتَّاب ، وأعظمها وأجلُّها وأكثرها مساحةً فى العَرْض هو قلم الطُّومار : وهو قلم كانت الخلفاء تُعَـلِّمُ به فى المكاتبات وغيرها . وصفته أن يؤخذ من لب الجريد الأخضر، ويؤخذ منه من أعلىٰ الفتحة مايسع رءُوس الأنامل ليتمكن الكاتب من إمساكه، فإنه إذا كان علىٰ غير هذه الصورة، ثقل علىٰ الأنامل ولاتحتمله؛ ويتخذ أيضا من القصب الفارسىّ؛ ولا بدّ من ثلاثة شقوق لتسهل الكتابة به ويجرِىَ المداد فيه . ولهم قَـلَمٌ دونه يسمّى مختصر الطومار، وبه يكتب النوّاب والوزراء ومن ضاهاهم الآعتمادَ علىٰ المراسيم ونحوهـا . وقدّروا مساحة عرضه من حيث البراية بأربع وعشرين شعرةً من شـعر البِرْذَونِ مُعْتَرِضَات، وهو أصل لمـا دونه من الأقلام، فقلم الثلثين من هذه النسبة مقدّر بست عشرة شعرة، وقلم النصف مقدّر باثنتى عشرة شعرة ، وقلم الثلث مقدّر بثمـان شعرات، ومختصر الطومار مابين الكامل منه والثلثين . وكل من هـذه الأقلام فيه ثقيل وهو ما كان إلىٰ الشِّبَع أميـل، وخفيف، وهو ما كان إلىٰ الدقة أقرب . إذا تقرّر ذلك فطول الأَلِف فى كل قلم معتبر بأن تضرب نسبة عرضه فى مثله ويجعل طولها نظير ذلك، ففى قلم الطومار يضرب مقـدار عرضه وهو أربع وعشرون شعرة فى مثلها خمسمائة وستا وسبعين شعرة وهو طولهـا ؛ وفى قلم الثلث تضرب نسبة عرضه من الطُّومار

وهو ثمان شعرات فى مثلها بأربع وستين، فيكون طولها أربعا وستين شعرة وكذلك الجميع فاعلمه .

وأما عدد أقلام الدواة فقد قال الوزير أبو علىّ بن مقلة : ينبغى أن تكون أقلامه على عدد مايؤثره من الخطوط ، وكأنه يريد أن يكون فى دواته قلم مبرىّ للقلم الذى هو بصدد أن يحتاج إلى كتابته ليجده مهيأ، فلا يتأخر لأجل برايته .

الآلة الثانية — المِقْلَمَة : وهى المكان الذى يوضع فيه الأقلام، سواء كان من نفس الدواة أوأجنبيا عنها، وقد لاتعدّ من الآلات لكونها من جملة أجزاء الدواة غالبا .

الآلة الثالثة — المُدْيَةُ، والنظر فيها من وجهين :

الوجه الأوّل

(فى معناها وآشتقاقها)

قال الجاحظ : تقال بضم الميم وفتحها وكسرها وتجمع على مُدًى : وهى السكين، وقد ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "كانتِ امْرأَتانِ معَهُما آبناهُمَا فجاء الذئبُ فذهَبَ بابن إحداهما، فقالتْ لصاحبَتِها : إنما ذَهَب بابنِك، وقالت الأخرى إنما ذهب بابنِك . فتحاكَمَا إلى داودَ فقضَى به للكُبْرَى، فخرجَتَا إلى سليمانَ بنِ داودَ فأخبرَتَاه، فقال : ائتونِى بالسِّكِّين أشقُّه بينهما، فقالت الصغرى : لاتَفْعَلْ رحمك الله هو آبنُها، فقضَى به للصُغْرَى" قال أبو هريرة : إنْ سَمِعتُ بالسكين إلا يومئذ ماكنا نقول إلا المُدْية .

ثم الأصل فى السكين التذكير، قال أبو ذؤيب :

يُرى ناصِحًا[1] لِى ما بَدَا، فإذا خَلَا، * فذلكَ سِكِّينٌ علَى الحَلْقِ حاذِقُ

(١) فى اللسان والصحاح يرى ناصحا فيما بدا .

قال الكسائى : ومن أنث أراد المدية وأنشد :

فَعَيَّثَ(١) فى السَّنام غَداةَ قُرٍّ * بسِكِّينٍ موثَّقةِ النِّصابِ

ويقال سِكِّينة بالهـاء، وهو قليل . وفى حديث المَبْعَث "أنه لما شَقَّ المَلَكُ بطنه صلى الله عليه وسلم قال : ائتِنى بالسِّكِّينة" وتجمع علىٰ سَكَاكِين، سميت مُدْية أخذا من مَدىٰ الأجل وهو آخره : لأنها تأتى بالأجل فى القتل علىٰ آخره ، وسميت سِكِّينا لأنها تسَكِّن حركة الحيوان بالموت. ونِصابُ السكين أصلُها، ونصاب كل شيء أصله قال الشاعر :

وإنَّ نِصَابِي إن سألتِ ، وأُسْرَتى * من الناس حَىٌّ يَقْتَنُون المُزَنَّما(٢)

، أى وإن أصلى . ويقال أنْصَبْت السكين إذا جعلتَ لها نِصابا، كما يقال أقْبَضْتها إذا جعلتَ لها مَقْبِضًا، وأقربْتُها إذا جعلت لها قِرابًا، وأغلفتها إذا جعلت لها غِلَافا، والحديدةُ الذاهبــة فى النصاب سيلَانٌ. ويقال أحْددت(٣) السكين فأنا أُحِدّه إحداد وحَدّ السكينُ نفسُــه صـار حادّا، وأحَدّ فهو مُحِدّ ، وسكين حادّ، فإذا أمرتَ مِنْ أحدّه قلتَ أَحْدِدْه، ومن حدّه قلتَ حُده .

الوجه الثـانى
(فى صفتها)

قال بعض الكُتَّاب : هى مِسَنُّ الأقلام ، تستحَدّ بها إذا كَلَّتْ ، وتطلق بها إذا وقفَتْ ، وتلُمُّها إذا تشعَّثت . فتجب المبالغة فى سَقْيها وإحدادها ليتمكن من البرى ، فيصفو جوهر القلم ،ولا تشظّى قَطَّتُه . وينبغى أن لايستعملها فى غير البِرَاية لئلا تَكِلَّ وتفسُد . قال الصُّولى : وأَحْدِدْ سكينك ولا تسـتعملها لغير ذلك . قال الوزير أبو على بن مقلة رحمه الله : وٱستحِدّ السكين حدّا، ولتكن ماضية جدّا؛ فإنها

(١) أى أثر فى السنام بالسكين انظر اللسان (٢) المزنَّم من الابل الكريم تقطع أذنه و يترك لها زنمة
(٣) أى وحددتها أيضا كما يستفاد من نهاية عبارته .

إذا كانت كالّة جاء الخط رديئا مضطربا . وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف : فساد البِراية من بَلادة السكين . قال محمد بن عمر المدائنى : ينبغى أن تكون لطيفة القدّ، معتدلة الحدّ . فقد كره المبالغةَ فى سقيها، لتمكن البارى من بريها . ولاعيب فى حملها فى الْكُمِّ والخُفِّ، فقد روىٰ المدائنى عن الأعمش عن إبراهيم أنه قال : اتخاذ الرجل السكينَ فى خُفّه من المُروءة . قالوا : وأحسنها ما عَرُض صدرُه، وأُرْهِف حدُّه، ولم يَفْضُلْ عن القَبْضة نِصَابُه ، وآستوىٰ مِن غيرآعوجاج . قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : ورأيت والدى وجماعةً من الكُتّاب يستحسنون العُقَابِيَّةَ: وهى التى صدرها أعرض من أسفلها . ووصف بعضهم سكينا، فقال : وسكّين عتيقة الحَديد، وَثِيقة الشَّعيرة ، مُحْكَمَة النِّصاب، جامعةُ الأسباب، أحدُّ من البَيْن، وأحسنُ من آجتماع مُحِبَّيْن ، وأمضىٰ من الحُسَام، فى بَرْى الأقلام . ولله القائلُ فى وصفها :

أنا إن شِئْتَ عُدّةٌ لعدوّ * حين يُخْشىٰ علىٰ النُّفُوس الحِمَامُ
انا فى السِّلم خادمٌ لدَوَاة * وبحدّى تُقَوَّمُ الأقلامُ

الآلة الرابعة ــ المِقَطُّ (بكسر الميم) كما ضبطه الجوهرىّ فى الصِّحاح إلا أنه قال فيه : مِقَطَّة بالتأنيث .

قال الصّولى : ينبغى أن يكون المِقطُّ صُلْبًا فتمضى القَطَّة مستوية لامَشْظِيَّة . قال الوزيرأبو على بن مقلة رحمه الله : إذا قططتَ فلا تَقُطّ إلاٰ علىٰ مِقَطٍّ أملسَ صُلْبٍ غير مُثَلَّم ولا خَشِنٍ لئلا يَتَشَظّى القلم : وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف : ويتعين أن يكون من عود صُلْبٍ كالآبَنُوس والعاج ، ويكون مسطَّحَ الوجه الذى يُقَطُّ عليه، ولا يكون مستديرا : لأنه إذا كان مستديرا تشظّى القلم، وربما تهللت القَطَّةُ فتأتى الإدارات والتشعيرات غيرَ جَيِّدة . قلت وينبغى أن لايكون مع ذلك

مانعا كالحديد والنُّحاس ونحوه فإن ذلك يفسد السكين، ولا تجيء القَطَّةُ صالحة .

الآلة الخامسة ـ المِحْبرة، وهى المقصود من الدواة، وتشتمل على ثلاثة أصناف .

الصنف الأوّل ـ الجُونة، وهى الظَّرف الذى فيه اللِّيقة والحِبْر .

قال بعض فضــلاء الكُتَّاب : و ينبغى أن تكون شكلا مدوّر الرأس يجتمع على زاويتين قائمتــين ، يوقذهمــا خط ، ولا يكون مربعا على حال لأنه إذا كان مربعا يتكاثف المداد فى زواياه فيفسد المداد ، فإذا كان مستديرا كان أبقى للمداد ، وأسعد فى الآستمداد .

الصنف الثــانى ـ الليقة ، وتسميها العرب الكُرْسُفَ تسميةً لهــا بآسم القُطْن الذى تتخذ منه فى بعض الأحوال كما سيأتى، والنظر فيها من وجهين :

الوجه الأوّل

(فى آشـــتقاقها)

يقال أَلَقْتُ الدواة ولِقْتُها، أخذا من قولهم : فلان لاتُلِيقُ كفُّه درهمــا أى لاتَحْبِسُه ولا تُمْسكه، وأنشد الكسائىّ :

كَفَّــاكَ كَفٌّ ما تُلِيق دِرْهَمَــا * جُودا، وكَفٌّ تُعْطِ بالسيف الدَّمَا

يصفه بالجُود، أى كَفَّاكَ ما تُمسِكُ درهما، و يقال : مالاقَتِ المراة عند زوجها أى ما عَلِقَتْ . قال المبرد : دخل الأصْمَعِىّ على الرشيد بعد غَيْبةٍ غابها ، فقال له : كيف حالُك ياأصمعىّ؟ فقال : ما ألاقَتْنى نحوك أرضٌ ياأمير المؤمنــين : نأمسك الرشيدُ عنه، فلما تفرّق أهل المَجْلِس، قال له : مامعنى ألاقتنى؟ قال : ماحبستْنى، فقال : لا تكلِّمْنى فى مجلس العامّة بمــا لا أعلم . قال الجاحظ : ولا تســتحق آسم اللِّيقة حتّى تُلَاق فى الدواة بالنِّقْس : وهو المِداد .

الوجه الثانى
(فيما تتخذ منه وتتعاهد به)

قال بعض الكُتَّاب : تكون من الحرير والصُّوف والقطن، ويقال فيه الكُرْسُفُ، والبِرْسُ، والطُّوطُ، والعُطْبُ، والأولىٰ أن تكون من الحرير الخشن : لأن ٱنتفاشها فى المِحْبرة وعدم تَلَبُّدِها أعونُ علىٰ الكتابة . قال بعض الكُتَّاب : ويتعين علىٰ الكاتب أن يتفقد اللِّيقة ويطيِّبها بأجود ما يكون، فإنها تُرْوِح علىٰ طول الزَّمَن، ولله القائل :

مُتَظَرِّفٌ شَهِدَتْ عليه دواتُهُ * أن الفتىٰ لا كان غيرَ ظَرِيفِ
إن التفقُّدَ للدَّواة فضيلةٌ * موصوفةٌ للكاتب الموصوفِ

وكان بعض الكُتَّاب يطيِّب دواته بأطيبِ ما عنده من طِيبِ نفسه، فسئل عن ذلك، فقال : لأنى أكتبُ به ٱسمَ الله تعالىٰ وٱسمَ رسوله صلى الله عليه وسلم وٱسم أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وربما سبق القلم بغير إرادتنا فنلحَسُه بألسنتنا ونمحوه بأكمامنا .

قال الشيخ علاء الدين السُّرَّمَرِّىّ : ويتعين علىٰ الكاتب تجديد اللِّيقة فى كل شهر، وأنه حين فَرَاغه من الكتابة يُطبِّق المِحْبرة لأجل ما يقع فيها من التراب ونحوه، فيفسد الخط . ونظم ذلك فى أرجوزته فقال :

وَجَدِّدِ اللِّيقَةَ كُلَّ شَهرِ * فَشَيْخُنَا كان بهذا يُغْرِى
لأجل ما يَقَعُ فيها مِنْ قَذىٰ * فَيَنْتَشِى من ذاك فى الخَطِّ أذىٰ

وينبغى له مع ذلك أن يصُونها عن الأشياء القَذِرة كالبُصَاق ونحوه، فقد حكىٰ محمد بن عمر المدائنى أن بعض العلماء رأىٰ صبيًّا يبصُق فى دواته فزجره، وقال لمعلِّمه : ٱمنع الصِّبيان عن مثل هذا، فإنما يكتبون به كلام الله . قال محمد بن عمر

المدائنى : كأنه تحرّج أن يُكتبَ القرءان بمـداد غير نظيف . قال المدائنى : وكان بلغنى عن آبن عباس أنه أجاز أن يبصُـق الرجل فى دواته، فسألت أحمد بن عمرو البزاز عن ذلك فأنكره، وقال : هذا حديث كذب، وضعه عاصم بن سليمان الكودن، وكان كَذّابا ذكرته لأبى داود الطيالسى فقـال : هو كذّاب يجب أن تعرفوا كذبه، صفوا له مسئلة حتّى يحدّثكم بحديثٍ، فقال : فجئت أنا وعمر بن موسىٰ الحـارثىّ فى جماعة، فقال له عمر : ما تقول فى الرجل يبزُق فى الدواة و يستمدّ منها ؟ وكان قد ذهب بصره، فقال : حدّثنا عبد الله بن نافع عن آبن عمر أنه كان يبزق فى الدواة و يستمدّ منها، ثم قال : وحدّثنا هشام بن حسان عن عكرمة عن آبن عباس مثـل ذلك، قال : فهمز بعض أصحابنـا وقال : كان آبن عباس لايبصر، قال : ففهم، فقال : نعم . كان آبن عباس لا يرىٰ بذلك بأسا . .

الصنف الثالث ـ المداد والحبر وماضاهاهما . والنظر فيه من أربعة أوجه

الوجه الأوّل

(فى تسميتهما وآشتقاقهما)

اما المِدَاد فسمّىَ بذلك لأنه يَمُدّ القلم أى يُعينه، وكل شىء مددت به شيئا فهو مداد، قال الأخطل :

رَأتْ[1] بارقاتٍ بالأكُفِّ كأنّها * مصابيحُ سُرجٍ أُوقِدَتْ بمِدَادِ

سمّى الزيت مدادا لأن السّراج يُمَـدُّ به، فكل شىء أمددت به الليقة مما يكتب به فهو مِدَاد، وقال آبن قتيبة فى قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَـاتِ رَبِّى﴾ : هو من المداد لامن الإمداد . ويقال : أمدّ القلم فى الخير مثل ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ﴾ ومدّه فى الشر، مثل ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾. ويقال فيه أيضا نِقْسٌ

(١) فى اللسان رأوا بواو الجماعة .

ونَقْس ، بكسر النون وفتحها مع إسكان القاف ومع السين المهملة فيهما ، والكسر أفصح ، ويجمع على أنْقَاس .

وأما الحِبْر ، فأصله اللون ، يقال فلان ناصع الحِبْر يراد به اللون الخالص الصافى من كل شىء ، قال ٱبن أحمر يذكر ٱمرأة :

تَتِيهُ بفاحِمٍ جَعْـدٍ * وأبيضَ ناصعِ الحِبْرِ

يريد سواد شعرها ، وبياض لونها ، وفى الخبر "يَخْرُجُ من النار رجُلٌ قد ذَهَبَ حِبْرُه وسِبْرُهُ" بكسر الحاء المهملة والسين فيهما . قال ٱبن الأعرابى : حِبْره حسنه ، وسِبْره هيئته ، وقال المبرد : قال التوّزىّ : سألت الفرّاء عن المداد لم سمى حبرا؟ فقال يقال لِلْمُعَلِّم حَبْر وحِبْر يعنى بفتح الحاء وكسرها ، فأرادوا مداد حبر أى مداد عالم ، فحذفوا مِدَاد وجعلوا مكانه حِبْرا . قال : فذكرت ذلك للأصْمعِىّ ، فقال : ليس هذا بشىء إنما هو لتأثيره . يقال : على أسنانه حِبْر إذا كثُرت صُفْرتها حتّى صارت تضرب إلى السواد ، والحبر الأثر يبقى فى الجلد ، وأنشد :

لقد أَشْمَتَتْ بى آلَ فَيْدٍ وغَادَرَتْ * بِجِلْدِى حِبْرًا بِنْتُ مَصَّانَ بَادِيَا

أراد بالحبر الأثرَ ، يعنى أثرَ الكتابة فى القرطاس ، قال المبرد : وأنا أحْسَب أنه سمى بذلك لأن الكتاب يُحَبَّر به أى يُحَسَّن ، أخذا من قولهم حَبَّرْتُ الشئ تحبيرا إذا حَسَّنْتُهُ .

الوجه الثانى

(فى شرف المداد والحبر ، وٱختيار السواد لذلك)

فى الخبر "يُؤْتَى بِمدادِ طالبِ العِلْمِ ودَمِ الشهيد يومَ القيامةِ ، فيُوضَعُ أحدهما فى كِفَّةِ الميزان والآخر فى الكِفَّةِ الأخرى فلا يرجَحُ أحدُهما على الآخرِ" قال بعض الحكماء : صُورة المداد فى الأبصار سوداء ، وفى البصائر بيضاءُ . وقد قيل : كواكبُ

الحِكَم فى ظُلَم المِدَاد . ونظر جعفر بن محمد إلىٰ فتى علىٰ ثيابه أثر المِدَاد ، وهو يستُره منه ، فقال له : ياهذا ! إن المِدَاد من المُرُوءة . وأنشد أبو زيد :

إذا ما المِسْكُ طَيَّبَ ريحَ قَوْمٍ * كَفَتْنِي ذاك رائحـةُ المِـدَادِ

وما شيءٌ بأحْسَنَ من ثِيَابٍ * علىٰ حَافَاتِهَا حُمَمُ السَّـوَادِ

وقال بعض الأدباء : عَطِّروا دفاتر الآداب بسَوَاد الحِبر . وكان فى حِجْرِ إبراهيم ابن العباس قِرْطاس يَمْشُق فيه كلاما فأسقط ، فمسحه بكُمه ، فقيل له لو مسحته بغيره ؟ فقال المـال فرع والقلم أصل ، والأصل أحق بالصون من الفرع . وأنشد فى ذلك :

إنَّمَـا الزَّعْفَرَانُ عِطْرُ العَذَارىٰ * ومِدَادُ الدُّوِيِّ عِطْرُ الرِّجَالِ

وأنشد غيره :

مَنْ كان يُعْجبه أن مَسَّ عَارِضَهُ * مِسْكٌ يُطَيِّبُ منه الريحَ والنَّسَمَا

فإنَّ مِسْكِي مِدَادٌ فوق أُنْمُلَتِي * إذا الأَصَابِعُ يوما مَسَّتِ القَلَمَا

علىٰ أن بعضهم قد أنكر ذلك ، وقال : المداد فى ثوب الكاتب سَخَافه ، ودَنَاءة منه وقلة نَظَافه . قال أبو العالية : تعلمت القرءان والكتابة ، وما شَعَرَ بى أهلى ، وما رؤى فى ثوبى مِدَادٌ قط . وأنشدوا :

دَخِيـلٌ فى الكتابة يَدَّعِيهَا * كدَعْوىٰ آل حَرْبٍ فى زِيَادِ

يُشَـبِّهُ ثوبُهُ للمَحْوِ فيـه * إذا أبصرتَه ثوبَ الحِـدَادِ

فَدَعْ عنك الكِتابَةَ لَسْتَ منها * ولو لَطَّخْتَ وَجْهَكَ بالمِدَادِ

وقال فارس بن حاتم : ببريق الحبر تَهْتَدِى العقولُ لخبَايا الحِكَم : لأنه أبقىٰ علىٰ الدهر ، وأنمىٰ للذِّكْر ، وأزيدُ للأجْر .

وآعلم أن المداد ركن من أركان الكتابة، وعليه مَدار الربع منها وأنشدوا فى ذلك :

رُبْعُ الكتابة فى سَوادِ مِدادِهَا * والرُّبْعُ حُسْنُ صِناعة الكُتَّابِ

والرُّبْعُ من قَلَمٍ تُسَوِّى بَرْيَهُ * وعلى الكَوَاغِدِ رَابِعُ الأَسْبَابِ

قال بعض العلماء رحمهم الله : وإنما آختير فيه السواد دون غيره لمضادّته لون الصحيفة . قال : وليس شىءٌ من الألوان يضادّ صاحبه كمضادّة السواد للبياض .

قال الشاعر :

فالوجْهُ مثلُ الصبح مُبْيَضٌّ * والفَرْعُ مثلُ الليل مُسْوَدٌّ

ضِدَّان لما آستجمعا حَسُنَا * والضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ

ويقال فى المداد : أسودُ قاتِمٌ ، وهو أوّل درجة السواد ، وحالكٌ وحَانِكٌ ، وحُلْكُوكٌ ، وحُلْبُوبٌ ، وداجٍ ، ودَجُوجِىٌّ ، ودَيْجُورٌ ، وأَدْهَمُ ، ومُدْهَامٌّ .

قال المدائنى : حدّثنى بذلك محمد بن نصر عن أحمد بن الضحاك عن أبى عبيدة .

كتب جعفر بن حدار بن محمد إلى دَعْلَج بن محمد يستهديه مِدادا :

يا أخِى للوِدَاد لا لِلمِدَادِ * وصَدِيقِى من بين هذا العِبَادِ

والذى فيه أَلْفُ مَجْدٍ طَرِيفٍ * قد أُمِدَّتْ بِأَلْفِ مَجْدٍ تِلادِ

أنا أشكو إليك حالَ دَوَاتِى * أَصْبَحَتْ تَقْتَضِى قَمِيصَ حِدَادِ

ولله منصور بن إسماعيل حيث يقول :

وسَوْداء مُقْلَتُهَا مِثْلُهَا * وأجفانُها من لُجَيْنٍ صَقِيلْ

إذا أَذْرَفَتْ عَبْرَةً خِلْتَهَا * كَغَالِيَةٍ فوقَ خَدٍّ أَسِيلْ

الوجه الثالث

(فى صنعتهما، وفيه نظران)

النظر الأوّل ــ فى مادّتهما .

وآعلم أن الموادَّ لذلك منها ما يُستعمل بأصله ولا يُحتاج فيه إلىٰ كبيرِ علاج وتدبير كالعَفْص، والزاج، والصمْغ، وما أشبهها . ومنهـا مايحتاج إلىٰ علاج وتدبير، وهو الدُّخَان . قال أبو القاسم خلوف بن شعبة الكاتب : ويُتَوخّى فى الدخان أن يكون من شىء له دهنية، ولا يكون من دخان شىءٍ يابس فى الأصل لأن دخان كل شىء مثله وراجع إليه .

قال أحمد بن يوسف الكاتب : كان يأتينا رجل فى أيام خُمَارويه ببغداد لم أر أنعمَ منه، ولا أشدّ سوادا منه . فسألته من أىّ شىء آستخرجته ؟ فكتم ذلك عنى، ثم تلطفت به بعد ذلك، فقال لى : من دهن بزر الفُجْل والكتَّان، أضع دُهْنَ ذلك فى مَسَارجَ وأَوقِدها، ثم أجعل عليها طاسا حتّى إذا نَفِد الدهن، رفعتُ الطاس، وجمعت ما فيها بمـاء الآس والصمغ العربىّ . وإنمـا جمعه بمـاء الآس ليكون سواده مائلا إلىٰ الخُضْرة، والصمغ يجمعه ويمنعه من التطاير .

قال صاحب الحلية : وإن شئت أخذت من دخان مَقَالى الحِمَّص وشبهه، وتُلقى عليه ماء، وتأخذ مايعلو فوقه وتجمعـه بمـاء الآس، والعسـل والكافور والصمغ العربى والملح، وتمدّه وتقطعه شوابير، والدخَان الأول أجود والله أعلم .

النظر الثانى ــ فى صنعتهما، وفيه مسلكان

المسلك الأوّل

(في صنعة المداد، وبه كانت كتابة الأوّلين من أهل الصنعة وغيرهم)

قال الوزير أبو عليّ بن مُقْلة رحمه الله : وأجود المداد ما اتُّخِذ من سُخَام النِّفْط ، وذلك أن يؤخذ منه ثلاثة أرطال، فيجاد نخله وتصفيته، ثم يلقىٰ في طِنْجير، ويُصَبُّ عليه من الماء ثلاثة أمثاله ، ومن العسل رطل واحد ، ومن الملح خمسة عشر درهما ، ومن الصَّمْغ المسحوق خمسةَ عشر درهما ، ومن العَفْص عشرة دراهم ، ولا يزال يساط علىٰ نار لينة حتّى يثخن جِرْمُه ويصير في هيئة الطين ، ثم يترك في إناء ويرفع إلىٰ وقت الحاجة . وما ذكره فيه إشارة إلىٰ أنه لا ينحصر في سُخَام النِّفْط ، بل يكون من دُخَان غيره أيضا كما تقدّم . نَعَمْ ذكر صاحب الحلية أنه يحتاج مع ذلك إلىٰ الكافور لتطيب رائحته، والصَّبِرِ ليمنع من وقوع الذباب عليه . وقيل : إن الكافور يقوم مقام الملح في غير الطيب . .

المسلك الثاني

(في صنعة الحبر، وهو صنفان)

الصنف الأوّل ــ ما يناسب الكاغَد أي الورق : وهو حبر الدُّخَان ، ونحن نذكر منه صفات إن شاء الله تعالىٰ .

"صفة" يؤخذ من العَفْص الشاميّ قدر رطْلٍ يُدَقُّ جريشا ويُنْقَع في ستة أرطال ماءٍ مع قليل من الآس : (وهو المرسين) أسبوعا، ثم يغلىٰ علىٰ النار حتّى يصير علىٰ النصف أو الثلثين، ثم يصفّى من مئزر ويترك ثلاثة أيام، ثم يصفّى ثانيا، ثم يضاف لكل رطل من هذا الماء أوقية من الصَّمْغ العربيّ، ومن الزاج القُبْرسيّ كذلك، ثم يضاف إليه من الدخان المتقدّم ذكره ما يكفيه من الحلاكة . ولابدّ له مع ذلك من الصَّبِرِ والعسل ليمتنع بالصَّبِرِ وقوعُ الذباب فيه، ويُحفَظ بالعسل علىٰ طول الزمن ؛ ويجعل

من الدخان لكل رِطْل من الحبر (١) بعد أن تَسْحق الدخان بكُلْوة كفك بالسكر النبات والزعفران الشعر والزِّنجار إلىٰ أن تُجيد سَحْقه ، ولا تَصْحنه فى صلاية ولا هاوُن يفسُد عليك .

الصـنف الثانى ـ ما يناسب الرَّقّ ، ويسـمّٰى الحِبَر الرأس ، ولا دُخَان فيه ، ولذلك يجيء بَصَّاصا بَرَّاقا ، وبه إضرار للبصر فى النظر إليه من جهة بَرِيقه ، ويفسِدُ الكاغَدَ علىٰ طول ؛ ونحن نذكر منه .

"صفة حبر" وهى ، يؤخذ من العفص الشامى رِطْل واحد فيُجْرَش ، ويلقىٰ عليه من المـاء العذب ثلاثة أرطال ، ويجعل فى طِنْجِيرٍ ، ويوضع علىٰ النار ويوقَد تحته بنار لَيِّنة حتّٰى ينْضَجَ ، وعلامة نُضْجِهِ أن تكتب به فتكون الكتابة حمراء بَصَّاصَةً ، ثم يلقىٰ عليه من الصَّمْغ العربى ثلاث أواقٍ ، ومن الزاج أوقية ثم يصفّٰى ويودَع فى إناء جديد ، ويستعمل عند الحاجة .

"صفة حبر سَفَرِى" يعمل علىٰ البارد من غير نار ، يؤخذ العفص فيُجْرش جرشا جيِّدا ويسحق لكل أوقيةِ عَفْصٍ درهم واحد من الزاج ، ودرهم من الصمغ العربِى ، ويلقى عليه ويرفع إلىٰ وقت الحاجة . فإذا آحتاج إليـه صُبَّ عليـه من المـاء قدر الكفاية وآستعمله .

الوجه الرابع
(فى لِيَق الآفتتاحات)

وهى ما يكتب به فواتح الكلام : من الأبواب ، والفصول والآبتـداءات ونحوها ، ولا مدخل لشىء من ذلك فى فنى الإنشاء والدِّيوْنة ، إلا الذهب فإنه يكتب به فى الطُّغْراوات فى كتب القَانَات ، وفى الأسماء الجليلة منها ، كما سيأتى فى موضعه من

(١) بياض بالاصل . وفى الضوء ثلث أوقية بعد الخ .

المكاتبات من فنّ الإنشاء إن شاء الله تعالى، وباقى ذلك إنما يحتاج إليه كُتَّاب النَّسْخ إلا أنه لا بأْس بالعلم به فإنه كمال الكاتب .

ونحن نذكر منه ما الغالب آستعمالُه وهو أصناف :

الصنف الأوّل ـ الذهب ، وطريقِ الكتابة به أن يُحَلّ ورقُ الذّهب ، وصفة حله أن يؤخذ ورق الذهب الذى يستعمل فى الطِّلاء ونحوه ، فيجعل مع شراب الليمون الصافى النَّقىّ ، ويقتل فيه فى إناء صِينىّ أو نحوه حتّى يضمحلّ جِرْمُه فيه ، ثم يصب عليه الماء الصافى النقىّ ويغسل من جوانب الإناء حتّى يمتزج الماء والشراب ، ويترك ساعةً حتّى يَرْسُبُ الذهب ، ثم يصفّى الماء عنه ويؤخذ مارَسَبَ فى الإناء ، فيجعل فى مفتلة زجاج ضيقة الأسفل ، ويجعل معه قليل من اللِّيقة ، والنزرُ اليسير من الزعفران بحيث لا يُخْرِجه عن لون الذهب ، وقليلٌ من ماء الصمْغ المحلول ، ويكتب به . فإذا جَفَّ صقل بِمِصْقلة من جَزْعٍ حتّى يأخذ حدّه ، ثم يُزَمَّك بالحبر من جوانب الحرف .

الصنف الثانى ـ اللّازِوَرْدُ ، وأنواعه كثيرة ، وأجودها المعدِنىّ ، وباقى ذلك مصنوع لايناسب الكتابة ، وإنما يستعمل فى الدِّهانات ونحوها ، وطريق الكتابة به أن يذاب بالماء ، ويلقىٰ عليه قليل من ماء الصمْغ العربىّ ، ويجعل فى دواةٍ كدواة الذهب المتقدّم ذكرها ، وكلما رَسَبَ حُرِّك بالقلم ، ولا يكثر به الصمغ كى لايَسْوَدّ ويفسُد .

الصنف الثالث ـ الزُّنْجفُرُ ، وأجوده المغربىّ ، وطريق الكتابة به أن يسحق بالماء حتّى ينعَم ، وإن سحق بماء الرمّان الحامض فهو أحسن ، ثم يضاف عليه ماء الصمغ ، ثم يُلاق بليقة كما يُلاق الحبر ، ويجعل فى دواة ويكتب به .

الصنف الرابع ـ المَغْرة العِراقية ، وهى مما يُكتب به فى نفائس الكتب ،

وربمـا كتب بها عن الملوك فى بعض الأحيان . وطريقه فى الكتابة كما فى الزُّنْجُفْرِ، والله أعلم .

الآلة السادسة ـ المِلْوَاقُ ، بكسر الميم ، وهو ما تلاق به الدّواة أى تحرّك به الليقة . قال بعض الكُتَّاب : وأحسن ما يكون من الآبِنُوسِ لئلا يغيره لونُ المداد . قال : ويكون مستديرا مخروطا، عريض الرأس ثخينه .

الآلة السابعة ـ المِرْمَلَة ، وآسمها القديم المِتْرَبَةُ، جَعْلًا لها آلة للتراب، إذ كان هو الذى يُتَرب به الكتبُ .

وتشتمل علىٰ شيئين :

الأول ـ الظرف الذى يُجعل فيه الرملُ، وهو المسمّىٰ بذلك . ويكون من جنس الدّواة إن كانت الدواة نُحاسًا ، أو من النحاس ونحوه إن كانت خشبا علىٰ حسب ما يختاره رَبُّ الدواة. ومحلها من الدواة ما يلى الكاتب ممـا بين المِحْبرة وباطن الدواة مما يقابل المِنْشاة الآتى ذكرها، ويكون فى فمها شُبَّاك يمنع من وصول الرمل الخشن إلى باطنها . وربمـا آتُّخِـذت مِرْملة أخرىٰ أكبر من ذلك تكون فى باطن الدواة لآحتمال أن تَضيق تلك عن الكفاية لِصغَرها. وأرباب الرياسة من الوزراء والأمراء ونحوهم يتخذون مِرْمَلَة كبيرة تقارب حبةَ الرَّانِج(١)، لهـا عنق فى أعلاها ، تكون فى الغـالب من جنس الدواة من نُحَاسٍ ونحوه؛ وربمـا آتُّخِذت من خشب لقُضاة الحكم ونحوهم .

وممـا ألغز فيها القاضى شهاب الدين ابن بنت الأعز :

ظَرِيفةُ الشَّكْلِ والتِّمثال، قد صُنِعتْ * تَحْكِى العَرُوسَ ولكن لَيْسَ تَغْتَـلِمُ
كأنَّها من ذَوِى الألباب خاشِـعَةٌ * تَبْكِى الدِّماءَ علىٰ ماسَـطَّرَ القَـلَمُ

(١) أى الجوز الهندى .

وتسمَّى المَتْرَبَةَ أيضا، وفى ذلك يقول الوجيه المناوى :

يا مَادِحًا أمرًا ولم يَأْتِهِ * ولم ينَلْ منه ولَا جَرَّبَهْ
لَاتَغْبِطِ الكاتبَ فى حاله، * فإنه المِسْكينُ ذُو المَتْرَبَهْ

الثانى ـ الرمل، وقد آختار الكُتَّابُ لذلك الرملَ الأحمرَ دون غيره، لأنه يكسو الخط الأسود من البهجة مالايكسوه غيره من أصناف الرمل، وخيرُه ما كان دقيقا .

وهو على أنواع :

النوع الأول ـ ما يؤتى به من الجبل الأحمر الملاصِق للجبل المُقَطَّمِ من الجهة الشرقية، وهو أكثر الأنواع وأعمُّها وجودا بالديار المصرية .

النوع الثانى ـ يؤتى به من الْوَاحَاتِ، وهو رمل متحجِّر شديدُ الحمرة، يتَّخذ منه الكُتَّابُ حجارة لِطَافًا تُحَتُّ بالسكين ونحوها على الكتابة، وأكثر ما يستعملها كُتَّابُ الصعيد والفيُّوم وما والاهما .

النوع الثالث ـ يؤتى به من جزيرةٍ ببحر القلزم من نَوَاحى الطُّور، وهو رمل دقيق أصفرُ اللون، قريب من الزعفران، وله بَهْجة على الخط إلا أنه عزيز الوجود .

النوع الرابع ـ رمل بين الحُمْرة والصُّفْرة، به شُذُور بَصَّاصَة يخالُها الناظر شُذُور الذهب، وهو عزيز الوجود جدّا، وبه يُرَمِّل الملوك ومن شابههم .

الآلة الثامنة ـ المِنْشاة، وتشتمل على شيئين أيضا .

الأوّل ـ الظرف، وحاله كحال المِرْمَلَةِ فى الهيئة والمحلِّ من الدواة من جهة الغطاء إلا أنه لاشُبَّاكَ فى فَمِه ليتوصَّل إلى اللصاق، وربما آتخذ بعض ظرفاء الكُتَّاب مِنْشَاةً أخرى، غير التى فى صدر الدّواة من رَصَاصٍ على هيئة حُقٍّ لطيف، ويجعلها

فى باطن الدواة كالمِرْملة المتوسـطة ، فإن اللصاق قد يتغيّر بمكثه فى النُّحاس ، بخلاف الرَّصَاص .

الثانى ـ اللِّصاق، وهو علىٰ نوعين : أحدهما النَّشَا المتخذ من البُرّ ، وطريقه ان يطبخ علىٰ النار كما يطبَخ للقُمَاش، إلا أنه يكون أشدّ منه، ثم يجعل فى المِنْشاة، وهو الذى يستعمله كُتَّابُ الإنشاء ولا يعوّلون علىٰ غيره لسرعة الالصاق به، وموافقة لونه للورق فى نَصَاعة البياض ، والثانى المتخذ من الكَثِيراءِ، وهو أن تُبَلَّ الكَثِيراءُ بالمـاء حتىٰ تصير فى قِوَام اللِّصاق، ثم تجعل فى المِنْشاة . وكثيرا ما يستعمله كُتَّابُ الدِّيْوَنَةِ، وهوسريع التغير إلىٰ الخُضْرة ولا يسرع اللصاق به . و ينبغى أن يستعمل فى اللِّصاق فى الجملة المَـاوَرْدُ والكافور لتطيب رائحتُه .

الالة التاسعة ـ المِنْفَذُ،وهى آلة تشبه المِخْرَز . تتخذ لخرم الورق ، و ينبغى أن يكون محل الحاجة منها متساويا فى الدِّقَّة والغِلَظ ،أعلاه وأسفله سواء، لئلا تختلف أثقاب الورق فى الضـيق والسَّـعَةِ، خلا أن يكون ذُبَابه دقيقا ليكون أسرع وأبلغ فى المقصود، وحكمه فى النِّصاب فى الطول والغِلَظ حُكْمُ المُدْية ، وقد سبق . وأكثر مَنْ يحتاج إلىٰ هـذه الآلة من الكُتَّاب كُتَّابُ الدواوين، وربمـا آحتاج إليها كاتب الإنشاء فى بعض أحواله .

الآلة العاشرة ـ المِلْزَمَةُ،قال الجوهرىّ : الملزم بالكسر خشبتان تشدّ أوساطهما بحديدة تكون مع الصَّياقلة والأَبَّارين، ولم يزد علىٰ ذلك . وهى آلة تتخذ من النُّحَاسِ ونحوه، ذات دَفَّتين يلتقيان علىٰ رأس الدَّرْجِ حال الكتابة ليمنع الدرج من الرجوع علىٰ الكاتب، ويُحْبَس بمِحْبَس علىٰ الدَّفَّتين .

الالة الحادية عَشْرَةَ ـ المِفْرَشَة،وهى آلة تتخذ من خِرَقٍ كَتَّان: بِطانةً وظِهارة، أو من صوف ونحوه، تُفْرَش تحت الأقلام وما فى معناها مما يكون فى بطْن الدواة .

الآلة الثانية عشرة ــ المِمْسَحة، وتسمّى الدفتر أيضا، وهى آلة تتّخذ من خِرَقٍ متراكبة ذات وجهين ملوّنين من صوف أو حرير أو غير ذلك من نفيس القُمَاش، يُمْسح القلم بباطنها عند الفَرَاغ من الكتابة لئلا يجفّ عليه الحبر فيفسد ؛ والغالب فى هذه الآلة أن تكون مدوّرة مخزومة من وسطها . وربما كانت مستطيلة، ويكون مقدارها على قدر سَعَةِ الدواة . وفيها يقول القاضى الفاضل رحمه الله :

مِمْسَحةٌ نَهَارُها * يُجِنُّ ليلَ الظُّلَمِ
كأنها مُذْ خُلِقَتْ * مِنْدِيلُ كُمِّ القَلَمِ

وقال نور الدّين علىّ بن سعيد المغربىّ فيها :

ومِمْسَحةٍ لاحَتْ كأُفْقٍ تَبَدَّدَتْ * به قِطَعُ الظَّلْمَاءِ، والصُّبحُ طالِعُ
ولمَّا أطالَ الليلُ فيها وُرُودَه، * حَكَتْهُ، ومُدَّتْ للصَّباحِ المَطالِعُ

وقال المولى ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر :

ومِمْسَحةٍ تَنَاهى الحُسْنُ فيها * فأضْحَتْ فى المَلاحَةِ لا تُبَارَى
ولا نُكْرٌ على القَلَمِ المُوَافِى * إذا فى وَصْلِهَا خلعَ العِذَارَا

الآلة الثالثة عشرة ــ المِسْقاة، وهى آلة لطيفة تتخذ لصب الماء فى المِحْبَرَة وتسمّى المَاوَرْدِيَّةَ أيضا : لأن الغالب أن يجعل فى المِحْبرة عِوَضَ الماء ماوَرْدٌ لتطيبَ رائحتها، وأيضا فإن المياه المستخرجة كماء الوَرْدِ والخِلَافِ والرَّيْحَانِ ونحو ذلك لاتُحَلُّ الحبر ولا تفسده، بخلاف الماء . وتكون هذه الآلة فى الغالب من الحلزون الذى يخرج من البحر المِلْح، وربما كانت من نُحَاس ونحوه، والمعنى فيها أن لا تخرج المِحبرة من مكانها، ولا يصب من إناء واسع الفم كالكوز ونحوه، فربما زاد الصب على قدر الحاجة .

الآلة الرابعة عشرة ــ المِسْطرة، وهى آلة من خشب مستقيمة الجنبين يسطر عليها مايُحتاج إلىٰ تسطيره من الكتابة ومتعلّقاتها، وأكثر مَنْ يحتاج إليها المُذَهِّبُ .

الآلة الخامسة عشرة ــ المِصْقلة، وهى التى يُصْقَلُ بها الذهب بعد الكتابة، وهى من آلات الدّواة لامحالة .

الآلة السادسة عشرة ــ المُهْرَقُ (بضم الميم وفتح الراء) وهو القِرْطاس الذى يكتب فيه ، ويجمع علىٰ مَهَارِقَ . قلت : وعدّ صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان الآثارىّ منها المِدادَ، وهو ظاهر، والمِخْيَط، وفى عدّه بُعْدٌ .

الآلة السابعة عشرة ــ المِسَنُّ، هو آلة تتخذ لإحداد السكين؛ وهو نوعان: أكْهَبُ اللونْ ، ويسمّى الرومىّ، وأخضرُ؛ وهو علىٰ نوعين : حجازىّ، وقوصىّ؛ والرومىّ أجودها ، والحجازىّ أجوده الأخضرُ .

الطرف الثالث ــ فيما يكتب فيه ، وهو أحد أركان الكتابة الأربعة كما سبقت الإشارة إليه فى بعض الأبيات المتقدّمة؛ وفيه ثلاث جمل .

الجملة الأولى

(فيما نطق به القرءان الكريم من ذلك)

وقد نطق القرءان بثلاثة أجناس من ذلك :

الأول اللّوح . قال تعالىٰ : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ قرأ العامّة بفتح اللام علىٰ أن المراد اللوح واحد الألواح؛ سمى بذلك لأن المعانىَ تلوحُ بالكتابة فيه؛ ثم آختلفوا : فقرأ نافع برفع محفوظ علىٰ أنه نعت للقرءان بتقدير بل هو قرءان مجيد محفوظ فى لوحٍ، وصفه بالحفظ لحفظه عن التغيير والتبديل والتحريف . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّانَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ،وقرأ الباقون بالجرّ علىٰ نعت اللوح .

قال أبو عبيد : وهو الوجه ، لأن الآثار الواردة فى اللوح المحفوظ تصدّق ذلك ، وهو أم القرءان ، منه نُسِخَ القرءان الكريم والكتب المُنَزَّلة ، ومنه تنسَخُ الملائكة أعمالَ الخلق . قال ابن عباس : وهو لَوْحٌ من دُرّة بيضاء ، طوله مابين السماء والأرض ، وعرضه مابين المشرق والمغرب ، وحافتاه الدُّرّ والياقوت ، ودفتاه ياقوتة حمراء ، وأصله فى حِجْرِ مَلَكٍ . وقال أنس : اللوح المحفوظ فى جبهة إسرافيلَ عليه السلام ؛ وقال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العَرْش .

قال ابن عباس : وفى صدر اللوح مكتوب "لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، دينه الإسلام ، ومحمد عبدُه ورسولُه . فمن آمن بالله وصدّق بوعده واتبع رُسُلَه أدخله الجنة" . وسمى محفوظا لأن الله تعالىٰ حَفِظه عن الشياطين ، وقيل : حَفِظه بما ضمنه :

وقيل : اللوح صدر المؤمن .

وقرأ يحيىٰ بن يَعْمَرَ فى لُوحٍ بضم اللام ، وهو الهواء . يقال لما بين السماء والارض اللُّوحُ ، والمعنىٰ أنه شيء يلوح للملائكة فيقرءُونه . وهو ذو نور وعلوّ وشرف . وقد ورد فى القرءان بلفظ الجمع ، قال تعالىٰ : ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يريد ألواح التوراة . قال الكلبيّ : كانت من زَبَرْجَدَةٍ خضراء . وقال سعيد بن جُبَير : من ياقوتة . وقال مجاهد : من زُمُرُّدٍ أخضر . وقال أبو العالية والربيع بن أنس : من بَرَدٍ : وقال الحسن : خَشَبٍ : وقد روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال : " الألواحُ الّتِي أُنْزِلتْ علىٰ موسىٰ من سِدْرِ الجَنّة ، وكان طُولُ كلِّ لوح منها اثنَىْ عشر ذراعا" . وقال وهب بن منبه : من صخرة صَمّاء ألانها الله له فقطعها بيده ، ثم قطعها بأصابعه .

وآختلف فى عددها، فقيل : سبعة، رواه سعيد بن جُبَير عن آبن عباس؛ وقيل لوحان، رواه أبو صالح عن آبن عباس أيضا ، وجُمِعت على عادة العرب فى إيقاع الجمع على التثنية كما فى قوله تعالى : ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ يريد داود وسليمان عليهما السلام وآختاره الفرّاء . وقيل عشرة . قاله آبن منبه ، وقيل تسعة . قاله مقاتل . وقال أنس : نزلت التوراة وهى سبعونَ وِقْر بعير .

الثانى ــ الرق (بفتح الراء) قال تعالى : ﴿وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ قال المبرد : هو ما يرقّق من الجلود ليُكْتب فيه . قال المعافى بن أبى السيار : ومن ثَمَّ آستُبعِد حمله على اللوح المحفوظ ، والمنشور المبسوط ؛ وآختلف فى الكتاب المسطور فيه : فقيل اللوح المحفوظ (١)، وقيل القرءان، وقيل ما كتبه الله تعالى لموسى وهو يسمع صرير الأقلام .

الثالث ــ القرطاس والصحيفة، وهما بمعنى واحد وهو الكاغَدُ .

أما القرطاس، فقال تعالى : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قال آبن أبى السيار : القِرْطاس كاغَدٌ يتخذ من بَرْدِىّ مِصْر، وكل كاغَد قِرْطاس، قال : والجمهور على كسرها، وضمها أبو زيد وعكرمةُ وطلحةُ ويحيى بن يَعْمَر ، والذى حكاه الجوهرىّ عن أبى زيد يخالف ذلك ، فإنه قال فيه قَرْطَسٌ بفتح القاف من غير ألف بعد الراء ؛ والمراد بالكتاب فى الآية الكريمة المكتوبُ لا نفس الصحيفة . قاله المعافى .

وأما الصحيفة ، فإنها لم ترد إلا بلفظ الجمع . قال تعالى : ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ وقال جل وعز : ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ

(١) يظهر أنه وقع هنا تخليط من الناسخ والحاصل على ما يؤخذ من كتب التفسير أنه آختلف فى الرق فقيل الجلد وقيل اللوح المحفوظ . وآختلف أيضا فى الكتاب المسطور فيه فقيل القرءان وقيل ما كتبه الخ . فتنبه .

الأُولىٰ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسىٰ ﴾ وتجمع أيضا علىٰ صحائف ، وسمى المصحف مُصْحَفا لجمعه الصحف . قال الجوهرى : وسمى التصحيف تصحيفا للخطإ فى الصحيفة .

الجملة الثانية

(فيما كانت الأمم السالفة تكتب فيه فى الزمن القديم)

وقد كانت الأمم فى ذلك متفاوتة ، فكان أهل الصِّينِ يكتُبون فى ورق يصنعونه من الحشيش والكلإ ، وعنهم أخذ الناسُ صنعةَ الورق ، وأهل الهند يكتبون فى خِرَق الحرير الأبيض ، والفُرْسُ يكتُبُون فى الجلود المدبوغة من جلود الجواميس والبقر والغنم والوحوش ، وكذلك كانوا يكتبون فى اللِّخاف (بالخاء المعجمة) : وهى حجارة بيض رِقَاق ، وفى النُّحاس والحديد ونحوهما ، وفى عُسُب النخل (بالسين المهملة) : وهى الجريد الذى لا خُوصَ عليه ، واحدها عَسِيب ، وفى عظم أكتاف الإبل والغنَم . وعلىٰ هـذا الأسلوب كانت العربُ لقربهم منهـم . وآستمرّ ذلك إلىٰ أن بُعث النبيّ صلى الله عليه وسـلم ونزل القرءان والعربُ علىٰ ذلك ، فكانوا يكتُبون القرءان حين ينزل ويقرؤه عليهـم النبى صلى الله عليه وسـلم فى اللِّخاف والعُسُب . فعن زيد بن ثابت رضى الله عنه أنه قال عند جمعه القرءان " فجعَلْتُ أَتتبَّعُ القُرْءانَ من العُسُب واللِّخاف " . وفى حديث الزهرىّ " قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرءانُ فى العُسُب " وربمـا كتب النبي صلى الله عليـه وسـلم بعض مكاتباته فى الأَدَم كما سيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ .

وأجمع رأىُ الصحابة رضى الله عنهـم علىٰ كتابة القرءان فى الرَّقّ لطُول بقائه ، أو لأنه الموجود عنـدهم حينئذ . وبقِى الناس علىٰ ذلك إلىٰ أن وَلِىَ الرشيدُ الخلافةَ وقد كَثُر الورق وفشا عمله بين الناس أمر أن لا يكتب النـاس إلا فى الكاغَد :

لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادةَ فتقبل التزوير، بخلاف الورق، فإنه متىٰ مُحِى منه فسد، وإن كُشِط ظهر كَشْطُه . وآنتشرت الكتابة فى الورق إلىٰ سائر الأقطار، وتعاطاها من قَرُب وبعد، وآستمرّ الناس علىٰ ذلك إلىٰ الآن .

الجمـــــلة الثـالثة

(فى بيان أسمـاء الورق الواردة فى اللغة، ومعرفة أجناسه)

الوَرَق (بفتح الراء) آسم جنس يقع علىٰ القليل والكثير، واحده ورقة ، وجمعه أوراق، وجمع الوَرَقة وَرَقات . وبه سمى الرجل الذى يكتب ورّاقا . وقد نطق القرءان الكريم بتسميته قِرْطاسا وصَحِيفة كما مر بيانه . ويسمّى أيضا الكاغَدَ بغين ودال مهملة، ويقال للصحيفة أيضا طِرْس، ويجمع علىٰ طُروس، ومُهْرَقٌ (بضم الميم وإسكان الهـاء وفتح الراء المهملة بعدها قاف) ، ويجمع علىٰ مَهَارِق . وهو فارسىّ معرّب، قاله الجوهرىّ . وأحسن الورق ما كان ناصع البياض غرفا صَقِيلا، متناسب الأطراف، صبورا علىٰ مُرُور الزمان . وأعلىٰ أجنـاس الورق فيما رأيناه البَغدادىّ : وهو ورق ثخين مع ليونة ورِقّةِ حاشية وتناسب أجزاء، وقطعه وافر جدّا، ولا يكتب فيه فى الغالب إلا المصاحف الشريفة . وربمـا آستعمله كُتّاب الإنشاء فى مكاتَبات القانات ونحوها كما سيأتى بيانه فى المكاتبات السلطانية . ودونه فى الرتبة الشامىّ؛ وهو علىٰ نوعين : نوع يعرف بالحَمَوىّ، وهو دون القطع البغدادىّ . ودونه (١) فى القـدر وهو المعروف بالشامىّ ، وقطعه دون القطع الحموىّ، ودونهـما فى الرتبة الورق المصرىّ؛ وهو أيضـا علىٰ قطعين : القطع المنصورىّ، وقطع العادة والمنصورىّ أكبر قطعا . وقلّما يُصْقل وجهاه جميعا . أما العادة فإن فيـه مايصقل وجهاه ويسمّى فى عرف الورّاقين المصلوح . وغيره عندهم علىٰ رتبتين : عال

(١) أى ونوع دونه الخ فتنبه .

ووسط. وفيه صِنْفٌ يعرف بالفوّىّ صغير القطع، خشن غليظ خفيف الغرف، لا يُنْتفع به فى الكتابة يُتَّخذ لِلْحَلْوىٰ والعِطْر ونحو ذلك . وإنما نبهت علىٰ ذلك وإن كان واضحا لأمرين: أحدهما أن لا أُخْلى كتابنا من بيان الورق الذى هو أحد أركان الكتابة؛ الثانى أنه قد ينتقل الكِتَاب إلىٰ إقليم لا يعرف فيه تفاصيل أمر الورق المصرىّ كما لا يَعْرِف المصريُّون ورق غير مصر معرفَتَهُمْ بورق مصر، فيقع الاطلاع علىٰ ذلك لمن أراده . ودون ذلك ورق أهل الغرب والفرنجة فهو ردىء جدّا، سريع البِلَى، قليل المكث، ولذلك يكتبون المصاحف غالبا فى الرَّقّ علىٰ العادة الأولىٰ طلبا لطول البقاء .

وسيأتى الكلام علىٰ مقادير قطع الورق عند أهل التوقيع وأهل الدَّيْوَنَةِ عند ذكر ورق كل فنّ، وما يناسبه من القطع إن شاء الله تعالىٰ .

تم الجزء الثانى، ويتلوه إن شاء الله تعالىٰ الجزء الثالث، وأوّله

(الفصل الثانى من الباب الثانى من المقالة الأولىٰ،

فى الكلام علىٰ نفس الخط)